

العلماء

بين المحن والابتلاءات

عرض للابتلاءات والمحن الكبرى

التي تعرض لها علماء الأمة وكيف تحملوها وصبروا عليها

إعداد

نبيل بن محمد محمود

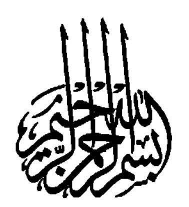
العالمية
ALAMIA

العلماء

بين المحن والابتلاءات

العلماء

بين المحن والابتلاءات



الطبعة الثانية:
١٤٣٢هـ، ٢٠١١م

رقم الإيداع
٢٠٠٨/١٥٥١١م



الدار العالمية للنشر والتوزيع

ص.ب: ٦١٠ ر.ب: ٢١١١١ - ٣١ ش الصالحي - محطة مصر - الإسكندرية
محمول: ٠١٠٦٥٥٢١١٨ ٢+/ ت: ٤٩٧٠٣٧٠ ٢٠٣+/ تلفاكس: ٣٩٠٧٢٠٥ ٢٠٣+
E-mail: alamia_misr@hotmail.com



بين المحن والابتلاءات

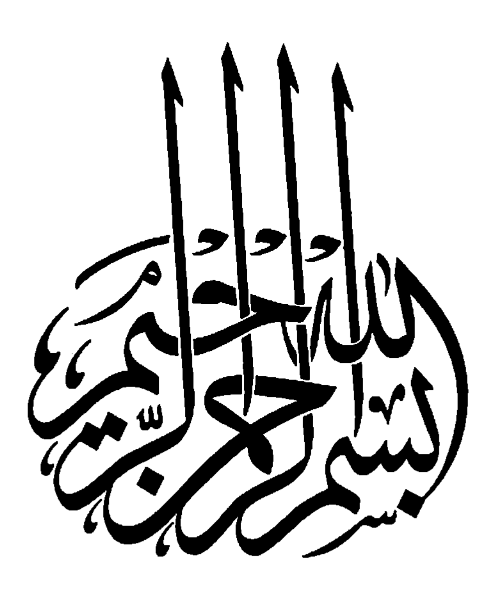
عرض للابتلاءات والمحن الكبرى
التي تعرض لها علماء الأمة وكيف تحملوها وصبروا عليها

بقلم

نبيل بن محمد محمود



الدار العالمية للنشر والتوزيع



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على عبده ورسوله الأمين، وعلى آله وصحبه، ومن سلك طريقه إلى يوم الدين وبعد...

يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿الٓمٓ ① أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ② وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ١-٣].

ويقول أيضا: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ﴾.

[البقرة: ٢١٤]

ويقول -جَلَّ وَعَلا-: ﴿لَتُبۡلَوُنَّ فِيٓ أَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ وَلَتَسۡمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَذٗى كَثِيرٗاۚ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

فمن عزائم الأمور: الصبرُ على الأذى والالتزام بالتقوى، فهذا من الأمور التي تُزهق الباطل وتنصر الحق وأهله والذي يجب أن يعزم عليه المؤمنون، فيقول ﷺ: **«ما يزالُ البلاءُ بالمؤمن في نفسه وولده وماله حتى يَلقى الله وما عليه خطيئةٌ»** [رواه الترمذي]، وقال ﷺ: **«مَا يُصيبُ المؤمنُ من وصبٍ ولا نصبٍ ولا سقمٍ ولا حزنٍ حتى الهمِ يَهمُه إلا كفَّر به من سيئاتِهِ»** [رواه مسلم].

ويقولُ أيضًا ﷺ: **«مَا يُصيب المؤمنُ مِنْ شوكةٍ فَما فوقَها إلا رفعه الله بها درجةً أو حَطَّ عنه بها خطيئةً»** [رواه مسلم].

وقال ﷺ: **«إنَّ عِظَمَ الجزاء مع عِظَمِ البلاء، وإنَّ اللهَ إذا أحبَّ قومًا ابتلاهم، فمن رَضِيَ فله الرِّضى ومَنْ سَخِطَ فله السّخطُ»** [رواه الترمذي].

وقال ﷺ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ أَذًى، شَوْكَةٌ فَمَا فَوْقَهَا إِلَّا كَفَّرَ الله بِهَا سَيِّئَاتِهِ، كَمَا تَحُطُّ الشَّجَرَةُ وَرَقَهَا» [رواه البخاري].

ولله تعالى في خلقه سنن ماضية لا تتبدل. قال تعالى: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾.

[الأحزاب: ٦٢]

فعلى المكلف أن يعرف سنن الله في عباده وأن يستسلم لها، ومن سننه: في عباده أنه يبتليهم في الخير والشر وذلك لحكم عظيمة قد يتعرف بعض العباد عليها وقد تغيب عن بعضهم، لذلك على المسلم أن يعد نفسه ويهيئها لتقبل هذا وأن يُري الله تعالى من نفسه خيرًا.

ومن سنن الله: نصر أوليائه: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١]. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١-١٧٣].

فلابد من فهمٍ لمظاهر الانتصار حتى تشحذ الهمم، فقد يكون النصر بالغلبة المباشرة والقهر للأعداء، وقد يكون النصر بإهلاك المكذبين، وقد يكون النصر بما يتصوره الناس هزيمة، من قتل وسجن وطرد وأذى، وقد يكون النصر بانتصار المنهج وظهوره، كما قال سيد قطب رحمه الله: إن كلماتنا وأقوالنا تظل جثثًا حتى إذا متنا في سبيلها وغذيناها بالدماء، عاشت وانتفضت بين الأحياء. اهـ.

وقد يكون الانتصار بانتصار الداعية على نفسه، بأن يعرف أن رهبة السجن أكبر من حقيقته، وينكشف له الباطل وزيفه. .

ولله در شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله فيقول: «ما يصنع أعدائي بي، أنا جنتي وبستاني في صدري أينما رحتُ فهي معي، إن معي كتاب الله وسنة نبيه، إن قتلوني فقتلي شهادة، وإن نفوني عن بلدي فنفيي سياحة، وإن سجنوني فأنا في خلوة مع ربي، إن

المحبوس من حُبس عن ربه، وإن الأسير من أسره هواه». ولما أغلقوا عليه باب القلعة بدمشق قرأ قول الله تعالى: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣]

«لو يعلمون ما أسدوا إليّ من الجميل بسجنهم إياي في القلعة ما كافأتهم عليها بملء القلعة ذهبًا». . وتفرغ شيخ الإسلام للتفسير وقال: «لو استقبلت من عمري ما استدبرت لجعلت حياتي وقفًا عليه». وأخذوا أقلامه، فكان يكتب بالفحم على جدران السجن، ولما أخذوا منه كل شيء تفرغ لتلاوة القرآن، ومات وهو يتلو قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ﴾ [القمر: ٥٤-٥٥].

وليعلم الداعي أن ثباته على مبدئه انتصار باهر، وأن النصر قد يكون بقوة الحجة وصحة البرهان، وأن الانتصار غير محصور في زمان أو مكان فزمانه الحياة الدنيا ثم الآخرة.

يقول الإمام ابن الجوزي في «صيد الخاطر»:

«سبحان المتصرف في خلقه بالاغتراب والإذلال ليبلو صبرهم، ويظهر جواهرهم في الابتلاء: هذا آدم عليه السلام تسجد له الملائكة، ثم بعد قليل يخرج من الجنة.

وهذا نوح عليه السلام يُضرب حتى يغشى عليه، ثم بعد قليل ينجو في السفينة ويهلك أعداؤه.

وهذا الخليل عليه السلام يُلقى في النار، ثم بعد قليل يخرج إلى السلامة.

وهذا الذبيح إسماعيل عليه السلام يضطجع مستسلمًا ثم يسلم ويبقى المدح.

وهذا يعقوب عليه السلام يذهب بصره بالفراق، ثم يعود بالوصول.

وهذا الكليم عليه السلام يشتغل بالرعي، ثم يرقى إلى التكليم.

وهذا نبينا محمد ﷺ يقال له بالأمس اليتيم، ويقلب في عجائب يلاقيها من الأعداء تارة، ومن مكائد الفقر أخرى وهو أثبت من جبل حراء، ثم لما تم مراده من الفتح، وبلغ العرض من أكبر الملوك وأهل الأرض نزل من ضيق القلة فقال: «واكرباه».

فمن تلمَّح بحر الدنيا، وعلم كيف تتلقى الأمواج، وكيف يصبر على مدافعة الأيام لم يستهول نزول بلاء ولم يفرح بعاجل رخاء»[1]. اهـ.

فاعلم يا طالب العلم أنَّ علوم الإسلام العظيمة لم تُدَوَّن على ضفاف الأنهار، وتحت ظلال الأشجار والأثمار، وإنما دونت باللحم والدم، وظمأ الهواجر، وسهر الليالي على السراج الذي لا يكاد يضيء نفسه، وفي ظل العرى والجوع وبيع الثياب، وانقطاع النفقة في بلد الاغتراب، والرحلة المتواصلة الملاحقة، والمشاق الناصبة المتعانقة، والصبر على أهوال الأسفار، وملاقاة الخطوب والأخطار، والتيه في البيد، والغرق في البحار، ولفقد الكتب العزيزة الغالية والأسفار، وحلول الأمراض والأسقام، مع البعد عن الأهل والزوجة والأولاد والدار، ومع فرقة الأقارب والأحباب والأصحاب وفقد الاستقرار، فما أثر كل ذلك في أمانة علم أهلها، وما نقص من متانة دينهم، وما وهن من قوة شكيمتهم، وما خضعتهم الضائقة الخانقة مع قوتها إلى قبول الذل والهوان.

ولقد قرأت سير العظماء من العلماء مروا في هذه الدنيا، وذهلت لعظيم صبرهم وقوة احتمالهم، كانت المصائب تقع على رؤوسهم كأنها قطرات ماء باردة، وهم في ثبات الجبال، وفي رسوخ الحق، فما هو إلا وقت قصير فتشرق وجوههم على طلائع فجر الفرج، وفرحة الفتح، وعصر النصر، وأحدهم ما اكتفى بالصبر وحده، بل نازل الكوارث، وصاح في وجه المصائب متحديًا:

---

(١) «صيد الخاطر» لابن الجوزي ص[٧٤].

فالمحنة كالمرض لابد لها من زمن حتى تزول، ومن استعجل في زواله أوشك أن يتضاعف ويستفحل، فكذلك المصيبة والمحنة لابد لها من وقت حتى تزول آثارها، وواجب المبتلى الصبر وانتظار الفرج ومداومة الدعاء.

ولقد ضحى سلف الأمة لإقامة هذا الدين في الناس بتضحيات عظيمة وتحملوا من صنوف العذاب والآلام والسجن والتشريد ما لاقوا ليثبتوا على الحق ولتعلوا راية الإسلام عالية خفاقة في وجه الطغيان والظلم والعدوان، فكان صبرهم على كل ما تعرضوا له في سبيل نشر هذا الدين وإعلاء كلمته.

فمن العلماء من قُتل بيد ظالمه، ومنهم من شُنِقَ، ومنهم من سُلِخَ كالشاة، ومنهم من ضرب بالسياط حتى الموت، ومنهم من أثخنتهم جراح التعذيب في السجون، ومنهم من طُردوا وَأُبعدوا عن ديارهم وأهليهم، ومنهم من ذاق الجوع والعطش مرارًا وتكرارًا حتى أشرف على الموت، ومنهم من حُددت إقامته في بيته لا يخرج منه ولا يدخل عليه أحد شهور عديدة وسنوات طويلة بعد أن كان يحضر مجلسه من طلاب العلم بالمئات بل بالآلاف، ومنهم من أُصيب بالأمراض الشديدة التي أقعدته عن الحركة، وغير ذلك من أنواع الابتلاء والمحن، ولكنهم رغم كل هذا صبروا على ما أصابهم فحقق الله على أيديهم من النتائج في وقت قليل ما لم يتحققْ على أيدي غيرهم، وخلد ذكراهم في التاريخ إلى يوم القيامة، فرضي الله عنهم وأرضاهم ووفقنا للاقتداء بهم والسير على دربهم.

سنتعرض في كتابنا هذا سير بعض هؤلاء العلماء وليس كلهم، وإلا احتاج الأمر إلى أجزاء كثيرة نفصل فيها سير العلماء، ولكني اقتصرتُ على العلماء المشهور منهم، وما كُتب عنهم في الكتب والمراجع، وأظهرتُ تفاصيل كثيرة عن حياتهم وابتلاءاتهم، ولم يقتصر الأمر

على جيل معين من العلماء، وإنما فضلتُ المزج بين العلماء قديمًا وحديثًا لتتباين المحن وتظهر للقارئ تشابهها في كل عصر ووقت.

أسأل الله أن ينفعني وإياكم بما في هذا الكتاب من الحق، وأن نسير على درب العلماء وهدي سلفنا الصالح، وأن يجعل هذا العمل خالصًا لوجه الله تعالى، وأن ينفع به الإسلام والمسلمين في كل وقت وفي كل زمان.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين،

والصلاة والسلام على إمام الأنبياء وسيد المرسلين

نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

وكتبه الفقير إلى عفو ربه

نبيل بن محمد محمود

غفر الله له ولوالديه ولزوجته وأولاده

تعريف الابتلاء والفتنة

تعريف البلاء:

قال ابن منظور: بلوت الرجل بلوًا، وابتليته اختبرته، وبلاه يبلوه بلوًا إذا جربه واختبره. . وابتلاه الله: امتحنه. . والبلاء يكون في الخير والشر، يقال: ابتليته بلاءً حسنًا وبلاءً سيئًا، والله تعالى يبلي العبد بلاءً حسنًا ويبليه بلاءً سيئًا. . والجمع بلايا.

تعريف الفتنة:

هي الامتحان والاختبار، تقول: فتنت الذهب إذا أدخلته النار لتنظر ما جودته.

قال ابن القيم: «الابتلاء والامتحان والاختبار. وأصلها مأخوذ من قولك: فتنت الفضة والذهب إذا أذابتها بالنار لتميز الرديء من الجيد». اهـ.

نعم امتحان وابتلاء، فنحن في قاعة امتحان كبيرة تدعى الحياة نُمْتحن فيها كل يوم، فكل ما فيها امتحان وابتلاء: المال امتحان، والزوجة والأولاد امتحان، والغنى والفقر امتحان، والصحة والمرض امتحان، وكلنا ممتحن في كل ما نملك، وفي كل ما يعترينا في هذه الحياة حتى نلقى الله، قال تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةًۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [الأنبياء:٣٥].

وقال جلَّ ذكره: ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [العنكبوت:٢-٣].

فأنت أيها المعافى ممتحن، ولكن هل أحسست أنك في قاعة امتحان حتى ابتُليت، وأنت أيها المريض ممتحن، ولكن هل أحسست أنك في قاعة امتحان حتى شُفيت.

وليس فينا من هو أكبر من أن يُمتحن. وكيف لا وفي الحديث الصحيح: « **أشدُ الناسِ بَلاءً الأنبياءُ، ثم الأمثلُ فالأمثلُ...** » [رواه البخاري]. كما أنه ليس فينا من يملك رفض هذا الامتحان. ولكن فينا من يُمتحن بالبلاء فينجح بالصبر والإيمان والاحتساب، وفينا من يمتحن بالبلاء فيرسب بالجزع والاعتراض على الله (عياذًا بالله).

ورحم الله الفضيل بن عياض حين قال: «الناس ما داموا في عافية مستورون، فإذا نزل بهم بلاءٌ صاروا إلى حقائقهم؛ فصار المؤمن إلى إيمانه، وصار المنافق إلى نفاقه».

قال ﷺ: «**ليودَّن أهلُ العافية يوم القيامة أن جلودهم قُرضت بالمقاريض، مما يَرَوْنَ من ثواب أهل البلاء**» [انظر «صحيح الجامع» رقم ٥٤٨٤].

وقال ﷺ: «**أشد الناس بلاءً الأنبياء، ثم الصالحون؛ وقد كان أحدهم يُبتلى بالفقر، حتى ما يجد إلا العباءة يجوبها (يقطع وسطها ليلبسها) فيلبسها، ويُبتلى بالقمل حتى يقتله، ولأحدهم كان أشد فرحًا بالبلاء من أحدكم بالعطاء**»

[رواه ابن ماجه، انظر «صحيح الجامع» رقم ٢٣١]



الحكم من المحن والابتلاءات

إن البلاء من سنة الله في عباده، وذلك لما فيه من الفوائد العظيمة التي تعود على المكلفين أفرادًا وجماعات فمن هذه الحكم:

١- الشعور بنعم الله على عباده:

لأنه إذا استمر العبد منغمسًا بنعم الله تعالى فمع مضي الزمن ابتلاه الله - مثلًا - بالمرض عرف قيمة الصحة؛ فلا تكاد تشعر بنعمة البصر إلا إذا اشتكيت عينيك، ولا تكاد تشعر بنعمة السمع إلا إذا ابتليت في أذنيك، ولا تكاد تشعر بفضل الله عليك في رجليك إلا إذا كسرت إحدى الرجلين، ولا تكاد تشعر بنعمة الولد إلا إذا مر بك زمن وأنت عقيم لا تنجب، ولاتكاد تعرف قدر نعمة الأسنان إلا إذا اشتكيت ضرسك، ولا تكاد الحسناء التي تختال بشعرها وتفخر، تشعر بنعمة الله عليها في شعرها الحسن إلا إذا بدأ شعرها يتساقط فحينئذ تسارع وتبادر إلى سؤال ربها أن يلطف بها، ويكشف ما حلَّ بها أو كاد أن يحلَّ بها.

ولا يكاد الشخص يستشعر معنى قول الله تعالى: ﴿ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ﴾ [الإنسان: ٢٨]. أي: وشددنا خلقهم، أي وقوينا عضلات التحكم فيها [لايكاد الشخص يشعر بمعنى ذلك إلا إذا ابتلي بتفلت الريح أو سيلان الدم، أو سلس البول] أو الرشح المستمر من الأنف، أو امرأة مستحاضة دمها ينزف ولا ينقطع، أو من أصيب بإسهال مستمر لا ينقطع أو بمن لازمه القيء، فحينئذ يعلم فضل الله على الخلق إذا قال: ﴿وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ﴾

[الإنسان: ٢٨]

وإذا ابتلي بالخوف عرف نعمة الأمن، وإذا ابتلي بالجوع عرف نعمة الشبع، وهكذا وبضدها تتبين الأشياء.

٢- تربية المؤمن:

فالبلاء يصنع المؤمن ويعده إعدادًا سويًا للقيام بأمر الله لذا ربى الله عباده بهذا الأسلوب، ولتنظر كيف ربى الله صحابة رسول الله ﷺ على الابتلاء فتحملوا من الجوع والخوف والأذى ما لا تتحمله الجبال الرواسي، وخرج الصحابة من هذه المحن وهذه الابتلاءات على أحسن ما يكون العبد حالًا في كل مقام، فإذا ذكر الصبر فهم أئمة هذا المقام، وإذا ذكرت الشجاعة فهم فرسان هذا الميدان، وإذا ذكر الكرم فهم أسخى الناس، لذا نالوا ثناء الله ورسوله ﷺ.

٣- تنقية صفوف المسلمين من أدعياء الإيمان:

في الرخاء والأمن وكثرة النعم يختلط الصالح بالمنافق المندس في صفوف المؤمنين، وهذا أخطر ما يكون على جماعة المسلمين، ولكن المحن تظهر معادن وحقائق الرجال، فيظهر الصالح بصلاحه والمنافق بنفاقه وعلى ضوء ذلك يعاملون. وبهذا يكون البلاء قد حقق مصلحة عظيمة لجماعة المسلمين وذلك بتنقية صفوفهم من آفات تنخر في كيانهم. كما قال سبحانه: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ١-٣].

قال الإمام أحمد: كلمتان نفعني الله بهما في المحنة:

الأولى- لرجلٍ حُبس في شرب الخمر، فقال: يا أحمد أثبت فإنك تُجلد في السُّنَّة وأنا جلدت في الخمر مرارًا وقد صبرت.

الثانية- الأعرابي قال للإمام أحمد، والإمام قد أُخذ إلى الحبس وهو مقيد بالسلاسل: يا أحمد اصبر فإنما تُقتل من هنا، وتدخل الجنة من هنا.

٤- كسب أتباع وأنصار للدعوة:

عندما تتوالى الفتن على جماعة المسلمين الداعية إلى الله، وتتحمل هذه الشدائد وتصبر عليها، هذا يدعو كثيرًا من الناس إلى إعادة النظر في هذه الدعوة بتعقل، وذلك أن الناس لا تتحمل المصاعب والشدائد إلا من أجل أمر عظيم، والنظر في الأمور بتعقل وتدبر يهدي كثيرًا من الناس إلى الخير والرشد فيدخلون في دين الله، ويحقق البلاء المصلحة العظمى لجماعة المسلمين وذلك بتكثير سوادهم.

فمن فوائد المصائب عطف الناس وحبهم ودعاؤهم للمصاب، فإن الناس يتضامنون ويتعاطفون مع من أُصيب ومن ابتلي.

٥- تزكية النفس:

ففي الرخاء والانغماس في النعيم قد يغفل المؤمن عن كثير من أمراض النفوس من رياء وكبرٍ وعُجْبٍ وأنانيةٍ. . . الخ، ولكن حِمَامَ الفتنة تنقي المؤمن من هذه الأوراق لأن الفتنة هزة عنيفة لنفس الداعي تُبصِّره بعيوبه فيبدأ بمجاهدة نفسه بالتخلص من الآفات التي كانت عليه.

قال ابن القيم: النفس لا تزكو وتصلح حتى تمحص بالبلاء: كالذهب الذي لا يخلص جيده من رديئه حتى يفتن في كبر الامتحان إذا كانت النفس جاهلة ظالمة.

٦- تكفير الخطايا والسيئات:

الابتلاء محطة نتوقف فيها برهة من الزمن فإذا بأدران الذنوب والمعاصي تتحاتّ منا كما يتحات ورق الشجر؛ إذ المؤمن يُثاب على كل ضربة عرق، وصداع رأس، ووجع ضرس، وعلى الهم والغم والأذى، وعلى النَّصَب والوَصَب يصيبه، بل وحتى الشوكة يشاكها قال ﷺ: «**مَا يَزَالُ البَلَاءُ بالمُؤمِنِ وَالمُؤْمِنَةِ فِي نفسِهِ ووَلَدِهِ وَمَالِهِ حَتَّى يَلْقَى الله تَعَالَى وَمَا عَلَيهِ**

خَطِيئَةٌ» [رواه الترمذي]، وقال ﷺ: «مَا يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ مِنْ وَصَبٍ وَلَا نَصَبٍ وَلَا سَقَمٍ وَلَا حَزَنٍ حَتَّى الْهَمِّ يُهَمُّهُ إِلَّا كُفِّرَ بِهِ مِنْ سَيِّئَاتِهِ» [رواه مسلم] وقال ﷺ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ أَذًى، شَوْكَةٌ فَمَا فَوْقَهَا، إِلاَّ كَفَّرَ اللهُ بِهَا سَيِّئَاتِهِ، كَمَا تَحُطُّ الشَّجَرَةُ وَرَقَهَا» [رواه البخاري]. وقال ﷺ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِ كَمَثَلِ الْخَامَةِ مِنَ الزَّرْعِ مِنْ حَيْثُ أَتَتْهَا الرِّيحُ كَفَأَتْهَا، فَإِذَا اعْتَدَلَتْ تَكَفَّأُ بِالْبَلَاءِ، وَالْفَاجِرُ كَالأَرْزَةِ صَمَّاءَ مُعْتَدِلَةً حَتَّى يَقْصِمَهَا اللهُ إِذَا شَاءَ» [رواه البخاري].

فالأجر ثابت يا عبد الله، على كل ألم نفسي أو حسي يشعر به المؤمن إذا صبر واحتسب. فقد جاء في كتب السنة أن النبي ﷺ دخل على أم السائب رضي الله عنها، فقال لها: «ما لكِ تزفزفين؟» قالت: الحمى لا بارك الله فيها. فقال: «لَا تَسُبِّي الْحُمَّى فَإِنَّهَا تُذْهِبُ خَطَايَا بَنِي آدَمَ كَمَا، يُذْهِبُ الْكِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ» [رواه مسلم].

٧- رفع الدرجات:

إن البلاء يعتري المسلم فيمحو منه - بإذن الله - أدران الذنوب والمعاصي إن كان مذنبًا مخطئًا - وكل ابن آدم خطَّاء كما مرَّ معك - وإن لم يكن كذلك فإن البلاء يرفع درجاته ويبوِّئه أعلى المنازل في الجنة. وقد جاء في الحديث أن الله عَزَّ وَجَلَّ يقول لملائكته إذا قبضوا روح ولد عبده: «قَبَضْتُمْ ثَمَرَةَ فُؤَادِهِ؟ فيقولون: نعم. فيقولُ: ماذا قال عبدي؟ فيقولون: حَمِدَكَ وَاسْتَرْجَعَ. فيقولُ اللهُ: ابنوا لعبدي بيتًا في الجنةِ وَسَمُّوهُ بَيْتَ الْحَمْدِ» [رواه أحمد وحسنه الألباني]. ويقول سبحانه في الحديث القدسي: «مَا لِعَبْدِي الْمُؤْمِنِ عِنْدِي جَزَاءٌ إِذَا قَبَضْتُ صَفِيَّهُ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا ثُمَّ احْتَسَبَهُ إِلَّا الْجَنَّةُ» [رواه البخاري].

يرفع الله المؤمنين بتحملهم وصبرهم على البلاء الدرجات وعلو المقامات ونيل مرتبة الإمامة، ففي الحديث الذي رواه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: أتيت النبي ﷺ في مرضه -وهو يوعك وعكًا شديدًا- وقلت: إنك لتوعك وعكًا شديدًا قال: «أَجَلْ إِنِّي

أُوعَكُ كَمَا يُوعَكُ رَجُلَانِ مِنْكُمْ» قلت: إن ذاك بأن لك أجرين، قال: **«أَجَلْ مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ أَذًى إِلَّا حَاتَّ الله عَنْهُ خَطَايَاهُ كَمَا تَحَاتُّ وَرَقُ الشَّجَرِ»**، وقال ﷺ: **«مَا يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ مِنْ شَوْكَةٍ فَمَا فَوْقَهَا إِلَّا رَفَعَهُ الله بِهَا دَرَجَةً أَوْ حَطَّ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةً»** [رواه مسلم]، وقال ﷺ: **«فَلَيْسَ مِنْ عَبْدٍ يَقَعُ فِي الطَّاعُونِ فيمكثُ في بلدِهِ صَابراً مُحْتَسِباً يَعْلَمُ أَنَّهُ لا يصيبُهُ إلاَّ مَا كَتَبَ اللهُ لَهُ إلاَّ كَانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ الشَّهِيدِ»** [رواه البخاري] وقال ﷺ: **«إِنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ لَيَحْمِي عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ مِنَ الدُّنْيَا وَهُوَ يُحِبُّهُ كَمَا تَحْمُونَ مَرِيضَكُمْ مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ تَخَافُونَهُ عَلَيْهِ»** [رواه أحمد].

إذًا هي درجة تلو درجة ليبلِّغه الله منزلته في الجنة، والتي يكون تبليغه إياها بفضل الله، ثم بفضل صبره على البلاء، والله عَزَّ وَجَلَّ يقول: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]

٨- إسعاد المؤمن:

تدخل الابتلاءات السعادة والسرور إلى قلب المؤمن لعدة اعتبارات منها: علم المؤمن أن الله إذا أحب قومًا ابتلاهم لقوله ﷺ: **«إنَّ عِظَم الجزاءِ مع عِظَم البلاء، وإنَّ الله تعالى إذا أحبَّ قوما ابْتلاهُم، فَمَن رَضيَ فله الرِّضى، ومن سَخِطَ فله السَّخَطُ»** [رواه الترمذي]، ومنها يقينه أن ما يصيبه فيه خير له لقوله ﷺ: **«إِذَا أَرَادَ الله بِعَبْدِهِ الخَيْرَ عَجَّلَ لَهُ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا»** [رواه الترمذي]. وقوله ﷺ: **«مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْراً يُصِبْ مِنْهُ»** [رواه البخاري].

٩- الابتلاء ضرورة للتمكين:

التمكين في الأرض وتطبيق شرع الله عَزَّ وَجَلَّ فيها شرف عظيم لا يُعطَى إلا لمن يستحقه، ولا يحصلُ إلا بعد التمحيص والتنقية، لذلك كان الابتلاء معبرًا للتمكين في الأرض، وتطبيق حكم الله تعالى فيها.

سأل رجلُ الشافعي فقال: يا أبا عبد الله أيها أفضل للرجل أن يمكَّن أو يبتلى؟ قال الشافعي: لا يمكَّن حتى يُبتلى، فإن الله ابتلى نوحًا وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمدًا صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين فلما صبروا مكنهم فلا يظن أحد أن يخلص من الألم البتة.

١٠- التمايز:

قال تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴾ [محمد: ٣١].

يظهر الابتلاء الفروق المميزة بين المؤمنين؛ فالمؤمن القوي ثابت مهما تعرض للابتلاءات، لا يهزه الابتلاء، بل يزيده إيمانًا وثباتًا على الحق، وأصدق الأمثلة على ذلك الصحابي الجليل بلال بن رباح رضي الله عنه فقد ميزه الله تعالى على كثير من المؤمنين بالصبر وقوة الإيمان والتحمل فعندما تعرض أكثر الصحابة للإيذاء من صناديد قريش ظهر تميز بلال رضي الله عنه فلم يتفوه بكلمة تنال من عقيدته رغم تعرضه لأشد العذاب.

١١- إخلاص النفوس لله ومعالجة أمراضها:

فالابتلاء من شأنه أن ينقي النفوس من الشوائب، والقلوب من الرياء، والعمل من الشرك ويوجهها نحو الإخلاص، قال الإمام ابن القيم: وليعلم أهل المصائب أنه لولا محن الدنيا ومصائبها لأصاب العبد من أدواء الكبر والعُجْبِ والفرعنة وقسوة القلب ما هو سبب هلاكه عاجلًا وأجلًا فمن رحمة أرحم الراحمين أن يتفقده في الأحيان بأنواع من أدوية المصائب لتكون حمية له في هذه الأدواء وحفظًا لصحة عبوديته واستفراغًا للمواد الفاسدة والرديئة المهلكة، فسبحان من يرحم ببلائه، ويبتلي بنعمائه، فلولا أنه سبحانه وتعالى يداوي عباده بأدوية المحن والابتلاء لطغوا وبغوا وتجبروا في الأرض وعاثوا فيها بالفساد، فإن من شيم النفوس إذا حصل لها أمر ونهي، وصحة وفراغ، وكلمة نافذة من غير زاجر شرعي يزجرها، تمردت وسعت في الأرض فسادًا مع علمهم بما فُعل بمن قبلهم، فكيف لو حصل

لهم من ذلك إهمال، ولكن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إذا أراد بعبده خيرًا سقاه دواء من الابتلاء والامتحان على قدر حاله، يستفرغ منه الأدواء المهلكة، حتى إذا هذَّبه ونقاه وصفاه أهلَّه لأشرف مراتب الدنيا وهي عبوديته ورقاه أرفع ثواب الآخرة وهي رؤيته.

١٢- المكافأة في الدنيا:

إن من كرم الله على عباده الذين يبتليهم أن يكافئهم في هذه الحياة الدنيا ويعوضهم على ما فقدوه، ومن هذا القبيل ما حدث لأيوب عَلَيْهِالسَّلَامُ فقد أعاد الله له أهله ومثلهم معهم، وكذلك ما حدث لأم سليم زوج أبو طلحة رضي الله عنها حينما صبرت على فقد ولدها، واستقبلت زوجها بالرضا والتسليم عوضها الله بتسعة أبناء كلهم يقرؤون القرآن. .

١٣- سماع الله تضرع عباده إليه:

ومن فوائد البلاء وحكمه: أن يلجأ العبد إلى ربه وينطرح عند بابه، ويسأله الشفاء والعافية بعد أن كان زمنًا طويلًا منقطعًا عن ربه غافلًا عنه فيسمع الله شكواه ويلطف بحاله، ويكشف بلواه ويتوب عليه ويهديه سبل التقرب إليه.

قال ابن القيم: وإنه سبحانه لم يرسل البلاء ليهلكه به ولا ليعذبه به ولا ليجتاحه به، وإنما افتقده به ليمتحن صبره ورضاه عنه وإيمانه، وليسمع تضرعه وابتهاله وليراه طريحًا ببابه لائذًا بجنابه مكسور القلب بين يديه رافعًا قصص الشكوى إليه.

١٤- تعليم الله لعباده عدم الركون إلى الدنيا:

من حكم البلاء وفوائده: أن يترك في النفوس أثرًا بليغًا وهو عدم استقرار دار الدنيا على حال واحد فهي متقلبة بين الحزن والفرح والهم والترح فساعة يسر الإنسان، وساعة يحزن كما قال الشاعر:

وَهَذِهِ الدارُ لا تُبقي عَلى أَحدٍ ... وَلا يَدُوم عَلى حَالٍ لَهَا شَانٌ

فإذا علم العبد ذلك وتيقنه أورث ذلك التأهب للدار الآخرة والاستعداد، لها وشدَّ الحزام لاستقبالها، واستفرغ الوسع في طلب السبيل الصحيح الموصل إليها، وهذا ما يريده الله من عباده عدم الاستقرار في الحياة الدنيا كما قال ابن عمر رضي الله عنهما، أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم وسلم بمنكبي فقال: «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ» [رواه البخاري]، وكان ابن عمر رضي الله عنهما يقول: «إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك» [رواه البخاري].

١٥- ترقيق قلب المؤمن:

ومن ثم الشعور بمصائب الآخرين فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قد قال في كتابه الكريم: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحديد: ١٦].

ففي قوله تعالى: ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ﴾ [الحديد: ١٦]، وجهان لأهل العلم:

أحدهما- طال عليهم الأمد في النعيم والعافية، فلما كان ذلك قست القلوب، فلم ترفع الأيدي بسؤال رفع البلاء ولم ترفع الأيدي تسأل ربها السلامة من المرض، ولم يرق القلب لمصائب الآخرين، فصاحبه لا يعرف المصائب فلا يكاد الشخص يشعر بألم من كسرت رجله إلا إذا ذاق الألم أو شيئًا منه.

أما الوجه الآخر- فهو في البعد عن استماع المواعظ والذكر فنرجع فنقول: إن دوام النعم واستمرار العافية لا يجعل الشخص يفكر، بل قد يتمادى في الغي والطغيان.

أما المبتلى فنراه يئن ويسأل ربه دومًا العافية والشفاء، نرى كثيرًا من المبتلين يبحثون عن أعمال بر يتقربون بها إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لكشف ما بهم من ضر، كما قال تعالى عن أهل الصلاح من أنبيائه عليهم السلام: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

١٦- إظهار المحب من المُبغض:

إذا حلَّت المصيبة وجدت رجالًا من أهل الفضل والصلاح يلتفون من حولك ويريدون بكل سبيل يستطيعونه أن يُنقذوك مما أنت فيه ويجدون لك مخرجًا، وتجد قلوبهم ترق لك رقةً شديدة، بل وأعينهم تدمع، ويتمنون خلاصك مما حلَّ بك عاجلًا غير آجل.

ترى هذا يعرض خدماته، وهذا يبدي استعداداته وهذا يرسل ولده، وهذا يستشفع بصديقه وهذا يُذكر بمن له يدٌ - بعد الله- في كشف الغمة بإذن الله! الكل يسعى، الكل يجد، الكل يجتهد، الكل يدعو الله بكشف الكرب والبلاء.

وفي الوقت ذاته تجد الشامت الذي جاء يعزيك، والفرح والسرور باديان على وجهه، تجد الشانئ البغيض يظهر سروره في المجالس بما حدث لك ويبدي عما حمله قلبه الخبيث، قلب الذئب في جثمان إنس من كراهية وحب شيوع للفاحشة في الذين آمنوا، تجده أصبح كلبًا ينهش في الأعراض ويملأ جوفه بالجيف والنتن بالاغتياب والافتراء والبهتان، وقد كنت ترى الشخص من قبل حنونًا في الظاهر عليك، مشفقًا يلتف حولك وقت العافية والرخاء، ولكن لما لم تعد له معك فائدة طفق يطعن، ويظهر فجوره ويجاهر بشماتته.

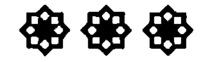
فهكذا دومًا المصائب تُفرز أهل فضل وصلاح تنفعك بعد المصيبة صحبتهم، وتُفرز آخرين يجب بعد ذلك أن تكون منهم على حذر. ﴿ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ﴾ [الأنفال: ٣٧].

١٧- علامة حب ورأفة:

إن المصائب والبلاء امتحانٌ للعبد، وهي علامة حب من الله له؛ إذ هي كالدواء، فإنَّه وإن كان مرًا إلا أنَّك تقدمه على مرارته لمن تحب - ولله المثل الأعلى - ففي الحديث الصحيح: **«إِنَّ عِظَمَ الجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْبَلَاءِ وَإِنَّ الله إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخَطُ»** [رواه الترمذي وصححه الألباني].

يقول ابن القيم: : «إنَّ ابتلاء المؤمن كالدواء له، يستخرج منه الأدواء التي لو بقيت فيه لأهلكته أو نقصت ثوابه وأنزلت درجته، فيستخرج الابتلاء والامتحان منه تلك الأدواء، ويستعد به إلى تمام الأجر وعلو المنزلة ...» إلى آخر ما قال.

ولا شك - أخي الحبيب - أنَّ نزول البلاء خيرٌ للمؤمن من أن يُدَّخر له العقاب في الآخرة. وكيف لا وفيه تُرفع درجاته وتكفر سيئاته. يقول المصطفى ﷺ : «**إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدِهِ الخَيْرَ عَجَّلَ لَهُ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا، وَإِذَا أَرَادَ بِعَبْدِهِ الشَّرَّ أَمْسَكَ عَلَيْهِ بِذَنْبِهِ حَتَّى يُوَافِيَهُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**» [رواه الترمذي وصححه الألباني]. وبيَّن أهل العلم أن الذي يُمسَك عنه هو المنافق، فإن الله يُمسِك عنه في الدنيا ليوافيه بكامل ذنبه يوم القيامة عياذًا بالله.



أقسام الابتلاء

ينقسم الابتلاء إلى قسمين:

القسم الأول- ابتلاء ناتج عن الصراع بين الحق والباطل:

وهو ابتلاء المؤمنين الأخيار أولياء الله على يد الطغاة أولياء الشيطان، وهو أنواع فمنه: القتل، أو التشريد، أو نهب الأموال والممتلكات، أو النيل من الأعراض، أو الاضطهادات النفسية والتضييقات بأنواعها.

القسم الثاني- ابتلاء لا دخل له في الصراع بين الحق والباطل:

وهو الابتلاءات التي تصيب الإنسان في حياته اليومية من أمراض وأسقام، وفقدان الأحباب، وضياع الأموال، وكوارث وغيرها، وهذه الابتلاءات يشترك فيها المؤمن وغير المؤمن.

يقول الإمام ابن القيم في «إغاثة اللهفان»: إن البلاء الذي يصيب العبد في الله لا يخرج عن أربعة أقسام: فإنه إما أن يكون في نفسه أو في ماله أو في عرضه أو في أهله ومن يحب. اهـ

فمن أنواع الابتلاءات التي قد تقع على العبد:

١- **التخويف**: وهو الصورة الأولية للابتلاء والفتنة، والخوف يكون نتيجة لتوقع حدوث مكروه، وقد يكون المكروه نفسه أهون وأيسر على النفس من الترقب والتخوف، وصور التخويف كثيرة فمنها التهديد بالفصل عن العمل، أو بإيذاء بعض الصالحين أو التشديد من النواحي الأمنية أو إلقاء الرعب في القلوب إلى غير ذلك.

٢- **السجن**: وهذا النوع من الابتلاء قد مارسه كثير من أعداء الحق، وقد ابتلي الله به جمعًا غفيرًا من أتباع الرسل، وقد أخبرنا الله سبحانه أن نبيه يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ لبث في السجن

بضع سنين، والتاريخ يحكي لنا خبر كثير من السلف كان لهم حظٌ وافر في هذا الباب، ولكن مما يدل على شدة السجن على النفوس ما نراه من ثبات البعض أمام هذا الابتلاء، ولكن مع طول الوقت يتسلل إلى النفس الحديث بالانهزام، لاسيما إذا شعر الإنسان أن الناس قد نسوه، ومع هذا فلا تزال طائفة من أهل الحق لا يزيدهم الابتلاء والسجن إلا ثباتًا على الحق، وجرأة على الباطل وأهله.

٣- **التعذيب**: ومنها لقي النبي ﷺ وصحابته الكرام بالشيء الكبير، فأما ذوو المكانة فمنعهم الله بقومهم كما منع رسول الله ﷺ بأبي طالب، وأما سائر المؤمنين فقد تفننت قريش في تعذيبهم، وكشرت عن أنياب الغيظ والحقد، وسلطت عليهم من سياط العذاب ما لو سُلط على جبل لتفتت، من ذلك ما ذكره ابن مسعود رضي الله عنه ما جرى للمستضعفين عندما أخذهم المشركون وألبسوهم أدراع الحديد وصهروهم في الشمس المحرقة وكان من هؤلاء المستضعفين ياسر وسمية وعمار وبلال وغيرهم رضوان الله عليهم أجمعين.

وعلى هذا الطريق جُلد التابعي الجليل سعيد بن المسيب والإمام أحمد بن حنبل وشيخ الإسلام ابن تيمية وغيرهم من الدعاة والمصلحين كما سيأتي معنا في قصصهم.

٤- **النفي والتشريد**: وقد لقي النبي ﷺ حظًا وافرًا من النفي والتشريد والطرد؛ يشهد لذلك قصة خروجه إلى الطائف وقصة هجرته إلى المدينة.

أما في أيامنا هذه فمليئة بالنماذج التي فرت بدينها من بلاد الإسلام إلى بلاد غير المسلمين، لا لشيء إلا لتسلط أهل الباطل من بني جلدتنا على عباد الله، حتى أصبح الكفار أكثر عدلًا ولا حول ولا قوة إلا بالله، وكم من مسلم اليوم قد حُرم من دخول بلده المسلم، وكم من مصلح طرد خارج البلاد ليبحث عن مأوى في مكان آخر.

٥- **القتل**: وبهذا النوع وقع الابتلاء لجمع من الأمم السابقة ومن سلف الأمة الصالح؛ فقد قتل من أنبياء الله زكريا، ويحيى، وقتل أصحاب الرس رسولهم، وما أن دخل السحرة في دين هارون وموسى إلا وأعمل فيهم فرعون قتلًا وصلبًا، وفي سبيل الله قتل عمر وعثمان وعلي رضوان الله عليهم أجمعين، ومثلهم شهداء الإسلام منذ فجر الدعوة وحتى زماننا تتكالب على الدعاة والمصلحين والمجاهدين في كل مكان المؤامرات الرهيبة لقتلهم والقضاء عليهم، ومنهم على سبيل المثال لا الحصر الشهيد المجاهد خطاب والشيخ عبد الله عزام وغيرهم الكثير ممن كانت لهم صولة وجولة في الوقوف في وجه أعداء الله ورسوله.

٦- **التضييق في الرزق**: وهو أسلوب خبيث يسلكه أعداء الله لابتلاء المصلحين لما له من أثر بالغ من إعاقة العمل وتشتيت الجهود، وقد تواصى المنافقون في المدينة على نهج هذا الأسلوب الدنيء حتى فضحهم الله في كتابه الكريم بقوله: ﴿ **هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَفۡقَهُونَ** ﴾ [المنافقون: ٧].

وقبلهم قريش لما تعاهدت على الصحيفة الجائرة، وتواصت على حصار المسلمين في الشعب حتى أصابهم من جراء ذلك بلاءٌ عظيم.

٧- **فتنة الأهل والولد**: أما الفتنة هنا فهي أن ينالهم الأذى والتعذيب أو القتل والموت أو هتك العرض أمام مرأى ولي أمرهم مغلوبًا على حاله لا يستطيع تقديم أي شيء لهم، وهذا النوع من الابتلاء له وقع عظيم على النفس وهو ابتلاء عظيم وفتنة كبيرة إذا دفع الإنسان حبه لأهله وأولاده أن يتنازل عن الحق، وفي هذا النوع من الفتنة يقول الأستاذ سيد قطب: هناك فتنة الأهل والأحباء الذين يخشى عليهم أن يصيبهم الأذى وهو لا يملك عنهم دفعًا، وقد يهتفون به ليسالم أو يستسلم وينادون باسم الحب والقرابة واتقاء الله في الرحم التي يعرضها الأذى والهلاك. اهـ.

٨- **الابتلاء بالمال**: المال كثرته ابتلاء، لأن الحرص عليه خوفًا من ذهابه يكون أكثر، ولأن الحق الواجب فيه يكون أيضًا أكثر، وكذلك ذهاب المال بعد حصوله ابتلاء لأنه ذهاب لمحصول جهد وعرق طويل، ويفضي إلى الافتقار بعد الغنى.

٩- **الابتلاء بالسراء**: وهذا النوع من الابتلاء يقع مثل: الإعفاء من القتل، والإفراج من السجن، والتوسيع في الرزق، كل هذه أمور سارة، ولكنها قد تكون في بعض الأحوال نوعًا من أنواع الابتلاء يبتلي بها الله عبده ليرى صدق لجوئه إليه وتمام شكره وثنائه على ربه، وليرى في أي شيء يسخر هذه النعمة، وهل تقوده إلى مزيد من الطاعة والبذل لدين الله أو تكون مدعاة له للركون والقعود.

قد يستطيع الكثيرون تحمل الشدة والصبر عليها، ولكن لا يستطيعون الصبر على هواتف المادة ومغرياتها، وهذا عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه يقول: ابتلينا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالضراء فصبرنا، ثم ابتلينا بالسراء بعده فلم نصبر. [رواه الترمذي].

١٠- **التشويه الإعلامي**: وهو أسلوب سلكه الأقدمون في حربهم مع الأنبياء والصالحين حين عجزوا عن مواجهة الحجة بالحجة، وفي أيامنا هذه تعددت هذه الصور بعد أن زادت المساحة الإعلامية الضخمة ممثلة في الجرائد والإذاعات والتلفاز والمحطات الفضائية المنوعة والإنترنت التي تنشر الباطل، وتسوغ لأعداء الإسلام أن ينالوا من الصالحين فتارة يتهمونهم بالإفساد في الأرض والتخريب، وتارة يتهمونهم بأنهم يسعون للانقضاض على السلطة، وتارة يتهمونهم بالجنون وقلة العقل والدروشة بل واتهامهم بالسحر والكهانة وكثيرًا من الأكاذيب.

فمن أجل تحقيق مآربهم ألصقوا التهم بالمصلحين فيما يتعلق بالجرائم التي تحصل في المجتمع فأول من تتجه الأنظار إليهم وتشير الأصابع نحوهم عند وقوع أي جريمة، بل وفي أحيان كثيرة تفتعل الجرائم وتحاك الخطط والتمثيليات لتتسنى الفرصة لاتهام المصلحين وتشويه سمعتهم عند الأمة.

وعمد الإعلام إلى إطلاق الألقاب المنفرة على الدعاة والإصلاحيين مثل: الإرهاب، التخلف، الرجعية، محاربة العلم والحضارة، الأصولية، التشدد، التزمت. . . وغير ذلك من الألقاب المنفرة والمقززة والعياذ بالله.

١١- **تسلط أهل الباطل وتمكينهم:** يقول الأستاذ سيد قطب: وهناك فتنة إقبال الدنيا على المبطلين، ورؤية الناس لهم ناجحين مرموقين، تهتف لهم الدنيا وتصفق لهم الجماهير، وتتحطم في طريقهم العوائق، وتصاغ لهم الأمجاد، وتصفو لهم الحياة، وهو مهمل لا يحس به أحد، ولا يحامي عنه أحد، ولا يشعر بقيمة الحق الذي معه إلا القليلون من أمثاله لا يملكون من أمر الحياة شيئًا. اهـ.

١٢- **الإغراء:** وهو سبيل يسلكه في كثير من الأحيان أعداء الله ليصطادوا ضعاف النفوس ويصرفوهم عن أهدافهم وطموحاتهم، وكون الإنسان يتعرض للإغراء بالمنصب أو المال أو الجاه أو غيرها بلا شك فتنة شديدة قلما يصمد أمامها الإنسان.

لذلك نجد أن كفار قريش قد سلكوا هذا الأسلوب مع النبي ﷺ ليصرفوه عن دعوته، وعرضوا له المال والملك والزواج لكنه أبى، ومن بعده تعرض الصحابي الجليل كعب بن مالك لمثل هذه الصنيع حين أرسل له ملك غسان يعرض عليه المأوى والنصرة فكان ابتلاء وأي ابتلاء ولكنه أيضًا رفض.

ومن علماء السلف الكثير من عُرض عليه الهدايا والعطايا من الحكام ورفضوها في عزة وشموخ بل ورفضوا الدخول على الأمراء والسلاطين وهذا كان دأب كل العلماء المصلحين كما سيأتي معنا لاحقًا.

١٣- **إعراض الناس وقلة النصير وخذلان أهل الحق:** فكل واحدة من هذه الثلاث هي بذاتها بلاءٌ واختبار، ويزداد البلاء شدة إذا رأى الإنسان كثرة المتساقطين والمتخاذلين حتى إنه ليشك في موقفه أهو على الحق وهؤلاء على الباطل؟!

١٤- الافتراق والاختلاف: ما ابتليت الأمة بشر من اختلاف دعاتها وعلمائها الذي يؤدي إلى الافتراق لأنه ضياع للجهود واستنزاف للطاقات، ومشغلة عن مواجهة العدو الحقيقي، علاوة على ذلك كله مدعاة لسخرية أهل الباطل وتندرهم.

١٥- الميل إلى الدنيا وشغف القلب بالمعاصي: قال ﷺ: «**إنَّ ممَّا أخافُ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِي مَا يُفْتَحُ عَلَيْكُمْ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا**» [متفق عليه]، فالدنيا خطرها عظيم، فكم من أخ لنا مال إليها فأخذته وتنافسها فأهلكته، يقول الأستاذ سيد قطب في معرض حديثه عن قول الله تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت ٢]. وبعد أن ذكر أنواعًا من الفتن مرت بنا سابقًا ثم أعقب: «وهناك الفتنة الكبرى، أكبر من هذا كله وأعنف فتنة النفس والشهوة، وجاذبية الأرض وثقلة اللحم والرغبة في المتاع والسلطان، أو في الدعة والاطمئنان، وصعوبة الاستقامة على صراط الإيمان والاستواء على مرتقاه، مع المعوقات والمثبطات في أعماق النفس، وفي ملابسات الحياة وفي منطق البيئة وفي تصورات أهل الزمان».

١٦- الفتور والخور والكسل: والقعود عن بعض العمل أو كله، والتراجع عن البذل لهذا الدين، وعن إعداد النفس بالعلم والتربية والعمل الصالح، والفتور داء عضال يفتك بالدعاة أيما فتكٍ، وإذا لم يتداركه الإنسان في مهده قضى عليه، فيحتاج الفتور إلى مجاهدة عظيمة للتخلص منه.

١٧- فتن آخر الزمان: وهي بلاء عام ينزل على كل الناس، فمنهم من يثبت، ومنهم من يزل، وقد حذرنا منها ومن خطرها رسول الله ﷺ بقوله: «**بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنْ الدُّنْيَا**» [رواه مسلم].

١٨- فقد الأبناء: كما في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما من مسلمٍ يُتوفى له ثلاثةٌ لم يبلغوا الحنثَ إلا أدخله اللهُ الجنة بفضلِ رحمته**

إياهم» [رواه البخاري] وهذا دليل على أن الابتلاء بفقد الأبناء موجود ومعلوم لذا حث الأمة على التصبر على هذا النوع من البلاء كما في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النساء قلن للنبي صلى الله عليه وسلم: اجعل لنا يومًا من نفسك فقد غلبنا عليك الرجال فواعدهم فلقيهن فوعظهن وأمرهن، فكان فيما قال لهن: **«مَا مِنْ امرأةٍ تُقدِّمُ ثلاثةٌ من ولدِها إلا كانوا لها حجابًا من النار»** قالت امرأة: واثنان، قال: **«واثنان»** [رواه البخاري]، وكما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في الحديث القدسي عن رب العزة: **«مَا لِعَبْدِي المُؤْمِنِ عِنْدِي جَزَاءٌ إِذَا قَبَضْتُ صَفِيَّهُ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا ثُمَّ احْتَسَبَهُ إِلَّا الجَنَّةُ»** [أخرجه البخاري] قال الجوهري: المراد باحتسابه: صبره على فقده راجيًا الأجر من الله تعالى على ذلك وأصل الحسبة طلب الأجر من الله تعالى خالصًا.

١٩ - **الابتلاء بفقد أحد الأعضاء:** كما ثبت من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: **«إن الله عَزَّ وَجَلَّ إذا ابتلي عبدًا بحبيبته فصبر عوضه منهما بالجنة»** [رواه البخاري]. وعن زيد بن أرقم رضي الله عنه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«يا زيد أرأيت لو أن عينيك كانتا لما بهما»**، فقلت: يا رسول الله أصبر وأحتسب، فقال: **«إذا لقيت الله ولا ذنب لك»** [رواه أحمد].

٢٠ - **الابتلاء بجار السوء:** وهذه الصورة موجودة كثيرة وتزداد بضعف الإيمان وقلته فكلما ضعف الوازع الديني عند المرء كلما زاد أذاه لنفسه ولغيره ولوجود مثل هذا الجنس من الناس فقد حثَّ المصطفى صلى الله عليه وسلم على تحمل أذاهم والعفو عنهم والصبر على جيرتهم فقال الله تعالى: ﴿ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١٣٤]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم: إن فلانة تصلي الليل و تصوم النهار و في لسانها شيء يؤذي جيرانها سليطة قال: **«لَا خيرَ فِيها هي في النارِ»**. [رواه الحاكم في «المستدرك» وقال: حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه].

تحمل الابتلاء:

الابتلاء سنة من سنن الله في خلقه، ليس المقصود منه الإيلام والتعذيب، بل هو اختبار للعبد ليعرف حاله، فالمبتلى إما أن يصبر أو يقنط، فإن صبر فقد فاز وظفر، وإن قنط فقد خاب وخسر.

وتحمل الابتلاء والصبر عليه واحتساب الأجر عند الله سبحانه هو المرجو من المبتلى لينال شرف الإسلام، وشرف الاصطفاء، وشرف الأمانة الإلهية. وهو بطاقة الرضى والسعادة في الدنيا والآخرة.

ما يدفع به البلاء:

الدعاء أنجح علاج لدفع البلاء وهو سلاح المؤمن لدفع البلاء، وممن استعمل هذا السلاح الأنبياء ومنهم أيوب ويونس عليهما الصلاة والسلام.

قال تعالى: ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴾.

[الأنبياء: ٨٣-٨٤]

قال تعالى: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٧-٨٨].

قال ابن القيم في كتابه «الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي»: الدعاء من أنفع الأدوية، وهو عدو البلاء يدافعه ويعالجه، ويمنع نزوله ويرفعه أو يخففه إذا نزل، وهو سلاح المؤمن، كما روى الحاكم في «مستدركه» من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«الدُّعَاءُ سِلاَحُ الْمُؤْمِنِ، وَعِمَادُ الدِّينِ، وَنُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ»**

وله مع البلاء ثلاث مقامات:

إحداها- أن يكون أقوى من البلاء فيدفعه.

الثاني- أن يكون أضعف من البلاء فيقوى عليه البلاء، فيصاب بعده العبد ولكن قد يخففه، وإن كان ضعيفًا.

الثالث- أن يتقاوما ويمنع كل واحد منهما صاحبه، وقد روى الحاكم في «مستدركه» من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**لا يُغني حذرٌ عن قدرٍ والدعاء ينفع مما نزلَ ومما لم ينزلْ، وإنَّ البلاءَ لينزل فيلقاه الدعاءُ فيعتلجان إلى يوم القيامة**» [صحيح الجامع] وفيه أيضًا من حديث ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**الدُّعَاءَ يَنْفَعُ مِمَّا نَزَلَ وَمِمَّا لَمْ يَنْزِلْ، فَعَلَيْكُمْ عِبَادَ اللهِ بِالدُّعَاءِ**» [صحيح الجامع].

أسباب عدم الثبات عند وقوع الابتلاءات:

١- **غياب عوامل الثبات** أو الخلل فيها سواء كانت عوامل تربوية أو جبلية أو نفسية.

٢- **الضعف الجبلي**: فالناس معادن وهم متفاوتون في مقدار تحملهم وصبرهم وقوة قلوبهم، وقلة خوفهم وهلعهم، وهو شيء فطرهم الله عليه، ومع ذلك فإن استسلام المرء لهذه الجبلة، وعدم محاولة اكتساب مواهب أخرى يؤدي إلى الضعف وعدم الثبات.

٣- **الجهل بوسائل الأعداء**: ومداخلهم وأساليبهم وألاعيبهم وتلبيساتهم يقود الإنسان إلى أن يرغم على عدم الثبات، فقد يلفقون له التهم ويروجون لها وهو منها بريء، ثم يساومونه عليها إما أن يتنازل عن بعض ما عنده من الحق أو كله ويعفون عنه، أو يفضحونه على رؤوس الملأ ويشوهون صورته.

وقد ينسبون إلى صديق له يثق فيه أو أخ عزيز عليه (قد نزل به البلاء مثله) ينسبون له كلامًا فيه اتهام له هو واعترافات من صديقه وأخيه عليه هو، ثم يطالبونه بالإقرار بتلك الحقائق والاعترافات وهم كاذبون، ويفعلون مع أخيه مثل فعلهم به.

وقد يغرونه بالمال أو المنصب، أو يخوفونه بالفصل من العمل كل هذا كي يتنازل أو ترتخي عزيمته عن الجد والعمل.

إن معرفة وسائل الأعداء وخططهم وكذلك جوانب الشر كله أمرٌ معرفي لتفادي الوقوع في تلك الشرور.

٤- **عدم ضبط اللسان**: وهذا ناتج عن عدم الشعور بمسئولية الكلمة وعواقبها والتهاون في ذلك، فقد يقول الكلمة مازحًا في مجلس فيه أخلاط، أو يقولها ظنًا أو تخرصًا، وقد يقولها على سبيل التورية ثم تحمل محامل أخرى، أو يقول كلامًا في حين ويقول غيره في حين آخر، كل هذه الأمور وأمثالها تجعل الإنسان يؤخذ بجريرة الكلمة ويبتلى ويفتن بسببها.

٥- **الأنانية**: حيث لا يبالي إذا سلم هو ماذا أصاب غيره، وهذا الخُلق غاية في الدناءة والوقاحة، ومن يتصف بهذا الوصف إنما يعيش لنفسه، قال الأستاذ سيد قطب: إن الذي يعيش لنفسه قد يعيش مستريحًا ولكنه يعيش صغيرًا ويموت صغيرًا.

ولاشك أن هذه النفسية وهذه الروح داعية إلى التخاذل والتنازل، وشراء سلامة النفس بأي ثمن وإن كان الثمن الدعوة ورجالها، وهذه الصفة السيئة كذلك قد تؤدي بالإنسان إلى إلقاء التبعات على الغير تخرصًا وطلبًا للنجاة والسلامة.

٦- **ضعف القناعة بالغاية والهدف**: إذ يفرح الداعية عندما يرى الشارع الإسلامي متحمس للإسلام والدعوة ومتوجهون إلى الخير لكنه عند نزول أدنى ابتلاء يكتشف إن ذلك الحماس إنما كان عاطفة فحسب، وكل منهم يؤثر نفسه ولا يقدم أي تضحية وسرعان ما يتراجعون ظنًا منهم أن هذا الهدف لا يستحق كل هذه التضحية وهذا ناتج عن ضعف القناعة بالهدف وإلا لو كان الإنسان قد اقتنع بالهدف وأهميته وحتمية تحقيقه لما توانى لحظة في البذل له، ولما تنازل مهما كان الحال.

٧- **الشعور بأن الثبات والإصرار لا يقدم للدعوة شيئًا**: فمن أجل أي شيء يضحي؟ وهو أيضًا ناتج عن ضعف القناعة بالهدف، وهو في ذات الوقت وهم، كما أنه مصادمة للواقع المشاهد والمحسوس.

على الإنسان أن يسأل نفسه، بأي شعور وبأي عزيمة ونفسية يخرج من فرغ من قراءة سيرة أحد الأعلام الذين نزل بهم البلاء فصبروا وثبتوا على الحق؟ هذا مجرد مثال لأثر القراءة فكيف بالمعاينة؟

إن الدهماء والعامة إذا رأوا من يضحي ويتحمل البلاء في سبيل الله، يقولون عنه لأول وهلة إنه مجنون ومغامر، لكنهم إذا رجعوا إلى عقولهم، وهدأت الأمور ترحموا عليه، ودعوا له ورأوا أنه قد حاز ما لم يحوزوه، ورأوا أن فعله ذلك كله عين العقل والحكمة، وكلهم يتمنى أن لو كان مثله ويتمنى أن يهبه الله مثل تلك الشجاعة في الحق.

٨- **الإصغاء لأراجيف المنافقين**: ذلك السلاح البتار الذي طالما سلَّه المنافقون منذ أيام النبي ﷺ إلى يومنا هذا؛ فهم دومًا يهولون الأمور، ويكبرون الصغير، ويخوفون المسلم من مغبة تمسكه بإسلامه، ويدعون إلى التنازل والمداهنة وينشرون الشائعات ويزيدون فيها، ودورهم هذا بلا شك خطير، وله دور في عدم الثبات عند الفتن؛ قال تعالى: ﴿ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [التوبة: ٤٧].

٩- **استعداد القلب لقبول الفتنة**: إن من ابتلي بقلب كقلوب الطير، لا ينتظر وقوع الفتنة والبلاء كي يستسلم، بل منذ أن تلوح مؤشرات فحسب أو تتردد أخبار لا يدري ما مدى صحتها تجده يرفع رايات الاستسلام ويعزم على التخاذل، ويقرر أن يتنازل وينهزم لأنه قد أشرب قلبه الفتنة فلا يستطيع الوقوف أمامها.

١٠- **استبطاء الفرج**: فيؤدي بالإنسان إلى التراخي رويدًا رويدًا، والملل من الصبر على الابتلاء؛ وهذا ناتج عن الاستعجال في حصول إجابة الدعوة وهو ما حذرنا منه رسول الله ﷺ فقال: «**يُسْتَجَابُ لِأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَعْجَلْ؛ فَيَقُولُ: قَدْ دَعَوْتُ رَبِّي فَلَمْ يَسْتَجِبْ لِي**» [رواه البخاري ومسلم].

فعلى المسلم أن يعلم أن الفرج قد يتأخر، وقد يكون بالموت في سبيل الله، وأن الدعاء قد يؤخر للآخرة، وقد يدفع به عن المرء بلاءً آخر، وقد يخفف البلاء ولا يرفعه.

وعلى المسلم أن يداوم على الصبر، والصبر على الصبر والمصابرة والتصبر، وأن تكون نظرته بعيدة، ويتذكر قول الحق تبارك وتعالى: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

حتمية زوال البلاء:

أن البلاء والضيق والهم والحزن والأسقام والأوجاع وكل ما تكرهه النفس من البلاء والأذى إنما هي أمور عارضة والعارض يستحيل دوامه فلابد للمصيبة أن تنكشف، ولابد للهم أن ينفرج، ولابد للضيق من سعة والآيات في كتاب الله كثيرة واضحة الدلالة على أن بعد العسر يسرًا كما قال تعالى في سورة الانشراح: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥]. فجعل الله تبارك وتعالى اليسر ملازم للعسر وذلك للتنبيه على أمرين:

الأول- قرب تحقيق اليسر بعد العسر حتى كأنه معه، ومتصل به، وفي هذا قال بعض السلف: لو دخل العسر جحرًا لتبعه اليسر.

الثاني- أن مع العسر بالفعل يسرًا، لا ريب فيه قد يكون ظاهرًا ملموسًا، وقد يكون خفيًا مكنونًا وذلك ما نسميه [اللطف] ففي كل قدر لطف، وفي كل نعمة، وفيه يقول ابن عطاء الإسكندري: من ظن انفكاك لطفه عن قدره فذلك لقصور نظره: ﴿إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠].

ويزيد الأمر وضوحًا في حتمية انكشاف البلاء وزواله، جمع الله ليسرين مع عسر واحد في قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ [الشرح: ٥].

وروى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «لا يغلب العسر الواحد يسرين».

قال التنوخي: «يريد أن العسر الأول هو الثاني، وأن اليسر الثاني هو غيره».

وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ [الطلاق: ٧].

قال ابن كثير: «وعدًا منه تعالى ووعده حق لا يخلفه»، كما قال تعالى: في تحقيق النصر وكشف الضر عن المبتلين وتعويضهم الخير والإخلاف: ﴿ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ [الزمر: ٢٠]، قال تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴾ [غافر: ٥٥].

والأمثلة من كتاب الله على تحقيق وعده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لعباده المؤمنين بالنصر والفرج ـ هم رغبوا إليه وأخلصوا طاعتهم ونياتهم له كثيرة جدًا، فمن هؤلاء الذين كشف الله ضرهم يعقوب عليه السلام فإنه لما صبر على ما أصابه من فراق ابنه ولجأ إلى الله و قال تعالى: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ﴾ [يوسف: ٨٣]، تحقق له بعد ذلك وعد الله فعاد له بصره الذي ذهب وابنه الذي فُقِدَ وجمع شمله وبنيه كلهم أجمعون.

ومثله ابنه يوسف عليه السلام بعد كل المصائب والمحن التي مر بها وصبر عليها ـ حتسب الأجر من عند الله أتاه الفرج والنصر كما قال تعالى حكاية عن يوسف: ﴿ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف: ٩٠].

ومثلهم أيوب عليه السلام لما صبر على ما أصابه آتاه الله خيرًا عظيمًا كما قال تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [ص: ٤١-٤٤].

وقبلهم إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لما صبر على ما ابتلاه الله به من ذبح ابنه جاءه الفرج من عند الله قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الصافات: ١٠٤-١١٠].

وهذا نبينا محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقعت له من المحن والمكاره ما تئن بها الجبال، ولكن كل مكروه وقع له صار محبوبًا مرغوبًا، فإن تكذيب قومه له ومحاربتهم إياه كان سببًا في إقامة سوق الجهاد، ومناصرة الله والتضحية في سبيله، فكانت تلك الغزْوات التي نصر الله فيها رسوله فتحًا عليه، واتخذ فيها من المؤمنين شهداء جعلهم من ورثة جنة النعيم، ولولا تلك المجابهة من الكفار لم يحصل هذا الخير الكبير والفوز العظيم، ولما طُرد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من مكة كان ظاهر الأمر مكروهًا، ولكن في باطنه الخير والفلاح والمنة، فإنه بهذه الهجرة أقام صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دولة الإسلام، ووجد أنصارًا وتميز أهل الإيمان من أهل الكفر، وعرف الصادق في إيمانه وهجرته وجهاده من الكاذب، ولما غُلب عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وأصحابه في أحد كان الأمر مكروهًا في ظاهره، شديدًا على النفوس لكن ظهر له من الخير وحسن الاختيار ما يفوق الوصف، فقد ذهب من بعض النفوس العجب بانتصاره يوم بدر، والثقة بالنفس والاعتماد عليها واتخذ الله من المسلمين شهداء أكرمهم بالقتل كحمزة سيد الشهداء، ومصعب سفير الإسلام، وعبد الله بن عمرو والد جابر الذي كلمه الله وغيرهم، وامتاز المنافقون في غزوة أحد بفضح أمرهم وكشف الله أسرارهم وهتك أسرارهم، وقسْ على ذلك أحواله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومقاماته التي ظاهرها المكروه وباطنها الخير له وللمسلمين.

أما عن الإيذاء فما أكثر ما أُوذي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من المشركين واليهود أشد الإيذاء، وتذوق صنوف البلاء، من تكذيب ومجابهة ورد واستهزاء وسخرية وسب وشتم واتهام بالجنون والكهانة والشعر والافتراء، ويُطرد ويُحارب ويُقتل أصحابه ويُنكل بأتباعه، ويُتهم في

زوجته، ويذوق أصناف النكبات، ويهدد بالغارات ويمر بأزمات، ويجوع ويفتقر، ويجرح، وتكسر ثنيته، وتشج رأسه، ويفقد عمه أبا طالب الذي ناصره، وتذهب زوجته خديجة التي واسته، ويحاصر في الشِعب حتى يأكل هو وأصحابه أوراق الشجر، وتموت بناته في حياته، وتسيل روح ابنه إبراهيم بين يديه، ويُغلب في أُحُد، ويُمزق عمه حمزة، ويتعرض لعدة محاولات اغتيال، ويربط الحجر على بطنه من الجوع، ولا يجد أحيانًا خبز الشعير، ولا رديء التمر، ويذوق الغصص ويتجرع كأس المعاناة، ويُزلزل مع أصحابه زلزالًا شديدًا، وتبلغ قلوبهم الحناجر، وتعكس مقاصده أحيانًا، ويبتلى بتيه الجبابرة وصلف المتكبرين وسوء أدب الأعراب، وعُجْب الأغنياء، وحقد اليهود، ومكر المنافقين، وبطء استجابة الناس، ثم تكون العاقبة له، والنصر حليفه، والفوز رفيقه، فيظهر الله دينه، وينصر عبده، ويهزم الأحزاب وحده، ويخذل أعداءه ويكبتهم ويخزيهم، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

ثم ابتلي في آخر الأمر بمسليمة وطليحة والعنسي، ولقي هو وأصحابه في جيش العسرة ما لقوه، ومات ودرعه عند يهودي على صاع من شعير.

يضاعف عليه البلاء ﷺ كما يضاعف له الأجر، أخرج ابن ماجه بإسناد حسن عن أبي سعيد الخدري قال: دخلتُ على النبي ﷺ وهو يوعك، فوضعت يدي عليه فوجدت حره بين يدي فوق اللحاف، فقلت: يا رسول الله، ما أشدها عليك! قال: **«إنا كذلك، يُضعف لنا البلاءُ ويُضعف لنا الأجرُ»** قلت: يا رسول الله! أي الناس أشد بلاء؟ قال: **«الأنبياء»** قلت يا رسول الله! ثم من؟ قال: **«ثم الصالحون إن كانَ أحدُهم ليُبتلى بالفقرِ حتَّى ما يجد أحدُهم إلا العباءةَ يحويها، وإن كان أحدهم ليفرحَ بالبلاءِ كما يفرح أحدُكم بالرخاء»**.

فحقًا لقد تعددت عليه صور البلاء.ولكن أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل.

فقد أخرج الترمذي بإسناد صحيح عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله

أي الناس أشد بلاء؟ قال: «**الْأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ فَيُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ فَإِنْ كَانَ دِينُهُ صُلْبًا اشْتَدَّ بَلَاؤُهُ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ ابْتُلِيَ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ فَمَا يَبْرَحُ الْبَلَاءُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ مَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ**».

ومن الأذى الذي لقيه النبي ﷺ ما أخرجه البخاري من طريق عروة أن عائشة زوج النبي ﷺ أنها قالت للنبي ﷺ: هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أُحُد، قال: «**لقد لقيت من قومك، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل فناداني، فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداني ملك الجبال فسلم علي، ثم قال: يا محمد لك ما شئت إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين؟ فقال النبي ﷺ: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا**». [رواه البخاري برقم ٣٢٣١، ومسلم برقم ١٧٩٥].

وأخرج الإمام أحمد بسند صحيح عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَقَدْ أُوذِيتُ فِي اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَمَا يُؤْذَى أَحَدٌ وَأُخِفْتُ مِنْ اللهِ وَمَا يُخَافُ أَحَدٌ وَلَقَدْ أَتَتْ عَلَيَّ ثَلَاثَةٌ مِنْ بَيْنِ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ وَمَا لِي وَلِعِيَالِي طَعَامٌ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ إِلَّا مَا يُوَارِي إِبِطَ بِلَالٍ**».

وقد ذكر الله تعالى في محكم كتابه، الشدة التي جرت على محمد صلى الله عليه وعلى آله الأخيار، فيما اقتصه من قصة الغار، فقال سبحانه: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة].

ثم أعقبه الله تعالى، من ذلك، بالنصر والتمكين، وإعزاز الدين، وإظهاره على كل دين، وقمع الجاحدين والمشركين، وقتل أولئك الكفرة المارقين والمعاندين، وغيرهم من المكذبين نكاذبين، الذين كانوا عن الحق ناكثين، وبالدين مستهزئين، وللمؤمنين مناصبين متوعدين، وللنبي ﷺ مكاشفين محاربين، وأذل من بقي بعز الإسلام بعد أن عاذ بإظهاره، وأضمر الكفر في إسراره، فصار من المنافقين الملعونين، والحمد لله رب العالمين.

وليس الوعد بانكشاف الهموم وانفراج الضيق خاص بالأنبياء بل هو عام لكل عباد الله المؤمنين، وفي هذا يحكي القرآن على لسان موسى تحقيق هذا الوعد لكل عباد الله المؤمنين: ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف: ١٢٨]، وقال تعالى لنبيه محمد ﷺ وعباده المؤمنين: ﴿ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [هود: ٤٩].

فانكشاف الشدائد بعد الضيق وإتيان النصر بعد مظنة الهزيمة قانون إلهي لا يتغير كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [الصافات: ١٧١ - ١٧٣]، وقال تعالى: ﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ [فاطر: ٤٣]

وليعلم العبد الضعيف المحتاج إلى ربه في كل وقت وفي كل حال أن الذي أوقع البلاء قادر على إزالته وكشفه، وقد ضرب لذلك أمثلة في كتابه ليدلل على أنه مهما بلغت الشدة في المرء فالله قادر على كشفها وإزالتها، ألم تقرأ قال تعالى: ﴿ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِا۟ئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِا۟ئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

فأخبر الله تعالى أن الذي مر على قرية استبعد أن يكشف الله تعالى عنها وعن أهلها البلاء لقوله: ﴿ أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ [البقرة :٢٥٩]، فلا شدة ولا بلاء أشد من الموت والخراب ولا فرج أفرج من الحياة والعمارة فاعلمه عَزَّ وَجَلَّ بما فعله به إنه لا يجب أن يستبعد فرجًا من الله وصنعًا كما عمل به، وإنه يحيي القرية وأهلها كما أحياه فأراه بذلك آياته ومواقع صنعه.

وضرب الله في كتابه الكريم أمثلة لمن أصابهم البلاء ثم كشف الله بليتهم حتى لا ييأس المبتلى من الفرج، ولا المهموم من الفرج، ولا المستضعف من النصر قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ [يونس: ٢٢-٢٣].

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الأنعام: ٦٣]، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [يونس: ١٢].

واستجابة الله لعباده عند سؤالهم وفتح باب الدعاء والمسألة دليل واضح على كشف الكروب وتفريج الهموم فالعبد لا يدعو إلا لطلب نفع أو لدفع ضر وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النمل: ٦٢]، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر: ٦٠]، وقال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة :١٨٦].

ولما كانت قضية انفراج الهم والكرب والبلاء قضية مُسلمة عند سلف هذه الأمة، بل ورأوا ذلك بأعينهم فازداد يقينهم بصدق ما وعد الله به من إتباع العسر يسرًا أدخلوا هذه القضية في أشعارهم ونثرهم ونظموا في ذلك الشعر الكثير تسلية للمصاب وترويحًا لقلبه من

الأتعاب، وتلميحًا بتحقيق الوعد الذي في الكتاب والذي ذكر الله تعالى في كتابه الكريم.

قال منصور بن محمد الكريزي:

تَجري المقاديرَ إنْ عُسرًا أو يُسرًا ... وللمقاديرِ أسبابٌ وأبوابٌ
مَا اشتدَّ عسرٌ ولا انسدت مذاهبُهُ ... إلا تفتحَ مِن مسروره بابٌ

وقال محمد بن عبد الله بن زنجي البغدادي:

أَلا رُبَّ عسر قد أتى اليُسر بعدَه ... وَغمرةً كربٍ فرجتْ لكظيمِ
هَو الدهرُ يومَ، يومَ بؤسٍ وشدةٍ ... وَيومَ سرورٍ للفتى ونعيمِ

وقال أبو حاتم السجيتاني:

إذا اشتملتْ على اليأسِ القلوبُ ... وَفاقَ لِمَا به الصدرُ الرحيبُ
وَأوطأتْ المكارهُ واطمأنتْ ... وأرستْ في أمَاكِنِهَا الخطوبُ
وَلمْ ترَ لانكشافِ الضُرِ وَجهًا ... وَلا أُغنِى بحيلتِه الأريبُ
أَتاك على قنوطٍ منكَ غوثٌ ... بمنْ به اللطيفُ المستجيبُ
وَكلُّ الحادثاتِ إذَا تناهتْ ... فموصولُ بها الفرجُ القريبُ

وقال الإمام الشافعي:

وَلربَّ نازلةٍ يضيقُ بها الفتَى ... ذرعًا وعندَ الله منْها المخرجُ
كَمُلتْ فلما استحكمتْ حلقاتُها ... فُرجِتْ وكنتُ أظنُها لا تُفرجُ

ويقول الشافعي:

لا تظلمنَّ إذا ما كنتَ مُقتدرًا ... فالظلمُ آخرُه يأتيكَ بالندمِ

وَاحذرْ أخي مِنْ المظلوم دعوته ... لا تأخذنَّك سِهَامُ الليل في الظُّلمِ

نامتْ عيونُك والمظلومُ منتبهٌ ... يَدعُو عليك وعينُ اللهِ لَمْ تَنمِ

بعض أقوال العلماء في الصبر على البلاء:

يروى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه حين عاد مصابًا فقال له: إنك إن صبرت جرت المقادير عليك، وأنت مأجور وإن جزعت جرت المقادير عليك وأنت مأزور.

وقال رضي الله عنه : الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : وجدنا خير عيشنا بالصبر.

وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: ما أنعم الله على عبده بنعمة فانتزعها منه فعاضها مكانها الصبر إلا كان ما عوضه خيرًا مما انتزعه منه.

وقال الحسن: الصبر كنز من كنوز الخير لا يعطيه الله إلا لعبد كريم عنده.

وقال بعض السلف: لولا مصائب الدنيا لوردنا يوم القيامة مفاليس.

وقال الحسن البصري: «الخير الذي لا شر فيه، هو الشكر مع العافية، والصبر عند المحنة، فكم من منعم عليه غير شاكر، وكم مبتلى بمحنة وهو غير صابر».

ووصف الحسن بن سهل المحن فقال: «فيها تمحيص من الذنب، وتنبيه من الغفلة، وتعرض للثواب بالصبر، وتذكير بالنعمة، واستدعاء للمثوبة، وفي نظر الله عَزَّ وَجَلَّ وقضائه الخيار».

روى الأصمعي عن أعرابي أنه قال: «خفْ الشر من موضع الخير، وارجُ الخير من موضع الشر، فرب حياة سببها طلب الموت، وموت سببه طلب الحياة، وأكثر ما يأتي الأمن من ناحية الخوف».

قال إسحاق: «احذر الضجر، إذا أصابتك أسنة المحن، وأعراض الفتن، فإن الطريق المؤدي إلى النجاة صعب المسلك».

وقال: «ربما امتحن الله العبد، بمحنة يخلصه بها من الهلكة، فتكون تلك المحنة، أجل نعمة».

وقال: «وسمعت، أن من احتمل المحنة، ورضي بتدبير الله تعالى في النكبة، وصبر على الشدة، كشف له عن منفعتها، حتى يقف على المستور عنه من مصلحتها».

وقال بعض الحكماء: «العاقل يتعزى فيما نزل به من المكروه بأمرين، أحدهما السرور بما بقي له، والآخر رجاء الفرج مما نزل به، والجاهل يجزع في محنته بأمرين، أحدهما استكثار ما أدى إليه، والآخر تخوفه مما هو أشد منه».

ويقول الأستاذ سيد قطب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن الإيمان ليس كلمة تقال، إنما هو حقيقة ذات تكاليف، وأمانة ذات أعباء، وجهاد يحتاج إلى صبر، وجهد يحتاج إلى احتمال، فلا يكفي أن يقول الناس آمنا وهم لا يتركون لهذه الدعوى، حتى يتعرضوا للفتنة فيثبتوا عليها ويخرجوا منها صافية عناصرهم خالصة قلوبهم، كما تفتن النار الذهب لتفصل بينه وبين العناصر الرخيصة العالقة به وكذلك تصنع الفتنة بالقلوب». اهـ.

هذه الفتنة على الإيمان أصل ثابت، وسنة جارية، في ميزان الله سبحانه ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ والله يعلم حقيقة القلوب قبل الابتلاء، ولكن الابتلاء يكشف في عالم الواقع ما هو مكشوف لعلم الله، مغيب عن علم البشر، فيحاسب الناس على ما يقع من علمهم لا على مجرد ما يعلمه سبحانه من أمرهن وهو فضل من الله من جانب، وعدل من جانب، وتربية للناس من جانب، فلا يأخذوا أحدًا إلا بما استعلن من أمره، وبما حققه فعله، فليسوا بأعلم من الله بحقيقة قلبه.

إن الإيمان أمانة الله في الأرض، لا يحملها إلا من هم لها أهل وفيهم على حملها قدرة، وفي قلوبهم تجرد لها وإخلاص، وإلا الذين يؤثرونها على الراحة والدعة، وعلى الأمن والسلامة، وعلى المتاع والإغراء، وإنها لأمانة الخلافة في الأرض، وقيادة الناس إلى طريق الله، وتحقيق كلمته في عالم الحياة، فهي أمانة كريمة، وهي أمانة ثقيلة؛ وهي من أمر الله يضطلع بها الناس، ومن ثم تحتاج إلى طراز خاص يصبر على الابتلاء، فإذا طال الأمد، وأبطأ نصر الله، كانت الفتنة أشد وأقسى، وكان الابتلاء أشد وأعنف، ولم يثبت إلا من عصم الله، وهؤلاء هم الذين يحققون في أنفسهم حقيقة الإيمان، ويؤتمنون على تلك الأمانة الكبرى، أمانة السماء في الأرض، وأمانة الله في ضمير الإنسان.

وما الله - حاشا لله - أن يعذب المؤمنين بالابتلاء، وأن يؤذيهم بالفتنة، ولكنه الإعداد الحقيقي لتحمل الأمانة. فهي في حاجة إلى إعداد خاص لا يتم إلا بالمعاناة العملية للمشاق؛ وإلا بالاستعلاء الحقيقي على الشهوات، وإلا بالصبر الحقيقي على الآلام، وإلا بالثقة الحقيقية في نصر الله أو في ثوابه، على الرغم من طول الفتنة وشدة الابتلاء.

والنفس تصهرها الشدائد فتنفي عنها الخبث، وتستجيش كامن قواها المذخورة فتستيقظ وتتجمع، وتطرقها بعنف وشدة فيشتد عودها ويصلب ويصقل، وكذلك تفعل الشدائد بالجماعات، فلا يبقى صامدًا إلا أصلبها عودًا، وأقواها طبيعة، وأشدها اتصالًا بالله، وثقة فيما عنده من الحسنيين النصر أو الأجر، وهؤلاء هم الذين يسلمون الراية في النهاية مؤتمنين عليها بعد الاستعداد والاختبار.

دروس وذكرى:

في البلاء دروسٌ لا يمكن أن نأخذها من غيره أبدًا وهي من حِكَم البلاء، ومن **أهمها ما يلي:**

الدرس الأول- أنَّ البلاء - أخي المسلم - درسٌ من دروس التوحيد والإيمان والتوكل، يطلعك عمليًا على حقيقة نفسك لتعلم أنك عبد ضعيف لا حول لك ولا قوة إلا بربك، فتتوكل عليه حق التوكل، وتلجأ إليه حق اللجوء، حينما يسقط الجاه والتيه والخيلاء، والعجب والغرور والغفلة، وتفهم أنك مسكين يلوذ بمولاه، وضعيف يلجأ إلى القوي العزيز سبحانه.

الدرس الثاني- أن البلاء يكشف لك حقيقة الدنيا وزيفها وأنها متاع الغرور، وأن الحياة الصحيحة الكاملة وراء هذه الدنيا، في حياة لا مرض فيها ولا تعب: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت ٦٤]. أما هذه الدنيا فنكد وجهد وكبد: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِى كَبَدٍ﴾ [البلد: ٤].

فهذا شأن الدنيا فبينما هي مُقبلة إذا بها مدبرة، وبينما هي ضاحكة إذا بها عابسة. فما أسرع العبوس من ابتسامتها، و ما أسرع القطع من وصلها، وما أسرع البلاء من نعمائها.

فهذه طبيعتها، ولكنك تنسى - أخي الحبيب - فيأتي البلاء فيذكرك بحقيقتها؛ لتستعد للآخرة، ويقول لك:

فَاعمَلْ لِدارٍ غدًا رِضوَانُ خازنُها ... الجَّارُ أحمدُ والرَّحمنُ بَانِيهَا
قُصورُهَا ذَهبٌ والمسكُ تربتُهَا ... وَالزَّعفَرانُ حَشيشٌ نَابتٌ فِيهَا

الدرس الثالث- أنَّ البلاء يذّكرك بفضل نعمة الله عليك بالعافية. فإنَّ هذه المصيبة تشرح لك بأبلغ بيان وأصرح برهان معنى العافية التي كنت تمتعت بها سنين طويلة، ولم تتذوق حلاوتها ولم تقدِّرها حق قدرها. وصدق من قال: «الصحة تاجٌ على رءوس الأصحاء لا يراه إلا المرضى»، ومَن غير المبتلى يعرف أنَّ الدنيا كلمة ليس لها معنىً إلا العافية؟.

الدرس الرابع- أن البلاء يذكِّرنا، فلا نفرح فرحـًا يطغينا، ولا نأسى أسىً يفنينا. فإن الله عز وجل يقول: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ [الحديد: ٢٢-٢٣].

الدرس الخامس- أنَّ البلاء يذكرك بعيوب نفسك لتتوب منها، والله عَزَّ وَجَلَّ يقول: ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ [النساء: ٧٩]، ويقول سبحانه: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴾ [الشورى: ٣٠].

فالبلاء فرصة للتوبة قبل أن يحل العذاب الأكبر، فإنَّ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [السجدة: ٢١]. والعذاب الأدنى هو نكد الدنيا ونغصها.

الدرس السادس- أنَّ البلاء درس تربوي عملي يربينا على الصبر. وما أحوجنا إلى الصبر في كل شيء. فلن نستطيع الثبات على الحق إلاَّ بالصبر على طاعة الله، ولن نستطيع البعد عن الباطل إلاَّ بالصبر عن معصية الله، ولن نستطيع السير في مناحي الحياة إلاَّ بالصبر على أقدار الله المؤلمة. وما أجمل الصبر في ذلك كله، فهو زادنا إلى جنة الخلد والرضوان. قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصلت: ٣٥].

وختامًا لهذه الدروس، أظنُّك - أخي الحبيب - توافقني الرأي بأنَّ هذه الدروس الستة، لا يمكن أن نأخذها من غير بلاء؛ إذ هي من قبل أن نُصَاب بالبلاء لا تعدو أن تكون حبرًا على ورق، أو كلامًا نظريًا يطير به الهوى، فإذا نزل بنا البلاء واجتزناه بنجاح صارت واقعًا عمليًا نعيشه، وهذا من حِكَم البلاء.

لاتحزن:

هذا عنوان كتاب لفضيلة الشيخ الدكتور عائض القرني، وهو من أروع الكتب التي يجب أن تقتنيها أخي القارئ في مكتبتك الخاصة لما كتبه هذا الشيخ العظيم بقلبه قبل لسانه وقبل يده، فقد مر بمحن كثيرة وابتلاءات عظيمة استمرت نحو عشر سنوات متواصلة، وصبر عليها وتحمل الأذى والإيقاف والاتهامات الباطلة حتى جاءه الفرج من عند الله وزالت الشدائد وعاد مرة أخرى إلى قلمه يدون به خطراته ولسانه ينطق بكل حرية فكانت كل كلماته سلوى لكل مبتلى ولكل مصاب في عصرنا هذا أن يتعلم منه كيف يصبر وكيف يواجه الشدائد والمحن بقلب المؤمن.

وأنت تقلب في هذا الكتاب تجد بعض العناوين الجميلة التي تشدك وإني لحريص أن أقتبسُ من هذه الكلمات الرائعة لفضيلة شيخنا وأضعها في هذا الكتاب.

قال فضيلة الشيخ:

لا تحزن لأنك جربت الحزن بالأمس فما نفعك شيئًا، رسب ابنك فحزنت، فهل نجح؟ مات والدك فحزنت فهل عاد حيًا؟ خسرت تجارتك فحزنت فهل عادت الخسائر أرباحًا؟

لا تحزن لأنك حزنت من المصيبة فصارت مصائب، وحزنت من الفقر فازددت نكدًا، وحزنت من كلام أعدائك فأعنتهم عليك، وحزنت من توقع مكروه فما وقع.

لا تحزن فإنه لن ينفعك مع الحزن دارٌ واسعة، ولا زوجة حسناء، ولا مال وفير، ولا منصب سامٍ، ولا أولاد نجباء.

لا تحزن لأن الحزن يريك الماء الزلال علقمًا، والوردة حنظلة، والحديقة صحراء قاحلة، والحياة سجنًا لا يطاق.

لا تحزن وأنت عندك عينان وأذنان وشفتان، ويدان ورجلان، ولسان وجنان، وأمن وأمان، وعافية في الأبدان ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن: ١٣]، لا تحزن ولك دين

تعتقده وبيت تسكنه، وخبزٌ تأكله، وماء تشربه، وثوبٌ تلبسه، وزوجة تأوي إليها، فلماذا تحزن.

لا تحزن إن كنت فقيرًا فغيرك محبوس في دين، وإن كنت لا تملك وسيلة نقل، فسواك مبتور القدمين، وإن كنت تشكو من آلام فالآخرون يرقدون على الأسرة البيضاء، وإن فقدت ولدًا فسواك فقد عددًا من الأولاد في حادث واحد.

لا تحزن لأنك مسلم آمنت بالله وبرسله وملائكته واليوم الآخر وبالقضاء خيره وشره، وأولئك كفروا بالرب وكذبوا الرسل واختلفوا في الكتاب، وجحدوا اليوم الآخر، وألحدوا في القضاء والقدر.

لا تحزن إن أذنبت فتبْ، وإن أسأت فاستغفرْ، وإن أخطأت فأصْلحْ، فالرحمة واسعة، والباب مفتوح، والغفران جم، والتوبة مقبولة.

لا تحزن لأنك تُقلق أعصابك، وتهز كيانك وتتعب قلبك، وتُقض مضجعك وتسهر ليلك. قال الشاعر:

وَلربَّ نازلةٍ يضيقُ بها الفتَى ... ذَرعًا وعندَ اللهِ منها المخرجُ

ضَاقتْ فلمَا استحكمتْ حلقاتُها ... فُرجتْ وَكانَ يَظنُهَا لا تُفرجُ

لا تحزن لأن القضاء مفروغٌ منه، والمقدور واقع، والأقلام جفت، والصحف طويت، وكلُّ أمرٍ مستقر، فحزنك لا يقدم في الواقع شيئًا ولا يؤخر، ولا يزيد ولا ينقص.

لا تحزن لأنك بحزنك تريد إيقاف الزمن، وحبس الشمس، وإعادة عقارب الساعة، والمشي إلى الخلف، ورد النهر إلى منبعه.

لا تحزن لأن الحزن كالريح الهوجاء تُفسد الهواء، وتُبعثر الماء، وتُغير السماء، وتكسر الورود اليانعة في الحديقة الغناء.

لا تحزن لأن المحزون كنهر الأحمق ينحدر من البحر ويصبُّ في البحر، وكالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثًا، وكالنافخ في قربة مثقوبة، والكاتب بإصبعه على الماء.

لا تحزن فإن عمرك الحقيقي سعادتك وراحة بالك، فلا تنفق أيامك في الحزن، وتبذر لياليك في الهم، وتوزع ساعاتك على الغموم، ولا تسرف في إضاعة حياتك، فإن الله لا يحب المسرفين.

لا تحزن فإن أموالك التي في خزانتك وقصورك السامقة، وبساتينك الخضراء، مع الحزن والأسى واليأس زيادة في أسفك وهمك وغمك.

لا تحزن فإن عقاقير الأطباء، ودواء الصيادلة، ووَصفة الطبيب لا تسعدك، وقد أسكنت الحزن قلبك، وفرشت له عينك، وبسطت له جوانحك، وألحفته جلدك.

لا تحزن وأنت تملك الدعاء، وتُجيد الانطراح على عتبات الربوبية، وتُحسن المسكنة على أبواب ملك الملوك، ومعك الثلث الأخير من الليل، ولديك ساعة تمريغ الجبين في السجود.

لا تحزن فإن الله خلق لك الأرض وما فيها، وأنبت لك حدائق ذات بهجة، وبساتين فيها من كل زوج بهيج، ونخلًا باسقات له طلع نضيد، ونجومًا لامعات، وخمائل وجداول ولكنك تحزن!!

لا تحزن فأنت تشرب الماء الزلال، وتستنشق الهواء الطلق، وتمشي على قدميك معافى، وتنام ليلك آمنًا.

لا تحزن فإن المرض يزول، والمصاب يحول، والذنب يُغفر، والدين يُقضى، والمحبوس يُفك، والغائب يقدم، والعاصي يتوب، والفقير يغتني.

لا تحزن أما ترى السحاب الأسود كيف ينقشع، والليل البهيم كيف ينجلي، والريح الصرصر كيف تسكن، والعاصفة كيف تهدأ؟ إذًا فشدائدك إلى رخاء، وعيشك إلى هناء، ومستقبلك إلى نعماء.

لا تحزن لهيب الشمس يطفئه وراف الظل، وظمأ الهاجرة يُبرده الماء النمير، وعضة الجوع يُسكنها الخبز الدافئ، ومعاناة السهر يعقبه نوم لذيذ، وآلام المرض يُزيلها العافية، فما عليك إلا الصبر قليلًا والانتظار لحظة.

لا تحزن فقد حار الأطباء، وعجز الحكماء، ووقف العلماء، وتساءل الشعراء، وبارت الحيل أمام نفاذ القدرة، ووقوع القضاء، وحتمية المقدور.

لا تحزن فإن الله يدافع عنك، والملائكة تستغفر لك، والمؤمنون يشركونك في دعائهم كل صلاة، والنبي ﷺ يشفع، والقرآن يعِدُك وعدًا حسنًا، وفوق هذا رحمة أرحم الراحمين.

لا تحزن فإن الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، والسيئة بمثلها إلا أن يعفو ربك ويتجاوز، فكم لله من كرمٍ ما سُمع مثله! ومن جود لا يقاربه جود.

لا تحزن فأنت من رواد التوحيد وحملة الملة وأهل القبلة، وعندك حب الله وحب رسوله ﷺ وتندم إذا أذنبت، وتفرح إذا أحسنت فعندك خير وأنت لا تدري.

لا تحزن فأنت على خير في ضرائك وسرائك، وغناك وفقرك، وشدتك ورخائك، **«عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير!! وليس ذلك إلا للمؤمن إن أصابته سراء فشكر كان خيرًا له، وإن أصابته ضراء فصبر كان خيرًا له»**.

لا تحزن من الشدائد فإن الشدائد تقوي القلب، وتمحو الذنب، وتقصم العُجب، وتنسف الكِبر، وهي ذوبان للغفلة، وإشعال للتذكر، وجلب عطف المخلوقين، ودعاءٌ من الصالحين، وخضوع للجبروت، واستسلام للواحد القهار، وزجر حاضر، ونذير مقدم، وإحياء للذكر، وتضرع بالصبر، واحتساب للغصص، وتهيئة للقدوم على المولى، وإزعاج عن الركون إلى الدنيا والرضا بها والاطمئنان إليها، وما خفي من اللُّطف أعظم، وما ستر من الذنب أكبر وما عفي من الخطأ أجل.

لا تحزن لأن الحزن يضعفك في العبادة، ويعطلك عن الجهاد، ويورثك الإحباط، ويدعوك إلى سوء الظن، ويوقعك في التشاؤم.

لا تحزن فإن الحزن والقلق أساس الأمراض النفسية، ومصدر الآلام العصبية ومادة الانهيار والوسواس والاضطراب.

لا تحزن ومعك القرآن والذكر والدعاء والصلاة والصدقة وفعل المعروف والعمل النافع المثمر.

لا تحزن ولا تستسلم للحزن عن طريق الفراغ والعطالة، صل.. سبح.. اقرأ.. اكتب.. اعمل.. استقبل.. زُر.. تأمل..

لا تحزن لأن الحزن يُزعجك من الماضي، ويخوفك من المستقبل ويُذهب عليك يومك.

لا تحزن لأن الحزن ينقبض له القلب، ويعبس له الوجه، وتنطفئ منه الروح، ويتلاشى معه الأمل.

لا تحزن لأن الحزن يسرُّ العدو، ويغيظ الصديق، ويُشمت بك الحاسد ويغير عليك الحقائق.

لا تحزن لأن الحزن مخاصمة للقضاء، وتبرم بالمحتوم، وخروج على الأنس، ونقمة على النعمة.

لا تحزن لأن الحزن لا يردُّ مفقودًا وذاهبًا، ولا يبعث ميتًا ولا يرد قدرًا، ولا يجلب نفعًا.

لا تحزن فالحزن من الشيطان، والحزن يأس جاثم، وفقر حاضر، وقنوط دائم، وإحباط محقق، وفشل ذريع.

هذا ما اقتبسته من كتاب شيخنا وفي الكتاب الكثير والكثير من المواقف والمواعظ التي تشدك إلى أن تتحمل كل بلية ومصيبة وشدة بقلب مؤمن بالله وبعدله وبقضائه وقدره، فجزى الله شيخنا خير الجزاء على ما قدمه في كتابه ونفع به الأمة.

الصحابي/ أنس بن مالك رضي الله عنه

صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وخادمه ثمان سنوات وله مواقف كثيرة في صحبة النبي صلى الله عليه وسلم ذكرها المؤرخون في كتبهم، وشهدوا له بالفضل وتحققت فيه نبوءة النبي صلى الله عليه وسلم بطول العمر وكثرة الولد فعُدَّ له أكثر من مائة وعشرون ولدًا من صلبه ومات له أكثر من مائة من الولد كذلك.

قال ابن أبي الدنيا: عن جعفر بن سليمان عن ثابت قال: كنت مع أنس فجاءت قهرمانة فقالت: يا أبا حمزة عطشت أرضنا، قال: فقام أنس فتوضأ وخرج إلى البرية فصلى ركعتين ثم دعا فرأيت السحاب يلتئم ثم أمطرت حتى خيل إلينا أنها ملأت كل شيء، فلما سكن المطر بعث أنس بعض أهله فقال: أنظر أين بلغت السماء، فنظر فلم تعد أرضه إلا يسيرًا.اهـ

وكان لهذا الصحابي الجليل محنة مع الحجاج بن يوسف الثقفي والي العراق الطاغية المعروف ببطشه على الناس وعلى العلماء، ولم يترك أحدًا في العراق إلا ونال من بطشه ولم يسلم منه إلا القليل.

ذكر ابن كثير في كتابه «البداية والنهاية» عن علي بن يزيد قال:

كنت في القصر مع الحجاج وهو يعرض للناس ليالي ابن الأشعث، فجاء أنس بن مالك فقال الحجاج: هي يا خبيث، جوال في الفتن، مرة مع علي، ومرة مع ابن الزبير، ومرة مع ابن الأشعث، أما والذي نفس الحجاج بيده لأستأصلنك كما تستأصل الصمغة، ولأجردنك كما تجرد الضب.

وفي رواية أخرى قال الحجاج: إيه إيه يا أنس، يوم لك مع علي، ويوم لك مع ابن الزبير، ويوم لك مع ابن الأشعث، والله لأستأصلنك كما تستأصل الشاة، ولأدمغنك كما تدمغ الصمغة.

قال أنس: إياي يعني الأمير أصلحه الله؟

قال: إياك أعني أصم الله سمعك.

فاسترجع أنس وقال: لا حول ولا قوة إلا بالله، وشُغل الحجاج فخرج أنس فتبعناه إلى ـرحبة فقال: لولا أني ذكرت ولدي - وفي رواية لولا أني ذكرت أولاد صغار- وخفته عليهم ـ بليت أي قتل أقتل، ولكلمته في مقامي هذا لا يستخففني بعده أبدًا.

كتب أنس إلى عبد الملك بن مروان يخبره بما قال له الحجاج وقال له:

بسم الله الرحمن الرحيم إلى عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين من أنس بن مالك، أما ـعد: فإن الحجاج قال لي هجرًا، وأسمعني نكرًا، ولم أكن لذلك أهلًا، فخذلي على يديه، فإني ـمتُّ بخدمتي رسول الله ﷺ وصحبتي إياه، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

فلما قرأ عبد الملك كتاب أنس استشاط غضبًا، وصفق عجبًا، وتعاظم ذلك من الحجاج ـعث إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر -وكان مصادقًا للحجاج- فقال له: دونك كتابي ـمين فخذهما وأركب البريد إلى العراق، وابدأ بأنس بن مالك صاحب رسول الله ﷺ فارفع كتابي إليه وأبلغه مني السلام وقل له: يا أبا حمزة قد كتبت إلى الحجاج ـعون كتابًا إذا قرأه كان أطوع لك من أمتك.

وكان كتاب عبد الملك إلى أنس بن مالك:

بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الملك بن مروان إلى أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ أما بعد فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت من شكايتك الحجاج، وما سلطته عليك ولا أمرته بالإساءة إليك، فإن عاد لمثلها اكتب إليَّ بذلك أنزل به عقوبتي، وتحسن لك معونتي والسلام.

فلما قرأ أنس كتاب أمير المؤمنين وأخبر برسالته قال: جزى الله أمير المؤمنين عني خيرًا، وعافاه وكافأه بالجنة، فهذا كان ظني به والرجاء منه.

فقال إسماعيل بن عبد الله لأنس: يا أبا حمزة إن الحجاج عامل أمير المؤمنين وليس بك عنه غنى، ولا بأهل بيتك، ولو جعل لك في جامعة ثم دفع إليك بقدر إن يضر وينفع، فقاربه وداره تعش معه بخير وسلام.

فقال أنس: أفعل إن شاء الله.

ثم خرج إسماعيل من عند أنس فدخل على الحجاج فقال الحجاج: مرحبًا برجل أحبه وكنت أحب لقاه.

فقال إسماعيل: أنا والله كنت أحب لقاءك في غير ما أتيتك به.

فتغير لون الحجاج وخاف وقال: ما أتيتني به؟

قال: فارقت أمير المؤمنين وهو أشد الناس غضبًا عليك، ومنك بعدًا.

قال: فاستوي الحجاج جالسًا مرعوبًا، فرمى إليه إسماعيل بالخطاب فجعل الحجاج ينظر فيه مرة ويعرق، وينظر إلى إسماعيل أخرى، فلما فضه قال: قم بنا إلى أبي حمزة نعتذر إليه ونترضاه.

فقال له إسماعيل: لا تعجل.

فقال: كيف لا أعجل وقد أتيتني بآبدة؟

وكان في خطاب عبد الملك للحجاج:

بسم الله الرحمن الرحيم، من أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان إلى الحجاج بن يوسف، أما بعد فإنك عبد طمثت بك الأمور، فسموت فيها وعجوت طورك، وجاوزت قدرك، وركبت داهية إدًا، وأردت أن تبدو لي فإن سوغتكها مضيت قدمًا، وإن لم أسوغها رجعت

عبقري، فلعنك الله من عبد أخفش العينين، منفوض الجاعرتين (أي: حرفا الوركين فوق على الفخذين) أنسيت مكاسب آبائك بالطائف، وحفرهم الآبار، ونقلهم الصخور على ظهورهم في المناهل، يا ابن المستفرية بجمع الزبيب، والله لأغمرنك غمر الليث للثعلب، والصقر للأرنب، وثبت على رجل من أصحاب رسول الله ﷺ بين أظهرنا، فلم تقبل له إحسانه، ولم تتجاوز له عن إساءته، جرأة منك على الرب عَزَّ وَجَلَّ، واستخفافًا منك بالعهد. والله لو أن اليهود والنصارى رأت رجلًا خدم عزير بن عزري، وعيسى ابن مريم لعظمته وشرفته وأكرمته وأحبته، بل لو رأوا من خدم حمار العزير أو خدم حواري المسيح لعظموه وأكرموه، فكيف وهذا أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ ثماني سنوات، يطلعه على سره، ويشاوره في أمره، ثم هو مع هذا بقية من بقايا أصحابه، فإذا قرأت كتابي هذا فكن أطوع له من خفه ونعله وترضاه وقبل يده ورجله، وإلا أتاك مني سهم بكل حتف قاض. ﴿ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنعام: ٦٧].

فلما فرغ الحجاج من قراءة الكتاب هَمَّ أن ينهض إلى أنس فأشار عليه إسماعيل بن أبي المهاجر بمجيء أنس إليه فلما جاء قام إليه الحجاج يتلقاه وقال: إنما مثلي ومثلك إياك أعني واسمعي يا جارة، أردت أن لا يبقى لأحد عليَّ منطق.

هكذا تحول الطاغية من أسد مرعب إلى عصفور مسالم مهادن يسمع كلام سيده عبد الملك وينفذه دون أي تردد وسبحان ممن بيده مقاليد الأمور.

المصادر:

- «سير أعلام النبلاء» للذهبي جـ[٤].
- «الطبقات الكبرى» لابن سعد جـ[٥].
- «صور من حياة الصحابة» لعبد الرحمن رأفت الباشا.

الصحابي/ عبد الله بن عمر بن الخطاب

كان الحجاج بن يوسف الثقفي واليًا على العراق، وكان أكثر الولاة عنفًا وقد كان ما كان بين الحجاج وابن الزبير من قضايا كثيرة، فوقف الحجاج على المنبر وقد كان خطيبًا بليغًا، يسوق الحجج الواهية، فيستولى على عقول الناس بتعاليه بالحجة على خصمه ابن الزبير، وما أن سمع ابن عمر يدعي على ابن الزبير ما ليس فيه، وقف يقول للحجاج: أصمت أيها الكاذب لقد كذبت وكذبت وكذبت.

وتردد صوته في أرجاء المسجد علانية وأمام جموع الناس، وفي وجه رجل لا يرحم مخالفيه في الرأي ولم يخش ابن عمر في الحق لومة لائم.

ولم تكن المرة الأولى التي يقف فيها في وجه الحجاج، وإنما يأتي يوم آخر يطيل فيه الحجاج خطبته ويعجب ببلاغته فيمر الوقت دون حساب ويتململ ابن عمر وينظر حوله فلا يجد من يوقف هذا العبث فينادي بأعلى صوته: الصلاة يا رجل الصلاة الصلاة، فلم يجد آذانًا صاغية، فوقف يقول: الصلاة يا رجل، الصلاة في وقتها.

والحجاج لا يلقى بالًا لصيحاته، وانصرف يتدفق في خطبته يهدد ويتوعد كل من خالفه.

فنظر عبد الله بن عمر للمصلين وقال: إن نهضت للصلاة أتنهضون معي؟ فقال الناس: نعم.

فقال: هيا انهضوا فنهض وتبعه الناس، وقال للحجاج: الصلاة الصلاة فإني أرى أنه لا حاجة لكل ما تقوله الآن.

عندئذٍ نهض الناس وأحرج الحجاج ونزل عن المنبر وصلى بالناس، ولكنه لم ينس هذا الموقف لابن عمر وإنما استدعاه وبادره قائلًا: ما الذي حملك على ما صنعت؟

فقال عبد الله: يجيء الناس إلى المسجد للصلاة فإذا حضرت الصلاة، وحان وقتها فصل للناس لوقتها ثم ثرثر بعد ذلك ما شئت من ثرثرة.

عند ذلك صمت الحجاج وقد كتم غيظه لأنه يعلم مكانة ابن عمر في قلوب الناس، ولا يجرؤ على إيذائه أو النيل منه.

وتمضي الأيام والحجاج يضمرها في نفسه فيكتب إلى عبد الله بن عمر قاصدًا الإساءة إليه فكتب يقول: بلغني أنك طلبت الخلافة وإنها لا تصلح لعيي (يقصد أنه ضعيف) ولا بخيل ولا غيور.

فأجابه عبد الله بن عمر بكتابه يقول فيه: أما ما ذكرت من الخلافة فما طلبتها، وما هي في بالي، وأما ما ذكرت من العي فمن جمع كتاب الله فليس بعيي، ومن أدى زكاته فليس ببخيل، وأن أحق فيه ولدي أن يشركني فيه غيري.

هكذا كان رده قاطعًا لا مجاملة فيه ولا خشية من طاغية أيًا كان سلطانه.

❁ ❁ ❁

المصادر:
- «سير أعلام النبلاء» للذهبي.
- «الطبقات الكبرى» لابن سعد.
- «صور من حياة الصحابة» لعبد الرحمن رأفت الباشا.

التابعي الجليل/ عروة بن الزبير

وهو الإمام عالم المدينة أبو عبد الله القرشي المدني الفقيه أحد الفقهاء السبعة، ابن حواري رسول الله وصاحبه الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب.

جدته لأبيه صفية بنت عبد المطلب رضي الله عنها عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم، أمه أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنها الملقبة بذات النطاقين، خالته هي أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

فأي نسب أشرف من هذا النسب! إنه نسب ابن الزبير بن العوام حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم بل من أقرب وأحب حوارييه وأصحابه الكرام رضوان الله عليهم.

ولد عروة في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه، وقد قيل: أنه ولد سنة ثلاث وعشرين هجرية. تلقى العلم والرواية على خالته السيدة عائشة رضي الله عنها.

يقول قبيصة بن ذؤيب: كنت أنا وأبو بكر بن عبد الرحمن نجالس أبا هريرة، وكان عروة يغلبنا بدخوله على أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وظل عروة ينهل من علم خالته حتى وعى كل حديث عندها، وهاهو يتحدث إلى أبنائه ومنهم هشام وقد كانوا شبابًا: ما لكم لا تعلمون، إن تكونوا صغار قوم يوشك أن تكونوا كبار قوم، وما خير الشيخ أن يكون شيخًا وهو جاهل، لقد رأيتني قبل موت عائشة بأربع حجج (سنين) وأنا أقول: لو ماتت اليوم ما ندمت على حديث عندها إلا قد وعيته.

هكذا وعى عروة كل ما روت عائشة رضي الله عنها فقد كان حافظًا يملك ذاكرة عظيمة، شهد له كثير من علماء عصره وأشرافهم بالعلم، وعلى رأسهم عمر بن عبد العزيز الخليفة العادل الذي قال: ما أجد أعلم من عروة بن الزبير، وما أعلمهُ يعلم شيئًا أجهله.

ولذلك استعان به عمر بن عبد العزيز كعالم من علماء المدينة وفقيه من فقهائها العظام، فعندما قَدِمَ عمر إلى المدينة واليًا عليها من قبل الوليد بن عبد الملك جاءه الناس فسلموا عليه. فلما صلى الظهر دعا عشرة من فقهاء المدينة ومن بينهم عروة بن الزبير، فلما صاروا عنده رحب بهم، وأكرم مجالسهم، ثم حمد الله عَزَّ وَجَلَّ وأثنى عليه وقال: إني دعوتكم لأمر تؤجرون عليه وتكونون لي فيه أعوانًا على الحق، فأنا لا أريد أن أقطع أمرًا إلا برأيكم، أو برأي من حضر منكم، فإن رأيتم أحدًا يتعدى على أحد، أو بلغكم عن عامل لي مظلمة فأسألكم بالله أن تبلغوني ذلك. عند ذلك دعا له عروة بن الزبير بخير، وتمنى له السداد والرشاد من الله عَزَّ وَجَلَّ.

جمع عروة بين العلم والعمل فبقدر فقهه كانت عبادته، فقد كان صوامًا في الهواجر رغم شدة حرها، يقول عنه ابنه هشام: إن أبي كان يصوم الدهر إلا يوم الفطر ويوم النحر ومات وهو صائم.

كان: قوامًا في ظلمة الليل رطب اللسان دائمًا بذكر الله تعالى، وكان مصاحبًا لكتاب الله عَزَّ وَجَلَّ، عاكفًا على تلاوته، فكان يقرأ ربع القرآن كل النهار نظرًا في المصحف، ثم يقوم به في تلاوة عن ظهر قلب، أرأيت أكثر بركة من رجل كهذا؟ أعرفتم أكثر ارتباطًا بكتاب الله من عروة فقيه المدينة وشيخ من شيوخها السبعة؟

كان رضوان الله عليه يجد سكينة في الصلاة فهي قرة عينه، وحبه الكبير على الأرض فكان يتقنها أتم الاتقان، ويطيلها غاية الطول، وهاهو يقول كلمة حق ونصيحة إيمان لأخ له في الإسلام، حين رآه يصلي صلاة سريعة خفيفة فانتظر فراغه من الصلاة، وتوجه إليه بحديث قائلًا: يا بن أخي أما كانت لك عند الله عَزَّ وَجَلَّ حاجة؟ والله إني لأسأل الله تبارك وتعالى في صلاتي كل شيء حتى الملح، رب كلمة ذل احتملتها أورثتني عزًا طويلًا.

وكان عروة سخي اليد سمحًا جوادًا لا يبخل بمال عن أهل مدينته المنورة، فقد حفر بئرًا بالمدينة، وما بالمدينة أعذب من مائها، وقد حفر هذا البئر في أرض اشتراها أخوه عبد الله بن الزبير من معاوية بن أبي سفيان في المدينة بمائة ألف دينار، وقسمها في بني أسد وتيم، ونال منها عروة موضع البئر الذي حفره بيده؛ فاستسقى منه أهل المدينة.

ومما أُثر عن جوده أنه كان له بستان من أعظم بساتين المدينة، عذب المياه، ظليل الأشجار، يانع الثمار، باسق النخيل، وكان يجعل لبستانه سورًا طوال العام لحماية أشجاره من أذى الماشية وعبث الصبية، حتى جاء وقت الرطب وأثمر النخيل قبل أن يصير تمرًا وأينعت الثمار وطابت، واشتهت النفوس تناولها والتمتع بأكلها، عند ذلك قام عروة بكسر حائط بستانه من الشمال إلى الجنوب وكل الجهات التي تطؤها أقدام الناس حتى يدخلوه ويأكلوا من ثمره ما لذَّ لهم الأكل، ويحملوا منه ما طاب لهم حمله، أليس هذا العمل تنفيذًا لقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿كُلُوا مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٤١].

هذا هو السخاء والكرم في عرف عروة بن الزبير؛ فالمال مال الله، إذا كان هناك حرص عليه فلأجل سد حاجة ضرورية، والاكتفاء بالكفاف، فالدنيا وما عليها لن يرثها أحد ممن يريد الله عَزَّ وَجَلَّ أن يعيشوا على ظهرها، سيرث الله الأرض وما عليها من مال وكنوز، فالمال لله، والرزق من عنده يؤتيه من يشاء.

أراد الله عَزَّ وَجَلَّ أن يمتحن عروة بن الزبير، وانصرفت مشيئته عَزَّ وَجَلَّ إلى أن يمتحن بقدر إيمانه القوي امتحانًا لا يثبت له إلا أهل التقوى، وذوو الأفئدة التي ملأها الإيمان، وفاضت بالخشوع لله عَزَّ وَجَلَّ.

لقد كان الخلفاء في عصر بني أمية يجلون فقهاء المدينة ويعتزون بهم، ومن ذلك الوليد بن عبد الملك بن مروان الذي دعا عروة بن الزبير لزيارته في دمشق، فلبى عروة دعوته وصحب معه

بجير بنيه، وبوصوله دمشق لقي من الترحيب ما يناسب مقام العلماء وشأنهم لدى الخليفة الذي رحب بمقدمه أعظم الترحيب، وبالغ في الحفاوة به، فأفسح له المجلس، وأطلق له العنان ليرى من مباهج قصره، وطبيعة دمشق ما يرى، ويمتع نفسه وابنه، وكان من الطبيعي أن يأخذ عروة مكانه في مجلس الخليفة بينما كان ابنه يخلو لسباق خيل أو استطلاع ومعرفة لهذا المكان وتلك الأشياء المحببة للفتية والغلمان.

فكان مما أخذ بقلب ابن عروة مربط الخيل وإصطبلها الموجود في ناحية من القصر، وبينما هو يسرح ويمرح بين جياد الخليفة الصافنات إذ بواحدة منها تضربه ضربات قاضية؛ فترفسه في وجهه وجسمه فيُلقي على الأرض بينما تطؤه أقدام البقية الباقية من الخيل التي انطلقت تمر فوق جسمه حتى أودت بحياته.

وفجع عروة بن الزبير بوفاة ابنه، فاحتسبه عند الله، ولم يجد بُدًا من الإذعان إلى أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فسوى له قبره، وواراه التراب بيده، وعاد حزينًا تأخذه الحسرات، فيعالجها بالصبر والتقوى، وتنال منه عاطفة الأبوة فيقتفي أثر الصابرين الممتحنين مسترجعًا قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ [البَقَرَة :١٥٦].

ولم تمر أيام على هذه المحنة حتى شعر عروة وهو جالس في مجلس الخليفة، ساهر الفكر، يردد آيات القرآن الكريم بلسانه الرطب بذكر الله عسى أن يمنحه الصبر فيما أصابه، وبينما هو على هذه الحال إذ بالآلام في ساقه، فتذكر أن هذه الآلام قد بدأت عند خروجه إلى الوليد بن عبد الملك، في وادي القرى، ولقد وجد في هذا اليوم في رجله شيئًا من الألم، ثم تبعه قرحة فيها فعانى منها الكثير، وهاهو قد عاودته الآلام بشدة، فلم يعد قادرًا على الاحتمال، حتى تورمت ساقه، وانتشر الورم بسرعة مذهلة.

عند ذلك استدعى الخليفة لضيفه عروة الأطباء وحثهم على معالجته بكل ما أوتوا من علم الطب وفنونه، وبعد فحص دقيق أجمع الأطباء على ضرورة بتر ساق عروة حتى يتوقف زحف هذه الآكلة اللعينة إلى بقية جسمه، فيتورم ويقضي المرضُ عليه.

امتثل عروة لرأي الأطباء، وأسلم الأمر كله لله، وجاء الطبيب لبتر ساقه ومعه أداة البتر والنشر، وكان لابد من تخدير عروة لما عُرف من الآلام التي تصحب بتر وقطع جزء من جسد الإنسان فقال الطبيب لعروة: سوف نسقيك جرعة من مُسكر لكي لا تشعر بآلام البتر والتي ستكون مُبرحة شديدة الألم.

فرد عليه عروة قائلًا: لا لا أستعين بحرام على ما أرجوه من العافية.

فقال الطبيب: إن هذا الأمر جد خطير ولابد من مُخدر قبل البتر، وأخشى أن تهتز ونحن نؤدي عملنا فيكون فيه ضرر لك.

فقال عروة من إيمان الفقيه وتقوى العبد الطائع لربه، المؤمن بقضائه وقدره: ما أحب أن أُسلب عُضوًا من أعضائي دون أن أشعر بألمه، وأحتسب ذلك عند الله.

عند ذلك جاء الطبيب بطائفة من الرجال ليمسكوه خوفًا من تحريك جسمه أثناء العمل فرفض قائلًا: لا حاجة لي بهم، سأنصرف إلى الذكر والتسبيح وأنتم تؤدون عملكم، أقبل الطبيب عليه وشرع بكشط اللحم عن ساقه، وجيء بالمنشار وبدأ الطبيب نشر الساق، وعروة يكبر ويسبح حتى بترت ساقه.

ولابد لوقف النزيف في جراح كهذه من غلي الزيت وغمس الجراح فيه، حتى يوقف تدفق الدم ومعالجة الجراح، وهنا راح عروة في غيبوبة طويلة، ذكر المؤرخون أنه اليوم الوحيد الذي لم يقرأ فيه القرآن أو حصته اليومية منه منذ أن أصبح شابًا حافظًا له قارئًا لآياته.

وأفاق من غيبوبته ونظر حوله فشاهد قدمه المبتورة وقد وضعت في إناء فأشار إليها قـائلا: أما والذي حملني عليك في عتمات الليل إلى المساجد إنه ليعلم أنني ما مشيت بك إلى حرام قط.

سمع الوليد بن عبد الملك بخبر قطع ساق عروة وما كان منه أثناء قطع سـاقه؛ فـما زاد أثناء بتر ساقه عن التهليل والتكبير وكلما اشتد الألم قال كلمة: حس، حس، وهي كلمة تقـال عند شدة الألم.

قال الوليد: ما رأيت شيخًا قط أصبر من عروة بن الزبير.

وأراد الخليفة أن يعزي عروة في نفسه وفي ابنه فإن مصابه فادح ولا يدري كيف يكـون عزاؤه، فبينما هو على هذه الحال أقبل عليه وفد من بني عبس فيهم رجل ضرير، فسأله الوليد عن سبب كف بصره فقال: يا أمير المؤمنين لم يكن في بني عبس رجل أوفر مني مالًا، ولا أكثر أهلًا وولدًا، فنزلت مع مالي وعيالي في بطن وادٍ من منازل قومي، فطرقنا سيل لم نر مثله قـط؛ فذهب السيل بما كان لي من مال وأهل وولد، ولم يترك لي غير بعير واحد وطفل صغير حديث الولادة، وكان البعير صعبًا فشرد مني، فتركت الـصبي عـلى الأرض ولحقـت بـالبعير؛ فلـم أجوز مكاني قليلًا حتى سمعت صيحة الطفل، فالتفت فإذا برأسه في فم الذئب وهو يأكلـه، فبادرت إليه غير أني لم أستطع إنقاذه إذ كان قد أتى عليه، فلحقـت بـالبعير؛ فلـما دنـوت منـه رمني برجله على وجهي رمية حطمت جبيني وذهبت ببصري.

هكذا كانت محنة الرجل بالنسبة لمحنة عروة مفجعة فقد فَقَدَ أهله وولده وماله وبصره، عند ذلك رأى الوليد بن عبد الملك أن يخفف عن عالم المدينة وفقيهها بأن يرسل بهـذا الرجـل مع أحد حراسه إلى عروة، ليعلم أن في الناس من هو أكثر بلاءً منه وأعظم مصيبة من مصيبته.

فانطلق الرجل والحاجب، فقص على عروة القصة، فاسترجع واحتسب كل هـذا عنـد الله سبحانه، وكان مثالًا للمؤمن الممتحن الصابر على البلاء، العابد التقي في السراء والضراء.

ولم تمض أيام حتى حُمل عروة إلى المدينة حيث أهله وتلاميذه ومريدوه الـذين افتقـدوا وجوده طوال هذه الفترة الزمنية، وعندما وصل الركب وادي القرى بالقرب من مكة، هتف عروة قائلًا وهو يتضرع إلى السماء: اللهم إنه كان لي أطـراف أربعـة فأخـذت مـنهم واحـدًا، وأبقيت ثلاثة فلك الحمد، وكان لي بنون أربعة فأخذت واحدًا وأبقيت لي ثلاثة فلك الحمـد، وايم الله لئن أخذت لقد أبقيت ولئن ابتليت طالما عافيت.

وصل عروة المدينة وامتلأ داره بـالعقيق الزائـرين والمواسـين والمعـزين، ودخـل عـلى الرجل عيسى بن طلحة، فرحب به وقال لابنه: اكشف يا بني لعمك عن رجلي، ففعل الفتى، فقال عيسى: إنا والله يا أبا عبد الله ما أعددناك للصراع، ولا للسباق، ولقد أبقى الله منك لنـا ما كنا نحتاج إليه، رأيك وعلمك.

فأخذت هذه الكلمات بنفس عروة، وحملها بمشاعر الوفاء من التلميـذ لأسـتاذه فنظـر إليه في امتنان وحب وقال: يا عيسى ما عزاني أحد مثلك.

ولم يكد ينصرف عيسى عن شيخه خارجًا مـن الـدار؛ حتـى أقبـل عليـه رجـل آخـر هـو إبراهيم بن محمد بن طلحة فحياه وقال له: والله ما بك حاجة إلى المشي، ولا أرب في السعي، وقد تقدمك عضو من أعضائك، وابن من أبنائك إلى الجنة، والكل تبعُ البعض إن شاء الله، وقد أبقـى الله لنا منك ما كنا إليه فقراء، من علمك ورأيك والله ولي ثوابك والضمين بحسابك.

شكر عروة ضيفه واحتسب ما أصابه عند الله عَزَّ وَجَلَّ، ونظر إلى بنيه نظرة العالم وقال لهم: يا بني سلوني فقد تُركت حتى كدت أنسي، وإني لأسأل عن الحـديث فيفـتح لي حـديث يومين.

واستمر توارد الناس على داره بالعقيق، وكان كلما سُئل عما أصابه قال: ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ [الكهف: ٦٢]، وظل الرجل يقدم علمه لتلاميذه ومريديـه في المدينـة فكـان

يقول: إذا رأى أحدكم شيئًا من زينة الدنيا وزهرتها فليأت أهله، وليأمرهم بالصلاة، وليصطبر عليها، ثم يردد قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ [طه: ١٣١].

وبعد حياة حافلة نصابها التقوى عاش فيها عروة بن الزبير واحدًا وسبعين عامًا مملوءة بالعلم والفقه، ومغمورة بالتقوى والصلاة، جاء عروة أجله المحتوم، وكان صائمًا وكلما نصحه أبناؤه أن يفطر، ظل على صيامه تقربًا لربه، وثباتًا على دينه، وراضيًا بما قدره الله له.



المصادر:
- «التاريخ» لابن عساكر جـ[٦].
- «سير أعلان النبلاء» للذهبي جـ[٤].
- «الطبقات الكبرى» لابن سعد جـ[٥].
- «صور من حياة الصحابة» لعبد الرحمن رأفت الباشا.
- «حلية الأولياء» لأبي نعيم الأصفهاني.



سيد التابعين/ سعيد بن المسيب

قال عنه الذهبي في «السير»: هو سعيد بن المسيب عالم أهل المدينة وسيد التابعين في زمانه.

نشأ الشيخ نشأة مباركة فزكى غرسه في تربة طيبة، وشاهد كبار الصحابة وجالس أهل الورع والخشية من الله، واتجه إلى الفقه يبحث مسائله، ويناقش فروعه، وإلى الحديث النبوي يصحب رجاله، ويفحص إسناده، وكانت المدينة زاخرة بأعلام الشريعة من صحابة النبي ﷺ، فسمع من كبار الصحابة كعلي وابن عمر وسعد وابن عباس وأبي الدرداء، وصهيب وجابر وأبي سعيد، وأسماء وعائشة وأم سلمة وغيرهم ممن رضي الله عنهم ورضوا عنه، أما أبو هريرة شيخ المحدثين فقد لزم مجلسه، واستظهر أحاديثه، وبلغ من نفسه مبلغًا كبيرًا حتى تزوج ابنته منساقًا بدافع الرغبة الكريمة في مصاهرة إنسان يحفظ حديث رسول الله ﷺ.

كان النزاع بين الأمويين والزبيريين على أشده بالمدينة، وكل حزب يجتذب من الأشياع من يشد عضده ويقوي شوكته، وقد اتجهت أنظار الفريقين إلى سعيد، والرجل في قرارة نفسه لا يؤمن بهما معًا، ويرى الخلافة الإسلامية قد انحرفت عن نهجها الذي عرفه أيام عمر وعثمان وعلي، ولكن الرسل من الجانبين يتوافدون عليه وكلمة الحق تصرخ في فمه فتدمغ الباطل فينحدر، وقد أرق أولو الأمر لمخالفة سعيد وامتحن امتحانًا رهيبًا من الطائفتين، فما تراجع عن رأي أو نكص عن حق، بل ظل كالطود الشامخ ناهضًا يندد بالطغاة، ويرى الملأ كيف يقف الحق الأعزل في وجه الباطل المدجج.

محنته في بيعة ابن الزبير:

قال الذهبي: قال الواقدي: حدثنا عبد الله بن جعفر وغيره من أصحابنا قالوا: استعمل ابن الزبير جابر بن الأسود بن عوف الزهري على المدينة، فدعا الناس إلى البيعة لابن الزبير فقال سعيد بن المسيب: لا حتى يجتمع الناس، فضربه ستين سوطًا، فبلغ ذلك ابن الزبير فكتب إلى جابر يلومه ويقول: مالنا ولسعيد. دعه.

وعن عبد الواحد بن أبي عون قال: كان جابر بن الأسود عامل ابن الزبير على المدينة قد تزوج الخامسة قبل انقضاء عدة الرابعة، فلما ضرب سعيد بن المسيب صاح به سعيد والسياط تأخذه: والله ما ربعت على كتاب الله، وإنك تزوجت الخامسة قبل انقضاء عدة الرابعة، وما هي إلا ليال فاصنع ما بدا لك، فسوف يأتيك ما تكره. فما مكث إلا يسيرًا حتى قتل ابن الزبير.

ثم كان العصر الأموي وهو عصر المنافع واستغلال السلطان، فالأمراء والولاة لا يسيرون على سنن الراشدين من الخلفاء، وقد بذلوا جهودهم المضنية في تدعيم الملك واجتذاب الأنصار وإغراء النفوس بالمال والمنصب والنفوذ، وقد رأوا التفاف العامة حول سعيد وتعظيمهم إياه، فأرادوا أن يجذبوه إلى ساحتهم، ليلوذوا بركن وطيد من تعضيده، وسعيد يعلم أنهم أهل جور ومظلمة، فيرفض كل رجاء يقدم منهم إليه، ويراهم دونه في كل شيء، حيث قد اعتز بتقوى الله، وذلوا بمعصيته، وهو لا يفتأ يعلن رأيه صريحًا شهيرًا في مخالفاتهم الصريحة دون أن يأبه لعاقبة تسوء أو طامة تعم.

رفضه لخطبة ابنته إلى الوليد بن عبد الملك:

أراد عبد الملك أن يخطب ابنة سعيد لولي عهده (الوليد) فيكسب بذلك محبة في القلوب، ويتخذ من سعيد دعامة تجذب نحوه الأنصار والأتباع، ولكن ابن المسيب يحتقر

رغائب الحياة وينظر في ترفع سام إلى مقاييسها الواهنة في منطق الدهماء، فيرفض أن تكون ابنته أعظم سيدة في المملكة الإسلامية، يرفض ذلك ويستهوله! لأنه ينكر أن يكون مطية لظالم، أو خديعة لشعب مرهق ذليل، ثم ماذا؟ يعجل بزفاف وليدته إلى طالب علم فقير لا يملك غير قوت يومه! فأي ملاك هذا الذي سمى بإنسانيته الرفيعة فوق المقاييس الهابطة إلى أوج رحيب تضنيه العزة ويغمره الجلال.

قال يحيى بن سعيد: كان لسعيد جليس يقال له: عبد الله بن وداعة، فأبطأ عنه أيامًا، فسأل عنه وطلبه، فأتاه معتذرًا عن تأخره بمرض زوجته وموتها فقال له: ألا أعلمتنا بمرضها فنعودها، أو بموتها فنشهد جنازتها، ثم قال: يا عبد الله تزوج، ولا تلقى الله وأنت أعزب، فقال: يرحمك الله ومن يزوجني وأنا فقير؟ فقال سعيد: أنا أزوجك ابنتي، فقال عبد الله: فسكت استحياء واستعظامًا، فقال سعيد: مالك ساكت أسخطًا وإعراضًا؟ قلت: وأين أنا منها؟ فقال: ادع نفرًا من الأنصار، فدعوت له، فأشهدهم على النكاح، فلما صلينا العشاء الآخرة توجه سعيد بابنته إلى الرجل الفقير ومعها الخادم والدراهم والطعام والزوج لا يكاد يصدق ما هو فيه.

هكذا يرفض سعيد القرب والمصاهرة للخليفة وينفر منها بإباءة وشمم، إباء العلماء وشمم الأتقياء غير مبال بما يجلب عليه هذا الرفض من بأس وأذى ومحن متلاحقة.

محنته في البيعة للوليد وسليمان بن عبد الملك:

لما مات عبد العزيز بن مروان بمصر عقد عبد الملك لابنيه الوليد وسليمان بالعهد وكتب بالبيعة لهما إلى البلدان، وعامله يومئذٍ على المدينة هشام بن إسماعيل المخزومي، فدعا الناس إلى البيعة، فبايعوا وأبى سعيد بن المسيب أن يبايع لهما وقال: حتى أنظر، فهدده هشام بضرب عنقه فما تراجع لحظه عن موضعه، ويرى ذلك هينًا في سبيل الله. ثم يطول الحوار

والجدل وسعيد يقول: لا أبايع اثنين ما اختلف الليل والنهار، فقيل: ادخل وأخرج من الباب الآخر، قال: والله لا يقتدي بي أحد من الناس.

فيعرض عليه واحدة من خصال عدة: أن يقرأ الوالي كتاب البيعة على الجمهور فيسكت دون أن يقول: لا أو نعم قال: يقول الناس بايع سعيد بن المسيب ما أنا بفاعل (وكان إذا قال لا لم يستطيعوا أن يقولوا نعم)، ثم كان العرض الثاني أن يجلس في البيت فلا ينهض إلى المسجد أيامًا حتى تنتهي البيعة قال: فأنا اسمع الآذان فوق أذني حي على الصلاة حي على الصلاة: ما أنا بفاعل، ثم كان العرض الثالث: أن ينتقل من مكانه بالمسجد فإنه يرسل إلى مجلسه رسولًا فإن لم يجده أمسك عنه، قال: أفرقًا من مخلوق [أي: أخوفًا من مخلوق الله] ما أنا متقدم شبرًا ولا متأخرًا ما كنت لأغير مقامًا قمته منذ أربعين سنة، ثم كان العرض الرابع: قال: تخرج معتمرًا، قال: ما كنت لأنفق مالي وأجهد بدني في شيء ليس لي فيه نية. ثم كان العرض الأخير: أن تبايع، فقال: أرأيت إن كان الله أعمى قلبك كما أعمى بصرك فما علي.

فكتب هشام بن إسماعيل إلى عبد الملك فرد عليه عبد الملك: مالك ولسعيد! ما كان علينا منه شيء نكرهه، فإما إذا فعلت فاضربه ثلاثين سوطًا وألبسه تبان شعر، وأوقفه للناس لئلا يقتدي به الناس.

بعث إليه هشام في مجلسه فأُتي به فقال: أن أمير المؤمنين كتب يأمرنا أن لم تبايع ضربنا عنقك، قال: نهى رسول الله ﷺ عن بيعتين فلما رآه لم يجب أُخرج إلى السدة فمدت عنقه وسلت السيوف حتى يرغمه على البيعة، فلما رآه قد مضى أُمر به وأحضروه مجددًا وعرض عليه البيعة مرة أخرى فرفض فضربه هشام ستين سوطًا ثم، طاف به في تبان من شعر، حتى بلغ به رأس الثنية، فلما خرجوا به قال: أين تخرجون بي؟ قالوا: إلى السجن، فحبسه وكتب إلى عبد الملك يخبره بخلافه.

وفي السجن دخل عليه أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث فجعل يكلم سعيدًا ويقول: إنك خرقت به فقال: يا أبا بكر اتق الله وآثره على من سواه، فردد أبو بكر عليه إنك خرقت به ولم ترفق، فجعل سعيد يقول: إنك والله أعمى البصر أعمى القلب، قال: فخرج أبو بكر من عنده وأرسل إليه هشام فقال: هل لان سعيد منذ ضربناه؟ فقال أبو بكر: ما كان أشد لسانًا منه منذ فعلت به ما فعلت فأكفف عن الرجل.

وكتب عبد الملك إلى هشام بن إسماعيل يلومه فيما صنع به ويقول: سعيد كان والله أحوج إلى أن تصل رحمه من أن تضربه وأنا لنعلم ما عنده خلاف.

دخل قبيصة بن ذؤيب على عبد الملك بكتاب هشام بن إسماعيل يذكر أنه ضرب سعيدًا وطاف به، قال قبيصة: يا أمير المؤمنين يفتات عليك هشام بمثل هذا، والله لا يكون سعيد أبدًا معلولًا ألج منه حين يضرب، لو لم يبايع سعيد ما كان منه، وما هو مما يخاف فتقه، يا أمير المؤمنين اكتب له، فقال عبد الملك: أكتب أنت إليه عني تخبره برأيي فيه، وما خلفني من ضرب هشام إياه، فكتب قبيصة بذلك إلى سعيد، فقال سعيد حين قرأ الكتاب: الله بيني وبين من ظلمني.

أُخلي سبيل سعيد من محبسه، ومُنع الناس أن يجالسوه فكان من ورعه إذا جاء إليه أحد يقول له: قم عندي إنهم قد جلوني ومنعوا الناس أن يجالسوني. . كراهية أن يضرب بسببه.

هذه المحن السود تمر بالمؤمن فتزيده يقينًا وإيمانًا، ثم تنجلي غمرتها الفاشية عن روعة واستبشار، فالظالم يتخاذل ويتقهقر، حين يجد عقوبته الظالمة قد عادت على غريمه بالعزة وارتفاع الذكر وبُعد الصيت، وهذا ما استشعره بنو مروان فقد أسفوا لما صنعوا وهموا باسترضاء الرجل مرات فما أبه بخليفة أو أمير.

وقد ذهب عبد الملك يومًا إلى المدينة ووقف على باب المسجد، وأرسل إلى سعيد رجلًا يدعوه، فأتاه الرسول وقال: أمير المؤمنين بالباب يريد أن يكلمك! فقال: مالي إليه من حاجة، وما به حاجة إلي، فرجع الرسول فأخبر، فقال له: قل له أجبر أمير المؤمنين، فكرر سعيد ما قال، فاستعظم الرسول ما صنع، فقال له سعيد: اذهب يا بني، فإن كان يريد بي خيرًا فهو لك، أو شرًا فليقض ما هو قاض؟ ورجع الرسول بالإجابة إلى سيده فطوى الضلوع على غيظ كظيم.

ولما استخلف الوليد بن عبد الملك قدم المدينة، فدخل المسجد ورأى شيخًا قد اجتمع عليه الناس، فقال: من هذا؟ فقالوا: سعيد بن المسيب، فلما جلس أرسل إليه، فأتاه الرسول فقال: أجب أمير المؤمنين، فقال سعيد: لعله أرسلك إلى غيري، فأتاه الرسول فأخبره، فغضب الوليد غضبًا شديدًا وهم به، فقال له جلساؤه: يا أمير المؤمنين فقيه المدينة وشيخ قريش لم يطع أباك من قبلك وأعرض عنه، ثم مازالوا به حتى تراجع!

وقد صلى الحجاج ذات يوم صلاة عاجلة، لم يتم ركوعها وسجودها كما يجب، فأخذ سعيد كفًا من الحصى ورماه به، فاستهدى في صلاته، وأخذ يطمئن، ولم يسكت طاغية العرب عن سعيد خشية وإجلالًا، ولكنه خاف غضب بني مروان إذا همَّ به، فهم بعد موقفهم الأول منه يتحاشون أن يشعلوا الصدور بمؤاخذته فينكثون جراحًا قد اندملت على صديد، فهي تلتمس السبيل إلى الثوران والانفجار.

وأيًا كان فقد حاول هؤلاء أن يسترضوه فما رجعوا بطائل منه، وقد كان له في بيت المال عطاء كبير يتجاوز ثلاثين ألفًا، فبُعث إليه، فرفض أن يأخذ منه درهمًا، وقال: لا حاجة لي فيها عند ظلمة من حقوق، فقيل له: ألا تخاف على نفسك؟ فقال لمحدثه: مهلا يا أحمق فلن يضيعني الله!!

هذا هو الإيمان القوي، وهذا هو الاعتزاز بالحق، وهذا هو الورع الرفيع الأخاذ. . كل أولئك قد أضفى على الرجل حلة زاهية من الهيبة والكمال، فكان في حياته قوة مرهوبة عنيدة، وبعد مماته فكرة سامية نبيلة، ومثلًا تشرئب إليه النفوس الطامحة، بل حلمًا نادرًا تتمناه القلوب وتترقبه الأجيال.



المصادر:
- «سير أعلان النبلاء» للذهبي.
- «الإسلام بين العلماء والحكام» لعبد العظيم بدوي.
- «حلية الأولياء» لأبي نعيم الأصفهاني.
- «علماء في وجه الطغيان» للدكتور/ محمد رجب البيومي.

التابعي الجليل/ عامر بن عبد الله التميمي

قال الذهبي: هو عامر بن عبد قيس أبو عبد الله أبو عمرو التميمي، العنبري، البصري.

كان: ثقة من عُباد التابعين، وعندما رآه كعب الأحبار قال: هذا راهب الأمة.

اشتهر بعامر بن عبد الله التميمي، وكان اسمه عامر بن قيس، كان من القراء الذين يُقرئون الناس.

نشأ في البصرة عندما كانت مدينة ناشئة، وقد خطها صحابة النبي ﷺ بأمر من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكانت مدينة غنية ناشئة فتية، فكانت مخزنًا لغنائم المسلمين، وما أفاء الله به عليهم من ذهب ومال كثير.

وقد تعلم عامر على يد الصحابي الجليل أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، فقد كان واليًا على البصرة وإمام أهلها وقائدهم، وقد صحبه عامر كظله، فأخذ عنه الكتاب والسنة، وأصبح عامر فقيهًا على يد أبي موسى الأشعري، فجدَّ في العلم والفقه، وثابر على الدرس والحفظ حتى أصبح من كبار الذاكرين القراء، ومن مسلمي البصرة وعبادها القائمين بالعشي والأسحار، الذاكرين الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم، المجاهدين في سبيل الله بأنفسهم وأموالهم، التابعين بإحسان إلى يوم الدين.

وعامر شأنه شأن كل داعية يقول الحق ولا يخشى في الله لومه لائم، لابد لشياطين الإنس أن يكون له معهم موقف، فلم تخل حياته من المتاعب شأنه شأن أهل التقوى وأهل العزائم، وهذا الموقف الذي نحن بصدد الحديث عنه كان في البصرة.

فبينما عامر يسير مسبحًا ربه، حامدًا فضله، شاكرًا نعمته، إذا بأحد رجال الشرطة قد أمسك برقبة رجل حتى كاد أن يختنق في يديه، بينما شرطي آخر يعاون صاحبه في جره، عُنوة وبالقوة، فاقترب عامر من الرجل فيسمع الرجل يقول: أجيروني يا مسلمين، أجيروا رجلًا من أهل الذمة.

فجاءه عامر قائلًا: أعليك جزية يا رجل؟

فقال: لا. . بل أديتها. . ولكن أجرني من هذا الرجل صاحب الشرطة.

فتلفت عامر لرجل الشرطة وقال له: اتركه وشأنه.

فرفض الشرطي قائلًا: لن أتركه حتى يأتي على حديقة رئيس الشرطة في البصرة فينظفها!!

فقال عامر للذمي: ولماذا لا تذهب معه أيها الرجل لتؤدي ما طُلب منك؟

فقال الرجل: لا أستطيع، فإن في عنقي أطفالًا أسعى لقوتهم، وعمل هذا يشغلني عن السعي، ويوهن قواي التي ادخرتها من أجل قوت أولادي.

فقال عامر لرجل الشرطة: أتنقض عهد محمد رسول الله يا رجل، والله لا يُنقض عهد لمحمد وأنا حي.

وانقض عامر على الشرطي فخلص الرجل من بين يديه بالقوة، وأطلق سراحه، وقال له: اذهب لقوت عيالك.

بلغ ذلك والي البصرة، وأمير الشرطة بها، فاتَّهم عامرًا بالخروج عن طاعة أولي الأمر، مما يؤول إلى أنه خرج عن السنة والجماعة، وكان أن رفع أمره إلى أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه في المدينة، فأمر عثمان واليه على البصرة بدعوة عامر والتحقيق معه فيما نُسب إليه، ويكتب له في ذلك بعد انتهاء التحقيق، وجيء بعامر أمام والي البصرة فقال له الوالي: إن أمير المؤمنين عثمان بن عفان أمرنا أن نتحقق من أمور نُسبت إليك.

قال عامر: وما هي هذه الأمور التي نُسبت إلي؟

فقال الوالي: إنك لا تتزوج النساء، ولا تأكل الجبن، وتمتنع عن أبواب الولاة وشهادة مجالسهم.

فقال عامر: فأما الأولى لكي لا تشغلني عن ذكر الله، فأنا امرؤ له نفس واحدة كما ذكرت سابقًا، وخشيت غلبة الزوجة، ولكن أشهد أنه لا رهبانية في الدين.

أما الثانية– فأنا بمنطقة فيها مجوس يعبدون النار والشمس يصنعون الجُبن، وهم قوم لا يميزون بين الميتة والمذبوحة، وأخشى أن يكون الجبن من شاة غير مذبوحة ولم يذكر اسم الله عليها، فإن جاء من شاهدين على أن الجبن من منفحة شاة مذبوحة ذكر اسم الله عليها أكلته ولا أمتنع.

أما الثالثة– فإن في أبواب الولاة كثير من طلاب الحاجات، وأنا لست منهم، فادعوا أصحاب الحاجات إليكم، واقضوا حوائجهم، واتركوا من لا حاجة له عندكم.

بلغ كل هذا أمير المؤمنين فعفا عنه، إلا أن ولاته على العراق لم يقتنعوا بذلك، ودب خلاف بين محبي عامر وأنصاره وأعدائه من ناحية أخرى، فوشى به إلى زياد والي العراق، فقالوا: هاهنا رجل قيل له: ما إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ خيرًا منك فسكت، وقد ترك النساء. فكتب فيه إلى أمير المؤمنين عثمان فكتب إليه: انفه إلى الشام على قتب (الرحل الصغير على قدر سنام البعير) فلما جاءه الكتاب، أرسل إلى عامر، فقال: أنت قيل لك ما إبراهيم خيرًا منك فسكت؟

قال: أما والله ما سكوتي إلا تعجب ولوددت أني غبار قدميه.

قال: وتركت النساء؟

قال: والله ما تركتهن إلا أني قد علمت أنه يجيء الولد وتشعب في الدنيا، فأحببت التخلي.

فأجلاه على قتب إلى الشام، وخرجت البصرة عن بكرة أبيها في وداعه، ومشى أصحابه في وداعه طوائف وجماعات، حتى وصلوا إلى منطقة تسمى المربد، فوقف عامر يودعهم قائلًا:

أيها الأخوة! إني داعٍ فأمنوا، ورفع يده وراح يردد بصوت عالٍ:

اللهم من وشى بي، وكذب علي وأخرجني من مصري ومزق بيني وبين إخواني، فأكثر ماله وأصح جسمه وأطل عمره.

هكذا كان تسامح أهل العزائم وعفو الزاهدين في الدنيا والسلطان، فقد عزفوا عن الانتقام ورد الإساءة بسيئة مثلها، وإنما سيئة من قوم أصابهم الجهل، لا تقابل إلا بحسنة من أهل الخشوع والعزائم.

أنزله أمير الشام معاوية معه في الخضراء وبعث إليه بجارية وأمرها أن تعلمه ما حاله، فكان يخرج من السَّحر فلا تراه إلا بعد العتمة، فيبعث معاوية إليه بطعام، فلا يُعرض له، ويجيء معه بكسر، فيبلها ويأكل، ثم يقوم إلى أن يسمع النداء فيخرج، فكتب معاوية إلى أمير المؤمنين يذكر حاله، فكتب: اجعله أول داخل وآخر خارج، ومُر له بعشرة من الرقيق، وعشرة من الظَّهر، فأحضره وأخبره، فقال: إن علي شيطانًا قد غلبني، فكيف أجمع علي عشرة، وكانت له بغلة.

استقر به المقام في بيت المقدس، مُحاطًا بحب الله ورعايته، ثم نال من عطف أمير الشام معاوية رضي الله عنه، فأوصى بإكرامه وتقديره، ومرت السنون، وخارت قوى عامر وأصابه المرض، وثقل عليه حتى أحس أصحابه بأنه مريض مرض الموت، فدخلوا يعودونه فوجدوه باكيًا حتى بللت الدموع لحيته.

فقال أحدهم: ما يبكيك يا عامر؟ فقد كنت عابدًا خاشعًا زاهدًا رجلًا صالحًا.

فقال: والله ما أبكي حرصًا على الدنيا، أو خوفًا من الموت، وإنما أبكي لطول السفر وقلة الزاد، ولقد أمسيت بين صعود وهبوط إما إلى الجنة وإما إلى النار، فلا أدري إلى أيهما أصير.

المصادر:
- «سير أعلان النبلاء» للذهبي.
- «التاريخ» لابن عساكر.
- «حلية الأولياء» لأبي نعيم الأصفهاني.

الإمام/ جعفر الصادق

هو الإمام جعفر بن محمد بن علي بن زين العابدين بن الحسين السبط بـن عـلي بـن أبي طالب ابن عم النبي ﷺ وزوج ابنته فاطمة رضي الله عنها وأرضاها.

هذا نسبه من جهة أصوله ومن جهة أخواله فهو ابن أم فروة بنت القاسم بن محمد بـن أبي بكر الصديق.

وجدته من قبل أمه هي أسماء بنت عبد الرحمن بـن أبي بكـر الـصديق رضي الله عـنهم أجمعين.

ولُقِبَ بجعفر بن محمد الصادق وغلب هذا اللقب عليه فلا يكاد يـذكر إلا وينـصرف إليه، وسببه أنه كان صادقًا في حديثه وقوله وفعله.

ومن ألقابه الإمام وهو جدير به، والفقيه وليس هو المعصوم كما يطلق عليه مخالفوه لأنه نفاها عن نفسه وليست العصمة لأحد إلا لرسول الله ﷺ .

تعهده وهو صغير جده لأمه القاسم بن محمد بن أبي بكر، بقدر ما تعهده جده لأبيه علي بن الحسين، فإذا به وهو صبي يحفظ القرآن ويتقن تفسيره، ويحفظ الحديث ويفهمه، مما أتـاح له أن يكشف ما وضعه المزيفون تزلفًا للحاكمين، أو خدمة هذا الطرف أو ذاك مـن أطـراف الصراع السياسي، وعمل على نشر الأحاديث التي حاول الحكام المستبدون إخفاءها.

أخذ عنه العلم رواية وفقهًا جمع كبير من العلماء الحفاظ الثقات من أشهرهم: يحيي بـن سعيد الأنصاري، ويزيد بن عبد الله بن الهاد الليثي، وعبد الملك بن عبد العزيـز بـن جـريج، وأبان بن تغلب، وأيوب السختياني، وأبـو عمـرو بـن العـلاء، ومالـك بـن أنـس، وسـفيان الثوري، وشعبة بن الحجاج، وسفيان بن عيينة، وروى له جماعة الكتـب الـستة إلا البخـاري فلم يخرج له في «صحيحه» بل في غيره.

يقول الذهبي في «السير»: وكان يغضب من الرافضة ويمقتهم إذا علم أنهم يتعرضون لجده أبي بكر الصديق ظاهرًا أو باطنًا.

كان عصره متوترًا مشوبًا بالمآسي، تخضب الرايات المنتصرة فيه دماء الشهداء من آل البيت ويطغى الأنين الفاجع على عربدة الحكام، لقد شاهد الإمام بأم عينيه حوادث المحن ووقائع المصائب من مطاردة وملاحقة وتشريد وسجون ومصادرة أموال أهل البيت النبوي الكريم، فمن خذلان الناس لجده الحسين رضي الله عنه في ساعة العسرة ثم نهاية عمه زيدًا حين اعتمد على من اعتمد فخانوه ونكثوا العهود فحلت النكبة، وكانت المصيبة حين قتل الإمام زيد قتلة آثمة ثم نبش قبره من بعد ما ورى عليه التراب فصلب جثمانه الطاهر وذبح أبناؤه البررة.

وعندما سقطت دولة بني أمية طالب الثوار الإمام الصادق أن يقبل البيعة ليصبح هو الخليفة، فهو يحلق في سماء المعرفة ويضرب في أغوار العلم، ويشعر أنه أقوى من الملك وأنه باستمراره في دوره العلمي أنفع للناس، وكان يقول: من طلب الرياسة هلك.

ولي أبو العباس الخلافة وجاء عصر جديد يتطلع الناس فيه إلى الحرية والطهارة والعدل، فإذا بالمنافقين الذين زينوا الاستبداد لبعض الأمويين وشرعوا لهم العدوان والطغيان يحيطون بأبي العباس، وعندما ورثه المنصور، إذ بهؤلاء المنافقين يحيطون بالخليفة الثاني، وإذ بهم يوسوسون له بالآراء نفسها، وإذ بهم يوهمونه أنه فوق الحساب، حتى لقد جعلوا المنصور يحمل الناس على تقبيل الأرض بين يديه.

بل راح هؤلاء المرتزقة يدعون الناس إلى التقشف باسم الإسلام، ويحببون الفقر إلى الناس باسم الدين، لينصرف المستبدون إلى جمع المال، وينصرفوا هم إلى الارتزاق. لقد أرادوا من الأمة أن تواجه إسراف الطبقة الحاكمة لا باستخلاص الحق المعلوم الذي شرعه الله، بل

ـزهد في كل شيء والانصراف عن الحق، ووضعوا الأحاديث النبوية التي لم تسلم من تزييفهم لخدمة الطبقة الحاكمة.

ورأى الإمام بأن هذه الدعوة تزيد الأغنياء غنى والفقراء فقرًا، وإنها ليست من الله في شيء، فهي تزين للفرد ألا يهتم بمصلحة الأمة، وألا يحاسب الحاكم، وتتيح للحكام أن يعطلوا الشورى، وهي أساس الحكم في الإسلام.

ومضى الإمام يناقش دعاة الزهد والتقشف، فالزهد كما يفهمه الإمام هو الاكتفاء بالحلال لا التجرد من الحلال.

ورأى المنصور في دعوة جعفر ضد الزهد تحريضًا لعامة المسلمين على أن يستمتعوا بحقوقهم في المال، ودعوة إلى إثارة التمرد، وكان استبداد المنصور قد استشرى، وكما فعل حكام الأمويون من قبل، بطش المنصور بكل من يخالف رأيه ووجه بطشه إلى آل البيت، وفي هذه الظروف الصعبة ظل الإمام جعفر يناضل بالكلمة دفاعًا

ثم رأى أخيرًا الإمام جعفر فعل المنصور بأولاد عمومته الأخوين الكريمين محمد بن عبد الله بن الحسن، وأخيه إبراهيم حين خرج الأول في المدينة والثاني في العراق وعقب ذلك الخروج سجن أبيهم عبد الله بن الحسن ومات في السجن مكمومًا.

في هذا الجو الرهيب عاش الإمام الصادق فكان لابد أن يصيبه شيء من ذيول ذلك الإرهاب العنيف لولا أنه وقف بعيدًا عن ذلك الخروج ولو أن المنصور كان يصانعه الود والاحترام.

فالمنصور كان يتوجس خيفة من الإمام، وهذه الهواجس تدفعه إلى الشك أحيانًا، وهناك من يجعل الشك عنده يقينًا بالتزوير والدس اللئيم، فكان يرسل عليه العيون والجواسيس لرصد كلماته التي كان يلقيها في حلقة درسه، كما يرصد حركاته وتصرفاته. إلا

أن هذه المراقبة الشديدة التي كان المنصور بارعًا فيها بحيث كانت تقع دون أن يشعر الإمام بثقلها وأن كان يعلم بوجودها.

ولكن عندما تبلغ هذه الشكوك منزلة الظن الغالب على التصديق فإنه يستدعيه بغير تكريم. فحين حصل خروج الأخوين محمد بن عبد الله بن الحسن وأخيه إبراهيم، همس البطانة في أذن المنصور أن الإمام الصادق يؤيد خروجهما، بل هو ورائهما.

والحقيقة خلاف ذلك، فاستدعاه للتحقيق معه، وقد استعمل المنصور في هذا غلظة القول، وسلك سبيل الإساءة في هذا التحقيق، ولم يراع نور الهدى وطيب ووقار الشيخوخة التي بلغت السبعين ولا حرمة القربى أو صلة الرحم أو مكانة العلم.

قال المنصور: أنت يا جعفر ما تدع حسدك وبغيك وفسادك على أهل البيت من بني العباس، وما يزيدك الله بذلك إلا شدة حسد ونكد وما تبلغ به ما تقدره.

قال الإمام: والله يا أمير المؤمنين ما فعلت شيئًا من ذلك هذا، ولقد كنت في ولاية بني أمية وأنت تعلم أنهم أعدى الخلق لنا ولكم، وأنهم لا حق لهم في هذا الأمر فو الله ما بغيت عليهم ولا بلغهم عني شيئًا من جفائهم الذي كان لي، وكيف أصنع هذا الآن وأنت ابن عمي، وأمس الخلق بي رحمًا، وأكثر عطاء وبرًا فكيف أفعل ذلك.

فأطرق المنصورْ ساعة ثم قال: يا جعفر ما تستحي مع هذه الشيبة، ومع هذا النسب أن تنطق بالباطل وتشق عصى المسلمين؟ تريد أن تريق الدماء وتطرح الفتنة بين الرعية والأولياء؟

قال الصادق: لا والله يا أمير المؤمنين ما فعلت، ولا هذه كتبي ولا خطي ولا خاتمي.

(وكان المنصور قد أخرج له كتابًا إلى أهل خراسان يدعوهم إلى نقض البيعة).

فانتضى من السيف ذراعًا فما زال يعاقبه والإمام يعتذر إليه ثم أغمد السيف وأطرق ساعة ثم رفع رأسه وقال: أظنك صادقًا.

هذه أجوبة الإمام برقتها وصدقها وذاك كلام المنصور بخشونته وقسوته.

وما إن انتهت مسألة خروج حتى استدعاه المنصور مرة أخرى من المدينة إلى بغداد حين اتهمه بأنه يجمع الزكاة، وجمع الزكاة حق للخليفة وحده، فهو إذن يدعو لنفسه، فكتب إلى واليه وابن عمه داود بن علي أن يُسير إليه جعفر بن محمد ولا يرخص له في المكوث والبقاء.

وكان القصد من ذلك هو التحقيق معه في التهمة الموجهة إليه بأنه يجمع الزكاة من جميع الآفاق، وأنه مد بها محمد بن عبد الله بن الحسن فكان التحقيق على النحو التالي:

المنصور: يا جعفر ما هذه الأموال التي يجبيها لك المعلى بن خنيس.

الصادق: معاذ الله من ذلك يا أمير المؤمنين.

المنصور: ألا تحلف على براءتك من ذلك بالطلاق والعتاق؟

الصادق: نعم أحلف بالله أنه ما كان شيء من ذلك.

المنصور: بل تحلف بالطلاق والعتاق.

الصادق: أما ترضى بيميني بالله الذي لا إله إلا هو.

المنصور: لا تتفقه علي.

الصادق: وأين يذهب الفقه مني.

المنصور: دع عنك هذا فإني أجمع الساعة بينك وبين الرجل الذي رفع عليك هذا حتى يواجهك، فأتوه بالرجل وسألوه بحضرة جعفر، فقال: نعم هذا صحيح، وهذا جعفر بن محمد الذي قلت فيه ما قلت.

الصادق: أتحلف أيها الرجل أن الذي رفعته صحيح؟

الرجل: نعم ثم ابتدأ باليمين فقال: والله الذي لا إله إلا هو الطالب الغالب الحي القيوم.

الصادق: لا تعجل في يمينك فإنني أستحلفك.

المنصور: ما أنكرت من هذا اليمين؟

الصادق: إن الله تعالى حيي كريم يستحق من عبده إذا أثنى عليه أن يعاجله بالعقوبة لمدحه له، ولكن قل أيها الرجل: أبرأ إلى الله من حوله وقوته وألجأ إلى حولي وقوتي لصادق بر فيما أقول.

المنصور: أحلف بما استحلف أبو عبد الله به.

قال راوي هذا الخبر فحلف الرجل بهذه اليمين، فلم يستتم الكلام حتى خرَّ ميتًا فراع المنصور وارتعدت فرائصه، وقال للصادق: يا أبا عبد الله سر من عندي إلى حرم جدك إن اخترت ذلك، وإن اخترت المقام عندنا لم نأل في إكرامك وبرك، فو الله لا قبلت قول أحد بعدها أبدًا.

وفضل الإمام العودة إلى المدينة وكان قد جاوز الخامسة والستين، وظل بها يعلم الناس ويفقههم ويشرح للفقهاء كيف يستنبطون الأحكام عندما لا يجدون الحكم في الكتاب والسنة. وكان لا يأبه بالمنصور في الوقت الذي حاول الأخير استمالته إليه، أرسل إليه الخليفة يومًا يسأله: لم لا تخشانا كما يخشانا الناس؟

فكتب إليه الإمام جعفر قائلًا: ليس لنا ما نخافك من أجله، ولا عندك من أمر الآخرة ما نرجوك له، ولا أنت في نعمة فنهنئك، ولا نراها نقمة فنعزيك.

فكتب إليه المنصور: تصحبنا لتنصحنا.

فأجابه الإمام: من أراد الدنيا لا ينصحك، ومن أراد الآخرة لا يصحبك.

قال أبو الحسن المدائني: لما حج أبو جعفر المنصور مر بالمدينة فقال للربيع: علي بجعفر بن محمد قتلني الله إن لم أقتله.

فمُطل به، ثم ألح فيه، فحضر. فلما كشف الستر بينه وبينه، ومُثل بين يديه، همس جعفر بشفتيه، ثم، تقرب وسلم، فقال: لا سلم الله عليك يا عدو الله، تعمل عليَّ الغوائل (الدواهي) في مُلكي، قتلني الله إن لم أقتلك.

فقال جعفر: يا أمير المؤمنين، إن سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ أُعطي فشكر، وإن أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ ابتلي فصبر، وإن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ ظُلم فغفر، وأنت على إرث منهم، وأحق من تأسى بهم.

فنكس أبو جعفر رأسه مليًا، ثم رفع إليه رأسه وقال: إليَّ يا أبا عبد الله، فأنت القريب القرابة، وإنك ذو الرحم الواشجة، السليم الناحية، القليل الغائلة. ثم صافحه بيمينه، وعانقه بيساره، وأجلسه معه على فراشه، وانحرف له عن بعضه، وأقبل عليه بوجهه يُسائله ويحادثه، ثم قال: عجلوا لأبي عبد الله إذنه وكسوته وجائزته.

قال الربيع: فلما خرج وأسدل الستر أمسكت بثوب، فارتاع وقال: ما أرنا يا ربيع إلا قد حُبسنا.

قلت: هذه مني لا منه. قال: فذلك أيسر، قل حاجتك.

قلت: إني منذ ثلاث أدافع عنك، وأُداري عليك، ورأيتك إذ دخلت همست بشفتيك، ثم رأيت الأمر انجلى عنك، وأنا خادم السلطان، ولا غنى به عنه، فأجب منك أن تعلمنيه.

قال: نعم، قال: اللهم احرسني بعينك التي لا تنام، واكفني بكنفك الذي لا يُرام، ولا أهلك وأنت رجائي، فكم من نعمة أنعمتها علي قلَّ عندها شكري، فلم تحرمني، وكم من بليةٍ أبليتني بها قل عندها صبري، فلم تخذلني، اللهم بك أدرأ في نحره، وأعوذ بخيرك من شره.

ولم تترك الابتلاءات الإمام الصادق في هداءة العلم يُعلم الناس الطيب من القول والمأثور من جوامع الحديث حتى مات موته الصديقين والشهداء.

المصادر:
- «علماء في وجه الطغيان» للدكتور/ محمد رجب البيومي.
- «مشايخ ضد السلطة والسلطان» لإسماعيل إبراهيم.
- «جعفر الصادق» لسعد القاضي.

سيد التابعين/ سعيد بن جبير

من أعظم الأمراض وأشد الأدواء مرض الإعجاب بالنفس والتسلط على عابد الله وعدم مراقبة الرب، والاغترار بالدنيا والتدنس ببهرجها وزخارفها حتى تكون معبوده الذي يعبد، من أجلها يحب، ومن أجلها يبغض، ومن أجلها يبذل، ومن أجلها يحيا، ومن أجلها يموت، وما علم أن الدنيا متاع الغرور، كم غرت من الناس وتركتهم قبل أن يتركوها، ولا أحد أضل ممن اتبع هواه ووافق شهوته من غير تقييدها بقيود الشرع.

والحجاج بن يوسف رجل تجرأ على الدماء، وأحب الاعتداء، وقد لا يمر به يوم لا يؤذي فيه أحد إلا ما ندر، وأمره إلى ربه لا نقول إلا كما يقول الذهبي: نسبه ولا نحبه، ونبغضه في الله فذلك من أوثق عرى الإيمان، له حسنات انغمرت في بحر سيئاته وأمره إلى الله تعالى.

بلغت قوة الحجاج بالعراق مبلغًا أثار النفوس وأشعل الصدور، فقد كانت الدماء المراقة، والأشلاء المتطايرة، والسجون المكتظة، مثارًا للحنق والتبرم والضيق، ولم يرع الحجاج في قسوته دينًا أو مروءة، فكان يعنف ويبالغ في التعنيف، حتى لا يترك في النفوس موضعًا لسكينة واطمئنان، وأصبح الناس ما بين خائف على نفسه يستكين ويذل، ومجاهر بالثورة يستقبل الموت راضيًا مسرورًا متخلصًا من حياة الذل والهوان، وبالغ الحجاج في عسفه وظلمه فلم يبلغ شيئًا من الظلم إلا وفعله فامتلأت حياته بالثورات والفتن الدامية، وكانت لقسوة الحجاج بواعث نفسية ترجع إلى شعوره بضعة أصله، وتعالي بعض الناس عليه ممن ينتمون إلى قبائل جهيرة، في حين أن يرى نفسه أكثر ذكاء وتجربة وحزم، هذا إلى طموحه الخارق إلى أسباب السيادة والسيطرة، طموحًا جعله رجل الدولة الصارم، وسيف بني مروان البتار.

ومن الطبيعي أن يحدث عدوان الحجاج موجة استياء تغمر القلوب، وكان الفقهاء من أجلة التابعين والعلماء من ثقات الأمة في طليعة المتذمرين من هذا البغي الصريح، فهم يرون

نفوس تلقى حتفها في غير حق، وقد استشرى الطغيان استشراء لا يقف وراءه حد، وكلما سار أحدهم في الطريق سمع آهات الثكالى، ورأى المدامع الباكية، وزفرة المتحسرة، مما يدفع الحليم الأبي إلى الغضب والكراهية فالثورة والاستفزاز، وما كاد عبد الرحمن بن الأشعث يحمل الثورة على الحجاج حتى سارع هؤلاء الفقهاء الأماثل إلى تأييده وتعضيده وفي طليعتهم سيد التابعين سعيد بن جبير.

نشأ ابن جبير نشأة دينية ممتازة فصحب ابن عباس رضي الله عنهما وورث علمه، وبرع في الفقه براعة أجلسته مجلس الصدارة بين زملائه ومناظريه، وتصدر للفتوى الشرعية، فسار الركبان بآرائه، ونهل الرواد من علمه، وأوجد بالكوفة حركة فقهية ممتازة، كانت دعامة قوية لما نشأ بعد ذلك في الفقه الإسلامي من مذاهب مختلفة.

وعالم فقيه له هذه المنزلة في فقهه لابد أن يحتل مكانه اللائق في النفوس، وقد كان إلى ذلك كله شجاع اللسان جرئ القلب، يقول الحق دون أن تأخذه في الله لومة لائم، وجراءة القلب لم تزل دافعة إلى التحرش بالباطل ومهاجمة العدوان، ولاسيما إن استندت إلى رصيد ذهبي من التبصر والذكاء.

رأى ابن جبير مظالم الحجاج وقسوته فلم يشأ أن يعتزل الناس في مسجده بل عمل على تخفيف حدة الطاغية بالنصيحة والموعظة، وشارك في بعض وظائف الدولة مشاركة فعالة، يدرأ بها ما قد يحيق من كيد وعدوان، فكان نصيرًا للضعفاء، يبذل جهده في تخفيف الويلات ودرء المصاعب، ولم يتخلف أيضًا عن الغزو والجهاد في سبيل الله، وسار مع الجيش الإسلامي بقيادة عبد الرحمن بن الأشعث لمقاتلة ملك الترك حين تحرش بالمسلمين، وتحقق الانتصار بالجيش الإسلامي بعد معارك طاحنة طويلة فاحتل حصونًا كثيرة، ووضع المخافر المسلحة في كل مكان مخوف، وأقام البريد بين الأماكن المحتلة، لتأتيه الأنباء في أقرب مدى ممكن، وفكر في الأمر فرأى من الحيطة أن يكتفي بما أحرزه من نجاح وانتصار فلا يدفع

بكتائبه المجهدة في مطارح نائية دون أن تأخذ نصيبها من الراحة والاستجمام فتنقطع بها الأسباب وينقلب النصر هزيمة نكراء، ثم كتب عبد الرحمن إلى الحجاج ينبئه من أصاب من غنائم وما عزم عليه من هدنة وقتية يتم بعدها الاستيلاء التدريجي على البلاد، وكان على الحجاج أن يقدر له موقفه، فيشجعه بعبارات تفعل فعلها الحميد في نفسية القائد المناضل وجنوده ولكنه عارض الهدنة معارضة شديدة، وأرسل إليه خطابًا مليئًا بالزراية والاستهجان، ثم أعلن عزله وتوعده مهددًا منددًا.

وكانت الاعتبارات الشخصية هي التي تتحكم وليست تتعلق بمصلحة الحرب، فالحجاج يرى في عبد الرحمن منافسًا خطيرًا يقوم الناس له ويقعدون، ولئن وقعت الهدنة كما يريد فسوف يتفرغ إلى جمع القلوب نحوه والتفاف الناس حول رايته، ومن ثم تعظم مكانته، ويحتل في بلاط الخلافة منزل المنافس العنيد، لذلك بادر الحجاج بعزله وتهديده، وثار عبد الرحمن على الحجاج، وخلعه وخرج عن طاعته لجوره وظلمه، وقد بايعه الجند الذين كانوا في حربه لرتبيل ملك الترك. وثار مع ابن الأشعث أتباعه وفي طليعتهم سيد التابعين سعيد بن جبير.

ولم يكن تهديد الحجاج وحده باعث هذه الثورة في رأي من انضم إلى غريمه العتيد، بل إن تاريخ الحجاج المفعم بمآسيه النكراء قد ترك في كل نفس هزة أليمة. وكان سعيد بن جبير وعبد الرحمن بن أبي ليلى وعامر الشعبي وغيرهم من أعلام الفقه وأئمة العلم في مقدمة الثائرين، وقد لاقت الثورة تأييدًا إجماعيًا من العراق، وكاد يتم لهم النصر الساحق في مواقع متتالية أخذت تتلاحق وتتابع إلا أن جحافل جيوش الشام التي أرسلها الخليفة لنصرة الحجاج كانت لها الكلمة في العليا في حسم الصراع، واستعان الحجاج بمكائده الكثيرة، فاندحر ابن الأشعث وفر هاربًا تتقاذفه السبل والمشارف وتفرق جيشه، فقبض الحجاج على ناصية الأمر، وانتصر على ابن الأشعث فهرب سعيد إلى أصبهان فكتب الحجاج إلى نائبها أن يبعثه إليه فلما سمع سعيد بذلك هرب إلى مكة واستقر بها، وكان الحجاج يطارده ويتلمس أخباره.

وأشار المحبون لسعيد أن يهرب من مكة، فرد عليهم وقال: والله لقد استحييت من الله مما أفر ولا مفر من قدره.

وأمر أمير مكة خالد القسري البحث عن سعيد في شعاب وجبال مكة حتى وجدوه وألقوا القيد في يديه على مرأى من بعض أصحابه وآذنوه بالرحيل إلى الحجاج، فتلقاهم هادئ النفس مطمئن القلب، ثم التفت إلى أصحابه وقال: ما أراني إلا مقتولًا على يدي ذلك الظالم، ولقد كنت أنا وصاحبان لي في ليلة عبادة فاستشعرنا حلاوة الدعاء، فدعونا الله بها دعونا وتضرعنا إليه بما شاء أن نتضرع، ثم سألنا الله جَلَّ وعلا أن يكتب لنا الشهادة، وقد رزقها الله تعالى لصاحبي كليهما وبقيت أنا أنتظرها.

وما كاد ينتهي من كلامه حتى طلعت عليه بنت صغيرة له فرأته مقيدًا والجند يسوقونه فتشبثت به وجعلت تبكي وتتشنج، فأبعدها برفق والعبرة في فؤاده رحمة بها لا جزعًا من الموت، وقال لها: يا بنية قولي لأمك إني أرجو الله أن يجمعنا في الجنة، وإن افترقنا في الدنيا فإن موعدنا الجنة إن شاء الله.

ثم مضى، واطلع الجند على عبادته وزهده وورعه وتقواه فذهلوا لذلك وقالوا: كيف يقتل مثل هذا وما جنايته إلا الانتقام للنفس، ولعل بعض الجند قد عرض عليه التخلص فأبى مستسلمًا لأمر الله تعالى ومنقادًا له، ولعلمه ويقينه أنه لا يغني حذر عن قدر.

تصدر الحجاج مجلس المحاكمة، وأخذ يرسل ضحاياه إلى الجلاد شهيدًا وراء شهيد، لا يعبأ بعذر واضح أو يستشعر خشية مرهوبة، وكانت محاكمة سعيد بن جبير حدثًا رائعًا يسجل بآيات البطولة من مسلم يثق بعدل الله ورحمته، ويرى من المحتم المؤكد عليه أن يجابه الطغيان في جبروته، ولا عليه إذا كانت نتيجة ذلك قاسية أليمة، فهو يعلم أن حياة الذل والخنوع لا تقاس بالشهادة العالية في مناضلة الفساد، والتشهير بذويه، وقد كان في وسعه أن

يتفادى مصرعه بكلمات معسولة تظهر تضرعه واستكانته، ولكنه وجد الحرج الزائد في ضميره، واستشعر الغربة المخلصة في الشهادة، فأعلنها ثورة سافرة على الظلم البغيض، وواجه الأسئلة القاسية بإجابة تعدلها قسوة وصلابة، فأذل كبرياء الحجاج وحطم غروره الكاذب في موقف يترقب فيه المديح والإطراء، فهو الذي أبى أن يهرب في طريقه للمحاكمة وقد مهد له الحارس سبيل الفرار، أبى ذلك ورفضه كي لا يؤخذ بجرمه حارس ضعيف، وكي لا تسجل الأجيال عليه نكوصًا عن مواجهة الطغيان في موقف تقشعر به الجلود، وترتعد منه الفرائص الشداد.

فلما وصل سعيد إلى الحجاج وأدخلوه عليه نظر إليه في حقد وغيظ وقال: ما اسمك؟

قال: سعيد بن جبير.

فيتهكم الطاغية ويبالغ في الاستخفاف به قائلًا: بل أنت شقي بن كسير.

فيندفع سعيد ليجيبه قائلًا: بل كان أبي أعلم باسمي منك.

وإذ ذاك يتضايق الحجاج فيصيح في تبرم وغيظ: لقد شقيت وشقي أبوك.

ويظن أنه بذلك قطع الرد على غريمه ولكنه يسمعه: يجيبك الغيب إنما يعلمه غيرك.

فيستشري غيظه ويلجأ إلى الوعيد والتهديد فيصيح: لأبدلنك نارًا تلظى.

ويرد سعيد في بساطة وهدوء: لو علمت أن ذلك لك ما اتخذت إلهًا غيرك.

فقال الحجاج: ما تقول في محمد؟

قال: من تعني بمحمد؟ هل تريد الرسول ﷺ ؟

قال: نعم.

قال: وهل يخفى عليك قولي فيه، وهو سيد ولد آدم، نبي الرحمة وإمام الهدى بعثه الله رحمة للعالمين، وليس مثلك يسأل مثلي لأننا جميعًا نؤمن برسالته ولا يسأل إلا شاك مرتاب.

قال له: فما تقول في أبي بكر؟

قال: هو الصديق خليفة رسول الله ﷺ ذهب حميدًا وعاش سعيدًا.

وسأله عن عمر وعن عثمان وعن علي وهو يجيب بما اتصف به كل واحد من هؤلاء الكرام البررة صفوة الخلق بعد الرسل الأئمة المهديين الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه.

وهنا نفذ الطاغية إلى هدفه فقال: وما رأيك في علي أهو في الجنة أم في النار؟

واستمع الرد فوجد حزمًا بالغًا وحيطة تامة في قوله سعيد: لو دخلتها وعرفت من فيها لعرفت أهلها.

الحجاج: ما قولك في الخلفاء؟

ابن جبير: لست عليهم بوكيل.

الحجاج: أي خلفاء بني أمية أعجب لك؟

ابن جبير: أرضاهم لخالقهم.

الحجاج: فأيهم أرضى للخالق؟

ابن جبير: علم ذلك عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى، يعلم سرهم ونجواهم.

الحجاج: أحب أن تصدقني.

ابن جبير: إن لم أحب أن أكذبك

الحجاج: فما بالك لا تضحك؟

ابن جبير: وكيف يضحك مخلوق خُلق من طين، والطين تأكله النار.

الحجاج: فما بالنا نضحك؟

ابن جبير: لم تستو القلوب

ذلك هو المشهد الأول من هذه المناقشة، أو قل الفصل الأول من المحنة، وقد بدا فيها الحجاج أنه غير قادر على إخضاع سعيد إليه، أو حمله إلى إعطاء الولاء لأميره أو لسيده ولو بالإشارة أو التلميح. . ولم ينفعه التهديد بالقتل، كما لم تفده غلاظة الكلام، وقبح الاتهام

وهنا يسلك الحجاج طريقًا آخر لعله يصل فيه إلى ما يريد ويحصل علـلًا مبتغاة من سعيد، هو الإغراء بالمال، فأمر باللؤلؤ والزبرجد والياقوت، فجمعه بين يديه.

قال سعيد: إن كنت جمعت هذا لتتقي به فزع القيامة فصالح، وإلا ففزعة واحدة تذهل كل مرضعة عما أرضعت، ولا خير في شيء من الدنيا إلا ما طاب وزكا.

وهكذا ينتهي المشهد الثاني من هذه المحنة، فلم ينفع الحجاج هذا الإغراء بالمال والذهب، كما لم تسعفه منحة التي أومأ بها، فليس ابن جبير من عُباد المال، ولا من الذين يبيعون دينهم بدنياهم، لذا فقد لقنه درسًا لن ينساه في أن المال أعظم وسيلة لإصلاح الأعمال، وصلاح الآخرة، إن جمع بطريق الحلال الطيب لاتقاء فزع يوم القيامة ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩]. ثم يدعو الحجاج بالعود والناي، فلما ضرب بالعود ونفخ بالناي، بكى سعيد.

قال الحجاج: ما يبكيك؟ أهو اللعب؟

قال سعيد: هو الحزن، أما النفخ فذكرني يومًا عظيمًا، يوم ينفخ في الصور، وأما العود فشجرة قطعت من غير حق، وأما الأوتار فمن الشاة تبعث يوم القيامة.

فليس سعيد من هواة الطرب، ولا من رواد الناي والعود، وإنما من هواة الحق ورواد الإسلام الذي وهب حياته له، فإعراضه عن ذلك وإظهار حزنه حين تذكر الآخرة وشدة عذابها، فكان درسًا آخره لقنه أياه، وإدراك المسلم ذلك دائمًا، لما عصى الله أو خالف أمرًا من أوامره، وبعد أن أسقط في يده، وفشلت جميع تلك السبل، هنا اشتدت المحنة قليلًا، فعلا غضب الحجاج وفقد أعصابه، وكاد ينهي هذه المحنة بمشاهدها، أو يصل إلى نهايتها، ولكن تريث إلى حين لعله يحظى بشيء من سعيد.

الحجاج: فيما تقول فيَّ؟

ابن جبير: أنت أعلم بنفسك.

الحجاج: أريد علمك أنت؟

ابن جبير: إذن يسؤك ولا يسرك.

الحجاج: لابد أن أسمع منك.

ابن جبير: إني لأعلم أنك مخالف لكتاب الله تعالى، تقدم على أمور تريد بها الهيبة وهي تقحمك في الهلكة وتدفعك إلى النار.

فقال الحجاج: ويلك يا سعيد!!

قال ابن جبير: لا ويل لمن زحزح عن الناس وأُدخِلَ الجنة.

فتميز الحجاج حنقًا وصاح: والله لأقتلنك.

قال ابن جبير: إذن تفسد عليَّ دنياي وأفسد عليك آخرتك.

قال الحجاج: اختر لنفسك أي قتلة شئت؟

قال ابن جبير: بل اخترها أنت لنفسك يا حجاج فو الله ما تقتلني قتلة إلا قتلك الله مثلها في الآخرة.

قال الحجاج في سخرية مريرة: أتريد أن أعفو عنك؟

قال ابن جبير: إن كان عفو فمن الله تعالى، وأما أنت فلا تملك عفوًا عن إنسان.

فدعا الحجاج بالسيف والنطع فتبسم سعيد فقال له الحجاج: وما تبسمك؟

قال: عجبت من جراءتك على الله وحلم الله عليك.

عند ذاك ضاق الحجاج ذرعًا بسعيد، ولم يطق صبرًا عليه، وهو يتلقى منه هذه الأجوبة جريئة والتي كانت سهامًا تصيب قلبه، فأمر بإنهاء المحنة.. فهاج وصاح: اقتله يا غلام.

فاستقبل ابن جبير القبلة ثم قال: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩].

قال الحجاج: حرفوا وجهه عن القبلة.

قال سعيد: ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ١١٥].

فقال الحجاج: كبوه على الأرض.

فقال سعيد: ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ [طه: ٥٥].

فقال الحجاج: اذبحوا عدو الله فما رأيت أحدًا أدعى للآيات منه.

فرفع سعيد المظلوم كفيه البريئتين إلى الرب القدير الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ثم قال: أما أنا فأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله خذها مني حتى تلقاني بها يوم القيامة.. اللهم لا تسلط الحجاج على أحد بعدي.

قال خلف بن خليفة عن أبيه: شهدت مقتل سعيد بن جبير فلما وقع السيف على رأسه قال: لا إله إلا الله، لا إله إلا الله، ثم سكت.

فذبح من الوريد إلى الوريد، ولسانه رطب بذكر الله، وبهذا انتهت محنة سعيد بن جبير باستشهاده وبقيت المحن تصيب أمثاله.

وفارق الدنيا بكلمة التوحيد ليلقى بها ربه ويثقل بها ميزانه، ولعلها تنجيه من عذاب الله تعالى، وكم يبحث الكثير من الناس عند الموت وتطلب منهم كلمة التوحيد فلا يجدوها، وما ضاع عمل سعيد فلعله أن يكون شهيدًا، ولعل الله تعالى قد استجاب دعوته وأراح المسلمين من شر الحجاج فلم يمض على مصرع سعيد غير خمسة عشر يومًا حتى أصيب الحجاج بالحمى الشديدة، واشتدت عليه وطأة المرض حتى كان يغفو ساعة ويضيق ساعة، فإذا أفاق استيقظ مذعورًا مهزومًا وهو يصيح ويقول: هذا سعيد بن جبير آخذ بخناقي يقول: فيم قتلتني، ثم يبكي ويقول: مالي ولسعيد بن جبير، ردوا عني سعيد بن جبير.

وما بقي إلا أيامًا وهو في عذاب شديد حتى قصم الله ظهره وأزال ذكره وأحصى بطشه وجعله عبرة للمعتبرين.

وقد روي أنه لما مات رآه بعض الناس في المنام، فقالوا: ما فعل الله بك؟ قال: قتلني الله تعالى بكل امرئ قتلة واحدة، وقتلني بسعيد بن جبير سبعين قتلة.

قيل للحسن البصري: إن الحجاج قد قتل سعيد بن جبير فقال: اللهم ائت على فاسق ثقيف. . والله لو أن من بين المشرق والمغرب اشتركوا في قتله لكبهم الله عَزَّ وَجَلَّ في النار.

وقال الإمام أحمد بن حنبل: قتل الحجاج سعيد بن جبير، وما على الأرض أحد إلا وهو مفتقر إلى علمه.

لقد آثر سعيد بن جبير الآخرة وتقدم إلى المحاكمة يحمل روحه على كفه، ليعلم الناس جميعًا أن الحرية تنال بالدماء، وأن الشهادة في سبيل الحق مثوبة رفيعة لا يدركها غير المؤمنين من ذوي النفوس الرفيعة والمعدن الأصيل وتنقضي المحنة باستشهاده لكن تبقى صورة المحنة تتكرر، وتصيب أمثال سعيد كلما ظهر على الساحة حاكم ظالم جبار، وعلم صابر يصدع بالحق، ولا يخشى في الله لومة لائم.

❁❁❁

المصادر:

- «سير أعلام النبلاء» للذهبي.
- «البداية والنهاية» لابن كثير.
- «وفيات الأعيان» لابن خلكان.
- «مناهج العلماء في الأمر بالمعروف» لفاروق السامرائي.
- «الإسلام بين العلماء والحكام» لعبد العظيم بدوي.
- «اتق دعوة المظلوم» لسعد الحجري.
- «علماء في وجه الطغيان» للدكتور/ محمد رجب البيومي.

الإمام العلامة/ شمس الدين ابن قيم الجوزية

هو: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن حَرِيز، الزُّرَعِي الأصل، ثم الدمشقي، الحنبلي، المشهور بابن قَيِّم الجوزية، شمس الدين، أبو عبد الله.

عاش ابن القَيِّم: في الشام في أواخر القرن السابع ومنتصف القرن الثامن الهجري [٦٩١ - ٧٥١هـ].

ولو عدنا إلى ما قبل مولد ابن القَيِّم بفترة ليست بالبعيدة، لوجدنا أن العالم الإسلامي قد مني بكارثة مروعة، وذلك حين اجتاح التتار العالم الإسلامي، واستولوا على بغداد عاصمة الخلافة، وقتلوا خليفة المسلمين المستعصم بالله، حتى [بقيت بغداد خاوية على عروشها، ليس بها أحد إلا الشاذ من الناس، والقتلى في الطرقات كأنها التُّلُول]. وذلك في سنة [٦٥٦هـ].

ثم ما كان بعد من لطف الله - سبحانه- بالعباد والبلاد، حين رد كيد هؤلاء الغزاة، وهزمهم شر هزيمة على يد الملك المظفر قطز - سلطان مصر- وذلك بعد أن استولى التتار على معظم مدن الشام، وفي عزمهم الزحف إلى مصر وكانت هزيمتهم في سنة [٦٥٨هـ] [وجاءت البشارة، ولله الحمد على جبره إياهم بلطفه].

كما أن العالم الإسلامي تعرض -أيضًا- للغزو الصَّليبي الحاقد، فاستولى الصليبيون على كثير من ديار المسلمين، واستمرت الحروب بينهم وبين المسلمين قرنين من الزمان، يصيبون من المسلمين، ويصيب المسلمون منهم، إلى أن منَّ الله سبحانه- وله الحمد- بتطهير البلاد منهم في سنة [٦٩٠هـ] - قبل مولد ابن القَيِّم بسنة- على يد الملك الأشرف خليل بن قلاوون، فما حَلَّت سنة [٦٩٠هـ] إلا وقد [فتحت عكا وبقية السواحل التي كانت بأيدي الفرنج من مُدَدٍ متطاولة، ولم يبق لهم فيها حجر واحد، ولله الحمد والمنة].

تلك أهم المؤثرات السياسية الخارجية التي تعرض لها العالم الإسلامي- وبخاصة مصر والشام- في ذلك العصر، وما تركته تلك الحروب من آثار على العالم الإسلامي آنذاك، كان من أهمها:

* إحياء روح الجهاد في نفوس الأمة، والرغبة في التضحية وبذل النفس في سبيل الله سبحانه.

* توحيد الصفوف عند نزول المحن والشدائد، وبخاصة إذا كان الخطر المحدق يهدد الإسلام والمسلمين.

* كشفت هذه الحروب عن بعض المنافقين أعداء الإسلام وأهله، من: الرافضة، والنصارى، وغيرهم ممن كانوا عونًا لأعداء الإسلام، وكان أشرّ هؤلاء جميعًا الرافضة، وعلى رأسهم ابن العلقمي - وزير الدولة حينذاك- حيث إنه اجتهد في [صرف الجيوش وإسقاط اسمهم من الديوان. . . إلى أن لم يبق منهم سوى عشرة آلاف - وقد كانوا مائة ألف - ثم كاتب التتار وأطمعهم في أخذ البلاد، وسهل عليهم ذلك، وحكى لهم حقيقة الحال، وكشف لهم ضعف الرجال، وذلك كله طمعًا في أن يزيل السُنَّةَ بالكُلِّيَة، وأن يُظْهِرَ البدعة الرافضيَّة، وأن يقيمَ خليفة من الفاطميين، وأن يبيد العلماء والمفتين. . .].

وبالرغم من أن هذه الأحداث سابقة لمولد ابن القَيِّم، إلا أنه أفاد منها واستوعب دروسها جيدًا، فكان يحذر المسلمين من هؤلاء المنافقين الذين يتربصون بالإسلام وأهله الدوائر، ويُبَيِّنُ خطرهم على الإسلام وأهله، يقول: في حق الرافضة:

«وَهل عَاثت سيوف المشركين عباد الأصنام من عسكر هولاكو وذويه من التتار إلا من تحت رؤوسهم؟ وهل عطلت المساجد، وحرقت المصاحف، وقتل ثروات المسلمين وعلماؤهم وعُبَّادهم وخليفتهم إلا بسببهم ومن جَرَّائهم؟ ومُظَاهَرَتُهُم للمشركين والنصارى معلومة عند الخاصة والعامة».

هكذا أفاد ابن القَيِّم من أحداث التاريخ في دعوته، ومن هنا يتأكد لنا: إلى أي حد كان ابن القَيِّم: متأثرًا بأحداث عصره، وإلى أي حدٍّ استطاع أن يُسَخِّر دروس هذه الأحداث في خدمة أهدافه ومبادئه، وكيف اشتعلت غيرته الدينية رَحِمَهُ اللَّهُ على حرمات الإسلام التي انتهكت، وعلى صفوة علمائه وعُبَّادِه الذين راحوا ضحية حقد الرافضة وكيدهم للإسلام وأهله.

تلك أبرز الآثار التي تركتها هذه الحروب على المسلمين في ذلك العصر.

في سنة [٦٥٩هـ] خرج المستنصر بالله أحمد بن الظاهر من معتقله ببغداد، ثم قدم على الظاهر بيبرس في مصر، وبعد ثبوت نسبه بايعه الملك الظاهر، والقاضي، والوزير، والأمراء، وخُطِبَ له على المنابر، وضرب اسمه على السِّكَّة، ثم قُلِّدَ الظاهر بيبرس السلطة في السنة نفسها، فكان ذلك بمثابة اعترافٍ رسمي بشرعية حكم الدولة المملوكية آنذاك.

ولكن هل كان لمنصب الخليفة هذه المرة قيمة فِعْلِيَّة؟ أم أن ذلك لم يكن إلا أمرًا شكليًا يضفي على سلطة المماليك وحكمهم للبلاد الصبغة الشرعية فحسب؟

الواقع أن الأمر لم يكن إلا شكلًا، مع خلوه عن كل مضمون حقيقي لصفة الخليفة، وممارسته لصلاحياته في حكم البلاد.

ولقد أحسَّ ابن القَيِّم: بمرارة هذا الأمر، وتأسف لما وصل إليه حال الخليفة في تلك الأيام، فأخذ يُعَبِّرُ عن ذلك في مؤلفاته وكتاباته، فقال مرة - في معرض ذَمِّهِ للمعرضين عن نصوص الوحي، المُقَدِّمين عليها آراء الرجال: «أنزلوا النصوص منزلة الخليفة العاجز في هذه الأزمان، له السِّكة والخطبة، وما له حكم نافذ ولا سلطان».

وهكذا يتأثر ابن القَيِّم: مرة أخرى بأحداث مجتمعه، فلا يجد إلا قلمه يصوِّر به بعض تلك الأحداث، لافتًا بذلك الأنظار إلى وضع خاطئ، ومرض يحتاج إلى علاج. والواقع أن الأمر بالنسبة للخليفة لم يقف عند مجرد إهماله، وتدبير الأمر دونه، بل تعدَّى ذلك

مهانة السلطان له، بل واعتقاله وتشريده؛ فقد استهلت سنة [٧٣٧]هـ «والخليفة المستكفي بالله قد اعتقله السلطان الملك الناصر، ومنعه من الاجتماع بالناس». ولم تستهل السنة التي بعدها إلا والخليفة المستكفي «منفيٌّ ببلاد قوص، ومعه أهله وذووه، ومن يلوذ به... ». فلا حول ولا قوة إلا بالله.

أما عن الأمراء والسلاطين الذين حكموا البلاد في تلك الفترة: فقد كانوا في حالة يرثى لها من التناحر، والتطاحن، والتنافس، والتقاتل فيما بينهم.

فإن هؤلاء المماليك -الذين كانوا أرقَّاء في خدمة السلاطين- قد وصل أكثرهم إلى مناصب مرموقة، وكثر اتخاذ الأمراء منهم، ومن ثَمَّ أصبح كل واحد منهم يتطلع إلى الجلوس على كرسي السلطة، ولا يرى لغيره ميزة في التقدم عليه، واعتلاء السلطة دونه.

فأخذ كل واحد منهم يقوِّي من أمر نفسه، ويكثر من المماليك حوله، حتى إذا سنحت له فرصة انقض على السلطان القائم فقتله، أو سجنه، أو نفاه، ثم يحل محله في حكم البلاد.

ولم يكن الطمع في السلطة وحده هو الدافع إلى التخلُّص من السلطان القائم، بل إن مجرد عدم رضي الأمراء عن السلطان، أو خوفهم من بطشه بهم، كان مسوِّغًا -كذلك- لإقصائه أو التخلص منه. ومن يستعرض تاريخ تلك الدولة يجد من ذلك عجبًا، إذ إن العَدْوَ على السلطان القائم، وقتله أبشع قتلة، لم يكن أمرًا مستغربًا آنذاك، حتى إن كلَّ واحد منهم كان يتوقع أن يأتي دوره في أية لحظة، وكان لا يستبعد ذلك، فالأمراء الذين قتلوا المظفر قطز -ظلمًا وعدوانًا- قيل: إنهم لما قتلوه «حار الأمراء بينهم فيمن يُوَلُّون المُلْك، وصار كلُّ واحد منهم يخشى غائلة ذلك، وأن يصيبه ما أصاب غيره سريعًا... ».

فقد اعتلَّ كرسيَّ السلطنة في الفترة [٦٤٨ - ٧٨٤هـ] وهي ستة وثلاثون عامًا، هي فترة حكم دولة المماليك الأولى تسعةٌ وعشرون حاكمًا، قُتِل أكثرهم أو خُلِع، وقليل منهم توفي أو اعتزل.

ولا يخفى ما خلَّفَتْه هذه القلاقل والاضطرابات من آثار على الناس في ذلك الوقت: من عدم الأمن والاستقرار، وارتفاع الأسعار وغلاء الأقوات، مع حرمان الناس من المشاركة في حكم بلادهم؛ إذ كان ذلك لطائفة المماليك دون غيرهم، إلى غير ذلك من الأوضاع السيئة التي كان لها أسوأ الأثر على حياة الناس حينذاك.

في ظل هذا الوضع السياسي المتردي، وهذه الظروف غير المستقرة، ساءت الحالة الدينية في البلاد، وضعف الوازع الديني في نفوس الكثيرين، وَارْتُكِبَت الكثير من المحرمات، وشاعت المنكرات.

ولقد كان الكثيرُ من الأمراء والسلاطين قدوةً سيئة في هذا الجانب، وذلك بما شانوا به أنفسهم من حياة اللهو والبذخ والانحلال والترف، فنجد أحدهم - وهو الملك المنصور - قد «صدر عنه من الأفعال التي ذكر أنه تعاطاها من شرب المسكر، وغشيان المنكرات، وتعاطي ما لا يليق به...».

هذا إلى جانب سفك كل واحد منهم دم الآخر طمعًا في المنصب والسلطة كما تقدم.

ولقد انتشر حينذاك التعصب المذهبي، وأدى إلى كثير من الخلافات بين العلماء أنفسهم، فضلًا عن بقية الناس، حتى إن الجامع الأموي في دمشق كان يوجد به إمام لكل مذهب، ولكل إمام محراب، ويشير الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إلى شيء من الاختلاف في الجامع، فيقول: «وأمر الكاملُ في يوم الاثنين سادس جمادى الآخرة أئمة الجامع أن لا يصلي أحدٌ منهم المغرب سوى الإمام الكبير، لِمَا كان يقع من التشويش والاختلاف بسبب اجتماعهم في وقت واحد، وَلَنِعْمَ ما فعل».

وكانت هذه الخلافات تؤدي في بعض الأحيان إلى الشحناء والقطيعة بين العلماء، حتى إن السلطان كان يتدخل في ذلك للإصلاح بينهم، ويَحْكِي ابن كثير: موقفًا من هذه المواقف -

ـ ـ حاضره- فيقول: «وجلس نائبُ السلطة في صدر المكان، وجلسنا حوله، فكان أول ما ـ كنا نحن الترك وغيرنا إذا اختلفنا واختصمنا نجيء بالعلماء فيصلحون بيننا، فصرنا حـ إذا اختلفتِ العلماءُ واختصموا فمن يصلح بينهم؟ وشرع في تأنيب من شنَّع على ـ فعيّ».

وقد كانت العقائد المختلفة المخالفة لعقيدة أهل السنة منتشرة حينذاك، وربما أدت إلى ـ الخلاف والفتن أيضًا؛ ففي المحرم من سنة ٧١٦هـ [وقعت فتنة بين الحنابلة والشافعية ـ العقائد، وترافعوا إلى دمشق، فحضروا بدار السعادة عند نائب السلطنة تنكز، فأصلح بينهم].

ولقد كان لابن القَيِّم: موقفه الواضح في هذه القضية، من: الانتصار لعقيدة أهل السنة ـ حـ عة، والوقوف في وجه الأشاعرة، كما يتضح ذلك من مؤلفاته العديدة في هذا الصدد.

هذا عن النزاعات العقدية والمذهبية في ذلك الوقت، التي كانت - ولاشك- من عوامل ـ عوضى الدينية، والتفرق والاختلاف.

كما انتشرت في ذلك الوقت بعض الفرق الضالة التي تنتسب - كذبًا- إلى الإسلام، مع ـ ـة عداوتها وحربها لأهله، وعلى رأس هذه الفرق: الرَّافِضَة، والنُّصَيْرِيَّة وغيرهما، وما كان ـ ـه الفرق وهم فِرق عديدة، ويقولون بإمامة عليٍّ وتفضيله على سائر الصحابة، ويتبرءون ـ ـ بي بكر وعمر وكثير من الصحابة، ومنهم من يسب الصحابة ويلعنهم، قبحهم الله..

وهم يُنْسبون إلى محمد بن نصير النميري، وكان من أصحاب الحسن العسكري، ـ ادَّعى النبوة، ثم ادَّعى الربوبية.

ومن اعتقاداتهم: أن الله كان يَحُلُّ في علي، وأنه في اليوم الذي قلع فيه باب خيبر كان الله ـ تعالى -عما يقولون- قد حلَّ فيه. ولهم غير ذلك من الاعتقادات الباطلة.

من أثر في زعزعة الاستقرار الديني في المجتمع، والكيد للمسلمين، وقد تقدم ما فعلته الرافضة بالمسلمين أثناء غزو التتار.

ولقد كان هؤلاء الرافضة يُقَابَلُون بالقتل والتنكيل عندما يصرِّح أحدهم بكفره؛ ففي سنة [٧٤٤هـ] «وفي صبيحة يوم الاثنين الحادي والعشرين منه قتل بسوق الخيل حسن بن الشيخ السكاكيني على ما ظهر منه من الرَّفض الدال على الكفر...). ووجد رجل آخر، اسمه محمود بن إبراهيم الشيرازي يسب الصحابة ويقول: كانوا على الضلالة، (فعند ذلك حُمِلَ إلى نائب السلطنة، وشهد عليه قوله: كانوا على الضَّلالة، فعند ذلك حكم عليه القاضي بإراقة دمه، فأخذ إلى ظاهر البلد فضربت عنقه، وأحرقته العامة، قَبَّحَهُ الله».

ولم تكن النُّصَيْرِيَّة أخف شرًّا ولا أقل ضررًا من أولئك الرافضة، بل إنهم خرجوا في سنة [٧١٧هـ] عن الطاعة، وادَّعوا الألوهية لعليٍّ، وكفَّروا المسلمين، ودخلوا مدينة (جَبَلَة) وقتلوا خلقًا كثيرًا من أهلها، وسَبُّوا الشيخين، وخربوا المساجد واتخذوها خَمَّارَات إلى أن «جُرِّدَت إليهم العساكر، فهزموهم وقتلوا منهم خلقًا كثيرًا... وقتل المهدي أضلهم».

وإلى جانب وجود هذه الفرق المعادية للإسلام والسنة وأهلها، وجدت في أوساط الناس البِدَعُ والخرافات، والاعتقاد في الأشخاص من المشعوذين والدجالين، وقد كان لانتشار فرق الصوفية حينذاك دورٌ كبيرٌ في شيوع هذه الخرافات والترويج لها، وزاد الأمر سوءًا: تشجيع بعض الأمراء لهم، بل والعناية بأمرهم، والإنفاق عليهم، حتى وصل الأمر ببعضهم إلى الاعتقاد فيهم؛ كما كان من أمر الظاهر بيبرس؛ إذ كان له شيخ اسمه الخضر بن أبي بكر العدوى، وكان الظاهر «يعظمه تعظيمًا زائدًا، وينزل إلى عنده إلى زاويته في الأسبوع مرة أو مرتين، ويستصحبه معه في كثير من أسفاره، ويكرمه ويحترمه ويستشيره فيشير عليه برأيه ومكاشفات صحيحةٍ مطابقةٍ؛ إما رحمانيةٍ أو شيطانية. . . ». وشيخ آخر اسمه ناصر الدين بن إبراهيم العثماني «كان لنائب السلطنة الأفرم فيه اعتقاد، وَوَصَلَهُ منه افتقاد».

كما انتشر المُنَجِّمُون، وكثر قصد الناس لهم، حتى كانت سنة [٧٣٣هـ] «أمر السلطان بتسليم المُنَجِّمِين إلى والي القاهرة، فضربوا وحبسوا؛ لإفسادهم حال النساء».

أما البدع التي سادت المجتمع في ذلك الوقت فكثيرة، كبدعة الوَقِيْد في المسجد الأموي بدمشق في ليلة النصف من شعبان، وذلك أن الناس يُشعِلون في هذه الليلة في المسجد قناديل زائدة عما فيه، ويعتقدون أنهم إن لم يفعلوا ذلك في عام مات السلطان، مع إحياءِ هذه الليلة، وفي سنة [٧٥١هـ] عام وفاة ابن القَيِّم: «بطل الوقيد بجامع دمشق، فلم يزد في وقيده قنديل واحد على عادة لياليه في سائر السنة ولله الحمد والمنة، وفرح أهل العلم بذلك وأهل الديانة، وشكروا الله - تعالى- على تبطيل هذه البدعة الشنعاء، التي كان يتولد بسببها شرور كثيرة بالبلد».

كما سادت المجتمع ألوانٌ من الشركيات؛ كالتبرك بالأحجار والجمادات ونحو ذلك، من ذلك ما حكاه ابن كثير: عن شيخ الإسلام ابن تَيْمِيَّة:، من أنه في شهر رجب سنة [٧٠٤هـ]: «راح الشيخ تقي الدين ابن تَيْمِيَّة إلى مسجد التاريخ، وأمر أصحابه -ومعه حجَّارون- بقطع صخرة كانت بنهر قَلُوطٍ تزار ويُنْذَر لها، فقطعها وأراح المسلمين منها ومن الشرك بها، فأزاح عن الناس شبهة كان شرُّهَا عظيمًا».

كما انتشرت المعاصي والمنكرات بين الناس: من شرب للخمر والحشيش، واحتراف بعض النساء للبغاء وغير ذلك، حتى إن جماعة من مجاوري الجامع بدمشق جاءوا في سنة [٧٥٨هـ]، «إلى أماكن مُتَّهَمَةٍ بالخمر وبيع الحشيش، فكسروا أشياء كثيرة من أواني الخمر، وأراقوا ما فيها، وأتلفوا شيئًا كثيرًا من الحشيش وغيره».

بل قد وُجِدَ من الأمراء من يضمن هذه المنكرات والفواحش نظير أجر معلوم يأخذه على ذلك، كما كان من حال سيف الدين قَبْجَق نائب دمشق؛ فإنه «ضَمِنَ الخَمَّارات ومواضع الزنا من الحانات وغيرها، وجُعِلَت دار ابن جَرَادة ... خَمَّارَة وحانة أيضًا، وصار له على ذلك في كل يوم ألف درهم، وهي التي دمَّرته ومحقت آثاره».

ومن المنكرات التي سادت المجتمع أيضًا: الغناء والطرب، وقد أعلن ابن القَيِّم: حربًا لا هوادة فيها على الغناء وأهله، وبَيَّنَ شَبَهَهُم، ودحض مزاعمهم في استحلال ذلك، حتى إنه أفرد لذلك مؤلفًا كما سيأتي، كما اعتنى بذلك في مؤلفاته الأخرى، وبخاصة (إغاثة اللهفان)، وما ذلك إلا دليلٌ على شيوع هذا البلاء في زمنه، واستفحال أمره.

تلك هي أهم مظاهر الفساد الديني في ذلك الوقت، ولا شك أن مثل هذه البيئة وما فيها من مفاسد ومخالفات شرعية، من أكبر العوامل التي تحرك الدعاة المخلصين، والعلماء العاملين، للقيام بمجابهة هذه المنكرات، والتحذير منها، والتنبيه على خطرها، ومحاولة الأخذِ بأيدي الناس إلى الطريق القويم، والصراط المستقيم.

ولقد كان لابن القَيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ في هذا الباب جهد مشكور؛ فإنه يُعَدّ واحدًا من أبرز علماء هذه الأمة الذين حملوا راية الإصلاح الديني في ذلك العصر، ولا يزال صدى دعوته وأثرها يعمل عمله في الناس إلى يومنا هذا، وسيظل كذلك إن شاء الله.

عاش ابن القَيِّم في بيئة يسودها كثير من الفساد الديني والأخلاقي، وتنتشر فيها عادات اجتماعية متردية، وتروجُ فيها أفكارٌ ونِحَلٌ منحرفةٌ مع انتسابها - زُورًا- للإسلام.

وشاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- وله الحمد- أن يشرح صدر ابن القَيِّم للمنهج الحق، وأن يريه الطريق المستقيم، وأن يُحَبِّبَ إلى قلبه التمسك بالكتاب والسنة دون ما سواهما.

وكان من توفيق الله – عَزَّ وَجَلَّ– أن هيَّأ له أستاذًا فاضلًا، وعلمًا شامخًا، وعالمًا نِحْرِيرًا مجاهدًا، وهو: شيخ الإسلام ابن تَيْمِيَّة:، الذي كان سبقه إلى سلوك هذا السبيل، فكان له – بعد توفيق الله – خير القدوة، ونعم المرشد؛ فقد لازمه ابن القَيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ منذ عودته من الديار المصرية إلى دمشق سنة [٧١٢هـ]، إلى أن توفي الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ في سنة [٧٢٨هـ]، حتى صار من أصحب الناس له، وألصقهم به ومن أخصِّ تلاميذه والمُقَرَّبِين إليه، ولقد تَمَكَّنَت محبةُ الشيخ

من قلب تلميذه ابن القَيِّم:، فكان لا يفارقه أبدًا، حتى إنه كان محبوسًا معه في القلعة إلى أن مات الشيخ.

وهكذا كان لابن تَيْمِيَّة أثرٌ كبيرٌ؛ بل أكبر الأثر في حياة ابن القَيِّم توجيهًا وتعليمًا، وتربيةً وإرشادًا؛ فقد أخذ عنه عِلمًا غزيرًا، واستفاد منه منهجًا قويمًا في حياته ودعوته - [مع ما سلف له من الاشتغال]، والتحصيل - حتى حَمَل الراية من بعده، وسار على الدَّرْبِ نفسه، داعيًا للرجوع إلى الكتاب والسنة، والتمسك بهديهما، وفتح الله عليه في ذلك الفتح المبين، فكان - ولا يزال- مِشْعَلَ خير ونور، هدى الله به الكثيرين إلى صراطه المستقيم.

فلعلها [سرت إليه بركة ملازمته لشيخه ابن تَيْمِيَّة في السراء والضراء، والقيام معه في محنه، ومواساته بنفسه، وطول تردده إليه]. كما يقول الإمام الشوكاني:

«ولقد صَبَرَ ابن القَيِّم: في محاربته للتقليد والتعصب على كل ما نَالَهُ مِنَ الأذى، وكَانَ ثابتًا كالجَبَلِ الرَّاسِي، لَمْ تُؤَثِّر فيه مؤامراتُ الحاقدين، ولا نَالَتْ من ثَبَاتِهِ سِهَامُ المُقَلِّدة المتعصبين، حتى آتت جهوده أطيب الثمار، «فَذَابَتْ العصبيةُ المذهبية في الطريقة الأَثَرِيَّة، وصُحِّحَت المفاهيم، وأخذ يَدُبُّ في الناس روحُ الأخذِ بِالدليل معَ احترام الأئمة السالفين، ... هو مَسْلَكُهُم ومَنْهَجُهُم، وما زالَ هذا يَدُبُّ في كل عهدٍ ومَهْد حتى أيامنا هذه، بل في هذه الأيام والأزمان الحاضرة لم يجد الناس بُدًّا من ذلك المنهج السَّوِيِّ، والمُشْرَعِ الرويِّ؛ لأنه هو الذي يتمشى مع وقائع العصر ونوازله، فعاد أعداء المدرسة الأثرية لها أصدقاء، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات».

انتشرت في عصره الأفكار الفلسفية، والمناهج الكلامية، وأدى ذلك إلى ظهور بدع التأويل لنصوص الصفات تأويلًا يُفْضِي إلى تحريفها عن معناها، أو تعطيلها عن مضمونها وفحواها.

ولاشكَّ أن ذلك مخالف لما عليه سلف هذه الأمة من: إثبات ما وصف الله - سبحانه- به نفسه، وما وصفه به رسوله ﷺ، إثباتًا بلا تشبيه، وتنْزيهه عمَّا نزه عنه نفسه، ونَزَّهه عنه رسوله، تنْزيهًا بلا تعطيل.

من أجل ذلك هبَّ ابن القَيِّم: للدفاع عن عقيدة السلف، والدعوة إلى الرجوع إلى ما كانوا عليه في فهم نصوص الكتاب والسنة في هذا الباب، فكان له جهد مشكور، وبلاء حسن في إحياء عقيدة السلف بعدمَا دَرَسَت، وتصحيح كثير من المفاهيم بعدما تحرَّفت وانطمست، ولا تزال بركة دعوتِهِ - وشيخه من قبله- ساريةً إلى وقتنا هذا، بما تركاه من كتب نفيسة ومؤلفات نافعة مباركة، يعتصمُ بها طالبُ الحقِّ من الوقوع في الفتن، وينهل من مَعِينها كل راغب في اتباع خير سَنَنٍ.

إنكاره شَدُّ الرَّحْلِ إلى قبر الخليل، ومحنته بسبب ذلك:

من البدع التي سادت المجتمع وقتئذٍ، وتقرب الناس بها إلى الله: بدعة شَدِّ الرَّحْلِ إلى قبر الخليل إبراهيم عليه السلام.

فقام ابن القَيِّم: في وجه هذه البدعة منكرًا لها، ومبينًا مخالفتها لسنة رسول الله ﷺ وهَدْيِه، فما كان من أعدائِه وشانئيه إلا أن قاموا ضِدَّه، وآذوه، ثم حُبِس بسبب ذلك.

قال الحافظ الذهبي: «وقد حبس مدة وأوذي لإنكاره شدَّ الرحل إلى قبر الخليل».

والظاهر أن هذه هي المرة التي حبس فيها مع شيخه ابن تَيْمِيَّة: ؛ ذلك أنه في السادس عشر من شعبان سنة [٧٢٦هـ] اعْتُقِل الشيخ ابن تَيْمِيَّة في قلعة دمشق، وذلك بسبب ما أفتى به من المنع من شد الرحل إلى قبور الأنبياء، وبعد ذلك بأيام «أمر قاضي القضاة الشافعي في حبس جماعة من أصحاب الشيخ تقي الدين في سجن الحكم... وعزَّرَ جماعة منهم على

ثواب ونودي عليهم، ثمَّ أطلقوا، سوى شمس الدين محمد بن قيم الجوزية؛ فإنه حُبِس بالقلعة، وسكتت القضية».

ولعل في إطلاقهم كل رفاقه وإبقائه وحده في الحبس، ما يُبَيِّنُ لنا مدى الحِنْق الذي كان في نفوس أعدائه من أهل البدع ضده، ويبين لنا في الوقت نفسه، ما كان لابن القَيِّم من دور بارز، وتأثير بالغ في الناس آنذاك، مما جعل هؤلاء يخشونه على بدعهم، فرأوا أن يحجبوه في السجن.

ولكن شاء الله سبحانه أن يشاطر ابن القَيِّم شيخه محنته هذه، فَسُجن معه في القلعة، ولأجل التهمة نفسها، ولكنه كان [منفردًا عنه].

ولقد كان للحاقدين على شيخ الإسلام ابن تَيْمِيَّة وتلميذه ابن القَيِّم دورٌ قبيح في حبسها، وتدبير الشر ضدهما، ذلك أنهم حرَّفوا فتوى ابن تَيْمِيَّة: بأنه يحرِّمُ زيارة قبور الأنبياء مطلقًا، ويعتبر ذلك معصية، مع أن الشيخ -وكذا تلميذه- «لم يمنع الزيارة الخالية عن شد الرحل، بل يستحبها ويندب إليها، وكتبه ومناسكه تشهد بذلك. . . ولا قال إنها معصية. . ولا هو جاهل قول الرسول ﷺ: «**زوروا القبور فإنها تذكركم الآخرة**». والله سبحانه لا يخفى عليه شيء ولا تخفى عليه خافية».

ويَحكي المقريزي: هذه الواقعة مبينًا ملابساتها وظروفها بأوسع من هذا، وأن ابن القَيِّم: قد ضُرب في هذه المرة قبل أن يحبس، فيقول: [وفي يوم الاثنين سادس شعبان - يعني سنة (٧٢٦هـ) -] حُبِس تقي الدين أحمد بن تيمية، ومعه أخوه زين الدين عبد الرحمن بقلعة دمشق. وضُرِب شمس الدين محمد بن أبي بكر بن قَيِّم الجوزية، وشُهِّرَ به على حمار بدمشق.

وسبب ذلك: أن ابن قَيِّم الجوزية تكلم بالقدس في مسألة الشفاعة والتوسل بالأنبياء، وأنكر مجرد القصد للقبر الشريف دون قصد المسجد النبوي، فأنكر المقادسة عليه مسألة الزيارة، وكتبوا فيه إلى قاضي القضاة جلال الدين القزويني وغيره من قضاة دمشق.

وكان قد وقع من ابن تَيْمِيَّة كلام في مسألة الطلاق بالثلاث: [أنه لا يقع بلفظ واحد، فقام عليه فقهاء دمشق، فلما وصلت كتب المَقَادِسَة في ابن القَيِّم، كتبوا في ابن تَيْمِيَّة وصاحبه ابن القَيِّم إلى السلطان، فعرف شمس الدين الحريري- قاضي القضاة الحنفية بديار مصر- بذلك، فشَنَّع على ابن تَيْمِيَّة تشنيعًا فاحشًا، حتى كتب بحبسه، وضُرِبَ ابن القَيِّم].

وقد ظل ابن القَيِّم محبوسًا مدة، ولم يُفْرَج عنه إلا بعد وفاة شيخه بشهر؛ ذلك أن ابن تَيْمِيَّة قد تُوفي في محبسه بالقلعة في العشرين من ذي القعدة سنة [٧٢٨هـ]، [وفي يوم الثلاثاء عشرين ذي الحجة أُفرج عن الشيخ الإمام العالم العلامة أبي عبد الله شمس الدين بن قَيِّم الجوزية].

امتحن ابن القَيِّم مرة أخرى بسبب فتواه بأن الطلاق الثلاث بكلمة واحدة يقع طلقة واحدة، وهو اختيار شيخه ابن تَيْمِيَّة أيضًا.

ويشير ابن كثير: إلى ما وقع له بسبب ذلك، فيقول: «وقد كان متصديًا للإفتاء بمسألة الطلاق التي اختارها الشيخ تقي الدين ابن تيمية، وجرت بسببها فُصُولٌ يطول بسطها مع قاضي القضاة تقي الدين السبكي وغيره».

ولم يبين لنا ابن كثير ما وقع له بسبب ذلك، لكن الظاهر أنه لم يحبَس إلا في المرة التي كان فيها مع شيخه ابن تَيْمِيَّة، وذلك بسبب فتوى شد الرحل، وأما مسألة الطلاق، وكذا مسألة المحلل في السباق، فيظهر أنه جرت له بسببها فتن ومحن مع القضاة فحسب، وأنه لم يُسجن بسبب ذلك، وقد ذكر الشيخ بكر أبو زيد أنه سُجن بسبب هذه الفتاوى كلها.

ولم أر ما يدل على ذلك، ولعل كلام ابن رجب صريح في أنه لم يُحبس إلا في تلك المرة مع الشيخ، فقد قال: «وقد امتُحن وأُوذي مرات، وحُبس مع الشيخ تقي الدين في المرة الأخيرة في القلعة... ».

ومما يؤكد -أيضًا- أن فتواه في مسألة الطلاق قد سببت له مشكلات مع القضاة، ما

حكاه الحافظ ابن كثير: من الصلح الذي تم بين السبكي وابن القَيِّم، فقد ذكر في أحداث سنة ٧٥٠هـ - قبل موت ابن القَيِّم بعام واحد - في السادس عشر من شهر جمادى الآخرة منها، أنه [حصل الصلح بين قاضي القضاة تقي الدين السبكي، وبين الشيخ شمس الدين بن قَيِّم جوزية، على يدي الأمير سيف الدين بن فضل ملك العرب، في بستان قاضي القضاة، وكان قد نقم عليه إكثاره من الفتيا بمسألة الطلاق].

فالمقصود أنه: ابتلي وأوذي وامتحن بسبب صدعه بالحق، وإعلانه رأيه وما يعتقده دون مجاملة أو خوف من أحد، فرحم الله ابن القَيِّم رحمة واسعة، وجزاه عما قَدَّم خير الجزاء.

وبعد هذه الحياة الحافلة بالجهاد المتصل لنشر منهج السلف، ومحاربة كثير من الانحرافات التي ابتدعها الخلف، وما لقيه من محن في سبيل ذلك، وبعد أن كَمُلَ له من العمر ستون سنة، توفي هذا الإمام العالم العلامة، وذلك في ليلة الخميس، ثالث عشر من شهر رجب، من سنة إحدى وخمسين وسبعمائة [٧٥١هـ] وقت أذان العشاء.

ولأن ابن القَيِّم: كان قائمًا لله بالحق، صادقًا في النصح للخلق فقد «كانت جنازته حافلة رحمه الله، شهدها القضاة والأعيان والصالحون، من الخاصة والعامة، وتزاحم الناس على حمل نعشه. فقد شَيَّعَه: خلق كثير، وكانت جنازته مشهودة وحافلة جدًا.

نعم لقد كانت جنازته حافلة عامرة، شهدها كثير من الخلق، كما كانت جنازة شيخه، التي لم يتخلف عنها من أهل دمشق سوى ثلاثة نفر، وقد قال الإمام أحمد: «قولوا لأهل البدع: بيننا وبينكم الجنائز». كانت هذه جنازته: مع ما كان له في قلوب الكثيرين من العداوات، ومع ما حِيكَ ضده من المؤامرات.

وَدُفِنَ: عند والدته بمقابر الباب الصغير.

فَرَحِمِ الله ابن القَيِّم رحمة واسعة، وجزاه عن الإسلام وأهله خيرًا، وأسكنه فسيح جناته، آمين.

المصادر: موقع علماء المسلمين – موقع الإسلام أون لاين.



الإمام/ أبي حنيفة النعمان

كانت شخصية أبي حنيفة أقوى وأعظم من أن تخضع لطغيان، فقد وهب من عزة النفس ورصانة الخلق وشدة الإحساس بالكرامة والرجولة ما جعله بين المناضلين الأماثل قمة شماء.

كان من أقوى المتكلمين مناظرًا وحوارًا، ثم تحول إلى الفقه، فخلع عليه من جلال المنطق وقوة القياس ودقة الاستنباط، ما فتح به ميادين مغلقة، ومهّد طرقًا مستعصية، وقد كان خصومه في الرأي الفقهي يدهشون لقوة سطوته وسرعة بديهيته، حتى ليخافون أن يواجهوه في معترك النقاش، وهم بعد أصحاب منطق ونص، وأهل تفسير وتشريع.

وعرف الإمام كيف يحافظ على كرامته العزيزة في دنيا المطامع والرغبات، فلم يشأ أن يغدق على أحدًا أو ينتظر عطايا الأمير حتى يتفرغ للعلم والفقه والدرس كما كان يفعل كثير من العلماء، ولكنه ربأ بعزته أن يمن عليها مان بصنيعه، فامتهن التجارة ليجد من أبواب الرزق ما يساعده على رفاهية عيشه في تصون وإباء، وقد صدقت نيته، فوسع الله عليه كل خير، وأصبح من الثراء بالموضع الذي يجعله يتصدق بالآلاف من حر ماله.

وقد شاء الله له أن يحترق بنيران الحياة السياسية في عصره فكشفت عن جوهره الذهبي، إذ أنه نشأ في الفترة العصيبة التي أدت إلى سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية، واستفحال الشر، فشاهد عهدين يختلفان في الأشخاص والأسماء، ويتحدان فيما كان من تهور البغي، واستفحال الشر، وأخذ البريء بذنب الآثم، وإرهاب بما يمنعه الدين والشمم الكريم، حتى خاف كل مسلم على نفسه، وأخذ يتوقع الشر صباح مساء.

كان الحكم الأموي قد طغى شره، واستشرى خطره، فالخلفاء يظلمون، ويعاهدون فيغدرون، ثم يرسلون من الولاة من يترضاهم بالعنف والقهر، فيبالغ في إراقة الدماء، وتكميم الأفواه دون حساب.

وقامت الثورات الناقمة في كل مكان فكانت تنتهي بمجازر رهيبة، تسفك فيها الـدماء
ـيـ تحرز، بل ربما كانت شدة الانتقام دليل التغلب وبرهان الانتصار.

والمشفقون من ذوي الإصلاح في الأمة لا يجدون مـن القـوة مـا يـدفع البغـي، فـتغلي
ـوسهم من الغيظ والحنق متطلعة إلى صباح جديد تشرق شمسه بنور الهداية، وكـان الإمـام
ـ حنيفة في مقدمة هؤلاء، يرى البغي فيستنكر، ويهم بالثورة عليهم فلا يجد من يلتف حوله
ـ يتذكر عواقب الثورات، وما صنعت بزملائه الفقهاء، كزيد بن عـلي، وسـعيد بـن جبـير،
ـصعد من صدره آهة حبيسة، ويتطلع إلى نصر من الله وفتح قريب.

وفي أثناء هذا الضيق الكاظم المستحكم جاءه رسول الطاغية يزيد بن هبيرة والي العراق
ـعوه إلى أن يلي القضاء، مع فريق من رجالات الفقه والتشريع، وكان للإمام بصيرة لا تخطئ
ـد أدرك أن هذا الوالي ورؤساءه من الخلفاء يريدون أن يتخذوه وأمثالـه مـن العلـماء مطيـة
ـشر ومركبًا للخطر، إذ يتخذونهم للقضاء، فيعلمون الناس أن رجـال الفقـه وحمـاة الـشريعة
ـيـون حكمهم الطاغي، ويباركون عهدهم الظالم، فيصبحون أداة تخدير تخذل الحق وتعـين
ـضل.

والإمام أبو حنيفة لا ينخدع بمنصب ظاهره الرحمة وباطنه من قبلـه العـذاب، فـأعلن
ـرفض صريحًا واضحًا وقال لمن يحاوره من العلماء في عزة وكرامة: والله لو أراد ابن هبـيرة أن
ـد نه أبواب مدينة واسط لم أدخل في ذلك، فكيف وهو يريد أن يكتب بضرب عنـق رجـل
ـؤمن وأختم أنا على ذلك الكتاب، والله لا أدخل في ذلك أبدًا.

واستعظم الوالي الطاغية رفض أبي حنيفـة، فـسجنه أسـبوعين، عـساه أن يرجـع، فـما
ـكان، ثم أمر بضربه بالسياط، فكان يجلد كل يوم عشرة أسواط حتى تخطى المائة، وشارف
ـى الهلاك، وورم رأسه من التعذيب والجلد، ولا يزداد إلا ثباتًا على رأيه. وساءت صحته في
ـسجن وبدأت الثورة تتجمع ضد الخليفة احتجاجًـا عـلى مـا يحـدث لأبي حنيفـة، فـأطلقوا

سراحه، وبعد خروجه قرر أن يهجر الكوفة وأقام بالحجاز، إلا إنه عاد مرة أخرى لموطنه بعد سقوط الدولة الأموية.

وكان ما لابد أن يكون، فقد سقطت الدولة الأموية على طغاتها الجبارين سقوطًا أورثهم القتل والفناء والتشريد ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هُود: ١٠٢].

جاءت الدولة العباسية، ففرح المخلصون لقيامها، وظنوا أن أسرة العباس عم النبي ﷺ سترعى من الكرامة والحق ما أهدره بنو أمية، فتدعو إلى الخير بالتي هي أحس، آمرة بالمعروف، ناهية عن المنكر، ولكن الظن قد خاب، وصدم هؤلاء في آمالهم حين رأوا الدولة الأموية تعود ثانية ببطشها الغاشم وقهرها الظالم تحت ستار أسماء تنتسب إلى رسول الله ﷺ وتهدر شرعته في إحقاق العدل واستتباب الأمن، وكانت محنة قاسية نزلت بالمؤمنين فأخذوا يتساءلون؟ متى نصر الله؟

كان أبو حنيفة أشد هؤلاء المخلصين ضيقًا بالشر، وتبرمًا بالخلافة، فأيد الثورة على العباسيين وانضم إلى رجالها، وأفتى بتأييدها كما فعل زميله الإمام مالك بن أنس وتعرضا بذلك إلى شر كبير، وخطر محيق، فقد هال المنصور أن يجد أعلام الشريعة يقفون منه موقفهم من العلويين، ثم رأى أن يترضى ويصانع ليصل بهم إلى هدنة مسكنة فيستريح.

ولم يكن الخليفة يجهل من هو أبو حنيفة؟ فقد عرفه في العهد الأموي غيورًا لم يخش إلا الله، وهو يعد تاجر ذو ثراء، لا يطمع في مال السلطان أو منصبه، وله من حلقات الدرس ومن تلاميذه المنتشرين في الآفاق ما يضفي عليه الصيت الطائر والذكر الحميد، ومع حب الناس للإمام فمنه تؤخذ الفتوى وبه يقتدي وعزوفه عن كل ما يطمع فيه العامة من سيادة قدر ونباهة ذكر لسلامة قلبه وحسن سيرته وسعة علمه ومزيد تقواه فلم يجد المنصور أي درب يسير عليه للوقيعة بالإمام.

ثم أن للإمام جراءة في فتاواه الصريحة وأجوبته الشديدة في محاسبة أبي جعفر، فكانت كثيرة النقد لأحكام قضائه وتصرفات ولاته فتمثلت فيه رجولة العالم وشجاعة المؤمن وصلابة الفقيه المتمسك بأحكام الشرع لا يعرف نفاقًا ولا يسلك طريقًا منحرفًا في دعوته، ولا يهاب سطوة سلطان ولا يخشى قوة حاكم في قوله الحق، والمنصور عرف هوى الإمام وأدرك نزعته السياسية والروحية، وتلك نزعة لم تنل رضاه، وهوى يغصه وسلوك لا يريده، ولكن ماذا يفعل مع رجل عالم أوتي لسانًا صادقًا وتأثيرًا روحيًا دفاقًا يعمل ما لا يعمل الحسام.

وليس من السهولة والحالة هذه أن ينزل بالإمام محنة أو يوقع به أذى دون أن يلتمس مبررات التافهة، والذرائع الباطلة لتكون سببًا ظاهريًا لها، ولكن من الأسباب التي اتخذها المنصور ذريعة لمحنته الجائرة مع الإمام أن أبا حنيفة كان جريئًا في بيان خطأ حكم القضاة في المسائل التي تعرض عليهم خصوصًا إذا خالفت رأيه الذي يعتقده صوابًا فيشكوه القضاة ليمتنع عن ذلك.

وروي أن ابن أبي ليلى القاضي نظر في أمر امرأة مجنونة قالت لرجل يا ابن الزانيين، فأقام عليها الحد في المسجد قائمة وحدها حدين حدًا لقذف أبيه، وحدًا لقذف أمه، فبلغ ذلك أبا حنيفة فقال: أخطأ فيها في ستة مواضع: أقام عليها الحد في المسجد ولا تقام الحدود في المساجد، وضربها قائمة والنساء يضربن قعودًا، وضرب لأبيه حدًا ولأمه حدًا ولو أن رجلًا قذف جماعة كان عليه حدًا واحدًا، وجمع بين حدين ولا يجمع بين حدين حتى يخف أحدهما، والمجنونة ليس عليها حد، وحد لأبويه وهما غائبان ولم يحضرا فيدعيا.

فبلغ ذلك ابن أبي ليلى فدخل على الأمير فشكا إليه وحجر على أبي حنيفة وقال: لا يفتي، فلم يفتِ أيامًا.

وهكذا بدأت المحنة تدنو منه شيئًا فشيئًا وهو صابر محتسب، والمحن أخذت بالتتابع سريعة تنذر بوقوعها حيث سلك المنصور سبلًا أخرى، فأرسل إليه هدية ثمينة وهو يعلم أنها مردودة عليه لا محالة، ولكنه فعل ذلك ليضيف سببًا آخر وحجة أخرى، ثم أرسل إليه

بجائزة عشرة آلاف درهم وجارية، وكان عبد الملك بن حميد وزير المنصور فقال لأبي حنيفة عندما رفضها: أنشدك الله أن أمير المؤمنين يطلب عليك علة فإن لم تقبل صدق على نفسك وما ظن بك، فأبي الإمام ورفض.

حينئذٍ أراد المنصور أن يحرج أبا حنيفة ويتخذ من رفضه لمنحه وعطاياه ممسكًا أرسل إليه وقال له: لم لا تقبل صلتي. فقال الإمام: ما وصلني أمير المؤمنين من ماله بشيء فرددته، ولو وصلني بذلك لقبلته، إنما أوصلني أمير المؤمنين من بيت مال المسلمين ولا حق لي في بيت مالهم، إني لست ممن يقاتل من ورائهم فآخذ ما يأخذه المقاتل، ولست من ولدانهم فآخذ ما يأخذ الولدان ولست من فقرائهم فأخذ ما يأخذ الفقراء.

وهكذا كان الإمام قويًا في مواجهة المنصور يقول الحق ولا تأخذه في الله لومة لائم، ولكن الخليفة يضع هذه مع تلك، ويبيت النية لأمر سوء بالإمام ولكن لا يجد الحجة الدامغة ليقنع بها الرعية بما سيفعله.

واحتكم المنصور إليه مع زوجته فرأى منه فقهًا صلبًا لا يتخشع ولا يلين، فقد كان في شقاق مع زوجته وأراد أن يقترن بأخرى، فعظم الأمر عليها، ولاقته مغضبة ساخطة فاحتج عليها بأنه لا يصدر في زواجه بالثانية عن غير أمر الله، ثم رأت أن تحتكم إلى أبي حنيفة وحده، ووافق المنصور في سهولة ظنًا أن الحكم الشرعي من الوضوح بحيث لا يقف أمامه أبو حنيفة ذو الرأي والقياس.

وحانت ساعة الحكم، فقال أبو حنيفة: ليتكلم أمير المؤمنين.

فقال المنصور: يا أبا حنيفة، كم يحل للرجل أن يتزوج من النساء فيجمع بينهن؟

فقال: أربع.

فسأله ثانيًا: وهل يجوز لأحد أن يقول خلاف ذلك؟

فقال أبو حنيفة: لا.

فنظر المنصور إلى زوجته متهللا وقال: قد سمعت يا هذه!

فتدارك أبو حنيفة وقال: إنما أحل الله هذا لأهل العدل يا أمير المؤمنين، فمن لم يعدل أو خاف ألا يعدل، فينبغي ألا يتجاوز الواحدة، قال تعالى: ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ﴾ [النساء: ٣]، فينبغي أن تتأدب بأدب الله وتتعظ بمواعظه.

فسكت أبو جعفر على غيظ، وطال سكوته، فاستأذن الإمام وخرج ذاهبًا إلى منزله، فوجد خادم زوجة الخليفة في انتظاره يحمل مالًا وثيابًا ومعه دواب وجارية، فرده في إباء، وقال كلمته المشهورة: إنما ناضلت عن ديني، وقمت ذلك المقام لله، ولم أرد شيئًا من أمور الدنيا!!.

وعادت الهدية ثانية ليراها أبو جعفر فيتدبر.

وعاد الإمام ليفتي بتحريم الخروج لقتال المسلمين والفتك بهم، مما صرف بعض قواد الجيش في عصره عن حرب العلويين خصوم المنصور ومعارضيه، ومن ذلك أن الحسن بن قحطبة أحد قواد المنصور دخل على أبي حنيفة يسأل: أيتوب الله عليَّ؟

وكان الحسن هذا قد قاد جيوشًا للمنصور فقتل العلويين وخصوم العباسيين، فقال له أبو حنيفة: إذا علم الله تعالى أنك نادم على ما فعلت، فلو خيرت بين قتل مسلم وقتل نفسك لاخترت ذلك على قتله، وتجعل على الله عهدًا على ألا تعود لقتل المسلمين، فإن وفيت فهي توبتك.

فقال الحسن: إن فعلت ذلك وعاهدت الله على ألا أعود إلى قتل مسلم.

ثم ثار العلويون فأمر المنصور القائد الحسن أن يفتك بهم، فجاء القائد إلى أبي حنيفة يسأله الرأي، فقال له: فقد جاء أوان توبتك، إن وفيت بما عاهدت فأنت تائب، وإلا أخذت بالأول والآخر.

فامتنع القائد عن تنفيذ أمر المنصور، وسلم نفسه إلى العقاب وهو القتل، إذ دخل على المنصور فقال: أنه لن يقتل المسلمين بعد! فغضب الخليفة عليه وأمر بقتله، حتى استشفع له أخوه قائلًا: إننا ننكر عقله منذ سنة، وأنه قد جن.

ولم يقتنع الخليفة بأسباب رجوع القائد عن تنفيذ أوامره وتتبعه حتى علم أنه يتردد على أبي حنيفة فأسرها المنصور في نفسه.

انتهز شبرمة الوزير الأول للخليفة ومعه ابن أبي ليلى فرصة خروج أهل الموصل على الخليفة وثورتهم على الطغيان، وكانوا قد شرطوا على أنفسهم إن هم خرجوا على الخليفة أن تباح دماؤهم وأموالهم، فاقترح شبرمة وابن أبي ليلى أن يدعو أبا حنيفة، وكانا يعرفان أن تقواه وشجاعته ستقوده إلى مخالفة رأي الخليفة، ومن ثم ينشب الصدام بين الإمام والخليفة.

وحضر الثلاثة فسأل المنصور شبرمة وابن أبي ليلى عن حكم الشرع في أهل الموصل، فسكت أبو حنيفة وأفتى الآخران بأن أهل الموصل يستحقون الفتك بهم، ولكن أبو حنيفة أفتى بأن الخليفة لا يحق له الفتك بأهل الموصل لأنهم بإباحتهم أرواحهم وأموالهم إنما أباحوا ما لا يملكون، وسأل لو إن امرأة أباحت نفسها بغير عقد زواج أتحل لمن وهبته نفسها؟ فقال الخليفة: لا. . فطلب الإمام منه أن يكف عن أهل الموصل فدمهم حرام عليه، وأن يوجه الجيش إلى حماية الثغور، أو إلى فتح جديد لنشر الإسلام، بدلًا من أن يضرب به المسلمين.

فقال المنصور: ألم يقل الرسول ﷺ: «**الْمُؤمِنونَ عِنْدَ شُرُوطِهِمْ**» وأهل الموصل قد اشترطوا ألا يخرجوا علي، فإن فعلوا حلت دماؤهم بإقرارهم الصريح.

فرد أحد الحاضرين: يدك يا أمير المؤمنين مبسوطة عليهم وقولك مقبول فيهم، فإن عفوت فأنت أهل العفو، وإن عاقبت فبما يستحقون.

فنظر الخليفة إلى أبي حنيفة وسأل: وماذا تقول أنت؟ ألسنا الآن في خلافة نبوة وأهل إيمان!

فرفع الإمام صوته وقال: إنهم اشترطوا لك ما لا يملكونه وشرطت عليهم ما ليس لك، لأن دم المسلم لا يحل، وشروط الله أحق ما توفى به.

فاضطرب أبو جعفر، وامتقع وجهه امتقاعًا يدل على ما يتردد في صدره من غيظ، ثم أذن للعلماء فانصرفوا، واستبقى أبا حنيفة فخلا بهما المكان وصاح أبو جعفر: لقد أحرجتنا

ـدم الناس، فانصرف إلا بلادك، ولا تفتِ بما هو شين على إمامك. وخرج المنصور من ـجلس مغضبًا وخرج أبو حنيفة غير هياب.

ومرة أخرى حاول ابن أبي ليلى وشبرمة والعصبة المعادية لأبي حنيفة في قصر الخليفة أن يجعلوا المنصور يقهر أبا حنيفة على قبول ما يعرضه عليه من مناصب فإذا امتنع عن أداء واجب شرعي فحق عليه العقاب، ووجب أن يشهر به في الأمة لأنه يتخلى عن خدمتها.

تذكر المنصور أن يزيد بن هبيرة عرض عليه القضاء أثناء حكم الأمويين، وكيف رفض لإمام المنصب وسجن وعذب بسبب ذلك.

وهنا وجد المنصور المبرر أن يعرض علية رئاسة القضاء فإن امتنع أخذه بهذا المنع جهره ـ مام الناس ملتمسًا بذلك عذرًا عند العوام الذين لا يدركون بواطن الأمور ولا دوافع المطالب.، وإن رضي بهذه التولية تم الصلح بينهما وحسم النزاع وآمن الإنكار وانتهت المناوأة. ولكن ـنصور يعلم علم اليقين إن أبا حنيفة سيرفض فإن أعلن رفضه فقد دانت ساعة القصاص.

بهذا سولت للمنصور نفسه فأقدم عليه بحزم واستدعى أبا حنيفة وعرض عليه هذا ـنصب فرفض، فسأله عن سبب رفضه فقال: والله ما أنا بمأمون الرضا فكيف أكون مأمون ـغضب؟ ولو اتجه الحكم عليك ثم هددتني أن تغرقني في الفرات أو الحكم عليك لاخترت ـن أغرق، ثم أن تلك حاشية يحتاجون إلى من يكرمهم لك، فلا أصلح لذلك.

وكانت الحاشية كلها تحيط بالخليفة، وعلى رأسها وزيره الأول شبرمة والفقيهان ابن أبي ليلى والربيع بن يونس، فأبدوا التذمر، وبان عليهم استنكار ما يقوله الإمام، فأصر الخليفة وأصر الإمام، وحلف أبو جعفر ليفعلن، فحلف أبو حنيفة ألا يفعل وقال: إني لا أصلح للقضاء.

فقال الربيع بن يونس: ألا ترى أمير المؤمنين يحلف.

فرد أبو حنيفة في صراحة عنيدة: أمير المؤمنين أقدر على كفارة أيمانه مني!!

فقال الخليفة: كذبت إنك تصلح للقضاء.

فقال أبو حنيفة في هدوء: حكمت على نفسك كيف يحل لك أن تولي قاضيًا على أمتك وهو كاذب؟ فإن كنت كذابًا فلا أصلح، وإن كنت صادقًا فقد أخبرت أمير المؤمنين بعدم صلاحيتي للقضاء!!

وهنا حصل المنصور على ما يريد ونال ما بيت في نفسه فأنزل به المحنة، فأمر به إلى السجن وأن يضرب بالسياط.

انهالت على جسد الشيخ الواهن السياط تشويه في محبسه الرهيب، حتى اكتملت مائة وثلاثين سوطًا، وقيد الله للإمام من يدافع عنه من أهل الخليفة فهذا عبد الرحمن بن علي بن عباس عم الخليفة صاح بالمنصور وقال: لقد سللت على نفسك مائة ألف سيف، هذا فقيه أهل المشرق يُضرب بالسياط في غير جرم، دون أن تخشى انتقام السماء!!

فتراجع المنصور وقد هدأت نفسه قليلًا، فأمر بإطلاقه من السجن، وأرسل إليه ثلاثين ألف درهم، فلما وضعت بين يديه رفضها، فقيل له: لو تصدقت بها على المحتاجين، فرد في استهانة: ومن يضمن لي أنها جمعت من طريق حلال.

بلغت الكلمة آذان المنصور فكانت عليه أشد وقعًا من النصال. فمنعه من الفتوى أو الجلوس للناس أو الخروج من منزله.

وكانت أم الإمام تزوره في السجن وتقول له: يا نعمان إن علمًا ما أفادك غير الضرب والحبس لحقيق بك أن تنفر عنه.

فرد عليها الإمام بثبات: يا أمه لو أردت الدنيا لوصلت إليها، ولكني أردت أن يعلم الله أني صنت العلم ولم أعرض نفسي للهلكة.

تلك محنة الإمام منعًا من التدريس والإفتاء، وإقامة جبرية في داره، وضربًا بالسياط، وحبسًا في السجن (وردت بعض الروايات أنه قتل في سجنه بالسم) كل ذلك لأنه أبى أن يساير الظلمة في أهوائهم وأن يوافق على أعمالهم وأن يستجيب لطلباتهم.

مات أبو حنيفة كما يموت الصديقون والشهداء، وكان في الموت راحة لـذلك الـضمير الحي، ولذلك الوجدان الديني المرهف، ولذلك القلب القوي، ولـذلك العقـل الجبـار، وتلك النفس الصبور، التي لاقت الأذى فاحتملته، لاقته من المخالفين في الآراء ورميت في كل رمية، فتحملتها مطمئنة راضية مرضية، ولقيت الأذى من السفهاء ثم لقيته مـن الأمـراء والخلفاء وما ضعفت وما وهنت، وإذا كان للنفوس جهاده، ولجهادها ميـادين، فـأبو حنيفـة كان أعظم أبطال ذلك النوع من الجهاد، وممن انتصر في كل ميادينـه، فكـان جلـدًا في جهـاده قويًّ مع جلاده، حتى وهو يلفظ النفس الأخير فهو يوصي بـأن يـدفن في أرض طيبـة لم يجـر عليها غضب، وألا يدفن في أرض اتهم أمير بأنه غصبها حتى يـروى أن أبـا جعفـر المنـصور عندما علم ذلك قال: من يعذرني من أبي حنيفة حيًا أو ميتًا.

استراح أبو حنيفة حين انتقل إلى جوار الله راضيًا مرضـيًا، وبقـى المنـصور يفكـر فـيما سلف في دنياه من أهوال يطول عليها الحساب.



المصادر:

- «أبو حنيفة» للإمام أبو زهرة.
- «تاريخ بغداد» للخطيب البغدادي.
- «الإسلام بين العلماء والحكام» لعبد العظيم بدوي.
- «علماء في وجه الطغيان» للدكتور/ محمد رجب البيومي.
- «مشايخ ضد السلطة والسلطان» لإسماعيل إبراهيم.

الإمام/ أحمد بن حنبل

تبنت الدولة الإسلامية في أواخر حكم المأمون سنة [٢١٨هـ] الفكرة القائلة بخلق القرآن الكريم، واستعملت قوة سلطانها وصرامة جندها في تنفيذها، وأنزلت المحن الشداد بالمعارضين والمخالفين لها، بل والساكتين من الذين توقفوا فيها.

واستمر هذا التبني حتى حكم المعتصم والواثق إلى أن جاءت سنة [٢٣٤هـ] فآن للدولة في بداية حكم المتوكل أن ترفع هذا التبني وتبطله وبذاك خلصت الأمة من شروره ومحنه.

وفروع العقيدة لا يكون فيها التبني من قبل الدولة الإسلامية، وذلك بإلزام الناس بها وجبرهم على اعتناقها، ولكيلا تخرج رعيتها مادامت هذه الفروع لا تناقض أصول العقيدة، تلك التي تجعل الفرد مسلمًا، ويكون معتنقوها مسلمين، وبدون الإيمان بأصول العقيدة يكون الكفر والخروج من حظيرة الإسلام.

وكيف وأن تلك الفكرة (خلق القرآن) خاطئة وحمل الناس على اعتناقها بالقوة، قطعًا للرؤوس وضربًا بالسياط، وأغلالًا بالآسار وحبسًا بالسجون، جريمة يتولى أثمها أصحابها والمنفذون لها.

ولكن هكذا رغب المأمون فسلك هذا الطريق غير المأمون!!.

أصحاب هذه الفكرة هم المعتزلة، والمعتزلة قالوا: إن القرآن الكريم مخلوق لأن الله تعالى خلقه وأنزله على رسوله سيدنا محمد ﷺ، وقال جمهرة الفقهاء والمحدثين ومنهم الإمام أحمد: بأن القرآن غير مخلوق لأنه كلام الله وكلامه غير مخلوق.

ولكن المعتزلة استطاعوا لقربهم من المأمون واستوزارهم له أن يحملوا المأمون على اعتناق فكرتهم هذه وتنفيذها بقوة سلطانه، وذلك عن طريق تبنيها من قبل الدولة.

واستمر هذا التبني إلى حكم المعتصم والواثق وبداية حكم المتوكل بوصية يوصي بها الحاضر اللاحق.

ونفذ المأمون هذه الفكرة بأربع مراحل، **المرحلة الأولى:** استعمل المأمون أسلوب حرمان العلماء والفقهاء والمحدثين من وظائف الدولة وعدم قبول شهادتهم في القضاء، وذلك في حالة معارضتهم لهذه الفكرة وعدم قبولهم إياها. ويظهر هذا جليًا فيما كتبه إلى عامله على بغداد إسحاق بن إبراهيم حيث قال له:

فاجمع من بحضرتك من القضاة واقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين هذا إليك، فابدأ بامتحانهم فيما يقولون وتكشفهم عما يعتقدون في خلق القرآن وأحداثه، وأعلمهم أن أمير المؤمنين غير مستعين في عمله ولا واثق فيما قلده الله واستحفظ من أمور رعيته بمن لا يوثق بدينه وخلوص توحيده ويقينه وترك إثبات شهادة من لم يقر أنه مخلوق محدث، ولم يره والامتناع عن توقيعها عنده.

المرحلة الثانية: حرمان المخالفين من أعطيات الدولة من الذين يتولون التعليم والإرشاد ويتصدرون الفتوى، أمثال عفان بن مسلم إذ يقول: فقال لي إسحاق: إن أمير المؤمنين أمر إن لم تجبه يقطع عنك ما يجري عليك وإن قطع عنك أمير المؤمنين قطعنا نحن أيضًا، فقلت له: قال الله تعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢].

المرحلة الثالثة: وفيها اشتدت المحنة ضراوة، إذ جعل عقاب المخالفين والمعارضين الضرب بالسياط، والإسار بالأغلال والطرح بزنزانات السجون ثم إرسالهم إليه مخفورين، وأمر بتنفيذ ذلك حاكم بغداد كما جاء في كتابه الثالث إليه:

(.. فاحملهم أجمعين موثقين إلى معسكر أمير المؤمنين مع من يقوم بحفظهم وحراستهم في الطريق حتى يؤديهم إلى عسكر أمير المؤمنين ويسلمهم إلى من يؤمر بتسليمهم، لينطقهم

أمير المؤمنين، فإن لم يرجعوا ويتوبوا حملهم جميعًا على السيف إن شاء الله ولا قوة إلا بالله....).

المرحلة الرابعة: وقد بلغ العقاب أوجهه وهو الإعدام بقطع الرؤوس عن الهامات وأمر بتنفيذ هذا العقاب واليه على بغداد إسحاق بن إبراهيم، فجاء بكتابه الرابع:

(... فإن أمير المؤمنين يرى أن تستتيب من قال بمقالته، إذ كانت تلك المقالة الكفر الصراح والشرك المحض عند أمير المؤمنين، فإن تاب منها فاشهر أمره وامسك عنه، وإن أصر على شركه ودفع أن يكون القرآن مخلوقًا بكفره وإلحاده فاضرب عنقه بالسيف وابعث إلى أمير المؤمنين برأسه).

وبهذا انتهى تعيين أساليب التنفيذ، فدخلت المحنة حالتها الأخيرة وسارع إسحاق حاكم بغداد إلى طاعة أميره، فاجتمع بكبار علماء بغداد وكان من جملتهم الإمام أحمد لمناقشتهم وجرى الامتحان، وكانت الأجوبة متفاوتة في الصراحة والجرأة، فمنهم الموفق بين رأيه الخاص ورأي الدولة، ومنهم المتأول، ومنهم الآخذ بقاعدة التقية؟؟ ولكن أربعة منهم في هذا المجلس ربط الله تعالى على قلوبهم فثبتهم ورضوا بحكم الله تعالى فيهم، فأعلنوا رأي الإسلام كما يعتقدونه في هذه الفكرة بوضوح متحملين كل مشقة في هذا السبيل، وهم الإمام أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح وعبيد الله القواريري وسجادة.

عند ذلك أخذ هؤلاء الأربعة الكرام مصفدين في الأغلال وأدخلوا زنزانات السجن. . ينتظرون. . وفي اليوم التالي جيء لهم إلى حاكم بغداد لإعادة السؤال عليهم وأعطوا فرصة الإجابة فأجاب سجادة بما تريد الدولة فأُطلق سراحه..، ثم أتيحت لهم الفرصة ثانية، فلحق القواريري بصاحبه وبقي اثنان الله ثالثهما ابن حنبل وابن نوح.

فسجادة والقواريري قد أخذا بالرخصة، والإمام أحمد وصاحبه قد أخذا بالعزيمة فكانا أفضل من أخويهما، وكان سلوكهما هو السلوك الأصح وهو الطريق الأحق وهو مفروض على أمثالهما من الأئمة الذين يهتدي بهداهم ويقتدي بهم، لأنهما لو سلكا سبيل أخويهما لضل الناس وأعوج الطريق بهم وكان الفساد ولظن الناس- وليس لهم علم بما في الصدور- أن ذلك هو الحق وهو الذي ارتضاه أئمتهم وعلماؤهم دينًا وعقيدة.

ولذلك يقول الإمام أحمد: إذا أجاب العلم تقية والجاهل يجهل فمتى يتبين الحق.

فحق على العلماء الرجال أن يثبتوا في المحن ويجهروا بالحق ليحفظوا على الناس دينهم، ويأمن الإسلام شر الطعن به، وتكون محنهم طريقًا إلى نشره وسبيل العض عليه بالنواجذ.

وهذا ما نطق به الإمام أحمد وأقرانه، وهذا ما أراده واعتقده، وهذا ما تحقق ووقع.

نفذ حاكم بغداد أمر الخليفة، فحمل الفقيهين على الأبل موثقين في الأغلال ليواجهوا المأمون في طرسوس.

وفي الطريق وقع ما حدث به المؤرخون الثقات بما هو آت، جاء في طبقات الشافعية وذكره ابن الجوزي بسنده إلى ابن جعفر الأنباري أنه قال: لما حُمل أحمد إلى المأمون، أُخبرت فعبرت الفرات فإذا هو جالس فسلمت عليه، وقلت له: أنت اليوم رأس والناس يعتقدون بك، فوالله لئن أجبت إلى خلق القرآن ليجيبن بإجابتك خلق من خلق الله، وإن أنت لم تجب ليمتنعن خلق من الناس كثير، ومع هذا كان الرجل - يعني المأمون- إن لم يقتلك تموت ولابد من الموت، فثق بالله ولا تجبهم إلى شيء.

قال: فجعل أحمد يبكي ويقول: ما شاء الله ما شاء الله.

وذكر أبو نعيم في «الحلية» أن أحمد بن غسان المكلف بإشخاص ابن حنبل إلى المأمون قال: فلما صرنا إلى أذنه ورحلنا منها وذلك في جوف الليل فتح لنا بابها فلقينا رجل ونحن خارجون من الباب وهو داخل فقال: البشرى؟ قد مات الرجل - يعني المأمون-.

وقال أبو الفضل صالح بن أحمد بن حنبل: فصار أبي ومحمد بن نوح إلى طرطوس وجاء نعي المأمون من البندندون فُردا في أقيادهما وأُخرجا من الرقة في سفينة مع قوم محبوسين فلما صارا بعانات [وتسمى اليوم عانه] توفي محمد بن نوح وتقدم أبي فصلى عليه، ثم صار أبي إلى بغداد وهو مقيد، فمكث بالياسرية أيامًا ثم صير إلى الحبس في دار اكتريت عند دار عمارة، ثم نقل بعد ذلك إلى حبس العامة في درب الموصلية.

انتهت محنة محمد بن نوح ولكن صاحبه ابن حنبل لا زال في المحنة منتظرًا ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾.

[الأحزاب: ٣]

وفي سجن أحمد الذي طرح فيه ثمانية وعشرين شهرًا، بقي صامدًا فلم يتغير رأيه ولم يبدل موقفه.

وكلما ازدادت المحنة ويلات ازداد إيمانًا وثقة بربه وبكتابه الذي يكافح من أجله. ورغم محاولات إقناعه بالعدول عن رأيه واستجابة أمر الدولة اتسعت المحنة واشتدت وبلغت أقصاها، ورغم شفاعات الشافعين الذين قاموا بها متبرعين من أنفسهم.

قال إسحاق بن حنبل [عم الإمام أحمد]: كنت أتكلم مع أصحاب السلطان والقواد في خلاص أبي عبد الله، فلم يتم لي الأمر، فاستأذنت على إسحاق بن إبراهيم فدخلت عليه وكلمته، فقال لحاجبه: اذهب معه إلى ابن أخيه، ولا يكلم ابن أخيه بشيء إلا أخبرتني به.

قال إسحاق بن حنبل: فدخلت على أبي عبد الله ومعي حاجبه، فقلت يا أبا عبد الله قد أجاب أصحابك وقد أعذرت فيما بينك وبين الله، وبقيت أنت في الحبس والضيق.

فقال أبو عبد الله: نعم إذا أجاب العالم تقية والجاهل يجهل، متى يتبين الحق، قال: فأمسكت عنه، ثم قال: فذكر أبو عبد الله ما روي في التقية من الأحاديث، فقال: كيف تصنعون بحديث خباب؟ إن من كان قبلكم ينشر أحدهم بالمنشار ثم لا يصده ذلك عن دينه، فقال: فيئسنا منه.

ثم قال: لست أبالي بالحبس، ما هو إلا ومنزلي واحد، ولا قتلا بالسيف، إنما أخاف فتنة السوط، وأخاف أن لا أصبر، فسمعه بعض أهل الحبس (ممن هم متمرسين على الضرب بالسوط) وهو يقول ذلك، فقال: لا عليك يا أبا عبد الله، ما هو إلا سوطان ثم لا تدري أين يقع الباقي، فلما سمع ذلك سُري عنه.

وذكر أبو نعيم ومثله المقريزي: حدثنا محمد بن جعفر وعلي بن أحمد والحسين بن محمد قالوا: حدثنا أبو الفضل صالح بن أحمد بن حنبل قال: قال أبي: لما كان في شهر رمضان لليلة سبع عشرة خلت منه حولت من السجن إلى دار إسحاق بن إبراهيم [حاكم بغداد] وأنا مقيد بقيد واحد يوجه إلي في كل يوم رجلان سماهم أبي قال أبو الفضل صالح: هما أحمد بن رباح وشعيب الحجام يكلماني ويناظراني فإذا أرادوا الانصراف دُعي بقيد فقيدت به، فمكثت على هذه الحالة ثلاثة أيام، وصار في أرجلي أربعة أقياد.

هكذا تكون المحن والابتلاءات بالعلماء الصادقين تعلو وتعلو يومًا بعد يوم وهم صابرون محتسبون، وتتجلى هذه المحن بإمامنا فيأتيه نعي المأمون إلا أن حاشيته تعود من جديد مع خليفته المعتصم ويزينوا له أن الأمام أحمد يناوئ الدولة ويزينوا للحاكم الباطل الذي هم عليه ليواصل دائرة التعذيب لهذا الإمام العظيم، وكأن الخلافة ستنهار إذا لم يقل ابن حنبل رأيه في مسألة خلق القرآن، وهكذا تترك أمور الخلافة الكبيرة وتنشغل الدولة والخليفة بأمور بعيدة مبنية في الأساس على الباطل.

ولم يكن المعتصم صاحب جدل كالمأمون، وقد رأى أن يهادن الشيخ الكبير دون ضرورة للإرهاق، فصاح أصحاب الغرض: إنه الدين، إنه الإسلام، إنه القرآن، لابد من المحاكمة يا أمير المؤمنين.

وعقد المجلس الرهيب يتصدره المعتصم، ودخل الإمام أحمد، فرآه المعتصم شيخًا كبيرًا قوس ظهره مر السنين، وفي يده الأغلال من حديد، فشعر برهبة ضاقت بها نفسه، ومن

ورائها صوت الإمام يقول: السلام عليك يا أمير المؤمنين، فلم يتمالك أن قال له: أجلس، ثم ألتفت إلى أصحابه قائلًا: زعمتم أنه شاب حدث السن! فلم يجيبوا بشيء.

قام الإمام أحمد وقال: أتأذن لي بالكلام يا أمير المؤمنين؟

قال المعتصم: تكلم عما تريد!.

قال الإمام: إلام دعا ابن عمك محمد ﷺ؟

قال المعتصم: دعا إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأنه رسول الله.

قال الإمام: فأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله!.

سكت المعتصم حائرًا، فانتهز الإمام الفرصة السانحة وقال: إن هؤلاء يا أمير المؤمنين يدعونني أن أقول: إن القرآن مخلوق، وهي شيء لا أجده في كتاب الله ولا في سنه رسوله، فقد حدثنا يحي بن سعيد عن شعبة قال: حدثنا أبو حمزة قال: سمعت ابن عباس يقول: إن وفد عبد القيس لما قدموا على رسول الله ﷺ أمرهم بالإيمان بالله، فقال: «**أتدرون ما الإيمان؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «**شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت، وأن تعطوا الخمس من المغنم**»[رواه ابن حبان]، فهذا ما رواه جدك، وليس به شيء مما يدعيه هؤلاء من خلق القرآن.

فقال المعتصم متراجعًا: إني لم آمر فيك بشيء، ولولا أني وجدتك في يد من كان قبلي ما تعرضت لك.

قال الإمام: يا أمير المؤمنين أعطوني شيئًا من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

قال ابن أبي دؤاد: أنت تقول إلا ما في كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ؟

فقال أحمد: تأولت تأويلًا، فأنت أعلم وما تأولت ما يحبس عليه ويقيد عليه.

فقال ابن أبي دؤاد: إنه ضال مبتدع يا أمير المؤمنين، وهؤلاء قضاتك والفقهاء فسلهم؟

فقال لهم المعتصم: ما تقولون؟

قالوا: يا أمير المؤمنين هو ضال مضل مبتدع!

تلك مقالة علماء السوء وطلاب الدنيا وعبيد أهوائهم، حينما يخاصمون قرناءهم في المعتقد، ويخالفونهم في الرأي في كل زمان.

التفت المعتصم إلى هؤلاء العلماء على كثرتهم وقال: ناظروه!

فقال أحدهم: ما رأيك في القرآن؟

فرد الإمام يسأل: ما رأيك في علم الله؟

فسكت المعتزلي!! فقال أحمد: القرآن من علم الله، فمن زعم أن القرآن مخلوق فقد زعم أن علم الله مخلوق، ومن قال بذلك فقد كفر.

قال معتزلي آخر: يقول الله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنبياء: ٢]. أيكون الذكر محدثًا وهو غير مخلوق.

قال أحمد: تلك ليست فيها ألف ولام، فهي غير القرآن، والله يقول: ﴿وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ [ص: ١]. بألف ولام وهو القرآن.

فجعل ابن سماعة [وهو من قضاة المعتصم] لا يفهم ما يقوله الإمام، فجعل يقول لهم ما يقول؟ فقالوا: إنه يقول كذا وكذا، فقال له إنسان منهم: حديث خباب يا هذا تقرب إلى الله بما استطعت فإنك لن تتقرب بشيء هو أحب إليه من كلامه.

فقال الإمام: نعم هكذا هو.

فجعل ابن أبي دؤاد ينظر إليه ويلحظ متغيظًا عليه، فكان إذا انقطع الرجل منهم اعترض ابن أبي دؤاد فتكلم.

قال معتزلي آخر: أكان الله ولا قرآن.

قال الإمام: أكان الله ولا علم.

قال المعتزلي: أليس الله خالق كل شيء.

قال الإمام: بلى.

قال المعتزلي: والقرآن شيء مخلوق.

قال أحمد: يقول الله: ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ [الأحقاف: ٢٥]. فهل دُمرت إلا ما أراد الله.

ينقطع المعتزلي ويدخل آخر: ما تقول في حديث عمران بن حصين: إن الله قد خلق الذكر؟

قال الإمام: روي الحديث هكذا: «إن الله كتب الذكر»، ولم يرو: إن الله خلق الذكر.

قال المعتزلي: هناك حديث يقول: ما خلق الله من جنة ولا نار ولا سماء ولا أرض أعظم من آية الكرسي.

قال أحمد: وقع الخلق على الجنة والنار والسماء والأرض، ولم يقع على القرآن.

قال المعتزلي: قال تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾ [الزخرف: ٣]. أيكون القرآن مجعولًا وهو غير مخلوق؟

قال أحمد: يقول تعالى: ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾ [الفيل: ٥]. أيكون المعنى: فخلقهم؟

قال أحمد بن أبي دؤاد: إن تشبثك بأن القرآن كلام الله غير مخلوق، معناه أنك تنسب إلى الله جوارح، تكلم بها كالمخلوقين، وتشبيه الله بالمخلوقين كفر.

قال الإمام: هو أحد صمد، لا شبه له، ولا عدل.. وهو كما وصف نفسه.

قارب الوقت للزوال فقال لهم ابن أبي دؤاد: قوموا.

ويستمع المعتصم إلى تلك المناقشة أو المحاكمة التي علا فيها صوت الحق المتمثل بحجج الإمام وبراهينه من الصباح حتى قاربت صلاة الظهر. ثم يخلو المجلس بالمعتصم ورجال حاشيته وابن أبي دؤاد، فيصيح المعتصم. إنه عالم فقيه، وإنه ليسرني أن يكون معي يرد على أهل الملل.

هكذا انتصر الإمام عليهم بفكره وقوى حجته وهاب المبطلون، ولكن أبى هؤلاء أن ينتصر عليهم فتأجج الحقد في نفوسهم فيصيحون: إنه يسب المأمون ويقول: إن الله أهلكه انتقامًا له، وقد وصفه بالفسق والفجور.

فيقول المعتصم: وهل ذاع في الناس ما يقول؟

فيصيح الحاضرون: نعم.

فيرد المعتصم: إذن لابد من العقاب!

ويتبع المعتصم أسلوبًا آخر لعل به يزحزح أحمد عن إيمانه ومعتقده، يقول الإمام أحمد: ثم احتبس [أي المعتصم] عبد الرحمن بن إسحاق فخلا بي وبعبد الرحمن، فجعل يقول لي: أما تعرف صالحًا الرشيدي؟ كان مؤدبي وكان في هذا الموضع جالسًا، وأشار إلى ناحية من الدار، فتكلم وذكر القرآن فخالفني فأمرت به فسحب ووطئ، ثم قال: ما أعرفك؟ ألم تكن تأتينا؟

فقال له عبد الرحمن: يا أمير المؤمنين أعرفه منذ ثلاثين سنة، يرى طاعتك والحج والجهاد معك، وهو ملازم لمنزله.

فجعل يقول المعتصم: والله إنه لفقيه وأنه لعالم، وما يسرني أن يكون مثله معي يرد على أهل الملل، ولئن أجابني إلى شيء له فيه أدنى فرج، لأطلقن عنه بيدي ولأطأن عقبه، ولأركبن إليه بجندي، ثم يلتفت إلى ويقول: ويحك يا أحمد ما تقول؟

قلت: يا أمير المؤمنين أعطوني شيئًا من كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ، فلما طال بنا المجلس ضجر فقام فرددت إلى الموضع الذي كنت فيه (أي: السجن).

رجع الإمام إلى سجنه الضيق المظلم وهو مقيد بالأغلال مرفوع الرأس ثابت الإيمان قوي الجنان، شاكر ربه على توفيقه إياه ونصره، في تلك المناقشة وفي تلك السبيل ذات التهديد المرعب والإغراء العريض.

ويستكمل الإمام حديثه عن المحنة فيقول: ثم وجه إليَّ برجلين هما صاحب الشافعي [عبد الرحمن بن إسحاق] وغسان من أصحاب ابن أبي دؤاد، فيناظراني فيقيمان معي حتى إذا حضر الإفطار وجه إلينا بمائدة عليها طعام، فجعلا يأكلان وجعلت أتعلل حتى ترفع المائدة، وأقاما إلى غد، وفي خلال ذلك يجيء ابن أبي دؤاد فيقول لي: يا أحمد يقول أمير المؤمنين ما تقول؟

قلت له: أعطوني شيئًا من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ حتى أقول به.

فقال لي ابن أبي دؤاد: والله لقد كتب اسمك في السبعة فمحوته ولقد ساءني أخذهم إياك، وإنه والله ليس السيف أنه ضرب بعد ضرب، ثم يقول لي: ما تقول؟ فأردد عليه نحوًا مما رددت عليه.

هكذا يدعي شيخ المعتزلة وهو صاحب فكرة المحنة؟ محاولة منه لإرجاع الإمام عن معتقده لينتصر مذهبه، ولكن محاولاته باءت بالفشل الذريع، ورجع ابن أبي دؤاد إلى منزله ليستعد للمناقشة في اليوم التالي.

يقول الإمام: وفي اليوم الثاني دخلت على المعتصم فقال: ناظروا وكلموه.

فجعلوا يتكلمون هذا من هنا وهذا من هنا، فأرد على هذا وهذا فإذا جاءوا بشيء من الكلام بما ليس في كتاب الله وسنة رسوله ولا فيه خبر ولا أثر أقول لهم: ما أدري ما هذا. فيقول: يا أمير المؤمنين إذا توجهت له الحجة علينا وثب، وإذا كلمناه بشيء يقول ما أدري ما هذا.

فيقول المعتصم: ناظروه

وكان إذا انقطع الرجل عن مناقشة الإمام [أي إذا لزمته الحجة فأُفحم ولا يستطيع ردًا] اعترض ابن أبي دؤاد.

ثم يقول الإمام: ثم أمرهم بعد ذلك بالقيام وخلا بي وبعبد الرحمن ابن إسحاق، فيدور بيننا كلام كثير، ومن خلال ذلك قال: تدعو أحمد بن أبي دؤاد فأقول ذلك إليك، فيوجه فيجيء

فيتكلم، فلما طال بنا المجلس قام، ورددت إلى الموضع الذي كنت فيه، وجاءني الرجلان اللذان كانا بالأمس فجعلا يتكلمان فدار بيننا كلام كثير، فلما كان وقت الإفطار جيئ بالطعام على نحو مما أتي به في أول ليلة فأفطروا وتعللت وجعلت رسله تأتي أحمد بن عمار [وهو الواسطة بين الإمام والمعتصم] فيمضي إليه برسالة على نحو ما كان في أول ليلة حتى إذا كدت أن أصبح أخرجت تكتي من سراويلي فشددت بها الأقياد أحملها بها إذا توجهت إليه، فشددت به الأقياد وأعدت التكة في سراويلي، ولبستها كراهية أن يحدث شيء من أمري فأتعرى.

بقي الإمام يومين بلا طعام لأنه صائم فاستعد بذلك روحيًا على استعداده فكريًا، إذ قد رفض أن يأكل من طعام القوم الظالمين لأنه في ضيافة الله تعالى.

لقد استعد لذلك روحيًا وفكريًا للجلسة الثالثة من محاكمته، التي سيكون فيها إعطاء القرار النهائي، ولم ينس احتياطه لعورته أن تكشف، لأنه قرر الصمود والثبات لكل ضرب أو سيف حتى يلقى العليم الخبير، أما خصومه فقد استعدوا أيضًا ولكن غير استعداده.

وجاء اليوم الثالث وتأيدت ظنون الإمام، قال الإمام: فلما كان في اليوم الثالث أدخلت عليه [أي المعتصم] والقوم حضور، فجعلت أدخل من دار إلى دار، وقوم معهم السيوف، وقوم معهم السياط وغير ذلك من الزي والسلاح، وقد حشيت الدار بالجند، ولم يكن في اليومين الماضيين كبير أحد من هؤلاء حتى صرت إليه [أي المعتصم] فقال: ناظروه وكلموه، فعادوا بمثل مناظرتهم، فدار بيننا وبينهم كلام كثير حتى إذا كان في الوقت الذي كان يخلو بي فيه نحاني ثم اجتمعوا وشاورهم ثم نحاهم ودعاني، فخلا بي وبعبد الرحمن بن إسحاق، فقال لي: ويحك يا أحمد، أنا والله عليك شفيق وإني لأشفق عليك مثل شفقتي على هارون ابني فأجبني؟

فقلت: يا أمير المؤمنين أعطوني شيئًا من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

وهنا ضاقت نفس المعتصم كما ضاق لسانه عن النطق الجميل فأصدر أوامره الجهنمية بإنزال العقاب الذي ما بعده عقاب.

قال الإمام أحمد: فلما ضجر المعتصم وطال المجلس قال: عليك لعنة الله، لقد كنت طمعت فيك، خذوه، خلعوه ثيابه، اسحبوه.

فأخذت فسحبت ثم خلعت ثم قال: العقابين والسياط، فجيء بالعقابين والسياط، وقد كان صار إليَّ شعرتان من شعر النبي ﷺ، فصررتها في كم القميص.

فنظر إسحاق بن إبراهيم إلى الصرة في كم قميصي، فوجه إليَّ ما هذا المصرور في كم قميصك، فقلت: شعر من شعر النبي ﷺ، وسعى بعض القوم إلى القميص ليحرقه في وقت ما أقمت بين العقابين فقال لهم: لا تحرقوه انزعوه عنه، فظننت أنه درى عن القميص الخرق لسبب الشعر الذي كان فيه، ثم صيرت بين العقابين وشدت يدي وجيء بكرسي فوضع لي وابن أبي دؤاد قائم على رأسه [المعتصم] والناس أجمعون قيام ممن حضر، فقال لي ممن شدني: خذ أي الخشبتين بيدك وشد عليهما، فلم أفهم ما قال، فتخلعت يدي لما شدت ولم أمسك الخشبتين.

ويقول ولده صالح: ولم يزل أبي: يتوجع منها من الرسغ إلى أن توفي.

ثم قال المعتصم للجلادين: تقدموا! فنظر إلى السياط فقال: ائتوا بغيرها.

ثم قال: تقدموا! فقال لأحدهم: أدنه أوجع قطع الله يدك.

فتقدم فضربني سوطين ثم تنحى- وكان الإمام يذكر كلامًا عند كل ضربة سوط.

قال المقريزي في «المقتضى»: فلما ضرب أحمد سوطًا قال: بسم الله، فما ضرب الثاني قال: لاحول ولا قوة إلا بالله، فلما ضرب الثالث قال: القرآن كلام الله غير مخلوق، فما ضرب الرابع قال: ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا ﴾ [التوبة: ٥١]، فضربه تسعين وعشرين سوطًا وكانت تكة سراويله قد انقطعت فنزل السراويل إلى عانته، فقلت الساعة ينتهك، فرمى أبو عبد الله طرفه إلى السماء وحرك شفتيه فما كان أسرع من أن بقي السراويل لم ينزل.

قال ميمون: فدخلت على أبي عبد الله بعد سبعة أيام فقلت: يا أبا عبد الله! رأيتك يوم ضربوك قد انحل سراويلك فرفعت طرفك إلى السماء ورأيتك تحرك شفتيك فأي شيء قلت؟

قال: اللهم أني أسألك باسمك الذي ملأت به ملكوت الدنيا إن كنت تعلم أني على صواب فلا تهتك لي سرًا.

وبعد تلك السياط الشداد وإمامنا صابر محتسب يذكر الآخرة ويرجو رحمة ربه، والناس قيام ينظرون.

قال الإمام: ثم قام المعتصم حتى جاءني ومن معه وهم محدقون به، فقال: ويحك يا أحمد تقتل نفسك، ويحك أجبني أطلق عنك بيدي، فجعل بعضهم يقول لي: ويحك إمامك على رأسك قائم، وجعل عجيف (وهو من رجاله) ينخس بقائم سيفه ويقول: تريد أن تغلب هؤلاء كلهم؟

وجعل إسحاق بن إبراهيم يقول: ويلك الخليفة على رأسك قائم، ثم يقول بعضهم يا أمير المؤمنين دمه في عنقي، ثم رجع فجلس على الكرسي ثم قال: للجلاد: أدنه شد قطع الله يدك، ثم لم يزل يدعو جلادًا بعد جلاد فيضربني سوطين ويتنحى وهو يقول: شد قطع الله يدك.

ثم قام (المعتصم) إلى الثانية فجعل يقول: يا أحمد أجبني، فجعل عبد الرحمن بن إسحاق يقول لي: من صنع بنفسه من أصحابك في هذا الأمر ما صنعت؟ هذا يحيي بن معين وهذا أبو خثيمة وابن أبي إسرائيل، وجعل يعدد من أجاب، وجعل هو (أي: المعتصم) يقول: ويحك أجبني، فجعلت أقول نحوًا مما كنت أقوله لهم.

في هذا البحران من الضغط والإرهاب والموت على رأس الإمام، والجلادون الذين يتناوبون على ضربه بالسياط الضرب المبرح وقد بلغوا مائة وخمسين جلادًا لا يستطيعون أن يحركوه عن اعتقاده قيد أنملة.

وهنا تشتد النفوس حماقة والقلوب غيظًا وأيدي الجلادين قوة فيعلن المعتصم من يقتله؟

فجاء الجلاد أبو الدن فقال: أنا!.

قال المعتصم: بكم تقتله؟.

قال: بخمسة عشر أو عشرين.

فقال: شد قطع الله يدك.

يقول الإمام: ثم جعل يقول للجلاد شد قطع الله يدك، فذهب عقلي وما عقلت إلا وأنا في حجرة مطلق القيد.

فقال إنسان ممن حضر، إنا كببناك على وجهك وطرحنا على ظهرك بارية [حصير] ودسناك!.

قال الإمام: ما شعرت بذلك!!.

نعم كيف يشعر، وقد تعهد أبو الدن الجلاد الأحمق أن يزهق روح الإمام بضربات معدودات، وإن ذهب شعور عقله فإن قلبه الكبير بقي حيًا ذا حراك وشعور تآمين يلهج بذكر الله.

قال الإمام: فجاؤوني بسويق فقالوا لي: اشرب وتقيأ.

فقلت: لا أفطر.

ثم جيء بي إلى دار إسحاق بن إبراهيم فنودي بصلاة الظهر، فصلينا الظهر فقال ابن سماعة [قاضي المعتصم] صليت والدم يسيل من ضربك؟

فقلت: قد صلى عمر رضي الله عنه وجرحه يثعب دمًا.

قال أبو علي حنبل بن إسحاق: سمعت أبا عبد الله يقول: ذهب عقلي مرارًا فإذا رفع عني الضرب رجعت إلي نفسي، وإذا استرخيت وسقطت رفع عني الضرب، أصابني ذلك مرارًا وأنا لا أعقل.

وقال: وبقيت يده وإبهاماه متخلعتين يضربان عليه إذا أصابهما البرد، حتى نسخن له الماء، وصار سوط من الضرب في خاصرته، فظنوا أنها قد نقبت، فسلمه الله من ذلك، ورزقه العافية.

ورأيت أبا عبد الله وقد أصابت أذنه ضربة فقطعت الجلد، وأنتنت أذنه، وأصابت وجهه غير ضربة فما كان يضطرب، وكان في ظهره به شيء من اللحم قد مات، فقطعه بالسكين، فلم يزل أثر الضرب في ظهره إذا أصابه البرد ضرب عليه، فإذا آذاه الدم بعث إلى الحجام في أي ساعة كان، فيُخرج الدم حتى يسكن عنه ضربان كتفيه، وكان يسخن له الماء الحار لبدنه.

قال صالح ابن الإمام أحمد: ثم خلي عنه، فصار إلى المنزل، ووجه إليَّ برجل من السجن ممن يبصر الضرب والجراحات ويعالج منها، فنظر إليه فقال لنا: والله لقد رأيت ضربًا أشد من هذا ألف سوط ما رأيت ضربًا أشد من هذا! لقد جر عليه من خلفه ومن قدامه، ثم أدخل ميلًا في بعض تلك الجراحات فقال: لم يثعب، وقد كان أصاب وجهه غير ضربة فجعل يأتيه ويعالجه ما شاء الله، ثم قال له: إن ههنا شيئًا أريد أن أقطعه، فجاء بحديدة، فجعل يعلق اللحم بها، ويقطعه بسكين معه، وهو صابر لذلك يحمد الله في ذلك. فبرئ منه ولم يزل يتوجع من مواضع منه، وكان أثر الضرب بينًا في ظهره إلى أن توفي.

كل ذلك الضرب وكل هذه الجراحات وكل تلك السجون المظلمة والزنزانات الضيقة، وكل تلك القيود والأغلال ثم الركل بالأقدام وهو فاقد الشعور، وكل هذه المحنة التي ما بعدها محنة، وإمامنا صابر مصابر بين صلاة وصيام وذكر وتسبيح ودعاء واستغفار، من أجل الحفاظ على عقيدة الإسلام، وحماية القرآن من القول المريب فيه، كل هذا تحمله الإمام أحمد بثبات وشجاعة ثم نسمعه يقول: والله لقد أعطيت المجهود من نفسي، ولوددت أن أنجو من هذا الأمر كفافًا لا عليَّ ولا لي!!

وبعد هذا الضرب وبعد تلك المعالجة الطبية لجروحه، ماذا حدث لإمامنا؟ وهل انتهت محنته؟

هاج الناس وماجوا لأنهم رأوا صدق إمامهم، وازدادوا وثوقًا بصحة معتقدهم، وأن ما عليه أحمد هو الحق، وكادت أن تحدث ثورة تعصف بالمعتصم فأدرك المعتصم ذلك، وسارع إلى قطع دابرها بهذه الحيلة الماكرة!!.

قال ابن أبي حاتم: سمعت أبو زرعة يقول: دعا المعتصم إسحاق عم أحمد بن حنبل، ثم قال للناس: تعرفونه؟ قالوا: نعم، فانظروا إليه، قال لإسحاق: أليس صحيح البدن [ويشير بذلك إلى الإمام أحمد] فقال برأسه: نعم، ولو أنه فعل غير ذلك لوقع شر لا يقدر على دفعه.

فلما قال قد سلمته إليكم صحيح البدن هدأ الناس وسكتوا.

ولولا هذا الهياج وهذه البوادر للثورة لكان المعتصم قد أخذ باقتراح ابن أبي دؤاد وطرح إمامنا في السجن.

يقول الإمام: وكان ابن أبي دؤاد يحث الخليفة على حبسي ويقول له: يا أمير المؤمنين! أحبسه فإنه فتنة، فلا يجد بدًا أن يخلي عني ولولا ذلك لكان قد حبسني. وقال المعتصم لهم: ليس هذا كما وصفتم.

وعاد الإمام إلى بيته لا يقوى على السير مكللًا بالنصر المبين، مرتديًا تاج العز والفخار، وقد أثبت للملأ أجمع أن الله تعالى رجالًا يغضبون له، وأن للقرآن حماة يذودون عنه، وأن للدين أنصارًا يجودون بأنفسهم حين يعز الناصر ويكثر الواتر بتسلط الظلمة على رقاب الأمة.

ثم عاد الإمام إلى درسه ووعظه بعد أن التأمت جروحه وشفيت أوجاعه، وذهب عنه وعثاء المحنة، والتفت الناس حوله، ووجدوا فيه العالم التقي والفقيه المحنك الذي ترتاح إليه النفوس، تستمع إلى وعظه القلوب وإنه إمام العصر الذي تتمثل فيه الرجولة بأسمى معانيها.

عادت إليه المحنة عندما تولى الواثق الحكم بعد المعتصم، فاستمرت المحن تصب على أقرانه من السادة العلماء، وضاق صدر الواثق به فأنزل بالإمام المحن، ولكنها ليست ضربًا بالسياط وحبسًا بالسجون وتضييقًا وملاحقة كما فعل أبوه المعتصم، إذ رأى أن هذا النوع من المحنة زادت إمامنا محبة عند الناس وجمهرة الأمة، ورفعت منزلته وعظم احترامه، وانتشر معتقده، وفشي فكره وكان نصيب ما تبنته الدولة وما يعتقده رئيسها التراجع والضمور فأصدر أمره الجائر قائلًا: لا تجمعن إليك أحدًا ولا تساكني في بلد أنا فيه.

فأقام الإمام أحمد في داره لا يخرج إلى صلاة ولا يشهد جنازة ولا يلقي درسًا، حتى مات الواثق.

أليس في ذلك محنة له.....؟؟

أما قرناء الإمام أحمد فقد أنزل بهم الواثق أشكال المحن، فهذا أحمد بن نصر الخزاعي قد تأثر بسلوك الإمام أحمد فحقد أشد الحقد على الدولة وأخذ يلمزها في دروسه ويعلن بصراحة اعتقاده الذي هو اعتقاد الإمام ابن حنبل.

قال المقريزي وغيره: فأما أحمد بن نصر فكان من أهل الدين والصلاح والأمارين بالمعروف. . دعاه الواثق إلى القول بخلق القرآن فأبى، فأمر بضرب عنقه فضرب، وحمل رأسه إلى بغداد فنصب في الجانب الشرقي أيامًا، ومثلها في الجانب الغربي، أما جسده فصلب بسر من رأى [مدينة سامراء].

وفي رواية أخرى: امتحنه الواثق بالقرآن فأبى أن يقول أنه مخلوق وشتمه الواثق فرد عليه، فضرب عنقه وصلب بسر من رأى ووجه برأسه فنصب ببغداد.

فهل هناك فظاعة في القتل وتمثيل في الجسم أشد من ذلك وأعظم؟

وحين سمع الإمام أحمد قال: رحم الله أحمد بن نصر ما كان أسخاه لقد جاد بنفسه.

وهذا نعيم بن حماد وكان: من كبار علماء مصر، مشهورًا بالصدق وغزارة المعرفة، ناطقًا بالحق، جريئًا في دحض الباطل، لذا فقد أعلن صحة المعتقد في مسألة خلق القرآن، مخطئًا الدولة فيما ذهبت إليه.

يقول المقريزي في «المقفى»: وأما نعيم بن حماد فكان من أهل مرو طلب الحديث بالحجاز والعراق، ثم نزل مصر، ثم أشخص منها في خلافة الواثق، وسئل عن القرآن فلم يوافقهم على ما أرادوا منه، يعني القول بخلقه فحُبس حتى مات.

وهذا أبو يعقوب البويطي تلميذ الإمام الشافعي الذي تولى خلفه درسه بعد موته، وكان الربيع بن سليمان من أقران البويطي، فقد حكى عنه: لقد رأيت البويطي مصفدًا في أغلاله وسمعته يقول: والله لأموتن في حديدي هذا حتى يأتي من بعدي قوم يعلمون أنه قد مات في هذا الشأن قوم في حديدهم، ولئن دخلت عليه (يعني الواثق) لأصدقنه، فمات في السجن.

وهكذا أنزلت المحنة بأقران أحمد من فضلاء الأمة وعلماء دينها، وجيء بهم مصفدين في الأغلال من أرجاء الدولة إلى الواثق، ليأخذوا نصيبهم من هذه المحنة حتى أن عوام الأمة من الذين اتبعوا الأمة واعتقدوا رأيهم، لم ينجوا من هذه المحنة، وذلك أن أساري المسلمين وقعوا في أيدي البيزنطيين، رأت الدولة بأمر الواثق أن تفاديهم وتفك أسرهم، ولكن مَنْ مِنْ هؤلاء الأسارى تخلص من هذا الأسر ونجا من عذاب الروم وهو بين أيدي العلوج أسير؟؟

ويحدثنا المسعودي قائلًا: وحضر هذا الفداء مع خاقان رجل يكني أبا رملة، من قِبَلَ أحمد بن أبي دؤاد قاضي القضاة يمتحن الأساري وقت المفاداة فمن قال منهم بخلق التلاوة فودي به وأحسن إليه بدفع دينارين له ومن أبى ترك بأرض الروم...

فاختار جماعة من الأساري الرجوع إلى أرض النصرانية على القول بذلك وأبى أن يسلم الانقياد إلى ذلك، فنالته محن ومهانة إلى أن تخلص...

وبهذا تعاظمت البلوى، واشتدت المحن، وبلغ الاضطهاد منها، وسمت هذه الأحوال، حتى صارت مسألة خلق القرآن حديث كل الناس من أفراد الرعية في الدولة، وهم بين مادح ومثنى على من وقعت عليهم المحن، وأصيب بشرورها ومترحم على شهدائها، وبين منكر لتصرف الدولة في ذلك، للقسوة التي استعملتها والاضطهاد الذي قامت به بل صارت هزلًا يتندر بها البعض.

ومن ذلك ما يروى أن عبادة المضحك دخل يومًا على الواثق فقال: يا أمير المؤمنين أعظم الله أجرك في القرآن؟

فقال: ويلك القرآن يموت؟

قال: يا أمير المؤمنين كل مخلوق يموت، بالله يا أمير المؤمنين بم يصلي الناس التراويح؟

فضحك الواثق وقال: قاتلك الله أمسك.

ولما وصل الحال إلى هذا الحد، خفف الواثق من غلوائه، ورفع كل اضطهاد جديد بشأن ذلك، ولكن أمر تبني المسألة هذه لا زال باقيًا في الدولة، وكان ذلك في أواخر حياته.

وقد روى أن سبب هذا التخفيف يعود إلى سماعه تلك المناقشة التي يحدثنا بها صاحب النجوم الزاهرة فقال: أشخص شيخ من أذنه إلى الواثق فأمره أن يناظر أحمد بن أبي دؤاد في هذا الموضوع، قال الشيخ: يا أحمد خبرني عن مقالتك هذه، أهي واجبة داخلة في عقد الدين، فلا يكون الدين كاملًا حتى يقال فيه ما قلت؟

قال أحمد بن أبي دؤاد: نعم.

قال الشيخ: أخبرني عن رسول الله حين بعثه الله هل ستر شيئًا مما أمر به؟

لم يرد ابن أبي دؤاد عليه.

فقال الشيخ: يا أمير المؤمنين هذه واحدة.

فقال الواثق: واحدة.

ثم قال الشيخ: أخبرني عن الله حين قال: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾ [المائدة: ٣]. أكان الله وهو الصادق في إكمال دينه أم أنت الصادق في نقصانه حتى تقول مقالتك؟

فسكت ابن أبي دؤاد!

فقال الشيخ: اثنتان.

فقال الواثق: نعم.

ثم قال الشيخ: عن مقالتك هذه أعلمها رسول الله ﷺ أم جهلها؟

فقال ابن أبي دؤاد: علمها.

فقال الشيخ: فدعا الناس إليها؟

فسكت ابن أبي دؤاد.

فقال الشيخ: يا أمير المؤمنين ثلاث.

قال الواثق: نعم.

ثم قال الشيخ: فاتسع لرسول الله ﷺ أن علمها أن يمسك عنها ولم يطالب أمته بها.

فقال ابن أبي دؤاد: نعم

فقال الشيخ: والتسع لأبي بكر وعمر وعثمان وعلي ذلك؟

فقال: نعم.

فقال الشيخ: أفلا وسعك ما وسعه ووسع الخلفاء بعهده.

وفي رواية للدميري في كتاب «الحيوان»: شيء لم يدع إليه رسول الله ﷺ ولا أبو بكر ولا عمر ولا عثمان ولا علي تدعو أنت الناس إليه، ليس يخلو أن تقول علموه أو جهلوه فإن قلت علموه وسكتوا وسعني وإياك من السكوت وأوسع القوم، وأن قلت جهلوه وعلمته أنت يا لكع بن لكع يجهل النبي ﷺ والخلفاء الراشدون ﵃ شيئًا وأنت تعلمه..

فخجل ابن أبي دؤاد فقال: أقلني

فقال: المسألة بحالها.

قال: نعم!

بهذا انتهت المناقشة فأمر الواثق بإطلاق سراح الشيخ الأدنى في الحال، ذلك من أسباب التخفيف ولكن التبني في الدولة كماذكرنا لم يرفع وإن رفع الاضطهاد وإنزال المحن بالمخالفين.

وما أن تولى المتوكل الحكم في الدولة بعد الواثق ومضت على حكمه سنتان، وهو يرى ماجرَّ هذا التبني من سوء على الأمة والدولة معًا، فأمر بإلغاء هذا التبني وهدد بإنزال العقاب بمن يتحدث في هذه المسألة، وفك المسجونين، وأكرم المتضررين وبذلك انتهت المحنة إلى غير رجعة.

قال السبكي: وقد طال أمر الفتنة وطال شوها واستمر من سنة ثمان عشرة ومائتين [٢١٨هـ] إلى سنة أربع وثلاثين ومائتين [٢٣٤هـ] فرفعها المتوكل في مجلسه ونهى عن القول بخلق القرآن وكتب بذلك إلى الآفاق.

هكذا كانت محنة الإمام أحمد ولا أجد مثيلًا لصبره في شيخوخته، ولعمري لقد آمن الإمام بقيم مثالية هان جوارها جميع مالاقاه، وتبحث عن سر ثباته الرائع فلا تجد غير الإيمان الراسخ، وبذل الروح هينة في سبيل الله، دون حرص على بقاء! ولكنه بقي ليسجل للناس بطولة نادرة، ومجابهة عنيدة، وصبرًا لا ينفد ولا يريم.

المصادر:
- «سير أعلان النبلاء» للذهبي.
- «علماء في وجه الطغيان» للدكتور/ محمد رجب البيومي.
- «الإسلام بين العلماء والحكام» لعبد العظيم بدوي.
- موقع علماء المسلمين.

الإمام/ محمد بن إسماعيل البخاري

[ليس في دنيا الإسلام مثل محمد بن إسماعيل البخاري في زمانه فهو أمير المؤمنين في حديث رسول الله ﷺ كما لقب به].

قال أحمد بن حمدون الصفار، رأيت مسلم بن الحجاج- وهو الحافظ المحدث صاحب صحيح مسلم- جاء إلى البخاري فقبل عينيه قال: دعني أُقبل رجليك يا أستاذ الأستاذين وسيد المحدثين وطبيب الحديث في علله، ثم سأله عن حديث كفارة المجلس. . فذكر له علته فلما فرغ قال مسلم: لا يغضبك إلا حاسد وأشهد أن ليس في الدنيا مثلك.

نعم ليس في الدنيا مثله، فقد وهبه الله تعالى قوة في الحفظ، وضبطًا في النقل وقدره في فهم العلل والتمييز بين الصحيح والسقيم، وكتابه الجامع الصحيح الذي اتفق عليه جمهور علماء المسلمين بأنه أصح كتاب بعد كتاب رب العالمين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى دلالة صدق على ذلك.

كان جد والدة مجوسيًا وهداه الله عَزَّ وَجَلَّ إلى الإسلام.. وامتد نسبه في أسرة تقتبس أنوار هذا الدين، كتابًا وسنة. . ليبرز منها هذا النجم الأغر، وكان لوالده عناية بالعلم، فقد سمع من مالك بن أنس، واتصل بحماد بن زيد، وعبد الله بن المبارك، وغيرهم من أئمة العلم والدين.

مات والد البخاري وهو صغير، فنشأ في رعاية أم تقية صالحة عُنيت به، فأحسنت العناية، ويُروى أن مرضًا قد أصاب عينيه في طفولته، حتى غاب بصره، فأقبلت أمه على الدعاء والتضرع إلى الله عَزَّ وَجَلَّ أن يشفيه فرأت في منامها إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام يقول لها: قد رد الله على ابنك بصره لكثرة دعائك.

وعاد إليه بصره، وألقى الله عَزَّ وَجَلَّ في قلب البخاري حب العلم والدين فتربى على

حلقات القرآن منذ نعومة أظفاره، فحفظ عن ظهر قلب وقد بدت عليه علامات التميز منذ تلك السن المبكرة! فقد كان في مجلس أحد العلماء، وسمع منه رواية حديث أخطأ فيها! فانطلق لسانه بالتصحيح! وانتهره العالم مستصغرًا شأنه فقال له البخاري: راجع الأصل تجد صحة ما أقول لك. وراجع العالم الكتاب الذي دون فيه الحديث فوجده كما قال البخاري.

ثم أخذ يتتبع مجالس العلماء فيجلس فيها ويسمع من أهلها، وأحب الحديث أعظم حب فحفظه وكتبه وجمعه من مصادر كثيرة، وسأل عنه علماء كثير، واهتم أعظم الاهتمام بصحة الحديث، فما كان يكتب حديثًا حتى يغتسل ويصلي ركعتين، وقد رزقه الله تعالى القبول في الأرض ونرجو له المحبة في السماء، فتلقت الأمة كتابه الصحيح في الحديث بالقبول بل واعتبرته أصح كتاب بعد كتاب الله تعالى.

من ذكرياته التي يرويها عن طفولته: إنه كان يجلس إلى الفقهاء بمرو وهو صبي، وكان إذا دخل المجلس يستحي أن يُسلم، فقال له أحد المؤدبين من أهلها يومًا: كم كتبت اليوم؟ فقال البخاري: اثنين!

وأراد بذلك حديثين! فضحك من حضر المجلس من جوابه، فقال أحد الشيوخ وقد أدرك ببصيرته ذكاء هذا الصبي: لا تضحكوا فلعله يضحك منكم يومًا.

ولئن لم يكن من خُلق البخاري أن يسخر من غيره، فقد بلغ رتبة في العلم جعلته فوق أولئك الذين ضحكوا منه.

كان البخاري آية من آيات الله في الحفظ، وقد لفتت أخبار حفظه أنظار معاصريه، وكان منهم من يشك في ذلك، ولا يسلم به حتى يرى عليه دليل صدق! ولذلك تعرض للامتحان أكثر من مرة.

اختبار علماء بغداد له:

كان علماء بغداد - وهو دار الخلافة- قد سمعوا الكثير من الأخبار المدهشة عن الإمام البخاري وقوة حفظه وحدة ذكائه، وكانت تلك الأخبار تروج وتنتشر في العالم الإسلامي وتزداد شهرة يومًا فيومًا، والأيام التي ورد فيها إمام المحدثين كانت بغداد عاصمة الخلافة وعاصمة العلم أيضًا بسبب ما كانت تلقاه من تشجيع الخلفاء العباسيين.

قال مسلم بن إبراهيم: تعلمت الحديث عن ثمانمائة شيخ ما جزت الجسر، وهذا يعني أنه وجد في مدينة بغداد وحدها ثمانمائة شيخ أستاذ كانوا قد وصلوا إلى مرتبة المشيخة.

ولم يكن دخول الإمام البخاري بغداد مع ارتفاع صيته وانتشار ذكره أمرًا هينًا، وهذا الذي جعل ذلك العدد الهائل من المحدثين الموجودين في بغداد قد اتفقوا على اختبار إمام المحدثين وإتقان بصيرته وذكائه، فدبروا له خطة، وعمدوا إلى مائة حديث فقلبوا متونها وأسانيدها وجعلوا متن هذا الإسناد لإسناد آخر، وإسناد هذا المتن لمتن آخر، ودفعوها إلى عشرة رجال، لكل رجل عشرة أحاديث، وأمروهم إذا حضروا المجلس أن يلقوا ذلك على البخاري وأخذوا عليه الموعد للمجلس، فحضروا وحضر جماعة من الغرباء من أهل خراسان وغيرهم من البغداديين.

فلما اطمأن المجلس بأهله انتدب رجل من العشرة فسأله عن حديث من تلك الأحاديث فقال البخاري: لا أعرفه، فمازال يلقي عليه واحدًا بعد واحد حتى فرغ والبخاري يقول: لا أعرفه. وكان العلماء ممن حضر المجلس يلتفت بعضهم إلى بعض ويقولون فهم الرجل، ومن كان لم يدر القصة يقضي على البخاري بالعجز والتقصير وقلة الحفظ.

ثم انتدب رجل من العشرة أيضًا فسأله عن حديث من تلك الأحاديث المقلوبة فقال: لا أعرفه فسأله عن آخر فقال: لا أعرفه. فم يزل يلقي عليه واحدًا واحدًا حتى فرغ من عشرته والبخاري يقول: لا أعرفه.

ثم انتدب الثالث والرابع إلى تمام العشرة حتى فرغوا كلهم من إلقاء تلك الأحاديث المقلوبة والبخاري يقول: لا أعرف.

وظن من سمع أن ذلك نقص في علمه ولكن العلماء الذين أعدوا الامتحان قالوا: فهم الرجل وأدرك ما أردنا!! وهكذا كان حتى فرغ الرواة من سرد الأحاديث المئة، وجاءهم من البخاري ما لم يتوقعوه، فقد كان أقصى ما ظنوه أن يسرد البخاري تلك الأحاديث المقلوبة بأسانيدها الصحيحة ولكنهم دهشوا وهم يسمعون البخاري يعيد ما سرده عليه كل واحد من العشرة بالصورة التي رواها. فقال: أما حديثك الأول فقلت كذا وصوابه كذا وحديثك الثاني كذا وصوابه كذا والثالث والرابع على التوالي حتى أتى على تمام العشرة فرد كل متن إلى إسناده وكل إسناد إلى متنه وفعل بالآخرين مثل ذلك.

فأقر الناس له بالحفظ وأذعنوا له بالفضل. [انظر مقدمة فتح الباري].

اختبار آخر له من علماء سمرقند:

حدثت مع الإمام قصة اختبار أخرى وذلك لما وصل سمرقند وكان فيها أربعمائة من كبار أهل العلم الذين يوجه إليهم، وكان قد بلغهم ما يتمتع به الإمام من البصر والنفاذ في العلم، فاجتمعوا له تسعة أيام وبذلوا جهودهم لمغالطته فلم يظفروا على غلطة واحدة، قال أبو الأزهر: وكان بسمرقند أربعمائة محدث فتجمعوا وأحبوا أن يغالطوا محمد بن إسماعيل فأدخلوا إسناد الشام في إسناد العراق وإسناد العراق في إسناد الشام وإسناد الحرم في إسناد اليمن فما استطاعوا مع ذلك أن يتعلقوا عليه بسقطة.

يقول الإمام عن أسفاره في طلب العلم: دخلت الشام ومصر والجزيرة العربية مرتين وإلى البصرة أربع مرات وأقمت في الحجاز ستة أعوام، ولا أحصي كم دخلت الكوفة وبغداد مع المحدثين.

هذه الأسفار كانت بركوب الدواب أو سيرًا على الأقدام من أجل أن يجمع الأحاديث الصحيحة ليسهل فهم الشرع لمن يجئ بعده. وقد هيأ له هذا التجوال السبيل إلى الأخذ عن عدد ضخم من أهل العلم، ويدلك على ذلك أن لما دخل مدينة بلخ سأله طلبة العلم فيما أن يملي عليهم حديثًا واحدًا لكل من كتب عنه الحديث! فأملى عليهم ألف حديث لألف رجل ممن أخذ عنهم العلم.

كان الإمام كلما حل في مدينة أو نزل أرضًا كان المسلمون يزدحمون حوله حيث يفوق الوصف والبيان، وكان الناس بعدما سمعوا تلك الأوصاف الخارقة التي وهبها الله لهذا الإمام الجليل من فقه لا نظير له، وذاكرة خارقة، وتبحر في العلم كانوا يتمنون رؤيته، فإذا نزل مكانًا تجمعوا حوله بحيث لا يكاد يوجد موضع قدم.

محنة التقول عليه في مسألة اللفظ:

كان أهل الرأي قد سيطروا على جميع مناطق خراسان وعراق العجم قبل أن يجلس البخاري للتدريس والإفتاء، وكانوا متشددين جامدين على أقوال شيوخهم وأقيستهم، ولم يكونوا يبالون بأحد أمام مشايخهم حتى بالصحابة، وكانت مدينة بخارى وغيرها تحت نفوذ قوي لأهل الرأي بحيث كان من الصعب أن يرفع أحد صوته خلافهم.

وكان في نيسابور عالم كبير من علماء الحديث هو محمد بن يحيي الذهلي الذي أحسن في بداية الأمر استقبال البخاري

قال محمد بن يحي الذهلي في مجلسه: من أراد أن يستقبل محمد بن إسماعيل غدًا فليستقبله فإني أستقبله؛ فاستقبله محمد بن يحيى وعامة علماء نيسابور فدخل البلد فنزل دار البخاريين، ثم أخذه الذهلي الحسد من الإمام حين رأى الخلل في مجلسه وميل الناس إلى البخاري، وكانت ذيول فتنة خلق القرآن ما تزال حية الآثار في الناس، ولأهل العلم في شأن القرآن مذاهب شتى!

وكان الذهلي يوصي أتباعه ألا يسألوا البخاري عن شيء من علم الكلام لئلا يكون منه رأي يكون سببًا في الخلاف بين أهل الحديث فقال: لا تسألوه عن شيء من الكلام، فإنه إن أجاب بخلاف ما نحن عليه وقع بيننا وبينه وشمت بنا كل ناصبي ورافضي وجهمي ومرجئ بخراسان ومن الفرق الأخرى.

ثم لما وقع الحسد في قلبه، وقف رجل من أصحابه وسأل البخاري.

يقول أبو أحمد بن عدي: ذكر لي جماعة من المشايخ أن محمد بن إسماعيل لما ورد نيسابور واجتمع الناس عنده حسده بعض شيوخ الوقت، فقال لأصحاب الحديث: إنه محمد بن إسماعيل يقول لفظي بالقرآن مخلوق. فما حضر المجلس قام إليه رجل فقال: يا أبا عبد الله ما تقول في اللفظ بالقرآن مخلوق هو أو غير مخلوق؟ فأعرض عنه البخاري ولم يجبه ثلاثًا فألح عليه فقال البخاري: القرآن كلام الله غير مخلوق وأفعال العباد مخلوقة والامتحان بدعة، فشغب الرجل ووقع الصياح، وقال: لقد قال لفظي بالقرآن مخلوق. فشغب الناس بين منكر وموافق ومؤيد ومعارض فتفرقوا عنه وقعد البخاري في منزله.

قال أبو حامد بن الشرقي: سمعت محمد بن يحيى الذهلي يقول: القرآن كلام الله غير مخلوق، ومن زعم لفظي بالقرآن مخلوق فهو مبتدع ولا يجالس ولا يكلم ومن ذهب بعد هذا إلى محمد بن إسماعيل فاتهموه فإنه لا يحضر مجلسه إلا من كان على مذهبه. فقام مسلم بن الحجاج على رؤوس الأشهاد من المجلس؛ وانسحب من مجلس الذهلي، وأعلن مناصرته للبخاري، وفعل مثله أحمد بن سلمة النيسابوري فلما قاما من المجلس قال الذهلي: لا يساكنني هذا الرجل في البلد.

قال الحاكم: سمعت محمد بن صالح بن هانئ يقول: سمعت أحمد بن سلمة النيسابوري يقول: دخلت على البخاري فقلت: يا أبا عبد الله إن هذا رجل مقبول بخراسان

خصوصًا في هذه المدينة - يقصد الذهلي-، وقد لج في هذا الأمر حتى لا يقدر أحد منا أن يكلمه فيه. فما ترى؟

وعرف البخاري ما يدور في نفس صاحبه فقبض على لحيته ثم قال: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٤]. اللهم إنك تعلم أني لم أرد المقام بنيسابور أشرًا ولا بطرًا ولا طلبًا للرياسة، وإنما أبت علي نفسي الرجوع إلى الوطن لغلبة المخالفين، وقد قصدني هذا الرجل حسدًا لما آتاني الله، ثم قال لي: يا أحمد إني خارج غدًا لتخلصوا من حديثه لأجلي.

قال أحمد بن سلمة: فأخبرت جماعة من أصحابي فو الله ما شيعه غيري، كنت معه حين خرج من البلج، وأقام على باب البلد ثلاثة أيام لإصلاح أمره.

وكان كثير من أصحابه يقولون له: إن بعض الناس يقع فيك، فيقول: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء :٧٦]. ويتلو أيضًا: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر :٤٣]. فقال له عبد المجيد بن إبراهيم: كيف لا تدعو الله على هؤلاء الذين يظلمونك ويتناولونك ويبهتونك؟ فقال: قال النبي ﷺ: «اصبروا حتى تلقوني على الحوض» وقال ﷺ: «من دعا على ظالمه فقد انتصر».

قال محمد بن أبي حاتم: وسمعته يقول: لم يكن يتعرض لنا قط أحدٌ من إفناء الناس إلا رمي بقارعة ولم يسلم، وكلما حدث الجهال أنفسهم أن يمكروا بنا رأيت من ليلتي في المنام نارًا توقد ثم تطفأ من غير أن ينتفع بها، فأتأول قوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ﴾ [المائدة :٦٤]

محنته مع أمير بخارى:

لما رجع إلى بخار عائدًا من رحلته الدراسية نصبت له القباب على فرسخ من البلد واستقبله عامة أهل البلد حتى لم يبق مذكور، ونثر عليه الدراهم والدنانير.

قال الإمام مسلم: لما قدم محمد بن إسماعيل نيسابور ما رأيت واليًا ولا عالمًا فعل به أهل نيسابور ما فعلوا به استقبلوه من مرحلتين من البلد أو ثلاث، هكذا كان استقبال الناس للإمام في كل بلد يدخلها.

كان خالد بن أحمد الذهلي أميرًا على بخاري من قبل الطاهريين، ولما جلس الإمام في بخارى واتجه إليه طلبة الحديث أفواجًا طالبين الاستفادة من ينابيعه؛ بعث إليه الأمير أن يأتي إليه في قصره لكي يدرسه وأبناءه كتاب «الجامع» و«التاريخ»؛ ولكن الإمام رفض هذا الطلب وأثبت للعالم أنه ما زال هناك من يعطي للعلم قيمته ويقدره حق قدره كأمثال الإمام مالك لا يبالون بعداء الناس ولا يغترون بالدراهم والدنانير ولا يخدعون بالجاه والمال.

فقال الإمام لرسول الأمير: قل له إني لا أذل العلم ولا أحمله إلى أبواب السلاطين

فعاود الأمير طلبه مرة أخرى بأنه إن كان لا يحب أن يأتي إلى القصر الأميري فليعين وقتًا خاصًا للأمراء لا يشترك فيه بقية الناس، ولكن الإمام رفض ذلك لأن العلم وراثه عن النبي ﷺ وكل عام وخاص له حقوق متساوية في هذا العلم وقال: فإن كان له حاجة إلى شيء منه فليحضرني في مسجدي أو في داري فإن لم يعجبك فأنت سلطان فامنعني من المجلس ليكون لي عذر عند الله يوم القيامة أني لا أكتم العلم. وبعد هذا الجواب الصريح القوي لم يكن من أمير بخارى إلا أن غضب غضبًا شديدًا، واعتبر مقالة الإمام إهانة للأمير والإمارة، وحاول إخراجه من البلد إلا أن الإمام كان يملك قلوب المسلمين وحبهم فلم يستطيع أن يخرجه بقوة الحكم والإمارة فدبر ضده مؤامرة، فأوعز إلى حريث بن أبي الورقاء [وكان من كبار فقهاء الحنفية في بخارى الذين كان لا يتجاوز مبلغ علمهم القياس ويتصورون أقوال أئمتهم وأصولهم كأنها وحي نزل من السماء ويبنون عليها في استخراج المسائل ولا يبالون بأحد أمامهم].

وكان على هؤلاء أن يتهموا الإمام بتهمة تزيل أثره من قلوب الناس [هكذا طلب منهم الأمير] لأن الإمام كان قوي النفوذ والتأثير في قلوب الناس بتهمة مزورة فدبروا وافتروا عليه بأنه يقول: أن ألفاظ القرآن مخلوقة. وقالوا عنه: هذا رجل مُشغب، وهو يفسد علينا هذه المدينة، وقد أخرجه محمد بن يحيى الذهلي، واستعانوا عليه بالسلطان في نفيه من البلد.

ولما اضطربت المدينة على أثر هذه الفرية المكذوبة واستفحلت الفتنة صدر الأمر إلى الإمام البخاري بأن يترك المدينة.

حقًا إنها محنة ذات إهانة بالغة لايقدم على إنزالها لعالم بقدر الإمام البخاري إلا من حُرم طعم الإيمان ولم يعرف لحديث رسول الله ﷺ قدره.

فحزن الإمام لذلك لأنها جناية ليس لها مبرر، ولأن معارفه الذين يتلقون عنه سيتأثرون بهذا الانقطاع، ويتأثر هو لقلة معارفه في البلد المخرج إليها، فلما غادر بلده رفع يديه إلى السماء في وقت خلوة غفل عنها الكثير ونامت فيها العيون، وعجزت فيه القوى إلا قوة الله تعالى ثم أخذ يدعو ويقول:

[اللهم أرهم ما قصدوني به في أنفسهم وأولادهم وأهليهم] ولم تمض أيام قليلة وإذا بالدعوة قد استجيبت وظهرت، فأما الأمير فقد ورد أمر الظاهرية بأن ينادى عليه فنودي عليه بأن يطرد من الإمارة ويودع السجن وتوضع القيود في قدمه والأغلال في عنقه ويُغرب عن أهله في سجن مظلم وصودرت أمواله وأُركب على حمار يطاف به في البلاد ليشهر به بعد تسويد وجهه والتحذير منه، واستمر معذبًا في السجن مدة طويلة من الزمن ليذوق وبال ظلمه وتجبره وطغيانه على الإمام، وكانت النتيجة أنه مات في سجنه، وأما حريث بن أبي الورقاء فإنه ابتلي في أهله فرأى فيها ما يجل عن الوصف، وأما فلان فإنه ابتلي في أولاده فأراه الله فيهم البلايا.

وخرج الإمام البخاري من بخارى وصل إلى بيكند، وكان الأعداء لم يدخروا وسعًا في إشاعة تلك الفرية التي افتريت عليه في بخارى وإذاعتها وتشهيرها، فكان خبرها قد سبقه إلى

بيكند، وكان أهلها قد انقسموا إلى فريقين، فريق منهم كان يبرئ الإمام من هذه التهمة، والفريق الآخر كان يساير المفسدين، ولما علم الإمام هذا الخلاف لم ير من المناسب أن يقيم هناك، وفي هذه المدة كان أهل سمرقند قد علموا بقدوم الإمام إلى بيكند فطلبوا أن يشرفهم وينزل عندهم ويعقد مجلس الدرس، فخرج الإمام متجهًا إليهم، ونزل في قرية تسمى [خرتنك] على مقربة من سمرقند في منزل أحد أقربائه، ولكنه لما علم أن الفتنة التي أثيرت في بخارى قد اشتعلت نيرانها في سمرقند أيضًا وأنقسم الناس إلى فريقين، كما كان الحال في بيكند أحدهما موافق ومؤيد والثاني مخالف ومعادي فدعا بدعوات في جوف الليل وقال: [اللهم قد ضاقت علي الأرض بما رحبت فاقبضني].

وفي سمرقند وبعد خلاف في أول الأمر اتفق أهلها على أن ما قيل عن الإمام فرية مكذوبة، وألحوا عليه بالقدوم إلى سمرقند فرضي بالذهاب، فتهيأ للركوب ولبس خفه وتعمم فلما مشي قدر عشرين خطوة أو نحوها إلى الدابة ليركبها قال: أرسلوني فقد ضعفت، فأرسلوه فدعا بدعوات ثم اضطجع فقضي ثم سال منه عرق كثير.

وما يزال عرقه يخرج ويسيل حتى غُسل وكُفن، وحاول بعض الناس أن يحملوه إلى سمرقند، واختلفوا في موضع دفنه ثم اتفقوا على أن يدفن في قرية خرتنك التي توفي فيها فدفن يوم عيد الفطر بعد صلاة الظهر، وبعدما دفن في قبره خرجت منه رائحة زكية شبهها المؤرخون بالمسك والعنبر، واشتهر ذلك حتى أن الناس صاروا يأتون إلى قبره من مسافات بعيدة للتأكد من هذا الخبر، وبدأوا يأخذون معهم شيئًا من التراب حتى خشي أهل القرية أن لا يبقى شيء من التراب فأحاطوا قبره حفاظًا عليه وخوفًا من أن ينكشف.

قال عبد الواحد الطواويسي: رأيت النبي ﷺ في المنام ومعه جماعة من أصحابه وهو واقف في موضع فسلمت عليه فرد عليَّ السلام فقلت: ما وقوفك هنا يا

رسول الله قال: أنتظر محمد بن إسماعيل. فلما كان بعد أيام بلغني موته فنظرت فإذا هو قد مات في الساعة التي رأيت فيها النبي ﷺ [مقدمة فتح الباري].

وهكذا عاش الإمام البخاري خادمًا للسنة وأكتوى بآلام المحن والابتلاءات الكثيرة حتى مات مظلومًا، ولكن بقي علمه تتداوله الأجيال إلى يوم القيامة على إجماع من الأمة بفضله وعلمه ومكانته فرحم الله الإمام الجليل أمير المؤمنين في حديث النبي ﷺ.



المصادر:
- «فتح الباري شرح صحيح البخاري» لابن حجر العسقلاني.
- «سير أعلام النبلاء» للذهبي.
- «علماء في وجه الطغيان» للدكتور/ محمد رجب بيومي.

الإمام/ الشافعي

كانت غزة على موعد مع الزمن ليولد على ثراها وليد من آل المطلب ابن هاشم، الذي تنسب إليه غزة، ولكن هذا الوليد الذي يتنفس الهواء الغزي الطيب لا يمكث فيها أكثر من سنتين، فقد رحل والده عن الدنيا، ونظرت أمه في حاله فرأته غريب الدار يتيمًا، فلم ترد أن تجمع عليه مرارة اليُتم ومرارة الغربة، فانطلقت به إلى مكة يعيش بين أهله، ويتفيأ ظل الحرم الشريف.

نشأ الشافعي يتيمًا فقيرًا، ولكن شرف النسب وعلو الهمة والمواهب المميزة التي آتاه الله إياها كانت دوافع له ليمضي في الطريق الصعب، طريق ورثة الأنبياء الذي يخلد له في الأرض ذكرًا، ويعظم له في الآخرة أجرًا.

مضت أمه إلى الكُتاب وأسلمته إلى معلم القرآن وقد رزق الشافعي حافظة لاقطة أغنته عن أن يكلف أمه دفع أجرة المعلم في الكُتاب.

قال الشافعي: كنت وأنا في الكُتاب أسمع المعلم يلقن الصبي الآية فأحفظها أنا؛ ولقد كان الصبيان يكتبون إملاءهم، فإلى أن يفرغ المعلم من الإملاء عليهم كنت قد حفظت جميع ما أُملي، فقال لي ذات يوم: ما يحل لي أن آخذ منك شيئًا!!

وقد أوكل المعلم إليه أمر رعاية الطلبة في الكُتاب إذا غاب عنه، وبلغ الفقر بالشافعي أنه لم يجد ما يكتب عليه ما يتعلمه، فكان يلتقط الخزف والحجارة الرقيقة وأكتاف الجمال وما أشبه ذلك يكتب فيها الحديث.

لقد كانت نشأته قاسية، ولكنها لم تطمس مواهبه، بل ولدت لديه رد فعل دفعه إلى قبول تحدي واقعه، فتألقت تلك المواهب، ويسجل لنا التاريخ أنه حفظ القرآن الكريم وهو ابن سبع سنوات! وأنه حفظ الموطأ وهو ابن عشر سنين.

وانطلق الشافعي إلى البادية يتعلم اللغة ويروي الشعر في مضارب هذيل، وقد كان في عصر الشافعي كثيرٌ من أئمة اللغة والأدب الذين عكفوا على خدمة اللغة وجمع الشعر وتصنيفه، وكان من الممكن أن يكون الشافعي واحدًا من أولئك الأعلام، ولكن شاء الله أن ينصرف عن هذا الميدان إلى الفقه، ويبدو أن أكثر من رجل من أهل العلم في زمانه رأوا أن الفقه والحديث أولى بالشافعي من اللغة والأدب.

روى مصعب بن عبد الله الزبيري: كان الشافعي في ابتداء أمره يطلب الشعر وأيام الناس والأدب، ثم أخذ في الفقه بعد، وكان سبب أخذه في الفقه أنه كان يومًا يسير على دابة له وخلفه كاتب لعبد الله الزبيري فتمثل الشافعي ببيت شعر، فضربه ذلك الكاتب بسوط وقال له: مثلك تذهب مروءته في مثل هذين أين أنت عن الفقه؟ فهزه ذلك فقصد مجالسة مسلم بن خالد الزنجي وكان مفتي مكة.

إن مواهب الشافعي وذكاءه وفهمه وما ظهر من ذلك في حفظه للقرآن الكريم وموطأ مالك، كانت محركًا لأولئك الرجال ليدفعوه إلى دراسة الفقه ليكون علمًا من أعلامه.

ولم يخيب الشافعي ظن أولئك الرجال فيه وكان أخذه من اللغة والأدب خير عون له على فهم كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ وحديث رسوله ﷺ، فأقبل ينهل من حلقات العلم التي كان المسجد الحرام عامرًا بها، فأخذ عن مسلم بن خالد الزنجي، وعن سفيان بن عيينة، والفضيل بن عياض وغيرهم، وكان في المدينة المنورة إمام دار الهجرة مالك بن أنس الذي حفظ الشافعي موطأه، وانطلق الشافعي إليه ليصحبه ويأخذ من علمه وفهمه، وأعجب مالك بما رآه من ذكاء الشافعي، وألقى إليه بنصيحة ثمينة: إن الله عَزَّ وَجَلَّ قد ألقى على قلبك نورًا فلا تطفئه بالمعصية.

وأمضى الشافعي سنوات في المدينة المنورة في صحبة شيخه مالك حتى لقي مالك ربه.

وكان الشافعي يسعى إلى أن يؤمن لنفسه مورد رزق يكفيه، ويدفع عنه الفقر الذي لازمه من طفولته، ولاحت له الفرصة المواتية عندما كان بمكة مع والدته لم يكن له عمل يعيش منه، فأشار بعض القرشيين على والي اليمن الذي مر بمكة أن يشغل الشافعي في ولايته ويستعين به في أمره هناك.

يقول الشافعي: ولم يكن عند أمي ما تعطيني ما أتحمل به فرهنت دارًا فتحملت معه (أي مع الوالي) فلما قدمنا عملت له على عمل.

وفي عمله باليمن أقام الحق ونشر العدل فكان شخصية إسلامية بعقليتها الرائعة ونفسيتها المستقيمة حتى شاع ذكره الطيب في بطاح مكة، وأطراف نجران، ورأوا فيه مثلًا صالحًا لمن يتولى أمرًا من أمور الناس.

يقول الشافعي: [وليت قضاء نجران وبها الحارث بن عبد الله المدان وموالي ثقيف، وكان الوالي إذا أتاهم صانعوه فأرادوني على ذلك فلم يجدوا عندي].

ولما لم يقبل مصانعة ولم يداهن واليه ورئيسه، بل وقف له بالمرصاد يمنعه من أية مظلمة يريد إيقاعها بمن يتولى أمرهم، ولم يكتف إمامنا بذلك بل يحاسبه في كل أمر وينكر عليه كل سوء، وهو الذي يملك لسانًا كما يقول الوالي الغشوم الظلوم: يعمل بلسانه ما لا يقدر عليه المقاتل بسيفه.

محنته في مكيدة والي اليمن:

ووافق وجود الشافعي في نجران ظهور بعض الثائرين من العلويين على الدولة العباسية، وبهذا ضاق صدر هذا الوالي وأبت نفسه إلا أن يسيء إلى الشافعي، وكيف يستطيع أن يصيبه بسوء أو يلحق به أذى، وهو قد ملك القلوب حبًا وأسر النفوس، فأطلق الوشاة إلى هارون الرشيد يخوفونه من أمر الشافعي ويحذرونه من وجوده باليمن.

وكان العباسيون يعدون خصومهم الأقوياء العلويين، لأنهم يدلون بمثل نسبهم، ولهم من رحم رسول الله ﷺ ما ليس لهم، فإذا كانت دولة العباسيين قامت على النسب، فأولئك يمتون بمثله، وبرحم أقرب ولذا كانوا إذا رأوا دعوة علوية قضوا عليها وهي في مهدها، ويقتلون في ذلك على الشبهة لا على الجزم واليقين، إذ يرون أن قتل بريئ يستقيم به الأمر لهم أولى من ترك متهم يجوز أن يفسد الأمر عليهم.

وجاءهم الوالي الظالم من هذه الناحية الضعيفة في نفوسهم، فدبر والي اليمن أمرًا وأرسل إلى الخليفة هارون الرشيد برسالة قال فيها: إن تسعة من العلوية تحركوا وإني أخاف أن يخرجوا وأن هاهنا رجلًا من ولد شافع المطلبي لا أمر لي معه ولا نهي، يعمل بلسانه ما لا يقدر عليه المقاتل بسيفه.

تلك هي قولة والي اليمن، من كتابه إلى الرشيد يستعديه على أولئك النفر التسعة على رأسهم الإمام الشافعي وتلك بداية المحنة التي أُنزلت بإمامنا، وحُمل الإمام مع النفر التسعة بالتهمة الخطيرة المعروفة التي يفتح لها الرشيد أذنيه بل وحواسه جميعًا لينزل به عقابها الصارم.

وبهذه المكيدة يتخلص الوالي من هذا الذي وقف في الطريق تنفيذ أهوائه وإشباع نزواته،، وحال دون تسلطه على رقاب الأمة.

أوثق الوالي التسعة ومعهم الإمام وصفدوا بالأساور وأيديهم مغلولة إلى أعناقهم وساروا من اليمن متوجهين إلى بغداد لملاقاة الرشيد بصحبة ثلة من الجند للتحقيق معهم في هذه التهمة الخطيرة؟

تهمة الخيانة العظمى، ليأخذ الخائن نصيبه من العقاب!!

نزل الشافعي بغداد واتصل أحبابه بمحمد بن الحسن الشيباني صاحب أبي حنيفة وقاضي الرشيد، ووقعت بينهما المودة.

دخل العشرة على الرشيد وهم مصفدون بالأغلال والنطع والسيف بين يده والجند شاهرين السلاح قد أخذوا أماكنهم في قاعة المحكمة بقصر الخلافة ينتظرون إيماء الرشيد برأسه لهم، لا يعصونه في أمر.

بهذا الجو الإرهابي الفظيع الذي ينطق بقطع الرؤوس عن أجسادها ويصرخ بأن النصر للقوي!! جرت المحاكمة فقتل التسعة رحمهم الله، أما الشافعي فقد أنجاه الله ونصره. . وهو الضعيف الذي طلب المدد من الحي القيوم فأمده وأنقذه في ساعة عسرته واستجاب له فكان من الناجين، حيث أتاه الله من براعة اللسان وقوة الحجة ومنطقها السليم المقنع، وبما قذفه في قلب قاضي القضاة محمد بن الحسن من شفقة، وطلب شفاعة وتقديم شهادة.

قال الشافعي وهو بين النطع والسيف والموت على بعد خطوات منه وقد وجهت إليه التهمة: يا أمير المؤمنين! ما تقول في رجلين أحدهما يراني أخاه والآخر يراني عبده، أيهما أحب إليَّ.

قال الرشيد: الذي يراك أخاه.

فقال: ذلك أنت يا أمير المؤمنين أنكم ولد العباس وهم ولد علي ونحو بنو المطلب، فأنتم ولد العباس تروننا إخوانكم وهم يروننا عبيدهم.

وبعد أن قال الشافعي مقالته تلك، أخذ يبين أن له حظًا من العلم والفقه أنه عند ذلك قال: إن محمد بن الحسن يشهد على ذلك.

فسأل الرشيد محمد بن الحسن فأجاب: له من العلم حظٌ كبير.

ثم اتبع قائلًا: وليس الذي رفع عليه من شأنه.

وتلك شفاعته. فقال الرشيد: فخذه إليك حتى أنظر في أمره.

وبهذا تخلص الشافعي من ذلك الاتهام الخطير ونجاه من عقوبته بحسن منطقه وصدق حاله.

قال الفضل بن الربيع حاجب أمير المؤمنين هارون الرشيد قال:

دخلت على هارون الرشيد، فإذا بين يديه ضُبارة (أي حزمة) سيوف وأنواع من العذاب، فقال لي: يا فضل!

فقلت: لبيك يا أمير المؤمنين.

قال: علي بهذا الحجازي - يعني الشافعي -.

فقلت: إنا لله وإنا إليه راجعون ذهب هذا الرجل. فأتيت الشافعي فقلت له: أجب أمير المؤمنين.

قال: أصلي ركعتين.

فصلى، ثم ركب بغلة كانت له، فسرنا معًا إلى دار الرشيد، فلما دخلنا الدهليز الأول حرَّك الشافعي شفتيه، فلما دخلنا الدهليز الثاني، حرك شفتيه، فلما وصلنا بحضرة الرشيد قام إليه أمير المؤمنين كالمشرئب له، فأجلسه موضعه، وقعد بين يديه يعتذر إليه، وخاصة أمير المؤمنين قيام ينظرون إلى ما أعد له من أنواع العذاب، فإذا هو جالس بين يديه فتحدثوا طويلًا، ثم أذن له بالانصراف فقال لي: يا فضل!

قلت: لبيك يا أمير المؤمنين.

فقال: أحمل بين يديه بدرة.

فحملت فما صرنا إلى الدهليز الأول لخروجه قلت: سألتك بالذي صير غضبه عليك رضا إلا ما عرفتني ما قلت في وجه أمير المؤمنين حتى رضي.

فقال لي: يافضل!

فقلت: لبيك أيها السيد الفقيه.

قال: خذ مني واحفظ عني: شهد الله أنه لا إله إلا هو، اللهم إني أعوذ بنور قدسك، وببركة طهارتك، وبعظمة جلالك من كل عاهة، وآفة، وطارق الجن والإنس، إلا طارقًا يطرقني بخير. ياأرحم الراحمين اللهم بك ملاذي فبك ألوذ، وبك غياثي فبك أغوث، يا من ذلَّ له رقاب الفراعنة، وخضعت له مقاليد الجبابرة، اللهم ذكرك شعاري ودثاري ونومي وقراري، أشهد أن لا إله إلا أنت، اضرب عليَّ سرادقات حفظك وقني رعبي بخير منك يا رحمن.

قال الفضل: فكتبتها وجعلتها في بركة قباي، وكان الرشيد كثير الغضب عليَّ، وكان كلما هم أن يغضب أُحركها في وجهه فيرضى، فهذا مما أدركت من بركة الشافعي.

وتلك محنة الشافعي، الأيدي مغلولة إلى الأعناق بمعية جند الرشيد من اليمن إلى بغداد، ثم الموت يقترب منه، وقد لاح بين عينيه لولا عناية الله وحسن توفيقه، السبب الحقيقي هو قيامه بالواجب الملقى عليه باعتباره عالمًا أخذ الله منه الميثاق لبيان أحكام الشرع والوقوف في وجه الظالمين الطغاة، ومن ثم قيامه بعمله في نجران الذي أحسن فيه وقطع به الطريق على واليه، وحال دون شهواته ونزواته.

لقد كانت هذه المحنة ساقها الله لإمامنا، ليختبره في إيمانه، ولينصرف إلى العلم ومدارسة الفقه واستخراج الأحكام لمعالجة مشاكل الحياة.

لم يطل العمر بالشافعي فلم تزد حياته على أربعة وخمسين عامًا ملئها بالعلم الشرعي من الفقه والحديث واللغة والأدب وأتاحت له رحلاته بما يسرت له من الاطلاع على مناهج مختلفة، أن يكون مدرسة جديدة جمعت بين طريقة أهل النقل وأهل الرأي، ففتح في الفقه آفاقًا جديدة لم يكن للعلماء من قبله علمٌ بها.

قال الإمام أحمد: كان الفقهاء أطباء، والمحدثون صيادلة، فجاء محمد بن إدريس طبيبًا صيدلانيًا.

وقد ابتلي الإمام الشافعي في آخر عمره بمرض البواسير الذي آذاه ومنعه طيب الحياة.

يقول يونس بن عبد الأعلى: ما رأيت أحدًا لقي من السقم ما لقي الشافعي، وكان عليلًا شديد العلة، فكان يخرج الدم منه وهو راكب حتى تمتلئ سراويله ومركبه.

ودخل عليه المزني يومًا فقال: كيف أصبحت يا أستاذ؟.

فقال: أصبحت من الدنيا راحلًا، وللإخوان مفارقًا، وعلى الله واردًا، وبكأس المنية شاربًا، ولسوء أعمالي ملاقيًا، فلا أدرى نفسي تصير إلى الجنة فأهنيها، أو إلى النار فأعزيها.

وطلب المزني من شيخه وهو يحتضر أن يعظه ويوصيه فقال:

«اتق الله ومثِّل الآخرة في قلبك، واجعل الموت نصب عينيك، ولا تنس موقفك بين يدي الله عَزَّ وَجَلَّ، وكن مع الله عَزَّ وَجَلَّ، واجتنب محارمه وأد فرائضه، وكن مع الحق حيث كان، ولا تستصغرن نعم الله عليك وإن قلت؛ وقابلها بالشكر، وليكن صمتك فكرًا، وكلامك ذكرًا، ونظرتك عبرة، اعف عمن ظلمك، وصل من قطعك، وأحسن إلى من أساء إليك، واصبر على النائبات، واستعذ بالله من النار بالتقوى».

ولئن ولت محنة الشافعي ونجا منها فإن المحن الأخرى بأشكالها لازالت بانتظار رجالها من العلماء.

رحم الله الإمام وأسكنه فسيح جناته وجزاه الله عنا وعن الإسلام خيرًا



المصادر:

- «سير أعلان النبلاء» للذهبي.
- «علماء في وجه الطغيان» لمحمد رجب البيومي.
- «الإمام الشافعي» لأبي زهرة.
- «الإسلام بين العلماء والحكام» لعبد العظيم بدوي.

الإمام/ النسائي

لا يزال الجهل والجهلاء هم أعدى أعداء العلم والعلماء؛ فهما نقيضان متضادان، كلاهما حرب على الآخر، كلاهما في حالة صراع قائمة ومستمرة عبر التاريخ، فالعلم نور وحق وبيان والعلماء أهله وحراسه ومناصروه، والجهل ظلام وباطل وبهتان والجهلاء أهله وحراسه ومناصروه، الجهل داء والعلم دواء، الجهل سقام القلوب والنفوس والعقول والعلم شفاؤها، لذلك فإن الله عز وجل قد أعلى من شأن العلم والعلماء وجعلهم ورثة الأنبياء، وجعل فضل العالم على العابد كفضل النبي صلى الله عليه وسلم على أدنى المسلمين، وعلى مر التاريخ عانى علماء الأمة الربانيون من سفاهة الجهلاء وحماقة الأغبياء الكثير من الويلات والمحن، بل إن بعضهم قد راح ضحية الجهل والغباوة، ففقدت الأمة العديد من كبار الأئمة والعلماء بسبب ذلك، وعلى رأس هؤلاء العلماء الذين راحوا ضحية الجهل والجهلاء الإمام النسائي صاحب السنن رحمه الله.

نسبه ونشأته:

هو الإمام الحافظ الثبت شيخ الإسلام ناقد الحديث أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي بن سنان بن بحر الخراساني النسائي صاحب «السنن».

ولد بنسا في سنة [٢١٥هـ] وطلب العلم في صغره فارتحل إلى قتيبة في سنة [٢٣٠هـ] فأقام عنده بمدينة بغلان سنة فأكثر عنه، ومن شيوخه إسحاق بن راهويه وهشام بن عمار ويروي عن رفقائه.

مكانته العلمية:

كان من بحور العلم مع الفهم والإتقان والبصر، ونقد الرجال وحسن التأليف رحل

في طلب العلم في خراسان والحجاز ومصر والعراق والجزيرة والشام والثغور ثم استوطن مصر، ورحل الحفاظ إليه ولم يبق له نظير في هذا الشأن.

حدث عنه أبو بشر الدولابي وأبو جعفر الطحاوي وأبو علي النيسابوري وغيرهم كثير.

قال الحافظ ابن طاهر سألت سعد بن علي الزنجاني عن رجل فوثقه فقلت قد ضعفه النسائي فقال: يا بني إن لأبي عبد الرحمن شرطًا في الرجال أشد من شرط البخاري ومسلم قلت صدق فإنه ليَّن جماعة من رجال «صحيحي البخاري ومسلم».

قال الحاكم: كلام النسائي على فقه الحديث كثير ومن نظر في سننه تحير في حسن كلامه، وقال ابن الأثير في أول «جامع الأصول» كان شافعيًا له مناسك على مذهب الشافعي وكان ورعًا متحريًا، قيل: إنه أتى الحارث بن مسكين في زي أنكره عليه قلنسوة وقباء، وكان الحارث خائفًا من أمور تتعلق بالسلطان فخاف أن يكون عينًا عليه فمنعه فكان يجيء فيقعد خلف الباب ويسمع، ولذلك ما قال حدثنا الحارث وإنما يقول قال: الحارث بن مسكين قراءة عليه وأنا أسمع.

قال مأمون المصري المحدث: خرجنا إلى طرسوس مع النسائي سنة الفداء فاجتمع جماعة من الأئمة عبد الله بن أحمد بن حنبل ومحمد بن إبراهيم مربع وأبو الآذان فتشاوروا من ينتقي لهم على الشيوخ فأجمعوا على أبي عبد الرحمن النسائي وكتبوا كلهم بانتخابه.

وقال أبو طالب أحمد بن نصر الحافظ: من يصبر على ما يصبر عليه النسائي عنده حديث ابن لهيعة ترجمة، يعني عن قتيبة عن ابن لهيعة قال: فما حدث بها.

مناقبه وفضائله:

قال محمد بن المظفر الحافظ: سمعت مشايخنا بمصر يصفون اجتهاد النسائي في العبادة بالليل والنهار وأنه خرج إلى الفداء مع أمير مصر فوصف من شهامته وإقامته السنن المأثورة

في فداء المسلمين واحترازه عن مجالس السلطان الذي خرج معه والانبساط في المأكل، وأنه لم يزل ذلك دأبه إلى أن استشهد بدمشق من جهة الخوارج.

محنته:

كان النسائي كما أسلفنا إمامًا من أكبر أئمة الحديث والفقه في عصره، وقد طاف معظم بلاد الإسلام طلبًا للحديث سماعًا ورواية، ثم استقر المقام به في مصر، وخلال طوافه وسياحه في أقاليم الدولة الإسلامية، لاحظ أن أهل الشام منحرفون عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وبالطبع ليس كل أهل الشام بل بعضهم، وإن كان هذا البعض كثيرًا في نظر الإمام النسائي، مما دفعه لئن يصنف كتاب «الخصائص» في فضائل علي وأهل البيت، حتى يردهم إلى الصواب ويكشف عنهم عماية الجهل والتعصب، وقد نوى إن عاود الرحلة إلى الشام، ومتى دخلها أن يروي لهم كتاب الخصائص، وهذا الفعل من الإمام النسائي منقبة عظيمة وعلامة صادقة على ربانية هذا الإمام والعالم الكبير [illegible] [illegible]حوال المسلمين ومواضع الجهل والحاجة عندهم وتصديه لمواجهة هذا الداء العضال [illegible] يعصف بعقول المسلمين ألا وهو الجهل والتعصب.

بدأت محنة النسائي عندما بلغ أعلى المكانات العلمية في عصره وصارت الرحلة إليه وعيَّنه أمير مصر قاضيًا على عموم البلاد، وخرج معه للجهاد والفداء، وعندها حسده الأقران، وظهر ذلك منهم في قسمات وجوههم وفلتات ألسنتهم، وهذا الحسد أزعج النسائي وضاقت به نفسه حتى عزم على الخروج من البلد كلها، قال الإمام الدارقطني: كان النسائي أفقه مشايخ مصر في عصره، وأعرفهم بالصحيح من السقيم من الآثار، وأعرفهم بالرجال، فلما بلغ هذا المبلغ، حسدوه، فخرج إلى الرملة بفلسطين وذلك في أواخر سنة ٣٠٢هـ.

خرج النسائي إلى الشام وفي نيته نشر العلم النافع، ورد ما غالى من أهلها على أمير المؤمنين علي رضي الله عنه، فلما وصل إلى الرملة بفلسطين، عقد مجلسًا للتحديث بجامعها

الكبير، وأخذ في رواية الأحاديث في فضل علي رضي الله عنه وآل البيت وفي باقي الصحابة، وكانت بلاد الشام معقل الأسرة الأموية وقاعدة ملك بني أمية ودمشق ظلت عاصمة الخلافة الأموية وعاصمة الدولة الإسلامية، طوال حكم الأمويين، فلما أخذ النسائي في رواية أحاديث فضل الصحابة، طلبوا منه أن يروي حديثًا في فضل معاوية رضي الله عنه، فامتنع النسائي من ذلك؛ لأنه وبمنتهى البساطة لم يخرّج حديثًا في فضل معاوية، ومروياته كلها ليس فيها حديث واحد في ذلك، فألحوا عليه، فرفض بشدة وكان كما قلنا ضابطًا متقنًا شديد التحري لألفاظه ورواياته للأحاديث، فألحوا عليه أكثر وشتموه، فرد عليهم بكلام شديد أحفظهم، إذ قال لهم: أي شيء أخرج؟ حديث اللهم: لا تشبع بطنه، وهو حديث صحيح أخرجه الإمام مسلم في صحيحه وكذلك أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده، ولكن ليس للنسائي سند في مروياته ليخرجه به ويحدثه للناس.

ولما كانت بلاد الشام معقلاً تاريخيًا وتقليديًا لبني أمية، وأنصارهم به كثر، وكذلك المتعصبون لهم، فإن النسائي لما قال ما قال لمن شتمه ووبخه لأنه لم يرو لهم حديثًا في فضل معاوية رضي الله عنه، فظنوا أن الإمام النسائي من الشيعة الروافض، ولم يعرفوا قدر هذا الإمام ومكانته العلمية، فقاموا عليه بكل جهل وتعصب، وكأنه واحد من اللصوص أو المجرمين، وأخذوا يضربونه بكل عنف، وفي أماكن حساسة من جسده، وكان النسائي وقتها، قد جاوز الخامسة والثمانين من العمر، فلم يحتمل الشيخ الكبير هذا الضرب المبرح، فخر مغشيًا عليه، ثم أخرجوه من المسجد بلا رحمة ولا شفقة، فلما أفاق قال لمن معه: احملوني إلى مكة كي أموت بها، ولكن القدر كان أسرع من مراده وبغيته، فمات في ١٣ صفر سنة ٣٠٣هـ فرزقه الله عز وجل حياة هنية وميتة سوية، وختم حياته بصيانة علمه وأحاديثه، وعده كثير من أهل العلم من الشهداء، ونعم الشهيد هو الذي يموت على يد الجهال والدهماء والأغبياء الذين لا يعرفون الحق من الباطل والعالم من الظالم.

الإمام/ مالك بن أنس

في البلد الطيب وفي مركز الإشعاع الفكري والروحي وفي جوار المصطفى حبيب الرحمن ﷺ وبين القبر الشريف والمنبر كان الإمام مالك بن أنس يأخذ كامل زينته من طيب ولباس ووافر حظ من حسن الأدب جالسًا على منصة متواضعة يبين للناس ويعلم هدي النبي ﷺ قائلًا: حدثني فلان عن فلان أن صاحب هذا القبر قد قال........ والناس يسمعون وكأنما على رؤوسهم الطير وهم بين ناصت بكل جوارحه ليصون قلبه ويحفظ عقله، وبين كاتب يسجل على قرطاس، ولم يبلغ الإمام هذه المنزلة اعتباطًا بل ارتفع إلى قمتها العالية بعد جهاد وامتحان شاق تجلى عن إيمانه وعزمه، فصارت له في نفوس المسلمين مكانة مبجلة، وانتشر تلاميذه في الآفاق يحملون المأثور من علمه، والجليل من أفعاله، وصارت الرحلة إلى مدينة رسول الله ﷺ واجبًا أكيدًا، يقوم به طلاب العلم في شتى الأمصار، ليروا مالكًا وينقلون فتاواه، ويسجلوا إسناده.

ولم تكد تمر الأيام بمفاجآتها وصعابها على الدولة العباسية حتى تألبت على أصحابها الجموع الحاشدة، إذ لمست مدى الخيبة الأليمة في آمالها وأهدافها، ورأت أن السفاح والمنصور كلهما يسيران في طريق بني أمية تنكيلًا بالضحايا، وسفكًا للدماء، ونظر المسلمون فوجدوا أن أصحاب الحق يحاربون ويضطهدون، كأن بني أمية لا تزال تأخذ عليهم طريقهم، فلا يجدون نفعًا في الأرض أو يطيرون بجناح إلى السماء.

وتجمعت الرغبات في الصدور ملتهبة محتدمة، حتى تمخضت عن ثورتين في المدينة والبصرة، قام وارتجف المنصور ارتجافًا أذهله وشرد أمنه، فأخذ يتوقع الشر الماحق من حين إلى آخر، ثم جاءته الأنباء أن كبار العلماء من أمثال الإمام مالك يؤيدون الثائرين ويرسلون الفتاوى في تحبيذ الجهاد ومحاربة الطغاة؛ فاستعان الخليفة بحيلة ماكرة وأخذ يخادع ويهادن،

حتى استطاع أن يستميل الكثيرين من مناوئيه، بـاذلًا مغريـات الوعـود مـن جـاه ومنـصب وثراء، ولكن أحابيله الخادعة لم تستطع أن تمتد إلى إمامنا بشيء.

شاهد الإمام مالك بعض المترددين في تأييد الخروج على الخليفة ينكصون عنها بحجة أنهم بايعوا المنصور، فلا يجوز أن ينقضوا البيعة بعد أن حلفوا الأيـمان المؤكـدة بـالطلاق عـلى الطاعـة والإذعان، فأصدر رأيه الحاسم بأن طلاق المكره لا يقع، وهم قد بايعوا المنصور مكرهين.

وما أن نطق الإمام بهذا الحديث الصحيح وإذا بالألسن تتداوله ذائعة أمره حتـى شـاع وانتشر بين الخلق في مدينة سيد الخلق ﷺ، ثـم أخـذت التـأويلات لهـذا الحـديث تجري على قدم وساق كل طائفة وجدت فيه بغيتها وعضت عليه بالنواجـذ لأن فيـه مـستندًا شرعيًا لما عزمت عليه من أمر ما، فالمناوئون لحكم المنـصور وجـدوا فيـه مـستندًا قويًـا عـلى التحلل من بيعة المنصور لأنها جاءت عن طريق الإكراه، إذ قاسوا البيعة على الطلاق فقـالوا: وليس على مستكره بيعة. ولهم أن يتحللوا من بيعته غير آثمين.

وأنصار محمد بن عبد الله بن الحسن وجدوا فيه متكئًا للخروج على المنصور.

وطارت الفتوى إلى المنصور، فكادت أن تزلزل ثباته ثم رأى أن يـستوثق فأرسـل يهـادن الإمام ويستميله فما رجع رسوله بطائل، بل قال له: إنه استمع إلى مجلس الإمـام بالمدينـة فـرأى سائلًا يسأله عن الثائرين على الخلافة: هل يجوز قتالهم؟ فأجاب في غير تحفظ: إن خرج الثائرون على مثل عمر بن عبد العزيز علمًا واستقامة جاز قتالهم، وإلا فهم طلاب حق مشروع.

ووجد المنصور في نشر هذا الحديث خطرًا عليه، وعـلى كيانـه لـذلك حـاول أن يمنـع الإمام من التحدث به ولكنه لم يفعل وهدده فلم يسمع لأنه يؤمن بأن الله أوجب على العلـماء أن يبينوا للناس ما نزل على رسوله محمد ﷺ ولا يكتمونه ولم يكن الإمام مالك من الجبناء الذين يكتمون أحكام الإسلام.

وشاء الله أن يقضي أبو جعفر المنصور على الثائرين ويقتل بني عمومته الثائرين عليه، وليس من منطق الأشياء في قانون متجبر طاغية كالمنصور أن يعفو عن خصومه.

تشير الروايات التاريخية أن أبا جعفر أرسل ابن عمه جعفر بن سليمان في أول أمر هياج المدينة على المنصور، فاشتد في أهل المدينة الخلاف وأخذت البيعة للخليفة، فسعى حسده الإمام مالك ومن يضمرون إليه البغضاء إلى الأمير أن يفتي بالأيمان على مكره فيحل بهذا ما أبرموه مما قام على الاستكراه؛ فأراد أن يبدر فيه فقيل لا تبدر فإنه إكرام الناس على الخليفة، فدس إلى مالك بعض ثقاته فأفتاه على طمأنينة منه فلم يشعر إلا ورسول جعفر أمامه فأتوا عليه بسوط العذاب، وجردوه من ثيابه دون ما يستر العورة، ثم طرحه على الأرض وأوثق رجليه ويديه بالحبال الغليظة، وانهالت السياط على الجسد المؤمن الصابر حتى بلغت الثمانين، وتُرك مغمى عليه وهو بعد شيخ كهل، يسير في العقد السادس من عمره، وبقيت آثار السياط على جسده فلم تفارقه حتى لقي ربه.

وكان بالإمام بقية من قوة، فاستطاع أن يحفظ توازنه بعد المحنة، على حين مات الإمام أبو حنيفة متأثرًا بسياطه، وشاع الحزن في بغداد وسائر مدن الإسلام على الإمام الفقيد أبو حنيفة، والإمام مالك المريض.

ورن الصدى الساخط في أذن المنصور فندم ولات ساعة الندم، وعلم أن الأمر قد نفذ في أبي حنيفة، إذ فصل الموت ما بينه وبينه، ولكن الإمام مالك لا يزال حيًا بعد!! فسعى إليه معتذرًا ودعاه للاجتماع به في موسم الحج، وبادره أبي جعفر بقوله: إنه لا يزال أهل الحرمين بخير ما كنت بين ظهرهم وإني أخالك أمانًا لهم من عذاب ولقد رفع الله بك عنهم سطوة عظيمة، فإنهم أسرع الناس إلى الفتن، - وهذا قسم محنك يبطله الحق الواقع والبرهان الملموس- وأخذ يحلف أمام الجموع الناقمة أن عامله على المدينة هو الذي قام بجلد الإمام دون مشورته، وأتقن الدور قائلًا: وقد أمرت بعدو الله أن يؤتى به من المدينة إلى العراق على

قتب - يقصد عامله جعفر بن سليمان والي المدينة- ، وأمرت بضيق محبسه والاستبلاغ في اتهامه ولابد أن أنزل به من العقوبة أضعاف ما نالك منه.

فقال الإمام مالك: عافى الله أمير المؤمنين وأكرم مثواه قد عفوت عنه لقرابته من رسول الله ﷺ وقرابته منك، فعفا الله عنك وأوصلك.

وأخذ المنصور يزور الإمام ويلاحقه باعتذاره، تنفيسًا عن ألم يجيش بنفسه، فلا يجد التسكين!! وقد بالغ في احترامه وتوقير مبالغ، ورثها عنه ولده المهدي، ثم حفيداه موسى وهارون.

تلك عظمة الإمام مالك من تسامحه واحتسابه الثمانين سوطًا لله له بها ثواب الصابرين ومثوبة المؤمنين ومهما تجبر أبو جعفر وتكبر، فقد أرغمته عظمة الإيمان وجلال العلم وثبات اليقين، متجمعة في مالك رضي الله عنه .

وانتهت محنة الإمام وعاد إلى دروسه وصنف كتابه «الموطأ» بعد ذلك.

ومن ثمرات العلم والإيمان وتعظيم شعائر الله عَزَّ وَجَلَّ وتوقير نبيه ﷺ هذه الهيبة التي ألقاها الله على مالك، قال عنها ابن قعنب:

ما رأيت قط أشد وقارًا من مجلس مالك، لكأن على رؤوسهم الطير، بل يروي بعض من حضر مجلسه أن هيبة مالك كانت أشد من هيبة السلطان.

قال عبد الرحمن بن مهدي: ما رأت عيناي أحدًا أهيب من هيبة مالك، ولا أتم عقلًا ولا أشد تقوى، ولا أوفر دماغًا من مالك.

لقد كان مجلس مالك مجلس وقار وحلم وعلم، وكان من آثار هيبته أن لم يكن في مجلسه شيء من المراء أو الجدال ولا رفع الصوت.

يقول الإمام: إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذونه، لقد أدركت سبعين ممن يقول: قال رسول الله ﷺ عند هذه الأساطين [وأشار إلى أعمدة المسجد النبوي] فما

أخذت عنهم شيئًا، وإن أحدهم لو ائتمن على بيت المال لكان أمينًا، إلا أنهم لم يكونوا من أهل هذا الشأن، وأدركت أقوامًا لو استسقى بهم المطر لسقوا، وقد سمعوا العلم والحديث كثيرًا ما حدثت عن أحد منهم شيئًا، لأنهم كانوا ألزموا أنفسهم خوف الله والزهد، وهذا الشأن [يعني الحديث النبوي] يحتاج إلى رجل معه تقي وورع وصيانة، وإتقان علم وفهم، فيعلم ما يخرج من رأسه، فأما رجل بلا إتقان ولا معرفة فلا ينتفع به ولا هو حجة ولا يؤخذ منه.

وكما أدرك الإمام مالك قدرات الناس وما يصلح كل له، فإنه أدرك أن للزمان حقه، فينبغي للمسلم أن يعرف زمانه، ويعرف ما ينبغي أن يسلك فيه من سبيل، ولننظر في قول يحيي بن الزبير:

قال لي مالك: اعتزلت أنت وعبد الله بن عبد العزيز؟ قلت له: نعم. قال: عجلتم ليس هذا أوانه.

قال يحيى: ثم لقيت مالكًا بعد عشرين سنة فقال: هذا أوانه، ثم اعتزل ولزم بيته.

واختلفت الأقوال في سبب عزلة مالك، فقد اعتزل الجماعة والجمعة سبع سنين، روى الواقدي ومصعب بن عبد الله الزبيري أنه كان يحضر المسجد، ويشهد الجمعة والجنائز، ويعود المرضى، ويجيب الدعوة، ويقضي الحقوق زمانًا، ثم ترك الجلوس في المسجد وكان يصلي وينصرف، ثم ترك عيادة المرضى وشهود الجنائز، فكان يأتي أصحابها فيعزيهم، ثم ترك مجالسة الناس ومخالطتهم والصلاة في مسجد النبي ﷺ حتى الجمعة، ولا يعزي أحدًا ولا يقضي له حقًا، فكان يقال له في ذلك ويسأل عنه فيقول: ما يتهيأ لكل أحد أن يذكر ما فيه.

لقد كان وراء هذا التخلف عن الصلاة وترك أداء الحقوق الاجتماعية سبب لم يظهره الإمام إلا قبيل وفاته فقال: لولا أني في آخر يوم من أيام الدنيا وأوله من الآخرة ما أخبرتكم، سلس بولي فكرهت أن آتي مسجد رسول الله ﷺ على غير طهارة، وكرهت أن أذكر علتي فأشكو ربي!!

وعلينا أن ننسى أن الإمام قد جاوز الثمانين من عمره، وللسن حقه، وللشيخوخة أحوالها، وأيًا ما كان السبب فإنه ما كان لإمام مثل الإمام مالك بن أنس أن يتخلف عن الجمعة والجماعة إلا وله العذر المانع، سواءً أكان عذرًا صحيًا، أم عذرًا سياسيًا كما ورد في بعض الروايات.

رحم الله إمامنا الجليل وأسكنه فسيح جناته على ما قدم للإسلام، وأنار به طريق المسلمين إلى قيام الساعة



المصادر:

- «الإسلام بين العلماء والحكام» للدكتور/ عبد العظيم بدوي.
- «علماء في وجه الطغيان» لمحمد رجب البيومي.
- «أئمة الإسلام الأربعة» لسليمان فياض.

الحسن البصري

من أبرز العلماء المسلمين والمفكرين المصلحين والساسة الزهاد في تراث أمتنا الإسلامية وتاريخها، وهو أبرز علماء عصره على الإطلاق.

وصفه خالد بن صفوان فقال: هو أشبه الناس سريرة بعلانية، وقولًا بفعل، إن أمر بأمر كان أعمل الناس به، وإن نهى عن شيء كان أترك الناس له، رأيته مستغنيًا عن الناس ورأيت الناس كلهم محتاجين إليه.

كان في الورع والتقوى آية ظاهرة، وكان في العلم بحرًا زاخرًا، وكان في الفصاحة والبيان علمًا مفردًا، وكان أعظم الوعاظ في تاريخه كله.

ولأنه كان يقول الحق، ويروي الحديث الصحيح، ولأنه كان يتكلم من قلبه، يزهد الناس في الدنيا وهو أول الزاهدين فيها، ليخالفهم إليها ويزاحمهم عليها، ولا يأخذ منهم هدية، ولا يتخذ جاهه وسيلة إلى الحظوة عند الملوك والقرب من الخلفاء.

كان حربًا على علماء السوء الذين يدعون للآخرة ويطلبون الدنيا، قال فيهم قولة الحق: ما هؤلاء إلا قوم ملوا العبادة، وصعب عليهم العمل، وقلَّ ورعهم فوجدوا الكلام أهون عليهم فتكلموا.

مر الحسن بباب الأمير ابن هبيرة، فإذا بالقراء على الباب فقال: ما يجلسكم هنا؟ تريدون الدخول على هؤلاء الخبثاء؟ أما والله ما مجالسهم بمجالس الأبرار، تفرقوا فرق الله بين أرواحكم وأجسادكم، قد شمرتم ثيابكم وجززتم شعوركم، فضحتم القراء فضحكم الله، أما والله لو زهدتم فيما عندهم، لرغبوا فيما عندكم، لكنكم رغبتم فيما عندهم فزهدوا فيما عندكم.

وكان الحسن صوت الحق الذي لا يلين لا يسكت عن إنكار المنكر، ولا تمنعه منه هيبته أمير، ولا بطش ملك، وكان حينًا يعرض تعريضًا، وحينًا يصرح تصريحًا في تعريضه بالأمراء وترفهم وسرفهم.

راح يصف رسول الله ﷺ معطيًا الأمراء والمسؤولين درسًا حيًا من حياة خاتم الأنبياء يقول: ماكان يُغدي عليه بالجفاف [الموائد] ولا يُراح ولا تُغلق دونه الأبواب، ولا تقوم دونه الحجاب، وكان يجلس على الأرض ويوضع طعامه على الأرض، ويلبس الغليظ، ويركب الحمار، ثم قال: ما أكثر الراغبين عن سنة نبي الله، وما أكثر التاركين لها.

ثم راح يعرض بعلماء السوء الذين يفتون كل حاكم بما يرضيه فقال: ثم إن علوجًا فسقة، قد أضلهم ربي ومقتهم، زعموا أن لا بأس عليهم فيما أكلوا وشربوا، وشادوا وزخرفوا، يقولون من حرم زينة الله التي أخرج لعبادة والطيبات من الرزق، ويذهبون بها إلى غير ما ذهب الله بها إليه.

حدث أن عمر بن هبيرة لما ولي العراق أرسل إلى الحسن والشعبي وابن سيرين، والثلاثة من أعلام التابعين، وأئمة المسلمين، فقال لهم: أن أمير المؤمنين يزيد بن عبد الملك يكتب إليَّ في أشياء أعرف أن في إنفاذها الهلاك فإن أطعته فيها أغضبت الله، وإن عصيته لم آمن بطشه وتغضبه، فهل ترون لي في متابعتي إياه فرجًا.

فتكلم الشعبي وابن سيرين كلامًا فيه تقية ومدارة، والحسن ساكت، قال له: ما تقول أنت يا أبا سعيد؟

قال: أقول يا عمر بن هبيرة، يوشك أن ينزل بك ملك من ملائكة الله تعالى فظ غليظ لا يعصي الله ما أمره، فيزيلك عن سريرك هذا، وينقلك من سعة قصرك إلى ضيق قبرك، حيث لا تجد هناك يزيد، وإنما تجد عملك الذي خالفت فيه رب يزيد.. يا عمر بن هبيرة إن تتق الله يعصمك من يزيد بن عبد الملك، وإن تطع يزيد بن عبد الملك يا بن هبيرة لا تأمن أن ينظر إليك الله على أقبح ما تعمل في طاعة يزيد بن عبد الملك، نظر مقت، فيغلق باب المغفرة دونك يا عمر بن هبيرة، لقد أدركت ناسًا من صدر هذه الأمة كانوا والله عن هذه الدنيا وهي مقبلة أشد أدبارًا من إقبالكم عليها وهي مدبرة، يا عمر بن هبيرة إني أخوفك مقامًا خوفك الله عَزَّ

وَجَلَّ فقال: ﴿ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ [إبراهيم: ١٤]. يا عمر بن هبيرة إن تكن مع الله في طاعته يرد عنك كيد يزيد بن عبد الملك، وإن تكن مع يزيد بن عبد الملك في معاصيه وكلك الله إليه.

فبكى عمر حتى ابتلت لحيته، وزاد في إكرامه على الشعبي وابن سيرين.

فلما خرجا من عند ابن هبيرة توجها إلى المسجد، فاجتمع عليهما الناس وجعلوا يسألونهما عن خبرهما مع أمير العراقين، فالتفت الشعبي إليهم وقال: أيها الناس من استطاع منك أن يؤثر الله عَزَّ وَجَلَّ على خلقه في كل مقام فليفعل. . فوالذي نفسي بيده ما قال الحسن لعمر بن هبيرة قولًا أجهله، ولكني أردت فيما قلته وجه ابن هبيرة، وأراد فيما قاله وجه الله. . فأقصاني الله من ابن هبيرة وأدناه منه وحببه إليه.

وهاهو الحسن: يواجه والي العراق النضر بن عمرو حيث أحضر النضر وقال: يا أبا سعيد إن الله عَزَّ وَجَلَّ خلق الدنيا وما فيها من رياشها وبهجتها، وزينتها لعباده، وقال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأعراف: ٣١].

قال الحسن: يا أيها الرجل اتق الله في نفسك، وإياك والأماني التي ترجحت فيها فتهلك، إن أحدًا لم يعط خيرًا من خير الدنيا ولا من خير الآخرة بأمنيته؛ وإنما هي داران، من عمل في هذه أدرك تلك، ونال في هذه ما قدر له منها، ومن أهمل نفسه خسرهما جميعًا، إن الله سبحانه اختار محمدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لنفسه، وبعثه برسالته ورحمته، وجعله رسولًا إلى كافة خلقه، وأنزل عليه كتابًا مهيمنًا، وحد له في الدنيا حدودًا، وجعل له فيها أجلًا ثم قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب: ٢١]. وأمرنا أن نأخذ بأمره، ونهتدي بهديه وأن نسلك طريقته ونعمل بسنته، فما بلغنا إليه فبفضله ورحمته، وما قصرنا عنه فعلينا أن نستعيذ ونستغفر؛ فأما الأماني فلا خير فيها، ولا في أحد من أهلها.

فقال النضر: والله يا أبا سعيد إنا على ما فينا لنحب ربنا.

قال الحسن: لقد قال ذلك قوم على عهد رسول الله ﷺ فأنزل الله تعالى عليه: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران :٣١].

فجعل سبحانه اتباعه ﷺ علمًا للمحبة وأكذب من خالف ذلك، فاتق الله أيها الرجل في نفسك، وايم الله لقد رأيت قومًا كانوا قبلك في مكانك، يعلون المنابر وتهتز لهم المراكب، ويجرون الذيول بطرًا ورياء الناس، يبنون المدر ويؤثرون الأثر، ويتنافسون في الثياب، أخرجهم من سلطانهم، وسلبوا ما جمعوا من دنياهم، قدموا على ربهم، ونزلوا على أعمالهم، فالويل لهم يوم التغابن، ويا ويحهم ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ [عبس: ٣٤-٣٧].

أما في وجه الطغيان فقد وقف أمام الحجاج بن يوسف الثقفي الحاكم غليظ القلب الطاغية المتكبر على الخلق ولم يكن في العراق والمشرق لسان يستطيع أن يقول الحق عاليًا في وجه الحجاج سوى الحسن البصري الذي كان ينتقده بشدة وسلمه الله من الحجاج بإخلاصه وابتغائه وجه الله وحده.

بني الحجاج دارًا بواسط فلما فرغ منه، نادى في الناس أن يخرجوا للفرجة عليه والدعاء له بالبركة، فلم يشأ الحسن أن يفوت على نفسه فرصة اجتماع الناس هذه فخرج إليهم ليعظهم ويذكرهم، ويزهدهم بعرض الدنيا، ويرغبهم بما عند الله عَزَّ وَجَلَّ.

ولما بلغ المكان، ونظر إلى جموع الناس وهي تطوف بالقصر المنيف مأخوذة بروعة بنائه، مدهوشة بسعة أرجائه، مشدودة إلى براعة زخارفه. . وقف فيهم خطيبًا، وقال: الحمد لله إن الملوك ليرون لأنفسهم عزًا، وإنا لنرى فيهم كل يوم عبرًا، يعمد أحدهم إلى قصر فيشيده وإلى فرش فينجده، وإلى ملابس ومراكب فيحسنها، ثم يحف به ذباب طمع وفراش نار وأصحاب سوء، فيقول: انظروا ما صنعت، فقد رأينا أيها المغرور فكان ماذا يا أفسق الفاسقين، أما أهل

للسماوات فقد مقتوك، وأما أهل الأرض فقد لعنوك، بنيت دار الفناء وخربت دار البقاء، وغررت في دار الغرور لتذل في دار الحبور. لقد نظرنا فيما ابتني أخبث الأخبثين؛ فوجدنا أن فرعون شيد أعظم مما شيد وبنى أعلى مما بنى، ثم أهلك الله فرعون وأتى على ما بنى وشيد، ليت الحجاج يعلم أن أهل السماء قد مقتوه، وأن أهل الأرض قد غروه.

ومضى يتدفق على هذا المنوال حتى أشفق عليه أحد السامعين من نقمة الحجاج فقال له: حسبك يا أبا سعيد حسبك.

فقال له الحسن: إن الله سبحانه أخذ عهده على العلماء ليبيننه للناس ولا يكتمونه.

وبلغ الحجاج ما قال فاشتد غضبه وجمع أهل الشام وقال لجلاسه: تبًا لكم وسحقًا أيشتمني عبد من عبيد أهل البصرة وأنتم حضور فلا تنكرون، والله لأسقينكم من دمه يا معشر الجبناء.

ثم أمر بالسيف والنطع فأحضرا، ودعا بالجلاد، فمثل واقفًا بين يديه، ثم أمر الشرطة أن يأتوا به، وما هو إلا قليل حتى جاء الحسن فشخصت نحوه الأبصار ووجفت عليه القلوب.

فلما رأى الحسن السيف والنطع والجلاد أخذ يحرك شفتيه بما لم يسمع حتى دخل على الحجاج وعليه جلال المؤمن، وعزة المسلم، ووقار الداعية إلى الله.

فلما رآه الحجاج على حاله هذه؛ هابه أشد الهيبة وقال له:

هاهنا يا أبا سعيد.. هاهنا اجلس.. ثم ما زال يوسع له ويقول: هاهنا.. والناس ينظرون إليه في دهشة واستغراب حتى أجلسه على فراشه قريبًا منه.

ولما أخذ الحسن مجلسه التفت إليه الحجاج وقال: ما تقول في علي وعثمان؟

قال: أقول قول من هو خير مني عند من هو شر منك؟ قال: قال موسى لفرعون حين سأله ﴿ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴾ [طه: ٥١-٥٢]. علم علي وعثمان عند الله.

قال الحجاج: أنت سيد العلماء يا أبا سعيد ودعا بطيب وبلل به لحيته وودعه.

فلما خرج الحسن تبعه الحاجب فقال له: يا أبا سعيد لقد دعاك الحجاج لغير ما فعل بك، وإني رأيتك عندما أقبلت ورأيت السيف والنطع قد حركت شفتيك فما قلت؟

قال: قلت: يا عدتي عند كربتي ويا صاحبي عند شدتي، ويا ولي نعمتي، ويا إلهي وإله آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب، ارزقني مودته، وأصرف عني آذاه ففعل ربي عز وجل.

وذكر في رواية أخرى دعائه: يا ولي نعمتي وملاذي عند كربتي، اجعل نقمته بردًا وسلامًا علي كما جعلت النار بردًا وسلامًا على إبراهيم.

وأنتقد الحسن البصري الحجاج يومًا وبلغه الانتقاد وطلبه فلم يذهب إليه واختفى منه، فلما رآه، قال: أنت القائل ما بلغني عنك؟

قال: وما بلغك عني؟

قال: قولك: اتخذوا كتاب الله دغلًا، وعباد الله خولًا - والمقصود: أدخلتم في كتاب الله ما يفسده ويخالفه، واستعبدتم الناس- ومال الله دولًا يأخذون من غضب الله، وينفقون في سخط الله، والحساب عند البيدر- يوم الحساب- قال: نعم، قال: وتكني بذلك عنا، قال: نعم، قال: ولم قلته ويلك؟ قال: لما أخذ الله ميثاق الفقهاء في الأزمنة كلها ليبيننه ولا يكتمونه.

ثم قال له: كم بينك أيها الأمير وبين آدم من أب؟

قال: كثير.

قال: أين هم؟

فأطرق الحجاج ساعة مفكرًا، ثم قال: يا جارية. . الغالية [الطيب] فخرجت بها، فقال: ضمخوا رأس الشيخ ولحيته بالطيب، ثم قال: انصرف إلى أصحابك فنعم المؤدب أنت.

ومن مواقفه الصعبة مع الحجاج أن دعا الحجاج فقهاء البصرة وفقهاء الكوفة، وكان من بينهم الحسن البصري، وكان آخر من دخل، فقال الحجاج: مرحبًا يا أبا سعيد، إلي إلي، ثم

دعا بكرسي فوضع إلى جنب سريره فقعد عليه، فجعل الحجاج يذاكرهم ويسألهم، ثم ذكر علي بن أبي طالب رضي الله عنه ونال منه، فوافقه الجالسون مقاربة له، وفرقًا من شره، والحسن ساكت عاض على إبهامه.

فقال الحجاج: يا أبا سعيد، ما لي أراك ساكتًا؟

فقال الحسن: ما عسيت أن أقول؟

قال الحجاج: أخبرني برأيك في أبي تراب؟

قال الحسن: سمعت الله جل ذكره يقول: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٤٣]، فعلي ممن هدى الله من أهل الإيمان فأقول: ابن عم النبي صلى الله عليه وسلم وختنه على ابنته وأحب الناس إليه، وصاحب سوابق مباركة، سبقت له من الله، لن تستطيع أنت ولا أحد من الناس أن يحظرها عليه، ولا يحول بينه وبينها، وأقول: إن كانت لعلي هنات فالله حسيبه، والله ما أجد فيه أعدل من هذا.

فبسر وجه الحجاج وتغير، وقام عن السرير مغضبًا، فدخل بيتًا خلفه، وخرج القوم.

قال عامر الشعبي [وكان جالسًا معهم]: فأخذت بيد الحسن فقلت: يا أبا سعيد أغضبت الأمير وأوغرت صدره، فقال: إليك يا عامر، يقول الناس عامر الشعبي عالم الكوفة، أتيت شيطانًا من شياطين الأنس تكلمه بهواه، وتقاربه في رأيه، ويحك يا عامر، هلا اتقيت الله إن سُئلت فصدقت، أو سكت فسلمت.

قال عامر: يا أبا سعيد قد قلتها وأنا أعلم ما فيها.

قال الحسن: أعظم في الحجة عليك، وأشد في التبعة.

ولقد كان الحسن البصري صاحب عاطفة قوية وروح ملتهبة وكان من كبار المخلصين، بليغ اللسان، قوي الإيمان، وكان أقرب العلماء إلى قلب وعقل الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز، فلما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة كتب إلى الحسن أن يكتب إليه بصفة الإمام العادل فكتب الحسن وقال:

الإمام العادل يا أمير المؤمنين كالأم الشفيقة البرة الرفيقة بولدها، حملته كرهًا ووضعته كرهًا، وربته طفلًا، تسهر بسهره، وتسكن بسكونه، ترضعه تارة وتفطمه أخرى، وتفرح بعافيته، وتغتم بشكايته.

والإمام العادل يا أمير المؤمنين رضي اليتامى، وخازن المساكين، يربي صغيرهم حين يموت كبيرهم، وهو القائم بين الله وبين عباده، يسمع كلام الله ويُسمعهم، وينظر إلى الله ويريهم، وينقاد إلى الله ويقودهم، فلا تكن يا أمير المؤمنين فيما ملكك إلى الله، كعبد ائتمنه سيده فاستحفظه ماله وعياله، فبدد المال وشرد العيال، فأفقر أهله وفرق ماله.

واعلم يا أمير المؤمنين أن الله أنزل الحدود ليزدجر بها عن الخبائث والفواحش، فكيف إذا أتاها من يليها، وإن الله أنزل القصاص حياة لعباده، فكيف إذا قتلهم من يقتص لهم؟

وأذكر يا أمير المؤمنين الموت وما بعده، وقلة أشياعك عنده، وأنصارك عليه، فتزود له ولما بعده من الفزع الأكبر، وأعلم أن لك منزلًا غير منزلك الذي أنت فيه يطول فيه ثراؤك ويفارقك أحباؤك، وتركوك في قعره وحيدًا فريدًا فتزود له، واذكر إذا بُعثر ما في القبور وحُصل ما في الصدور، فالأسرار ظاهرة والكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة.

لا تحكم يا أمير المؤمنين في عباد الله بحكم الجاهلية، ولا تسلك بهم سبيل الظالمين، ولا تسلط المستكبرين على المستضعفين فتبوأ بأوزارك وأوزار مع أوزارك، وتحمل أثقالًا وأثقالًا مع أثقالك، ولا يغرنك الذين يتنعمون بما فيه بؤسك، ويأكلون الطيبات في دنياهم بذهاب

طيباتك في آخرتك، ولا تنظر إلى قدرتك اليوم، ولكن انظر إلى قدرتك غدًا وأنت مأسور في حبائل الموت، وموقوف بين يدي الله في مجمع الملائكة والنبيين والمرسلين، وقد عنت الوجوه للحي القيوم.

إني يا أمير المؤمنين لم آلك شفقة ولا نصحاء، فأنزل كتابي إليك كمداوي حبيبه، يسقيه الأدوية الكريهة لما يرجوه له من العافية والصحة، والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته.

وذات مرة كتب أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز إلى فقهاء العراق أن يأتوه، فاعتل الحسن [أصيب بفتق في بطنه - فكتب إليه معتذرًا ناصحًا يقول: يا أمير المؤمنين إن استقمت استقاموا، وإن ملت مالوا، يا أمير المؤمنين لو أن لك عُمر نوح وسلطان سليمان ويقين إبراهيم وحكمة لقمان؟ ولو نلت ذلك لم يكن لي بد من أن أشرب بكأس الأولين.

يا أمير المؤمنين الدنيا دار ظعن - بمعنى انتقال- وليست بدار إقامة على حال؟ وإنما أُنزل إليها آدم عقوبة، فأحذرها، فإن الراغب فيها تارك، والغني فيها فقير، والسعيد من أهلها من لم يتعرض لها، إنها إذا اختبرها اللبيب الحاذق وجدها تذل من أعزها وتفرق من جمعها فهي كالسم يأكله من لا يعرفه، ويرغب فيه من يجهله، وفيه والله حتفه.

فكن فيها يا أمير المؤمنين كالمداوي جراحه قليلًا مخافة ما يكره طويلًا، الصبر على لوائها أيسر من احتمال بلائها، واللبيب من حذرها ولم يغتر بزينتها، فإنها غدارة ختالة خداعة، قد تعرضت بآمالها وتزينت لخطابها، فهي كالعروس، العيون إليها ناظرة والقلوب عليها والهة، وهي والذي بعث محمدًا بالحق لأزواجها قاتلة.

فاتق يا أمير المؤمنين صرعتها، واحذر عثرتها، فالرخاء فيها موصول بالشدة والبلاء، والبقاء مؤدي إلى الهلكة والفناء، واعلم يا أمير المؤمنين أن أمانيها كاذبة، وآمالها باطلة،

وصفوها كدر، وعيشها نكد وتاركها موفق، والمتمسك بها هالك غرق، والفطن اللبيب من خاف ما خوفه الله وحذر ما حذر، وقدر من دار الفناء إلى دار البقاء، فعند الموت يأتيه اليقين.

الدنيا يا أمير المؤمنين دار عقوبة لها يجمع من لا عقل له، وبها يغتر من لا علم عنده، والحاذق اللبيب من كان فيها كالمداوي جراحه، يصبر على مرارة الداء لما يرجوه من العافية ويخاف سوء العاقبة.

والدنيا وايم الله يا أمير المؤمنين حلم، والآخرة يقظة، والمتوسط بينهما الموت والعباد في أضغاث أحلام، وإني قائل لك يا أمير المؤمنين ما قال الحكيم:

فَإنْ تنجُ مِنْهَا تَنجُ مِنْ ذِي عَظِيمَةٍ وَإلا فَإنِّي لاَ أُخَالُكَ نَاجِيًا

ولما وصل كتابه إلى عمر بكى وانتحب حتى أشفق عليه من كان عنده وقال: رحم الله الحسن فإنه لا يزال يوقظنا من الرقدة، وينبهنا من الغفلة، ولله هو من مشفق ما أنصحه وواعظ ما أصدقه وأفصحه.

دخل الحسن على النضر بن عمرو وكان واليًا على البصرة فقال له: أيها الأمير أيدك الله، إن أخاك من نصحك في دينك وبصرك بعيوبك وهداك إلى مراشدك، وإن عدوك من غرك ومناك.

أيها الأمير اتق الله فإنك أصبحت مخالفًا للقوم في الهدي والسيرة والعلانية والسريرة وأنت مع ذلك تتمنى الأماني وترجح في طلب العذر، والناس أصلحك الله طالبان، فطالب دنيا وطالب آخره، وايم الله لقد أدرك طالب الآخرة واستراح وتعب الآخر واخترم - أي تقطع وفني- فاحذر أيها الأمير أن تشقى بطلب الفاني وترك الباقي فتكون من النادمين، واعلم أن حكيمًا قال: أين الملوك التي عن حظها غفلت حتى سقاها بكأس الموت ساقيها.

نعوذ بالله من الحور بعد الكور، ومن النقص بعد الزيادة، ومن الضلالة بعد الهدى، لقد جاء أيها الأمير عن بعض الصالحين أنه كان يقول: كفى بالمرء خيانة أن يكون للخونة أمينًا وعلى أعمالهم معينًا.

كان البصري شجاعًا في الجهر بالحق، تنبعث شجاعته من نفس امتلأت بجلال الله وعظمته، فهانت في نظرها وجوه الخلق ومظاهر الدنيا، وانطلقت منها الكلمة قوية مدوية مجلجلة.



المصادر:
- «الطبقات الكبرى» لابن سعد.
- «صفة الصفوة» لابن الجوزي.
- «حلية الأولياء» لأبي نعيم الأصفهاني.
- «سير أعلام النبلاء» للذهبي.
- «زهر البساتين من مواقف العلماء الربانيين» (١/ ٢٣٣).

الإمام/ عامر الشعبي

هو الإمام عامر بن شرحبيل بن عبد بن ذي كبار [ذي بكار مكانها اليمن] علَّامة عصره، يكنى أبو عمرو الهمداني، مشهور بالشعبي، كانت أمه من سبي جلولاء، وهي الواقعة المشهورة مكانها بلاد فارس، وزمانها سنة ١٦ هجرية وموضعها اليوم في العراق وتسمى السعدية.

ولد عامر الشعبي لست سنوات خلت من خلافة الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقد كان نحيل الجسم، صغير الجسد، ذلك لأن أخاه زاحمه على رحم أمه، مما عطل نموه في الجسم، لكنه أصبح فيما بعد صاحب ذكاء متوقد، وذاكرة حافظة، وفهم يجمع شتات العلم، وقوة إبداع جعلته متميزًا في عصره الذي عاشه، إنه عصر يُعد خير العصور، وقرن يُعد خير القرون.

أقام ثمانية أشهر بالمدينة وسمع من ابن عمر، وتعلم الحساب من رجل يدعى الحارث ابن الأعور، وقد أدرك عامر خمس مئة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وروى عن الصحابة الكرام؛ منهم علي بن أبي طالب، وسعد بن أبي وقاص، وزيد بن ثابت، وأبو سعيد الخدري، وعبادة بن الصامت، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عباس، وأبو هريرة، والسيدة عائشة رضي الله عنهم وغيرهم ممن عاصرهم.

وقد سمع الشعبي من كثير من الصحابة حتى قال أحد معاصريه في ذلك: سمع الشعبي من ثمانية وأربعين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يكاد يرسل إلا صحيحًا.

وقد وعى الشعبي كل ما سمع بفضل ما حباه الله من نعمة الذكاء، والذاكرة الحافظة الواعية، حتى قال في هذا الموضع يصف منهجه في الحفظ والفهم: ما كتبت سوداء من بيضاء إلى يومي هذا، ولا حدثني رجل بحديث قط إلا حفظته، ولا أحببت أن يعيد عليَّ.

ولم يقف الشعبي عند هذا الحد من العلم والوصف لعلمه وإنما أضاف يقول: ما سمعت منذ عشرين سنة رجلًا يُحدث بحديث إلا أنا أعلم به منه، ولقد نسيت من العلم ما لو حفظه رجل لكان به عالمًا.

وقد ساعدته ذاكرته على أن يقول: ما أروي شيئًا أقل من الشعر، ولو شئتم لأنشدتكم شهرًا لا أعيد.

وقد كان عامر مولعًا بالدرس والعلم، محبًا للمعرفة، يجتهد في سبيلها قدر جهده، ويذلل كل صعاب تواجه حبه للعلم، وقد عبر عن هذه الرغبة بقوله:

لو أن رجلًا سافر من أقصى الشام إلى أقصى اليمن فحفظ كلمة واحدة تنفعه فيما يستقبل من عُمره لرأيت أن سفره لم يضع.

وقد ساعدت ذاكرة الشعبي الحافظة على وعي كثير من الآثار في كثير من المسائل التي عُرضت على الصحابة الأجلاء، لذلك عُرف بأنه صاحب آثار.

وعلى الرغم من كل ما علمه وحفظه، فإنه تمنى ذات يوم أمنية غريبة قال فيها: ليتني لم أكن علمت من ذا العلم شيئًا.

ولو عرفنا سر الأمنية لقدّرنا موقف الشعبي حق قدره عندما يقول معللًا الأسباب: إنا لسنا بالفقهاء، ولكنا سمعنا الحديث فرويناه، ولكن الفقيه من إذا عَلِمَ عَمِل.

هنا ومن هذه الكلمات يقدم لنا الشعبي درسًا عظيمًا حول مسئولية العالم والمحدث الذي يتصدر للبحث والدرس في دينه فإن العمل بالعلم عبادة وإن العلم حُجة على العالم أمام الله، فينبغي أن يعمل به، ويُنبه الجاهل، فيأمره وينهاه، وقد خشي الشعبي على نفسه مظنة أن لا يخلص فيه، وأن يفتخر به ويماري به لينال رئاسة ودنيا فانية وسلطانًا زائفًا، وقد عبَّر تواضعه على عكس هذا المعنى عندما خجل ذات يوم من رجل لقبه بلقب العالم وقال له:

أجبني أيها الفقيه العالم، فقال: ويحك لا تطرنا بما ليس فينا، الفقيه من تورع عن محارم الله، والعالم من خشي الله وأين نحن من ذلك؟!.

بلغ عامر الشعبي مبلغًا كبيرًا من العلم؛ حتى إنه كانت تعقد له حلقة في جامع الكوفة ويجتمع الناس حوله، في الوقت الذي كان يعيش فيه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الناس، حتى إن عبد الله بن عمر رضي الله عنه مرَّ بالشعبي وهو يقرأ المغازي على مستمعيه من الناس، فقال ابن عمر: وكأن هذا شاهدًا معنا، وهو أحفظ لها مني وأعلم.

ويصف ابن سيرين حلقة الشعبي في الكوفة فيقول: قدمت الكوفة وللشعبي حلقة عظيمة والصحابة يومئذ كثير.

روى الشعبي ما عبر عن سعة علمه ومكانته فقال: أتاني رجلان يتفاخران، أحدهما من بني عامر والآخر من بني أسد، وقد غلب العامري صاحبه، وعلا عليه، وأخذه من ثوبه، وجعل يجره نحوي جرًا، والأسدي مخذول أمامه يقول له: دعني اتركني، وهو يقول به: والله لا أدعك حتى يحكم الشعبي لي عليك، فالتفت إلى العامري، وقلت له: دع صاحبك حتى أحكم بينكما، وقلت: ما لي أراك تتخاذل له، وتضعف أمامه وتفشل؟ ولقد كانت لكم مفاخر ست لم تكن لأحد من العرب أولها- أنه كان منكم امرأة خطبها سيد الخلق محمد بن عبد الله، فزوجه الله إياها من فوق سبع سماوات، وكان السفير بينهما جبريل عليه السلام إنها أم المؤمنين زينب بنت جحش، فكانت هذه المأثرة لقومك، ولم تكن لأحد من العرب غيركم.

والثانية- أنه كان منكم رجل من أهل الجنة يمشي على الأرض هو عكاشة بن محصن، وكانت هذه لكم يا بني أسد ولم تكن لسواكم من الناس.

والثالثة- أن أول لواء في الإسلام عُقد لرجل منكم هو عبد الله بن جحش.

والرابعة- أن أول مغنم قُسم في الإسلام كان مغنمه.

والخامسة- أن أول من بايع بيعة الرضوان كان منكم، فقد جاء صاحبكم أبو سنان بن وهب إلى رسول الله ﷺ وقال: يا رسول الله ابسط يدك أبايعك، قال عليه الصلاة والسلام: «**على ماذا؟**» قال الرجل: على ما في نفسي!، قال عليه الصلاة والسلام: «**وما في نفسك؟**» قال أبو سنان: فتح أو شهادة، قال عليه الصلاة والسلام: «**نعم**»، فبايعه الناس على بيعة ابن سنان.

والسادسة- أن قومك بني أسد كانوا سبع المهاجرين يوم بدر.

عند ذلك أصابت الدهشة العامري مما أورد الشعبي من شواهد ومفاخر لغريمه وخصمه وحسبي أنه قال في نفسه ربما لو كنت صاحب حق لأورد لي مآثر قومي كما فعل مع خصمي وانصرف الرجل وقد عُقد لسانه.

محنته مع الحجاج:

كان الحجاج بن يوسف الثقفي واليًا على العراق، وقد اشتهر بظلمه بين الناس وقسوته وجبروته حتى إنه كان يؤخر الصلاة ويجمعها في الحضر، وقد ذهب ولاة ذلك العصر هذا المذهب مما جعل بعض الناس من العلماء يثورون عليه ويغضبون من ظلمه، وقد تذكروا حديث رسول الله ﷺ الذي رواه أبو ذر الغفاري قال: قال لي رسول الله ﷺ: «**كيف أنت إذا كانت عليك أمراء يؤخرون الصلاة عن وقتها أو يميتون الصلاة عن وقتها؟**» قلت: فما تأمرني؟ قال: «**صل الصلاة لوقتها، فإن أدركتها معهم فصل فإنها لك نافلة**». [رواه مسلم].

وقد سمي هؤلاء الناس الذين غضبوا على الحجاج باسم القراء، وتزعمهم عبد الرحمن ابن الأشعث بن قيس الكندي، وكان شريفًا مطاعًا فهو حفيد أبو بكر الصديق رضي الله عنه فجدته أخت الصديق رضي الله عنه، فاجتمع حوله مائة ألف أو يزيدون، وضاقت على الحجاج الدنيا، وكاد أن يزول ملكه، حتى أنهم هزموه في عدة مواقع، ولكنه قاوم حتى انتصر على

الأشعث، وقتل الكثير من أتباعه، وكان من بين هؤلاء الأتباع الشعبي، ومن هنا بدأ محنته مع الحجاج، ولنترك الشعبي نفسه يحدثنا عن محنته هذه فيقول:

لما قدم الحجاج سألني عن أشياء من العلم فوجدني بها عارفًا، فجعلني عريفًا على قومي الشعبيين [أي رئيسًا لهم]، وفرض لي أجرًا لذلك. فلم أزل عنده بأحسن منزلة، حتى كان شأن عبد الرحمن بن الأشعث، فأتاني قراء أهل الكوفة، فقالوا: يا أبا عمرو، إنك زعيم القراء، فلم يزالوا حتى خرجت معهم.

وانضم عامر الشعبي إلى جماعة الأشعث من القراء، يكملي أحداث المحنة فيقول:

فقمت بين الصفين أذكر الحجاج وأعيبه بأشياء فبلغني أنه قال -أي الحجاج-: ألا تعجبون من هذا!! أما لئن أمكنني الله منه، لأجعلن الدنيا عليه أضيق من مسك جملي.

وبهذا أصبح عامر الشعبي مطاردًا مطلوبًا من الحجاج، وقد أصبحت حياته مهددة، واختفى الشعبي عن أعين الحجاج ورجاله، ويستطرد في قصة المحنة فيقول:

فما لبثنا أن هزمنا، فجئت إلى بيتي، وأغلقت علي، فمكثت تسعة أشهر، فندب الناس لخراسان، فقام قتيبة بن مسلم، فقال: أنا لها، فولاه الحجاج قيادة فتح خراسان. فادى منادي قتيبة بن مسلم وقال: من لحق بعسكر قتيبة فهو آمن.

عند ذلك انتهز عامر الفرصة ليخرج معهم فقال: فاشترى خادمٌ لي حمارًا، وزودني [أي قدم له الزاد اللازم للخروج للغزو] ثم خرجت فكنت في العسكر، فلم أزل معه حتى أتينا فرغانة وهي مدينة واسعة فيما وراء النهر، على يمين القاصد لبلاد الترك، وجلس قتيبة ذات يوم وقد أصابته حيره عندما رغب في الكتابة للحجاج عن أخباره فنظرت إليه فقلت: أيها الأمير عندي علم وأعلم ما تريد!!.

فقال قتيبة بن مسلم: ومن أنت؟

قلت: أعيذك بالله ألا تسأل عن ذاك، فعرف أني ممن يُخفي نفسه، فدعا بكتاب.

فقال: أكتب نسخة.

قلت: لا تحتاج إلى ذلك فجعلت أملي عليه وهو ينظر حتى فرغ من كتاب الفتح ثم قال عامر الشعبي: فأكرمني وأرسل إليّ بقطعة من حرير، وكنت عنده في أحسن منزلة.

ومرت الأيام بعد ذلك، ووصلت الرسالة للحجاج، فعرف أن عامرًا الشعبي هو كاتب الرسالة، يقول عامر يكمل القصة: ذات ليلة كنت أتعشى مع قتيبة بن مسلم إذ أنا برسول الحجاج معه كتاب جاء فيه: إذا نظرت في كتابي هذا، فإن صاحب كتابك عامر الشعبي، فإن فاتك، قطعت يدك على رجلك وعزلتك.

قال عامر الشعبي: فالتفت قتيبة إلي وقال: ما عرفتك قبل الساعة، فاذهب حيث شئت من الأرض، فو الله لأحلفن له بكل يمين، فقلت: أيها الأمير إن مثلي لا يُخفى.

فقال قتيبة: أنت أعلم.

ثم بعثني إليه وقال لجنده: إذا وصلتم إلى مكان قريب من الحجاج يسمى خضراء واسط فقيدوه، ثم أدخلوه على الحجاج، فلما دنوت واقتربت من واسط استقبلني ابن أبي مسلم فقال لي: يا أبا عمرو، إني لأضن وأخاف عليك من القتل، إذا دخلت على الأمير فقل كذا وقل كذا، فلما أدخلت عليه ورآني قال: لا مرحبًا ولا أهلًا، جئتني ولست من الشرف من قومك، ولا عريفًا ففعلت وفعلت، ثم خرجت علي.

فانطلق الحجاج يحدث بالتهديد والوعيد، وعامر الشعبي ساكت لا يتكلم.

فقال الحجاج: تكلم.

فقال عامر: أصلح الله الأمير، كل ما قتله حق، ولكنا قد اكتحلنا بعدك السهر لا ننام من الخوف، فقد تملكنا الفزع منك، ولم نكن مع ذلك بررة أتقياء، ولا فجرة أقوياء، فهذا أوان حقنت لي دمي، واستقبلت بي التوبة.

فقال الحجاج على الفور: لله درك، وعفا عنه وتركه بسبب هذه الكلمات.

هذه هزة عنيفة ومحنة اضطر فيها عامر الشعبي أن يختفي عن درسه وعلمه لكي يبعد الخوف عن نفسه، ويتقي شر الظالم الذي لا يسمع النصح، فقد جاهد فعل الحجاج عندما بدأ يهمل الصلاة، ويجمع في وقت لا ضرورة للجمع فيه، وقد ذهب في هذا مذهبًا واهيًا، نبه إليه الرسول ﷺ فلم يترك عامر الأمر لهوى والي ظالم، وإنما وقف ودافع عن دينه، وأثبت أنه فقيه، ولم يكن راويًا، فقد جعل العمل بما عَلِمَ وتعلم شعاره، فنجاه الله من بطش هذا الرجل، بأن ألهمه فصاحة لسان، وثبات جأش جعلت الحجاج يتراجع عن غيه وجبروته، فقد أوشك أن ينكل به كما فعل مع أصحاب ابن الأشعث، وقد كان عامر ممن خرج معهم، واعترض على منهج الحجاج في الجمع وتأخير الصلاة، ويكون بذلك قد قال كلمته، ولم يكتم الشهادة.

وفي ذات يوم أرسله عبد الملك بن مروان الخليفة إلى ملك الروم، فلما وفد عليه، واستمع إليه بذكائه ودهش من دهائه، وأعجبه فيه سعة اطلاعه، وحُسن بيانه فاستبقاه الملك عنده أيامًا على غير العادة مع سفراء البلاد الذين يفدون إليه ثم يعودون فورًا.

أصاب الضجر عامر الشعبي من طول مقامه هناك وذهب إلى الملك يطلب الإذن بالعودة إلى دمشق حيث يكون خليفة المسلمين وأميرهم، فقال له الملك: أمن أهل بيت الملك أنت؟.

فقال عامر: لا وإنما أنا رجل من جملة المسلمين.

عند ذلك قال ملك الروم لعامر الشعبي: إذا رجعت لصاحبك عبد الملك بن مروان، وأبلغته جميع ما يريد معرفته، فادفع إليه هذه الرسالة.

فلما عاد عامر الشعبي إلى دمشق ذهب للقاء عبد الملك، وأفضى إليه بكل ما رآه وسمعه، وفي نهاية حديثه مع عبد الملك، وقبل أن يهم بالانصراف قال: يا أمير المؤمنين إن

ملك الروم حَملني لك هذه الرقعة [الرسالة] فأمسك عبد الملك بالرسالة وقرأها بعد أن استبقى عامرًا لديه، فلما فرغ من قراءتها قال: أعلمت ما في هذه الرسالة يا عامر؟

فقال عامر: لا يا أمير المؤمنين.

فقال عبد الملك: لقد كتب إليّ ملك الروم يقول: عجبت للعرب كيف ملكت عليها رجلًا غير هذا الفتى؟

فقال الشعبي: إنما قال هذا لأنه لم يرك، ولو رآك يا أمير المؤمنين لما قاله.

فابتسم عبد الملك وقال: أفتدري يا عامر لِمَ كتب إلي ملك الروم بهذا؟

فقال: لا يا أمير المؤمنين.

فقال عبد الملك: إنما كتب إلي بذلك لأنه حسدني عليك فأراد أن يغريني بقتلك والتخلص منك.

بلغ هذا الخبر ملك الروم، وما قاله بعد الملك لعامر فقال متعجبًا: لله أبوه، والله ما أردت غير ذلك.

هكذا كانت مكانة الشعبي عند خليفة المسلمين، صنعها بعلمه وتقواه، فأحسن العلم والحديث، وأتقن البلاغة وحسن البيان، تميز بفصاحة الرأي وجرأة في الحق، فحسده ملك الروم، وأراد بدهائه أن يوقع بينه وبين عبد الملك ولكن لم ينل حظه، ولم يبلغ مراده السيئ.

المصادر:

- «سير أعلام النبلاء» للذهبي جـ[٤].
- «التاريخ» لابن عساكر جـ[١٦].
- «حلية الأولياء» لأبي نعيم الأصفهاني جـ[٤].
- «الطبقات» لابن سعد جـ[٦].
- «صور من حياة التابعين» لعبد الرحمن رأفت الباشا.

المنذر بن سعيد البلوطي

أبو الحكم الأندلسي، قاضي الجماعة بقرطبة، ينسب إلى قبيلة يقال لها: كُزنة، وهو من موضع قريب من قرطبة، يقال له: فحص البلوط.

كان فقيهًا محققًا، وخطيبًا بليغًا مفوهًا، ويتألق اسمه بين الخطباء والقضاة الذين يتحدث التاريخ عن مواقفهم المشهودة، فقد كان إلى فصاحة لسانه وسمو أدبه، ودقة مؤلفاته، ورقة أشعاره، جريئًا في الحق، لا يخشى فيه لومة لائم، عادلًا في الحكم، فلا يجنح إلى هوى، أو تميل به عاطفته، زاهدًا عزوفًا عن المظاهر الخادعة، هذا إلى حسن السمعة وبعد الصيت.

نشأ القاضي الخطيب بالأندلس، وتتلمذ على جهابذتها من الفقهاء والأدباء، ثم أخذ في السير إلى بلاد المشرق، فلقي كثيرًا من العلماء والرواة، ونسخ أوراقًا كثيرة مما قرأ وسمع، ورجع إلى الأندلس حاملًا من كل فن ثمارًا طيبة مشتهاة، فعرف له العلماء مكانه من الفقه والدين وأنزله الأدباء بينهم منزلة عالية، لما له من ذوق جيد في الفهم، ونقد بصير بالشعر، ورواية حافة للأدب والتاريخ.

وكانت الأندلس لعهد المنذر تزدان بسلطان عبد الرحمن الناصر، وكان ملكًا جريئًا مقدامًا، جمع الكلمة المتفرقة، وأسكن الفتن الثائرة، وهاجم الصليبية الزاحفة، ونشر ألوية الحضارة والمساواة، فتجمعت حوله القلوب، وخافه أعداؤه ومعاصروه من الملوك، فخفوا إليه بالهدايا النادرة يخطبون وده، ويتملقون عطفه، وقد جعل قرطبة عاصمة ملكه، نظيرة بغداد وقريعتها علمًا وثقافة، وحضارة، فشاد بها القصور، وأقام الجسور، وأكثر من الحدائق والرياض، حتى أخذت زينتها، وارتدت أبهج الحلل والمطارف، وتحدث الناس بجمالها الباهر وسحرها العجيب، وقد بني الزهراء وتأنق في تجميلها تأنقًا بارعًا، فحشد لها المهندسين ذوي الكفاءة، ورفع القباب العالية، وأجرى الجداول الصافية، وخلع عليها ألوانًا عاطرة ناضرة تنبئ عن عظمة الملك وجلال السلطان.

وقد رجع المنذر إلى الأندلس في عهد الناصر، ومهَّد له الحظ طريق السعادة فتألق نجمه في مناسبة شهيرة، إذ أن رسول ملك الروم قد خف لزيارة الخليفة حاملًا أنفس الهدايا والتحف، فأقيم لاستقباله احتفال ضخم في يوم مجموع له الناس، وحضر الفقهاء والأمراء وأعيان الدولة في أجمل مظهر وأفخم لباس، ثم تقدم الأديب الرواية الكبير أبو علي القالي ليلقي كلمة الافتتاح، فبهرة الموقف وأخذته الرهبة وجبن لما رأى من الجمع العظيم فلم تحمله رجلاه، ولا ساعده لسانه، وغشيت الناس سحابة من الخجل والاستحياء حين تلجلج لسانه وتقطعت كلماته واحمر وجهه، وإذ ذلك نهض المنذر بن سعيد فصعد إلى المنبر مكان أبي علي القالي ووصل الكلام وارتجل خطبة بديعة، فأبهت الخلق، وأبرز أفضال الناصر، وتحدث عن مآثره، وقرظ أفعاله، وعدد نعم الله على المسلمين به، ثم توعد أعداءهم بما أورث الرهبة والخشية في القلوب.

ومن ضمن ما قال في خطبته:

أما بعد فإن لكل حادثة مقامًا، ولكل مقام مقالًا، وليس بعد الحق إلا الضلال، وإني قد قمت في مقام كريم بين يدي ملك عظيم، فاصغوا إليَّ معشر الملأ، بأسماعكم إن من الحق أن يقال للمحق: صدقت، وللمبطل: كذبت، وإن الجليل تعالى في سمائه، وتقدس بأسمائه، أمر كليمه موسى أن يذكر قومه بنعم الله عندهم، وأنا أذكركم نعم الله عليكم، وتلافيه لكم بولاية أميركم التي آمنت سربكم، ورفعت خوفكم، وكنتم قليلًا فكثركم، ومستضعفين فقواكم، ومستذلين فنصركم، ولاه الله إمامتكم أيام ضربت سرادقها على الآفاق، وأحاطت بكم شعل النفاق، حتى صرتم مثل حدقة البعير، مع ضيق الحال والتغيير، فاستبدلتم بخلافته من الشدة بالرخاء.....

إلى أن قال: فناشدتكم الله، ألم تكن الدماء مسفوكة فحقنها؟ والسبل مخوفة فآمنها،

والأموال منتهبة فأحرزها [أي جعلها في حريز] والبلاد خرابًا فعمرها، والثغور مهتضمة فحماها ونصرها، فذكروا آلاء الله عليكم. . . . . .

إلى أن أكمل خطبته وأنشد في آخرها لنفسه:

هَـذا المَقَـالُ الـذِّي عَابَـهُ فَنَـدٌ ... لَكِـنْ صَاحِبَ أَزْرِي بِـه البلَـدُ

لَوْ كنتُ فِيهم غَرِيبًا كنتُ مطرفًا ... لَكـنني مِنْهـم فَاغْتَالِنـي النكـدُ

لَـولا الخلافـةُ أَبقـى اللهُ بَهجَتَهَـا ... مَا كنتُ أُبقِى بَأرضٍ مَا بهَا أحـدُ

فاتجهت الأنظار إلى الخطيب الساحر، وعظمت مكانته في عين الناصر، فولاه قضاء كورة ماردة ثم ولاه قضاء الثغور الشرقية كلها، ثم نقله إلى قضاء القضاة والصلاة بجامع الزهراء ثم أسند إليه الخطابة بالمسجد الجامع، ثم عينه قاضي الجماعة في قرطبة، فأبرز في الأولى بلاغة وتأثيرًا، وأرسل من المواعظ البليغة ما رقق الأفئدة، وأقض المضاجع، كما كان في الثانية علمًا من أعلام الحق الذين ينهون عن المنكر ويأمرون بالمعروف، وله في ذلك مواقف ناصعة تتعطر بها كتب التاريخ، وتزدان بها مجالس القضاء في الإسلام.

كان المنذر مثال للنزاهة في القضاء، وله مع الناصر غرائب رائعة، فقد ألزمه الحق مرات عدة، وهو من هو في سلطانه ودكتاتوريته، فقد كان الملوك جميعًا لعهده شرقيين وغربيين منفردين بأحكامهم، لا معقب وراءهم ولا نقض لما يبرمون، ومع ما لهم من السطوة العارمة، والبطش القاهر، فقد وقف المنذر أمام الناصر ليؤيد الحق وحده، ويتخذ خشية الله سلاحًا يقل دونه كل سلاح، مهما رجعت عليه العواقب مما ينتظر أن تتمخض عنه.

وكان الناصر دقيق النظر، صحيح البصر برجاله، فهو يعلم المداهن المحابي، والمتظاهر بالحق سمعة ورياء، والمعتصم بالحق ابتغاء مرضاة ربه، ومن ثم فقد كان ينزل على حكم المنذر، واثقًا من نزاهته وخلوص حكمه من الشوائب، وإذا كان لنا أن نفخر بمن يجارون

بالحق من القضاة دون رهبة أو خشية فإننا نعجب أيضًا بمن يستمعون القول فيتبعون أحسنه من الخلفاء والملوك.

كان للناصر حظية من نسائه ملكت قلبه، فهام بها، وكلف برغباته، فبنى لها قصرًا جميلًا، ثم عنّ له أن يتوسع في شرفاتها ومقاصيره، فأراد أن يشتري دارًا مجاورة لبعض الأيتام، وعرض بعض المال لذلك، فقال الوصي: إنه لا ينفذ البيع إلا بإذن القاضي منذر بن سعيد، إذ أن الأيتام في حجره ورعايته، فهو قاضي الجماعة في المسلمين، وأولى بالتصرف والانقياد، فبعث الخليفة إلى القاضي يسأله إنفاذ البيع، فقال المنذر لرسول الخليفة: إن البيع على الأيتام لا يصح إلا لوجوده منها: الحاجة الملحة أو الضعف الشديد أو الرغبة في مال من غبطة مرتجاة، وليس للأيتام حاجة لنقد، ولا بالدار ضعف فتزال، وأما الغبطة فهذا مكانها، فإن أعطاهم أمير المؤمنين كثيرًا، أنفذت البيع وإلا فلا.

وطار الرسول بالخبر إلى الخليفة، فظهر زاهدًا في شرائها، وخاف القاضي أن يصمم الخليفة على الشراء، فأمر بنقض الدار وبيع أنقاضها، فبيعت وحدها بأكثر مما عرضه الخليفة في الشراء، فعز ذلك على الناصر، واستدعى القاضي وناقشه في هدم المنزل.

فقال له المنذر في جراءة حميدة: لقد أخذت في هدمها بقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ [الكهف: ٧٩]. ومقومك لم يقدرها بمال أعيبها، وقد قبضت في الأنقاض وحدها أكثر منه، وبقيت الأرض للأيتام.

فتدبر الخليفة الأمر قليلًا وأدرك صدق النية لدى القاضي، وعلم إخلاصه في إتباع الحق، فقال له: نحن أولى بالانقياد إلى العدالة، وجزاك الله خيرًا يا قاضي الجماعة عن العدل والإسلام.

موقف كريم من قاضٍ عادل، وملك منصف، وبأمثال هذه المواقف الجريئة اعتز

الإسلام، وبلغ في قرن واحد ما لم تبلغه الدولة الرومانية في ثمانية قرون، بل إن المنذر قد رصد نفسه ناقدًا لأعمال الخليفة، فهو لا يكتفي بإقامة العدل في القضاء وحده، بل تتبع أعمال الناصر، حسنها وسيئها في رأيه، فإذا لم يطمئن لعمل ما جاهر بمحاربته على رؤوس الأشهاد، واتخذ من منبر الجمعة مذياعًا يصدع بالمعروف وينهى عن المنكر، مهما كانت النتائج، وحسبه أن يسكن ضميره القلق، فلا يشعر بوخز يؤنبه على السكوت والإغضاء.

كان الناصر مولعًا بالعمارة والزخرفة، فبنى الزهراء، وأفرغ الجهد في تزيينها وإبداعها، وأقام قصورها الشماء على أحسن طراز، حتى شغله ذلك عن حضور الجمعة في المسجد الجامع ثلاث مرات متعاقبات، فأراد القاضي أن يلقي الموعظة الزاجرة، وانتهز حضور الخليفة للصلاة في جمعة حافلة، وبدأ خطبته:

يقول الله تعالى: ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الشعراء: ١٢٨-١٣٥].

ثم أتبع ذلك بكلام قاسٍ، ينهى عن الإسراف والتبذير، حتى بكى الخليفة وندم، ثم قال لولي عهده ونجله الحكم:

لقد أسرف المنذر في ترويعي وإزعاجي، والله لا أصل خلفة الجمعة أبدًا.

فقال له ولي العهد: وما الذي يمنعك من عزله وإيقافه؟.

فرجع الناصر إلى إيمانه ويقينه وقال: ويلك، أمثال ابن سعيد في ورعه وعلمه وفضله، يعزل في إرضاء نفس ناكبه عن الرشاد! سالكة غير القصد؟ هذا ما لا يكون، وإني لأستحي من الله عَزَّ وَجَلَّ ألا أجعل بيني وبينه شفيعًا يوم القيامة مثل المنذر بن سعيد!

هذا سمو بالغ نذكره بالفخر للناصر، وقد زاده في عيون المنصفين قدرًا ونباهة، ولو

استمع إلى ولي عهده وعزل المنذر بن سعيد عن الخطابة بالمسجد الجامع لاكتسب جرمًا آخر، وسلقه الناس بألسنة حداد، فذاع في الدولة إسرافه وتماديه، فتذمر من تذمر وتآمر عليه من تآمر، ولكنه تلافى ذلك كله، وأرضى الله عَزَّ وَجَلَّ في واعطه ومرشده، ثم تقبل النصيحة بهدوء وإذعان، بعد أن سكنت عنه ثورة الغضب، وكان يذكرها للمنذر بمحمدة وإعجاب.

على أن الناصر كان يزن رجال دولته ويضع كلًا في منزله اللائق، فهو يعرف الفقهاء ومنازعهم، ويلم بنفسياتهم المتباينة، حتى ليكاد ينطق بما في ضمائرهم من حب أو كراهية، وقد بني قصرًا فخمًا، وصفحه بالذهب والفضة، وزخرف سقوفه بالألوان الذهبية البراقة، ثم دعا إليه كبار رجاله وسألهم عنه، فبالغوا في الثناء على إبداعه وكماله، وأسهبوا ما شاء لهم الملق في تعداد مفاتنه ومباهجه، فسر بتقريظهم سرورًا طائرًا، ثم دخل المنذر بن سعيد واجمًا، فسأله الخليفة هل رأيت أو سمعت أن أحدًا من الخلفاء قبلي فعل مثل هذا؟

فأشار إلى السقف الوضيء ودموعه تنحدر على لحيته وقال: يا أمير المؤمنين، ما ظننت أن الشيطان يبلغ منك هذا المبلغ، مع ما أتاك الله وفضلك به على العالمين، حتى نزلت منازل الكافرين.

فانزعج الناصر وصاح: انظر ماذا تقول، ويلك!

فقال المنذر: ألا تذكر قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾.

[الزخرف: ٣٣-٣٥].

فوجم الخليفة ونكس رأسه معتبرًا، ثم قال: جزاك الله خيرًا من ناصح أمين الذي قلت هو الحق.

ونهض إلى الزخرف الذهبي فأزاله لساعته، ثم أمر بطلاء القبة طلاءً عاديًا لا رونق به ولا تنميق!

بهذه المواقف الخالدة للمنذر بن سعيد تعطر تاريخه بالثناء والمديح، ولقي في حياته من

الإكبار والإجلال ما لقيه بعد مماته من التعظيم والإطراء، ولا ريب فقد كان مثلًا رفيعًا لعالم الإسلام فقهًا وفصاحة ونزاهة وورعًا، وقد ائتم به قضاة الدولة وفقهاؤها، فدرسوا أحكامه وحفظوا خطبه، أما العامة من الرعية فقد بهرهم ذياده عن الحق، ووقوفه بالمرصاد لكبراء الدولة وأمرائها، فتجمعوا حوله ولاذوا به في الشدائد.

قال ابن مشكول: منذر بن سعيد خطيب بليغ مصقع، لم يكن بالأندلس أخطب منه، مع العلم البارع، والمعرفة الكاملة، واليقين في العلوم، والدين، والورع، وكثرة الصيام، والتهجد، والصدع بالحق، كان لا تأخذه في الله لومة لائم، وقد استسقى غير مرة فسقي.

قال الحسن بن محمد: قحط الناس في بعض السنين آخر مدة الناصر، فأمر القاضي منذر ابن سعيد بالبروز إلى الاستسقاء بالناس، فصام أيامًا وتأهب، واجتمع الخلق في مصلى الربض، وصعد الناصر في أعلى قصره ليشاهد الجمع، فأبطأ منذر، ثم خرج راجلًا مُتخشعًا، وقام ليخطب، فلما رأى الحال بكى ونشج وافتتح خطبته بأن قال: سلام عليكم،

ثم سكت شبه الحسير ولم يكن من عادته، فنظر الناس بعضهم إلى بعض لايدرون ما عراه ثم اندفع فقال: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۖ كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤].

استغفروا ربكم وتوبوا إليه، وتقربوا بالأعمال الصالحة لديه، فضج الناس بالبكاء، وجأروا بالدعاء والتضرع، وخطب فأبلغ، فلم ينفض القوم حتى نزل غيث عظيم.

وقال الحسن بن محمد: وسمعت من يذكر أن رسول الناصر جاءه للاستسقاء فقال للرسول: ها أنا سائر، فليت شعري ما الذي يصنعة الخليفة في يومنا هذا؟

فقال: ما رأيته قط أخشع منه في يومه هذا، إنه منفرد بنفسه، لابس أخشن الثياب، مفترش التراب، قد علا نحيبه واعترافه بذنوبه، يقول: رب هذه ناصيتي بيدك، أتراك تعذب الرعية وأنت أحكم الحاكمين وأعدلهم، أن يفوتك مني شيء.

فتهلل منذر بن سعيد وقال: يا غلام احمل الممطرة [ثوب من صوف يلبس في المطر يُتوقى به من المطر] معك، إذا خشع جبار الأرض رحم جبار السماء.

وفي أواخر أيام الناصر استغرق المنذر في خطبته مرة بجامع الزهراء فأدخل فيها: ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾ [الشعراء: ١٢٨-١٣٠]. فتخير الناصر لخطابة جامع الزهراء أحمد بن مطرف إذ حضر الناصر للصلاة، وفي غير ذلك يخطب المنذر.

يقول عنه العلماء:

قال ابن بشكول في بعض كتبه: منذر بن سعيد خطيب بليغ مصقع، لم يكن بالأندلس أخطب منه، مع العلم البارع، والمعرفة الكاملة، واليقين في العلوم، والدين، والورع، وكثرة الصيام، والتهجد، والصدع بالحق، كان لا تأخذه في الله لومة لائم، وقد استسقى غير مرة فسقي.

ذكر أمير المؤمنين الحكم فقال: كان فقيهًا، فصيحًا، خطيبًا، لم يُسمع بالأندلس أخطب منه، وكان أعلم الناس باختلاف العلماء، شاعرًا لبيبًا أديبًا، له تصانيف حسان جدًا، وكان مذهبه النظر والجدل، يميل إلى مذهب داود بن علي.

وذكره محمد بن حارث القروي فقال: كان من أهل النفاذ والتحصيل، متدربًا للمناظرة، متخلقًا بالإنصاف، جيد الفهم، طويل العلم، بليغًا موجزًا، يميل إلى طريق الفضائل، ويوالي أهلها، ويلهج بأخبار الصالحين.

رحم الله القاضي المنذر بن سعيد البلوطي، وأجزى له المثوبة على ما قدم للإسلام والمسلمين في بلاد الأندلس وما أظهره من الحق والصدع به.

المصادر:
- «سير أعلام النبلاء» للذهبي.
- «علماء في وجه الطغيان» لمحمد رجب البيومي.
- «زهر البساتين من مواقف العلماء الربانيين» (١/ ٤١٧).

شيخ الإسلام/ ابن تيمية

قال ابن الحريري قاضي القضاة: إن لم يكن ابن تيمية شيخ الإسلام فمن هو؟؟.

حقًا إنه شيخ الإسلام لأنه كان جبلًا في العلم، إمامًا في الفقه، فقه الكتاب والسنة، مجاهدًا بقلمه ولسانه، سهمًا سلطه الله تعالى على المبتدعين وأصحاب الأهواء، فضلًا عن جهاده في حروب التتار.

كان بطلًا فذًا لا يختلف في بطولته أحد، حتى خصومه في الرأي والفضل ما شهدت به الأعداء.

ولم يكن هذا العالم المفضال يحارب في ميدان واحد، يقصر عليه همه وفكره وقوته، لكنه اتجه بنشاطه الحافل إلى ميدانين يختلفان مذهبًا واستعدادًا، ويجتمعان على نصرة الحق وإعلاء كلمة الله، وقد رجع منهما ظافرًا مرفوع الراية، تتحدث الأجيال عن بلائه ونضاله، وتتساجل الأقلام في تشريح آرائه، وإذا كان من الناس من لا يسير معه في رأيه، فتلك طبيعة الاجتهاد الفكري، إذ يجذب إلى نتائجه الدقيقة فريقًا دون فريق، ولو شاء الله لجعل الناس أمة واحدة.

أي مجتمع كان المجتمع الإسلامي في عهد شيخ الإسلام ابن تيمية، لقد كان يزخر بطوائف مختلفة من أصحاب الآراء والمذاهب، يرجعون بها إلى الشريعة، ولكنها بعيدة عن روح الإسلام، ويسوقون العامة سوقًا إلى مبتدعات ضالة وانحرافات مريضة، وقد نظر الإمام فيما حوله، فراعه أن يرى الخطأ في الفهم، والانحراف في السلوك والتزمت في التطبيق، والتكتل مع الباطل، فصمم على الجهاد، وتعرض بمعوله الهادم إلى أطواد راسخة تستمد ثباتها من الغفلة والضيق والتعنت، وما برح يضرب به هنا وهناك، حتى آذن جهاده بالفلاح.

كان العالم يضطرب بآراء جدلية لطوائف تتشعب وتتناحر، من شيعة ذات فرق، ومن أشاعرة ومعتزلة وجهمية، ومن حنابلة ومتصوفة، ومن مبتدعة ومقلدة، ولكل فريق علماؤه

ورجاله، ومعارك الكلام تحتدم في غير طائل، وحقائق الأشياء تتبدد في صحراء مجهولة، فهناك تناحر حول الذات الإلهية وماهيته وما ثبت له من الصفات، وما يتصل به من الأشياء، مثل: الاستواء والنزول وخلق القرآن وإثبات الصورة والعين واليد والوجه، يرى قوم أن كل ذلك كنايات تؤول، ويرى آخرون أنها جوارح تجسم.

وتدور المعركة على ملئ من العامة في المساجد، فيهرفون بما لا يعرفون، ويتعصب كل سامع لما يميل إليه، ويطول اللجاج بعيدًا عما يجب من صفاء العقيدة ووضوحها، فتنصرف النفوس عن مجاهدة الأعداء من التتار، وبقايا الصليبيين، وينظر الإمام فيجد أن المسألة في حاجة إلى حسم، فيصدع برأيه الصريح ناصرًا رأي السلف بعيدًا عن التأويل، ويثبت لله الاستواء والنزول والعين واليد، كما وصف بذلك نفسه، ولكن بدون كيفية أو تمثيل أو تشبيه، وإنما له يد ووجه وعين لانعلم صورها، ويتهمه بعض الخصوم زورًا بالتجسيم، وتدور الرحى من جديد، فلا يقتصر على جهاد الرأي، بل يلجأ المعارضون إلى نائب السلطان في دمشق وحدثوه بسببها مستعظمين أمرها حاكمين على قول شيخ الإسلام بالزوغان ومخالفة لإجماع المسلمين آنذاك فدعاهم شيخ الإسلام لعقد جلسة للمناقشة والمناظرة بحضور نائب السلطان، فأوضح لهم بالحجة والبرهان رأيه فما كان منهم إلا أن رجعوا عن قولهم طائعين وكرهين.

ووصلت أنباء الخلاف إلى السلطان في مصر، واستدعاه السلطان وسار في صحبة قاضي الشافعية فعقد له مجلس حين وصوله بحضور القضاة وأكابر الدولة.

وفي هذا المجلس امتنع الشيخ من التحاكم إلى زين الدين بن مخلوف قاضي المالكية، والسبب في ذلك أن ابن مخلوف جمع بين الادعاء والقضاء في هذه القضية فقال الشيخ: من الحاكم في؟

فقيل له القاضي المالكي، فقال الشيخ: كيف تحكم في وأنت خصمي؟

فغضب غضبًا شديدًا وانزعج فصدرت الفتاوى بتجهيل الشيخ وتضليله، ويلحون في سجنه، فيكون لهم ما يريدون، وحبس الشيخ وآل أمره إلى الحبس المعروف بالجب، وشاركه في حبسه أخواه شرف الدين وزين الدين.

نزل الشيخ في الحبس في شهر رمضان سنة [٧٠٥هـ] ومكث فيه سنة ونصف السنة، وفي خلال هذه المدة حاول نائب السلطان أن يوفق بينه وبينه المخالفين له، لضغط الناس في الشام الذين يعرفون للشيخ مكانته ومنزلته، ورجاه بحضور المجلس للمناقشة، ولكن الشيخ امتنع، وصحب بدله أخويه، وانعقد المجلس للمناقشة، واشتد فيه النقاش، ولم يحصل الاتفاق، ثم جاء الأمير الشامي عيسى بن مهنا، إلى الشيخ في حبسه، وأقسم عليه ليخرجن وليذهبن معه إلى دار نائب السلطان، فخرج معه وانعقد المجلس وحصلت المناقشة مع الفقهاء، وامتنع القضاة من الحضور، وانتهى المجلس على خير، فأوضح لهم معتقده مؤيدًا ذلك من الكتاب والسنة حسب فهمه لهما.

بقي الشيخ في مصر معلمًا ومرشدًا وقد صفح عن كل من أذاه قائلًا: لا أحب أن ينتصر من أحد بسبب كذبه عليَّ، أو ظلمه أو عدوانه، فإني قد أحللت كل مسلم، وأنا أحب الخير لكل المسلمين، وأريد لكل مؤمن من الخير ما أريده لنفسي، والذين كذبوا وظلموا هم في حل من جهتي.

وبذلك انتهت هذه المحنة ولكن لازالت هناك محنًا أخرى في الطريق، وعليه أن يصبر لينال ثواب الصابرين.

استمر الشيخ في دروسه وإرشاده في القاهرة، واستطاع أن يوجد له في هذه الإقامة المؤقتة أنصارًا ومريدين يحاكون رأيه ومعتقده، وأخذ كعادته يبين رأيه في مسائل الكلام،

ومدى مخالفة بعضها لعقيدة السلف التي يعتنقها، وينظر ابن تيمية نظرة ثانية، فيجد طوائف الصوفية قد تمكنت من العامة، لا لتسير بها إلى المقصد الصحيح، بل لتفرض عليها دينها أمورًا دخيلة على الفكر الإسلامي والعقيدة المحمدية في ذات الله، فروضًا لم تأت بهذه الشريعة السمحة البيضاء، وأخذوا يتحدثون عن فناء المخلوق في الخالق، أو اتحاد الخالق بالمخلوق، على نحو فلسفي غامض يترك النفوس قلقة لا تعرف ما تستقر عليه في ذات الله.

وقد جعلوا أقوال ابن عربي وابن سبعين نصوصًا إسلامية صريحة في هذا المضمار، وجذبوا إليهم من الأشياع من لا يميزون بين الطيب والخبيث، حتى طم السيل وأصبحت عقيدة التوحيد في مهب الزعازع العاصفة، تطلب من يثبت في الميدان ليعيد الحق إلى نصابه من ذوي الرأي النزيه البصير، فكان شيخ الإسلام فارس الحومة، إذ نازل خصومة بالرأي والحجة، وانتقد محي الدين ابن عربي في بعض أفكاره، حتى ضج مخالفوه من اتباع ابن عربي، ولم يتحملوا هذا النقد الفكري وحسبوا ذلك طعنًا وتجريحًا للشيخ الأكبر ابن عربي، فذهبوا بجموعهم إلى دار السلطنة يشطون منه، فأمر السلطان بحل هذا النزاع بعقد مجلس للمناظرة بدار العدل.

وعقد مجلس المناظرة والمناقشة وخرج المخالفون منه لا يلوون على شيء، بعد نصرة الفقهاء له وسكوت القضاة عنه، حتى فزع من خطره ذوو الرياسة من المتصوفين وأشياخ الطرق، ووجدوا من بأس السلطان ما وجده سواهم من أعداء الشيخ، فتحالفوا عليه، وعقدوا المجالس لمحاكمته، وأفتوا بعودته إلى السجن وكأنه مذنب شريد!

وضجر السلطان ولم يجد وسيلة لحسم هذه المنازعات والمقاطعات إلا أن يتجه نحو شيخ الإسلام فيخيره بين ثلاث، إما أن يخرج من القاهرة ذاهبًا إلى الشام مسقط رأسه، وإما إلا الإسكندرية بشرط أن لا يثير مثل هذه المسائل ولا يتعرض بها بالنقد، وإما العودة إلى السجن، فاختار السجن متمثلًا بقول الله تعالى حكاية عن قول يوسف الصديق عَلَيْهِ السَّلَامُ:

﴿ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾ [يوسف: ٣٣].

ولكن إلحاح طلابه ومريديه دفعه إلى الرضا بالذهاب إلى الشام وقبول الشرط، فركب خيل البريد في اليوم الثامن عشر من شوال عام [٧٠٧هـ]، وما أن سار مرحلة حتى جاءه أمر السلطان بالعودة إلى القاهرة، وهناك بلغة قاضي القضاة بأمر الحبس.

قال بعضهم له: ما ترضى الدولة إلا بالحبس، وقال قاضي القضاة: وفيه مصلحة له.

وطلب من شمس الدين التونسي المالكي أن يحكم، فقال: ما ثبت عليه شيء، ثم طلب من نور الدين الزاووي المالكي فتوقف ولم يجر جوابًا، وهنا أنقذ الشيخ موقفهم، وقال: أنا أمضي إلى السجن واتبع المصلحة.

فأُرسل إلى حبس القضاة، وأُذن بأن يكون عنده من يخدمه.

فأي مصلحة هذه سواء أكانت للدين أو للمسلمين، أن يُحبس عالم، وهو غير متهم لا في أمر ديني أو دنيوي؟ هل العلماء في هذه الدنيا من أجل حمل الإسلام ونشر علومه بين الناس، أم في السجون يرقدون.

وبسجن القضاة مكث سنة ونصف السنة أيضًا، ولكن هذا الحبس كان بمثابة إقامة جبرية، سمح الفقهاء والعلماء أن يزوروه فيه، كما سمح للطلاب أن يأخذوا عنه، ولأعيان الدولة أن يستفتوه، وبقي على هذا الحال حتى خرج من سجنه هذا، بقرار من مجلس القضاة والفقهاء، عُقد في المدرسة الصالحية، وألزموا به الدولة، وقرروا فيه رأيًا نفذ، وخضعت له الدولة مجبرة وإن خالف رأيها.

وعاد الشيخ إلى دروسه وتعليمه، وفي ذلك الوقت عزل السلطان الناصر بن قلاوون نفسه، ولوى عنه الملك الظفر بيبرس الجاشنكير، وكان هذا الملك للشيخ نصر المنجي، وهو من اتباع محي الدين ابن عربي لذلك فقد استطاع أن ينفي شيخ الإسلام إلى الإسكندرية، ولكنه سمح له هناك بالتدريس والإفتاء، وبقي في نفيه هذا حتى عاد الناصر بن قلاوون بعد

سبعة أشهر إلى حكم الشام ومصر، وما أن وصل إلى القاهرة وجلس على دست الحكم في يوم مشهود، هو يوم عيد الفطر المبارك عام [٧٠٩هـ] حتى فكر في أمر هـذا الـشيخ، ولم يكتـف السلطان الناصر بهذا التكريم بل طلب منه الفتوى، في من آذوه وأوردوه المهالك.

وهم بنفس الوقت قد مـلأوا خـصمه في الـسلطان والحكـم ممـا أدى إلى عـزل نفـسه، وطلب منه أن يقول كلمته في القوم، ومنهم ابن مخلـوف المـالكي الـذي أمـر بحـسبه الأول، فأصدر شيخ هذه الفتوى في خصومه: بأن دماءهم حرام عليه وأنه لا يحل إنزال الأذى بهم.

فقال له السلطان: إنهم قد آذوك وأرادوا قتلك مرارًا.

فقال الشيخ: من آذاني فهو في حل، ومن أذى الله ورسوله فالله ينتقم منه، وأنا لا أنتصر لنفسي.

ولم يكتف الشيخ بهذا الحكم الذي أرضى الله ورسوله وجماعة المسلمين، بل شـفع لهـم طالبًا العفو عنهم قائلًا للسلطان: وإذا قتلت هؤلاء لا تجد بعدهم مثلهم.

حين سمع ابن مخلوف المالكي ما قاله الشيخ فيهم قال: ما رأينا مثل ابن تيمية حرضـنا عليه فلم نقدر، وقدر علينا فصفح وحاج عنا.

لله ردك يا شيخ الإسلام رحمك الله وأرضاك، ولا غرابة في ذلك فقد كنت العالم التقـي الذي يبتغي بعمله وجه الله والدار الآخرة.

ويعود شيخ الإسلام إلى سابق عهده في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيجـد قبـور الأولياء تتخذ وسائل توبة لتحقيق الرغائب وإجابة المطالب، فلا ينقطع عنهـا آمـل يلـتمس العون من ضريح ساكن يرقد به إنسان لا يملك في دنيا النـاس نفعًـا ولا ضرًا، ثـم يظـن بـه الحول والطول ما يظن بخالق الكون، ورب الوجود، فلا ينصرف المسلم إلى ربه يرجو رحمته، ويخشى عذابه، بل ينصرف إلى أمل خائب يؤيده رجال لم يفهموا روح الإسـلام عـلى وجهـه

الصحيح، ولابد لهؤلاء من قامع يصيح في آذانهم الغافلة لتسمع الرأي السديد، ويوقظ عيونهم النائمة لترى الوضع الرشيد! وقد تحقق ذلك على يد شيخ الإسلام ابن تيمية، إذ هاجم أرباب التوسل بالأضرحة والمزارات مهاجمة ألبت عليه الشر، فصابر وثابر وقبل المحنة الجديدة قبول أولى العزم من المجاهدين.

هذه مواقف جريئة لا يتهيأ لها غير من ظفر بشجاعة نادرة، وعقل صائب، واستنباط غزير، وقد كشف معدن الإمام وأبرزت عناصر رجولته النادرة إبرازًا يخلب الإفهام، كما كشف عن خلق العفو والتسامح في نفسه، وهو خلق لا يتمكن إلا من روح كبير، فقد سعى أعداؤه وتألبوا عليه من كل حدب، وأغروا به العامة من الرعاع، ففي اليوم الرابع من شهر رجب عام [٧١١هـ] امتدت إليه أيدي أثيمة بالضرب، فتجمع أهالي الحسينية [وكان الإمام يسكن فيها] ليثأروا للشيخ، فردهم فألحوا عليه فمنعهم قائلًا: إما أن يكون الحق لي أو لكم أو لله!! فإن كان الحق لي فهم في حل مني، وإن كان لكم فإن لم تسمعوا مني ولم تستفتوني فافعلوا ما شئتم؟ وإن كان لله فالله يأخذ حقه إن شاء.

هذا قليل من كثير لاقاه الشيخ في ميدان الإصلاح الداخلي، أما ميدانه الخارجي فقد حفل بالروائع في مجالدة الباطل على شراسته ومناوأة الطغيان على جبروته.

وعاد الشيخ إلى دمشق، ولكن عودته لها لم تكن للراحة والاستجمام في المصايف بعد ما أصابه من شدة وبأس في مصر، وإنما عاد إليها مجاهدًا يحمل السيف وهو قد تجاوز الخمسين عامًا.

نعم عاد مجاهدًا فقد صحبه السلطان الناصر وهو على رأس جيش المسلمين لملاقاة التتار، وفي الطريق وصلت أنباء هذا الجيش المظفر إلى التتار، فرجعوا خائبين لا يلوون على شيء.

حين هز المصريون جحافل التتار في موقعة عين جالوت تقهقروا إلى ديارهم خائبين منهزمين، وكانوا يعضون على شفاههم غيظًا من هؤلاء الذين أذاقوهم كئوس الهزيمة لأول

مرة في حياتهم المليئة بالفتك والتخريب، ويتحرقون ليوم قريب يثأرون فيه لكرامتهم الجريحة وشرفهم الذبيح، حتى كانت سنة [٦٩٩هـ] فتأهب ملكهم قازان لاحتلال الأراضي الشامية تمهيدًا للوثوب على بلاد النيل، وجمع جنوده الزاحفة كالسيل لا تذر من شيء أتت عليه إلا حصدته بالسلاح والنار، فذعرت طوائف كثيرة وسلم فريق من أمراء الشام بلادهم مرغمين فزعين، وكان السلطان التتري يتظاهر بالإسلام، ويصحب معه المؤذن والقاضي والإمام، ثم يسلط سيفه على الرقاب المسالمة فيقطعها في غير إيمان، وعلى الدماء البريئة فيريقها أنهارًا في ساحات القتال، وبذلك يفعل ما لا يقول، حتى وصل بجنوده إلى النبك وفتحت دمشق أبوابها للقائه، فعز على شيخ الإسلام ابن تيمية أن يرى هذا الطاغية يتجبر في الأرض تحت ثياب الإسلام، وهو إما كافر أو فاسق فلم تهدأ له نفس، وصمم على لقائه متحديًا جبروته ومعه فريق من أعيان الدمشقيين، فيميل قازان إلى المداهنة ويبدأ بتقديم الطعام إلى الوفد، فيأكلون هائبين، ويمتنع شيخ الإسلام عن الطعام فيسأله قازان: لماذا لا تأكل أيها الشيخ؟!

فيرد شيخ الإسلام في عناد: كيف آكل من طعامكم وقد طهيتموه من أغنام الناس وطبختموه بما قطعتم من أشجار الناس ولا ملك لأحد لكم فيه!!

فيضطرب قازان مأخوذًا ويقول: ولكني مسلم أيها الشيخ.

فيجيب شيخ الإسلام في جرأة: لقد سلطت ملك الكرج الصليبي على المسلمين ودفعت له السلاح والجند ليقاتل بني الإسلام! فأين كان دينك حين ذاك؟؟

بهت الطاغية وبحث عن رد فلم يجد غير أن يقول: أنا مسلم ومعي مؤذن وقاض وإمام.

ولكن شيخ الإسلام عاجله بقوله: وماذا تفعل بإسلامك وقد كان أبوك وجدك كافرين ولم يفعلا ما فعلت؟ لقد عاهدا فوفيا، وأنت عاهدت فغدرت.

إن للحق لرهبة ترعد النفوس وتكبل الأيدي، وقد غلبت هذه الرهبة المفزعة نفس قازان، فنكس رأسه، واندفع يطلب من شيخ الإسلام الدعاء، وكان لدى الإمام سياسة وكياسة، فرفع يدة يقول: اللهم إن كان عبدك هذا إنما يقاتل لتكون كلمتك هي العليا، وليكون الدين كله لك، فانصره وأيده وملكه البلاد والعباد، وإن كان قام رياء وسمعة طلبًا للدنيا، ولتكون كلمته هي العليا وليذل الإسلام وأهله، فأخذله وزلزله ودمره واقطع دابره.

ثم خرج مرفوع الرأس وأصحابه يقولون له في إشفاق: كدت أن تهلكنا وتهلك نفسك، والله لا تصحبك بعد هذا.

لا أريد أن أتتبع هذه الحقبة من التاريخ فأسود ما كان من أمر قازان، ولكني أقصر الحديث على جرأة الشيخ وحدها، فأذكر أنه رجع إلى دمشق ليشجع الناس على القتال، وليقود الفقهاء في ميدان التدريب الحربي على أعمال الفروسية والجهاد، ثم تمضي الأيام فيعود العدو من جديد، فهيب شيخ الإسلام للنضال، ويتقدم الصفوف طالبًا للشهادة، ويحار السلطان الناصر محمد بن قلاوون والخليفة من هول الموقف، ولكن شيخ الإسلام لا ينكص، بل يشعل الحماس حتى تتجلى المعركة باندحار الأعداء، ويعرض عليه الملك الناصر بعض الهبات، فيترفع عن ثمن ينتظر أضعافه حين يلقى الله.

هذا موقف حربي في جبهة القتال يذكرنا بموقفه من أهل جبل كسروان بالشام حين استباحوا الحرمات وحالفوا الأعداء، وتعرضوا إلى الحجاج يقتلون ويذبحون ويسلبون! فتوجه الشيخ إلى قتالهم وكتب إلى أطراف الشام، ودعا نائب المملكة إلى نصرته، وأفتى بأنهم أكفر من اليهود والنصارى، ثم ثبت للهول في محن خطيرة حتى أراح المسلمين وأمن الطريق.

أما موقفه النادر من الملك الناصر فما لا تفعله ذاكرة التاريخ بحال، لقد سعى الواشون يرجفون لدى السلطان أن شيخ الإسلام حبوب وأنه يجاهد ويغزو ليسلب الحكم، وكان في الناصر تسرع واندفاع، فبادر يدعو الشيخ ويسأله مغيظًا: لماذا تجمع حولك الناس؟

فيرد الشيخ: لنصرة الإسلام كما ترى ورأيت.

فيحدق السلطان في وجهه ثم يصرخ: بل تتوق إلى الملك وتسعى إليه في وضح النهار.

فيبتسم الشيخ متعجبًا: والله إن ملكك وملك المغول لا يساوي فلسًا لدي!

فينكسر السلطان ويبادر بالاعتذار.

لقد اعتصم الإمام بالحق فعصمه من الطغاة!!

قال ابن كثير: ثم إن الشيخ بعد وصوله إلى دمشق، واستقراره بها، لم يزل ملازمًا للاشتغال في سائر العلوم، ونشر العلم وتصنيف الكتب، وإفتاء الناس بالكلام والكتابة المطلوبة، والاجتهاد في الأحكام الشرعية، ففي بعض الأحكام يفتي بما أدى إليه اجتهاده، من موافقة أئمة المذاهب الأربعة، وفي بعضها يخالفهم أو يخالف المشهور من مذاهبهم، وله اختيارات كثيرة.

على أن شجاعته الأدبية قد دفعته إلى معارضة أقوال الأئمة من صفوة رؤساء المذاهب الذائعة في أمور كثيرة، فقد نظر الشيخ إلى ملابسات زمانه وظروف عصره ثم أتى ببعض ما يخفف العبء، ويوهن الأمر من الأحكام كفتواه بوقوع الطلاق ثلاثًا مرة واحدة فهو يراه لا يقع الطلاق به ولا تنفصم به عقد الزوجية، وله دليله الشرعي في ذلك، وكان موقفه في ذلك وما شابهه خطيرًا، لأنه يعارض أقوال صريحة أجمع عليها أبو حنيفة ومالك والشافعي وأحمد وغيرهم ممن مضى الزمن بتبجيلهم ورسوخ أقدامهم في مضمار التشريع، ولما أفتى بها وطار خبرها استنكر ذلك فقهاء المذاهب، فاجتمع به قاضي القضاة وأشار عليه بترك الإفتاء بهذه المسألة فقبل الإشارة المتضمنة نصحه، وما أن مرت الأيام به، حتى عاد إلى الفتوى بها ووجد أن عموم البلوى يدفعه إلى الجهر بها، وكانت فرصة ثمينة اهتبلها الخصوم فأثاروا الفجيج ورموه ظالمين بالفسق والمروق.

ولما علم السلطان الناصر أن شيخ الإسلام عاد إلى فتواه هذه، كتب إليه كتابًا يؤكد عليه إشارة قاضي القضاة ولكنه رحمه الله رفض هذه الإشارة، رغم تأكيدات المنع وإشارات

القضاة، عند ذاك قرر نائب السلطنة في دمشق حبسه في القلعة، وبقي محبوسًا فيها خمسة أشهر وثمانية عشر يومًا، ولما يئس الجميع من رجوعه وامتناعه، أمر السلطان الناصر بإطلاق سراحه، وخرج من السجن متمسكًا بفتواه تلك.

وبهذا انتهت محنته هذه ولكن بقيت في انتظاره محن أخرى، كانت هي الأخيرة والتي مات فيها، الفقهاء والقضاة من ذوي الشأن لم يتحملوا نقده، كما لم يطيقوا صبرًا على فتاويه، فهو يفتي بما يراه صوابًا وإن خالف من خالف من الفقهاء والعلماء، لأنه ينظر إلى الدليل الشرعي، وقول الصحابة الكرام، ويسوقه هذا النظر إلى رأي معين يعتقد بصوابه فيعلنه بجرأة، ولا يلزم الناس بما يقول من فتوى إذا ما كان قاضيًا، وإنما كان مفتيًا، يسأل السائل فيجيب، ولا يملك أي فقيه أو مجتهد مهما بلغ في العلم، أن يلزم الناس بآرائه الاجتهادية مادام الرأي معتمدًا على نص ظني الدلالة والثبوت، وهو يحمل أكثر من رأي واحد، وإنما الإلزام فيما تتبناه الدولة من آراء وأحكام، وسار الشيخ على هذا النهج، ولم يزل كذلك إلى أن ظفروا له بجواب يتعلق بمسألة شد الرحال إلى قبور الأنبياء والصالحين، وكان قد أجاب به نحو عشرين سنة فشنعوا عليه بسبب ذلك.

وكبرت القضية وورد مرسوم السلطان بجعله في القلعة محبوسًا، فأخليت له قاعة حسنة، وأجرى إليها الماء، وأقام فيها ومعه أخوه يخدمه، وأقبل في هذه المدة على العبادة والتلاوة وتصنيف الكتب، والرد على المخالفين وكتب على تفسير القرآن.

وظهر بعض ما كتبه واشتهر، وآل الأمر إلى أن منع من الكتابة والمطالعة، وأخرجوا ما عنده من الكتب ولم يتركوا له دواة ولا قلمًا، وكتب عقيب ذلك بفحم على الحائط يقول: إن إخراج الكتب من عنده من أعظم النقم.

ويحسن بنا أن نختم محنته بل محنه، بذكر بعض ما كتبه بالفحم وهي تصور نفسيته، وتبرز شخصيته، معبرة عما يجول في خاطره في تلك المحنة التي كانت عليه من أعظم النقم.

يقول رحمه الله: كل ما يقضيه الله تعالى فيه الخير والرحمة والحكمة، أن ربي لطيف لما يشاء، أنه هو القوي العزيز العليم الحكيم، ولا يدخل على أحد ضرر إلا من ذنوبه، ما أصابك من حسنة فمن الله، وما أصابك من سيئة فمن نفسك، فالعبد عليه أن يشكر الله ويحمده دائمًا على كل حال، ويستغفر من ذنوبه، فالشكر يوجب المزيد من النعم، والاستغفار يدفع النقم، ولا يقضي الله للمرء من قضاء إلا كل خيرًا له، إن أصابته سراء شكر، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له.

مكث شيخ الإسلام بسجنه هذا خمسة أشهر قاضيًا أيامه الأخيرة في التلاوة والعبادة والتهجد. فلازمه المرض عشرين يومًا، وفي أثنائها زاره وزير دمشق لعيادته فلما جلس أخذ يعتذر ويلتمس منه أن يحلله مما عساه يكون قد وقع منه في حقه من تقصير، فأجابه: إني قد أحللتك وجميع من عاداني وهو لا يعلم أني على الحق، وأحللت السلطان المعظم الملك الناصر من حبسه إياي لكونه فعل ذلك مقلدًا معذورًا ولم يفعله لحظ نفسه، وقد أحللت كل واحد ما بيني وبينه إلا من كان عدوًا لله ورسوله ﷺ.

وبهذا الصفح الجميل وبتلك النفس الصابرة انتقل إلى جوار ربه الكريم، وقد روى عنه ابن القيم وهو رفيقه في الحبس أن آخر ما تلاه من القرآن العظيم وفاضت روحه عند قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ [القمر: ٥٤-٥٥].

عدد المرات التي سجن فيها الشيخ:

سجن شيخ الإسلام: سبع مرات لمدد متفاوتة. بلغت جملتها خمس سنوات، وفي ميزان حسناته إن شاء تزيد عن الخمس مئات.

أسبابها كلها واهيات، فهي نتيجة حسد، ووشاية، وسعايات.

أما نتائجها وثمراتها فجد عجيبات، إذ العبرة بالخواتيم، حيث خلفت العديد من المآثر والمؤلفات التي أضحت حياة لصاحبها بعد الموت.



السجنة الأولى:

في دمشق عام [٦٩٣هـ]، كانت مدتها قليلة، وفائدتها كبيرة، وثمرتها جليلة؛ سببها واقعة عساف النصراني، الذي شهد عليه جماعة أنه سب النبي ﷺ، فعندما بلغ الخبرُ شيخَ الإسلام التقى بالشيخ زين الدين الفارقي شيخ دار الحديث في وقته، فرفعا أمره إلى نائب السلطان بدمشق، عز الدين أيبك الحموي، فأحضر عساف ومعه مجيره أمير آل علي، فضربهما الناس بالحجارة، فضربهما السلطان أمام عساف، ثم دعاهما وأرضاهما.

وادعى النصراني الإسلام، فقتل في طريقه إلى الحجاز، قتله ابن أخيه، ولعل ما أصابه كان انتقامًا من الله للشيخين الكريمين.

وكان من نتيجة هذه الحادثة أن ألف شيخ الإسلام سفره العظيم: «الصارم المسلول على شاتم الرسول»، الذي أصبح مرجعًا يرجع إليه الناس كلما نيل أحد من أنبياء الله ورسله.

السجنة الثانية:

كانت في القاهرة، وكانت مدتها سنة ونصف من يوم الجمعة [٢٦/ ٩] رمضان [٧٠٥هـ] إلى يوم الجمعة [٢٣/ ٣] ربيع أول [٧٠٧هـ]؛ كانت بدايتها في سجن «برج»، ثم نقل إلى الجب بقلعة الجبل.

وكان معه في هذه المرة أخواه عبد الله وعبد الرحمن، وتلميذه إبراهيم الغياني، حيث كانوا ملازمين له في سفره إلى القاهرة.

وسببها كما ذكره الحافظ ابن كثير في تاريخه «البداية والنهاية» في حوادث [٧٠٥هـ]، كان مسألة العرش، ومسألة الكلام، ومسألة النزول، وفيها من المواقف البطولية، والصدق في ذات الله ما يملأ النفس بالإيمان والجد في العمل.

عندما أخرجوا من السجن دعا أخوه عبد الله الملقب بالشرف على من تسبب في حبسه ظلمًا وعدوانًا، فمنعه شيخ الإسلام، وقال له: بل قل: اللهم هب لهم نورًا يهتدون به إلى الحق.

السجنة الثالثة:

كانت بمصر أيضًا، ولمدة قليلة، أسبوعين من [٣/ ١٠/ ٧٠٧ هـ] إلى [١٨/ ١٠/ ٧٠٧هـ]. وسببها أنه ألف كتابًا في الاستغاثة، المعروف بالرد على البكري، لهذا استعدى عليه الصوفية السلطة بالقاهرة، فكون له مجلس، فمنهم من برأه ومنهم من أدانه.

السجنة الرابعة:

بمصر كذلك، في قاعة «الترسيم»، لمدة شهرين أو تزيد، من آخر شهر شوال [٧٠٧هـ]، إلى أول سنة [٧٠٨ هـ]. وكانت تلك السجنة بسبب مؤامرة تولاها الصوفي الباطني الحلولي نصر المنبجي، مستغلًا صلته بالحاكم الجاشنكير.

السجنة الخامسة:

كانت بالإسكندرية من يوم [١/ ٣/ ٧٠٩هـ] إلى [٨/ ١٠/ ٧٠٩هـ] ، لمدة سبعة شهور، وهي بمكيدة من نصر المنبجي والجاشنكير، عليهما من الله ما يستحقانه.

لقد عزموا أن ينفوه إلى قبرص، وهدِّد بالقتل، فقيل له في ذلك، فقال مقالته المشهورة، وكلمته المشكورة: «إن قتلت كانت لي شهادة، وإن نفوني كانت لي هجرة، ولو نفوني إلى قبرص دعوتُ أهلها إلى الله فأجابوني، وإن حبسوني كان لي معبدًا، وأنا مثل الغنمة كيفما تقلبت تقلبت على صوف»، فيئسوا منه وانصرفوا.

ولكن الله يدافع عن الذين آمنوا، فما هي إلا شهور حتى رجع الملك الناصر محمد بن قلاوون [٧٠٩هـ] ، خلفًا للخائن الجاشنكير، فأفرج عن الشيخ، واستدعاه من الإسكندرية إلى القاهرة، وأكرمه، وأجله، واستفتى الشيخ في قتل المشايخ الذين كانوا سعوا به إلى الجاشنكير وأرادوا قتله بعد سجنه، ولكن الشيخ علم مراد السلطان وأنه يريد أن يتخلص منهم انتقامًا لنفسه، فشرع الشيخ في مدحهم والثناء عليهم، وقال: إن هؤلاء أفضل ما في مملكتك، فإن قتلتهم فلا تجد بديلًا عنهم؛ وقال له: أما أنا فهم في حل من جهتي.

ولهذا قال ابن مخلوف قاضي المالكية في زمانه، وكان من المحرضين عليه، بعد ذلك: ما رأينا أتقى من ابن تيمية، لم نبق ممكنًا في السعي فيه، ولما قدر علينا عفا عنا.

وبعدها نزل الشيخ القاهرة، وسكن بالقرب من مشهد الحسين، وتردد عليه الخلق على اختلاف طبقاتهم يسألونه، ويستفتونه، ويحرضونه على خصومه، وما فتئ يقول: أنا أحللت كل من آذاني، ومن آذى اللهَ ورسوله فالله ينتقم منه.

ثم عاد إلى دمشق بصحبة السلطان لملاقاة التتار سنة٧١٩هـ بعد غيبة منها دامت سبع سنين، سجن فيها أربع مرات ولمدة سنتين ونصف.

السجنة السادسة:

كانت بدمشق لمدة ستة أشهر تقريبًا بسبب الحلف بالطلاق. ولقد أثمرت هذه السجنة عن العديد من الكتب والرسائل المفيدة، والردود الحافلة على الخصوم والمعاندين، منها «الرد الكبير على من اعترض عليه في مسألة الحلف بالطلاق».

السجنة السابعة:

بدمشق لمدة عامين وثلاثة أشهر ونصف تقريبًا، من يوم الاثنين [٦/ ٨/ ٧٢٦هـ] إلى ليلة الاثنين [٢٠/ ١١/ ٧٢٨هـ]، حيث أخرجت جنازته من سجن القلعة إلى مثواه الأخير؛ وكانت بسبب مسألة الزيارة، وأنتجت «الرد على الإخنائي».

وقد فتح عليه في هذه المرة من الفتوح الربانية، والعلوم النافعة، والعبادة الخالصة، هذا بجانب العديد من الرسائل والفتاوى، على الرغم من حرمانه من كتبه وأدوات الكتابة، فكان يكتب من حفظه.

لم يزد شيخ الإسلام في مسألة الزيارة هذه إلا أن أورد قولي العلماء، قول مالك الذي ينهى أن تشد الرحال إلا للمساجد الثلاثة، للحديث الصحيح: **«لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة**

مساجد...»، وهو الراجح، والقول الثاني لبعض الشافعية والحنابلة بجواز ذلك، فما يدري الإنسان لم قامت الدنيا على ابن تيمية ولم تقم على مالك؟ ليس هناك من سبب سوى الهوى، والتعصب، والتقليد الأعمى.

اللهم اغفر لشيخ الإسلام في الأولين والآخرين، وأكرم نزله، وأعلى شأنه، وأكرم مكانه، وانفع بكتبه ومؤلفاته وآثاره وتلاميذه، الأحياء منهم والميتين، واجزه عن الإسلام وأهله خير الجزاء، يا واسع المغفرة يا مجيب الدعاء.



المصادر:
- «سير أعلام النبلاء» للذهبي.
- «علماء في وجه الطغيان» لمحمد رجب البيومي.
- «الإسلام بين العلماء والحكام» لعبد العظيم بدوي.
- موقع الدين النصيحة.

ابن حزم الأندلسي

نسبه ونشأته:

ما من عالم عامل إلا ولـه أدوات وآداب يتعـاطى بهـا العلـم طلبًـا ودرسًـا، وتـصنيفًا وتأليفًا، وإلقاءً وتنظيرًا، هذه الآداب والأدوات بمثابة الزاد والمؤونة للعالم يسير بها على طريق العلم، من غير أن يتعرض للأزمات والنوازل، وقد ألفت العديد من الكتب في هـذا البـاب، منها آداب السامع والمتعلم لابن جماعة قديمًا، وحلية طالب العلم لبكر أبي زيد حديثًا، ويـوم أن يتخلى العالم عن بعض أدواته وينسى بعض آداب طلب العلم فإنه يواجه الكثير من المحن والفتن التي كان هو في غنى عنها وعن أمثالها، وهذه واحدة من تلك الفتن والمحن التي أدت لقمع واحد من أكبر علماء الإسلام وأكثرهم تصنيفًا.

هو الإمام الكبير، المجتهد المطلق، البحر العلاّمة، ذو الفنون والمعارف، أكبر علماء الإسلام تصنيفًا وتأليفًا بعد الطبري، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي، الفارسي الأصل الفقيه الظاهري الصلد، ومجدد القول به، بل محيي المذهب بعد زواله في الشرق، والمـتكلم الأديب والوزير السياسي، والناقد المحلل، وأكبر علماء الأندلس على الإطلاق.

وُلد ابن حزم في سلخ رمضان سنة ٣٨٤هـ في بيت عز وثراء ووجاهـة ورياسـة، فقـد كان أبوه أحمد بن حزم من وزراء الحاجب المنصور بن أبي عامر أعظم حكام الأندلس، فارتاح باله من كد العيش والسعي وراء الرزق.

نشأ الغلام في قصر أبيه نشأة كريمة، فقد كان أبوه وزيـرًا في الدولـة العامريـة، وتعلـم القرآن الكريم، والحديث النبوي، والشعر العربي، وفنون الخط والكتابة، وتمر الأيـام ويكـبر الغلام، فيجعله أبوه في صحبة رجل صالح يشرف عليه، ويشغل وقت فراغـه، ويـصحبه إلى

مجالس العلماء. . إنه: (علي بن أحمد بن سعيد الأندلسي) الشهير بابن حزم الأندلسي.

كانت أسرته لها مكانة مرموقة وعراقة في النسب، فـ(بنو حزم) كانوا من أهل العلم والأدب، ومن ذوي المجد والحسب، تولى أكثر من واحد منهم الوزارة، ونالوا بقرطبة جاهًا عريضًا.

وكان (أحمد بن سعيد) والد (ابن حزم) من عقلاء الرجال، الذين نالوا حظًّا وافرًا من الثقافة والعلم، ولذلك كان يعجب ممن يلحن في الكلام، ويقول: (إني لأعجب ممن يلحن في مخاطبة أو يجيء بلفظة قلقة في مكاتبة، لأنه ينبغي له إذا شك في شيء أن يتركه، ويطلب غيره، فالكلام أوسع من هذا.

(وكانت هذه الثقافة الواسعة، والشخصية المتزنة العاقلة هي التي أهلت والد ابن حزم لتولي منصب الوزارة للحاجب المنصور بن أبي عامر في أواخر خلافة بني أمية في الأندلس، وفي القصر عاش ابن حزم عيشة هادئة رغدة، ونشأ نشأة مترفة، تحوط بها النعمة، وتلازمها الراحة والترف، فلا ضيق في رزق ولا حاجة إلى مال، وحوله الجواري الحسان ورغم هذه المغريات عاش ابن حزم عفيفًا لم يقرب معصية. . يقول في ذلك: (يعلم الله وكفي به عليمًا، أني بريء الساحة، سليم الإدام (أي: آكل حلالًا) صحيح البشرة، نقي الحجزة، وأني أقسم بالله أجل الأقسام، أني ما حللت مئزري على فرج حرام قط، ولا يحاسبني ربي بكبيرة الزنى منذ عقلت إلى يومي هذا.

وتغيرت الأحوال؛ فقد مات الخليفة، وجاء خليفة آخر، فانتقل ابن حزم مع والده إلى غرب قرطبة بعيدًا عن الفتنة، ومن يومها والمحن تلاحق ابن حزم، فالحياة لا تستقرُّ على حال، فقد كشرت له عن أنيابها، وأذاقته من مرارة كأسها، بعدما كانت له نعم الصديق، واضطر(ابن حزم)إلى الخروج من قرطبة إلى (الـمَرِيَّة) سنة ٤٠٤هـ وبعدها عاش في ترحال مستمر بسبب السياسة واضطهاد الحكام له، وكان ابن حزم واسع الاطلاع، يقرأ الكثير من الكتب في كافة المجالات، ساعده على ذلك ازدهار مكتبات قرطبة بالكتب المتنوعة، واهتمام

أهل الأندلس بالعلوم والآداب، واشتهر ابن حزم بعلمه الغزير، وثقافته الواسعة، فكان بحق موسوعة علمية أحاطت بالكثير من المعارف التي كانت في عصره في تمكن وإحاطة.

قال عنه أحد العلماء (أبو عبد الله الحميدي): كان ابن حزم حافظًا للحديث وفقهه، مستنبطًا للأحكام من الكتاب والسنة، متفننًا في علوم جمَّة عاملًا بعلمه، ما رأينا مثله فيما اجتمع له من الذكاء، وسرعة الحفظ، وكرم النفس والتدين.

تفرغ لتحصيل العلوم والفنون، وقد رزقه الله عَزَّ وَجَلَّ ذكاءً مفرطًا وذهنًا سيالًا وقد ورث عن أبيه مكتبة ذاخرة بالنفائس، وقد اشتغل في شبابه بالوزارة في عهد «المظفر بن المنصور العامري» ثم ما لبث أن أعرض عن الرياسة وتفرغ للعلم وتحصيله، وكان في بادئ أمره شافعيًا يناظر عن مذهبه، ثم قاده اجتهاده إلى التحول إلى المذهب الظاهري، فنفى القياس نفيًا كليًا وحرَّم التقليد وأوجب الاجتهاد والعمل بظاهر النصوص، ورغم أنه كان ظاهريًا في الفروع إلا إنه تخبط بشدة في باب الأصول، وأوَّل الصفات تأويلًا كبيرًا، وخرج عن الحق في كثير من مسائل الأسماء والصفات، والسبب في ذلك دراسته للمنطق وعلم الكلام والفلسفة في مقتبل حياته، ففسد بذلك حاله في باب الصفات، وضر مكانته العلمية.

وبعد أن بلغ ابن حزم رتبة الاجتهاد في الأحكام الشرعية، طالب بضرورة الأخذ بظاهر النصوص في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، وكان ابن حزم متنوع الكتابات، كتب في علوم القرآن والحديث، والفقه والأديان، والرد على اليهود والنصارى، والمنطق. . وغيرها من العلوم، قال عنه أحد المؤرخين: كان ابن حزم أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام، وأوسعهم معرفة مع توسعه في علم اللسان (أي علوم اللغة) وزيادة حظه من البلاغة والشعر والمعرفة بالسير والأخبار. . وقد بلغ ما كتبه ابن حزم أربعمائة مجلد، تشتمل على ثمانين ألف ورقة تقريبًا، كما قال ابنه الفضل. . يقول عنه الإمام (أبو حامد الغزالي): وجدت في أسماء الله تعالى كتابًا ألفه (ابن حزم الأندلسي) يدل على عظيم حفظه وسيلان ذهنه.

محنته:

ذهب معظم المؤرخين الذين أرخوا لحياة الإمام ابن حزم الظاهري، أن السبب الرئيسي للمحن المتتالية التي أصابته هو حدة لسانه وقلمه، وأنه لم يتأدب مع الأئمة في الخطب، وكان إذا عارضه أحد في مسألة صار كالبحر المغرق والجحيم المحرق، فنفرت منه النفوس، واستحكمت عداوته في القلوب، فألبوا عليه الناس، ومنعوا طلبة العلم من الجلوس إليه، وطورد وشرد عن دياره، وأحرقت كتبه في محضر عام بإشبيلية وقرطبة، وعاش منفيًا قرابة العشرين سنة حتى مات رحمه الله.

ولكن عند التحقيق التاريخي والتوثيق البحثي للمحن التي تعرض لها الإمام ابن حزم الظاهري نكتشف أن أسباب محنته أكبر وأبعد من شدته النقدية وحدته وسلاطة لسانه، بل نستطيع أن نقول بكل اقتناع: إن حدة لسانه وقلمه ما هي إلا عارض للأسباب الرئيسية التي كانت وراء المحن التي تعرض لها في حياته.

ومن ضمن الأسباب الرئيسة والمهمة لمحنة الإمام ابن حزم الظاهري، الظروف والأوضاع السياسية المحيطة بدولة الإسلام في الأندلس، فلقد وُلد ابن حزم أيام الحاجب المنصور والذي كان يحكم بمسمى الدولة الأموية ـ أحفاد عبد الرحمن الداخل ـ ولما شب ابن حزم وقعت أحداث الفتنة بقرطبة والأهوال التي عانتها دولة الإسلام لفترة طويلة هناك، ورأى ابن حزم ذلك رأي العين، فتجول حينًا في ألمرية وبلنسية في كنف الفتيان العامريين ـ وهم موالي الحاجب المنصور ـ وكان مثلهم من أتباع الخلافة الأموية، ثم قامت دولة ملوك الطوائف وانقسمت دولة الخلافة الأموية إلى أكثر من عشرين مملكة، على رأس كل واحدة منها متغلب ومستقو بعشيرة أو بعصبية أو بنفوذ وجاه، وأغلبهم لا دين له ولا أخلاق، وفي خضم تلك الأحداث المضطربة عاش ابن حزم ورأى انحلال خلافة وقيام طوائف، وشهد الكثير من أحوال ذلك العصر وتقلباته ورأى أيضًا تصرفات ملوك الطوائف ومثالبهم

وبغيهم ومجونهم وانحلالهم، فهزت هذه التقلبات مشاعر ابن حزم إلى الأعماق، فأطلق لقلمه العنان يؤرخ لتلك الفترة العصيبة من حياة دولة الإسلام في الأندلس، وحمل على ملوك الطوائف بعنف وبعباراته اللاذعة على استهتارهم بالدين والعقيدة حتى قال عنهم في كتابه الشهير «نقط العروس» قال: [والله لو علموا أن في عبادة الصلبان تمشية أمورهم لبادروا إليها، فنحن نراهم يستمدون النصارى، فيمكنونهم من حُرَم المسلمين وأبنائهم ورجالهم، يحملونهم أسارى إلى بلادهم، وربما أعطوهم المدن والقلاع طوعًا فأخلوها من الإسلام وعمروها بالنواقيس.

لذلك كره ملوك الطوائف ابن حزم، وحرصوا على إبعاده عن أراضيهم، ونفيه من مكان لآخر، فلقد كانوا يخافون من آرائه النقدية وحملاته الفكرية على فضائحهم وجرائمهم، ولربما أحرقوا كتبه بمحضر عام من الناس، كما فعل ذلك طاغية إشبيلية المعتضد بن عباد،

وفي ذلك قال ابن حزم:

فإن تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الذي تضمنه القرطاس بل هو في صدري يسير

معي حيث استقلت ركائبي وينزل إن أنزل ويدفن في قبري

ثم حرضوا العوام عليه، ومنعوا الطلبة من الجلوس إليه، فقضى الإمام آخر عشرين سنة في حياته منفيًا في مسقط رأس أسرته في قرية منت ليشم من أعمال لبلة في غرب الأندلس، ولكنه استفاد من تلك المحنة وتفرغ بالكلية في التأليف والتصنيف، فأخرج دررًا وكنوزًا رائعة في شتى الفنون، وحول الإمام محنته ومنفاه إلى قلعة علمية للكتابة والتأليف، ليخرج بعد ذلك علمه للعالم بأسره ينتفع به الناس على مر العصور حتى الآن وإلى أن يشاء الله عز وجل.

وعاش هذا الفقيه في محراب العلم، يتصدى للظلم والجهل، ويجاهد مع ذلك هوى

نفسه، وبعد حياة حافلة بالكفاح والعلم والصبر على الإيذاء، لقي ابن حزم ربه في الثامن والعشرين من شعبان سنة ٤٥٦ هـ عن عمر يقارب إحدى وسبعين سنة، ويقف (أبو يوسف يعقوب المنصور) ثالث خلفاء دولة الموحدين أمام قبره خاشعًا ولم يتمالك نفسه، فيقول: كل الناس عيال على ابن حزم.



المصادر:
- «سير أعلام النبلاء» للذهبي.
- «وفيات الأعيان» لابن خلكان
- «البداية والنهاية» لابن كثير.
- «طبقات الحفاظ».

الإمام/ ابن دقيق العيد

الحق أن العصر المملوكي حافل بأئمة الدين وأعلام الشريعة ممن ملئوا المكتبة الإسلامية بذخائرهم العلمية وآثارهم الدينية، فوق ما ضربوه من المثل الرائع من الزود عن الحق والدعوة إلى الطريقة المثلى في الحياة.

وإن الدهشة لتأخذك حين تجد كثيرًا من المؤرخين والمؤلفين يغمطون هذا العهد حقه، فيزعمون أنه عصر تخلف وانحطاط، وأدب مصنوع، أما الإنتاج العلمي فلا نعلم عصرًا حفل بالموسوعات الرائعة والمجلدات المتنوعة في شتى ضروب الثقافة الإسلامية من فقه وتفسير وتاريخ وحديث وتراجم أعلام كهذا العصر المديد! وقد يقال إنه تأليف تقليدي في أكثره ومجال الابتكار فيه ضئيل محدود، ولكنه مع ذلك صان الثقافة العلمية ومنع فيضانها الزاخر من التبدد في فلوات شاسعة، إذ شق له المجرى الطبيعي وأقام الشواطئ والجسور!! ولك أن تنظر إلى كتب الطبقات والتراجم لترى لكل عالم من التآليف المتزاحمة ما يدفع إلى الثناء!!

وهاهو ذا ابن دقيق العيد قد أسهم في أكثر ضروب المعرفة تأليفًا وتدريسًا! وقد فاق أكثر زملائه بأسلوبه الأدبي واهتمامه بالروح البياني، مع تعمقه الفقهي، ورسوخه العلمي، إلى حد أنه تفوق في دراسة مذهبين من مذاهب الفقه هما مذهبا مالك والشافعي، ولم يشأ أن يقتصر على وجه واحد، بل قارن وعلل ورجح، وهذا مثل واحد لنبوغه في فرع واحد من فروع العلوم، فكيف إذا قرأت ديوان خطبه المنبرية، وشاهدت من جزالة العبارة، ونصاعة البيان، ما يستغرب وجوده لعالم راسخ من علماء هذا العصر، هذا إلى هيامه بالشعر، لا على طريقة العلماء ممن يتكلفون البيت والبيتين والثلاثة، بل على منهج الشعراء ممن يسعون للجودة والإفصاح وإن عالمًا يجمع هذه المزايا لجليل رفيع!.

أما جرأته في الحق فقد شاكلت جرأة أنداده من الأئمة الأفذاذ، وقد تعددت مواقفه الباسلة، فراعت وأدهشت، وكان لها أثرها البارز في الإصلاح والتوجيه، لأن ابن دقيق العيد كان من المهابة والإجلال بحيث يستمع الملوك والأمراء إلى منطقه مكرهين أو طائعين، فإن منصب قاضي القضاة مثلًا يعتبر أخطر المناصب الدينية في دولة تحكم بالكتاب والسنة، ومع تهافت الكثيرين على تبوئه المشرف، فقد اعتذر عنه الشيخ آبيًا، ولكن الإلحاح المتزايد قد اضطره إلى القبول بعد أن اشترط على ذوي الأمر شروطًا تحفظ للقضاء كلمته النافذة، وسطوته الغالبة دون تعويق.

تبوأ الإمام الورع مكانه القضائي، وأصبحت له الهيمنة التامة على جميع قضاة الأقاليم، فرأى بإدراكه النافذ أن أمراء المماليك وخاصتهم يبذلون وساطاتهم المتوالية الملحة لدى القضاة لتأتي الأحكام كما يشتهون، وعرف أن في بعض ذوي النفوس المترددة من يخضع إلى إرهاب أمير أو بطش مملوك فيوافقه على هواه في مجلس القضاء، فرأى أن يحسم الموقف حسمًا لا لبس فيه، فأرسل منشورًا عامًا من تأليفه وبتوقيعه، يدعو الجميع إلى التزام نصوص الشرع، واطراح ما يؤثر على تنفيذها من الوساطات والمحسوبيات، وشدد من النكير على من تضعف نفسه أمام شهوات الحكام، وخوف بعذاب الله، وجزاء الآخرة، وكان منشوره القضائي مع سمو هدفه، وروائع توجيهه، قطعة فنية، تجمع الصياغة المشرقة والاقتباس البارع، وتشهد لفن صاحبها بالإبداع والتأثير، ونحن ننقل منه ما يكشف عن هدفه الخلقي، ليعطي الفكرة الصائبة عن ابن دقيق. قال:

«بسم الله الرحمن الرحيم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، هذه المكاتبة لمن وفقه الله لقبول النصيحة، وآتاه لما يقربه قصدًا صالحًا ودنيا صحيحة، أصدرنا إليه بعد حمد الله الذي يعلم خائنة الأعين، وما تخفي الصدور، وبمهل حتى يلتمس الإمهال

بالإهمال على المغرور، تذكرة بأمر ربك، فإن يومًا عند ربك كألف سنة مما تعدون، فنحذره صفقة من باع الآخرة بالدنيا، فما أحد سوه بمغبون، عسى الله أن يرشده بهذا التذكار وينفعه، وتأخذ هذه النصائح بحجزته عن النار، فإني أخاف أن يتردى فيها فيجر من ولاه والعياذ بالله معه، والمقتضى لإرسالها ما لمحناه من الغفلة المستحكمة على القلوب، ومن تقاعد الهمم على ما يجب للرب على المربوب، ولاسيما القضاة الذين يحملون عبء الأمانة على كواهل ضعيفة، وظهروا بصور كبار وهي نحيفة، والله إن الأمر لعظيم، وإن الخطب لجسيم، ولا أرى مع ذلك أمنًا ولا قرارًا ولا راحة، فاتق الله الذي يراك حين تقوم، وأقصر أملك عليه، فالمحروم من أمله غير مرحوم، وما أنا وأنتم أيها النفر إلا كما قال حبيب العجمي وقال قال قائل: ليتنا لم نخلق، فقال: إذا وقعتم فاحتالوا».

وقد شاء الله لهذا الناصح المحذر أن يكون موضع الاختبار لدى مسألة دقيقة يتطلب إحقاق الحق بها مزيدًا من الشجاعة الأدبية والعظمة النفسية، وكان ابن دقيق العيد بإزائها عند حسن ظن العلماء الأماثل به، فجلى مبرزًا مع العدل، وقمع الباطل بإنصافه، فهان واستكان.

لقد كان الملك المنصور حسام الدين لاجين سلطان مصر، وقد أعطى مملوكه الأمير منكوتمر سلطة واسعة، إذ جعله نائب السلطنة، وأخذ يرشحه للقيام بالأمر من بعده، فأخذ الأمير ينكل بأعدائه، ويبعث من الرهبة في النفوس والفزع في القلوب، ما ملأ الصدور حفيظة عليه، وضيقًا به، ومقتًا له، وكانت له رغبة في المال تتكاثر في نفسه بتكاثر ما يجمع ويغصب، ولا يعرف من القناعة ما يرده عن السلب والنهب، لأنه في عصر يصير به المالك للمال مستطيعًا أن يبذل الكثير في تأييد سلطانه، وجمع الناس حوله، وشراء الأمراء والقواد بالهدايا والذخائر ليكونوا في موكبه، إن تم الأمر له، وأصبح - بعد وفاة السلطان يد البلاد، وكان ابن دقيق يعلم ذلك لشره البالغ في نفسه، فيأخذ السبيل على أطماعه ما استطاع، وقد

قدر الأمير الماكر مكانة قاضي القضاة، وخشي أن يصطدم به فيتعرض إلى سخط العامة والخاصة تعرضًا يهدم ما بينه من الاصطناع والتودد للناس، إلا أن حبه الأعمى للمال دفعه ذات مرة إلى مواجهته راجيًا أن يتساهل الشيخ بعض التساهل فيتيح للأمير أن يسلب ما يريد.

وخلاصة القصة: أن تاجرًا كبيرًا من التجار قد مات وترك وراءه ثروة هائلة، فرأى منكوتمر أن يدعي أن له أخًا سماه وعناه، وتقدم به إلى القاضي ليأخذ الميراث، فإذا تم ذلك فإن الأمير يستطيع أن يستولى عليه من الأخ المزعوم لقاء هبة محدودة، ولكن مواجهة ابن دقيق بذلك ليست من السهولة الهينة في اعتقاد الأمير، فرأى أن يحتال لذلك، واختار أحد كبار خاصة الأمير كرت ووفده إلى قاضي القضاة، فاستأذن مستخذيًا وسلم، فقام له القاضي نصف قومة ورد عليه السلام وأجلسه، فأخذ يتلطف في الحديث متوسلًا إلى إثبات إخوة التاجر بشهادة الأمير منكوتمر نائب السلطنة والمرشح الأول لولاية عهد السلطنة، ولكن ابن دقيق – نضر الله وجهه- ينظر إلى الأمير كرد مستخفيًا وهو يقول: وماذا ينبني على شهادة منكوتمر؟ فيحمر وجه الرسول ويقول: هو عندنا وعندكم عدل يا مولاي. فيصيح الشيخ: سبحان الله، سبحان الله، ثم أنشد:

يَقولُونَ هَذا عِندنا غَيرَ جَائزٍ ... وَمَنْ أنتمُو حَتَّى يَكونَ لَكُم عَندَ

وكرر البيت ثلاث مرات ثم قال: والله متى لم تقم عندي بينة شرعية تثبت أخوة الرجل بغير شهادة منكوتمر فلن أثبتها بحال.

ورجع الأمير كرت نفسه، فثار عليه ضميره، وصاح من فوره في مجلس الشيخ: لا إله إلا الله هذا هو الإسلام!!

مضت أيام وجاء لابن دقيق العيد من يخبره أن الأمير منكوتمر يريد الاجتماع به، فصاح في وجهه: قل له إن طاعتك ليست واجبة علي!!

ثم التفت إلى من حوله من القضاة وقال: أشهدكم إني عزلت نفسي باسم الله، قولوا له يول غيري..

قال المقريزي في السلوك: وعاد الشيخ إلى داره وأغلق بابه، وبعث نقباءه في مصر إلى نواب القضاة يمنعهم من الحكم وتوثيق الأنكحة، فقبلوا طائعين.

وقامت الضجة في البلاد، فقد عزل شيخ العلماء وقاضي القضاة نفسه من مباشرة أمور الناس، وأرسل إلى نوابه فامتنعوا عن مجالس القضاة وعقد وثائق الزواج، ووصلت الضجة إلى الملك المنصور، فهاج واضطرب وجعل يعنف منكوتمر على نزقه وتسرعه، ثم أرسل إلى ابن دقيق يستدعيه، فاعتذر، ولم ييأس السلطان، فواصل السعي وأرسل طوائف العلماء والوجهاء إلى الشيخ يستعطفونه ويرجونه في مقابلة السلطان، وله أن يتمسك برأيه كما يشاء.

وبعد أيام ذهب الإمام الورع الأشم، فقابل الملك المنصور، فتلقاه بحفاوة وفرحة، وعزم عليه أن يجلس معه على كرسي واحد، فبسط الشيخ منديله، وكان خرقة من الكتان، فوق الحرير الموشى بالذهب على الكراسي، ثم جلس في اعتداد، فجعل السلطان يتلطف إليه ويتذلل، ويرجوه أن يعود إلى منصبه القضائي ويحكم بما شاء! فقبل بعد جماح. وانتهز السلطان فرصة قبوله، فقال في توسل: يا سيدي، هذا ولدك منكوتمر فادع له الله.

فنظر ابن دقيق إلى منكوتمر وكان جالسًا بين الحاضرين في حال من الخجل تدعو إلى الرثاء، ثم قال: منكوتمر لا يصلح لن يجيء منه شيء.

ثم قام لوجهه، وترك منديله على الكرسي، فتناول السلطان خرقته البالية وأخذ يمسح بها وجهه متبركًا، ثم تزاحم عليها الأمراء، فجعل الملك المنصور يقطعها قطعًا، ويعطي لكل أمير مزقة يسيرة يلتمس بها البركة.

قال الراوي: فمن رأى تهافت السلطان على منديل الشيخ، وتزاحم الأمراء على خرقته البالية، رأى جلال العلم وعظمة العدل وروعة الإيمان.

العلامة/ محمد بن سيرين

في موقعة النهروان وفي منطقة جرجرايا وهي بين الكوفة وبغداد سُبي سيرين، وتملكه أنس بن مالك رضي الله عنه خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأصبح من مواليه وأخلص خدمته لسيده أنس بن مالك، ثم كاتبه أنس على ألوف من المال فوفاها له، وبكرم الصحابي أنس أصبح سيرين حرًا طليقًا، وعمل نحاسًا وقد كان ماهرًا في هذه المهنة فدرت عليه قدرًا وفيرًا من المال، وقد وقع اختياره على مولاة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وصفيه وتقدم لخطوبتها وكان للموالي ممن أسلموا مكانة خاصة عند خليفة المسلمين أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فقد كانت صفية بمكانة في نفسه تشابه مكانة أسماء وعائشة بناته الحرائر رضي الله عنهن.

ولما تقدم سيرين للزواج من مولاته صفية ذهب أبو بكر الصديق رضي الله عنه، إلى أنس بن مالك رضي الله عنه وسأله عن أحوال الرجل لأنه أعرف به من غيره فقال أنس بن مالك: زوجها منه يا خليفة المسلمين، ولا تخش عليها بأسًا فإن سيرين صحيح الدين، رجل كامل الرجولة والنخوة، معروف بخُلقه الطيب، فقد عرفته منذ أن سباه خالد بن الواليد ونحن في جرجرايا في موقعة عين التمر، وقد كان ضمن أربعين غلامًا، جيئ بهم إلى المدينة، فكان سيرين من نصيبي أدبته وعلمته أحسن علم.

عند ذلك وافق أبي بكر على هذا الزواج المبارك وتزوج سيرين مولى أنس بن مالك رضي الله عنه من صفية مولاة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وقد أثمر هذا الزواج المبارك ثمرة طيبة مباركة عندما رزق الزوجان بغلام أصبح له شأن فيما بعد هذا الغلام هو محمد بن سيرين الذي ولد لسنتين بقيا من خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه.

ونشأ ابن سيرين في بيت طاهر في المدينة، وقد شغف بمجالس العلم التي كان يحضرها في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فسمع وتعلم من الصحابة الكرام رضوان الله عليهم،

منهم زيد بن ثابت الأنصاري، وأنس بن مالك، وعمران بن الحصين، وأبو هريرة، وعبد الله ابن الزبير، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر، وتعلم من هؤلاء كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

وبعد سنوات قلائل ترعرع الفتى وأصبح يافعًا يملؤه الحماس إلى العلم والتعلم فانتقل إلى البصرة مع أسرته، وقد كانت البصرة يومئذٍ مدينة إسلامية ناشئة، أصبحت مركزًا علميًا وعسكريًا للمسلمين تستقبل الوافدين إلى دين الله أفواجًا من البلاد المفتوحة من بلاد الفرس والعراق.

وبدأ ابن سيرين يواصل مسيرته العلمية في البصرة حيث مسجدها الزاخر بالعلماء والشيوخ من أعلام المسلمين فأصبح يتعلم منهم حتى غدا عالمًا له شأن عظيم.

ومن المسجد والعلم والعبادة والخشوع، والانكباب على كتاب الله الكريم إلى السعي في مناكبها للنيل من رزقها، فقد عمل ابن سيرين بالتجارة ليكسب عيشه، ويكفي نفسه وأهله حاجة يحتاجها من الناس فكان عابدًا صوامًا قوامًا، وتاجرًا أمينًا يشهد لأمانته من عاصروه وعاشوا عصر تجارته وورعه وخشيته.

كان ابن سيرين أفطن علماء البصرة، حسن العلم بالفرائض والقضاء والحساب، وقد قال أحد معاصريه مقارنًا إياه بعلماء المسلمين في الأمصار: ثلاثة لم تر عيناي مثلهم: ابن سيرين بالعراق، والقاسم بن محمد بالحجاز، ورجاء بن حيوة بالشام، كأنهم التقوا فتواصوا.

ولم يكن أحد بالبصرة أعلم بالقضاء منه، رضوان الله عليه فقد كان يطوف السوق لتجارته ويلتقي بالناس فيبصرهم بأمور دنياهم ويذكرهم بآخرتهم.

وكان رجلًا طريفًا يمزح ويضحك في وقار يحافظ عليه ويحفظه في نفسه، فكان يخفف عن الناس الحين والحين همهم بطرفة تنفرج لها الأسارير، وتطول بها الابتسامة حتى تكشف عن النواجذ.

ومن هذا أصبح محبوبًا للناس، مقبولًا لديهم، كلما مر بهم جال في خاطرهم معنى الخشوع، وأطيب الحديث، فذكروا الله، ورحبوا به مهللين مكبرين.

كان رجلًا دقيقًا في حديثه وفي روايته، يقيد الحديث على حروفه وقد وصف ابن سيرين بأنه كان فقيهًا، عالمًا، ورعًا، أديبًا، كثير الحديث صدوقًا، شهد له أهل العلم والفضل بذلك.

وكان ابن سيرين يقول دائمًا: إن هذا العلم دين، فانظروا عمن تأخذون دينكم.

وذات مرة سئل ابن سيرين عن فتيا فأحسن الإجابة عليها، فقال له رجل ممن حضروا إجابته على هذه المسألة: والله يا أبا بكر لأحسنت الفتيا، فأعرض عنه ابن سيرين.

ثم أضاف الرجل: ما كانت الصحابة لتحسن أكثر من هذا.

فقال ابن سيرين: لو أردنا فقههم لما أدركته عقولنا.

كان دقيقًا في الرواية والفتيا فطنًا في اختبار لفظه في الفتيا، فقد جاءه رجل ذات يوم كان قد أفتاه في مسألة جاءه يقول ألم تقل فيه: ليس به بأس.

فقال ابن سيرين: لا إني لم أقل لك ليس به بأس، إنما قلت لك لا أعلم به بأسًا.

نجد هنا الفقهاء وحرصهم من محاذير الانطلاق من اختيار الألفاظ فكلمة ليس به بأس، حكم قاطع ليس فيه تعزير إذا كان خاطئًا، أما كلمة لا أعلم به بأسًا، قد دخلت تحت نطاق لا أدري وهي مصطلح فقهي معروف [من قال لا أدري فقد أفتى].

هكذا كان ابن سيرين دقيقًا في اختبار لفظه كما كان دقيقًا في روايته وتحديثه فقد كان يأخذ الرواية بالحروف، في حين أن بعض المحدثين كانوا يأخذونها بالمعنى والمضمون، وكان: دائم القول: إذا أراد الله تعالى بعبد خيرًا جعل له واعظًا من قلبه يأمره وينهاه.

كان ابن سيرين يرجح الأثر على فقه الرأي، مُقلًا عن الرأي، على خلاف فقهاء العراق في البصرة والكوفة، فكما ذكرنا آنفًا أنه يأتي الحديث بحروفه سعيًا للدقة في الرواية، وهاهو

يرفض الرأي في مسألة عرضت عليه، فيقول رجل من معاصريه في ذلك: كنت عند ابن سيرين فدخل عليه رجل فقال: يا أبا بكر ما تقول في كذا وكذا؟ قال: ما أحفظ فيها شيئًا.

فقال أحد من حوله في المجلس: قل فيها برأيك.

فقال ابن سيرين: أقول فيها برأيي ثم أرجع عن ذلك الرأي لا والله.

وحتى لو عرض عليه أمر فيه رأي فكان لابد أن يستوثق منه حتى قيل في ذلك: إنه رحمه الله لم يعرض له أمران في دينه إلا أخذ بأوثقهما.

وقد تميز ابن سيرين بجرأة في الحق لا يحيد عنها، ولم يهب سلطانًا في يوم من الأيام، ولقد عاش الرجل في زمن ولاة بني أمية وكان له مواقف مشهورة معهم تحرك فيها لسانه بكلمة الحق وليس بغيرها وأخلص لله النصح.

ومن هذه المواقف عندما بعث إليه عمر بن هبيرة الفزاري والي بني أمية على العراق -ردحًا من الزمن- لزيارته فلبى دعوته واصطحب ابن أخيه معه، فلما وصل قصر الوالي رحب به، وأكرم مجلسه، وسأله في شؤون الدين، وأمور الدنيا، فأجابة كما يعلم وأحسن الإجابة.

ثم سأله الوالي: كيف تركت أهل مصرك يا أبا بكر؟

فقال ابن سيرين: تركتهم والظلم فيهم فاش وأنت عنهم لاه.

فنبهه ابن أخيه خوفًا من غضب ابن هبيرة الفزاري، فنظر إلى ابن أخيه قائلًا: إنك لست الذي تُسأل عنهم وإنما أنا الذي أُسأل، وإنها لشهادة ثم قال الآية: ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ [البقرة: ٢٨٣].

ولما انفض مجلس عمر بن هبيرة الفزاري وجد من يتبعه إلى خارج القصر وقد حمل كيسًا فيه ثلاثة آلاف دينار، وقد قدمها له هدية من ابن هبيرة فردها عليه ورفض أن يأخذها، فعارضه ابن أخيه في رفضها، فقال له ابن سيرين: يا ابن أخي إنما أعطاني لخير ظنه بي، فإن

كنت من أهل الخير كما ظنه، فما ينبغي لي أن أقبل، وإن لم أكن كما ظن فأحرى بي ألا أستبيح قبول ذلك منه.

هكذا كان ابن سيرين عالمًا خاشعًا لا يطمع في مال ولا يخشى سلطانًا أو جاهًا، فعندما قال عن البلاد التي يعيش فيها: إن الظلم قد تفشى وانتشر فيها، بينما أنت [يقصد الوالي] لاه عنها ومشغول بملذاتك عما فيها من ظلم، كان يرى شيئًا واحدًا فقط وليس سواه، كان يرى أنها شهادة يُسأل عنها فكره أن يكتمها، وكيف يكتم شيخ ورع كهذا، ما كان في البصرة أفقر منه ولا أروع منه كيف يكتم شهادة، وقد كان يدخل سوق البصرة في منتصف النهار يكبر ويسبح ويذكر الله تعالى، فقال له رجل عندما رآه وسمعه: يا أبا بكر في هذه الساعة؟ أي حتى في السوق!! فأجابه ابن سيرين قائلًا: إنها ساعة غفلة.

حقًا لقد صدق ابن سيرين إنها ساعة غفلة.

كان تاجرًا صدوقًا أمينًا، من صدقه وأمانته أُمتحن، تعرض لامتحان ما يعرض عليه إلا مؤمن تقي مثله، فقد كان: يبعد الرديء من ماله مخافة أن يبعه للناس.

ومن المواقف التي عُرضته للتعب والمشقة. أنه اشترى ذات يوم زيتًا بمبلغ كبير بأربعين ألفًا مؤجلة [أي مؤخرة الثمن لحين البيع] فلما فحص زيته وجد فيه شيئًا يكرهه هو، ويعيب الزيت ويفسده، فحدث في نفسه أن كل الزيت فاسد، فإن رددته للبائع ربما باعه للناس وأكون قد أثمت لعلمي بفساده، فجعل يريق الزيت في الأرض، وأصبح الدين أربعين ألفًا في عنقه [وقد حل سداده] فلم يستطيع فقاضاه صاحب الزيت إلى الوالي، فأمر الوالي أن يسدد أو يدخل السجن، فدخل السجن.

هكذا يضرب ابن سيرين أروع الأمثلة في الأمانة والصدق وحسن الخلق حتى وهو في سجنه، حيث إنه لما حبس في دينه، وهو من هو في زهده وورعه وعلمه، وكانت شهرته قد طبقت الآفاق وعرفه الناس وعلموا فضله ومكانته، فقد تعاطف معه سجانه، وأبت عليه

مروءته أن يبات هذا العالم الجليل في جنبات السجن، وأن يقضي ليله خلف القضبان كالمجرمين، فقال له: «إذا كان الليل فاذهب إلى أهلك، وإذا أصبحت فتعال»، فما كان من ذلك العالم القدوة إلا أن أجابه بثقة وإيمان: «لا والله لا أعينك على خيانة السلطان».

ومن سنوات سجنه احتضر أنس بن مالك رضي الله عنه، وكان له في قلبه مكان لصحبته وأبيه منذ وصولهم من جرجرايا إلى المدينة، فأوصى أنس وهو يحتضر أن يغسله محمد بن سيرين ويصلي عليه.

فلما مات أنس جاء لابن هبيرة الفزاري من يبلغه وصية أنس بن مالك فأذن الوالي لهم وقصدوا السجن لابن سيرين فلما بلغوه وأخبروه أمر الوالي قال لهم: لا أخرج. . فجاء الناس في أمره وقالوا: يا رجل ولِمَ؟

فقال ابن سيرين: لا أخرج حتى تستأذنوا صاحب الدين فإنما حبست بما له عليَّ من الحق.

فذهبوا للدائن فأذن له، عند ذلك خرج من السجن، فغسل أنسًا وكفنه وصلى عليه تنفيذًا لوصيته، وعاد إلى السجن كما هو ولم يعرج على بيته ليرى أهله.

في حياته الخاصة:

كان ابن سيرين مثالا صادقًا للمسلم الحق وللخلق الرفيع، وكانت حياته حافلة بالصور الرائعة للأمانة والزهد والبر والتواضع، يقدم في حياته وسلوكه القدوة والنموذج للداعية الواعي، والعابد المخلص والصديق الناصح والابن البار والعالم المجتهد والتاجر الأمين.

لقد كان بارًا بأمه شديد اللين والتواضع لها، يخفض لها جناح الذل والرحمة حتى لا يُسمع له صوت بحضرتها ولا يكلمها إلا عن ضعف وخضوع، حتى قال عنه بعض آل سيرين: «ما رأيت محمد بن سيرين يكلم أمه إلا وهو يتضرع».

تغلب ابن سيرين على محنته بالصبر والإيمان والتسليم بقضاء الله، فحينما ركبه الـدين لم يقنط ولم ييئس، وإنما كان صابرًا شاكرًا، ووجد في الزهد الدواء لكـل داء، ووجـد في الـذكر والدعاء البرء والشفاء، فخفّف من مطعمه حتى كان أكثر أدمه السمك الصغار، وَوَاصَلَ ليله بنهاره في الصلاة والذكر والدعاء.



المصادر:
- «حلية الأولياء» لأبي نعيم الأصفهاني.
- «صفة الصفوة» لابن الجوزي.
- «المعارف» لعبد الله بن مسلم.
- «وفيات الأعيان» لابن خلكان.



أبو الحسن بنان بن محمد بن حمدان الحمال

قال الإمام ابن الجوزي في «صفة الصفوة»: أصله من واسط، لكنه ببغداد نشأ وأقام وسمع الحديث إلا أنه انتقل إلى مصر فمات فيها.

هو بنان بن محمد بن حمدان الحمال، يكنى أبا الحسن، أصله من واسط، لكنه ببغداد نشأ، وأقام وسمع الحديث إلا أنه انتقل إلى مصر فمات فيها.

كان أحمد بن طولون رجلًا طائش السيف، يجور ويعسف، وقد أحصى من قتلهم صبرًا (أن يمسك الرجل ويُرمى بشيء حتى يموت) أو ماتوا في سجنه فكانوا ثمانية عشر ألفًا!

ولما ذهب إليه الشيخ أبو الحسن بنان، يعنفه ويأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر، طاش عقله، فأمر بإلقاءه إلى الأسد، وهو الخبر الذي طار في الدنيا حتى بلغ بغداد.

قال الشيخ أبو جعفر الدينوري: وقدِ كنت حاضر أمرهم ذلك اليوم، فجيء بالأسد من قصر خمارويه بن أحمد بن طولون، وكان خمارويه هذا شغوفًا بالصيد، لايكاد يسمع بسبع في غيضة [المكان الذي يكثر فيه الشجر] أو بطن وادٍ إلا قصده ومعه رجال عليهم لبود [اللبادة المعروفة التي يضعها الرجل ليحفظ نفسه من مخالب الأسد حين اصطياده] فيدخلون إلى الأسد ويتناولونه بأيديهم من غابة عنزة [قهرًا] وهو سليم، فيضعونه في قفص خشبي يسع السبع وهو قائم.

وكان الأسد الذي اختاروه للشيخ أغلظ ما عندهم، جسيما ضاريًا [مفترسًا] عارم الوحشية، متزيل العضل[أي له عضلات بارزة منتفخة وقوية] هراسًا فراسًا [أي شديد الافتراس والهرس للفريسة] يلوم شدقه من سعته وروعته كفتحة القبر، ينبئ أن جوفه مقبرة!

وأجلسوا الشيخ في قاعة، وأشرفوا عليه ينظرون، ثم فتحوا باب القفص من أعلاه، فجذبوه فارتفع، وهجهجوا بالأسد يزجرونه، فانطلق يزمجر ويزأر زئيرًا تنشق له المرائر، ويتوهم من يسمعه أنه الرعد وراءه الصاعقة!

ثم اجتمع الوحش في نفسه واقشعر، ثم تمطى كالمنجنيق يقذف الصخرة، فما بقي من أجل الشيخ إلا طرفة عين، ورأيناه [أي الشيخ] على ذلك ساكنًا مطرقًا [أي ناظرًا إلى الأرض] لا ينظر إلى الأسد ولا يحفل به، وما منا إلا وكاد ينهتك حجاب قلبه من الفزع والرعب والإشفاق على الرجل.

ولم يرعنا إلا ذهول الأسد عن وحشيته، فأقعد على ذنبه، ثم لصق بالأرض هنية [زمنًا يسيرًا] يفترش ذراعيه، ثم نهض نهضة أخرى كأنه غير الأسد فمشى مترفقًا ثقيل الخطو، تسمع لمفاصله قعقعة من شدته وجسامته، وأقبل على الشيخ وطفق يحتك به ويلحظه [أي ينظر إليه بطرف عينيه] ويشمه، كما يصنع الكلب مع صاحبه الذي يأنس به، وكأنه يعلن أن هذه ليست مصاولة، بين الرجل التقي والأسد، ولكنها مبارزة بين إرادة ابن طولون وإرادة الله.

رأى الأسد رجلًا يخاف الله فخاف منه! وكما خرج الشيخ من ذاته ومعانيها الناقصة، خرج الوحش من ذاته ومعانيها الوحشية، فليس في الرجل خوف ولا هم ولا جزع ولا تعلق رغبة، ممن ذلك ليس في الأسد فتكٌ ولا ضراوة ولا جوع ولا تعلق برغبة.

قال الدينوري: وانصرفنا عن النظر في السبع إلى النظر في وجه الشيخ، فإذا هو ساهم، مفكر، ثم رفعوه، وجعل كل منا يظن ظنًا في تفكيره، فمن قال: إنه الخوف أذهله عنه نفسه، وقائل: إنه الانصراف بعقله إلى الموت، وثالث يقول: إنه سكون الفكرة يمنع الحركة عن الجسم فلا يضطرب.

وزعم جماعة أن هذه حالة من الاستغراق يُسحر بها الأسد!

وأكثرنا من ذلك، وتجارينا فيه، حتى سأله ابن طولون: ما الذي كان في قلبك وفيم كنت تفكر؟ **فقال الشيخ**: لم يكن عليَّ بأس، وإنما كنت أفكر في لعاب الأسد، أهو طاهر أم نجس؟!

ويقول الإمام الذهبي في «سير أعلام النبلاء»: هو الإمام المحدث الزاهد شيخ الإسلام أبو الحسن بنان بن محمد بن سعيد الواسطي، نزيل مصر، ومن يُضرب بعبادته المثل. كان كبير القدر، لا يقبل من الدولة شيئًا وله جلالة عجيبة عند الخاص والعام.

وقد امتحن في ذات الله، فصبر، وارتفع شأنه، فنقل أبو عبد الرحمن السلمي أن بنانًا الحمال قام إلى وزير خمارويه [صاحب مصر] وكان نصرانيًا، فأنزله عن مركوبه وقال: تركب الخيل وغيِّر، كما هو مأخوذ عليكم في الذمة، فأمر خمارويه بأن يؤخذ ويوضع بين يدي سبع، فطرح، فبقي ليلة، ثم جاؤوا والسبع يلحسه، وهو مستقبل القبلة، فأطلقه خمارويه واعتذر له.

قال الحسين بن أحمد الرازي، سمعت أبا علي الروذياري: كان سبب دخولي مصر حكاية بنان الحمال، وذلك أنه أمر ابن طولون بالمعروف، فأمر أن يُلقى بين يدي السبع، فجعل السبع يشمه ولا يضره، فلما أُخرج من بين يدي السبع قيل له: ما الذي كان في قلبك حيث شمك السبع؟ قال: كنت أتفكر في سُؤر السباع ولعابها. قال: ثم ضرب سبع درر، فقال له: [يعني الملك] حبسك الله بكل درة سنة، فحبس ابن طولون سبع سنين، هكذا قال.

وذكر إبراهيم بن عبد الرحمن أن القاضي أبا عبيد الله احتال على بنان حتى ضربه سبع درر، فقال: حبسك الله بكل درة سنة، فحبسه ابن طولون سبع سنين.

قال ابن يونس: توفي بنان في رمضان سنة ست عشرة وثلاث مئة، وخرج في جنازته أكثر أهل مصر، وكان شيئًا عجيبًا من ازدحام الخلائق.

❁❁❁

المصادر:
- «سير أعلام النبلاء» للذهبي.
- «صفة الصفوة» لابن الجوزي.

الإمام/ أبو الفرج ابن الجوزي

طريق العلماء الربانيين مليء بالابتلاءات والمحن، وهم يعرفون ذلك جيدًا، ولكن بعض البلايا والمحن تكون أشد وقعًا وأثرًا من غيرها، فمثلاً إذا كانت المحنة من أقارب العالم وأهله فهي أشد وقعًا من غيرها، وإذا كانت المحنة عند تقدم السن واشتعال الرأس شيبًا فهي أشد وقعًا من غيرها، وإذا كانت المحنة ستشرد صاحبها وتنفيه وحيدًا عن أهله وبلده فهي أشد وقعًا من غيرها، وإذا كانت المحنة ستنقل صاحبها من المكانة والشهرة والإمامة إلى الهجر والنسيان والإهانة فهي أشد وقعًا من غيرها، وأما إذا اجتمعت كل هذه الشروط والعناصر في المحنة والبلية ثم يروضها صاحبها ويستفيد منها ويحولها إلى منحة عظيمة فهذا أمر جدير بالكتابة والاستفادة منه.

التعريف به:

هو الشيخ الإمام العلامة، الحافظ المفسر، شيخ صناعة الوعظ، درة المجالس وجامع الفنون، وصاحب التصانيف الكثيرة، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي بن عبيد الله بن الجوزي، ينتهي نسبه إلى أمير المؤمنين وخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

وُلد ابن الجوزي سنة ٥١٠هـ ببغداد ومات أبوه وله ثلاثة أعوام، فتولت عمته تربيته لزواج أمه؛ فنشأ ابن الجوزي يتيمًا يتنقل بين أقاربه الذين كانوا يعملون في تجارة معدن النحاس، فلما آنست منه عمته عزوفًا عن اللهو والتجارة دفعت به إلى طريق العلم، فلزم مسجد محمد بن ناصر الحافظ، وجلس لسماع الدروس والحديث، ثم لزم حلقة الشيخ ابن الزغواني شيخ حنابلة العراق، فظهر نجمه وتقدم على أقرانه، وكان وهو صبي دينًا مجموعًا على نفسه لا يخالط أحدًا ولا يجاري أترابه في لهوهم ولعبهم.

كان ابن الجوزي طموحًا فيه بهاء وترفع في نفسه، دفعه لأن يطلب الجلوس مكان شيخه الزغواني بعد وفاته، وكان وقتها شابًا دون العشرين، فأنكروا عليه ذلك، فاشتغل بالوعظ، وكان فنًا رائجًا وبضاعة نافعة في تلك الأيام، وبغداد زاخرة بالوعاظ، الكبار منهم والصغار، فسبق الجميع، وتفرد بفن الوعظ، الذي لم يسبق إليه ولا يلحق شأوه فيه وفي طريقته وشكله، وفي فصاحته وبلاغته وعذوبته وجمال عباراته وروائع تشبيهاته، وغوصه في المعاني البديعة وتقريبه الأشياء الغريبة فيما يشاهد من الأمور الحسية، بأيسر وأوجز عبارة حتى صار إمام صناعة الوعظ والتذكير، ومفخرة بغداد بلا نظير، وتهافت الناس على حضور مجالسه، وحضرها الخلفاء والوزراء والكبراء والأمراء والعلماء والأغنياء والفقراء، كل على حد السواء، حتى عد عشرات الألوف من الناس في المجلس الواحد من مجالسه، وله العبارات المأثورة والكلمات المؤثرة المشهورة.

ورغم تفرده وإمامته لفن الوعظ إلا أنه له مشاركات كثيرة في فنون شتى، وله اليد الطولى في فن التفسير والتاريخ والفقه، ودون ذلك في الحديث والحساب والفلك والطب، وله في كل فن عدة مصنفات، حتى صار رأس علماء العراق في زمانه، وهذا التقدم والرياسة والاحتشام والسؤدد جلب عليه كثيرًا من عداوة الخصوم والأقران وأتباع المذاهب الأخرى، وكان له دور ظاهر في تأجيج تلك العداوات بحدة لسانه وهجومه اللاذع على الصوفية والفقراء وبعض معاصريه .

ثناء الناس عليه:

لم يكن ابن الجوزي مثل غيره من كبار علماء الأمة الذين كانوا كلمة إجماع بين الناس لم يخض في حقهم أحد؛ ذلك أن لابن الجوزي عداوات كثيرة وخصومات عديدة أزكاها بحدة لسانه وقوة نقده وجهره بآرائه واعتزازه الشديد بنفسه، ولكن لا يقلل ذلك كله من تقدير

الناس لعلمه وإمامته وتبحره في فنون شتى، وهذه طائفة من أقوال وثناء الناس عليه:
قال الإمام الذهبي :(كان رأسًا في التذكير بلا مدافعة، يقول النظم الرائق، والنثر الفائق بديهًا، ويسهب، ويعجب، ويطرب، ويطنب، لم يأت قبله ولا بعده مثله، فهو حامل لواء الوعظ، والقيم بفنونه، مع الشكل الحسن، والصوت الطيب، والوقع في النفوس، وحسن السيرة، وكان بحرًا في التفسير، علامة في السير والتاريخ، موصوفًا بحسن الحديث، ومعرفة فنونه، فقيهًا، عليمًا بالإجماع والاختلاف، جيد المشاركة في الطب، ذا تفنن وفهم وذكاء وحفظ واستحضار...).

قال أبو عبد الله الدبيثي في تاريخه :(شيخنا جمال الدين صاحب التصانيف في فنون العلوم من التفسير والفقه والحديث والتواريخ وغير ذلك، وإليه انتهت معرفة الحديث وعلومه والوقوف على صحيحه من سقيمه، وكان من أحسن الناس كلامًا، وأتمهم نظامًا، وأعذبهم لسانًا، وأجودهم بيانًا، وبورك له في عمره وعلمه).

محنته:

رغم أن المحنة التي تعرض لها الإمام ابن الجوزي كانت في آخر عمره، إلا إن أسباب تلك المحنة كانت قديمة وبعيدة الجذور، وذلك لأمرين، أولهما متعلق بالأجواء السائدة في بغداد خلال القرن السادس الهجري، وثانيهما متعلق بطبيعة شخصية ابن الجوزي والتي أورثته خصومة وعداوة الكثيرين.

فبغداد ومنذ سيطرة الدولة السلجوقية على مقدرات الخلافة العباسية وظهور شخصية الوزير الشهير نظام الملك، أخذ أتباع المذهب الشافعي والعقيدة الأشعرية في الظهور والتحكم في الساحة العلمية لبغداد عاصمة الخلافة، والسيطرة على حلق العلم والمدارس الفقهية ومحاريب الجوامع، وكانت تلك المكانة من قبل بيد أتباع المذهب الحنبلي والعقيدة السلفية، فلما ظهر الشافعية استطالوا بشدة على الحنابلة وضيقوا عليهم في المجالس والمدارس، ودخلوا معهم في مهاترات حامية بسبب العقائد، وشنعوا عليهم، وظل الأمر على

ما هو عليه فترة طويلة، حتى ظهرت شخصية الإمام ابن الجوزي الذي استطاع أن يستقطب الناس إلى مجالس وعظه ويبهرهم بفريد عباراته وفائق تذكيراته، فحضر لمجالسه عشرات الآلاف من الكبار والصغار والرجال والنساء، وحضرها الخليفة العباسي نفسه والسلطان السلجوقي، والوزراء والأمراء والكبراء والأغنياء والفقراء، وحتى كان يحضرها الشيعة الروافض الذين بهرهم رائع بيانه، خاصة وابن الجوزي كان ممن يداري ويهادن ولا يخوض في الخلافيات، بالجملة أصبح ابن الجوزي حديث الناس وأشهر علماء بغداد والعراق، وقد أدى ذلك لارتفاع مكانة الحنابلة وإقبال الناس على شيوخ المذهب، وذلك الأمر أغاظ أتباع باقي المذاهب عامة والشافعية خاصة.

وفي سنة ٥٥٠هـ استوزر الخليفة العباسي المقتفي بالله الوزير عون الدين بن هبيرة وكان من خيار الوزراء وأفاضل العلماء، وكان حنبليًا سلفيًا، وقد اجتهد ذلك الوزير الصالح في إقامة الدولة العباسية واستعادة هيبة الخلافة، وحسم مادة ملوك السلاجقة، وكان ذلك الوزير مصاحبًا لابن الجوزي قبل ذلك، فلما صار في الوزارة، قرَّب ابن الجوزي واصطفاه لمجالسه ومشورته، وارتفعت مكانة ابن الجوزي أكثر مما قبل، وكذلك الحنابلة، وقد استمر ذلك الوزير في منصبه خلافة المقتفي ثم ولده المستنجد، وكان له كثير من الخصوم لصلاحه وكفاءته في الإدارة والإخلاص للدولة العباسية، ومن كان خصمًا لابن هبيرة كان خصمًا لابن الجوزي معه للصداقة التي بينهما، وقد قتل ذلك الوزير الصالح بالسم سنة ٥٦٠هـ ولم يعلم قاتله، وبموته أخذ أعداء ابن الجوزي في التربص به والكيد له.

هذا الشق كان فيما يتعلق بالأمر الأول والمتعلق بأحوال الخلافة والأجواء السائدة في بغداد، أما فيما يتعلق بالأمر الثاني وهو طبيعة شخصية ابن الجوزي نفسه، فإن ابن الجوزي كان مفخرة العراق في وقته ودرة بغداد في زمانه، شهرته طغت على علماء الوقت، فحسدوه وغاروا من إقبال الناس عليه، وقابل ذلك هو بمزيد من الاعتداد بالنفس والاعتزاز بالقدر،

كما أنه كان شديدًا في نقده، حادًا في ملاحظاته، لاذعًا في تعليقاته، خاصة على الوعاظ والعلماء من الشافعية والأحناف، لا يبالي بمكانة وقدر من ينتقد ويجرح، حتى خرج بنقده إلى نوع من التحامل والتعصب، وهي أمور كلها قد أورثته عداوة وخصومة الكثيرين حتى من أصحابه الحنابلة الذين غضبوا من انتقاده للشيخ الرباني عبد القادر الجيلاني وكان رأس الوعاظ في العراق قبل ظهور ابن الجوزي وفي نفس الوقت شيخ الحنابلة بالعراق.

محنة آخر العمر:

ظل ابن الجوزي على مكانته ومنزلته حتى تولى الخلافة الناصر لدين الله العباسي سنة ٥٧٥هـ، وكان يخالف سيرة آبائه وأجداده، فقد كان أول وآخر خليفة عباسي يتشيع ويتظاهر بذلك ويجهر به، وقد عمل على تقريب الشيعة، فاستخدمهم في أعماله وشئونه وبالطبع أخذت الأضواء تنحسر عن رجال أهل السنة وعلمائهم، ومنهم ابن الجوزي، فاستغل خصوم الرجل ذلك الأمر، وخططوا للإيقاع به.

كان من ألد أعداء الشيخ ابن الجوزي، رجل اسمه الركن عبد السلام بن عبد الوهاب وهو حفيد الشيخ عبد القادر الجيلاني، وكان أبناء الشيخ عبد القادر وأحفاده يبغضون ابن الجوزي بشدة بسبب رأيه في الشيخ عبد القادر وانتقاده الدائم له، وكان الركن عبد السلام ذلك أشدهم كراهية لابن الجوزي، ولكن لسبب آخر وهو أنه كان رجلاً رديء المعتقد على مذهب الفلاسفة، شروبًا للخمر، فأفتى ابن الجوزي بحرق كتبه فأحرقت ومنعت، ثم أخذت منه مدرسة جده الشيخ عبد القادر الجيلاني وأعطيت لابن الجوزي، فاغتاظ الركن لذلك وقرر الإيقاع بالشيخ ابن الجوزي.

العجيب أن الذي تآمر مع الركن عبد السلام في مؤامرته ضد ابن الجوزي هو أقرب الناس لابن الجوزي، ولده الكبير أبو القاسم علي، وكان ماجنًا فاسقًا نديم الركن في مجالس

الخمر والفجور، وكان عاقًا لأبيه، وقد هجره أبوه وإخوته لسوء أخلاقه وأفعاله، فتآمر أبو القاسم علي مع الركن عبد السلام للنيل من الشيخ ابن الجوزي.

تولى الوزارة في تلك الفترة رجل شيعي اسمه ابن القصاب وكان صديقًا للركن عبد السلام للموافقة في الاعتقاد، فسعى عنده للإيقاع بالشيخ عند الخليفة الناصر العباسي، فقال الوزير الرافضي للخليفة العباسي: (أين أنت من ابن الجوزي الناصبي؟ وهو أيضًا من أولاد أبي بكر الصديق) ثم ما زال بالخليفة حتى غير قلبه عن ابن الجوزي، وفوض الأمر إليه في التصرف معه، وذلك سنة ٥٩٠هـ، وكان ابن الجوزي وقتها في الثمانين من العمر، ففوض الوزير ابن القصاب الركن عبد السلام في التصرف مع الشيخ ابن الجوزي، فذهب إلى داره بنفسه ومعه الكثير من الحراس وأبناء الشيخ عبد القادر، فشتموه وأهانوه وجذبوه بشدة من بين عياله، وكان عليه ملابس خفيفة بلا سراويل وختموا على داره، ووضعوه في سفينة صغيرة، ونفوه إلى مدينة واسط، وهناك حبسوه في بيت ضيق بلا أحد يخدمه وكان شيخًا مسنًا قد جاوز الثمانين، فبقي وحده يطبخ لنفسه ويغسل ثيابه لنفسه، ممنوع عليه الاجتماع مع الناس أو الجلوس للوعظ كما هي عادته، ولاقى ضروبًا من المحن والهم والتعب طيلة خمس سنوات في النفي.

لم يكتف الركن عبد السلام بما فعله مع الشيخ ابن الجوزي من الإهانة والنفي والتشريد والسجن الانفرادي، بل حاول التوصل إلى والي مدينة واسط وكان شيعيًا أيضًا ليقتل ابن الجوزي، فقال الوالي للركن: (يا زنديق، أفعل هذا بمجرد قولك؟ هات خط أمير المؤمنين، والله لو كان على مذهبي، لبذلت روحي في خدمته) فخاب سعي الركن وفشلت خطته، ولكن لم يمنع ذلك من التضييق على ابن الجوزي وحبسه.

تلك المحنة الكبيرة التي نزلت بالشيخ ابن الجوزي وهو في أواخر عمره، وبعد أن جاوز الثمانين قد زاد من ألمها جناية ولده أبي القاسم علي على تراث أبيه العلمي ونتاجه

التأليفي، إذ تسلط ذلك الولد العاق الفاسق على كتب أبيه وكانت مئات المجلدات في شتى الفنون، وباعها بالأحمال وشرب بثمنها الخمر، وتجاهر بذلك الفحش والخسة، والأب يعاني في غربته ووحدته مرارة ذلك الجحود والنكران.

ظل الشيخ ابن الجوزي في محنته بين النفس والسجن والإهمال والإهانة خمس سنوات كاملة كانت كفيلة بتحطيم عزيمة أي رجل قوي وليس بشيخ مسن طاعن في السن، ولكن الشيخ العلامة ابن الجوزي الذي طالما وعظ الناس وذكرهم وصبَّرهم ورغبَّهم ورهبَّهم، حول محنته إلى منحة عظيمة، وروض تلك المنحة الأليمة، فاستغل تلك السنوات الخمس في قراءة كتب الحديث والتلاوة بالعشر قراءات للقرآن على يد الشيخ ابن الباقلاني، وأبدى همة عالية في ذلك، حتى أتم حفظ القراءات العشر وهو في الرابعة والثمانين من العمر. وفي سنة ٥٩٥هـ أذن الله عز وجل في رفع المحنة وفك الكربة، وذلك بشفاعة أم الخليفة الناصر العباسي، وعاد ابن الجوزي من منفاه في واسط إلى بغداد، وأذن له في الوعظ كما كان، وعاد إلى مكانته وعزه وسؤدده، وحضر الخليفة العباسي بنفسه أول مجالس وعظه، وكانت كلمات ابن الجوزي مؤثرة، ملهبة، وقد خرجت من قلب احترق بالمحن حتى خرج نقيًا من كل شائبة، وبعد ذلك بقليل مرض ابن الجوزي ثم مات في منتصف شهر رمضان سنة ٥٩٧هـ، فرحمة الله عليه، وتجاوز عنه وغفر له

المصادر:

- «سير أعلام النبلاء» للذهبي.
- «وفيات الأعيان» لابن خلكان.
- موقع مفكرة الإسلام.
- موقع علماء المسلمين.

الإمام/ محمد بن جرير الطبري

بدأ الطبري طلب العلم بعد سنة ٢٤٠هـ وأكثر الترحال ولقي نبلاء الرجال، قرأ القرآن ببيروت على العباس بن الوليد، ثم ارتحل منها إلى المدينة المنورة، ثم إلى مصر والري وخراسان، واستقر في أواخر أمره ببغداد.

سمع الطبري من العديد من مشايخ عصره، وله رحلات إلى العديد من عواصم العالم الإسلامي التي ازدهرت بعلمائها وعلومها، ومنها مصر.

وليس أدل على إخلاص الطبري في تحصيل العلم من هذه القصة التي حدثت له مع أبي كريب. فقد كان هذا يتشدد في قبول طلاب العلم. وحدث ذات يوم أن ذهب الطبري مع غيره من الطلاب إلى بيته يلتمسون الدخول. فأطل عليهم من كوة في الحائط، وقال لهم: أيكم يحفظ ما كتب عني؟ فالتفت بعضهم إلى بعض. ثم نظروا إلى الطبري، وقال أحدهم: هل تحفظ ما كتبت عنه ؟

فلما أجاب الطبري بالإيجاب قال الطلبة لأبي كريب بأن الطبري يحفظ ما كتب عنه. فأخذ يسأله والطبري يجيب حتى عظم في نفسه فقال له: ادخل.

ودخل الطبري دون الباقين. وقصد الطبري بعد ذلك مصر، ووفد على الفسطاط سنة ثلاث وخمسين ومائتين، وهناك اطلع على الكثير من علوم مالك والشافعي وابن وهب. وبعد رحلات أخرى استقر به المقام في بغداد حيث انصرف انصرافًا كليًا للتدريس والتأليف.

قال أبو القاسم ابن عقيل الوراق: إن أبا جعفر الطبري قال لأصحابه: هل تنشطون لتاريخ العالم من آدم إلى وقتنا؟ قالوا: كم قدره؟ فذكر نحو ثلاثين ألف ورقة، فقالوا: هذا مما تفنى الأعمار قبل تمامه، فقال: إنا لله ماتت الهمم، فاختصر ذلك في نحو ثلاثة آلاف ورقة، ولما أن أراد أن يملي التفسير قال لهم نحوًا من ذلك، ثم أملاه على نحو من قدر التاريخ.

ومن أعجب أمره في العلم تأليفه لأثريه الشامخين، وهما تفسيره للقرآن وتاريخه. وروي أنه عندما همّ بتفسير القرآن سعى كعادة علماء المسلمين إلى إشراك طلبته في العمل، فقال لهم:

- أتنشطون لتفسير القرآن ؟ قالوا:كم يكون قدره؟

قال:ثلاثون ألف ورقة. فضجوا قائلين:هذا ما تفني الأعمار قبل تمامه.

ولم يَسَعْ الطبري إلا أن اختصروه في نحو ثلاثة آلاف ورقة. وحدث مثل ذلك لتاريخه فاختصره إلى عشر حجمه.

وكان الطبري عاليَ الهمة، ومن أصحاب القدرات النادرة على التحصيل.. وتروى عجائب كثيرة عن قدرته هذه. ومما رواه هو نفسه القصة التالية. قال:

«لما دخلت مصر، لم يبقَ أحد من أهل العلم إلا لقيني وامتحنني في العلم الذي يتحقق به. فجاءني يومًا رجل فسألني عن شيء من العروض، ولم أكن نشطت له قبل ذلك.

فقلت له: عليَّ قول ألا أتكلم اليوم في شيء من العروض. فإذا كان في غد فَصِرْ إليّ.

وطلبت من صديق لي «العروض» للخليل بن أحمد، فجاء به، فنظرت فيه ليلتي، فأمسيت غير عروضي، وأصبحت عروضيًا».

أما «تاريخه» فلم يزل مرجعًا لكل مَعْني بالتاريخ الإسلامي منذ تأليفه. وهو تاريخ عالمي يتناول تاريخ العالم منذ الخليقة، ويتوسع في أخبار الأمة الإسلامية بطريقة حولية، أي يتناول الأحداث سنة بعد سنة.

وأظهر الطبري في أخباره نزاهة كبيرة، إذ أورد مختلف الروايات عن الأحداث مصدرة بالسند، أي بسلسلة الرواة. وقد طبع كتابه عدة طبعات تقع الطبعة الأوروبية منها في أربعة عشر مجلدًا. وقد أفاد مَنْ كتابه من لحقه من المؤرخين المسلمين.

ويعتبر تفسيره للقرآن من أشهر التفاسير وأقومها، ويقع في ثلاثين جزءًا في طبعته الحديثة.

جرى أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بوجوب ابتلاء عباده وامتحانهم ليمحص المؤمنين الصابرين، ويُكفر عنهم سيئاتهم ويغفر ذنوبهم، كما قال تعالى في كتابه: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٣ أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾

[العنكبوت: ١-٤]

وفي هذا جاء الحديث الصحيح عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: **«أشد الناس بلاءً الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل، يُبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد له في البلاء»**.

ومن هذه القاعدة فإن أهل الإيمان لابد لهم من الابتلاء والامتحان، وإن تعددت صوره وأحواله، فهذا بالسجن وهذا بالتعذيب والحجر وأخذ المال والقتل وأنواع الهموم والمصائب. وكان للعلماء الصالحين المصلحين نصيب من هذا؛ لعظم إيمانهم وصلابته، والذي يطرد معه شدة المحن وقوتها، فخير عباد الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ناله من ذلك البلاء ما هو معروف، فأمره الله بالصبر كما صبر أولو العزم من الرسل قبله، حتى كان عصر ابن جرير، فكان من أميز ما فيه ابتلاء العلماء بالفتنة بخلق القرآن والقول به، وما نال العلماء والناس فيه من المحنة والفتنة، وكيف ثبت فيها أولياء الله، والله سلم ابن جرير من هذه الفتنة.

نالت المحنة بابن جرير الطبري كإخوانه من العلماء قبله وبعده، وكان من أسد ما امتحن به الطبري هو رميه بالرفض والتشيع حتى شاع ذلك بين بعض العلماء ومنهم الحافظ ابن حجر في «لسان الميزان» حيث قال: ثقة صادق فيه تشيع يسير وموالاة لا تضر.

وقال ياقوت الحموي: إنه كان يُتهم بالتشيع لذلك قيل: إنه دفن ليلًا خوفًا من العامة.

بل ذكر الذهبي في الميزان، والحافظ في لسانه: أن الحافظ أحمد بن علي السليماني أقذع منه فقال: كان يضع للروافض.

لكن ابن حجر أجاب عن هذه التهمة فقال: وهذا رجم بالظن الكاذب بل ابن جرير من كبار أئمة الإسلام المعتمدين وما تدعى عصمته من الخطأ، ولا يحل لنا أن نؤذيه بالباطل والهوى، فإن كلام العلماء بعضهم في بعض ينبغي أن يُتأنى فيه، ولاسيما في مثل إمام كبير، فلعل السليماني حافظ متقن كان يدري ما يخرج من رأسه فلا أعتقد أن يطعن في مثل هذا الإمام بالباطل.

ألف من المؤلفات الضخمة التي تذخر بها المكتبة الإسلامية كما ألف في فضائل علي رضي الله عنه وألف في فضائل الشيخين حيث سمع جماعة في طبرستان يبسطون ألسنتهم في الصحابة والخليفتين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فألف ذلك الكتاب وأشاد بفضلهما وأثنى عليهما ووصفهما بأنهما إماما هدى، وأنكر على من لا يصفهما بالرشد والصلاح، كما ألف في فضائل العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه.

ولما ألف في فضائل الشيخين كان هذا سبب هروبه من بلده طبرستان لما عاد إليها من رحلاته حيث بلغ سلطان البلد إملاؤه فضائلهما فطلبه ليعاقبه فهرب بمساعدة رجل أعلمه بمقصودهم وجاء إلى بغداد فهذه محنة أدت إلى ترك وطنه ومرتع صباه.

أما ذلك الرافضي الذي اشتبه اسمه باسم الإمام الطبري أشار إلى ذلك ابن حجر في «لسان الميزان» هو أبو جعفر محمد بن جرير بن رستم الطبري، فهو يشترك مع إمامنا بالكنية والاسم الأول واسم الأب والنسب والبلد وسنة الوفاة ويختلفان في اسم الجد.

وأما آخر ما امتحن به من قبل بعض خصومه من الحنابلة لما صنف كتاب «اختلاف الفقهاء» ولم يورد معهم الإمام أحمد بن حنبل، فلما سئل عن ذلك قال: لم يكن ابن حنبل فقيهًا وإنما كان مجتهدًا.

فكان هذا سببًا للتعصب عليه من بعضهم كالجصاص والبياض وجعفر بن عرفة.

إضافة إلى ما كان بينه وبين الإمام الحافظ أبي بكر بن أبي داود مما يقع مثله بين الأقران فمال أولئك من الحنابلة إلى ابن أبي داود على ابن جرير فأكثروا عليه فناله بذلك أذى لزم بسببه بيته ومُنع من الدخول عليه، حيث ذكر ياقوت أنهم حالوا بين الناس وبين السماع منه كان لا يخرج ولا يدخل عليه.

وأما ما يذكره بعضهم من أن الحنابلة اتهموه في عقيدته فلا دليل عليه بل ما يذكر أنه كتبه خلال هذه المدة من البلوى فكتب عقيدته التي تسمى (صريح السنة) ولما سئل عن الإمام أحمد ذكر ما له من التبجيل والمنزلة اللائقة به. ثم انفرجت تلك المحنة بعد حين.

والمقصود أن ابن جرير: قد توعد كل من يتهمه في عقيدته ودينه، أو ينحله قولًا لم يقله أو يتجاوز عليه في قول أو يحمله ما لا يحتمل أو من روع عنه خلاف ما قرره هو بنفسه في عقيدته المسماة صريح السنة أو كتبه المنسوبة إليه حقًا أو أفترى عليه كذبًا وبهتانًا – وهذه عادة المغرضين والحساد والحاقدين- توعد كل هؤلاء بقوله في آخر حياته: فمن تجاوز ذلك فقد خاب وخسر وضل وهلك فليبلغ الشاهد منكم أيها الناس من بعد منا أو قرب، فديننا الذي ندين الله به في الأشياء التي ذكرناها ما بيناه لكم على ما وصفنا؛ فمن روى عنا خلاف ذلك، أو أضاف إلينا سواه، أو نحلنا في ذلك قولًا غيره فهو كاذب مفتر متخرص معتد يبوء بسخط الله وعليه غضب الله ولعنته في الدارين، وحق على الله أن يورده المورد الذي وعد رسول الله ﷺ أضرابه، وأن يحله المحل الذي أخبر به النبي ﷺ أن الله سبحانه يحله بمثله على ما أخبر به ﷺ.

ونقل الحموي عن أبي بكر بن كامل صاحب ابن جرير قال:

حضرت أبا جعفر حين الوفاة فسألته أن يجعل كل من عاداه في حل، وأن يصفح عمن تجنوا عليه، وكنت أقصد أبا الحسن بن الحسين الصواف، إذ كنت قرأت عليه القرآن، فقال أبو جعفر: كل من عاداني وتكلم عني في حل، إلا رجلًا رماني ببدعة.

الإمام/ أحمد بن نصر الخزاعي

هو الإمام الكبير الشهيد، أبو عبد الله أحمد بن نصر بن مالك بن الهيثم الخزاعي المروزي ثم البغدادي.

كان سليل بيت وجيه عند بني العباس، فجده مالك بن الهيثم كان من أكبر الدعاة إلى دولة بني العباس، وكان أحمد من أهل العلم والديانة والعمل الصالح والاجتهاد في الخير، أمارًا بالمعروف قوالًا بالحق.

لا يزال الناس بخير ما دفع الله عنهم الفتنة، ذلك أن الفتنة رأس كل شر، وباب كل فساد، تُستباح فيها الدماء، وتنهب الأموال، ويُعتدي على الأعراض.

وقد أصاب بغداد من ذلك شيء كثير حين وقع الخلاف بين الأمين والمأمون، فبعد أن ولي الأمين الخلافة بعد أبيه الرشيد، زين له وزيره أن يخلع أخاه المأمون، من ولاية العهد ويجعلها لابنه، وكذلك كان! فوقعت بين الأخوين حروب سفكت فيها الدماء، واعتدي على حدود الله، ثم قُتِلَ الأمين، وكان المأمون في خراسان، فشهدت بغداد أحداثًا من الفتنة، واضطراب الأمور، وقيام أكثر من رجل يدعي الخلافة.

وكان في بغداد رجال من أهل الخير رأوا اضطراب الحال، واختلال الأمن، وسيطرة العيارين والشطار والفساق، حتى بلغ بهم الأمر أن يذهبوا إلى الرجل يسألونه شيئًا من المال قرضًا أو هبةً، فإذا امتنع من ذلك أخذوا جميع ما في منزله، وكانوا يتعرضون للغلمان والنساء، فلما رأى أهل الخير ذلك، تصدوا للدفاع عن عامة المسلمين وأموالهم وأعراضهم.

وكان من هؤلاء الصالحين خالد الدريوس، وسهل بن سلامة، وأحمد بن نصر الخزاعي. فدعوا الناس إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والأخذ على أيدي المفسدين. فالتف حولهم جماعة من المصلحين، فكفوا أيدي الأشرار، ومنعوهم من الإفساد في الأرض،

وما يُروى عن سهل بن سلامة أن الناس التفوا حوله، وساروا معه في ضبط الأمور، وكان إبراهيم بن المهدي قد بويع بالخلافة في بغداد والمأمون في خراسان، فكان سلامة ينكر على إبراهيم ما يراه من مجاوزة حدود الله، وأمره بتحكيم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وصار باب دار سهل بن سلامة كأنه باب السلطان عليه السلاح والرجال، وغير ذلك من أبهة الملك، فأحس السلطان بالخوف منه، فأرسل إليه الجند فقاتلوه ومن معه، حتى هزم جند سلامة، فاختفى وانتهى به الأمر أن قبض عليه وأودع السجن، فلما عاد المأمون إلى بغداد، لم يزل بسهل بن سلامة حتى بايعه بالخلافة.

وكان من الآمرين بالمعروف أحمد بن نصر الخزاعي، الذي لم يرض أن يبايع المأمون كما بايعه سلامة، ولزم بيته وقد رأى كيف تسير الأمور على غير ما يعلم من دين الله، فالهوى متبع، وإيثار الدنيا مشتمل على القلوب، والتنافس على حطام الدنيا تتفانى فيه نفوس زعماء المسلمين، وتحترق رؤوس العامة وأموالهم.

ورأى فتنة القول بخلق القرآن، وما حل بالمسلمين بسببها من الأذى، الذي ألجم ألسنة أكثر العلماء عن قول الحق، وما أصاب العامة من حيرة فيما يرون ويسمعون. . فكتم في نفسه أمرًا. . وأعد نفسه للقيام بأمر الدعوة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإقامة دولة الحق. وكان كل يوم يمر يزيده إيمانًا بما وطن نفسه عليه.

وانقضى عهد المأمون. . ومن بعده المعتصم، وجاء عهد الواثق. . الذي تولى كبر القول بخلق القرآن كأشد ما كان في عهد المأمون، وألزم الناس بذلك، وامتحن كبار العلماء. . وأخذ الصالحون يلتفون حول أحمد بن نصر. . ويستمعون إلى كلامه، وآنس منهم رغبة في تصحيح الأمور، والخروج على السلطان الذي جاوز حدود الله، واجتمع عليه من أهل بغداد ألوف، ويسر له رجلان هما أبو هارون السراج وطالب فالأول يدعو أهل الجانب الشرقي من بغداد والثاني يدعو أهل الجانب الغربي، وأخذ له البيعة في السر، ووقع الاتفاق على تحديد ليلة معينة

لتنفيذ الثورة وكان المتفق عليه أن تكون ليلة جمعة يضرب فيها طبل، فيكون ذلك علامة للمبايعين أن يجتمعوا ليثوروا ويستلموا زمام الأمور.

وكان من أعطى البيعة رجلان من بنش أشرس لم يكونا من الصالحين لهذا الأمر، فقد كانا يشربان الخمر، وكان سببًا في إفساد ما اتفق عليه أهل البيعة. . ذلك أنهما شربا الخمر في الليلة السابقة لليلة الموعد، وظنا أنها ليلة الجمعة فقاما يضربان طبل!! ولفت ذلك نظر الشرطة حيث علموا أن هذا الصوت علامة متفق عليها. . وبحث نائب الشرطة عمن ضرب الطبل، حتى ألقى القبض عليهما، وأجرى معهما تحقيقًا وعذبهما حتى أقرا بالخطة المتفق عليها، وألقي القبض على رؤوس الحركة، ومنهم أحمد بن نصر، وأُرسلوا جميعًا إلى الواثق في سر من رأي!

وأحضر أحمد بن نصر بين يدي الواثق.

قال ابن الجنيد: سمعت يحيي بن معين يترحم عليه وقال: ختم الله له بالشهادة، وكان عنده مصنفات هُشيم كلها، وعن مالك أحاديث، وكان يقول عن الخليفة: ما دخل عليه من يصدقه.

قال الصولي: كان هو وسهل بن سلامة حين كان المأمون بخراسان بايعا الناس على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثم قدم المأمون فبايعه سهل، ولزم ابن نصر بيته، ثم تحرك في آخر أيام الواثق، واجتمع إليه خلقٌ يأمرون بالمعروف. قال: إلى أن ملكوا بغداد، وتعدى رجلان موسران من أصحابه فبذلا مالًا، وعزما على الوثوب في سنة إحدى وثلاثين، فنما الخبر إلى نائب بغداد إسحاق بن إبراهيم، فأخذ أحمد وصاحبيه وجماعة، ووجد في منزل أحدهما أعلامًا، وضرب خادمًا لأحمد، فأقر بأن هؤلاء كانوا يأتون أحمد ليلًا، ويخبرونه بما علموا، فحملوا إلى سامراء مقيدين، فجلس الواثق لهم وفي مجلسه أحمد بن أبي دؤاد القاضي

الذي تولى أمر القول بخلق القرآن منذ عهد المأمون، وكان من الغريب أن الواثق لم يعتب على أحمد بن نصر لما أخذ له من البيعة على الثورة،، ولم يذكر له شيئًا من ذلك، ولم يرد أن يجادله في أمر يكشف المساوئ والمعايب في نظام الحكم، بل التفت إلى قضية خلق القرآن. . وجعلها محور الحديث ليجعل نهاية الخزاعي بسببها.

كان أحمد بن نصر قد أيقن أن في لقاء الواثق نهايته. . فاستقتل وباع نفسه لله، وتحنط وتنور [أي أزال الشعر بالنورة وهي أخلاط من الأملاح تستعمل لإزالة الشعر، وتحنط أي تطيب]. وشد على عورته ما يسترها حتى إذا ضُربت عنقه، وانقلب على الأرض لم تنكشف.

وقال الواثق لأحمد: دع ما أُخذت له ما تقول في القرآن؟

قال: كلام الله.

قال: أفمخلوق هو؟

قال: كلام الله.

قال: ما تقول في ربك؟ أتراه ربك في القيامة؟

قال: يا أمير المؤمنين قد جاء القرآن والأخبار بذلك، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣]، وقال رسول الله ﷺ: «إنكم ترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته» فنحن على الخبر.

قال: ويحك أيُرى كما يُرى المحدود المتجسم، ويحويه مكان، ويحصره ناظر؟ أنا كفرت بمن هذه صفته.

قال أحمد: وحدثني شفيان بحديث يرفعه: «إن قلب ابن آدم بين أصبعين من أصابع الله يقلبه كيف يشاء»، وكان النبي ﷺ يقول: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك».

وكان في الحضور إسحاق بن إبراهيم، نائب بغداد، فأشفق على أحمد بن نصر مما سمعه منه، وعلم أن فيه مقتله! فقال له: ويحك انظر ما تقول!

قال أحمد: أنت أمرتني بذلك!

قال إسحاق وقد أخذه الخوف أن يقال هذا في حضر الخليفة: أنا أمرتك؟

فقال أحمد: نعم أنت أمرتني أن أنصح لك!

لقد تبين للواثق أن أحمد بن نصر مذنب بمخالفته للدولة في أمر العقيدة، هذا فضلًا عن مخالفته لها في أمر السياسة، وأراد أن يستصدر من الحاشية الحكم فيه، فقال لمن حوله: ما تقولون في هذا الرجل؟

فأكثروا فيه القول، وكلهم يجري في هوى الخليفة، ويقول ما يظن أنه يريده، ومن أولئك قاضي الجانب الغربي من بغداد، عبد الرحمن بن إسحاق، وكانت بينه وبين أحمد مودة سابقة، فأراد أن يبرأ منها فقال: هو حلال الدم!!

وقال أبو عبد الله الأرمني: اسقني من دمه يا أمير المؤمنين!!

فأظهر أحمد بن أبي دؤاد أنه كاره لقتله وقال: هو كافر يستتاب!! لعل به عاهة أو نقصًا في عقله.

وأخذت الواثق العزة بالإثم فقال لمن حوله، وقد بلغ به الغيظ غايته: إذا رأيتموني قمت إليه فلا يقومن أحد معي، فإني أحتسب خطاي عند الله.

وكان النطع قد جهز وربط أحمد بن نصر بحبل، فتقدم إليه الواثق بسيفه، فضربه على عاتقه، ثم ضربه ضربة أخرى على رأسه بعد أن مدوا له رأسه بحبل وهو مقيد، ثم طعنه في بطنه، فسقط صريعًا.. شهيدًا

ولم ينته المشهد عند هذا. . بل تقدم إليه أحد الجلادين. . فحز رأسه، وحمل الرأس إلى بغداد، فنصب في الجانب الشرقي منها أيامًا، ثم في الجانب الغربي أيامًا، وعنده الحرس في الليل والنهار وفي أذنه رقعة مربوطة كتب فيها: هذا رأس الكافر المشرك الضال أحمد بن نصر

الخزاعي ممن قتل على يدي عبد الله هارون الإمام الواثق بالله، أمير المؤمنين، بعد أن أقام عليه الحجة في خلق القرآن، ونفي التشبيه، وعرض عليه التوبة، ومكنه من الرجوع إلى الحق، فأبى إلا المعاندة والتصريح، فالحمد لله الذي عجله إلى ناره وأليم عقابه بالكفر، فاستحل بذلك أمير المؤمنين دمه ولعنه!!

ولعل القارئ يعجب مما كُتب في الورقة، وألصق بهذا العالم الداعية الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر! ولكنه الهوى الذي سيطر على القلوب، وجعل المسلمين فرقًا يكفر بعضهم بعضًا، ويستحل بعضهم دم بعض بغير حق!

ولا يخفى أن قضية خلق القرآن كانت ستارًا لقتل الخزاعي، والسبب الكامن وراء القتل هو محاولة الثورة وتصحيح أحوال المسلمين.

هذا عن رأس الخزاعي وما حل به! وأما جسده فقد حُمل إلى الحظيرة التي كان فيها بابك الخرمي، فصلب فيها وفي رجليه زوج من القيود وعليه سراويل وقميص.

وقد لقي رؤوس أصحابه ممن كانوا معه في خطته المطاردة والسجن، فبلغ عدد من ألقي القبض عليهم تسعة وعشرين رجلًا، وأودعوا السجون، وأطلقوا عليهم اسم الظلمة، ومنعوا أحدًا أن يزورهم، وقيدوهم بالحديد. . وضيقوا عليهم غاية التضييق!

وبقي رأس أحمد بن نصر الخزاعي منصوبًا في بغداد والبدن مصلوبًا بسامراء من سنة إحدى وثلاثين ومائتين إلى سنة سبعة وثلاثين ومائتين ثم جُمع بين جسده ورأسه ودفن بالجانب الشرقي من بغداد بأمر المتوكل على الله الذي ولي الخلافة بعد أخيه الواثق.

لقد كانت حياة أحمد بن نصر وصورة مقتله مثيرة للتعاطف الشعبي معه، ولذلك وردت قصص وأخبار تتحدث عن بعض ما كان منه من أحوال بعد مقتله! ونقف أمام هذه الأخبار:

قال الحسن بن محمد الحربي: سمعت جعفر بن محمد الصائغ يقول: رأيت أحمد بن نصر قُتل قال رأسه: لا إله إلا الله.

ونُقل عن الموكل بالرأس أنه سمعه في الليل يقرأ ﴿يسٓ﴾ [يس: ١]، وصح أنهم أقعدوا رجلًا لحراسة الرأس فكانت الريح تدير الرأس إلى القبلة، فيديرها الرجل إلى الجانب الآخر.

قال السراج: سمعت خلف بن سالم يقول بعدما قتل ابن نصر وقيل له: ألا تسمع ما الناس فيه يقولون إن رأس أحمد بن نصر يقرأ؟ فقال: كأن رأس حي يقرأ.

وقيل: رُئي في النوم فقيل ما فعل الله بك، قال: ما كانت إلا غفوة حتى لقيت الله، فضحك إلي.

وقيل إنه قال: غضبت له فأباحني النظر إلى وجهه.

ولا ينتهي أمر أحمد بن نصر بمقتله، بل نجد له ذيولًا فيها تحقيق لقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحج: ٣٨]، ومن دفاعه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن ينتقم لأوليائه الصالحين ممن ظلموهم.

وها نحن بين يدي الخليفة المتوكل في سنة سبع وثلاثين ومائتين وقد دخل عليه عبد العزيز ابن يحيى الكتاني. . وكان المتوكل على غير منهج من سبقه من الخلفاء الذين قالوا بخلق القرآن، وامتحنوا الناس، فكلمه الكتاني بشأن الخزاعي الذي كانت جثته معلقة في جهة ورأسه قد دفنت من قبل، فأمر المتوكل أن تُنزل الجثة وتدفن مع الرأس.

وانظر كيف لم ينس الناس هذا العالم بعد تلك السنوات الطويلة التي مرت على قتل الواثق له! وكان مما قاله الكتاني للمتوكل: يا أمير المؤمنين.. ما رأيت أعجب من أمر الواثق، قتل أحمد بن نصر، وكان لسانه يقرأ القرآن إلى أن دفن.... فأحس المتوكل بوحشة مما سمع بشأن أخيه الواثق، وأراد أن يتثبت من أمر أحمد بن نصر، فلما دخل عليه الوزير محمد بن عبد الملك الزيات قال له: في قلبي شيء من قتل أحمد بن نصر.

فقال الوزير مداهنًا للخليفة: يا أمير المؤمنين أحرقني الله بالنار، إن قتله أمير المؤمنين الواثق إلا كافرًا!!

ودخل عليه قائد من قادة جيوش العباسيين واسمه هرثمة وكان له يد في قتل الخزاعي: قطعني الله إربًا إربًا إن قتله إلا كافرًا!!

وسأله عنه القاضي أحمد بن أبي دؤاد فقال له: ضربني الله بالفالج إن قتله الواثق إلا كافرًا!!

لقد دعا كل من هؤلاء الثلاثة على نفسه بدعوة زاعمًا أن الواثق كان محقًا في قتل أحمد بن نصر، ورموه بالكفر! فماذا كانت عاقبة كل واحد منهم؟

فأما ابن الزيات فقد أعد لخصومه تنورًا يعذبهم فيه، فغضب عليه المتوكل وعزله عن الوزارة وعذبه في ذلك التنور حتى مات.

وأما هرثمة فهرب من المتوكل إذ حل عليه غضبه، فاجتاز بقبيلة خزاعة وعرفه رجل من الحي فقال: يا معشر خزاعة هذا الذي قتل ابن عمكم أحمد بن نصر فأقبلوا عليه فقطعوه إربًا إربًا!!

وأما ابن أبي دؤاد فقد أصيب بالفالج [الشلل] قبل موته بسنين وغضب عليه المتوكل وصادر كل ما جمعه في حياته، ولقي في آخر عمره الهوان بعد عز طويل لدى الخلفاء السابقين.

رحم الله أحمد بن نصر الخزاعي الذي شهد له أئمة الإسلام بما علموا من حاله. .

لقد كان أحمد بن نصر الخزاعي واحدًا من أربعة علماء ثبتوا في محنة خلق القرآن ولم يلجؤوا إلى التقية خوفًا على أنفسهم!

رحم الله أئمة الهدى الذين ينطقون بالحق وبه يعملون

المصادر:

- «سير أعلام النبلاء» للذهبي.
- «البداية والنهاية» لابن كثير.
- «صفة الصفوة» لابن الجوزي.
- «تهذيب الكمال».

الإمام/ الأوزاعي

تطلع المسلمون إلى زمان مشرق حين سقطت الدولة الأموية وبدأ عهد بني العباس، يستشعرون في هذا العهد بالعدالة التي يقودها آل بيت رسول الله ﷺ إلى مرافئ العدل والإنصاف والمنن، وقد قام الدعاة في كل مكان يعيدون مثالب الأمويين وفظائعهم على الأسماع، لاعنين منكرين ومبشرين بزمان صالح يتزعمه رجال يهدون إلى الحق وهم به يعدلون.

وبدأ أمير المؤمنين الخليفة الأول أبو العباس عبد الله بن محمد بن علي عهده بالصلاة الجامعة بالكوفة، ورقى المنبر فحمد الله وأثنى عليه، وافتخر بقرابته لرسول الله ﷺ، وندد بما قام به الفجرة من بني حرب ومروان، ثم قال: وإني أرجو ألا يأتيكم الجور من حيث أتاكم الخير، ولا الفساد من حيث جاءكم الصلاح وما توفيقنا أهل البيت إلا بالله.

ثم أدركته وعكة مرضية فجلس على المنبر، وصعد عمه داود بن علي ليقول من خطبته الشهيرة: إنا والله ما خرجنا في هذا الأمر لنكثر لجينًا ولا عقيانًا، ولا لنحفر نهرًا ولا نبني قصرًا، وإنما أخرجنا الأنفة من ابتزازهم حقنا والغضب لبني عمنا، وما كرثنا من أموركم، وبهظنا من شئونكم، ولقد كانت أموركم واستذلهم لكم، واستئثارهم بفيئكم وصدقاتكم ومغانمكم، ولكم ذمة الله وذمة رسوله ﷺ وذمة العباس رحمه الله، أن نحكم فيكم بما أنزل الله، ونعمل فيكم بكتاب الله، ونسيرَ في العامة منكم والخاصة بسيرة رسول الله ﷺ، فو الله ما صعد منبركم هذا بعد رسول الله ﷺ إلا أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب، وأمير المؤمنين أبو العباس!!

ولكن الذين أعطوا الناس ذمة الله وذمة رسوله أن يحكموا بما أنزل الله وبسنة رسول الله ﷺ ويسيروا في العامة والخاصة بكتاب الله، صاروا يمعنون في الغدر

وسفك الدماء وإزهاق النفوس وخيانة العهد إلى مدى بعث الفزع وزلزل الاطمئنان، وعطفت النفوس إلى الأمويين حين، وجدول آلافًا من الأرواح تزهق وزلازل من الحروب تشب، فأخذوا بالظنة دون تحقيق، ومبادرة الشر دون تريث، حتى صار المصبح مشفقًا أن يمسي دمه ريًا للأرض، ولحمه طعامًا للطير ومصرعه حسرة في قلوب الأقربين.

وكان أشد بني العباس عصفًا بالأرواح وهيجانًا للشر، وزلزلة للسكينة [عبد الله بن علي] عم أمير المؤمنين، حتى وصفته بعض الروايات التاريخية بالسفاح، إذ أنه أحق بهذا اللقب من ابن أخيه.

هذا العم الغاشم قد اعتقد أنه ظل الله في أرضه، يعز من يشاء ويذل من يشاء، وقد انهزم بني مروان بن محمد على يده في معركة الزاب، فعد ذلك مبعث فخر متطاول، ورأى نفسه صاحب الأمر الحقيقي، إذ استطاع أن يهزم آخر خليفة مرواني، ثم أخذ يتبعه بجنوده حتى تم مصرعه، وأورثه ذلك جماحًا ونزقًا، فأخذ يتبع العزل من بني حرب، ليستأصل شأفة الأيتام والأرامل والعجزة من النساء! وكأنه جرى في سباق دموي مع أبي مسلم الخراساني، فإذا أباد أحدهما معشرًا نافسه الآخر بأضعاف ما أباد، لا يرقبان في الله إلا ولا ذمة! وحقت كلمة الله، فوقع البأس بين الطغاة، وأكل بعضهم بعضًا في النهاية.

كان في أهل الشام غيرة وحفيظة، فقد عز عليهم أن يفتك بالناس لمجرد الشبهة، فكل من كانت له صلة ما ببني أمية لقى حتفه من عبد الله بن علي، والشام حاضرة الأمويين وعرين سلطانهم، فلا ريب أن يكثر بها الأشياع والمريدون، ولا ريب أن يستعر القتل والاغتيال فيها، وأن تعطى عهود الأمان، حتى إذا استسلم الخائف لقى مصرعه دون اكتراث بوفاء! فتهامس المتهامسون مستائين، وغمر القوم شعور لهيف بالمأساة! فإخوانهم من حولهم مضرجين بالدماء!.

وإذا كان آل رسول الله من بني العباس قد نهضوا ليحقوا الحق! فما لهم يفعلون ما لا يقولون، وما لعبد الله يشعل الحرائق أنى سار! وجاءت الأنباء لعبد الله بن علي، فرأى أن يُسكت الناقدين باسم الدين، وأن يكون ذلك على رءوس الأشهاد إذ يستجوب فقيه الشام وعالمها الكبير أبا عمرو عبد الله الأوزاعي في دماء بني أمية وأموالهم، ولن يجرؤ الفقيه –في ظن الطاغي– أن يفتي بما يخالف هواه، وهو يرى السيوف تبرق والدماء تسيل.

كان الإمام الأوزاعي صاحب مهابة وجلال، وله في الفقه إمامة ذات صدارة، فقد تخرج في مدرسة الصحابة من أمثال أبي عبيدة بن الجراح، وبلال وشرحبيل رضي الله عنهم أجمعين، ممن كان لهم بديار الشام مقام، وأخذ العلم عن عطاء وابن سيرين ومكحول والثوري، وروى عن جماعة من مشيخة الفقهاء ممن كانوا في طبقة أساتذته كقتادة والزهري، قال الذهبي في «السير»: روى عنه ابن شهاب الزهري وشعبة والثوري وخلق كثير، وقال عنه محمد بن سعد كان ثقة ولد سنة ثمان وثمانين من الهجرة، وكان خيرًا فاضلًا، مأمونًا كثير العلم والحديث والفقه، حُجة توفي سنة سبع وخمسين ومئة، وكان فقيه أهل الشام.

وقال مالك: الأوزاعي إمام يُقتدى به، وقال الخريبي: كان أفضل أهل زمانه، وقال الذهبي: كان كبير الشأن. وقال ابن خلكان في ترجمته: هو إمام أهل الشام ولم يكن بالشام أعلم منه، ثم حكى عنه، إن سفيان الثوري بلغه مقدم الأوزاعي فخرج حتى لقيه بذي طوى، فحل سفيان رأس بعيره من القطار ووضعه في رقبته، فكان إذا مر بجماعة قال: الطريق للشيخ، ومع أنه صاحب مذهب فقهي تبعه الناس أحقابًا ثم اندرس، فقد كان أديبًا فصيح اللسان، قوي الأسلوب، جزل العبارة.

طلب عبد الله بن علي كبير علماء الشام وإمام الفقه في الإقليم أن يحضر إليه فتغيب عنه ثلاثة أيام ثم حضر بين يديه، قال الأوزاعي: دخلت عليه وهو على سرير وفي يديه خيرزانة

والمسودة عن يمينه وشماله معهم السيوف مصلّتة والغمد والحديد، فسلمت عليه فلم يرد ونكث بتلك الخيزرانة التي في يده.

وأجلس الأوزاعي في صدر المجلس وكأنه يحاول بالترحيب به أن يميله إلى حاشيته، ثم بدأ فتكلم عن مآثم بني أمية، وما صنعوه بالحسين وآل البيت، ثم ما قام به ولاتهم من أمثال الحجاج وعمر بن يوسف وعبد الله بن زياد من إرهاب وطغيان، واتجه بالسؤال إلى الأوزاعي فقال: يا أوزاعي، ما ترى فيما صنعناه من إزالة أيدي الظلمة عن العباد، والبلاد؟ أجهادًا ورباطًا هو؟

فرد الشيخ في صرامة: أيها الأمير سمعت يحيى بن سعيد الأنصاري يقول سمعت محمد ابن إبراهيم التيمي يقول: سمعت علقمة بن وقاص يقول: سمعت عمر بن الخطاب يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إنما الأعمال بالنيات، ولكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها، فهجرته إلى ما هاجر إليه»**.

فنكث بالخيزرانة أشد ما ينكث وجعل من حوله يقبضون أيديهم على قبضات سيوفهم وتمعر وجهه وظهر الغضب في وجهه، ولكنه كظم غيظه وسأل متجهمًا: يا أوزاعي ما تقول في دماء بني أمية؟

فلم يلبث أن هتف الشيخ بالرأي الصريح: قد كانت بينك وبينهم عهود، وكان من الواجب شرعًا أن تفي بها.

فلم يتمالك الطاغية أن صاح وقد اشرأبت أعناق القوم: اجعلني وإياهم لا عهد بيننا؟

فنظر الأوزاعي في حدة ثم صاح: دماؤهم عليك حرام!

ثارت ثائرة عبد الله وهَمَّ أن يبطش بالشيخ، ولكن ماذا سيقول بعد مصرعه؟ إن الجريمة قد سجلت عليه دون إفلات، ولابد من ملاينته ليتراجع قليلًا، فاصطنع الهدوء وقال للأوزاعي: وما دليلك ياشيخ الشام؟

فلم يمهله الأوزاعي أن هتف في اعتداد: قال رسول الله ﷺ: **«لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث النفس بالنفس، والثيب الزاني، والتارك لدينه المفارق للجماعة»**.

تعقد المأرق وأسوَّد، وضاقت الدنيا في وجه عبد الله فنكث الخيرزانة أشد من ذلك، ثم رأى أن يتراجع عن الدماء ويسأل عن الأموال، فقال: وما رأيك في أموالهم؟

وهنا أجاب الأوزاعي في هدوء مستقر واطمئنان لا يتزعزع: إن كانت أموالهم في أيديهم حرامًا فهي عليك أيضًا، وإن كانت حلالًا فقد تحل لك إلا بطريق شرعي.

هنا بلغ الغيظ حدته بالطاغية فصاح محنقًا: ما هذا؟ أليس الأمر لنا آل البيت ديانة.

فابتسم الأوزاعي قائلًا: كيف هذا؟

فرد عبد الله متجديًا: ألم يوص رسول الله ﷺ إلى علي؟

فهزَّ الأوزاعي رأسه وقال في ابتسام: لو أوصى إليه ما حكم الحكمين!!

فنكث بالخيرزانة أشد ما كان ينكث قبل ذلك ثم قال: ألا نوليك القضاء؟

قال الأوزاعي: إن أسلافك لم يكونوا يشقون عليَّ في ذلك، وأني أحب أن يتم ما ابتدأوني به من الإحسان.

قال عبد الله: كأنك تحب الانصراف؟

قال الأوزاعي: إن ورائي حرمًا وهن يحتجن إلى القيام عليهن وسترهن وقلوبهن مشغولة بسببي.

وهنا انتظر الأوزاعي أن يأمر الطاغية بسقوط رأسه بين يده ولكن الطاغية صاح بأتباعه: أخرجوه، أخرجوه.

فخرجت وركبت دابتي وانصرفت، فلم أعلم حين وصلت إلى بيروت إلا وعثمان على البريد، قال: قلت: بدا للرجل في، فقال: إن الأمير غفل عن جائزتك، وقد بعث لك بمائتي دينار.

قال أحمد: قال ابن أبي العشرين: فلم يبرح الأوزاعي مكانه حتى فرقها في الأيتام والأرامل والفقراء.

وأخذ يبيت عبد الله بن علي في نفسه للأوزاعي الشر ليعصف به عن قريب. انتشر في الناس حوار الأوزاعي، ولكن الطاغية يُشغل عنه بالعبء الفادح، إذ يجيئه النبأ بموت أمير المؤمنين ومبايعة أبو جعفر المنصور، وكان يرى لنفسه الأمر، فيهيج هائجة ويهيء الجنود لمقاتلة المنصور زاحفًا بكتائبه المتراصة، ويرميه أبو جعفر بخصمه اللدود أبو مسلم الخراساني فيتعارك الطاغيتان، وتدور الدائرة على طاغية الشام، ثم لا تمهل طاغية خراسان فيلقى مصرعه على يد طاغية ثالث، وكذلك نولي بعض الظالمين بعضًا.

يقول الأوزاعي: بعث إليَّ المنصور أمير المؤمنين وأنا بساحل الشام، فأتيته، فلما وصلت إليه وسلمت عليه بالخلافة، ردَّ عليَّ واستجلسني ثم **قال**: ما الذي أبطأك عنا يا أوزاعي؟

قلت: وما الذي تريد يا أمير المؤمنين؟

قال: أريد الأخذ عنكم والاقتباس منكم.

قلت: فانظر يا أمير المؤمنين أن تسمع شيئًا ثم لا تعمل به.

فصاح بي الربيع وأهوى بيده إلى السيف، فانتهره المنصور وقال: هذا مجلس مثوبة لا مجلس عقوبة.

فطابت نفسي وانبسطت في الكلام، فقلت: يا أمير المؤمنين، قال رسول الله ﷺ: «**أيما عبد جاءته موعظة من الله في دينه، فإنها نعمة من الله سيقت إليه؛ فإن قبلها بشكر وإلا كانت حجة من الله عليه**».

يا أمير المؤمنين، قال رسول الله ﷺ: «**أيما والٍ بات غاشًا لرعيته حرم الله عليه الجنة**» يا أمير المؤمنين إن رسول الله ﷺ دعا إلى القصاص من نفسه في خدش خدشه أعرابيًا لم يتعمده فأتاه جبريل، فقال: يا محمد إن الله لم يبعثك جبارًا متكبرًا، فدعا النبي ﷺ الأعرابي فقال: «**اقتص مني**» فقال الأعرابي: قد أحللتك بأبي أنت وأمي، وما كنت لأفعل ذلك أبدًا ولو أتيت على نفسي. فدعا له بخير.

يا أمير المؤمنين رض نفسك لنفسك، وخذ لها الأمان من ربك، يا أمير المؤمنين إن الملك لو بقي لمن قبلك لم يصل إليك، وكذا لا يبقى لك كما لم يبق لغيرك،

يا أمير المؤمنين جاء في تأويل هذه الآية عن النبي ﷺ: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ [الكهف: ٤٩]. قال: [الصغيرة التبسم والكبيرة الضحك]، فكيف بما عملته الأيدي وحصدته الألسن، يا أمير المؤمنين بلغني أن عمر بن الخطاب قال: لو ماتت سخلة على شاطئ الفرات، ضيعة، لخشيت أن أُسأل عنها، فكيف بمن حرم عدلك وهو على بساطك.

يا أمير المؤمنين جاء في تأويل هذه الآية عن جدك: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾ [ص: ٢٦]. قال: يا داود أقعد الخصمين بين يديك، وإن كان لك في أحدهما هوى فلا تمنين في نفسك أن يكون الحق له، فيفلج على صاحبه فأمحوك من نبوتي ثم لا تكون خليفتي، يا داود جعلت رسلي إلى عبادي رعاء كرعاء الإبل لعلمهم بالرعية ورفقهم بالسياسة، ليجبروا الكسير ويكلئوا الهزيل على الكلأ والماء.

يا أمير المؤمنين استعمل عمر بن الخطاب رجلًا من الأنصار على الصدقة، فرآه بعد أيام مقيمًا، فقال له: ما منعك من الخروج إلى عملك، أما علمت أن لك مثل أجر المجاهد في سبيل الله؟ قال: لا، قال: وكيف ذلك؟ قال: لأنه بلغني أن الرسول ﷺ قال: **«ما من والٍ يلي شيئًا من أمور المسلمين، إلا أُتي به يوم القيامة مغلولًا يده إلى عنقه على جسر في النار ينتفض به ذلك الجسر انتفاضة، يزيل كل عضو منه عن موضعه، ثم يُعاد فيحاسب؛ فإن كان محسنًا نجا بإحسانه، وإن كان مسيئًا انخرق به ذلك الجسر، فهوى به في النار سبعين خريفًا»**. فقال له: ممن سمعت هذا؟ فقال: من أبي ذر وسلمان. فأرسل إليهما عمر فسألهما: فقالا: نعم سمعناه من رسول الله ﷺ، قال عمر: واعمراه، من يتولاها بما فيها.

فأخذ أبو جعفر المنصور المنديل فوضعه على وجهه ثم بكى وانتحب حتى أبكاني.

ثم قلت: يا أمير المؤمنين قد سأل جدك العباس النبي ﷺ إمارة مكة والطائف واليمن، فقال له النبي ﷺ: **«يا عم نفس تنجيها، خير من إمارة لا تحصيها»** نصيحة منه لعمه وشفقه منه عليه، وأنه لا يغني عنه من الله شيئًا، إذ أوحى الله إليه: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٤]. فقال: **«يا عباس ويا صفية ويا فاطمة، إني لست أُغني عنكم من الله شيئًا، لي عملي ولكم عملكم»** وقد قال عمر بن الخطاب: لا يقيم أمر الناس إلا حصيف العقل، لا تأخذه في الله لومة لائم، وقال: السلطان أربعة أمراء؛ فأمير ظلف نفسه وعُماله، فذلك كالمجاهد في سبيل الله يد الله عليه باسطة بالرحمة، وأمير ضعيف ظلف نفسه وأرتع عماله بضعفه، فهو على شفا هلاك إلا أن يرحمه الله. وأمير ظلف عماله وأرتع لنفسه، فذلك الذي قال رسول الله ﷺ: **«شر الدعاة الحطمة»** فهو الهالك وحده، وأمير أرتع نفسه وعماله فهلكوا جميعًا، وقد بلغني يا أمير المؤمنين أن جبريل أتى النبي ﷺ فقال: أتيتك حين أمر الله بمنافيخ النار، فوضعت على النار تُسعر ليوم القيامة،

فقال له: «يا جبريل صف لي النار». فقال: إن الله عَزَّ وَجَلَّ أمر بها فأوقد عليها ألف عام حتى احمرت ثم أوقد عليها ألف عام حتى اصفرت ثم أوقد عليها ألف عام حتى اسودت، فهي سوداء مظلمة لا يضيء لهبها ولا يطفأ جمرها، والذي بعثك بالحق لو أن ثوبًا من ثياب أهل النار أظهر لأهل الأرض لماتوا جميعًا، ولو أن ذنوبًا من شرابها صب في ماء الأرض جميعًا لقتل من ذاقه. ولو أن ذراعًا من السلسلة التي ذكر الله وضع على جبال الأرض جميعًا لذابت وما استقرت، ولو أن رجلًا أُدخل النار ثم أُخرج منها لمات أهل الأرض من نتن ريحه وتشويه خلقه، فبكى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبكى جبريل لبكائه، وقال: أتبكي يا محمد وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «أفلا أكون عبدًا شكورًا»، ولِمَ بكيت يا جبريل وأنت الروح الأمين؟ فقال: أخف أن أُبتلى بما ابتلي به هاروت وماروت.

يا أمير المؤمنين! إن أشد الشدة القيام لله بحقه، وإن أكرم الكرم عند الله التقوى، وإنه من طلب العز بطاعة الله رفعه الله وأعزه، ومن طلبه بمعصية الله أذله الله ووضعه، فهي نصيحتي، والسلام عليك. ثم نهض فقال له الأمير: إلى أين؟

قلت: إلى الولد والوطن بإذن أمير المؤمنين إن شاء الله.

قال: فقد أذنت لك، وشكرت لك نصيحتك، وقبلتها بقبولها، والله الموفق للخير والمعين عليه وبه أستعين وعليه أتوكل، وهو حسبي ونعم الوكيل، فلا يخلني من مطالعتك إياي بمثلها؛ فإنك المقبول القول غير المتهم في النصيحة.

قلت: أفعل إن شاء الله.

قال محمد بن مصعب: فأمر له بمال يستعين به على خروجه، فلم يقبله، وقال: لنا في ذلك غنى عنه، وما كنت لأبيع نصيحتي بعرض الدنيا كلها.

وعرف المنصور مذهبه، فلم يجد عليه في رده.

مضت الأيام وعاش الإمام الأوزاعي مبجلًا مهيبًا في دمشق، ثم ارتحل إلى بيروت، فأقام بها حيث جاءه اليقين، فنفر الناس إلى تشييع جنازته متزاحمين، وتطلع عامل المدينة ليرى الجند المتزاحم خلف نعشه فيقول في تعجبٍ: رحمك الله أبا عمر فقد كنت أخافك أكثر من أمير المؤمنين الذي ولاني.

قال ابن كثير في «البداية والنهاية»: رآه بعضهم في المنام فقال له: دلني على عمل يقربني إلى الله، فقال: ما رأيت درجة أعلى من درجة العلماء العاملين ثم المحزونين.



المصادر:

- «البداية والنهاية» لابن كثير.
- «الإسلام بين العلماء والحكام» لعبد العظيم بدوي.
- «علماء في وجه الطغيان» لمحمد رجب البيومي.
- «سير أعلام النبلاء» للذهبي (٧/ ١٠٧).

الإمام/ الحسن بن علي بن خلف البربهاري

اسمه ونسبه:

هو شيخ الحنابة، القدوة الإمام، الحافظ المتقن، الثقة الفقيه أبو محمد الحسن بن على بن خلف البربهاري بفتح الباء الموحدة وسكون الراء المهملة وفتح الباء الثانية أيضًا والراء المهملة أيضًا بعد الهاء و الألف، نسبة إلى بربهار وهي الأدوية التي تُجلب من الهند.

حياته:

نشا أبو محمد وسط بيئة علمية جيدة، فقد صحب جماعة من أصحاب الإمام أحمد منهم الإمام أحمد بن محمد أبو بكر المروزي صاحب الإمام أحمد وأحد نجباء تلاميذه، وصحب أيضًا سهل بن عبد الله التستري وروى عنه قوله (إن الله خلق الدنيا، وجعل فيها جُهالًا وعلماء، وأفضل العلم ما عُمل به، والعلم كله حجة إلا ما عُمل به، والعمل به هباء إلا ما صح فلست أقطع به إلا باستثناء ما شاء الله.

هيبته ومكانته:

كان الإمام البربهاري قوالًا بالحق، داعية إلى الأثر، لا يخاف في الله لومة لائم وكان شديد الإنكار على أهل البدع والأهواء، شديد المباينة لهم باليد واللسان، صاحب صيت عند السلطان ولقد ذكر المؤرخون قصة تبين عِظم مكانة هذا الإمام فقد سرق القرامطة الحُجاج فقام فقال: يا قوم من كان يحتاج إلى معاونة بمائة ألف دينار ومائة ألف دينار ومائة ألف دينار- خمس مرات - عاونته.

قال الذهبي في «السير»: هو شيخ الحنابلة القدوة الإمام أبو محمد الحسن بن علي بن خلف البربهاري الفقيه.

كان قوالًا بالحق، داعية إلى الأثر، لا يخاف في الله لومة لائم.

وقال ابن بطة: لو أرادها معاونة لحصلها من الناس. ومما يدل على مكانته أن أبا عبد الله بن عرفة المعروف بنفطويه لما مات في صفر سنة ثلاثة وعشرين وثلاثمائة (حضر جنازته أماثل أبناء الدنيا والدين فقُدم البربهاري لإمامة الناس، وفي هذه السنة ازدادت حشمة البربهاري وعلت كلمته وظهر أصحابه وأنشروا في الإنكار على المبتدعة فبلغنا أن البربهاري اجتاز بالجانب الغربي فعطس شمته أصحابه فارتفعت ضجتهم حتى سمعها الخليفة وهو في روشنة فسأل عن الحال؟ فأُخبر بها.فاستهولها.

زهده وورعه:

اشتهر البربهاري بالزهد في متاع الدنيا، زهد الذي يملك الدنيا ولكن يضعها في كفه، أما حب الله ورسوله وإعلاء الحق ففي قلبه.

ولذا ذكّر المترجمون له أنه: تنزه من ميراث أبيه عن سبعين ألف درهم.

موقفه من أهل البدع:

لعل أكبر وأجل صفة اشتهر بها الإمام البربهاري هي الإنكار الشديد على أهل البدع، ولقد كان عصره عصرًا تموج فيه الأهواء والضلالات وتذهب بالناس مذاهب شتى فكان أبو الحسن من حاملي لواء السنة وقمع البدعة، ولذلك لما دخل أبو الحسن الأشعري إلى بغداد وجاء إلى البربهاري فجعل يقول: رددت على الجبائي، وعلى أبي هاشم، ونقضت عليهم وعلى اليهود والنصارى والمجوس، وقلت لهم وقالوا، وأكثر الكلام في ذلك فلما سكت؛ قال البربهاري: ما أدري مما قلت قليلًا ولا كثيرًا ولا نعرف إلا ما قاله أبو عبد الله أحمد بن حنبل، فخرج الأشعري من عنده وصنف «كتاب الإبانة» فلم يقبله منه، ولم يظهر ببغداد إلى أن خرج منها.

وذكر ابن بطة أن بعض المحبين للبربهاري مما يحضر مجلسه من العوام مر وهو سكران على بدعي، فقال البدعي: هؤلاء الحنبلية، فرجع إليه وقال: الحنبلية على ثلاثة أصناف: صنف زهاد يصومون ويصلون، وصنف يكتبون و يتفقهون، وصنف يصفعون كل مخالف مثلك وصفعه وأوجعه.

بعض أقواله:

يقول البربهاري: مثل أصحاب البدع مثل العقارب يدفنون رؤوسهم وأيديهم في التراب ويخرجون أذنابهم فإذا تمكنوا لدغوا، وكذلك أهل البدع هم مختفون بين الناس فإذا تمكنوا بلغوا ما أرادوا.

ومن أقواله النافعة: المجالسة للمناصحة فتح باب الفائدة، و المجالس للمناظرة غلق باب الفائدة.

محنته ووفاته:

امتحن هذا الإمام كما امتحن الصالحون من قبله، قد كانت المبتدعة تغيض قبل السلطان عليه، ففي سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة في خلافة القاهر ووزيره ابن مقلة تقدم بالقبض على البربهاري فاستتر، وقبض على جماعة من كبار أصحابه وحُملوا إلى البصرة، فعاقب الله ابن مقلة على فعله ذلك بأن أسخط الله عليه القاهر بالله، وهرب ابن مقلة وعزله القاهر عن وزارته وطرح في داره النار، فقبض على القاهر بالله سنة ٣٢٢ هـ وحبس وخلع من الخلافة وسملت عيناه حتى سالتا جميعًا فعمي.

ثم جاء الخليفة الراضي فلم تزل المبتدعة توحش قلب الراضي حتى نودي في بغداد أن لا يجتمع من أصحاب البربهاري نفسان، فاستتروا وكان ينزل بالجانب الغربي بباب محول،

فانتقل إلى الجانب الشرقي مستترًا فتوفي في الاستتار في رجب سنة ٣٢٩ هـ وله ست وتسعون سنة. وقيل: بل عاش سبعًا وسبعين سنة وكان في أخر عمره قد تزوج بجارية.

قال أبو الحسين بن الفراء: كان للبربهاري مجاهدات ومقامات في الدين، وكان المخالفون يغلظون قلب السلطان عليه، ففي سنة إحدى وعشرون وثلاث مئة، أرادوا حبسه، فاختفى، وأُخذ كبار أصحابه وحُملوا إلى البصرة، فعاقب الله الوزير ابن مقلة، وأعاد الله البربهاري إلى حشمته، وزادت وكثر أصحابه، فبلغنا أنه اجتاز بالجانب الغربي فعطس فشمته أصحابه، فارتفعت ضجتهم [من كثرتهم] حتى سمعها الخليفة، فأخبر بالحال، ثم لم تزل المبتدعة تُوحش قلب الراضي، حتى نودي في بغداد: لا يجتمع اثنان من أصحاب البربهاري، فاختفى، وتوفي مستترًا في رجب سنة ثمان وعشرون وثلاث مئة، فدفن بدار أخت توزون [أحد القواد الأتراك] فقيل إنه لما كُفن وعنده الخادم، صلى عليه وحده، فنظرت الجارية من الروشن [الكوة] فرأت البيت ملآن رجالًا في ثياب بيض، يصلون عليه، فخافت وطلبت الخادم، فحلف أن الباب لم يفتح.

وفي تاريخ محمد بن مهدي أن في سنة ثلاث وعشرون أوقع بأصحاب البربهاري فاستتر، وتتبع أصحابه ونهبت منازلهم.



المصادر:

- «سير أعلام النبلاء» للذهبي.

الإمام المحدث/ ابن سمعون

قال الذهبي: هو الشيخ الإمام الواعظ الكبير المحدث أبو الحسين محمد بن أحمد بن إسماعيل بن عنبس البغدادي شيخ زمانه ببغداد.

قال السلمي: هو من مشايخ البغداديين له لسان عال في هذه العلوم، لا ينتمي إلى أستاذ، وهو لسان الوقت، والمرجوع إليه في آداب المعاملات، يرجع إلى فنون من العلم.

وقال الخطيب البغدادي: كان أوحد دهره، وفرد عصره في الكلام على علم الخواطر، دون الناس حكمه، وكان بعض شيوخنا إذا حدث عنه قال حدثنا الشيخ الجليل المنطق بالحكمة.

قال أبو محمد السني صاحب أبي الحسين بن سمعون: كان ابن سمعون في أول أمره ينسخ بالأجرة، وينفق على نفسه وأمه، فقال لها يومًا: أحب أن أحج!

قالت: وكيف يمكنك؟

فغلب عليها النوم، فنامت وانتبهت بعد ساعة، وقالت: ياولدي حج، رأيت رسول الله ﷺ في النوم يقول: دعيه يحج فإن الخير له في حجه.

ففرح وباع دفاتره، ودفع إليها من ثمنها، وخرج مع الوفد، فأخذت العرب الوفد، قال: وبقيت عُريانًا، فجعلت إذا غلب عليَّ الجوع ووجدت قومًا من الحجاج يأكلون وقفت، فيدفعون إليَّ بكسرة فأقتنع بها، ووجدت مع رجل عباءة، فقلت: هبها لي أستتر بها، فأعطانيها وأحرمت فيه، ورجعت، وكان الخليفة قدم حُرم جارية وأراد إخراجها من الدار.

قال السني: فقال الخليفة اطلبوا رجلًا مستورًا يصلح (أن تُزوج هذه الجارية به) فقيل: قد جاء ابن سمعون فاستصوب الخليفة ذلك، وزوجه بها، فكان يعظ ويقول: خرجت حاجًا، ويشرح حاله ويقول: ها أنا اليوم عليَّ من الثياب ما ترون.

ولما دخل عضد الدولة بغداد وقد هلك أهلها قتلًا وخوفًا وجوعًا للفتن التي اتصلت بين السنة والشيعة، فقال: آفة هؤلاء القصاص، فمنعهم، قال: من خالف أباح دمه، فعرف ابن سمعون، فجلس على كرسيه، فأمرني مولاي، فأحضرته، فدخل رجل عليه نور، قال: فجلس إلى جنبي غير مكترث، فقلت: إن هذا الملك جبار عظيم، ما أوثر لك مخالفته، وإني موصلك إليه، فقبل الأرض وتلطف له واستهن بالله عليه.

فقال: الخلق والأمر لله.

فمضيت به إلى حجرة قد جلس فيها الملك وحده، فأوقفته ثم دخلت أستأذن، فإذا هو إلى جانبي، وحول وجهه إلى دار عز الدولة ثم تلا: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ﴾ [هود: ١٠٢]، ثم حول وجهه وقرأ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٤]، ثم أخذ في وعظه، فأتى بالعجب، فدمعت عين الملك، وما رأيت ذلك منه قط، وشرك كمه على وجهه، فلما خرج أبو الحسين: قال الملك: اذهب إليه بثلاثة آلاف درهم وعشرة أثواب من الخزانة فإن امتنع فقل له: فرقها على أصحابك، وإن قبلها فجئني برأسه. ففعلت.

فقال الإمام: إن ثيابي هذه فصلت من نحو أربعين سنة ألبسها يوم خروجي وأطويها عند رجوعي، وفيها متعة وبقية ونفقتي من أجرة دار خلفها أبي، فما أصنع بهذا؟

قلت: فرقها على أصحابك!

قال: ما في أصحابي فقير.

فعدت إلى الملك فأخبرته، فقال: الحمد لله الذي سلمه منا وسلمنا منه.

المصادر: - «سير أعلام النبلاء» للذهبي.

شيخ الإسلام/ أبو نعيم

يقول عنه الذهبي في «السير»: هو الفضل بن دُكين، الحافظ الكبير شيخ الإسلام الفضل بن عمرو بن حماد بن زهير بن درهم التيمي، الطلحي القرشي مولاهم الكوفي الملائي الأحول مولى آل طلحه بن عبيد الله.

قال أحمد بن منصور الرمادي: خرجت مع أحمد ويحيى إلى عبد الرزاق خادمًا لهما، قال: فلما عُدنا إلى الكوفة قال يحيى بن معين: أريد أن أختبر أبا نعيم، فقال أحمد: لا ترد، فالرجل ثقة، قال يحي: لابد لي. . فأخذ ورقة، فكتب فيها ثلاثين حديثًا وجعل على رأس كل عشرة منها حديثًا ليس من حديثه، ثم إنهم جاؤوا إلى أبي نعيم، فخرج، وجلس على دكان طين، وأخذ أحمد بن حنبل فأجلسه عن يمينه، ويحيى عن يساره، وجلست أسفل الدكان، ثم أخرج يحيى الطبق، فقرأ عليه عشرة أحاديث، فلما قرأ الحادي عشر، قال أبو نعيم: ليس هذا من حديثي، اضرب عليه، ثم قرأ العشر الثاني، وأبو نعيم ساكت، فقرأ الحديث الثاني، فقال أبو نعيم ليس هذا من حديثي فاضرب عليه، ثم قرأ العشر الثالث، ثم قرأ الحديث الثالث، فتغير أبو نعيم، وانقلبت عيناه، ثم أقبل على يحيى، فقال: أما هذا [وذراع أحمد بيده] فأروع من أن يعمل مثل هذا، وأما هذا [يريدني] فأقل من أن يفعل ذلك، ولكن هذا من فعلك يا فاعل، وأخرج رجله فرفس يحيى، فرمى به من الدكان، وقام فدخل داره، فقال أحمد بن حنبل ليحيى: ألم أمنعك وأقل لك، إنه ثبت، قال: والله لرفسته لي أحب إليَّ من سفرتي.

قال أبو العباس السراج عن الكديمي: لما دخل أبو نعيم على الوالي ليمتحنه، ثم يونس وأبو غسان وغيرهما، فأول من امتحن فلان فأجاب، ثم عطف على أبو نعيم، فقال: قد أجاب هذا، فما تقول؟

فقال: والله ما زلت أتهم جده بالزندقة، ولقد أخبرني يونس بن بكير أنه سمع جده يقول: لا بأس أن يرمي الجمرة بالقوارير، أدركت الكوفة وبها أكثر من سبع مئة شيخ، الأعمش فمن دونه يقولون: القرآن كلام الله وعنقي أهون من زري هذا.

فقام إليه أحمد بن يونس، فقبل رأسه [وكان بينهما شحناء] وقال: جزاك الله من شيخ خيرًا.

قال عبد الصمد بن المهتدي: لما دخل المأمون بغداد، نادى بترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وذلك لأن الشيوخ بقوا يُضربون ويُحبسون، فنهاهم المأمون، وقال: قد اجتمع الناس على إمام.

فمر أبو نعيم فرأى جنديًا وقد أدخل يديه بين فخذي امرأة، فنهاه بعنف، فحمله إلى الوالي، فيحمله الوالي إلى المأمون.

قال: فأدخلت عليه بكره وهو يسبح، فقال: توضأ، فتوضأت ثلاثًا ثلاثًا على ما رواه عبدُ خيرٍ، عن علي، فصليت ركعتين، فقال: ما تقول في رجل مات عن أبوين؟

فقلت: للأم الثلث، وما بقي للأب.

قال: فإن خلف أبوين وأخاه؟

قلت: المسألة بحالها، وسقط الأخ.

قال: فإن خلف أبوين وأخوين؟

قلت: للأم السدس وما بقي للأب.

قال: في قول الناس كلهم؟

قلت: لا، إن جدك ابن عباس يا أمير المؤمنين ما حجب الأم عن الثلث إلا بثلاثة إخوة.

فقال: يا هذا، من نهى مثلك عن الأمر بالمعروف؟! إنما نهينا أقوامًا يجعلون المعروف منكرًا.

ثم انصرف أبو نعيم من عند المأمون وقد سلمه الله من بطش المأمون وأعوانه .

القاضي/ شريك بن عبد الله

قال عنه الذهبي في «السير»: ابن عبد الله العلامة الحافظ القاضي أبو عبد الله النخعي؛ أحد الأعلام، على لين ما في حديثه، توقف بعض الأئمة عن الاحتجاج بمفاريده.

قال ابن المبارك: شريك أعلم بحديث بلده من الثوري. فذكر هذا لابن معين فقال: ليس يقاس بسفيان أحد، لكن شريك أروى منه في بعض المشايخ.

قال حمدان بن الأصبهاني: كنتُ عند شريك فأتاه بعض ولد المهدي، فاستند فسأله عن حديث، فلم يلتفت إليه، وأقبل علينا، ثم أعاد، فعاد بمثل ذلك، فقال: كأنك تستخف بأولاد الخليفة، قال: لا ولكن العلم أزين عند أهله من أن يضيعوه، قال: فجثا على ركبتيه، ثم سأله، فقال شريك: هكذا يطلب العلم.

قال يعقوب بن شيبة: دعا المنصور شريك فقال: إني أريد أن أوليك القضاء، فقال: أعفني يا أمير المؤمنين، قال: لست أعفيك. قال: فأنظر يومي هذا وأعود، فيرى أمير المؤمنين رأيه، قال: تريد أن تتغيب؟ ولئن فعلت لأقدمن على خمسين من قومك بما تكره، فولاه القضاء. فبقي إلى أيام المهدي، فأقره المهدي ثم عزله.

روى عمر بن هياج بن سعيد قال: أتت امرأة يومًا قاضي الكوفة شريك بن عبد الله وهو في مجلس الحكم، فقال: أنا بالله ثم بالقاضي!

قال: من ظلمك؟

قالت: الأمير موسى بن عيسى ابن عم أمير المؤمنين. كان لي بستان على شاطئ الفرات فيه نخل، ورثته عن أبي، وقاسمت إخوتي، وبنيت بيني وبينهم حائطًا، وجعلت فيه رجلًا فارسيًا يحفظ النخل ويقوم به. . فاشترى الأمير موسى بن عيسى من جميع إخوتي

وساومني، ورغبني فلم أبعه. . فلما كانت هذه الليلة بعث خمسمائة غلام وفاعل، فاقتلعوا الحائط، وأصبحت لا أعرف من نخلي شيئًا، واختلط بنخل إخوتي!!

فقال شريك لحاجبه: يا غلام أحضر ورقة. . ثم ختمها بخاتمه، وقال لها: امضي إلى بابه بالختم حتى يحضر معك.

فجاءت المرأة بالورقة المختومة فطرقت باب الأمير، فأخذها الحاجب منها ودخل بها على موسى وقال له: قد أعدى القاضي عليك وهذا ختمه.

فقال موسى: ادع لي صاحب الشرطة، فدعا به فقال له: امض إلى شريك، وقل: يا سبحان الله. . ما رأيت أعجب من أمرك. امرأة ادعت دعوى لم تصح، أعديتها علي؟ !

فقال صاحب الشرطة: إن رأى الأمير أن يعفيني من ذلك؟ !

فقال الأمير: امض. . ويلك!!

فخرج صاحب الشرطة وقال لغلمانه: اذهبوا وأدخلوا إلى حبس القاضي بساطًا وفراشًا وما تدعو الحاجة إليه في السجن!! ثم مضى إلى شريك. . فلما وقف بين يديه أدى الرسالة. . فقال القاضي لغلام المجلس: خذ بيده فضعه في الحبس!!

فقال صاحب الشرطة: والله قد علمت أنك تحبسني، فقدمت ما أحتاج إليه في السجن، وبلغ موسى بن عيسى الخبر، فوجه الحاجب إلى شريك، وقال له: رسول أدى رسالة. . أي شيء عليه؟

فقال شريك: اذهبوا به إلى رفيقه إلى السجن. . فحُبس!!!

فلما صلى الأمير موسى العصر، بعث إلى إسحاق بن الصباح الأشعثي، وإلى جماعة من وجوه الكوفة من أصدقاء القاضي شريك، وقال لهم: امضوا إلى القاضي، وأبلغوه السلام، وأعلموه أنه استخف بي، وأني لست كالعامة.

فمضوا إليه وهو جالس في مسجده بعد صلاة العصر، فأبلغوه الرسالة.. فلما انقضى كلامهم قال لهم: ما لي أراكم جئتموني في غثرة (أي في ظلمة وغشمة) من الناس فكلمتموني؟! ثم التفت حوله ونادى: من هاهنا من فتيان الحي؟!

فأجابه جماعة من الفتيان، فقال لهم: ليأخذ كل واحد منكم بيد رجل من هؤلاء فيذهب به إلى السجن!!

ثم وجه الكلام إلى وجوه الكوفة وهم يسحبون فقال: ما أنتم إلا فتنة.. وجزاؤكم الحبس.

فقالوا له: أجاد أنت؟!

فقال: حقًا. . حتى لا تعودوا برسالة ظالم! فحبسهم جميعًا.

وعلم موسى بن عيسى فركب في الليل إلى باب السجن، وفتح الباب وأخرجهم كلهم.

فلما كان الغد، وجلس شريك جاءه السجان فأخبره. . فدعا شريك بالقمطر فختمه، ووجه به إلى منزله، وقال لغلامه: الحق بثقلي إلى بغداد. . والله ما طلبنا هذا الأمر منهم. . ولكن أكرهونا عليه. . ولقد ضمنوا لنا فيه الإعزاز إذ تقلدناه لهم!! ومضى نحو قنطرة الكوفة في الطريق إلى بغداد.

وبلغ الخبر موسى بن عيسى، فركب في موكبه ولحقه، وجعل يناشده الله ويقول: يا أبا عبد الله تثبت.. انظر.. إخوانك تحبسهم؟ ! دع أعواني..

قال شريك: نعم. . لأنهم مشوا لك في أمر لم يجز لهم المشي فيه، ولست ببارح أو يردوا إلى الحبس. . وإلا مضيت إلى أمير المؤمنين المهدي فأستعفيه مما قلدني!!

فأمر موسى بردهم جميعًا إلى الحبس، وهو واقف والله مكانه حتى جاءه السجان فقال: قد رجعوا جميعًا إلى الحبس!!

فقال شريك لأعوانه: خذوا بلجام دابة الأمير بين يدي إلى مجلس الحكم!!

فمروا بين يديه حتى أدخل المسجد.. وجلس في مجلس القضاء..

وجاءت المرأة المتظلمة فقال لها: هذا خصمك قد حضر!!

فقال موسى وهو إلى جانب المرأة المتظلمة بين يديه: قبل كل أمر أنا قد حضرت. . أولئك يخرجون من الحبس.

فقال شريك: أما الآن فنعم. . أخرجوهم من الحبس.

وقال شريك للأمير: ما تقول فيما تدعيه هذه المرأة؟ !

فأجاب موسى: صدقت.

قال: ترد ما أخذت منها، وتبني حائطًا سريعًا كما كان. .

فقال موسى: أفعل ذلك كله!!

واتجه شريك نحو المرأة وقال: أبقي لك عليه دعوى؟ !

قالت: بيت الرجل الفارسي ومتاعه.

قال موسى: ويرد ذلك كله؟ !

فقال شريك للمرأة: أبقي لك عليه دعوى؟ !

قالت: لا وبارك الله عليك وجزاك خيرًا. .

وأمر شريك المرأة بالانصراف، فانصرفت. . فلما فرغ. . وأخذ بيد موسى بن عيسى وأجلسه في مجلسه، وقال: السلام عليك أيها الأمير. . أتأمرني بشيء؟!

قال الأمير: أي شيء آخر. . . وضحك.

فقال له شريك: أيها الأمير ذلك الفعل حق الشرع؛ وهذا القول الآن حق الأدب.

فقام الأمير وانصرف إلى منزله وهو يقول: من عظّم أمر الله أذل الله له عظماء خلقه.

كما اعتز الحق بأهله واعتزوا به، وانتصر بهم وانتصروا به، وباء أعداؤه بذلة العبيد وهم يضعون على رؤوسهم تيجان الملوك.

وحكى الحسن بن قحطبة قال: استؤذن لشريك بن عبد الله القاضي على المهدي وأنا حاضر فقال: عليَّ بالسيف فأحضر.

قال الحسن: فاستقبلتني رعدة لم أملكها، ودخل شريك فسلم، فانتضى المهدي السيف، وقال: لا سلم الله عليك يا فاسق!

فقال شريك: يا أمير المؤمنين، إن للفاسق علامات يُعرف بها، شرب الخمور، وسماع المعازف، وارتكاب المحظورات، فعلى أي ذلك وجدتني؟

قال المهدي: قتلني الله إن لم أقتلك.

قال شريك: ولِمَ ذلك يا أمير المؤمنين، ودمي حرام عليك؟

قال المهدي: لأني رأيت في المنام كأني مقبل عليك أكلمك، وأنت تكلمني من قفاك، فأرسلت إلى المعبّر، فسألته عنها، فقال: هذا رجل يطأ بساطك وهو يسرّ خلافك.

فقال شريك: يا أمير المؤمنين إن رؤياك ليست رؤيا يوسف بن يعقوب ـ عليهما السلام ـ وإن دماء المسلمين لا تسفك بالأحلام.

فنكس المهدي رأسه، وأشار إليه بيده، أن أخرج فانصرف.

قال الحسن: فقمت فلحقته، فقال: أما رأيت صاحبك، وما أراد أن يصنع؟

قال: أسكت ـ لله أبوك ـ ما ظننت أني أعيش حتى أرى مثلك.

❁❁❁

المصادر:

- «سير أعلام النبلاء» للذهبي جـ[٨].
- «صلاح الأمة في علو الهمة» للدكتور/ سيد حسين عفاني.
- «العقد الفريد» لابن عبد البر (٢/ ١٧٨).

جلال الدين السيوطي

ولد السيوطي مساء يوم الأحد غرة شهر رجب [٨٤٩هـ ١٤٤٥م] بالقاهرة، واسمه عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد الخضيري الأسيوطي، وكان سليل أسرة اشتهرت بالعلم والتدين، وكان أبوه من العلماء الصالحين ذوي المكانة العلمية الرفيعة التي جعلت بعض أبناء العلماء والوجهاء يتلقون العلم على يديه.

وقد توفي والد السيوطي ولابنه من العمر ست سنوات، فنشأ الطفل يتيمًا، واتجه إلى حفظ القرآن الكريم، فأتم حفظه وهو دون الثامنة، ثم حفظ بعض الكتب في تلك السن المبكرة مثل العمدة، ومنهاج الفقه والأصول، وألفية ابن مالك، فاتسعت مداركه وزادت معارفه. وكان السيوطي محل العناية والرعاية من عدد من العلماء من رفاق أبيه، وتولى بعضهم أمر الوصاية عليه، ومنهم «الكمال بن الهمام الحنفي» أحد كبار فقهاء عصره، وتأثر به الفتى تأثرًا كبيرًا خاصة في ابتعاده عن السلاطين وأرباب الدولة.

شيوخه:

عاش السيوطي في عصر كثر فيه العلماء الأعلام الذين نبغوا في علوم الدين على تعدد ميادينها، وتوفروا على علوم اللغة بمختلف فروعها، وأسهموا في ميدان الإبداع الأدبي، فتأثر السيوطي بهذه النخبة الممتازة من كبار العلماء، فابتدأ في طلب العلم سنة [٨٦٤ هـ = ١٤٥٩م] ودرس الفقه والنحو والفرائض، ولم يمض عامان حتى أجيز بتدريس العربية، وألف في تلك السنة أول كتبه وهو في سن السابعة عشرة، فألف شرح الاستعاذة والبسملة فأثنى عليه شيخه «علم الدين البلقيني».

وكان منهج السيوطي في الجلوس إلى المشايخ هو أنه يختار شيخًا واحدًا يجلس إليه، فإذا ما توفي انتقل إلى غيره، وكان عمدة شيوخه «محيي الدين الكافيجي» الذي لازمه السيوطي

أربعة عشر عامًا كاملة وأخذ منه أغلب علمه، وأطلق عليه لقب «أستاذ الوجود»، ومن شيوخه «شرف الدين المناوي» وأخذ عنه القرآن والفقه، و«تقي الدين الشبلي» وأخذ عنه الحديث أربع سنين فلما مات لزم «الكافيجي» أربعة عشر عامًا وأخذ عنه التفسير والأصول والعربية والمعاني، وأخذ العلم - أيضًا - عن شيخ الحنفية «الأقصرائي» و«العز الحنبلي»، و«المرزباني» «وجلال الدين المحلي» و«تقي الدين الشمني» وغيرهم كثير، حيث أخذ علم الحديث فقط عن (١٥٠) شيخًا من النابهين في هذا العلم.

ولم يقتصر تلقي السيوطي على الشيوخ من العلماء الرجال، بل كان له شيوخ من النساء اللاتي بلغن الغاية في العلم، منهن «آسية بنت جار الله بن صالح»، و«كمالية بنت محمد الهاشمية» و «أم هانئ بنت أبي الحسن الهروينى»، و«أم الفضل بنت محمد المقدسي» وغيرهن كثير.

رحلاته:

كانت الرحلات وما تزال طريقًا للتعلم، إلا أنها كانت فيما مضى من ألزم الطرق للعالم الذي يريد أن يتبحر في علمه، وكان السيوطي ممن سافر في رحلات علمية ليلتقي بكبار العلماء، فسافر إلى عدد من الأقاليم في مصر كالفيوم ودمياط والمحلة وغيرها، وسافر إلى الشام واليمن والهند والمغرب والتكرور (تشاد حاليًا) ورحل إلى الحجاز وجاور بها سنة كاملة، وشرب من ماء زمزم ليصل في الفقه إلى رتبة سراج الدين البلقيني، وفي الحديث إلى رتبة الحافظ ابن حجر العسقلاني.

ولما اكتملت أدوات السيوطي جلس للإفتاء سنة [٨٧١ هـ=١٤٦٦م] وأملى الحديث في العام التالي، وكان واسع العلم غزير المعرفة، يقول عن نفسه: «رُزقت التبحر في سبعة علوم: التفسير والحديث والفقه والنحو والمعاني والبيان والبديع»، بالإضافة إلى أصول الفقه والجدل، والقراءات التي تعلمها بنفسه، والطب، غير أنه لم يقترب من علمي الحساب والمنطق.

ويقول: «وقد كملت عندي الآن آلات الاجتهاد بحمد الله تعالى، أقول ذلك تحدثًا بنعمة الله تعالى لا فخرًا. . وأي شيء في الدنيا حتى يطلب تحصيلها في الفخر؟!!».

وكانت الحلقات العلمية التي يعقدها السيوطي يقبل عليها الطلاب، فقد عُيّن في أول الأمر مدرسًا للفقه بالشيخونية، وهي المدرسة التي كان يلقي فيها أبوه دروسه من قبل، ثم جلس لإملاء الحديث والإفتاء بجامع ابن طولون، ثم تولى مشيخة الخانقاه البيبرسية التي كانت تمتلئ برجال الصوفية.

وقد نشب خلاف بين السيوطي وهؤلاء المتصوفة، وكاد هؤلاء المتصوفة يقتلون الرجل، حينئذٍ قرر أن يترك الخانقاه البيبرسية، ويعتزل الناس ومجتمعاتهم ويتفرغ للتأليف والعبادة.

اعتزال السيوطي الحياة العامة:

قضى السيوطي فترة غير قصيرة في خصومات مع عدد من علماء عصره، كان ميدانها الحملات الشرسة في النقد اللاذع في الترجمة المتبادلة، ومن خصومه: البرهان الكركي، وأحمد ابن محمد القسطلاني، والشمس الجوجري، غير أن أشد خصوماته وأعنفها كانت مع شمس الدين السخاوي، الذي اتهم السيوطي بسرقة بعض مؤلفاته، واغتصاب الكتب القديمة التي لا عهد للناس بها ونسبتها إلى نفسه.

ولم يقف السيوطي مكتوف الأيدي في هذه الحملات، بل دافع عن نفسه بحماسة بالغة، وكان من عادته أن يدعم موقفه وقراره بوثيقة ذات طابع أدبي، فألف رسالة في الرد على السخاوي، اسمها «مقامة الكاوي في الرد على السخاوي» نسب إليه فيها تزوير التاريخ، وأكل لحوم العلماء والقضاة ومشايخ الإسلام.

وكان لهذه العلاقة المضطربة بينه وبين بعض علماء عصره، وما تعرض له من اعتداء في الخانقاه البيبرسية أثر في اعتزال الإفتاء والتدريس والحياة العامة ولزوم بيته في روضة المقياس

على النيل، وهو في الأربعين من عمره، وألف بمناسبة اعتزاله رسالة أسماها «المقامة اللؤلؤية»، ورسالة «التنفيس في الاعتذار عن ترك الإفتاء والتدريس».

وقد تنبه بعض خصوم السيوطي إلى خطئهم فيما صوبوه إلى هذا العالم الجليل من سهام في النقد والتجريح وخصومات ظالمة، فأعلنوا عن خطئهم، وفي مقدمتهم الشيخ القسطلاني الذي أراد أن يسترضي هذا العالم الجليل الذي لزم بيته وعزف عن لقاء الناس، فتوجه إليه حافيًا معتذرًا، غير أن هذا الأمر لم يجعل السيوطي يقطع عزلته ويعود إلى الناس، ولكنه استمر في تفرغه للعبادة والتأليف.

عاصر السيوطي ثلاثة عشر سلطانًا مملوكيًا، وكانت علاقته بهم متحفظة، وطابعها العام المقاطعة وإن كان ثمة لقاء بينه وبينهم، وضع نفسه في مكانته التي يستحقها، وسلك معهم سلوك العلماء الأتقياء، فإذا لم يقع سلوكه منهم موقع الرضا قاطعهم وتجاهلهم، فقد ذهب يومًا للقاء السلطان الأشراف قايتباي وعلى رأسه الطيلسان [عمامة طويلة] فعاتبه البعض، فأنشأ رسالة في تبرير سلوكه أطلق عليها «الأحاديث الحسان في فضل الطيلسان».

وفي سلطنة طومان باي الأول حاول هذا السلطان الفتك بالسيوطي، لكن هذا العالم هجر بيته في جزيرة الروضة واختفى فترة حتى عُزل هذا السلطان. وكان بعض الأمراء يأتون لزيارته، ويقدمون له الأموال والهدايا النفيسة، فيردها ولا يقبل من أحد شيئًا، ورفض مرات عديدة دعوة السلطان لمقابلته، وألف في ذلك كتابًا أسماه «ما وراء الأساطين في عدم التردد على السلاطين».

وفاته: توفي الإمام السيوطي في منزله بروضة المقياس على النيل بالقاهرة في [١٩ جمادى الأولى ٩١١هـ= ٢٠ أكتوبر ١٥٠٥ م] ودفن بجواره والده.

سلطان العلماء/ العز بن عبد السلام

انعقد إجماع كل المصادر للسير من كتب الطبقات والتراجم التي ذكرت سلطان العلماء العز بن عبد السلام على أنه اشتهر بصفة عالية سامية فوق صفات سلوكه المبارك هي صفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في زمانه، وكانت جرأته في الحق مثار الدهشة والعجب، فقد صمد لكثير من الطغاة معتزًا بحقه، ولم يمنعه في ذلك إرهاب أو تهديد، وقد ألقي به في غياهب السجن فما ازداد إلا ثقة ومهابة، بل إن ما كابده من المحن قد أورثته صلابة وجرأة، فاستعذب مرارة الألم في سبيل الله، وظل على مبدئه يكافح الظلمة حتى خشع الجميع لإرادته، وأصبح سيد الدولة في مصر وسلطان الناس.

والمحن التي تعرض لها سلطان العلماء ومن جاء بعده كان سببها الاختلاف الفكري في المسائل الفقهية والقضايا الكلامية المعتمدة على النصوص الظنية في ثبوتها ودلالتها.

محنته مع السلطان الأشرف:

أول محنة نزلت بالشيخ كانت بفتنة الحنابلة الواقعة في زمن السلطان الأشرف ابن الملك العادل الأيوبي بدمشق، يقول الذهبي: كان للأشرف ميل إلى المحدثين والحنابلة وفي عصره حصلت فتنة بين الحنابلة والشافعية بسبب العقائد وتعصب الشيخ العز بن عبد السلام على الحنابلة وجرت خبطة.

كان للعز منزلة رفيعة عند سلطان دمشق فهو يقدر إيمانه القوي، ويشهد مواقفه الشديدة من أصحاب البدع والخرافات، ولكن جماعة من المبتدعة قد أثاروا بدمشق فتنة فارغة فذهبوا يقولون: إن كلام الله بحروف وأصوات، واندفعوا في لجاجة لا طائل تحتها، وتحزب العامة فريقين بأرائهم وقد أفلحوا في إقناع السلطان الأشرف بآرائهم، فاكتسبوا

بمؤازرته قوة أثارت الشغب والتهريج، في وقت تتجمع به جيوش التتار لمحاربة المسلمين بدمشق، فثار العز على هؤلاء المبتدعين ثورة عارمة، وندد بهم فوق منبره تنديدًا ماحقًا، كما أصدر فتوى يقرر فيها مذهب السلف والجماعة فيما أثاروه من الضجيج، وقد أفلح هؤلاء في إغضاب السلطان عليه، فقامت بينه وبين الشيخ مناقشات ومساجلات حادة، لم يسلس فيها العز قيادًا أو يلين جانبًا، فصدر الأمر بعزله من الخطابة وحرمانه من الفتوى وفرضت عليه الإقامة الجبرية في داره ولا يجتمع بأحد.

بقي الشيخ في هذه الاستراحة الجبرية برهة من الزمن وتحدث أهل الشام بما حل بشيخهم المفضل وتهامس العلماء بينهم وتلاوموا على تفريطهم في نصره الشيخ ومعتقده حتى قيض الله من ينتصر له عند السلطان وهو الشيخ جمال الدين الحصيري شيخ الحنفية في زمانه.

ذهب الشيخ جمال الدين الحصيري [وكان فقيهًا مهيبًا] إلى الحاكم في قلعته، ووقف عند الباب على حماره، فقال الحاكم: دعوه يدخل، فلما دخل قام الحاكم إليه وأنزله بنفسه، وقدّمه وقدّره وأبى أن يأكل إلا بعده فقال الشيخ: ما جئت إلى طعامك ولا إلى شرابك، فقال له السلطان: يَرْسُم الشيخ ونحن نمتثل مرسومه، قال: ما الذي حدث بينك وبين الإمام العز بن عبد السلام؟ قال: حدث كذا، وكذا، وذكر القضية، فقال هذا الفقيه: والله لو كان العز بن عبد السلام في الهند أو في أقصى الدنيا لكان جديرًا بك أن تسعى في أن يحضر إليك؛ فإنه شرف لك أن تملك أُمَّة فيها مثل العز بن عبد السلام، فينبغي أن تسترضيه.

قال السلطان: نحن نستغفر الله مما جرى ونستدرك الفارط في حقه والله لأجعلنه أغنى العلماء.

وأرسل إلى الشيخ العز واسترضاه وطلب محاللته فقال له الشيخ: أما محاللتك فإني في كل ليلة أحالل الخلق وأبيت وليس لي عند أحد مظلمة، وأرى أن يكون أجري على الله ولا يكون على الناس.

هكذا قد ظهر الحق أخيرًا وكان السلطان في مرضه الأخير فاستغل العز هذه الفرصة واتخذ من اجتماعه بالأشرف مجالًا للنصيحة والأمر بالمعروف، وقال للسلطان: كيف تعد الذخيرة وتجمع الجيوش لمحاربة الملك الكامل سلطان مصر وهو أخوك، وجنوده مسلمون كجنودك، فتضيع الدماء الطاهرة في خلاف عائلي لا يرجع على الإسلام بغير النكبة والخسران، إن جيوش الصليبيين تخوض بلاد المسلمين وأولى بكما أن تتعاونا على درء الخطر الزاحف، فتنالا مثوبة الله وإعجاب الجميع.

وما زال الشيخ المخلص بالرجل المريض حتى أقنعه فترك العزم عن أخيه وأبطل المحارم والمناكر، وكان موقف العز رائعًا حين أمر له السلطان بألف دينار فردها قائلًا: هذا اجتماع لله، فلا أكدره بشيء من عرض الحياة الدنيا.

رجع العز إلى منبره يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر كسابق عهده، وقد آلى على نفسه أن يتعقب الفساد في كل مرصد، فلا يقطع لسانه عن باطل مهما جل ذووه.

محنته مع الملك الصالح إسماعيل:

ما أن مرت السنون وإذا بالشيخ يمتحن مرة أخرى لأنه أنكر على سلطان الشام وحاكم دمشق الصالح إسماعيل خيانته للأمة الإسلامية، حين نشب خلاف شديد بينه وبين سلطان مصر نجم الدين أيوب فخاف الصالح على ملكه، فصالح الفرنجة من الصليبيين وتحالف معهم على أن ينقذوه من ملك مصر وقتالهم معه مقابل ذلك يسلم إليهم صيدا والشقيف وقلعة صفد وغيرها من بلاد المسلمين، وأمعن الصالح في هذه الخيانة فسمح للصليبيين أن يدخلوا دمشق بمقتضى المعاهدة وأخذوا يبحثون عن السلاح وآلات الحرب وما يريدون ليشترونه وليعدوا أنفسهم به لمحاربة المسلمين، وأثار هذا الصنيع استياء المسلمين وعلمائهم فهب الشيخ العز واقفًا بوجه لصد الخيانة وأفتى بتحريم بيع السلاح لهم، وندد بالصالح

إسماعيل في مجالسه ودروسه بل وصعد على منبر الجامع الأموي بدمشق في يوم الجمعة وأعلن الفتوى وشدد في الإنكار على السلطان وفعلته المنكرة وخيانته الفظيعة للأمة الإسلامية وقطع من الخطبة الدعاء للسطان إسماعيل وهو بمثابة الإعلان بنزع البيعة ورفع الولاء عن السلطان يومئذ.

لم يكن السلطان حاضرًا تلك الخطبة، ولما أعلمه رجاله بـذلك أمـر بعـزل الـشيخ مـن خطبة الجمعة وحبسه مع صاحب الشيخ ابن الحاجب المالكي لاشتراكه معه في هذا الإنكار.

وانتشرت ثورة العز بالمدينة، وبالرغم مـن عـزل الـشيخ وحبـسه إلا أن الثـورة زادت واستفحلت، وأرسل الملك للشيخ أعوانه يعرض عليه عـروض كثـيرة منهـا مغـادرة الـبلاد فرفض أو الاختباء عن أعين السلطان في مكان أمين فرفض وقال: والله لا أهرب ولا أختبـئ وإنما نحن في بداية الجهاد ولم نعمل شيئًا بعد وقد وطنت نفسي على احـتمال مـا ألقـى في هـذا السبيل، والله لا يضيع عمل الصابرين.

ولم يُجِدِ أعوان السلطان سبيل في ثني الشيخ عن رأيه فأمر السلطان بإخراج الشيخ مـن محبسه ولكن أمر بملازمته داره ولا يخرج منها وأن لا يفتي ولا يجتمع بأحد البتة.

ومرت الأيام والشيخ في إقامته الجبرية وقد مُنع من الإفتاء والاتصال بأحد من إخوانه أو طلابه، وتعطلت هوايته المفضلة وواجبه المقدس وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكـر، وطلب الهجرة من دمشق إلى مصر، وبعد محاورات قرر السلطان إرساله إلى بيت المقدس.

ثم جاء الصالح إسماعيل والملك المنصور صاحب حمص وملـوك الفـرنج بعـساكرهم وجيوشهم إلى بيت المقدس يقصدون الديار المصرية، فسير الصالخ إسماعيل بعـض خواصـه إلى الشيخ ليكسب الموقف ويطغى على خيانته للإسلام ويلـبس أفعالـه الوجهـة الـشرعية في وجود الشيخ العز بجواره وفي منصبه وقال له: تـدفع منـديلي إلى الـشيخ وتتلطـف بـه غايـة

التلطف وتعده بإعادته إلى مناصبه على أحسن حال فإن وافقك فتدخل عليّ وإن خالفك فاحبسه في خيمة إلى جانب خيمتي.

واجتمع رسول السلطان بالشيخ وشرع في مسايسته وملاينته وقال له: بينك وبين أن تعود إلى منصبك وما كنت عليه وزيادة أن تنكسر للسلطان وتقبل يده هذا فقط لا غير.

فقال الشيخ: والله يا مسكين ما أرضاه أن يقبل هو يدي فضلًا عن أن أقبل يده، يا قوم أنتم في وادٍ وأنا في واد، الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاكم به.

فقال الرسول: يا شيخ قد رسم لي السلطان أن توافق على ما يطلب منك وإلا حبستك.

فقال الشيخ: افعلوا ما بدا لكم. فأخذه وحبسه في خيمة إلى جانب خيمة السلطان.

وكان الشيخ يقرأ القرآن في محبسه داخل الخيمة والسلطان يسمعه فقال يومًا لملوك الفرنج مفتخرًا بحبس الشيخ: تسمعون هذا الشيخ الذي يقرأ القرآن. فقالوا نعم. قال هذا أكبر قساوسة المسلمين قد حبسته لإنكاره علي تسليمي لكم حصون المسلمين، وعزلته عن الخطابة بدمشق وأحبسه لأجلكم.

فقال له ملوك الفرنج: لو كان هذا قسيسنا لغسلنا رجليه وشربنا مرقتها.

أي لو كان عندنا رجل بهذا الإخلاص للأمة وبهذه القوة، وبهذه الشجاعة لكُنَّا نغسل رجليه، ولشَرِبْنا الماء الذي غسلنا به رجليه، تلك إجابة الفرنج التي كانت سمًا في قلب السلطان منكرين فعلته والحق ما شهد به الأعداء.

فأصيب الملك إسماعيل بالخيبة والذلِّ، وكانت هذه بداية هزيمته وفشله، وجاءت جنود المصريين، وانتصرت عليه وعلى من كانوا متحالفين معه من الصليبيين، وأفرجت عن الإمام العز بن عبد السلام.

رحيله إلى مصر:

ورحل الشيخ إلى مصر وقد سبقته إليها مجده وفقهه، فاستقبله العلماء بالإجلال، وكان يوم وصوله إلى القاهرة كأيام الأعياد، فقد احتشد الناس في أبهى ملابسهم لاستقباله، وأمر السلطان أمراءه وقادة الجيش أن يرتدوا حلل العيد، وخرج السلطان في أبهته على رأسهم يستقبلون الشيخ، وقد أعدوا له الخيل المطهمة ليمتطيها هو أهله وأبناؤه، وسكن في دار فسيحة وسط حديقة غناء اشتراها أهل مصر له عرفانًا بمكانته، وكان المحدث العظيم الحافظ المنذري صاحب الفتيا بها، فامتنع عنها إجلالًا لعلمه قائلًا: كنا نفتي قبل حضور الشيخ عز الدين، وأما بعد حضوره فالفقه متعين فيه ولا يفتي أحد وهو بيننا، ورأى الشيخ كثيرًا من محبة السلطان الصالح أيوب وعنايته به إذ ولاه الخطابة بجامع عمرو والقضاء بمصر، والتفت القلوب حوله فارتوت العقول من علمه وأشرقت القلوب بنور محبته، وسار على سنته المعهودة يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

وكان المتوقع أن يقول العز بن عبد السلام: هذه مناصب توليتها، ومن المصلحة أن أحافظ عليها حفاظًا على مصالح المسلمين، وألاَّ أعكِّر ما بيني وبين هذا الحاكم، خاصة أن الملك الصالح أيوب -مع أنه رجل عفيف وشريف- إلا أنه كان رجلًا جبارًا، مستبدًّا شديد الهيبة، حتى إنه ما كان أحدٌ يستطيع أن يتكلم بحضرته أبدًا، ولا يشفع لأحد، ولا يتكلم إلا جوابًا لسؤال، حتى إن بعض الأمراء في مجلسه يقولون: والله إننا دائمًا نقول ونحن في مجلس الملك الصالح أيوب: لن نخرج من المجلس إلا إلى السجن؛ فهو رجل مهيب، وإذا سجن إنسانًا نسيه، ولا يستطيع أحد أن يكلِّمه فيه، أو يذكره به، وكان له عظمة وأبهة، وخوف وذعر في نفوس الناس، سواءً الخاصة منهم والعامة، فماذا كان موقف العز بن عبد السلام معه؟

فمن الطبيعي أنه يعظم نفوذ الرجل وقد وثق بربه وبذل جهده الجاهد في مرضاته فلم تأخذه رهبة في محاربة بغي، واستئصال فساد، فهاهو يمر في يوم العيد على السلطان الصالح

أيوب وقد أخذ زينته وخرج على قومه، والجنود مصطفون بين يديه، والأمراء يقبلون الأرض تحت أقدامه، والرايات تخفق، والخيول تصهل، والدنيا تجتمع لتشهد، فالتفت الشيخ إلى السلطان في أبهته الأخاذة وصاح به: يا أيوب. .

هكذا باسمه مجردًا بلا ألقاب، فالتفت الحاكم ليرى من الذي يخاطبه باسمه الصريح، بلا مقدمات، ولا ألقاب؟

وأكمل الشيخ مقالته: ما حجتك عند الله إذا قال لك ألم أبوئك ملك مصر ثم تبيح الخمور؟

فاندهش السلطان وقال: هل حصل ذلك؟ قال الشيخ: نعم حانة فلان وحانة فلان. فقال السلطان: هذا من زمان أبي وما صنعت شيئًا. قال الشيخ: ما هذا أأنت من الذين يقولون: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: ٢٢]، فرسم السلطان أمرًا بإغلاق الحانات فورًا، ورجع الشيخ إلى درسه وإلى مجلسه يعلِّم الطلاب، ويدرِّسهم، وكان يعلمهم مواقف البطولة، والشجاعة كما يعلمهم الحلال والحرام، ويعلمهم الغَيْرة على الدين مثل ما يعلمهم الأحكام؛ إذ ما قيمة أن يوجد طالب يحفظ القرآن والصحيحين والسنن، وكتب الفقه والحديث ومع ذلك هو ميت الغيرة على الإسلام، لا يغضب لله ورسوله ﷺ، ولا يَتَمَعَّر وجْهُهُ إذا رأى المنكر، ويَتَطَلَّعُ لمنازل الصِّديقين والشهداء؟ ما قيمة هذا العلم؟

سأله تلميذه الباجي عن موقفه فقال: يا بني لقد رأيته في تلك العظمة فأردت أن أهينه، لئلا تكبر على نفسه فتؤذيه، ولقد استحضرت هيبة الله تعالى إذ أخاطبه، فصار السلطان عندي أقل من القط، ولو كانت بنفسي لديه حاجة من حاجات الدنيا لرأيته الدنيا كلها.

جهاده في محاربة الصليبيين:

جاهد العز بسيفه كما جاهد بلسانه، حين هاجم الصليبيون دمياط وأرادوا اكتساح الإسلام في أمنع دولة وأعز حصونه، فنهض الشعب عن بكرة أبيه، وأمامه أمراؤه

وجنوده وعلماؤه، وخطب الشيخ خطبة مؤثرة أشعلت الحمية في الصدور، ودفعت النفوس إلى الجهاد.

النضال ضد التتار:

ولم تكد مصر تستريح من محاربة الصليبيين حتى تعرضت لقتال عدو آخر أشد بأسًا وأعظم نكالًا، فقد اكتسح التتار بلاد الشام وولوا وجوههم نحو مصر، وسرت الشائعات لتذيع قوتهم الخارقة ووحشتهم الكاسرة، فملأت القلوب بالوجل والخوف والانكسار، فدعا العز إلى الوقوف صفًا واحدًا في مواجهة أعداء الإسلام، واجتمع العلماء بالأمراء والقواد والأعيان، وأخذوا يتشاورون فيما يصنعون فرأى الأمراء أن تجمع الأموال من الرعية ليستعين بها الجيش في نضاله الرهيب، ووافق الحاضرون على الاقتراح كأمر مُسلَّم به لا يقبل الاعتراض في مثل هذه الظروف الصعبة، ولكن الشيخ كان له رأي آخر صاح بكلمة الحق فقال: لكم أن تفرضوا الضرائب على الرعية كما تريدون، إذ لم يبق في بيت المال شيء، وإذا باع المماليك جواهرهم النفيسة وأدواتهم المذهبة وذخائرهم الثمينة، ولم يبق شيء غير ما للعامة، فيتساوى الجميع، وتفرض الضرائب على الرؤوس، وقد أذعن الحضور لأمر الشيخ، ثم توجه الجيش المؤمن بقيادة الملك المظفر قطز، فكتب للإسلام نصرًا خالدًا، بهزيمة التتار لأول مرة في موقعة عين جالوت.

عدم مبايعته للظاهر بيبرس لأنه مملوك:

بعد اغتيال الملك المظفر قطز في أثناء عودته مكللًا بتاج النصر والنجاح بهزيمة التتار ودحرهم عن بلاد الإسلام، وأراد الظاهر بيبرس أن يأخذ لنفسه البيعة بعد مؤامرة دبرها، وكان له من الجبروت والبطش ما أرهب وأفزع! وكان لابد من مبايعة شخص واحد ليبايع جميع الناس وراءه ألا وهو الشيخ فأرسل له لكي يبايع ولكن الشيخ امتنع عن مبايعته، وقال

في صراحته المعهودة: يا ركن الدين، أنا أعرفك مملوك البندقداري ولم يثبت لدي عتقك للآن، فكيف أبايعك! فاستحضر الظاهر شهودًا يعترفون بخروجه عن ملك سيده واسترداد حريته، فبايعه الشيخ، وبايع خلفه الجميع.

بيع الأمراء لصالح بيت المال:

ثبت لدى الشيخ أن الأمراء من المماليك لم يعتقوا، وهم بذلك من حق بيت المال، فأعلن للعامة أن حكم الرق لا يزال مصاحبًا لهم، وأن تصرفاتهم من بيع وشراء وعقود ونكاح باطلة لا تنعقد، وقد أفسدت هذه الفتوى الجريئة على الأمراء كل عمل يقومون به فالزوجات يهجرن فراش الزوجية، ويعاملن أزواجهن كالغرباء، والتجار يعودون في الصفقات، والصبية يطاردون الأمراء المماليك ويعيرونهم بأنهم عبيد بعد أن كان الناس يخشون هؤلاء الأمراء الذين أذاقوهم الأهوال، فثارت ثائرتهم، وكان بينهم نائب السلطان، فهاج وماج، وتطاير الشرر من عينيه، وأقسم ليصر عن العز بسيفه، فقد تعاظمه أن يكشف الرجل عن حقيقته فإذا هو مملوك رقيق! برغم ما يعوم فيه من سلطان وأبهة، وكيف والأمراء من المماليك ملوك الأرض وأصحاب الجاه الطائل والصيت البعيد!

غضب الأمراء وهاجوا، ولكن الشيخ لم يتراجع، وقال: فلا حل إلا أن نعقد لكم مجلسًا وننادي عليكم بالبيع لبيت مال المسلمين. هكذا قال لهم الشيخ، فرفعوا الأمر إلى السلطان فبعث إليه فلم يتراجع فأخبره السلطان بأنه لن يسمح ببيع الأمراء، وأن أمر السلطان واجب وهو فوق قضاء الشيخ، وليس للشيخ أن يتدخل في أمور الدولة فشئون الأمراء لا صلة له بها، بل بالسلطان وحده، ورفض الشيخ أن يتدخل السلطان في القضاء، وقام من فوره فجمع أمتعته ووضعها على حمار، ووضع أهله على حمير أخرى، وساق الحمير فقد قرر أن يخرج من مصر مادام السلطان فيها يعتدي على القضاء.

تجمع الناس حوله وهم يتوسلون باكين ألا يتركهم فقد عرفوا في قضائه الانتصار للمظلوم، وهيبة العدالة خلال الأشهر القلائل التي ولي فيها المنصب.

ولكن الشيخ صمم على قراره وسار في طريقه خارج مصر، والناس من خلفه يرجون ملحين ساخطين، حتى امتلأت بهم الأرض الفضاء، إذ لم يتخلف عن اللحاق به امرأة ولا صبي ولا رجل ولاسيما العلماء والصلحاء والتجار وأمثالهم وحتى الذين لا يؤبه لهم [هكذا تقول الرواية] مثل: النجارين، والصباغين، والكناسين. .، وخرج كل أصحاب الحرف والمهن الشريفة والوضيعة، الجميع خرجوا وراء العز بن عبد السلام في موكب مهيب رهيب.

وعلم السلطان بما يجري، وقال له أحد ناصحيه: من بقي لك تحكمه إذا خرج العز بن عبد السلام، وخرجت الأمة كلها وراءه؟ ما بقي لك أحد، متى راح هؤلاء ذهب ملكك تدارك ملكك وإلا ذهب بذهاب الشيخ.

أسرع السلطان خلف الشيخ، وركض يدرك هذا الموكب ويسترضيه متلطفًا معتذرًا إليه ويقول له: لا تفارقنا، عد يا إمام واصنع ما بدا لك.

قال: لا أرجع أبدًا إلا إذا وافقتني على ما طلبت من بيع هؤلاء المماليك.

قال السلطان: لك ما تريد، افعل ما تشاء وتقدم.

رجع العز بن عبد السلام وبدأ المماليك يحاولون معه ليغيّر رأيه؛ إذ كيف يباعون بالمزاد العلني، فأرسل إليه نائب السلطنة [وكان من المماليك] بالملاطفة فلم يفد معه هذا الأسلوب، فاقترح بعضهم قتل العز بن عبد السلام، فذهب نائب السلطنة ومعه مجموعة من الأمراء إلى بيت الشيخ ممتطيًا صهوة جواده، وفي يده سيفه المسموم يبرق به لعاب المنية، فطرق الباب طرقة شديدة، فخرج ولد العز بن عبد السلام -واسمه عبد اللطيف-، فرأى موقفًا مهيبًا مخيفًا، فرجع إلى والده وقال: يا والدي انجُ بنفسك. . الموت، الموت.

قال: ما الخبر؟ قال: الخبر كيت، وكيت.

فقال العز بن عبد السلام لولده: يا ولدي، والله إن أباك لأحقر وأقل من أن يقتل في سبيل الله عَزَّ وَجَلَّ.

ثم خرج مسرعًا إلى نائب السلطنة، وتقدم للعز فنظر إليه نظرة يتطاير منها ما يشتعل بقلبه من الغيظ والحقد فلمّا رآه نائب السلطنة رفع سيفه على الفقيه الساكن الهادئ في مكانه كأن الأمر لا يعنيه، ولكن اليد الظالمة ترتجف! والسيف المسموم يسقط على الأرض، والأمير الفارس يتخاذل ويرتعد يبست أطرافه، وتجمّد وأصابته حالة من الذعر والرعب! كل ذلك والعز لم يبد حراكًا! أفكانت رهبة الموقف قد زلزلت أعصاب الأمير فتعاظمه ما هو مقبل عليه من شر مستطير، أم أن عناية السماء قد جعلت من قوته ضعفًا فانكفأ بعد سقوط سيفه يترضى الشيخ ويستعطفه، ثم ينزل على حكمه فيقول: يا سيدي، ماذا تصنع بنا؟

فيجيب الشيخ في ثبات: أنادي عليكم وأبيعكم، وأقبض الثمن غاليًا.

قال: تقبض الثمن؟

قال: نعم.

قال: أين تضعه؟

قال: في مصالح المسلمين العامة.

فطلب منه الدعاء وبكى بين يديه ثم انصرف.

وهذا ما كان.

صاح المنادي آن ذاك بهذه الكلمة التي سطرها التاريخ للعز بن عبد السلام: أمراء للبيع، أمراء للبيع!.

قال له نجله عبد اللطيف: لقد خفت خوفًا شديدًا من بأس الأمير، فصاح به أبوه: لا تقل ذلك يا بني فأبوك أهون من أن يقتل في سبيل الله.

جمع السلطان كل الأمراء في القلعة بأمر الشيخ، ثم عُرضوا في مزاد ونادى الشيخ عليهم وغالى في ثمنهم، حتى إذا امتنع الحاضرون عن المزايدة في الثمن لارتفاعه الفاحش، تقدم السلطان فدفع ثمنًا أزيد من ماله الخاص لا من بيت المال، حتى اشترى جميع الأمراء المماليك وأعتقهم لوجه الله، فأصبحوا أحرارًا، وصحح الشيخ عقودهم، بما فيها عقود الزواج، ووزع الشيخ ثمنهم على الفقراء والمحتاجين وخاصة أهل العلم وطلابه، وأقام به مكاتب لتعليم القرآن والخط واللغة العربية.

وقد حكم مجموعة من العلماء والمؤرخين بأن هذه الواقعة لم يحدث مثيل لها في تاريخ البشرية كلها.

إن جميع الأمم على مدى تاريخ البشرية جمعاء إذا أتوا يفاخروننا، فإننا نفاخرهم بأئمة أفذاذ من أمثال العز بن عبد السلام، هاتوا لنا شخصية فكرية في الأمم كلها تقف مثل هذا الموقف؟.

واستمر الشيخ في قضائه حاسمًا حازمًا لا يخشى إلا الله، ولا يأبه إلا بالحق، ولا يراعي إلا مصلحة الأمة، تأتيه الدعوى من أحد الأفراد على أحد خواص السلطان، فيسوي بينهما في المجلس ويتحرى العدل وحده.

ووجد بعض الأقوياء الظالمين يغتصبون حقوق المستضعفين، فأفتى أن من واجب المستضعفين أن ينتزعوا ما اغتصب منهم، ولا عقاب عليهم، فهذا حقهم الشرعي، فإن هم وجدوا السلطان عاجزًا عن رد أموالهم المغتصبة فعليهم استردادها بأنفسهم، وإلا أثموا شرعًا، فأثرت هذه الفتوى عددًا من الأمراء الذين ألفوا أن يستضعفوا بعض التجار والصناع والحرف، ويغتصبون منهم خفية البضائع والأجور.

ومن أبرز المواقف التي تذكر: أن بعض تلاميذه أتوه في يوم من الأيام فقالوا له: إنه في مكان كذا، قام وزير كبير في دولة المماليك ويدعى فخر الدين ببناء طبلخانة [وهي: مكان

مخصص للغناء والرقص والموسيقى والفساد] وكان هذا المكان بقرب أحد المساجد، وعندما تأكد العز من صحّة هذا الخبر، جمع أولاده وبعض تلاميذه وذهب إلى المكان الذي يسمونه بالطبلخانة، وقام وأخذ الفأس، وبدأ في هدم هذا المكان هو ومن معه حتى سَوّوه بالأرض.

فهل اكتفى بهذا؟ لا؛ بل أصدر قرارًا بأن هذا الوزير ساقط العدالة، فلا تقبل شهادته، ولا يقبل منه أي خبر من الأخبار، وأعلن ذلك للناس، فسرعان ما تناقلت الأمة هذا الخبر عن العز بن عبد السلام.

وظن فخر الدين وغيره أن هذا الحكم بإسقاط عدالته لن يتأثر به فخر الدين إلا في مصر فقط، ولكنهم تعجّبوا أشد التعجب حينما حدث خلاف ذلك، فقد أرسل ملك مصر «الملك الصالح» إلى الخليفة العباسي المستعصم ببغداد رسالة شفهية بواسطة أحد الأشخاص، وعندما أبلغ هذا الرجل الرسالة إلى الخليفة المستعصم قال له الخليفة: هل سمعت هذه الرسالة من ملك مصر مباشرة؟ قال: لا، ولكن أبلغنيها الوزير فخر الدين عَن الملك، فقال له الخليفة: إن هذا الوزير المذكور قد أسقط العز بن عبد السلام عدالته، ولا أقبل خبره، ارجع بهذه الرسالة، فلن أقبل هذا الخبر حتى تأتيني به من حاكم مصر مباشرة، فرجع الرسول إلى ملك مصر حتى شافهه بالرسالة، ثم عاد إلى بغداد وأدّاها إلى الخليفة المستعصم.

وعندما وصل خبر ردّ الخليفة لرواية هذا الوزير وخبره، عرف الناس أن الأمة كلها مع العز بن عبد السلام.

غضب الوزير والسلطان لذلك، فأسقط عدالتها وعزل نفسه من القضاء دون أن يرجع للسلطان، ثم لزم داره يفسر ويؤلف حتى استعطفه صاحب الأمر، فباشر التدريس بالمدرسة الصالحية، وواصل الشرح والتعليم.

عاش الشيخ ثلاثة وثمانين عامًا كانت كلها بركة ويمنًا على الإسلام، وحين أدركته الوفاة عرض عليه الملك الظاهر أن يعين أحد أولاده العلماء في منصبه، فأبى الشيخ وقال: ليس فيهم من يصلح، ثم رشح من زملائه الأئمة من وثق بعلمه ودينه، إرضاء للعدالة.

وحين خرجت جنازته سارت مصر كلها برجالها ونسائها وأطفالها تشيعه وتبكي عليه، وقد نظر الظاهر بيبرس إلى الجمع المحتشد فقال: الآن قد استقر ملكي، فلو أن هذا الشيخ أمر الناس بخلعي لبادروا إلى امتثال أمره كما يشاء.



المصادر:

- «شذرات الذهب» لابن العماد الحنبلي (٥/ ٣٠٠).
- «علماء في وجه الطغيان» لمحمد رجب البيومي.
- «مناهج العلماء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» لفاروق السامرائي.
- «مشايخ ضد السلطة والسلطان» لإسماعيل إبراهيم.
- «طبقات الشافعية» (٨/ ٢١٠).
- «حسن المحاضرة» للسيوطي (١/ ٣١٥).

الإمام/ محيي الدين النووي

لم يكد شيخه العز بن عبد السلام ينتقل إلى جوار ربه، حتى نهج نهجه في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليكون عالم من طرازه، يشاركه الفهم الصائب والعزة العالية، والمجابهة الصريحة السافرة للطغيان.

عاش الرجل ردحًا من حياته في عصر الظاهر بيبرس، والظاهر كان بطل جريء من أبطال التاريخ، وأسدى للإسلام أيادي رائعة حين كافح الاستعمار الصليبي في مواقع فاصلة، فقاد الجيوش وراء الجيوش ليرد الزحف الجائر المتربص بديار الإسلام، ضاربًا ضرباته الصاعقة الماحقة التي زلزلت هذا الكيان المحتشد المتربص، فأخذ ينكص على أعقابه في ذهول، كما استطاع أن يسهم إسهامًا ماجدًا في اندحار السيل التتري المتوحش حيث تدفقت سيوله على بلاد الإسلام، فأخذ يبتلعها الواحدة تلو الأخرى، ويمحو ما فيها من الحضارة والتقدم، ويبيد الحرث والنسل ويقتل الكبير والصغير بغير هوادة، ولم يجد من يثبت أمامه غير الجحفل الصابر المؤمن في عين جالوت بقيادة الملك قطز، والبطل بيبرس.

ومع هذه المواقف المشرفة فقد كان مسلكه السياسي لا يخلو من النقد الصارم العنيف، إذ أن أنانيته القاهرة كانت تدفعه إلى بعض ما يعد جريمة خائنة، ويكفر أن نذكر تآمره الغادر على حياة الملك المظفر، فقد اغتاله بعد أن فرحت الدنيا بانتصاره الحاسم في عين جالوت، ولم يكن الظاهر يحسب حساب ما يعد خيانته اللئيمة غير شيخ الإسلام العز بن عبد السلام، فقد امتنع العز عن مبايعته حين رأى لون الدم في يده، وخاف الظاهر من تكتل الأمة وراء العز، فأخذ يصانع الأمراء، ويجامل القواد، ليضمن إلى جانبه ذوي القوة والسلاح. ولكنه واجه الشيخ العز على رءوس الأشهاد بأنه لم يثبت عتقه من عبوديته للبندقدار، فأخذ الظاهر يتذلل ويحضر الشهود ليثبتوا بخروجه من ملك البندقدار، وكان الشيخ في مرضه الأخير، فلم يلبث

أن لحق بربه، وتنفس الظاهر الصعداء حين رأى جنازته تمر تحت القلعة وورائها آلاف وآلاف ممن لا يحصون، حتى قال قولته المشهورة: اليوم قد استقر أمري، فإن هذا الشيخ لو قال للناس اخرجوا عليه لانتزع مني الملك.

فلم يدرِ الظاهر أن الأيام تخبئ له عالمًا داعية جريئًا من طراز العز، آلى على نفسه أن يوفى بعهد الله على العلماء أن يقفوا مع الحق في كل سبيل، فحمل الراية ونزل إلى الميدان.

كان النووي ذا هيبة وجلال، يقول عنه السيوطي في ترجمته: هو الإمام شيخ الإسلام محيي الدين أبي زكريا النووي: إمام أهل عصره علمًا وعبادة، وسيد أوانه ورعًا وسيادة، العلم المفرد، فدونه واسطة الدر والجوهر، السراج الوهاج، فعنده يخفى الكوكب الأزهر عابد العلماء وعالم العباد، وزاهد المحققين ومحقق الزهاد، لم تسمع بعد التابعين بمثله أذن، ولم تر ما يداينه عين، وجمع له في العلم والعبادة محكم النوعيين.

راقب الله في سره وجهره ولم يبرح طرفة عين عن امتثال أمره، ولم يضيع من عمره ساعة في غير طاعة مولاه إلى أن صار قطب عصره وحوى من الفضل ما حواه وبلغ نواه.

أثنى عليه الموافق والمخالف، وقبل كلامه النائي والألف، وشاع ثناؤه الحسن بين المذاهب من سلك منهاجه أيقن بروضة قطوفها دانية، ومن تتبع آثاره فهو من الصالحين في رياض عيونها جارية.

وقال عنه الشيخ تاج الدين السبكي في «طبقاته»: أستاذ المتأخرين وحجة الله على اللاحقين، ما رأيت الأعين، أزهد منه في يقظة ولا منام، ولا عاينت أكثر اتباعًا منه لطرق السالفين من أمة محمد عليه أفضل الصلاة والسلام، له التصانيف المفيدة، والمناقب الحميدة، والخصائل التي جمعت طارف كل فضل، والورع الذي خرب به دنياه، وجعل دينه معمورًا والزهد الذي كان به يحيى سيدًا وحصورًا.

تنقل النووي في جميع العواصم الإسلامية لينهل من حياض الثقافة والعلم في كل مركز من مراكزها النائية، ورجع إلى دمشق يجر وراءه فقهًا وعلمًا وورعًا، فقام بالتدريس، وأخذ في التأليف حتى طارت له شهرة واسعة في فقه المذهب الشافعي، فمن ضمن مؤلفاته التي انتشرت وملئت الآفاق كتاب رياض الصالحين، والأذكار المنتخبة من كلام سيد الأبرار، وبستان العارفين، والتحرير في الفقه، وروضة الطالبين، والمنهاج والمجموع، وغيرها مما لا يزال أكثره مخطوطًا إلى يومنا هذا ولم يخرج إلى النور.

ولقد اشتد الظاهر بيبرس في جمع الضرائب والمكوس من العامة ليستعين بها على الجهاد حتى وصلوا به الشطط إلى ضروب العنت والإرهاق، ودار الشيخ بعينيه فرأى كثيرًا من التجار يجردون من أموالهم، وتحيط بهم طائفة من غلاظ الجباة يغتصبون ويسلبون، فإذا اعتذر أحدهم بضيق اليد تعرض متجره للنهب، وقد تتهاوى عليه السياط المحرقة دون رحمة وإشفاق. فكتب النووي إلى السلطان يلفته إلى ذلك، ويوصيه بالعدالة والحق فيما يأخذ ويدع من الأموال، ويشرح ما شهده بنفسه من مآسٍ قاسية تنفطر لها الأكباد، وقد أغلظ عليه القول، إذ بالغ في التهديد والوعيد.

وطار الخطاب إلى الظاهر، فرأى أن العز بن عبد السلام قد رجع في صورة عالم جديد هو الشيخ النووي، فظن أن المدافع الثاني ليست له مكانة العز ومنزلته، ورأى أن يواجهه بالشدة قبل أن تلتف حوله النفوس، ويصير ذا صدى مسموع يقلق ويهيج؛ فرد عليه الظاهر بكتاب قارص يحمل الإنكار والتوبيخ، ويشير بالوعيد القاهر لكل من يتدخل فيما ليس يعنيه، ثم هو لا يقتصر على الشيخ وأتباعه من العلماء، بل ينتقل إلى الرعية فيرميها بالبخل والشغب، ويعلن أن أمر الجباة نافذ الطاعة مهما غلوا في المكوس وتهجموا بالسب والضرب، إذ هم أعوان الدولة ورسلها لدىِ الناس، وقد ظن الملك الظاهر أنه بذلك قد أطفأ الثائرة وكمم الأفواه.

وصل الرد إلى الإمام المجاهد فقرأه متعجبًا ثم داعىَ الحق إلى أن ينقض الباطل، ويحق خق، فلم تأخذه رهبة من حاكم جبار يعتصم بالقوة والجاه والسلطان، ودعا من فوره بدواة والقلم ليرد على كل كلمة جائرة تضمنها قول الحاكم الباطش، وقد غمرته سكينة لإيمان، فما أحس بخوف أو تهيب من دفاع، وكان فيما قال:

أما تهديد الرعية بسبب نصيحتنا، وتهديد طائفة العلماء، فليس هو المرجو من عدل لسلطان وحلمه، وأي حيلة لضعفاء المسلمين في الناصحين نصيحة للسلطان ولهم، ولا علم هم به، وكيف يؤاخذون به لو كان فيه ما يلام عليه، وأما أنا في نفسي فلا يضيرني التهديد، ولا أكثر منه، ولا يمنعني ذلك من نصيحة السلطان،، فإني أعتقد أن ذلك واجبٌ عليَّ وعلى غيري، وما ترتب على الواجب فهو واجب وزيادة عند الله تعالى: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ﴾ [غافر: ٣٩]، ﴿فَسَتَذۡكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمۡۚ وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٤]، وقد أخبرنا رسول الله ﷺ أن نقول الحق حيثما كنا، وألا نخشى في الله لومة لائم.

وصل الرد الجريء إلى الظاهر، فأثار في نفسه ضروبًا من الانفعالات الناقمة، وجمع مستشاروه ليأخذ رأيهم فيما يجب أن يقوم به إزاء هذا العالم العنيد، وقد استمع إلى كثير مما يتعارض ويتناقض بين داع إلى العقاب ومشير بالتسامح والإغضاء، وقد رأى الظاهر بعدما سمع أن يجنح إلى التهادن، إذ أنه لو سارع بإعلان غضبه على الشيخ لجعله بطلًا كبيرًا على مرأى من العامة، ولأصبح بمنحته هذه رمزًا للدفاع المخلص، ولواء يلتف حوله المعارضون وذوو الأغراض.

والواقع أن نصيحة الشيخ برغم قسوتها الصريحة قد فعلت فعلها في نفس الظاهر، فاضطر إلى أن يجمع الجباة ويشير عليهم بالرفق والملاينة، وأن يحذرهم غضب العلماء من الخاصة والجمهور من العامة، وإن كان في واقعة لا يستطيع أن يتخلص من حنق مكظوم في داخله أثاره الشيخ، وهو الحاكم الذي يأمر فيطاع.

مرت هذه الحادثة لتعقبها حادثة أخرى أشد منها عنفًا وإيجاعًا، فقد تهيأ الظاهر إلى بعض حروب أعدائه من خصوم الإسلام، وأراد أن يأخذ من أموال الرعية لتسليح الجيش وشراء العتاد اللازم لهذه الحرب، وكان لابد من الرجوع للعلماء لأخذ أموال الرعية، فنهض كثير من العلماء وأفتوا في جواز أخذ أموال الرعية لمواجهة عدو وخطر يحيك بالأمة؛ ولكن الشيخ النووي يمتنع عن الفتوى، ويعلن ذلك في إصرار، مما أغضب الظاهر، وأمر بعقد اجتماعًا عاجلًا يشهده الجمع الحاشد من الناس يتقدمهم العلماء والوجاء والأمراء، ويحضره النووي، لتكون محاكمة علنية للشيخ أمامهم ليظهر في ثوب المنفر عن الجهاد، والصاد عن مجالدة الكفار! فيكون موقفه غير كريم، وتسقط مهابته لدى الناس.

وتم للملك ما أراد فاحتشد الناس واكتمل الحفل بأعيانه ووجائه وذوي الرأي والعلماء في البلاد تقدمهم محي الدين النووي بقدم ثابتة ليسأله الظاهر في عناد: لماذا لا تجيز أن تجمع الأموال من المسلمين لننفقها في الجهاد كما أفتى بذلك زملائك من الفقهاء؟

فرد الشيخ في حزم وثبات: أعرف أنك كنت في الرق للأمير بندقدار وليس لك مال ثم منَّ الله عليك وجعلك ملكًا، وكلنا يعلم أن لديك ألف مملوك، كل مملوك له حياصة من ذهب، وعندك مائتا جارية، لكل جارية نصيب من الحلي، فإذا أنفقت ذلك كله وبقيت مماليكك بالبنود الصوف بدلًا من الحوائص، وبقيت الجواري بثيابهن دون الحلي، أفتيتك بأخذ مال الرعية.

دهش الحفل من صراحة الرد، وأشرقت الابتسامات في الوجوه لتعلن اغتباطها بهذه المجابهة الرادعة، وتطلع الظاهر إلى رفقائه ملتمسًا من يسعف برد منقذ، يحول دون الإفحام والإلجام، فلم يجد غير الشيخ النووي ينظر إليه في كبرياء عالية تحتم على الناس أن ينزلوها منزلة الإكبار والإعجاب، حين تجيز لهم أن يشمتوا بجبروت السلطان وقسوة جباته من الأجناد.

صرخ الظاهر وعلى صوته موجهًا كلامه للشيخ: أخرج من بلدي.

فرد الشيخ في علو وكبرياء: ومن أدراك أني سأقبل المقام لديك.

تدفع النخوة زملاءه من الفقهاء، فينسحبون من الحفل مجتمعين، ويسود الهرج والمرج صفوف الناس، وينظر الظاهر لمن حوله غير مصدق ما يحدث، فأومأ إلى معاونيه قائلًا: اقطعوا وظائف هذا الفقيه ورواتبه.

فقيل له: إنه لا وظيفة له ولا راتب.

قال: فمن أين يأكل.

قالوا: مما يبعث إليه أبوه.

قال: والله لقد هممت بقتله فرأيت كأن أسدًا فاتحًا فاه بيني وبينه لو عرضت له لالتقمني.

ويصمت الظاهر ويعود بالذاكرة إلى الوراء تذكر الشيخ العز بن عبد السلام يوم وقف نفس الموقف من الملك قطز عندما أراد أن يجمع الأموال من الرعية قبل موقعة عين جالوت الشهيرة إذ أعلن الشيخ أن المال محرم على السلطان قبل أن يستنفذ ما لدى مماليكه وجواريه من ذهب ولؤلؤ.

هكذا تدور الأيام وتعود ولكن بأشخاص آخرين اختلفت الوجوه ولكن ظلت الثوابت كما هي لم تتغير فموقف العالم لا يتغير، ولكن الظاهر لم يتذكر ذلك إلا حين مثل محيي الدين النووي في شجاعة وإيمان، فاضطرب وتخيل الموقف السالف وقد شهده بعينيه منذ أعوام، ورأى أن العز الذي استراح بفقده قد عاد من جديد في صورة النووي فعض على شفتيه ودمدم يقول: ذرية بعضها من بعض ما أشبه الليلة بالبارحة فيما كان.

عاد العلماء للظاهر وقالوا له: إن هذا من كبار علمائنا وصلحائنا وممن يقتدى به فأعده إلى دمشق، فوجد الظاهر أنها فرصة لإصلاح ما أفسده، وأمر بعودة الشيخ إلى دمشق إلا أن الشيخ استقبل أمر الظاهر بالرفض التام وقال: لا أدخلها والظاهر فيها.

هكذا يعتذر الظاهر لأنه علم من هو النووي علمًا وتقوى، ولكن النووي رفض هذا الاعتذار بإباء وشمم ليعطي درسًا لأن الحكام يحرم عليهم الإساءة إلى مسلم، وكيف للعالم ولو اتبعها بالاعتذار.



المصادر:

- «طبقات الشافعية».
- «تذكرة الحفاظ» (٤/ ١٤٧٠).
- «البداية والنهاية» لابن كثير.
- «معجم المؤلفين» ١٣/ ٢٢).

الإمام/ محمد بن الحُبلي

قال الإمام الذهبي في «سير أعلام النبلاء»: هو الإمام الشهيد قاضي مدينة برقة، محمد بن الحُبلي

أتاه أمير برقة، فقال: غدًا العيد.

قال: حتى نرى الهلال، ولا أفطر الناس، وأتقلد إثمهم.

فقال: بهذا جاء كتاب المنصور

[وكان هذا من رأي العبيدية يفطرون بالحساب، ولا يعتبرون برؤية الهلال]

فلم يُر هلال، فأصبح الأمير بالطبول والبنود وأهبة العيد.

فقال القاضي: لا أخرج ولا أُصلي.

فأمر الأمير رجلًا خطب، وكتب بما جرى إلى المنصور، فطلب القاضي إليه، فأحضر.

فقال له: تنصل، وأعفو عنك.

فامتنع، فأمر، فعلق في الشمس إلى أن مات، وكان يستغيث من العطش، فلم يُسق، ثم صلبوه على خشبة.

فلعنة الله على الظالمين.



المصادر:

- «سير أعلام النبلاء» للذهبي.

الإمام/ أبو إسحاق ابن البردون

قال الذهبي: هو الإمام الشهيد، أبو إسحاق، إبراهيم بن محمد بن البردون الضبي مولاهم الإفريقي المالكي، تلميذ أبي عثمان بن الحداد.

قال القاضي عياض: كان يقول إني أتكلم في تسعة أعشار قياس العلم.

وكان مناقضًا للعراقيين، فدارت عليه دوائر في أيام عبيد الله، وضرب بالسياط، ثم سعوا به عند دخول الشيعة إلى القيروان، وكانت الشيعة تميل إلى العراقيين لموافقتهم لهم في مسألة التفضيل ورخصة مذهبهم، فرفعوا إلى أبي عبد الله الشيعي: أن ابن البردون وأبا بكر ابن خذيل يطعنان في دولتهم، ولا يفضلان عليًا، فحبسهما ثم أمر متولي القيروان أن يضرب ابن هذيل خمس مئة سوط، ويضرب عنق ابن البردون، فغلط المتولي فقتل ابن هذيل، وضرب ابن البردون، ثم قتله من الغد.

وقيل لابن البردون لما جرد للقتل: أترجع عن مذهبك؟ قال: أعن الإسلام أرجع؟

ثم صلبا في سنة تسع وتسعين ومئتين. وأمر الشيعي الخبيث أن لا يفتى بمذهب مالك، ولا يفتى إلا بمذهب أهل البيت، ويرون إسقاط طلاق البتة، فبقي من يتفقه لمالك إنما يتفقه خفية.

قال الحسين بن سعيد الخراط: كان ابن البردون بارعًا في العلم، يذهب مذهب النظر، لم يكن في شباب عصره أقوى على الجدل وإقامة الحجة منه.

وقال محمد بن خراسان: لما وصل عبيد الله إلى رقاده، طلب من القيروان ابن البردون، وابن هذيل، فأتياه وهو على السرير، وعن يمينه أبو عبد الله الشيعي، وأخوه أبو العباس عن يساره، فقال: أتشهدان أن هذا رسول الله؟

فقال بلفظ واحد: والله لو جاءنا هذا والشمس عن يمينه والقمر عن يساره يقولان إنه رسول الله ما قلنا ذلك، فأمر بذبحهما.

الحافظ/ محمد بن أبي الحسين

قال الذهبي: هو الإمام الحافظ، الناقد المجود، أبو الفضل محمد بن أبي الحسين أحمد بن محمد بن عمار بن محمد بن حازم بن المعلى بن الجارود الجارودي الهروي الشهيد.

قال الحاكم: سمعت بكير بن أحمد الحداد بمكة يقول: كأني أنظر إلى الحافظ محمد بن أبي الحسين وقد أخذته السيوف، وهو متعلق بيديه جميعًا بحلقتي الباب، حتى سقط رأسه على عتبة الكعبة سنة ثلاث وعشرين وثلاث مئة، هكذا قال، فوهم، إنما كان ذلك سنة سبع عشرة وثلاث مئة في ذي الحجة عام اقتلع الحجر الأسود، وردم بئر زمزم بالقتلى على يد القرامطة.



المصادر:

- «سير أعلام النبلاء» للذهبي.

الإمام/ أبو الوليد ابن الفرضي

قال الذهبي: هو الإمام الحافظ، البارع الثقة، أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف بن نصر القرطبي، ابن الفرضي، مصنف «تاريخ الأندلسيين».

حدث عنه أبو عمر بن عبد البر وقال: كان فقيهًا حافظًا، عالمًا في جميع فنون العلم في الحديث والرجال، أخذت معه عن أكثر شيوخي، وكان حسن الصحبة والمعاشرة، قتلته البربر وبقي مُلقي في داره ثلاثة أيام.

وقال أبو مروان بن حبان: وممن قتل يوم أُخذ قرطبة الفقيه الأديب الفصيح ابن الفرضي، ووري متغيرًا من غير غسل، ولا كفن، ولا صلاة، ولم ير مثله في سعة الرواية، وحفظ الحديث، ومعرفة الرجال، والافتنان في العلوم والأدب البارع، ولد سنة إحدى وخمسين وثلاث مئة، وجمع من الكتب أكثر ما يجمعه أحد من علماء البلد، وتقلد قراءة الكتب بعهد العامرية، واستقضاه محمد المهدي ببلنسية، وكان حسن البلاغة والخط.

قال الحميدي: حدثنا علي بن أحمد الحافظ، أخبرني أبو الوليد ابن الفرضي قال: تعلقتُ بأستار الكعبة وسألتُ الله تعالى الشهادة، ثم فكرت في هول القتل، فندمتُ وهممتُ أن أرجع، فاستقيل الله ذلك، فاستحييت.

قال الحافظ علي: فأخبرني من رآه بين القتلى ودنا منه فسمعه يقول بصوت ضعيف: «لا يُكلَم أحد في سبيل الله، والله أعلم بمن يكلم في سبيله إلا جاء يوم القيامة، وجرحه يثعب دمًا، اللون لون الدم، والريح ريح المسك» كأنه يعيد على نفسه الحديث، ثم قضى على إثر ذلك.

المصادر:

- «سير أعلام النبلاء» للذهبي.

الإمام الزاهد/ أبو العباس ابن العريف الصنهاجي

قال الذهبي: هو الإمام أحمد بن موسى بن عطاء الله، الإمام الزاهد العارف، أبو العباس ابن العريف الصنهاجي الأندلسي المربي المقرئ صاحب «القيامات» و«الإشارات».

شيوخه: عامتهم كانوا بعد الخمس مئة، فلقيهم وعُمره عشرون سنة. وأقدم شيوخه سنًا وإسنادًا عبد الباقي بن محمد الحجاري الزاهد، وكان عبد الباقي قد حمله أبوه وهو ابن عشر سنين إلى أبي عمر الطلمنكي فقرأ عليه القرآن وعاش ثمان وثمانين سنة.

سمع من جماعة من شيوخنا، وكانت عنده مشاركة في أشياء من العلم، وعناية بالقراءات وجمع الروايات، واهتمام بطرقها وحملتها، وقد استجاز مني تأليفي هذا، وكتبه عني، واجتزته أنا أيضًا فيما عنده، ولم ألقه، وكاتبني مرات، وكان متناهيًا في الفضل والدين، منقطعًا إلى الخير، وكان العباد والزهاد يقصدونه، ويألفونه، ويحمدون صحبته، وسعى به إلى السلطان، فأمر بإشخاصه إلى حضرته بمراكش، فوصلها وتوفي بها.

كان الناس قد ازدحموا عليه يسمعون كلامه ومواعظه، فخاف ابن تاشفين سلطان الوقت في ظهوره، وظن أنه أنموذج ابن تومرت، فيقال: إنه قتله سرًا فسقاه، والله أعلم.

وقد قرأ بالروايات عن اثنين من بقايا أصحاب أبي عمرو الداني، ولبس الخرقة من أبي عبد الباقي آخر أصحاب أبي عمر الطلمنكي وفاة.

قال ابن مسدي: ابن العريف ممن ضرب عليه الكمال رواق التعريف، فأشرقت بأضرابه البلاد، وشرقت به جماعة الحساد، حتى سعوا به إلى سلطان عصره، وخوفوه من عاقبة أمره، لاشتمال القلوب عليه، وانضواء الغرباء إليه، فغُرب إلى مراكش، فيقال: إنه سم وتوفي شهيدًا، وكان لما احتمل إلى مراكش استوحش، فغرق في البحر جميع مؤلفاته، فلم يبق منها إلا ما كُتب منها عنه.

أبو جعفر اللوزنكي

قال الذهبي في «السير»: هو مفتي طليطلة الإمام أبو جعفر أحمد بن سعيد الأندلسي اللوزنكي المالكي.

امتحنه ملك طليطلة المأمون يحيي بن إسماعيل بن عبد الرحمن بن ذي النون، هو وابن مغيث، وابن أسد، وجماعة، اتهمهم على سلطانه، فأحضرهم مع قاضيهم أبي زيد القرطبي وقيدهم، فهاجت العامة، ونفروا إلى السلاح، فقتل طائفة، فكفوا، واستبيحت دور المذكورين في سنة ست وأربع مئة وسجنوا، وسجن الوزير ابن غصن الأديب، فصنف كتاب «الممتحنين من لدن آدم عليه السلام إلى زمانه»، اتهم بالنم على المذكورين ابن الحديدي كبير طليطلة، ثم مات المأمون وقام بعده حفيده القادر، والعقد والحل بالبلد لابن الحديدي، فخوطب فيه القادر، فأُخرج أضداده من السجن، فقتلوا ابن الحديدي، وطيف برأسه، وأضر ابن اللوزنكي في الحبس.



المصادر:

- «سير أعلام النبلاء» للذهبي.

شيخ الإسلام/ أبو إسماعيل الأنصاري

قال الذهبي: هو الإمام القدوة الحافظ الكبير، أبو إسماعيل عبد الله بن محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن علي بن جعفر بن منصور بن الأنصاري الهروي، مصنف كتاب «ذم الكلام»، وشيخ خراسان من ذرية صاحب النبي ﷺ أبي أيوب الأنصاري.

قال السلفي: سألتُ المؤتمن الساجي عن أبي إسماعيل الأنصاري فقال: كان آية في لسان التذكير والتصوف، من سلاطين العلماء، سمع ببغداد من أبي محمد الحسن بن محمد الخلال، وغيره، يروي في مجالس وعظه الأحاديث بالإسناد، وينهى عن تعليقها عنه.

قال: وكان بارعًا في اللغة، حافظًا للحديث.

قال ابن طاهر: سمعته يقول: عُرضت عليَّ السيف خمس مرات، لا يقال لي: ارجع عن مذهبك. لكن يقال لي: اسكت عمن خالفك، فأقول: لا أسكت.

قال الحافظ أبو النضر الفامي: كان شيخ الإسلام أبو إسماعيل بكر الزمان، وواسطة عقد المعاني، وصورة الإقبال في فنون الفضائل وأنواع المحاسن، منها نُصرة الدين والسنة، من غير مداهنة ولا مراقبة لسلطان ولا وزير، وقد قاسى بذلك قصد الحُساد في كل وقت، وسعوا في روحه مرارًا، وعمدوا إلى إهلاكه أطوارًا، فوقاه الله شرهم، وجعل قصدهم أقوى سبب لارتفاع شأنه.

قال ابن طاهر: حكى لي أصحابنا أن السلطان ألب أرسلان قدم هراة ومعه وزيره نظام الملك، فاجتمع إليه أئمة الحنفية وأئمة الشافعية للشكوى من الأنصاري، ومطالبته بالمناظرة، فاستدعاه الوزير، فلما حضر، قال: إن هؤلاء قد اجتمعوا لمناظرتك، فإن يكن الحق معك، رجعوا إلى مذهبك، وإن يكن الحق معهم، رجعت أو تسكت عنهم.

فوثب الأنصاري وقال: أناظر على ما في كمي!!

قال: وما في كمك؟

قال: كتاب الله [وأشار إلى كمه اليمين] وسنة رسول الله ﷺ «وأشار إلى كمه اليسار» وكان فيه الصحيحان.

فنظر الوزير إليهم مستفهمًا لهم، فلم يكن فيهم من ناظره من هذا الطريق.

وسمعت خادمه أحمد بن أميرجه يقول: حضرت مع الشيخ للسلام على الوزير نظام الملك، وكان أصحابنا كلفوه الخروج إليه، وذلك بعد المحنة ورجوعه إلى وطنه من بلخ، [يعني أنه كان غُرب] قال: فما دخل عليه أكرمه وبجله، وكان هناك أئمة من الفريقين، فاتفقوا على أن يسألوه بين يدي الوزير، فقال العلوي الدبوسي: يأذن الشيخ الإمام أن أسأل!

قال: سل.

قال: لِمَ تلعن أبا الحسن الأشعري؟

قال الوزير: أجبه.

فقال: لا أعرف أبا الحسن، وإنما ألعن من لم يعتقد أن الله في السماء، وأن القرآن في المصحف، ويقول إن النبي ﷺ اليوم ليس بنبي.

ثم قام وانصرف، فلم يتمكن أحدًا أن يتكلم من هيبته فقال الوزير: هذا أردتم أن نسمع ما كان يذكره بهراة بآذاننا، وما عسى أن أفعل؟ ثم بعث إليه بصلة وخلع، فلم يقبلها، وسافر من فوره إلى هراة.

وسمعت أصحابنا بهراة يقولون: لما قدم السلطان ألب أرسلان هراة في بعض قدماته، اجتمع مشايخ البلد ورؤساؤه، ودخلوا على أبي إسماعيل وسلموا عليه، وقالوا: ورد السلطان ونحن على عزم على أن نخرج، ونسلم عليه، فأحببنا أن نبدأ بالسلام عليك.

وكانوا قد تواطؤوا على أن حملوا معهم صنمًا من نحاس صغيرًا، وجعلوه في المحراب تحت سجادة الشيخ، وخرجوا، وقام الشيخ إلى خلوته، ودخلوا على السلطان، واستغاثوا من الأنصاري، وأنه مُجسم، وأنه يترك في محرابه صنمًا يزعم أن الله تعالى على صورته، وإن بعث السلطان الآن يجده، فعظم ذلك على السلطان، وبعث غلامًا وجماعة، فدخلوا وقصدوا المحراب، فأخذوا الصنم، فألقى الغلام الصنم، فبعث السلطان من أحضر الأنصاري، فأتى فرأى الصنم والعلماء، وقد اشتد غضب السلطان.

فقال له السلطان: ما هذا؟

قال: صنم يعمل من الصفر شبه اللعبة.

قال: لست عن ذا أسألك؟

قال: فعم يسألني السلطان؟

قال: إن هؤلاء يزعمون أنك تعبد هذا! وأنك تقول إن الله على صورته؟

فقال شيخ الإسلام بصولة وصوت جهوري: سبحانك هذا بهتان عظيم.

فوقع في قلب السلطان أنهم كذبوا عليه، فأمر به فأُخرج إلى دارة مكرمًا، وقال لهم: اصدقوني، وهددهم، فقالوا: نحن في يد هذا في بلية من استيلائه علينا بالعامة، فأردنا أن نقطع شره عنا، فأمر بهم، ووكل بهم وصادرهم، وأخذ منهم وأهانهم.

قال أبو سعد السمعاني: كان أبو إسماعيل مظهرًا للسنة، داعيًا إليها، مُحرضًا عليها، وكان مكتفيًا بما يُباسط به المريدين، ما كان يأخذ من الظلمة شيئًا، وما كان يتعدى إطلاق ما ورد في الظواهر من الكتاب والسنة، مُعتقدًا ما صح، غير مصرح بما يقتضيه تشبيه.

المصادر:

- «سير أعلام النبلاء» للذهبي.

القاضي/ أبو جعفر أحمد بن إسحاق البهلول

كان رجال القضاء في عصور الإسلام الزاهية على جانب كبير من التحرر والدقة، فقد تمكنت تعاليم الإسلام من نفوسهم، فعرفوا الله حق معرفته، وقرأوا الكتاب والحديث، ودرسوا مسائل القياس وقوانين النظر، هذا إلى ما يشرق في قلب المؤمن التقي من نور يهديه إلى الحق مهما تكاثف الظلام.

ومن هؤلاء الأئمة الأفذاذ القاضي أبو جعفر أحمد بن إسحاق بن البهلول التنوخي الأنباري، وقد أجمع الذين كتبوا عنه على سلامة استنباطه، وصحة توجيهه، وصدق تعليله، وأنت تجدهم يصفونه- في إسهاب زائد- بالبلاغة العالية إذا خطب أو ترسل، كما ينقلون شذرات ثمينة من شعر تنبئ عن عاطفة وذوق، ويجعلونه حجة في التفسير والحديث والرواية والإسناد، أما تبحره في الفقه على مذاهب أهل القياس فقد بوأه منصة القضاء أكثر حياته التي زادت عن الثمانين، وإذا اجتمع لفاضل من الناس كل هذه المميزات الرفيعة، فماذا ينقصه من الشمائل والصفات.

على أننا لا نكبر الرجل لعلمه وحده، فكثير من الأئمة في القديم والحديث قد جاوزه في التحصيل والدراية، ولكننا ننظر بكثير من الإجلال والإكبار إلى صرامته في الحق دون مبالاة، وهجومه على الباطل في غير هوادة، مهما جر عليه ذلك من بلاء وعنت، وناهيك بمن يفاجئ رؤساءه وصدور الدولة في عهده بما لا يطيق المؤمن الورع صبرًا عليه من ميل عن الحق، ونكوص عن الجادة وولوع بالبهتان.

ففي أوائل القرن الرابع الهجري وقد انحدرت الدولة العباسية من أوجها الشاهق إلى وهدة سحيقة سقطت فيها هيبة الخلفاء والأمراء، وتنازع الوزراء وأعيان الدولة على الحكم شر تنازع وأبشعه، فكان هم كل وزير أن ينكل بمن سبقه، فيخلق له الاتهامات الخطيرة التي تطيح بحياته ليأمن على منصبه وجاهه، فلا يجد المنافس العنيد.

كان حامد بن العباس وزير الخليفة المقتدر بالله يضيق ذرعًا بسلفه الوزير أبي الحسن بن الفرات، فحاك له من خياله الآثم أفظع تهمة يمكن أن توجه إلى الإنسان في ذلك الوقت، حيث اختلى بالخليفة وأخبره أنه عثر على وثائق مهمة تثبت اتصال ابن الفرات ببعض العلويين المطالبين بالخلافة، وأن الحزم يوجب أخذه بالشدة لتجري الأمور في وضعها الصحيح.

اهتم الخليفة المقتدر بالأمر، فعقد لفوره مجلسًا برياسته لمحاكمة الوزير السابق، وقد أحضر فيه علي بن عيسى وأحمد بن إسحاق بن بهلول وأبا عمر محمد بن يوسف، وجيء بابن الفرات مخفورًا إلى المحاكمة، حيث وقف غريمه الوزير حامد بن العباس أمام الخليفة يبسط التهمة الخطيرة ويبين مغبتها الجريئة، ثم اتجه إلى الباب فجأة وصاح بأحد الحجاب: أدخل الجندي في الحال.

فدخل الجندي مديد القامة مكتمل الصحة، فاتجه حامد إلى المقتدر وقال: لقد ضبطت هذا الجندي قادمًا من مدينة أردبيل، ومعه كتب خاصة من ابن الفرات إلى ابن أبي الساج يطلب فيها معاونة الداعي العلوي وتجهيزه للغدو إلى بغداد حيث يستقبله ابن الفرات، فيتعاونان معًا على تقويض الخلافة العباسية، وإنهائها إلى العلويين.

ثم التفت الوزير إلى الجندي وقال له: قل ما سبق أن اعترفت به لديَّ.

قال الجندي: لقد ترددت بضع مرات على ابن أبي الساج في أردبيل أحمل الرسائل المتنوعة من ابن الفرات جاهلًا عاقبتها الخطيرة، فهو المسئول عنها وحده، وما أنا غير حامل فدم. . يتكسب بالمسير والتجوال.

دهش الخليفة من هذا الاعتراف الجريء، وطار شرر الغضب من عينيه، وأخذ يصوب نظراته الحادة المحرقة إلى ابن الفرات وهو يتململ في مكانه ممتقع الوجه منقبض الأسارير.

ثم التفت المقتدر إلى القاضي أبي عمر فسأله: ما عندك في ذلك يا أبا عمر؟

فقال في غير روية: لقد أتى ابن الفرات أمرًا تخر له الجبال وللخليفة -أيده الله- أن ينزل به ما شاء من العقاب.

فتألق وجه الوزير بالبشر وظن أن المحاكمة ستنتهي على ما يريده من البطش بصاحبه، وجعل يرنح عطفه في نشوة الظافر المنتصر، ولكنه رأى الخليفة يتجه إلى أحمد بن إسحاق فسأله: وما عندك في ذلك يا أبا جعفر؟

فيقول القاضي: لابد من مناقشة الجندي فهل يأذن الخليفة بذلك؟

فيجيبه إلى طلبه، ثم تدور هذه الأسئلة بين القاضي والجندي.

القاضي: تدعي أنك رسول ابن الفرات إلى ابن أبي الساج في أردبيل فهل رأيت أردبيل؟

الجندي: نعم رأيتها ودخلتها عدة مرات.

القاضي: صف لي أردبيل، أعليها سور أم لا؟ فسكت الجندي ولم يرد.

قال القاضي: وما صفة باب الإمارة الذي دخلت منه. فسكت الجندي.

القاضي: حديد أم خشب؟ فسكت الجندي أيضًا.

فقال القاضي: من هو كاتب ابن أبي الساج الذي ذهبت إليه؟ وما اسمه؟ وما كنيته؟ وما لقبه؟ فبهت الجندي ولم يرد بشيء.

قال القاضي: وأين الكتب التي كانت معك من ابن أبي الساج لابن الفرات؟

قال الجندي متلجلجًا مضطربًا: رميتها في البحر حين وقعت في أيدي الجنود.

فاتجه القاضي إلى الخليفة وقال: يا أمير المؤمنين إن الله عَزَّ وَجَلَّ يقول: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ﴾ [الحجرات: ٦]، وقد صح عندي أن هذا الجندي جاهل متكسب مدسوس على ابن الفرات.

فقال علي بن عيسى في حماسة مشتعلة: قد قلت ذلك مرارًا للوزير حامد بن العباس فلم يقبل قولي، وأرى أن يهدد هذا الجندي بالضرب حتى يقر بالواقع الصريح.

أمر الخليفة بإحضار من يضرب الجندي في المجلس، فما كاد السوط يلهب جسمه حتى صاح: كذبت وغدرت وضمنت لي الضمانات، والله ما رأيت أردبيل ولا حملت كتبًا إليها طيلة الحياة.

وهنا أمر الخليفة بحبس الجندي وتعذيبه، وكاد يغشى على الوزير المختلق من الهم والانكسار، وانتصر الحق على الباطل بصراحة القاضي النزيه أبي جعفر أحمد ابن إسحاق البهلول.

جرت الأعوام تلو الأعوام، فتغير الخليفة المقتدر على وزيره حامد بن العباس، فأقاله من منصبه مخفورًا، وأسند الوزارة إلى المتهم السابق أبي الحسن بن الفرات، سبحان الله: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠]. سعى الوزير الجديد لأول عهده بالرياسة إلى قتل غريمه السابق، فشفى لواعج صدره، واستراح من ناحيته، ثم دار بذهنه فيمن حوله من المقربين لدى الخليفة، فرأى أن الوزير الأسبق علي بن عيسى لا يزال ممتعًا بالحياة، وقديم صفاؤه مع الخليفة في وقت من الأوقات فيعيده إلى الحكم راميًا بأبي الحسن إلى غياهب السجن، ومن ثم أخذ الوزير يدبر لعلي المكيدة التي ترديه، مع أنه كان من أنصاره المتحمسين يوم حُوكِم في التهمة الخطيرة، ولكن يا لضيعة الوفاء.

رأى ابن الفرات أن يقتدي بسلفه السابق في الاختلاق والوقيعة، فاتجه إلى الخليفة المقتدر وأفهمه أن علي بن عيسى على اتصال بالقرامطة أعداء الدولة، وقد أرسل لهم في مدة وزارته بعض المواد الحربية التي يحظر إرسالها إلى العدو، كما أنه لا يعترف بتكفيرهم وخروجهم عن مبادئ الدين الإسلامي.

اهتم الخليفة بالوقيعة وأصدر أمره محاكمة علي، على أن يسمع بأذنه ما يدور في المحاكمة من وراء حجاب، وقد تم الأمر في أسرع من البرق، وشكلت لجنة المحاكمة برياسة

الوزير، وحضر القاضيان السابقان في المحكمة للمحاكمة الأولى: أبو عمر محمد بن يوسف، وأبو جعفر أحمد بن إسحاق البهلول.

افتتح الرئيس الجلسة، وسيق علي بن عيسى إلى المحاكمة، وبدأ الوزير فأسرع بإحضار رجل يدعى ابن فليجة، وأذن له في الكلام، فقال: لقد أرسلني علي بن عيسى إلى القرامطة مبتدئًا، فكاتبوه يلتمسون له المساحي والطلق وعدة حوائج فأنفذها إليهم، ومعي خطابه الذي بعث به في هذا الشأن، ثم قرأ الخطاب فوجد خاليًا من تكفيرهم وسبهم، كما ينبغي أن يكون في نظر ابن الفرات.

وشاء الرئيس أن يلخص الاتهام في نقط مركزة محددة، فصاح في وجه علي، والمقتدر يسمع من وراء حجاب: تقول أن القرامطة مسلمون والإجماع قد وقع على كفرهم!! فهم أهل ردة لا يصومون ولا يصلون، وتبعث لهم بالأدوات الحربية وهم أعداء الخلافة ومبعث الفساد والشقاق.

قال علي: أردت بذلك المصلحة وإعادتهم إلى الطاعة، دون أن تراق الدماء.

قال الرئيس: ويحك لقد أقررت بما لو أقر به إمام لما وسع الناس طاعته، فكيف يجوز لك التعاون مع أهل الفساد؟

ثم التفت إلى القاضي أبي عمر فقال له: ما عندك في أمر علي؟

فأفحم ولم ينطق بحرف. فاتجه إلى أبي جعفر وسأله: ما عندك يا أحمد بن إسحاق؟

قال أحمد: لقد صح عندي أن عليًا افتدي بكتابه إلى القرامطة ثلاثة آلاف رجل من المسلمين كانوا مستعبدين، فرجعوا إلى أوطانهم أحرارًا، فإذا فعل إنسان ذلك على سبيل المغالطة للعدو، فلا لوم عليه، بل يستحق أطيب الثناء.

تجهم وجه ابن الفرات، وسأل القاضي: ما تقول فيما أقر به علي من إسلام القرامطة وهم أهل طغيان؟

قال القاضي: إنهم كاتبوه بحمد الله والصلاة على رسوله، فلم يصح عنده كفرهم، فهم لا ينازعون في الإسلام، ولكن ينازعون في الإمامة فقط، ومن نازع فيها فهو غير كافر عند الأئمة الأعلام.

دهش الوزير من الرد المفحم، ثم استأنف أسئلته فقال: وما رأيك في الأدوات الحربية التي أرسلها إلى الأعداء، أكان ينوي بذلك تقويتهم على الشغب والفساد؟

القاضي: هو لم يعترف بذلك فلا نؤاخذه به.

الوزير: كيف تصدقه مع أن رسوله وثقته ابن فليجة قد أرسل لهم المعدات.

القاضي: إذا قال رسوله ذلك فهو مدع وعليه البينة!

الوزير: كيف يكون مدعيًا وهو ثقته الذي استأمنه على حمل الكتب والرسائل؟

القاضي: إن عليًا قد استوثق به في حمل الكتب، فلا يقبل قوله في الأدوات الحربية بحال من الأحوال.

الوزير: أأنت وكيله حتى تحتج عنه، أم أنت حاكم وقاض؟

القاضي: لست وكيله، ولكني أقول الحق كما قلته فيك يوم أراد حامد بن عباس أن يتهمك أمام الخليفة بما هو أعزم من هذه التهمة، فهل كنت وكيلك حين ذاك؟

بهت الوزير وانكسر انكسارًا طأطأ رأسه إلى الغبراء، وانتصر الحق مرة ثانية على يد أحمد بن إسحاق.

وهكذا كان الورع والصلاح ديدن قضاة السلف الصالح في صدر الإسلام، فكانوا يتحرزون ويدققون مقدرين عظم المسئولية وفداحة التبعة، ومهما قارنت هؤلاء الأتقياء بأعلام القضاء الحديث في الشرق والغرب، فهم الراجحون الفائزون، حيث كانوا يبتغون وجه الله وحده، فأنزلهم منازل الصالحين وفازوا بأعظم الدرجات.

الإمام/ أبو جعفر الهاشمي

قال الذهبي في «سير أعلام النبلاء»: هو الإمام شيخ الحنابلة، أبو جعفر عبد الخالق بن أبي موسى بن أحمد بن محمد بن عيسى بن أحمد بن موسى بن محمد بن إبراهيم بن عبد الله بن معبد ابن عم النبي ﷺ العباس بن عبد المطلب الهاشمي العباسي الحنبلي البغدادي.

وقال أبو الحسين بن الفراء: لزمته خمس سنين، وكان إذا بلغه منكر، عظم عليه جدًا، وكان شديدًا على المبتدعة، لم تزل كلمته عالية عليهم، وأصحابه يقمعونهم، ولا يردهم أحد، وكان عفيفًا، درس بمسجده، ثم انتقل إلى الجانب الشرقي يُدرس، ثم درَّس بجامع المهدي، ولما احتضر أبو يعلى، أوصاه أن يغسله، وكذا لما احتضر الخليفة القائم أوصى أن يُغسله أبو جعفر، ففعل، وما أخذ شيئًا مما وصى له به، حتى قيل له: خُذ قميص أمير المؤمنين للبركة، فنشفه بفوطة وقال: حصلت البركة. ثم استدعى المقتدى فبايعه منفردًا.

وأُخذ أبو جعفر في فتنة القشيري (التي وقعت بين الحنابلة والأشعرية) وحُبس أيامًا، فسرد الصوم، وما أكل لأحد شيئًا.

يقول أبو الحسين: دخلت عليه فرأيته يقرأ في المصحف، ومرض، فلما ثقل وضج الناس من حبسه، أُخرج إلى الحريم، فمات هناك، وكانت جنازته مشهودة، ودفن إلى جانب قبر الإمام أحمد، ولزم الناس قبره مدة حتى قيل: ختم على قبره عشرة آلاف ختمة.

قال ابن النجار: كان منقطعًا إلى العبادة وخشونة العيش والصلابة في مذهبه، حتى أفضى ذلك إلى مسارعة العوام إلى إيذاء الناس، وإقامة الفتنة، وسفك الدماء، وسب العلماء، فحبس. قلت(والكلام للذهبي): كان يوم موته يومًا مشهودًا.

المصادر:

- «سير أعلام النبلاء» للذهبي.

أبا عثمان بن مسلم عفان

يقول الإمام الذهبي: هو ابن مسلم بن عبد الله مولى عزرة بن ثابت الأنصاري، الإمام الحافظ محدث العراق.

قال أبو حاتم: ثقة إمام، وقال مرة أخرى: ثقة متقن متين.

قال أحمد بن عبد الله العجلي: عفان يكنى أبا عثمان، ثقة ثبت صاحب سنة، كان على مسائل معاذ بن معاذ القاضي، فجعل له عشرة آلاف دينار، على أن يقف عن تعديل رجل، فلا يقول: عدل، ولا غير عدل، فأبى، وقال: لا أبطل حقًا من الحقوق، وكان يذهب برقاع المسائل إلى الموضع البعيد يسأل، فجاء يومًا إلى معاذ بالرقاع، وقد تلطخت بالناطف، فقال: أي شيء هذا؟ قال: إني ذاهب إلى الموضع البعيد فأجوع، أخذت ناطفًا جعلته في كمي أكلته.

قال حنبل: حضرت أبا عبد الله وابن معين عند عفان بعدما دعاه إسحاق بن إبراهيم [نائب المأمون على بغداد] للمحنة، وكان أول من امتحن من الناس عفان، فسأله يحيى من الغد بعد ما امتحن، وأبو عبد الله حاضر ونحن معه، فقال: أخبرنا بما قال لك إسحاق؟

قال: يا أبا زكريا لم أسود وجهك ولا وجوه أصحابك، إني لم أجبه.

فقال له: فكيف كان؟

قال: دعاني وقرأ عليَّ الكتاب الذي كتب به المأمون من الجزيرة فإذا فيه:

امتحن عفان وادعه إلى أن يقول القرآن كذا وكذا، فإن قال ذلك فأقره على أمره، وإن لم يجبك إلى ما كتبت به إليك فاقطع عنه الذي يجري عليه.

(وكان المأمون يجري على عفان كل شهر خمس مئة درهم، فلما قرأ عليَّ الكتاب قال لي إسحاق: ما تقول؟

فقرأت عليه: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص: ١]، حتى ختمتها فقلت: أمخلوق هذا؟

فقال: يا شيخ إن أمير المؤمنين يقول: إنك إن لم تجبه إلى الذي يدعوك إليه يقطع عنك ما يجري عليك. فقلت: ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٢]، فسكت عني وانصرفت، فسر بذلك أبو عبد الله ويحيى.

قلت [والكلام للذهبي]: هذه الحكاية تدل على جلالة عفان وارتفاع شأنه عند الدولة، فإن غيره امتحن، وقيد وسجن، وعفان فما فعلوا معه غير قطع الدراهم عنه.

قال القاسم بن أبي صالح: سمعت إبراهيم بن ديزيل يقول: لما دُعي عفان للمحنة، كنت آخذًا بلجام حماره، فلما حضر، عُرض عليه القول، فامتنع أن يجيب، فقيل له: يُحبس عطاؤك. [وكان كل شهر ألف درهم] فقال: ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٢]، فلما رجع إلى جاره عذله نساؤه ومن في داره، قال: وكان في داره نحو أربعين إنسانًا، فدق عليه داق الباب، فدخل عليه رجل شبهته بسمان أو زيات، ومعه كيس فيه ألف درهم، فقال: يا أبا عثمان ثبتك الله كما تثبت الدين، وهذا في كل شهر.



المصادر:

- «سير أعلام النبلاء» للذهبي.

الإمام الفقيه/ أبو مسهر بن أبي ذرامة

قال الذهبي: هو عبد الأعلى بن مسهر بن عبد الأعلى بن مسهر، الإمام شيخ الشام، أبو مسهر بن أبي ذرامة الغساني الدمشقي الفقيه.

قرأ القرآن على أيوب بن تميم، وصدقة بن خالد، وسويد بن عبد العزيز عن تلاوتهم على يحيى الذماري.

قال ابن معين: منذ خرجت من الأنبار إلى أن رجعت ما رأيت مثل أبي مسهر.

ويقول أيضًا: ما رأيت منذ خرجت من بلادي أحدًا أشبه بالمشيخة الذين أدركتهم من أبي مسهر.

قال أبو زرعة الدمشقي: قال لي أحمد بن حنبل: عندكم ثلاثة أصحاب حديث: الوليد ومروان بن محمد وأبو مسهر.

قال أبو داود: سمعت أحمد بن حنبل يقول: رحم الله أبا مسهر، ما كان أثبته، وجعل يُطريه.

قال أبو حاتم الرازي: ما رأيت أحدًا أعظم قدرًا من أبي مسهر، كنتُ أراه إذا خرج إلى المسجد، اصطف الناس يسلمون عليه ويقبلون يده.

مبدأ محنة الإمام أبي مسهر:

قال علي بن عثمان النفيلي: كنا على باب أبي مسهر جماعة من أصحاب الحديث، فمرض، فعدناه، وقلنا: كيف أصبحت؟

قال: في عافية، راضيًا عن الله، ساخطًا على ذي القرنين، كيف لم يجعل سدًا بيننا وبين أهل العراق؟ كما جعله بين أهل خراسان وبين يأجوج ومأجوج.

فما كان بعد هذا إلا يسيرًا حتى وافى المأمون دمشق، ونزل بدير مران، وبنى القُبة فوق الجبل، فكان بالليل يأمر بجمر عظيم، فيوقد ويجعل في طسوت كبار، تُدلى من عند القبيبة بسلاسل وحبال، فتضيء لها الغوطة، فيبصرها بالليل.

وكان لأبي مسهر حلقة في الجامع بين العشاءين عند حائط الشرقي، فبينا هو ليلة، إذ قد دخل الجامع ضوء عظيم، فقال أبو مسهر: ما هذا؟ قالوا: النار التي تدلى من الجبل لأمير المؤمنين حتى تضيء له الغوطة. فقال: ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾ [الشعراء: ١٢٨-١٢٩]، وكان في الحلقة خبر للمأمون، فرفع ذلك إلى المأمون، فحقدها عليه، وكان قد بلغه أيضًا أنه كان على قضاء أبي العميطر.

فلما رحل المأمون، أمر بحمل أبي مسهر إليه، فامتحنه بالرقة في القرآن.

قال الحسن بن حامد النيسابوري: سمعت أصبغ يقول: دخل أبا مسهر على المأمون بالرقة، وقد ضرب رقبة رجل وهو مطروح مدرج في دمائه، فأوقف أبا مسهر في الحال فامتحنه فلم يجبه، فأمر به، فوضع في النطع ليضرب عنقه، فأجاب إلى خلق القرآن، فأخرج من النطع، فرجع عن قوله، فأعيد في النطع، فأجاب، فأمر به أن يوجه إلى العراق، ولم يثق بقوله، فما حذر، واقام عند إسحاق بن إبراهيم [نائب بغداد] أيامًا لا تبلغ مئة يوم ومات.

وقال إسحاق بن إبراهيم: لما صار المأمون إلى دمشق ذكروا له أبا مسهر، ووصفوه بالعلم والفقه، فأحضره، فقال: ما تقول في القرآن؟

قال: كما قال الله تعالى: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٦].

المأمون: أمخلوق هو أم غير مخلوق؟

أبي مسهر: ما يقول أمير المؤمنين.

المأمون: مخلوق.

أبي مسهر: يخبر عن رسول الله ﷺ أو عن الصحابة أو التابعين.

المأمون: بالنظر. واحتج عليه.

أبي مسهر: يا أمير المؤمنين نحن مع الجمهور الأعظم أقول بقولهم، والقرآن كلام الله غير مخلوق.

المأمون: يا شيخ أخبرني عن النبي ﷺ هل اختتن؟

أبي مسهر: ما سمعت في هذا شيئًا.

المأمون: فأخبرني عنه أكان يشهد إذا زوج أو تزوج؟

أبي مسهر: ولا أدري.

قال المأمون: أخرج قبحك الله، وقبح من قلدك لدينه، وجعلك قدوة.

قالوا لأبي أيوب السجستاني: إن أبا مسهر كان متكبرًا في نفسه، فقال: كان من ثقات الناس، رحم الله أبا مسهر، لقد كان من الإسلام بمكان، حُمل على المحنة، فأبى، وحُمل على السيف، فمدَّ رأسه، وجرد السيف فأبى، فلما رأوا ذلك منه، حُمل إلى السجن، فمات.



المصادر:

- «سير أعلام النبلاء» للذهبي.

الإمام/ الألوسي

تمتعت الأسرة الآلوسية بمنزلة رفيعة وتقدير عظيم لمكانة أبنائها واشتغالهم بالعلم، وتصدرهم للدرس والإفتاء والقضاء في بغداد. وأصل هذه الأسرة من جزيرة آلوس في نهر الفرات، ومن هنا جاءت التسمية، وقد ارتحل عميد هذه الأسرة الكريمة السيد محمود الخطيب الآلوسي إلى بغداد، واتخذها وطنًا في الثلث الأخير من القرن القرن الثاني عشر الهجري، وكان عالمًا صالحًا، أحسن تربية أبنائه وتعليمهم، فساروا في طريقه، وجلسوا للتدريس والقضاء، وتعاقب أحفاده يحملون راية آبائهم في تواصل جاد وعمل مثمر حتى يومنا هذا، غير أن الذي طير شهرة العائلة، وجعلها محط الأنظار هو الإمام أبو الثناء شهاب الدين محمود بن عبد الله صلاح الدين بن محمود الخطيب الآلوسي.

المولد والنشأة:

ولد أبو الثناء محمود الآلوسي في بغداد في [١٥ شعبان ١٢١٧ هـ].

ونشأ في بيت علم وفضل، فأبوه واحد من كبار علماء بغداد، وكان بيته كعبة للعلماء والطلاب، حيث تعقد جلسات العلم وتطرح سائله وقضاياه المختلفة في الفقه والحديث والتفسير والنحو والبلاغة والبيان وغيرها من العلوم.

وفي هذا الجو العلمي نشأ الصبي الصغير، وتعلقت عيناه بأبيه وهو يراه يتصدر تلك الحلقات مناقشًا ومحاورًا ومعلمًا، ويلقى من الحاضرين أسمى آيات التقدير والإعجاب، وسمت نفس الصبي إلى طلب العلم وتحصيله، وكان في نفسه استعداد عظيم للعلم، وحافظة قوية تلتهم ما تقرأه، وهمة عالية في المثابرة على المذاكرة، ولم تمض عليه سنوات قليلة حتى كان قد أتم حفظ المتون في الفقه والنحو والعقيدة والفرائض قبل أن يتم الرابعة عشرة من عمره.

ولم يقتصر الآلوسي في طلب العلم على والده، بل اتجه إلى حلقات غيره من أفذاذ العلماء في عصره، فاتصل بالشيخ علي السويدي، وأمين الحلي، وخالد النقشبندي، وعبد العزيز الشواف، ثم تطلعت همته إلى السفر إلى بيروت ودمشق، ليتتلمذ على علمائها.

علاقته بداود باشا:

وفي تلك الفترة كانت العراق قد شهدت بواكير نهضة مباركة قام عليها داود باشا والي بغداد النابه، فاستقدم عددًا من الخبراء الأوروبيين وعهد إليهم بإنشاء المصانع وبناء المدارس، وأقام مطبعة جديدة، وأصدر صحيفة سماها جرنال العراق، وأعاد تعمير المساجد القديمة، وعين بها جماعة من العلماء للتدريس، وكان لهذه الجهود أثر لا يُنكر في تحريك الحياة الراكدة، وكان من الطبيعي أن يجد الفتى النابه في داود باشا رمزًا للنهوض واليقظة، فوقف معه وعونه.

ولما اشتد الخلاف بين داود باشا والدولة العثمانية، وكان هو واليًا من قبلها وقف الآلوسي في صف الوالي وآزره، وحشد الرأي العام في تأييده ومعاونته ضد الجيش العثماني الذي أحكم الحصار على بغداد، وشاءت الأقدار أن ينتشر الطاعون في بغداد فيعصف بالأهالي في غير رحمة، وزاد الأمر سوءًا فيضان دجلة بمياه كاسحة أغرقت المدينة، ولم يجد داود باشا فائدة من المقاومة فاستسلم للجيش العثماني. وجاء قائد الحملة ليبحث عن رجال داود باشا ومعاونيه ويزج بهم في السجون، وكان الآلوسي واحدًا ممن طالتهم المحنة، وحلت بهم المصيبة، وزجوه في السجون.

في كنف الوالي الجديد:

غير أن نباهة الآلوسي وسعة علمه بلغت مسامع الوالي الجديد رضا باشا، فطلب بعض مؤلفاته ليقرأها وكان على حظ من المعرفة، فنالت إعجابه، وأصدر أمرًا بالإفراج عن

الآلوسي وعينه خطيبًا لجامع الشيخ عبد القادر الجيلي، وكان يحضر دروسه، فأعجب بحسن بيانه وغزارة علمه، واتفق أن انجز كتابه «كتاب البرهان في إطاعة السلطان» فقدمه إليه، فأجازه عليه بتولية أوقاف مدرسة مرجان التاريخية، وكانت لا تُعطي إلا للجهابذة من العلماء، ثم ولاه منصب الإفتاء في بغداد وهو في الثلاثين من عمره، تقديرًا لعلمه وكفايته ونبوغه وذكائه، كان يشترط فيمن يتولى هذا المنصب الجليل في الدولة العثمانية أن يكون حنفي المذهب؛ لأنه المذهب الرسمي للدولة، وعلى الرغم من كون الآلوسي شافعي المذهب فإنه استطاع في فترة قصيرة أن يدرس المذهب من أوسع كتبه ومدوناته الكبيرة، وأن يلم بقضاياه ومسائله.

ولما ظهرت نعمة الله على الآلوسي واتسع رزقه، لشترى دارًا واسعة، وجعل قسمًا منها مسكنًا لطلابه الذين يغدون إليه من أطراف العراق وكردستان لتلقي العلم عليه، ولم يكتف الآلوسي باستقبالهم في مسكنه، وإنما امتدت إليه مظلة كرمه، فكان يطعمهم ويتكفل بهم.

محنته:

لم يمكث رضا باشا في ولايته على العراق طويلًا، فحل مكانه محمد نجيب، ولم يجد الآلوسي في ظل ولايته ما كان يجده عند الوالي السابق من التقدير والإجلال، بل ضاق من مكانته ونفوذه العلمي في بغداد، فانتهز فرصة اشتعال مظاهرة ضده واتهم الآلوسي بأنه الذي يقف خلفها، وسارع بعزله عن الإفتاء، وحاربه في رزقه، وحال بينه وبين السفر إلى الأستانة لمقابلة الخليفة العثماني.

واضطرته هذه الظروف الصعبة إلى بيع أثاث بيته حتى يتمكن من الإنفاق على بيته وعلى العشرات من طلابه الذين يسكنون بيته، وكانت في الشيخ عزة نفس وإباء، فلم يشأ أن يعلن عن ضيق ذات يده، وفي الوقت نفسه انشغل بإكمال تفسيره للقرآن حيث كان يجد فيه

السلوى عما به من ضيق، حتى إذا انقضت سنوات المحنة انطلق إلى الأستانة ومعه تفسيره (١٢٦٧ هـ = ١٨٥١م).

الرحلة إلى الأستانة:

وفي دار الخلافة العثمانية استقبله محمد عارف حكمت شيخ الإسلام استقبالًا حسنًا، وأشار عليه أن يكتب إلى الصدر الأعظم مذكرة عن حاله وما يرجوه، فكتب إليه، فأعجب الصدر الأعظمَ بما كتب، ونعم برضا الخليفة عبد المجيد، الذي رتب له مالًا جزيلًا كل عام، وعاد إلى بغداد بعد أن مكث في دار الخلافة واحدًا وعشرين شهرًا، وخرجت بغداد كلها في استقباله.

وفاة الآلوسي:

كان الآلوسي إمامًا لمدرسة كبيرة امتدت به، وتأثرت بطريقته ومنهجه في التأليف، ولولاه لربما تأخرت النهضة العلمية في العراق؛ لأن تلاميذه حملوا رايته ونهجوا طريقته، فاتصل تأثيره في الأجيال اللاحقة ولم ينقطع، وقد مدح في حياته ورثي بعد مماته بأشعار كثيرة لم تتح نظائرها إلا للملوك والأمراء، وقد جمع تلميذه الأديب عبد الفتاح الشواف، وابنه أبو البركات نعمان خير الدين هذه الأشعار في كتاب كبير من مجلدين سماه: حديقة الورود في مدائح أبي الثناء محمود.

ولم تطل الحياة بعد عودة الآلوسي من عاصمة دار الخلافة، حيث لقي ربه في [٢٥ من ذي القعدة سنة ١٢٧٠ هـ = ١٩ أغسطس ١٨٥٤م].

المصادر:

- «التفسير والمفسرون» لمحمد حسين الذهبي.
- «النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين» لمحمد رجب البيومي.
- «الألسيوية» لمحمد بهجت الأثري.



الإمام الشهيد/ أبو بكر ابن النابلسي

قال الذهبي في «سير أعلام النبلاء»: هو الإمام القدوة الشهيد أبو بكر محمد بن أحمد بن سهل الرملي، ويعرف بابن النابلسي.

كان يحكم بلاد مصر والشام العبيدية الذين أظهروا التشيع وسبوا الصحابة، ونحوا مذهب أهل السنة والجماعة وحلوا محله المذهب الشيعي الرافضي الباطل، وعطلوا الصلوات وحاربوا أهل السنة، وتوجه المعز الفاطمي إلى الإسكندرية فذبح فيها من علماء السنة من ذبح، وكان أن أحضر بين يدي المعز العالم الزاهد الورع العابد التقي أبو بكر النابلسي

قال له المعز: بلغني عنك أنك قلت لو أن معي عشرة أسهم لرميت الروم بتسعة، ورميت المصريين بسهم؟

قال النابلسي: ما قلت هذا.

فظن المعز أن الشيخ رجع عن قوله! فقال: كيف قلت؟

فرد عليه الإمام بقوة وعزة: قلت: ينبغي أن نرميكم بتسعة ثم نرميهم بالعاشر.

قال المعز: ولم؟

قال الإمام: لأنكم غيرتم دين الأمة، وقتلتم الصالحين، وأطفأتم نور الإلهية، وادعيتم ما ليس لكم.

فأمر المعز بإشهاره في أول يوم، ثم ضرب في اليوم الثاني بالسياط ضربًا شديدًا، ثم أمر بسلخة في اليوم الثالث، فجيء بيهودي فجعل يسلخه وهو يقرأ القرآن الكريم.

قال اليهودي: فأخذتني رقة عليه، فلما بلغت تلقاء قلبه طعنته بالسكين فمات.

قال أبو ذر الحافظ عن الإمام أبو بكر بن النابلسي: سجنه بنو عبيد، وصلبوه على السنة، سمعت الدارقطني يذكره ويبكي ويقول: كان يقول وهو يُسلخ ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾ [الإسراء: ٥٨].

قال أبو الفرج ابن الجوزي: أقام جوهر القائد لأبي تميم صاحب مصر أبا بكر النابلسي، وكان ينزل الأكواخ، فقال له: بلغنا أنك قلت: إذا كان مع الرجل عشرة أسهم، وجب أن يرمي في الروم سهمًا، وفينا تسعة.

قال: ما قلت هذا، بل قلت: إذا كان معه عشرة أسهم، وجب أن يرميكم بتسعة، وأن يرمي العاشر فيكم أيضًا، فإنكم غيرتم الملة، وقتلتم الصالحين، وادعيتم نور الإلهية.

فشهره جوهر القائد ثم صلبه، ثم أمر يهوديًا فسلخه.

قال ابن الأكفاني: توفي العبد الصالح الزاهد أبو بكر بن النابلسي، كان يرى قتال المغاربة، هرب من الرملة إلى دمشق، فأخذه متوليها أبو محمود الكتامي، وجعله في قفص خشب وأرسله إلى مصر، فلما وصل قالوا: أنت القائل، لو أن معي عشرة أسهم...... وذكر القصة، فسلخ وحشي تبًا، وصلب.

قال معمر بن أحمد بن زياد: أخبرني الثقة: أن أبا بكر سلخ من مفرق رأسه حتى بلغ الوجه، فكان يذكر الله ويصبر حتى بلغ الصدر فرحمه السلاخ، فوكزة بالسكين موضع قلبه فقضى عليه.

قال الذهبي: أخبرني الثقة أنه كان إمامًا في الحديث والفقه، صائم الدهر، كبير الصولة في العامة والخاصة، ولما سُلخ كان يُسمع من جسده قراءة القرآن.

قال شريف ممن يعانده لما قدم مصر: الحمد لله على سلامتك!!

قال الإمام: الحمد لله على سلامة ديني وسلامة دنياك!

حكى ابن السعساع المصري: أنه رأى في النوم أبا بكر بن النابلسي بعدما صُلب وهو في أحسن هيئة، فقال: ما فعل الله بك؟ فقال:

حَبَاني مَالِكِي بِدَوَامِ عَزٍّ ... وَوَاعَدَنِي بِقُربِ الانتِصَارِ

وَقَرَّبَنِي وَأَدْنَانِي إِلَيهِ ... وَقَالَ أَنعِمْ بِعَيشٍ فِي جِوَارِي

وهكذا فكم من عالم سقط على الطريق من أجل أن تعيش كلمة الحق، وكم من عالم عُـذب وأهين من أجل أن تبقى كلمة الحق عزيزة عالية لا تنالها يد الظالمين، وكم من عالم قد حُـرم جميـع حقوقه من أجل أن يحفظ حق الله، ولا غرابة في ذلك ولا عجب، فهم أهل لتلك المواقف، إذ على أكتافهم عُملت شريعة الإسلام، وفي صدورهم حُفظ كتاب الله، وسُنة رسوله ﷺ.



المصادر:

- «سير أعلام النبلاء» للذهبي.

الإمام/ أبو عبد الرحمن العُمري

قال الذهبي في «السير»: هو الإمام القدوة الزاهد العابد، أبو عبد الرحمن عبد الله بن عبد العزيز بن عبد الله بن عبد الله بن عمر بن الخطاب القرشي العدوي العُمري المدني.

قيل: إن العُمري وعظ الرشيد مرة، فكان يتلقى قوله بنعم يا عم، فلما ذهب أتبعه الأمين والمأمون بكيسين فيهما ألفا دينار، فردها وقال: هو أعلم بمن يفرقها عليه، وأخذ دينارًا واحدًا وشخص عليه ببغداد، فكره مجيئه، وجمع العُمريين وقال: مالي ولابن عمكم! احتملته الحجاز، فأتى إلى دار مُلكي، يريد أن يُفسد عليَّ أوليائي، ردوه عني. قالوا: يقبل منا، فكتب إلى الأمير موسي بن عيسى: أن ترفق به حتى ترده.

قال مصعب الزبيري: كان العُمري أصفر جسيمًا، لم يكن يقبل من السلطان ولا غيره، ومن ولى من أقاربه ومعارفه لا يكلمه، وولي أخوه عمر المدينة وكرمان فهجره، ما أدركت بالمدينة رجلًا أهيب منه، وكان يقبل صلة ابن المبارك، وقدم الكوفة ليخوف الرشيد بالله، فرجف لمجيئة الدولة، حتى لو كان نزل بهم من العدو مائة ألف ما زاد من هيبته، فرد من الكوفة ولم يصل إليه.

قال له موسى بن عيسى: يُنهى إلى أمير المؤمنين أنك تشتمه وتدعو عليه، فبم استجزت هذا؟

قال العُمري: أما شتمهُ فو الله هو أكرم عليَّ من نفسي، لقرابته من رسول الله ﷺ، وأما الدعاء عليه فو الله ما قلت: اللهم إنه قد أصبح عبئًا ثقيلًا على أكتافنا، فلا تطيقه أبداننا، وقذى في جفوننا لا تطرف عليه جفوننا، وشجى في أفواهنا لا تسيغه حلوقنا، فاكفنا مؤنته، وفرق بيننا وبينه، ولكن قلت: اللهم إن كان تسمي بالرشيد ليرشد،

فأرشده، أو لغير ذلك فراجع به، اللهم إن له في الإسلام بالعباس على كل مؤمن كفًا، وله بنبيك ﷺ قرابة ورحم، فقربه من كل خير، وباعد من كل سوء، وأسعدنا به، وأصلحه لنفسه ولنا. فقال موسى: رحمك الله أبا عبد الرحمن، كذاك لعمري الظن بك.



المصادر:

- «سير أعلام النبلاء» للذهبي.

الإمام/ بقي ابن مخلد

الإمام القدوة، شيخ الإسلام، ومدخل الحديث إلى بلاد الأندلس، أبو عبد الرحمن بقي ابن مخلد بن يزيد الأندلسي القرطبي الحافظ صاحب التفسير والمسند اللذين لا نظير لهما في الإسلام، ولد بقرطبة سنة ٢٠٠هـ، فسمع بها الحديث من أصحاب مالك، ثم خرج في الرحلة العلمية ودخل بلاد المغرب فسمع من علمائها، ثم انتقل إلى المشرق فدخل بغداد وبلاد ما وراء النهر، فسمع من الإمام أحمد بن حنبل علمًا كثيرًا، وحمل من المشرق علومًا كثيرة في الحديث والتاريخ والتفسير، وأدخله بلاد الأندلس حتى صارت دار حديث ومسانيد.

واجه بقي ابن مخلد محنة شديدة بالأندلس عندما أدخل علومه التي حملها من المشرق، فلقد اصطدم مع أتباع الإمام مالك الذين لا يرون إلا علمه فقط، وكان «بقي» يفتي بالأثر ولا يرى التقليد، فشذ عنهم شذوذًا عظيمًا وبدعوه ونسبوا إليه الزندقة وأشياء نزَّهه الله منها ونصره عليهم، وبقي علمه بالأندلس، فصارت تصانيفه وعلومه قواعد الإسلام لا نظير لها خاصة كتابه الشهير «المسند» الذي جمع فيه طريقة المسانيد والمصنفات على نسق البخاري ومسلم والنسائي.

ثناء العلماء عليه:

وقد تفقه بإفريقية على سحنون بن سعيد. ذكره أحمد بن أبي خيثمة، فقال: ما كنا نسميه إلا المكنسة، وهل احتاج بلد فيه «بقي» إلى أن يرحل إلى هاهنا منه أحد؟ ! قال طاهر بن عبد العزيز الأندلسي: حملت معي جزءًا من «مسند» بقي ابن مخلد إلى المشرق فأريته محمد بن إسماعيل الصائغ، فقال: ما اغترف هذا إلا من بحر. وعجب من كثرة علمه.

وقال إبراهيم بن حيون، عن بقيّ بن مخلد، قال: لما رجعت من العراق أجلسني يحيى بن بكير إلى جنبه، وسمع مني سبعة أحاديث.

وقال أبو الوليد بن الفرضي في «تاريخه»: ملأ بقي بن مخلد الأندلس حديثًا، فأنكر عليه أصحابه الأندلسيون: أحمد بن خالد ومحمد بن الحارث، وأبو زيد، ما أدخله من كتب الاختلاف وغرائب الحديث، فأغروا به السلطان وأخافوه به، ثم إن الله أظهره عليهم، وعصمه منهم، فنشر حديثه وقرأ للناس روايته. ثم تلاه ابن وضاح، فصارت، الأندلس دار حديث وإسناد. ومما انفرد به، ولم يدخله سواه «مصنف» أبي بكر ابن أبي شيبة بتمامه و«كتاب الفقه» للشافعي بكماله -يعني «الأم» - و«تاريخ» خليفة، و«طبقات» خليفة وكتاب «سيرة عمر بن عبد العزيز»، لأحمد بن إبراهيم الدورقي.... وليس لأحد مثل «مسنده».

وكان ورعًا فاضلًا زاهدًا... قد ظهرت له إجابات الدعوة في غير ما شيء. قال: وكان المشاهير من أصحاب ابن وضاح لا يسمعون منه، للذي بينهما من الوحشة... ولد في شهر رمضان سنة إحدي ومائتين.

وقال الحافظ أبو القاسم الدمشقي: لم يقع إليَّ حديث مسند من حديث بقي. **قلت:** عمل له ترجمة حسنة في «تاريخه».

قال الإمام أبو محمد بن حزم الظاهري: اقطع أنه لم يؤلف في الإسلام مثل «تفسير» بقي، لا «تفسير» محمد بن جرير ، ولا غيره.

قال: وكان محمد بن عبد الرحمن الأموي صاحب الأندلس محبًا للعلوم عارفًا، فلما دخل بقي الأندلس «بمصنف» أبي بكر ابن أبي شيبة، وقرئ عليه، أنكر جماعة من أهل الرأي ما فيه من الخلاف واستبشعوه ونشّطوا العامة عليه، ومنعوه من قراءته، فاستحضره صاحب الأندلس محمد وإياهم، وتصفح الكتاب كله جزءًا جزءًا، حتى أتى على آخره، ثم قال لخازن الكتب: هذا كتاب لا تستغني خزانتنا عنه، فانظر في نسخه لنا. ثم قال لبقي: انشر علمك وارو ما عندك. ونهاهم أن يتعرضوا له.

قال: فخرجا ولم يعودا ، وخرجا إلى حد العداوة. وألف أبو عبد الملك أحمد بن محمد بن عبد البر القرطبي، الميت في عام ثمانية وثلاثين وثلاث مائة كتابًا في أخبار علماء قرطبة ذكر فيه بقي بن مخلد، فقال: كان فاضلًا تقيًا، صوامًا قوامًا متبتلًا، منقطع القرين في عصره، منفردًا عن النظير في مصره، كان أول طلبه عند محمد بن عيسى الأعشى، ثم رحل، فحمل عن أهل الحرمين، ومصر ، والشام، والجزيرة، وخلوان، والبصرة، والكوفة، وواسط وبغداد، وخراسان، وما أدري هل دخل الجزيرة أم لا؟ ويظهر ذلك لمن تأمل شيوخه- ثم قال: وعدن والقيروان

قال: وذكر عبد الرحمن بن أحمد، عن أبيه: أن امرأة جاءت إلى بقي، فقالت: إن ابني في الأسر، ولا حيلة لي، فلو أشرت إلى من يفديه ، فإنني والهة. قال: نعم ، انصرفي حتى أنظر في أمره. ثم أطرق وحرك شفتيه، ثم بعد مدة جاءت المرأة بابنها، فقال: كنت في يد ملك، فبينا أنا في العمل، سقط قيدي. قال: فذكر اليوم والساعة ، فوافق وقت دعاء الشيخ قال: فصاح على المرسم بنا، ثم نظر وتحير، ثم أحضر الحداد وقيدني، فلما فرغه ومشيت سقط القيد، فبهتوا، ودعوا رهبانهم، فقالوا: ألك والدة؟ قلت: نعم ، قالوا: وافق دعاءها الإجابة.

هذه الواقعة حدث بها الحافظ حمزة السهمي، عن أبي الفتح نصر بن أحمد بن عبد الملك، قال: سمعت عبد الرحمن بن أحمد ، حدثنا أبي. . فذكرها وفيها: ثم قالوا: قد أطلقك الله، فلا يمكننا أن نقيدك. فزودوني، وبعثوا بي.

قال: وكان بقي أول من كثر الحديث بالأندلس ونشره، وهاجم به شيوخ الأندلس فثاروا عليه، لأنهم كان علمهم بالمسائل ومذهب مالك، وكان بقي يفتي بالأثر، فشذ عنهم شذوذًا عظيمًا، فعقدوا عليه الشهادات، وبدعوه، ونسبوا إليه الزندقة، وأشياء نزهه الله منها. وكان بقي يقول: لقد غرست لهم بالأندلس غرسًا لا يقلع إلا بخروج الدجال قال: وقال بقي: أتيت العراق، وقد مُنع أحمد بن حنبل من الحديث فسألته أن يحدثني، وكان بيني وبينه

خلة، فكان يحدثني بالحديث في زي السؤال، ونحن في خلوة، حتى اجتمع لي عنه نحو من ثلاث مائة حديث.

قال ابن حزم: و«مسند» بقي روى فيه عن ألف وثلاث مائة صاحب ونيف، ورتب حديث كل صاحب على أبواب الفقه، فهو مسند ومصنف، وما أعلم هذه الرتبة لأحد قبله، مع ثقته وضبطه، وإتقانه واحتفاله في الحديث. وله مصنف في فتاوى الصحابة والتابعين فمن دونهم، الذي قد أربى فيه على «مصنف» ابن أبي شيبة، وعلى «مصنف» عبد الرزاق وعلى «مصنف» سعيد بن منصور. . . . ثم إنه نوه بذكر «تفسيره»، وقال: فصارت تصانيف هذا الإمام الفاضل قواعد الإسلام، لا نظير لها، وكان متخيرًا لا يقلد أحدًا، وكان ذا خاصة من أحمد بن حنبل، وجاريًا في مضمار البخاري ومسلم والنسائي.

وقال أبو عبد الملك المذكور في «تاريخه»: كان بقي طوالًا أقنى ذا لحية مضبرًا قويًا جلدًا على المشي، لم يُر راكبًا دابة قط، وكان ملازمًا لحضور الجنائز، متواضعًا، وكان يقول: إني لأعرف رجلًا، كان تمضي عليه الأيام في وقت طلبه العلم، ليس له عيش إلا ورق الكرنب الذي يرمى، وسمعت من كل من سمعت منه في البلدان ماشيًا إليهم على قدمي.

قال ابن لبابة الحافظ: كان بقي من عقلاء الناس وأفاضلهم، وكان أسلم بن عبد العزيز يقدمه على جميع من لقيه بالمشرق، ويصف زهده، ويقول: ربما كنت أمشي معه في أزقة قرطبة، فإذا نظر في موضع خال إلى ضعيف محتاج أعطاه أحد ثوبيه. وذكر أبو عبيدة صاحب القبلة قال: كان بقي يختم القرآن كل ليلة، في ثلاث عشرة ركعة، وكان يصلي بالنهار مائة ركعة، ويصوم الدهر.

وكان كثير الجهاد، فاضلا، يذكر عنه أنه رابط اثنتين وسبعين غزوة. ونقل بعض العلماء من كتاب لحفيد بقي عبد الرحمن بن أحمد: سمعت أبي يقول: رحلَ أبي من مكة إلى بغداد، وكان رجلًا بغيته ملاقاة أحمد بن حنبل. قال: فلما قربت بلغتني المحنة، وأنه ممنوع ، فاغتممت

غمًا شديدًا فاحتللت بغداد، واكتريت بيتًا في فندق، ثم أتيت الجامع وأنا أريد أن أجلس إلى الناس، فدفعت إلى حلقة نبيلة، فإذا برجل يتكلم في الرجال، فقيل لي: هذا يحيى بن معين. ففرجت لي فرجة، فقمت إليه، فقلت: يا أبا زكريا: -رحمك الله- رجل غريب ناء عن وطنه، يحب السؤال، فلا تستجفني، فقال: قل. فسألت عن بعض من لقيته فبعضًا زكى، وبعضًا جرح، فسألته عن هشام بن عمار، فقال لي: أبو الوليد، صاحب صلاة دمشق، ثقة، وفوق الثقة، لو كان تحت ردائه كبر، أو متقلدًا كبرًا، ما ضره شيئًا لخيره وفضله، فصاح أصحاب الحلقة: يكفيك -رحمك الله- غيرك له سؤال.

فقلت- وأنا واقف على قدم: اكشف عن رجل واحد: أحمد بن حنبل، فنظر إليَّ كالمتعجب، فقال لي: ومثلنا، نحن نكشف عن أحمد؟ ! ذاك إمام المسلمين وخيرهم وفاضلهم. فخرجت أستدل على منزل أحمد بن حنبل فدللت عليه فقرعت بابه، فخرج إلي.

فقلت: يا أبا عبد الله: رجل غريب ، نائي الدار، هذا أول دخولي هذا البلد ، وأنا طالب حديث ومقيد سُنَّة، ولم تكن رحلتي إلا إليك، فقال: ادخل الأصطوان ولا يقع عليك عين. فدخلت، فقال لي: وأين موضعك؟ قلت: المغرب الأقصى. فقال: إفريقية؟ قلت: أبعد من إفريقية، أجوز من بلدي البحر إلى إفريقية ، بلدي الأندلس ، قال: إن موضعك لبعيد، وما كان شيء أحب إلي من أن أحسن عون مثلك ، غير أني ممتحن بما لعله قد بلغك.

فقلت: بلى، قد بلغني، وهذا أول دخولي، وأنا مجهول العين عندكم، فإن أذنت لي أن آتي كل يوم في زي السؤال، فأقول عند الباب ما يقوله السؤال، فتخرج إلى هذا الموضع، فلو لم تحدثني كل يوم إلا بحديث واحد لكان لي فيه كفاية. فقال لي: نعم على شرط أن لا تظهر في الخلق، ولا عند المحدثين.

فقلت: لك شرطك، فكنت آخذ عصا بيدي، وألف رأسي بخرقة مدنسة، وآتي بابه فأصيح: الأجر - رحمك الله- والسؤال هناك كذلك، فيخرج إليَّ، ويغلق، ويحدثني بالحديثين

والثلاثة والأكثر ، فالتزمت ذلك حتى مات الممتحن له، وولي بعده من كان على مذهب السنة، فظهر أحمد، وعلت إمامته وكانت تضرب إليه آباط الإبل، فكان يعرف لي حق صبري، فكنت إذا أتيت حلقته فسح لي ويقص على أصحاب الحديث قصتي معه، فكان يناولني الحديث مناولة ويقرؤه عليَّ وأقرؤه عليه، واعتللت في خلق معه. ذكر الحكاية بطولها.

نقلها القاسم بن بشكوال في بعض تآليفه، ونقلتها أنا من خط شيخنا أبي الوليد بن الحاج، وهي منكرة، وما وصل ابن مخلد إلى الإمام أحمد إلا بعد الثلاثين ومائتين، وكان قد قطع الحديث من أثناء سنة ثمان وعشرين، وما روى بعد ذلك ولا حديثًا واحدًا، إلى أن مات.

ولما زالت المحنة سنة اثنتين وثلاثين، وهلك الواثق، واستخلف المتوكل، وأمر المحدثين بنشر أحاديث الرؤية وغيرها، امتنع الإمام أحمد من التحديث، وصمم على ذلك، ما عمل شيئًا غير أنه كان يذاكر بالعلم والأثر، وأسماء الرجال والفقه، ثم لو كان بقي سمع منه ثلاث مائة حديث، لكان طرز بها «سنده»، وافتخر بالرواية عنه. فعندي مجلدان من «مسنده»، وما فيهما عن أحمد كلمة.

ونقل عبد الرحمن هذا عن جده أشياء الله أعلم بصحتها، ثم قال: كان جدي قد قسم أيامه على أعمال البر: فكان إذا صلى الصبح قرأ حزبه من القرآن في المصحف، سدس القرآن، وكان أيضًا يختم القرآن في الصلاة في كل يوم وليلة، ويخرج كل ليلة في الثلث الأخير إلى مسجده، فيختم قرب انصداع الفجر.

وكان يصلي بعد حزبه من المصحف صلاة طويلة جدًا، ثم ينقلب إلى داره -وقد اجتمع في مسجده الطلبة- فيجدد الوضوء، ويخرج إليهم، فإذا انقضت الدول، صار إلى صومعة المسجد فيصلي إلى الظهر ثم يكون هو المبتدئ بالأذان، ثم يهبط ثم يسمع إلى العصر، ويصلي ويسمع، وربما خرج في بقية النهار، فيقعد بين القبور يبكي ويعتبر. فإذا غربت الشمس أتى مسجده، ثم يصلي، ويرجع إلى بيته فيفطر، وكان يسرد الصوم إلا يوم الجمعة، ويخرج إلى

المسجد، فيخرج إليه جيرانه، فيتكلم معهم في دينهم ودنياهم، ثم يصلي العشاء ويدخل بيته، فيحدث أهله، ثم ينام نومة قد أخذتها نفسه، ثم يقوم. وهذا دأبه إلى أن توفي.

وكان جلدًا، قويًا على المشي، قد مشى مع ضعيف في مظلمة إلى إشبيلية ومشى مع آخر إلى إلبيرة، ومع امرأة ضعيفة إلى جيان.

كان بقي بن مخلد إمامًا مجتهدًا مطلقًا لا يقلد أحدًا، ربانيًا صادقًا مخلصًا، رأسًا في العلم والعمل مجاب الدعوة، صاحب كرامات مشهورة، وزهد وتقشف حتى إنه طلب العلم من أقصى الأرض لأدناها ماشيًا على قدميه، لم يركب دابة قط لفقره وقلة يده رغم عطايا الملوك التي كانت تنهال عليه وهو يردها ويرفضها، وكان صوامًا قوامًا يحب الفقراء والمساكين شديد العطف عليهم رغم فقره، ومع ذلك كان من كبار مجاهدي الأندلس، شهد مع المسلمين أكثر من سبعين غزوة ضد الصليبيين، وكان يقسم يومه على أعمال البر كلها لا تسقط لحظة من يومه في غير طاعة، وقد توفي: في ٢٨ جمادى الآخرة ٢٧٦هـ بعد أن أدخل الأندلس علومًا غزيرة وفقه الشافعي وأحمد ومسانيد علماء المشرق.



المصادر:

- «شذرات الذهب» لابن العماد الحنبلي (٢/ ١٦٩).
- «طبقات الحنابلة» (١/ ١٢٠).
- «سير أعلام النبلاء» للذهبي.
- «البداية والنهاية» لابن كثير.
- «التاريخ» لابن عساكر.
- «معجم الأدباء» لياقوت الحموي (٧/ ٧٥).
- «تاريخ علماء الأندلس» (١/ ٩٢).



الشيخ/ أبو المواهب الحنبلي

هو الشيخ أبو المواهب بن عبد الباقي بن عبد الباقي الحنبلي البعلي الدمشقي مفتي الحنابلة بدمشق، وشيخ القراء والمحدثين.

في سنة خمس عشرة ومائة وألف كان واليًا بدمشق محمد باشا بن كرد بيرم، فأرسل إليه من طرف الدولة العلية أن يضبط بعلبك والعائد منها ويرسله إلى طرفهم لكونها كانت في يد شيخ الإسلام المولي فيض الله مفتي الدولة العثمانية فحين قُتل صارت للخزينة السلطانية العائد منها حتى الحرير وغيره، وكان لما وصل إليه الحرير طرحه على التجار بدمشق فذهب جماعة إلى الشيخ أبي المواهب وترجوا منه رفع هذه المظلمة عنهم، فأرسل ورقة مع خادمه ابن القيسي إلى الباشا فلما وصل إليه هدده فهرب من وجهه، فلما ذهب كان حاضرًا في مجلس الباشا أحد أعيان جند دمشق وهو محمد أغا الترجمان وباش جاويش وغيرهما فأخبروه بمقام الشيخ وعرفوه بحاله من النسك والعلم والعبادة والولاية.

فلما تحقق ذلك [وكان مراده أن يأخذ من الشيخ مالًا لما سمع بخبره من مزيد الثروة] أرسل خبرًا: لا أحد يتعدى على التجار، ثم إن التجار وقعوا على الشيخ مرة ثانية، فأرسل ورقة أخرى إلى الباشا وذكر أن الرعية لا تحتمل الظلم، فإما أن ترفع هذه المظلمة، وإما أن تهاجر من هذه البلدة والجمعة لا تنعقد عندكم، وأيضًا الحرير للسلطان لا لك، فلما وصلت إليه ترك مراده بعدما علم بمقام الشيخ، وأن الرعية تقوم عليه إذا فعل ذلك.

وكان: لا يخاف في الله لومة لائم، ولا يهاب الوزراء ولا غيرهم.

المصادر:

- «صلاح الأمة في علو الهمة» للدكتور سيد حسين عفاني نقلًا من «سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر» للشيخ محمد خليل المرادي جـ[١].

الشيخ/ أبو سهل البسطامي

قال الذهبي في «السير»: هو شيخ الشافعية ومحتشمهم، أبو سهل محمد بن الإمام جمال الإسلام الموفق هبة الله ابن العلامة المصنف أبي عمر محمد بن الحسين البسطامي ثم النيسابوري، زين أهل الحديث.

انتهت إليه زعامة الشافعية بعد أبيه، وكان مدرسًا رئيسًا ذكيًا وقورًا، قليل الكلام، مات شابًا عن ثلاث وثلاثين سنة.

وكانت داره مجمع العلماء، واحتف به الفقهاء رعاية لأبوته، وظهر له القبول، وظهر له خصوم وحُساد، وحرفوا عنه السلطان، ونيل من الأشعرية، ومنعوا من الوعظ، وعُزلوا من خطابة نيسابور، وقويت المعتزلة والشيعة، وآل الأمر إلى توظيف اللعن في الجُمع، ثم تعدى اللعن إلى طوائف، وهاجت فتن بخراسان، حتى سجن القشيري، والرئيس الفراتي، وإمام الحرمين، وأبو سهل هذا، وأُمر بنفيهم، فاختفى الجويني، وفر إلى الحجاز من طريق كرمان، فتهيأ أبو سهل، وجمع أعوانًا ومقاتلة، والتقى في البلد هو وأمير البلد، فانتصر أبو سهل، وجُرح الأمير، وعظمت المحنة، وبادر أبو سهل إلى السلطان، فأُخذ وحُبس أشهرًا، وصودر، وأخذت ضياعه، ثم انطلق فحج ثم عظم بعد عند ألب أرسلان، وهم بأن يستوزره، فقصد واغتيل إلى رحمه الله في سنة ست وخمسين، وأُظهر عليه أهل نيسابور من الجزع ما لا يعبر عنه، وندبته النوائح مدة، وأنشدت مراثيه في الأسواق.



المصادر:

- «سير أعلام النبلاء» للذهبي.

الإمام أبو بكر الطرطوشي

يحفل تاريخنا الإسلامي بعلماء الدين ومشايخه الذين كانوا علامات وضاءة في مسيرة الحضارة الإسلامية، وكانوا مثالًا للنزاهة والعلم والتقى والورع، والدفاع عن حقوق الإنسان، والسعي لتطبيق العدالة، والزود عن الشرع وإعلاء راية الحق.

من هؤلاء العلماء [أبو بكر الطرطوشي] العالم الزاهد الجريء الذي لا يخشى في الحق لومة لائم، والذي لا يخاف صاحب السلطان ولا يهابه، فقد كان أبي النفس قوالًا للحق.

هو أبو بكر بن محمد الوليد بن محمد بن خلف بن سليمان بن أيوب القرشي الفهري [الطرطوشي] المشهور بابن أبي رندقة، ولد في ٢٦ جمادي الأولى سنة ٤٥٠هـ في مدينة طرطوشة بالأندلس.

وفي مسجد طرطوشة الكبير تلقى أبو بكر محمد بن الوليد علومه الأولى، فحفظ القرآن صغيرًا، ولما شب عن الطوق رحل إلى مدن الأندلس الكبرى الأخرى يستزيد من العلم، فذهب إلى مدينة سرقسطة واتصل بكبير علمائها في ذلك الوقت القاضي أبي الوليد الباجي، وسمع منه وأجاز له وتفقه على يده.

وكانت أسرة والدته من سرقسطة، وكان بعض أفراد هذه الأسرة من رجال الحرب الشجعان المبرزين، وكان والده الذي ينتهي نسبه إلى قريش من المشتغلين بالعلم، ولهذا وجه ابنه إلى تحصيل العلم، وكانت أسرته على شيء من الثراء، ومع ذلك كان يعمل حارسًا للبساتين.

وعندما وصل إلى الخامسة والعشرين من عمره قرر أن يتجه إلى المشرق مواصلًا تحصيل العلم في مكة والعراق والشام ومصر. ففي سنة ٤٧٦هـ غادر الطرطوشي وطنه فوصل إلى مكة، واستقر بها قليلًا بعد أداء فريضة الحج، يلقي بعض الدروس، ولكنه لم يمكث بمكة طويلًا بل استأنف رحلته واتجه إلى بغداد.

كانت بغداد في ذلك الوقت مركزًا من أكبر مراكز العلم في العالم الإسلامي، وكانت محط رحال العلماء يفدون إليها من أقصى المشرق ومن أقصى المغرب، فكان لابد لأبي بكر الطرطوشي أن يرحل إليها ليستكمل دراسته، ويتصل بعلمائها الأعلام ويتتلمذ عليهم ويأخذ منهم.

اندمج الطرطوشي في الحياة العلمية النشطة ببغداد، واستمع إلى نخبة من العلماء بها، وشارك في حلقاتهم، وهناك تأثر بفلسفة الزهد والعزوف عن الملذات والشهوات والجرأة على كل كبير في سبيل الحق واتخذها طريقة له، فهو ينظر إلى كل كبير لهذه النظرة التي لا ترى فيه قوته وسلطانه وجبروته، ولكنها ترى فيه قيمته ومصيره، وأن أي سلطان لابد أن يكون هدفه تدعيم أوامر الله سبحانه وتعالى.

وهكذا ما أن غادر الطرطوشي العراق سنة ٤٨٠ هـ بعد ثلاثة أعوام قضاها في الدروس والتحصيل حتى اتخذ لنفسه حياة الزهد والبعد عن مباهج الحياة فقد التزم الزهد فلسفة حياة.

ثم واصل رحلته إلى الشام ودخلها بعد أن أتم دراسته، وبعد أن حصل من العلوم ما حصل، وبعد أن بلغ من النضج الفكري درجة تؤهله للتدريس لينفع الناس بعلمه، وبعد أن كون لنفسه فلسفة خاصة قوامها الزهد للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فأقبل عليه الناس وأحبوه، وأفادوا من علمه، فعلا اسمه وذاع صيته. ومع ذلك عاش هناك متقشفًا عابدًا زاهدًا منقبضًا عن الناس، إذا أكل أكل في شقف من الفخار، وكان أصحاب الحكم والسلطان يسعون إليه وإلى بره، ولكنه كان ينصرف عنهم، ويشتد عليهم في القول وإسداء النصيحة.

كان هناك دومًا سواء بالشام أو في بيت المقدس قيل أنه كـان ببيـت المقـدس يطـبخ في شقف، وكان مجانبًا للسلطان معرضًا عنه وعن أصحابه، شديدًا عليهم مع مبالغتهم في بره.

كان الطرطوشي من العلماء العاملين السابقين لزمانهم، وويل لمـن سـبق عقلـه زمانـه، فكم عانى من المتعصبين والجامدين والمتفقهة بلا علم ولا ورع، تمامًا مثلما عـانى ابـن تيميـة وابن القيم والشوكاني والصنعاني، فلقد استقر الطرطوشي بالإسكندرية على الرغم من وقوع مصر وقتها تحت حكم الدولة الفاطمية العبيدية الخبيثة، لأنه قد وجدها خالية من العلماء قفرًا ممن يفتي الناس بالحق، وذلك بعد أن قتل ظلمة العبيـديين الأئمـة والعلـماء والفقهـاء فيهـا، فاستقر بها حسبة لله ولتعليم المسلمين بها.

وبجانب علمه الغزير وإمامتـه في الـدين، كـان الطرطـوشي إمامًـا في الزهـد والـورع والعبادة، ينفق كل ماله فلا يدخر شيئًا، حتى أنه لم أمره الطاغية أمير الجيوش بنفيه إلى القاهرة لم يكن عنده متاع سوى أقلامه فقط، وقد جعل داره مدرسة لطلاب العلـم الـشرعي، ينفـق عليهم ويعلمهم، وكان يتريض بهم كل خميس للترويح عن نفوسهم، وقد بلغ تعداد تلاميذه في مدرسته ٣٦٠ طالبًا.

ويبدو أن نفسه أبية وصراحته والتزامه القول بالحق أثارت ضده بعض الحاسدين مـن أهالي بيت المقدس، فسعوا به لدى حاكمها ولكـنهم لم يـستطيعوا أن ينـالوا منـه، واسـتدعاه الحاكم إليه، فلم يأبه لدعوته ورفض أن يذهب إليه. وطوف الطرطوشي في معظم مدن الشام وبيت المقدس وجبل لبنان ودمشق وحلب وأنطاكية، التي كان بها في أواخـر سـنة ٤٩٠هـ وعندما استولى الصليبيون على أنطاكية وسواحل الشام كلها وبيت المقدس في سـنة ٤٩١هـ اتجه إلى مصر وهو في الأربعين من عمره، وقد جاء إلى الشام وهو في الثلاثين، ولم يغـادره إلا بعد أن أصبح له تلاميذ كثيرون ومعجبون به وبعلمه، ويتسابقون إلى حلقات دروسه.

وصل الطرطوشي إلى مصر برفقه الشيخ عبد الله السايح حيث نزلا برشيد وأقاما بها، وعندما استولى الوزير الأفضل شاهنشاه على الإسكندرية، انتقم من أهلها الذين أيدوا نزار ابن الخليفة المستنصر وقام بقتل العديد من العلماء المالكيين فتعطلت الشعائر الدينية، ولم تقم الجمعة في مساجدها، وسمع أهل الإسكندرية أن في رشيد فقه كبير فركبوا إليه يطلبون منه أن يتصدر حلقات الدرس في مساجدهم ليفقه الناس في أمور دينهم.

استقر بالطرطوشي المقام في الإسكندرية وبدأ يدرس وينشر العلم على مذهب مالك، وتقاطر الناس على حلقاته يأخذون عنه ويقرءون عليه ويفيدون من علمه، وجذب الطلاب والعلماء إلى حلقات دروسه.

وتزوج بعد قليل من سيدة موسرة من نساء الإسكندرية فأطلقت يده في أموالها وتحسنت أحواله، ووهبته دارًا من أملاكها، جعل سكنه معها في الدور الأعلى واتخذ من الدور الأسفل مدرسة يلقي فيها دروسه، ويستضيف فيها طلاب العلم من الغرباء الوفدين على الإسكندرية.

وكانت هذه السيدة الفاضلة تقية متدينة من بيت من أكبر بيوت الإسكندرية وقتذاك، فضلًا وعلمًا وجاهًا وثروة، بيت بني عوف فهي خالة فقيه الإسكندرية وكبير علمائها أبي الطاهر بن عوف تلميذ الطرطوشي.

وبعد أن استقرت الحياة به في الإسكندرية خرج لزيارة القاهرة وهناك حرص على لقاء الوزير صاحب السلطان الأعلى وقتذاك الأفضل شاهنشاه بعد أن سمع عن جبروته وقوته وسلطانه لا ليسأله منحة أو عطية، ولا يقدم له المديح ويشيد بذكره بل لينصحه نصيحة العلماء المخلصين، وليعظه الموعظة الحسنة، وليطلب إليه الرفق بالرعية وإشاعة العدل بينهم وفتح أبواب قصره لكل شاك أو متظلم.

فبعد أن حياه بتحية الإسلام قال له: أيها الملك إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قد أحلك محلًا عاليًا شامخًا، وأنزلك منزلًا شريفًا باذخًا، وملكك طائفة من ملكه، وأشركك في حكمه، ولم يرض أن يكون أمر أحد فوق أمرك، فلا ترض أن يكون أحد أولى بالشكر منك.

وأن الله تعالى ألزم الرعية طاعتك، فلا يكونن أحد أطوع لله منك، وأن الله تعالى أمر عباده بالشكر، وليس الشكر باللسان ولكنه بالفعل والإحسان، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ [سبأ: ١٣].

واعلم أن هذا الملك الذي أصبحت فيه إنما ثار إليك بموت من كان قبلك، وهو خارج عن يدك مثل ما صار إليك. فاتق الله فيما حولك من هذه الأمة، فإن الله سائلك عن النقير والقطمير والفتيل، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢-٩٣]. وقال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

واعلم أيها الملك إن الله تعالى قد أتى ملك الدنيا بحذافيرها سليمان بن داود عليهما السلام، فسخر له الإنس والجن والشياطين والوحوش والبهائم، وسخر له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب، ثم دفع عنه حساب ذلك أجمع، فقال له: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [ص: ٣٩].

فوالله ما عدها نعمة كما عددتموها، ولا حسبها كرامة كما حسبتموها، بل خاف أن تكون استدراجًا من الله تعالى ومكرًا به، فقال: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾.

فافتح الباب وسهل الحجاب وانصر المظلوم أعانك الله على ما قلدك، وجعلك كهفًا للملهوف، وأمانًا للخائف.

هكذا خاطب الطرطوشي العالم الزاهد الملك الأفضل ذا الحول والطول، وهـو في أوج سلطانه وعظمته، والكل يأتمرون بأمره، فهز كيانه هزًا وإن كان استنكره فيما بينه وبين نفسه.

وبعد نحو شهرين من إقامته في القاهرة عاد الطرطوشي إلى الإسـكندرية يُعلـم النـاس ويدعو إلى المعروف والنهي عن المنكر قاضيًا أوقاته ما بين العبادة والتأليف، حتى توفاه الله في ٢٦ من جمادي الأولى عام ٥٢٠هـ ودفن بالإسكندرية.



المصادر:

- «وفيات الأعيان» لابن خلكان (٣/ ٣٩٣).
- «الصلة» لابن بشكول (٢/ ٤٤٥).
- «حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة» للسيوطي ص[١٩٢].
- «سير أعلام النبلاء» للذهبي (١٩/ ٤٩٠)..
- «زهر البساتين من مواقف العلماء الربانيين» للدكتور سيد حسين العفاني (١/ ٣٩٤).

العلامة/ أبو زكريا الأقصرائي

هو العلامة الشيخ يحيى بن محمد بن إبراهيم أبو زكريا الأقصرائي الأصل «نسبة لأقصرا إحدى مدن الروم» القاهري الحنفي.

قال عنه السخاوي: واشتهر بحسن التعليم والإرشاد.. والصدع في الحق بلسانه وقلمه ومشافهته للملوك بالمواعظ والتخويفات في المواطن التي لا يشركه في المعارضة فيها غيره، فصار بهذه الأوصاف الحميدة والمناقب العديدة إلى ضخامة وعلو مكانة وأوامر مطاعة.

ولما هم الأشرف قايتباي للاستيلاء على فائض الأوقاف ونحوه من الأمور التي رام إحداثها محتجًا بالاحتياج في تجهيز العسكر لدفع بعض الخارجين، وجمع القضاة عنده بسبب ذلك، كان من جملة من حضر فقام بأعباء دفع هذه النازلة أعظم قيام وكفى الله المؤمنين القتال، وما نهض غيره لمشاركته في ذلك، وكف الله عنه ألسن المفسدين وأيديهم بحسن نيته وجميل سريرته، ولم يجد الأعداء سبيلًا إلى الحط من مقداره بل كان ذلك سببًا في ارتقائه، فإنه توعك بعد ذلك، ووصل علمه إلى السلطان المشار إليه فنزل إليه في منزله فسلم عليه وبالغ في التواضع معه.

وبالجملة فقَلَّ أن ترى العيون في مجموعه مثله وللناس فيه جمال، ولم يزل على جلالته ولكن ثقل أمره على الأشرف لمشافهته له مرة أخرى بما لم ينهض غيره لذكره بحيث قال له بحضرتي مرة لا تتلفت لما في أيدي الناس، وعارض في المجلس المعقود بسبب الكنيسة عند الدوادار الكبير بل فارق المجلس وعز ذلك على المتقين.

ومات سادس عشر المحرم سنة ثمانين وصلى عليه في محفل شهده السلطان فمن دونه وتأسف الناس على فقده وكثر ثناؤهم عليه ولم يخلف بعده مثله.

العلامة/ الشوكاني

الإمام المجتهد، له باع طويل في علوم الاجتهاد، وقد قضى عمره في التأليف والتدريس والدعوة، ولد في سنة ١١٧٣هـ وتوفي في ١٢٥٠هـ

تربى في كفالة والده وكان من كبار علماء صنعاء وقضاتها، ودس له أبوه وبذكر له وفير المال، ومهد له ولأخيه الأصغر يحيى طريق الطلب وفارقهما أبوهما بالموت عام ١١٢١هـ.

حفظ الشوكاني القرآن وجوَّده على مشايخ القراءات بصنعاء وحفظ المتون في سائر الفنون واجتهد في الدرس والتحصيل، ونصب نفسه للتدريس في أكثر أوقاته حتى إن دروسه كانت تبلغ في اليوم ثلاثة عشر درسًا في مختلف الفنون: في التفسير وعلومه، والحديث وعلومه، والفقه وأصوله، والعربية وفنونها، والحكمة وفروعها.

وذاع أمره وانتشر ذكره وكانت ترد إليه الفتاوى فيفتي فيها باجتهاده نحوًا من عشرين سنة. وقد جمعت فتاواه فكانت في ثلاث مجلدات وترك التقليد ونظر في علوم الاجتهاد حتى جمعها، فاجتهد قبل أن يبلغ الثلاثين من عمره، وولي قضاء صنعاء سنة ١٢٠٩هـ نحو عشر سنوات.

وهذا الصنف من العلماء الذين يسلكون هذا السبيل يبتلون ويختبرون، وتلك سنة الله في عباده الذين سلكوا سبيله، ﴿الٓمٓ ۝ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ١-٢]، وقد حدثنا الشوكاني: في كتابه [أدب الطلب] عن بعض ما أصابه بسبب اشتغاله بعلوم الاجتهاد، ونبذه التقليد والتعصب المقيت، فقد حسده علماء عصره، وثار ضده المتعصبون الجهلة، واستعدوا عليه السلطان، وزينوا له سجنه وسفك دمه، ولكنه ثبت ولم تأخذه في الله لومة لائم، فأيده الله ونصره، وأذل من أراد به شرًا، ونحن ننقل إليك بعض ما ذكره من تلك الوقائع.

قال الشوكاني: ولقد اشتد بلاهم، وتفاقمت محنتهم في بعض الواقعات، فقاموا قومة شيطانية، وصالوا صولة جاهلية، وذلك أنه ورد إلي سؤال في شأن ما يقع من كثير من المقصرين من الذم لجماعة من الصحابة، صانهم الله، وغضب على من ينتهك أعراضهم المصونة، فأجبت برسالة ذكرت فيها ما كان عليه أئمة الزيدية من أهل البيت، وغيرهم، ونقلت إجماعهم من طرق، وذكر كلمات قلها جماعة من أكابر الأئمة، وظننت أن نقل إجماع أهل العلم يرفع عنهم العماية، ويردهم عن طرق الغواية، مشتملة على الشتم والمعارضة بما لا ينفق إلا على بهيمة، واشتغلوا بتحرير ذلك وأشاعوه بين العامة، ولم يجدوا عند الخاصة إلا الموافقة، تقية لشرهم، وفرارًا من معرتهم، وزاد الشر وتفاقم حتى أبلغوا ذلك إلى أرباب الدولة والمخالطين للملوك من الوزراء وغيرهم، وأبلغوه إلى مقام خليفة العصر [المنصور علي بن العباس] وعظم القضية عليه جماعة ممن يتصل به فمنهم من يشير عليه بحبسي، ومنهم من ينصح له بإخراجي من موطني، وهو ساكت لا يلتفت إليَّ بشي من ذلك، وقاية من الله وحماية لأهل العلم، ومدافعة عن القائمين بالحجة في عباده، ولم تكن لي إذ ذاك مداخلة لأحد من أرباب الدولة، ولا اتصال بهم، واشتد لهج الناس بهذه القضية، وجعلوها حديثهم في مجامعهم، وكان من بيني وبينهم مودة يشيرون عليَّ بالفرار أو الاستتار، وأجمع رأيهم على أني إذا لم أساعدهم على أحد الأمرين فلا أعود إلى مجالس التدريس التي كنت أدرس بها في جامع صنعاء، فنظرت ما عند تلامذتي، فوجدت أنفسهم قوية، ورغبتهم في التدريس شديدة إلا القليل منهم، فقد كادوا يستترون من الخوف، ويفرون من الفزع، فلم أجد لي رخصة في البعد عن مجالس التدريس، وعدت، وكان أول درس عاودته عند وصولي إلى الجامع في أصول الفقه بين العشائين، فانقلب من بالجامع، وتركوا ما هم فيه من الدرس والتدريس، ووقفوا ينظرون إلى متعجبين من الإقدام على ذلك لما قد قرر عندهم من عظم الأمر وكثرة التهويل والوعيد والترهيب، حتى ظنوا أنه لا يمكن البقاء في صنعاء فضلًا عن المعاودة للتدريس، ثم وصل وأنا في حال ذلك الدرس جماعة لم تجر لهم عادة بالوصول إلى الجامع، وهم متلفعون

بثيابهم لا يُعرفون، وكانوا ينظرون إليَّ ويقفون قليلًا ثم يذهبون، ويأتي آخرون، حتى لم يبق شك في أحد أنها إن لم تحصل منهم فتنة في الحال وقعت مع خروجي من الجامع، فخرجت من الجامع وهم واقفون على مواضع من طريقي، فما سمعت من أحدهم كلمة فضلًا عن غير ذلك، وعاودت الدروس كلها، وتكاثر الطلبة المتميزون زيادة على ما كانوا عليه في كل فن، وقد كانوا ظنوا أنه لا يستطيع أحد أن يقف بين يدي مخافة على أنفسهم من الدولة والعامة، فكان الأمر على خلاف ما ظنه وكنت أتعجب من ذلك وأقول في نفسي: هذا من صنع الله الحسن ولطفه الخفي، لأن من كان الحامل له على ما وقع الحسد والمنافسة لم ينجح كيده بل كان الأمر على خلاف ما يريد.

ومن عجيب ما أشرحه لك أنه كان في درس بالجامع بعد صلاة العشاء الآخرة في صحيح البخاري يحضره من أهل العلم الذين مقصدهم الرواية وإثبات السماع جماعة، ويحضره من عامة الناس جمع جم لقصد الاستفادة بالحضور، فسمع ذلك وزير رافضي من وزراء الدولة، وكانت له صولة وقبول كلمة بحيث لا يخالفه أحد، وله تعلق بأمر الأجناد، فحمله ذلك على أن استدعى رجلًا من المساعدين له في مذهبه، فنصب له كرسيًا في مسجد من مساجد صنعاء، ثم كان يسرج له الشمع الكثير في ذلك المسجد، حتى يصير عجبًا من العجب، فتسامع به الناس، وقصدوا إليه من كل جانب لقصد الفرجة، والنظر إلى ما لا عهد به، والرجل الذي على الكرسي يملي عليهم في كل وقت ما يتضمن الثلب لجماعة من الصحابة ﭫ، ثم لم يكتف ذلك الوزير بذلك حتى أغرى جماعة من الأجناد من العبيد وغيرهم بالوصول إليَّ لقصد الفتنة، فوصلوا وصلاة العشاء الآخرة قائمة، ودخلوا الجامع على هيئة منكرة، وشاهدتهم عند وصولهم، فلما فرغت الصلاة قال لي جماعة من معارفي إنه يحسن ترك الإملاء تلك الليلة في البخاري، فلم تطب نفسي بذلك، واستعنت بالله، وتوكلت عليه، وقعدت في المكان المعتاد، وقد حضر بعض التلاميذ وبعضهم لم يحضر تلك الليلة لما شاهد وصول أولئك الأجناد، ولما عقدت الدرس وأخذت في الإملاء رأيت أولئك يدورون حول

الحلقة من جانب إلى جانب، ويقعقعون بالسلام، ويضربون سلاح بعضهم في بعض، ثم ذهبوا ولم يقع شيء بمعونة الله تعالى وفضله ووقايته.

ثم أن ذلك الوزير أكثر السعاية إلى المقام الإمامي هو ومن يوافقه على هواه ويطابقه في اعتقاده من أعوان الدولة، واستعانوا برسائل بعضها من علماء السوء، وبعضها من جماعة من المقصرين الذين يظنهم من لاخبرة له في عداد أهل العلم.

وحاصل مافي تلك الرسائل أني قد أردتُ تبديل مذهب أهل البيت عليهم السلام، وإنه إذا لم يتدارك ذلك الخليفة بطل مذهب آبائه، ونحو هذا من العبارات المفتراة والكلمات الخشنة والأكاذيب الملفقة.

ولقد وقفت على رسالة منها لبعض أهل العلم ممن جمعني وإياه طلب العلم ونظمنا جميعًا عقد المودة وسابق الألفة، فرأيته يقول فيها مخاطبًا لإمام العصر أن الذي ينبغي له، ويجب عليه، أن يأمر جماعة يكبسون منزلي، ويهجمون مسكني، ويأخذون ما فيه من الكتب المتضمنة لما يوجب العقوبة من الاجتهادات المخالفة للمذهب. فلما وقفت على ذلك قضيت منه العجب، ولولا أن تلك الرسالة بخطه المعروف لدي لما صدقت، وفيها من هذا الزور والبهت والكلمات الفظيعة شيء كثير، وهي في نحو ثلاثة كراريس، وعند تحرير هذه الأحرف قد انتقم الله منه، فشرده أمام العصر إلى جزيرة من جزائر البحر مقرونًا في السلاسل بجماعة من السوقة وأهل الحرف الدنيئة، وأهلكه الله في تلك الجزيرة ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]. وكان حدوث هذه الحادثة عليه ونزول هذه الفاقرة به بمرأى ومسمع من ذلك الوزير الرافضي الذي ألف له تلك الرسالة استجلابًا لما عنده وطلبًا للقرب إليه وتوددًا له، ومن جملة ما وقفت عليه من الرسائل المؤلفة بعناية هذا الوزير رسالة إلى بعض مشائخي الذين أخذت عنهم بعض العلوم الإلهية، وفيها من الزور ومحض الكذب مالا يظن بمن هو دونه وما حمله على ذلك إلا الطمع في الوزير، فعاقبه الله بقطع ما كان يجري عليه من الخليفة،

وأصيب بفقر مدقع، وفاقة شديدة، حتى صار عبرة من العبر، وكان يفد إليَّ يشكو حاله، وما هو فيه من الجهد والبلاء فأبلغ جهدي في منفعته وما يسد فاقته، وهكذا جماعة من المترسلين على المبالغين في إنزال الضرر بي أرجعهم الله إليَّ راغمين، وأحوجهم لمعونتي مضطرين، ولم أعاقب أحدًا بما أسلفه ولا كافيته بما قدمه.

وقد ذكر بعض ما جرى في هذه المحنة في موضع آخر من كتاب أدب الطلب فقال: ومن أقرب حوادث الرفض في ديارنا هذه أنه كان جماعة من المتظهرين بالعلم يملون على الناس في جامع صنعاء في شهر رمضان سنة ست وعشرة ومائتين بعد الألف في كتب فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وكانوا نحو ثلاثة أو أربعة، كل واحد منهم قد اجتمع عليه جماعة كثيرة من العامة، وكان أحدهم يملي على كرسي مرتفع، وتسرج حوله الشمع الكثير، فيجتمع من الناس عدد كثير جدًا لقصد الفرجة، كما يتفق في مثل هذا، وكانوا يشوبون المناقب بذكر مثالب بعض الصحابة، ويحطون من بعضهم، ويصرحون بسب البعض، ويتوجعون من البعض، وكان ما يصدر من هؤلاء من هذه الأمور إنما هو مطابقة للوزير الرافضي الذي قدمت لك ذكره، ولاسيما صاحب الكرسي، وهذا الوزير لم يكن رفضه لوازع ديني، كما يتفق لكثير من أهل الجهل المتعلقين بالرفض، فهو أنذل من ذاك وأقل، ولكنه يفعل ذلك مساعدة لجماعة من شياطين المتفقهة المتعصبة، يدخلون إليه فيقولون: إنه لم يبق من يحامي على هذا الأمر سواك، وإنك ركن التشيع، وملجأ أهله، ونحو هذه العبارات.

فيبالغ في التظهر بهذه الخصلة، ويحب نسبة ذلك إليه، فكان الرفض مكملًا لمثالبه، متممًا لمعايبه، لأنه في كل باب من أبواب القبائح قريع دهره، ونسيج وحده، فلما تكاثر ما يصدر من أولئك المشتغلين بما لا يعنيهم من ثلب السلف مع ما ينضم إلى ذلك من إدخال الضغائن في قلوب الأمة، وإيهامهم أن الناس قد تركوا مذهب أهل البيت، وفعلوا وفعلوا، وكل ذلك كذب، فإن الناس هم في هذه الديار زيدية، وكثير منهم يجاوز ذلك فيصير رافضيًا جلدًا، ولم

يكن في هذه الديار على خلاف ذلك إلا الشاذ النادر، وهم أكابر العلماء، ومن يقتدي بهم، فإنهم يعملون بمقتضى الدليل، ولا ينتمون إلى مذهب، ولا يتعصبون لأحد، فهؤلاء هم الذين يقصدهم أولئك الرافضة بكل فاقرة، ويرمونهم بالحجر والمدر، ويسمونهم بمسمى النصب، فلما تفاقم شر أولئك المدرسين، وصار الجامع ملعبًا لا متعبدًا، واشتغل بأصواتهم المصلون عن صلاتهم، والذاكرون عن ذكرهم رجح إمام العصر «المنصور بن علي بن العباس» منع صاحب الكرسي من الإملاء في الجامع، وأمره بالعود إلى المسجد الذي كان يملي فيه.

فحضر أولئك المستمعون على عادتهم وكان الإملاء قبل صلاة العشاء، فلما لم يحضر شيخهم ذهب بعضهم ليجيء به من بيته، فأخبرهم أن الإمام قد منعه، وأمره بالعود إلى حيث كان، فلم يعذروه، ولا سمعوا منه، ورجعوا إلى الجامع، ثم ثاروا ثورة شيطانية، وقاموا قومة طاغوتية، فمنعوا من الصلاة في الجامع، وما زال ينضم إليهم كل رافضي، ومن له رغبة في إثارة الفتنة، حتى صاروا جمعًا كثيرًا، ثم خرجوا فقصدوا بيت المؤذن الذي أظهر عليهم الرأي الإمامي فرجموه، حتى كادوا يهدمونه، وفيه نساء وأطفال قد صاروا في أمر مريع، هذا وليس لذلك المؤذن المسكين سعي، ولا له قدرة على شيء، ولكنه أرسل بالرأي الإمامي وإلى الأوقاف إليه، ووالي الوقف أيضًا ليس له سعي في، ذلك ولكنه أرسله إليه بعض من يتصل بالمقام الإمامي.

ثم لما فرغوا من رجم بيت المؤذن ذهبوا ولهم صراخ عظيم وأصوات شديدة إلى بيت والي الأوقاف، وهو رجل من أهل العلم من آل رسول الله ﷺ، فرجموا بيته رجمًا شديدًا، حتى غشي على بعض من فيه من الشرائف، فقال لهم قائل: إن هؤلاء الشرائف المرجومات هن بنات نبيكم وبنات علي بن أبي طالب، ولم يكن بنات معاوية ولا بنات عمرو بن العاص وغيرهما ممن تعادونهم فما لكم ولهن، فلم يلتفتوا إلى ذلك، واستمروا على الرجم ثم دخلوا إلى بعض البيت ونهبوا بعض متاعه، وبلغهم أن والي الأوقاف وولده

بمسجد قريب من بيته، فهاصوا هيصة حُمر الوحش، وصرخوا صرخة الحُمر الأهلية، وذهبوا إلى ذلك المسجد عازمين على قتله، فأغلق عليه بعض الناس مقصورة المسجد فسلم.

ثم ذهبوا بصراخهم وجلبتهم إلى بيت أهل العلم من أهل البيت النبوي، وكان يعظ الناس بالجامع، ويتظاهر ببعض من السنة، فرجموا بيته رجمًا شديدًا وفيه شرائف وأطفال، ثم ثاروا إلى بيت بعض وزراء الخليفة لا لذنب إلا لكونه ينافسه ذلك الوزير الرافضي، وكونه ينتسب إلى بعض بطون قريش، فرجموه رجمًا شديدًا ثم كسروا بعض أبوابه ودخلوا وكادوا يتصلون بمن فيه لولا أنه حماه جماعة بالرمي بالبنادق وآخرون بالسلاح، ويتصل ببيت هذا الوزير حتى أصابوا جماعة منهم فتركوه، وسبب رجمهم لبيت الوزير هذا أنه من جملة من يتظاهر بعلم السنة، ثم لما كاد ينقضي الليل فارقوا ما هم فيه وقد أثاروا فتنة عظيمة، ومحنة شديدة ولما كان النهار جمع الخليفة أعوانه، وطلبني واستشارني، فأشرت عليه بأن يحبس أولئك المدرسين الذين أثاروا الفتنة في الجامع بسبب ما يصدر منهم من نكاية القلوب وإثارة العوام، فحبسهم، ثم أشرت عليه بأنه يأمر بتتبع أولئك الذين رجموا البيوت، وفعلوا تلك الأفاعيل ومن وجدوه حبسوه، ويأمر بتتبع جماعة من شياطين الفقهاء المثيرين للفتنة، ففعل وحبسوا جميعًا، ولكن لم ينصح والي مدينة صنعاء لموافقته للوزير الرافضي في الرفض ومهابته له ووقوفه عندما يختاره ويرتضيه، وبعد أن اجتمع في الحبس جماعة كثيرة من هؤلاء أرسل الإمام لجماعة من شياطينهم المباشرين للفتنة من الفقهاء، فجيء بهم من الحبس إليه، وضربهم بالعصي تحت داره وهو ينظر، ثم أرسل في اليوم الآخر لجماعة من أهل السوق المباشرين للفتنة فصنع بهم ما صنع بأولئك، ثم جعل جماعة من شياطين الجميع في سلاسل، وأرسل بهم إلى جزائر البحر على هيئة منكرة فسكنت الفتنة سكونًا تامًا.

ولقد شاهدت من التعصبات في هذه الفتنة ما بهرني من الخاصة والعامة، أما الخاصة فإني رأيت من أهل بيت الخلافة من أولاد الإمام وغيرهم ومن الوزراء والأمراء والقضاة

وأهل العلم من ذلك ما يعجب منه، فإني لما أشرت على الخليفة بما أشرت خرجت من المكان الذي هو مستقر فيه إلى حجرته، وفيها أكابر أولاده، وهم إذ ذاك أمراء الأجناد، وعندهم جميع الوزراء وهم جميعًا في أمر مريع، فيهم من يعظم عليه حبس أولئك المدرسين ويراه حطًا في مرتبة الرفض، ونقصًا من الرافضة، وقد فتل منهم ذلك الوزير الرافضي في الذروة والغارب، وأوهمهم أنها ستثور فتنة من العامة والأجناد، وما زال بعض أولاد الخليفة يردد علي ذلك ويرغبني في الرجوع عن المشورة الذي أشرت به على الخليفة، ويذكر ما قد ألقاه إليه الوزير الرافضي من خشية ثورة الأجناد والعامة، فما زلت أعرفه بالصواب، وأذكر له أن هذه الفتنة لو لم تحسم يومنا هذا بحبس المثيرين لها لهلك غالب الناس في الليلة الواصلة، ونهبوا الأموال جهارًا، وأنه سيصل الأمر إلى الخليفة وأولاده فضلًا عن غيرهم، وعرفته أنه ما سيثور بسبب ذلك أجناد ولا غيرهم، فإن هذا تسكين للفتنة لا إثارة لها، ولقد حمدوا هذه المشورة بعد حين وعرفوا أنها صواب، وأن بها كان سكون تلك الفتنة التي غلت مراجلها، وكادت تعم جميع أهل صنعاء، ثم تسري بعد ذلك إلى سائر الديار اليمنية.



المصادر:

- «زعماء الإصلاح في العصر الحديث» للدكتور/ أحمد أمين ص[١٩].

القاضي المحدث/ بكار بن قتيبة

كان أحمد بن طولون استثناءً واضحًا بين أبناء جنسه، فعهدنا بجنود الأتراك منذ عهد المعتصم لا يفيئون إلى خلق فاضل، أو يعتصمون بدين قديم، فهم يربون تربية رياضية تقوم على الشجاعة والفروسية، وتركن إلى أساليب الاحتيال والدهاء، ومن يصل منهم إلى مكان القيادة في القصر يوجه اهتمامه إلى المكيدة والائتمار، وينظر إلى الخليفة العباسي كدمية صماء يحركها أنى أراد، فإذا عنّ له أن يضع الأمر في نصابه أو يتمسك ببعض حقوقه في التولية والعزل، والإدارة والحكم، مهدت له الدسائس السود، لتجعله بين عشية وضحاها في غياهب السجون! ثم يختار أمير ضئيل من بني العباس ليصير دمية أخرى يتلاعب بها الأتراك كما يشاءون!

هكذا كان جنود الأتراك! ولكن ابن طولون قدر له أن يشب على رياضتهم الحربية، فيلتقي معهم في مضمار الصيال والعراك، ثم ينفرد عنهم في ثقافته الدينية، فيدرس القرآن والحديث، ويتأثر بما تهديه إليه روح الإسلام من إنصاف وعدالة، وإيثار للخير والمعروف.

وقد ساعدت هذه الصفات على تدعيم مكانته عند الناس، فكان أبناء جنسه من الأتراك يثقون في كرامته، فلا يظنون فيه التآمر والإيقاع، وإذا همَّ أحدهم بمكيدة ما تحاشى أن يلم بسرها رجل هُمام كابن طولون، فيكون أداة لتحطيمها وعونًا عليها لا لها، أما أمراء العباسيين وخلفاءهم فقد ركنوا إلى رجولته، فحين خلع المستعين بالله، وأُبعد إلى منفاه ألح في اصطحاب ابن طولون ليكون حارس غربته ورفيق وحشته!

فقام على حراسته مقامًا كريمًا، ثم جاءته إشارة شاذة من رؤسائه بالعمل على تدبير مصرعه! فتعاظمه أن يكون غادرًا بمن وثق فيه، وأبى أن يخضع لما يريدون! وكان أن أعتزل الحراسة، ونيط بالمستعين سواه ليهدر دمه بعد سويعات! وعاد ابن طولون إلى مقر الخلافة نظيف الخلق طاهر الضمير!

وقد تبسم له الحظ لبعض المصادفات السارة، فاختير واليًا على مصر من قبل سواه، ولم يكن في وهم أحد أن الفتى التركي سيشذ عن ولاة الأقاليم في عهد الخلافة العباسية، فقصاراه أن ينهض على تحصيل الضرائب وسوق الأموال إلى عاصمة الحكم، فإذا أحب أن ينال حظوة لدى الحاكمين ببغداد ضاعف الخراج وأجزل الهدايا من الفضة والنضار ليضمن بقاءه أعوام في ولايته، وإلا فهناك من يتطلع إلى مكانه، وقد أخذ على عاتقه أن يجمع المال ما استطاع.

جاء ابن طولون إلى مصر وهو حرج الصدر، ضائق النفس بما يقوم به أبناء جنسه في قصور الخلفاء! وقد عز عليه أن توكل لهم الأمور العليا في سياسة الإسلام، ثم لا يكونون سادة كرامًا يتقيدون بالمواثيق! إذ يتحولون إلى وحوش متنمرة تتصارع في الظلام، وقد يأكل بعضها بعضًا دون شمم أو إباء، وهم بعد ليسوا بأفضل منه في شيء حتى يصدر عن إرادتهم! ولو كان الخليفة العباسي مسموع الكلمة، نافذ السلطان لوجبت طاعته، ولكنه حائر مستسلم لمن يسومونه الذلة والهوان! فلا عليه أن يتزحزح عن كابوسهم الثقيل فيمهد الأسباب إلى استقلاله وانفصاله!.

وهو من الحرص والحذر بحيث يستطيع أن يرسم الخطة البعيدة لتصل إلى الغاية متى تتاح دون استعجال. . درس الحاكم أحوال الأقاليم، وقد استطاع في زمن يسير أن يهدئ الفتن ويسكن الثورات، ثم عمل بدهائه على أن يجمع في يده أمور البريد والخراج، فلا تستطيع الرسائل المغرضة أن تشي به عن طريق التلصص والوشاية، ثم ليجمع من المال ما يسد ببعضه أفواه الطامعين في بغداد، وينشئ الدولة الجديدة بالبعض الآخر، وقد واتته الأقدار بما يريد، فجد من الحوادث السياسية ما ساعده على إبعاد صاحب البريد وطرد صاحب الخراج، وأصبح بذلك رجل مصر دون منازع، فاتجه إلى تكوين جيش عربي كبير وأسطول بحري قاهر، وامتلك من النفوذ ما أعانه على أن يخلع نقاب الحذر عن وجهه فيقف من بغداد عاصمة الخلافة موقف القرين.

لم تسكت الخلافة عن طموح ابن طولون! فقد كان الموفق ولي العهد صاحب السلطة الفعلية ببغداد، جمع حوله الأتراك بما بذل من إقطاعات ومناصب ووعود، وصار موضع الأخذ والرد، وأخوه المعتمد أمير المؤمنين لا يملك سوى اللقب وحده! ولقد تعاظم الموفق أن يقدم ابن طولون على الاستقلال، وفهم الرجل على غير حقيقته، فظنه ضعيفًا مغترًا لا يثبت لصدام، وأرسل إليه خطابًا يوحي بالتهوين والتحقير والاستعلاء، ثم دعاه إلى تقديم الحساب، والنهوض إلى بغداد في رهبة وامتثال.

وقرأ ابن طولون كتاب الموفق وابتسم، وكأنه أراد أن يغمزه من مكمن ضعفه، فرد عليه بأن ولي العهد قد خلع الطاعة حين حاصر الخليفة الشرعي وسلب سلطانه، فهو في رأيه عاص ناشز مغتصب يتبوأ مركزًا يستلبه بالقوة لا بالحق، وأولى به أن يذعن من الأصقاع، وكان حتمًا أن تدور الحرب بين الرجلين ثم ينهزم الموفق فلا يبقى لديه سلاح غير الضجيج الصاخب، فيعلن عصيان ابن طولون، ويجاهر بلعنه على المنابر، وخروجه على الدين!

ماذا يصنع ابن طولون وقد جاءته الأنباء أن اسمه يذكر مشيعًا باللعنات على منابر الجمع في كثير من مساجد الإسلام! لقد ساقه تفكيره إلى الدعوة إلى خلع الموفق من ولاية العهد والجهر بلعنه على منابر مصر والشام، وأعد مؤتمرًا من العلماء والوجهاء، فأصدر قرارًا بخيانة الموفق ولعنه.

وظن ابن طولون ألا يشذ أحد في ولايته عن رأيه، ولكنه فوجئ بعالم خطير يعارض قرار الخلع، ولا يجد لابن طولون حقًا في إصداره، ذلكم هو القاضي الفقيه بكار بن قتيبة، فقد استطاع أن يعلن رأيه المعارض دون أن يرهب أحدًا ولو كان ابن طولون!

كان للقاضي بكار حساسية بالغة وشعور ديني مرهف يستهول موقع الزلل في الأحكام! كأن نظام القضاء على عهده بدائيًا يدخل المدعي فيعرض شكواه ويحضر شهوده،

ثم يستمع القاضي وينظر، فإذا ارتاحت نفسه إلى حكم أصدره مستندًا إلى الدليل، وتنتهي المسألة عند ذلك، ولكن بكارًا كان يدوّن كل يوم جميع ما يصدره من أحكام، ثم يتفرغ في المساء إلى مراجعة أعماله، ومحاسبة نفسه ليستدرك ما فاته إن عنّ له بعض الرأي فيما كان!.

وقد بلغ من تقديره لمركزه القضائي أن دموعه كانت تغلبه حين يشتبه الأمر عليه، فيستعين بصلاة الليل ليلهمه الله السداد، قال أحمد بن سهل الهروي: كنت ألازم غريمًا لي إلى ما بعد العشاء الآخرة، وكنت أسكن جوار بكار، فانصرفت بعد العشاء إلى منزلي فإذا هو يقرأ بصوت عال: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴾ [ص: ٢٦]. فوقفت أتسمع إلى تلاوته المعبرة طويلًا، ثم انصرفت، فقمت في السحر على أن أسير إلى منزل الغريم، فإذا بكار يقرأ الآية ويبكي، فعلمت أن كان يقرؤها طول الليل.

هذه الحساسية البالغة كانت تجعله يحفظ للقضاء حرمته، ويرى القاضي رجلًا مثاليًا يرتفع عن الميول والأهواء، ويتخلق بأرقى ما سنه الإسلام من نبيل السجايا ورفيع الصفات.

قدم عليه قوم من أصحاب الحديث يروون عنه، وكان محدثًا إمامًا في فنه يعرف مواضع الجرح والتعديل في السند ووجوه الضعف والقوة في المتن، ويفيض في ذلك بما ينبئ عن رسوخ أصيل -فيما يروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم- فسألهم القاضي: من أي البلاد أنتم؟

فقالوا: من الرملة إحدى مدن فلسطين.

فسأل: ما حال قاضيكم؟

قالوا: عفيف!!

فضرب بكار كفًا بكف وصاح: إنا لله وإنا إليه راجعون، أيقال قاض عفيف، فسدت الدنيا!

كأنه يرى العفة أمرًا بدهيًا مقررًا لا ينص عليه في جواب! فإذا تميز بها بعض القضاة دون سواهم فقد حق البلاء.

ومن طرائفه في ذلك أنه قال في أحد مجالسه: ما حللت سراويلي على حلال قط [يريد أنه لم يتزوج على الإطلاق].

فقال أحد الحاضرين: ولا على حرام أيضًا؟

فصاح غاضبًا: يا سبحان الله! والحرام يذكر كأنه أمر يتوقع!!

على أن تطرفه في المحاسبة كان يلجئه إلى ما يشبه التزمت، وهو بعد مستغرب من فقيه دقيق يستهول حرمة القضاء يذبح نفسه بغير سكين!

قدم عليه بمصر رجل من أهل البصرة كان رفيقه أيام الطلب بمساجد العلم هناك، فأكرمه واحتفى به احتفاء عرفه الناس، ثم احتيج إلى شهادة لديه، فشهد عند القاضي مع رجل مصري، فتوقف عن الحكم وظن الناس أنه لا يقبل شهادة المصري على عدالته، ولكن السبب هو صديقه البصري، فقد أكل معه في الصغر أرزًا في سمن وعسل، فنذر العسل من ناحية بكار، ففتح من جهة صاحبه هذا حتى جرى العسل نحوه فقال البصري متضاحكًا: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ [الكهف: ٧١]، فعلمت انه يهزأ بالقرآن في مثل هذا، وبقى ذلك في نفسي حتى رددت شهادته!!

هذه القوة في التمسك بالدين تنبئ عن تحرزه المفرط الذي جاوز كل حد! وطبيعي أنه لم يكن يختص به فريقًا دون فريق، فقد كان يلتزمه مع ابن طولون نفسه دون تحرج أو خشية.

مات رجل وعليه دين للأمير، فطلب عامل الخراج من أحمد بن طولون أن يأمر القاضي ببيع داره، فأرسل ابن طولون إلى بكار في ذلك، فقال: حتى يثبت عليه الدين، فأثبتوه، وسألوه البيع، فقال: حتى يثبت عندي أنه ملكه، فأثبتوه، وسألوه البيع، فقال: حتى يحلف من له الدين، فجاء ابن طولون، فحلف أمامه، فقال بكار: أما الآن فقد أمرت بالبيع.

وقد كان ابن طولون يعلم من مواقف القاضي الصريحة أنه لا يهابه في شيء، بل يجهر بالحق على رؤوس الأشهاد، لقد كان في مجلسه ذات مرة، فتخاصم رجلان، فقال له: أحكم

بينهما، فنظر في القضية، وتوجهت اليمين على أحدهما، فاستحلفه، فلما فرغ قال له الخصم: استحلفه أيها القاضي برأس الأمير!

فصاح بكار غاضبًا: يا هذا، قد حلف بالله وهو أعظم من الأمير!

فقال: بل استحلفه برأس الأمير!

فقال له بكار: تحلف برأسه؟

فقال الرجل: لا.

فصاح بكار: يا عدو الله، تحلف بالله خالق السموات والأرض، وتمتنع أن تحلف برأس مخلوق مثلك، وأخذ ينظر للأمير وهو يقلب كفًا بكف.

ولا ندري كيف أدرك ابن طولون إذ ذاك ضعف البشر وانهيارهم، فابتسم للرجل وحظي عنده بعد ذاك.

إن رجلًا مهيبًا مثل بكار لا ينظر إلى الخلاف بين ابن طولون والموفق نظرة تتملق صاحب الأمر في بلده، بل نظر إليه من وجهة الحق كما يلوح في نفسه، فقد أدرك لفوره أن الحكم بخلع الموفق من ولاية العهد بعد أن أسندت إليه لا يرجع إلى ابن طولون وحده حتى يتصدر دون سائر رعايا الخلافة العباسية أمرًا خطيرًا كذلك الأمر، وهو بعد لن يعقب غير فتنة مسلحة حمراء تقوم بين مصر والعراق، تسيل من ورائها أنهار الدماء وتتساقط آلاف الرقاب!! ثم إن خلع الموفق لن يغير من الأمر شيئًا، فسيخلفه إنسان على شاكلته، وسينفتح مجال التآمر والدسائس لرؤساء القصر العباسي من جنود الأتراك وزعمائهم، فإذا كانت مصلحة ابن طولون الشخصية تقتضي خلع الموفق فإن ما يعقبه من أهوال تشيب لها الرؤوس يحتم على القاضي أن يجاهر بالمعارضة، فيعلن ابن طولون استقلاله عن بغداد كما يشاء، أما يحرص على التبعية الاسمية في ظل خليفة دون ولي عهد، فهذا ما تتسع له نوافذ الشر، فيندلع اللهيب ويحترق الناس.

طعن الأمير في آماله حين واجهه بكار بالرفض الصريح! ووقع ابن طولون بين عملين: إما أن يرجع عن خلع الموفق فيثبت بذلك سيطرته الشرعية على حكمه، ويصبح في نظر العامة عاصيًا يجاهر بالثورة ويدعو إلى العناد! وإما أن يقتص من بكار عن ورعه وتقواه!

ولقد كان من نتيجة هذا الموقف المتأزم بين القاضي وابن طولون أن غضب عليه غضبًا شديدًا، فضربه بعود من الحديد، وأمر بتمزيق ثيابه، وسحب على وجهه مسلوب الجلباب، ثم أودع السجن، ومكث أيامًا في مكان ضيق لا يستطيع أن يمد به رجليه، ثم نقل إلى محبس آخر أكثر رحابة.

ومما يذكر أن القاضي كان يحافظ على الصلاة سننًا ونوافل في محبسه، وكان يلزم نفسه حين تأتي صلاة الجمعة كل أسبوع أن يغتسل، ويلبس ثيابه، ويجيء إلى باب السجن، فيرده السجان، ويقول: اعذرني أيها القاضي فما أقدر على إخراجك، فيصيح بكار متجهًا إلى السماء: اللهم فاشهد، لقد صنعت ما علي!!.

وقد طال محبس القاضي، فطلب أصحاب الحديث إلى أحمد بن طولون أن يأذن لهم في السماع منه، فأذن لهم، فكان يحدثهم وهو داخل الحبس بالقرب من طاقة كانت في أعلى المحبس بالخارج فكانوا يكتبون ما يلقيه عليهم ولا يرونه.

وإذا كان الموت هو نهاية كل حي، فقد مرض ابن طولون مرضه الأخير، وأخذ يراجع أعماله في لحظاته الحاسمة فكان شبح بكار في سجنه يؤرقه ويأخذ عليه منافذ السماء والأرض، فأمر بنقله إلى دار خاصة به، وكأنه بذلك يكتفي بتحديد إقامته، ثم هاجت نوازعه، فكتب إليه يستحله ويستغفره، فجاءه رد بكار يقول: أنا شيخ كبير وأنت عليل مدنف والملتقى قريب والحكم لله.

فكان ابن طولون في احتضاره يبكي ويردد: هو شيخ كبير وأنا عليل والملتقى قريب والحكم لله!!

ثم بلغ الكتاب أجله، فمات الوالي، وأعقبه بكار بعد أربعين يومًا من وفاته، وكان الملتقى قريبًا كما حسب القاضي ووافقه الأمير.



المصادر:

- «علماء في وجه الطغيان» لمحمد رجب البيومي.
- «سير أعلام النبلاء» للذهبي (١٢/ ٥٩٩).
- «زهر البساتين من مواقف العلماء الربانيين» للدكتور/ سيد عفاني (١/ ٤٠٧).

القاضي/ مغيث الدين الحنفي البيانوي

أحد كبار الفقهاء الحنفية، انتهت إليه رياسة العلم والعمل في عصر السلطان علاء الدين محمد شاه الخلجي.

قال له السلطان علاء الدين: الأموال التي غنمتها في ديوكير في أيام الإمارة قبل أن أكون سلطانًا غنمتها بتحمل المحن والمشاق فهل هي لي خاصة لنفسي أو لبيت مال المسلمين؟

فأجاب القاضي: إن الأموال التي غنمتها في ديوكير في أيام الإمارة غنمتها بعساكر المسلمين فهي لبيت مالهم، فلو كنت حصلتها بجهد نفسك على وجه يبيحه الشرع كانت تلك الأموال خاصة لك.

فلما سمع السلطان ذلك غضب عليه وقال: كيف تقول؟ ألا يعلم رأسك ما تقول؟ الأموال التي أخذتها بجهد نفسي وقوة خاصتي من الخدم، وحصلتها من الكفار الذين لا يعلمهم أحد في دهلي، وما أدخلتها في بيت المال كيف تكون لبيت المال؟

ثم سأله: كم لي ولأهلي وعيالي نصيب من بيت المال؟

فقال القاضي: إني أظن أن الموت قد دنا مني.

فقال السلطان: لم تقول ذلك أيها القاضي؟

قال: لأن السلطان سألني عن مسألة إن أجبت عنها بما يوافق الشرع يقتلني، وإن أجبت بما يوافق هواه يدخلني الله في النار يوم القيامة.

قال السلطان: إني لست بقاتلك فقل ما بدا لك.

قال: إن اقتدى السلطان بالخلفاء الراشدين وأراد رزق الآخرة، فله أن يأخذ من بيت المال ما وظفه الشرع للمجاهدين في سبيل الله، وهو أربع وثلاثون ومائتا تنكة (وهي عملة

البلاد في ذلك الوقت) لنفسه وأهل بيته، وإن قال السلطان: إن هذا القدر لا يكفيه لعزه السلطنة فله أن يأخذ ما يعطي غيره من الأمراء، وإن أراد أن يأخذ أكثر من ذلك بها أفتاه علماء السوء فله أن يأخذ أكثر من ذلك كثرة يعيش بها أحسن مما يعيش الأمراء، وإياه وإياه أن يأخذ أكثر من ذلك، وأن يعطي نساءه القناطر المقنطرة من الذهب والفضة من بيت المال، وقرى كثيرة من أرض الخراج والملابس الثمينة، والظروف الغالية والجواهر الكريمة! فإنها تكون نكالًا ووبالًا لك في الآخرة.

فقال السلطان: ألا تخاف سيفي فتقول إن ما نعطيه نساءنا حرام في الشرع؟

فقال: إني أخاف سيفك ولذلك أحسب عمامتي كفني.

قال السلطان: إنك حرمت علي كل ما سألتك عنه، فلعلك تحرم ما أفعله من التعزير والتشديد، فإني أمرت في شاربي الخمر وبايعها بالحبس في الآبار، وبقطع أعضاء الزناة، وبقتل النساء الزواني، وإني لا أميز الصالح من الطالح في البغاة فأقتلهم، وأهلك نساءهم وأبناءهم، ومن يخون في بيت المال أمرت فيه أن يُحبس في السجن، ويوضع في الأغلال والقيود ويضرب ويطعن حتى يدفع ما عليه.

فنهض القاضي من المجلس وذهب إلى صف النعال، ووضع جبينه على الأرض ونادى بأعلى صوته: سواء قتلني السلطان أو أبقاني لم يبح له الشرع ذلك، ولم يطلق يده في أن يفعل بالمجرمين ما يشاء، فكظم السلطان غيظه ودخل في الحرم [أي دار نسائه وجواريه].

ورجع القاضي إلى بيته، ثم ودع أهله وأقرباءه في الغد توديع المحتضرين وتصدق واغتسل كغسل الميت وأتى قصر السلطنة، ودخل على السلطان فقربه السلطان إلى نفسه وخلع عليه [أي أعطاه أموال وعطايا وهدايا].

❁❁❁

سليمان بن وهب

قال القاضي التونخي: حدثني علي بن هشام، قال: سمعت أبا عبد الله حمد بن محمد ـتنائي، ابن أخت الحسن بن مخلد.

قال مؤلف هذا الكتاب (أبي القاضي التونخي): قال لي أبو القاسم عيسى بن علي بن عيسى، في كلام جرى بيننا- غير هذا- طويل: كان حمد بن محمد هذا، ابن عمة الحسن بن مخلد، وكان أبي عرفني أنه أشار على المقتدر بالله، وقد استشاره فيمن يقلده الوزارة، فأسميت ـه حمد بن محمد هذا، وأبا عيسى أخا أبي صخرة، وأبا زنبور، ومحمد بن علي المادرائيين.

قال: سمعت عبيد الله بن سليمان بن وهب، يقول: كان المتوكل، أغيظ الناس على ـيتاخ، وذكر حديثًا طويلًا، وصف فيه كيف قبض المتوكل على إيتاخ وابنيه ببغداد، لما رجع من الحج، بيد إسحاق بن إبراهيم بن مصعب، قال فيه: قال سليمان بن وهب: ساعة قبض على إيتاخ ببغداد، قبض علي بسر من رأى، وسلمت إلى عبيد الله بن يحيى.

وكتب المتوكل إلى إسحاق بن إبراهيم، بدخول سر من رأى، ليتقوى به على الأتراك، لأنه كان معه بضعة عشر ألفًان ولكثرة الطاهرية، بخراسان، وشدة شوكتهم.

فلما دخل إسحاق سامراء، أمر المتوكل بتسليمي إليه، وقال: هذا عدوي: ففصل لحمه عن عظمه، هذا كان يلقاني في أيام المعتصم، فلا يبدأني بالسلام فأبدأه به لحاجتي إليه، فيرد علي كما يرد المولى على عبده، وكل ما دبره إيتاخ، فعن رأيه.

فأخذني إسحاق، وقيدني بقيد ثقيل، وألبسني جبة صوف، وحبسني في كنيف، وأغلق عليَّ خمسة أبواب، فكنت لا أعرف الليل من النهار.

فأقمت على ذلك عشرين يومًا، لا يفتح علي الباب إلا دفعة واحدة في كل يوم وليلة، يدفع إلي فيها خبز وملح جريش، وماء حار، فكنت آنس بالخنافس، وبنات وردان، وأتمنى الموت من شدة ما أنا فيه.

فعرض لي ليلة من الليالي، أن أطلت الصلاة، وسجدت، فتضرعت إلى الله تعالى، ودعوته بالفرج، وقلت في دعائي: اللهم، إن كنت تعلم أنه كان لي في دم نجاح بن سلمة صنع، فلا تخلصني مما أنا فيه، وإن كنت تعلم أنه لا صنع لي فيه، ولا في الدماء التي سفكت، ففرج عني.

فما استتممت الدعاء، حتى سمعت صوت الأقفال تفتح، فلم أشك أنه القتل، ففتحت الأبواب، وجيء بالشمع، وحملني الفراشون، لثقل حديدي.

فقلت لحاجبه: سألتك بالله، اصدقني عن أمري.

فقال: ما أكل الأمير يومًا شيئًا، لأنه أغلظ عليه في أمرك، وذلك أن أمير المؤمنين وبخه بسببك، وقال: سلمت إليك سليمان بن وهب تسمنه أو تستخرج ماله؛ فقال الأمير: أنا صاحب سيف، ولا أعرف المناظرة على الأموال ووجوهها، ولو قرر أمره على شيء لطالبته به.

فأمر أمير المؤمنين الكتاب بالاجتماع عند الأمير لمناظرتك، وإلزامك مالًا يؤخذ به خطك، وتطالب به، وقد اجتمعوا، واستدعيت لهذا.

قال: فحملت إلى المجلس، فإذا فيه موسى بن عبد الملك، صاحب ديوان الخراج، والحسن بن مخلد، صاحب ديوان الضياع، وأحمد بن إسرائيل الكاتب، وأبو نوح عيسى بن إبراهيم، كاتب الفتح بن خاقان، وداود بن الجراح، صاحب الزمام، فطرحت في آخر المجلس.

فشتمني إسحاق أقبح شتم، وقال: يا فاعل، يا صانع، تعرضني لاستبطاء أمير المؤمنين، والله، لأفرقن بين لحمك وعظمك، ولأجعلن بطن الأرض أحب إليك من ظهرها، أين الأموال؟. فاحتججت بنكبة ابن الزيات لي.

فبدرني الحسن بن مخلد، فقال: أخذت من الناس أضعاف ما أديت، وعادت يدك إلى كتبة إيتاخ، فأخذت ضياع السلطان، واقتطعتها لنفسك، وحزتها سرقة إليك، وأنت تغلها ألفي ألف درهم، وتتزيا بزي الوزراء، وقد بقيت عليك من تلك المصادرة جملة لم تؤدها، وأخذت الجماعة تواجهني بكل قبيح، إلا موسى بن عبد الملك، فإنه كان ساكتًا لصداقة كانت بيني وبينه. فأقبل من بينهم على إسحاق، وقال: يا سيدي، أتأذن لي في الخلوة به لأفصل أمره؛ قال: افعل.

فاستدناني، فحُملت إليه، فسارني، وقال: عزيز علي يا أخي، حالك، وبالله لو كان خلاصك بنصف ما أملكه لفديتك به، ولكن صورتك قبيحة، وما أملك إلا الرأي، فإن قبلت مني، رجوت خلاصك، وإن خالفتني، فأنت- والله- هالك.

قال: فقلت: لا أخالفك.

فقال: الرأي أن تكتب خطك بعشرة آلاف ألف درهم، تؤديها في عشرة أشهر، عند انقضاء كل شهر ألف ألف درهم، وتترفه عاجلًا مما أنت فيه.

فسكت سكوت مبهوت، فقال لي: ما لك؛ فقلت له: والله، ما أرجع إلى ربعها، إلا بعد بيع عقاري، ومن يشتري مني وأنا منكوب، وكيف يتوفر لي الثمن وأنا على هذه الحالة ؟.

فقال: أنا أعلم أنك صادق، ولكن احرس نفسك عاجلًا يعظم ما تبذله، ويطمع فيه من جهتك، وأنا من وراء الحيلة لك في شيء أميل به رأي الخليفة من جهتك، يعود إلى صلاحك، والله المعين، ومن ساعة إلى ساعة فرج، ولا تتعجل الموت، ولو لم تستفد إلا الراحة مما أنت فيه يومًا واحدًا، لكفى.

قال: فقلت: لست أتهم ودك ولا رأيك، وأنا أفعل ما تقول.

فأقبل على الجماعة، وقال: يا سادتي، إني قد أشرت عليه أن يكتب خطه بشيء لا يطيقه، فضلًا عما هو أكثر منه، ورجوت أن نعاونه بأموالنا وجاهنا، ليمشي أمره، وقد وافقته ليكتب بكذا وكذا.

فقالوا: الصواب له أن يفعل هذا.

فدعا لي بدواة وقرطاس، وأخذ خطي بالمال على نجومه، فلما أخذه، قام قائمًا، وقال لإسحاق: يا سيدي، هذا رجل قد صار عليه للسلطان- أعزه الله- مال، وسبيله أن يرفه، وتحرس نفسه، وينقل من هذه الحال ويغير زيه، ويرد جاهه، بإنزاله دارًا كبيرة، وإخدامه بفرش وآلة حسنة، وإخدامه خدامًا بين يديه، ويمكن من لقاء من يؤثر لقاءه من معامليه، ومن يحب لقاءه من أهله وولده وحاشيته، ليجد في حمل المال الحال عليه، قبل محله، ونعينه نحن، ويبيع أملاكه، ويرتجع ودائعه ممن هي عنده.

فقال إسحاق: الساعة أفعل ذلك، وأبلغه جميع ما ذكرت، وأمكنه منه، ونهضت الجماعة.

فأمر إسحاق بفك حديدي، وإدخالي الحمام، وجاءني بخلعة حسنة، وطيب، وبخور، فاستعملته، واستدعاني، فلما دخلت عليه، نهض إلي، ولم يكن في مجلسه أحد، واعتذر إلي مما خاطبني به، وقال: أنا صاحب سيف، ومأمور، وقد لحقني اليوم من أجلك سماع كل مكروه، حتى امتنعت عن الطعام غمًا بأن ابتلى بقتلك، أو يعتب الخليفة علي من أجلك، وإنما خاطبتك بذلك، إقامة عذر عند هؤلاء الأشرار، ليبلغوا الخليفة ذلك، وجعلته وقاية لك من الضرب والعذاب، فشكرته، وقلت ما حضرني من الكلام.

فلما كان من الغد، حولني إلى دار كبيرة، واسعة، حسنة، مفروشة، ووكل بي فيها، على إحسان عشرة وإجلال، فاستدعيت كل من أريده، وتسامع بي أصحابي، فجاؤوني وفرج الله عني.

ومضت سبعة وعشرون يومًا، وقد أعددت ألف ألف درهم، مال النجم الأول، وأنا أتوقع أن يحل، فأطالب، فأؤديه، فإذا بموسى بن عبد الملك قد دخل إلي، فقمت إليه، فقال: أبشر.

فقلت: ما الخبر يا سيدي؟.

فقال: ورد كتاب عامل مصر، بمبلغ مال مصر لهذه السنة مجملًا في مبلغ الحمل والنفقات، إلى أن ينفذ حسابه مفصلًا، فقرأ عبيد الله ذلك على المتوكل، فوقع إلى ديواني

ـخراج العبرة لمصر، ليعرف أثر العامل، فأخرجت ذلك من ديوان الخراج والضياع، لأن مصر تجري في ديوان الخراج والضياع وينفذ حسابها إلى الديوانين، كما قد علمت، وجعلت ستك التي وليت فيها عمالة مصر، مصدرة، وأوردت بعدها السنين الناقصة عن سنتك، نطفًا في خلاصك، وجعلت أقول: النقصان في سنة كذا عن سنة كذا وكذا التي صدرناها، كذا وكذا ألفًا.

فلما قرأ عبيد الله العمل على المتوكل، قال: فهذه السنة الوافرة، من كان يتولى عمالتها؟.

فقلت أنا: سليمان بن وهب يا أمير المؤمنين.

فقال المتوكل: فلم لا يرد إليها؟ فقلت: وأين سليمان بن وهب؟ ذاك مقتول بالمطالبة، قد استصفي وافتقر.

فقال: تزال عنه المطالبة، ويعان بمائة ألف درهم، ويعجل إخراجه.

فقلت: وترد ضياعه يا أمير المؤمنين، ليرجع جاهه.

قال: ويفعل ذلك، وقد تقدم إلى عبيد الله بهذا، واستأذنته في إخراجك، فأذن لي، فقم بنا إلى الوزير، وقد كان دخل إلى إسحاق برسالة الخليفة بإطلاقي.

فخرجت من وقتي، ولم أؤد من مال النجم الأول حبة واحدة، ورددته إلى موضعه.

وجئت إلى عبيد الله، فوقع لي بمائة ألف درهم معونة على سفري، ودفع إلي عهدي على مصر، فخرجت إليها.

المصادر:

- «الفرج بعد الشدة» للقاضي التناخي.
- «سير أعلام النبلاء» للذهبي.
- «البداية والنهاية» لابن كثير.

طالوت المعافري

تعرض الحكم بن هشام إلى قلاقل مزعجة من فقهاء عصره، فلم تمض سفينته رخاء سهلة تعبر النهر الهادئ في سلام، ولكنها وجدت من الأعاصير العاتية ما أحاط بها الموج من كل مكان، ولولا عزيمته القاهرة وحيلته الماكرة لكان من المغرقين.

ولو أن الأقدار الحاسمة شاءت له أن يلي الأمر بعد جده عبد الرحمن الداخل مباشرة لواصل السير في سنن مرسوم لا اختلاف عليه، ولكنه جاء بعد والده هشام، وقد كان ذا منحى خاص في الحكم، يقف موقف النقيض من الداخل، إذ كان هشام يستشعر مرضًا جسيمًا أنه مود به عن قريب، وقد تسلط هذا الشعور عليه، فجعله زاهدًا عزوفًا يظن أيامه سريعة لا تطول.

وقد أجبره هذا الشعور على أن يكل أمره إلى رجال الدين من كبار الفقهاء وجلة القضاة، فجعل منهم مجلس شورى لا يقطع أمرًا دون الرجوع إليه، والاطمئنان إلا سلامته من الوجهة الدينية، ورأى الفقهاء أنفسهم ذوي الأمر والنهي، فاستشعروا عزة ومنعة، وتغلغلوا بنفوذهم في كل جانب من جوانب الحياة، ورأى الناس سيطرتهم الماثلة ونفوذهم البعيدة، فأصبحوا موضع الرجاء ومناط الأمل في المجتمع الأندلسي، وأصبح لهم شأنهم فيما يأخذون ويتركون! دام لهم ذلك في عصر هشام بن عبد الرحمن الداخل، فرضعوا أفاويق المجد هانئين.

ولكن هشامًا قد مضى إلى ربه، وترك ابنه الحكم أميرًا له السلطان من بعده، والأمير الشاب وقد كان في السادسة والعشرين من عمره، لم تصقله تجاربه صقلًا يعي فيه منطق الأحداث عن مصادمة واختبار، إلا أنه مع هذه الحداثة الباطرة كان قوي العزم، صلب العود، صعب المكسر، وقد وازن بين مسلكي أبيه وجده، فغاظه أن يصبح والده مغلوبًا على

ـمره بين أناس يراهم الأمير الجديد بعيدين عن دائرة السلطان، مغتصبين نفوذ صاحب ـكلمة في الأندلس! هذا رأي الحكم فيهم واعتقاده، مخطئًا كان أم مصيبًا، وفي نطاق هذا ـرأي صمم على أن يجانب الفقهاء!.

وقد كان الأمير مع ذلك صاحب ثقافة وعلم، يقرأ كثيرًا، ويبحث عن نفائس المؤلفات في شتى الأقطار، ويجاذب العلماء والأدباء حديث العقل والشرع والأدب دون أن يتعدى بهم دائرة السمر العلمي والبحث الفكري! وهو مع ذلك شجاع يولع بالصيد، ويخرج إلى خلوات مجريًا فنون احتياله في أسر الوحوش، وله طائفة من الندماء، فيهم المغني والأديب والشاعر والفيلسوف! فالأمير متسع الأفق، جم الأفانين، ومثله في عزمه وبأسه وثقافته وبعد ـماله، وانفساح مراميه لا يسهل منه القياد.

موقف شائك صعب يتربص بالأمير وخصومه، ولابد أن تقع الواقعة الحمراء بين ـفريقين إن أخفقت أساليب الكياسة والمصانعة، وهي لا محالة واقعة، فالخلاف من الاتساع وبُعد الهوة بحيث لا تجدي معه أساليب الاحتيال والكياسة إذا أجدت في موقف آخر، ولاسيما أن كلا الفريقين مقتنع بحقه، مصمم عليه، ولابد لأحدهما أن يتغلب فينحسم لموقف!.

وتفسير هذا الموقف واضح في ذاته إذا عرفنا أن الحق في هذه القضية يدعيه كل فريق ـنفسه عن حمية واعتقاد! فالحكم في صميم أطوائه يرى نفسه حفيد الداخل له أن يتمتع بجميع ما يتمتع به الحاكم المطلق ذو الكلمة النافذة والأمر المطاع لا معقب لحكمه، ولا راد ـشيئته.

أما الفقهاء فلا ينظرون إلى الأمر من زاويته، ولكنهم يعلمون أن الإسلام دين الشورى وأن الخلافة الراشدة لم تكن حكمًا مطلقًا انفرد به أبو بكر أو عمر أو عثمان أو علي رضي الله عنهم

دون استشارة وإذعان وأن الله عَزَّ وَجَلَّ قال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ [النساء: ٥٩]. إنما جعل القرآن والسنة مصدري الحكم، وجعل أولي الأمر من العلماء قوَّامين على الحكام والسلاطين يقوِّمون المعوجّ، ويهدون بالحق وبه يعدلون، وما عبد الرحمن الداخل في رأيهم إلا غاصب متجبر، قام بالأمر عن رهبة وجبروت، فخالف منهج الخلافة الراشدة، وأسكت الشورى بمقبض سيفه، وبغي جنده، ورهبة بطشه، وهاهو ذا الحكم يحذو حذوه، ويراه المثل الأعلى في الإمارة دون أبيه، ولئن تطامنوا له، فنفضوا أيديهم من الأمر، ليعيد عهد الداخل، بل ربما زاد عليه، فهو ذو ثقافة واطلاع، وله في العلوم مشاركة تفتح أمامه منافذ الدهاء والاحتيال.

وقد بدأت الحرب المتوقعة بالدعايات المرجفة والشائعات المغرضة، فمضت الألسنة تتحدث عن خروج الحكم للصيد، واصطحابه الندماء واستماعه للغناء، وقراءته للكتب الفلسفية، وزاد الأمر حتى تحدث المرجفون عن مجالس الخمر والكأس، وألحان الولوع والصبابة، وحديث الجواري والغلمان، وذهب قوم يتحسرون على عهود الفضيلة والكرامة، ويتوقعون قيام الساعة في عصر الحكم لما يرتكب من محارم ويقترف من آثام، ثم مضى الحديث إلى العامة في الأزقة والدروب، وفي الناس رغبة كامنة في انتقاد الرؤساء والعلية من الحاكمين، فما يكادون يلمون بشيء يسوء عن ذي إمارة أو جاه إلا أذاعوه مضخمًا مكبرًا، ومضوا يتناقلونه في تزايد ومبالغة، حتى طفح الكيل، وأصبح حديث الأمير مضغة الأفواه وسمر السوقة والدهماء.

وحرص الفقهاء على استمرار الذائعة بما يعلنون من سخط حتى تجرأ العامة، فقابلوا موكب الأمير بالتصفيق والسخرية، واتهموه في خلقه ودينه وقذفوه بالحصباء، فصار في مأزق يتطلب الخلاص، وأخذ يتلمس من الضيق فرجًا، دون أن يعرف مأتاه، حتى صحا ذات يوم على ثورة هائجة تقتحم القصر، يقودها جماعة الفقهاء، وكان الثوار من أهل الربض الجنوبي

قرطبة، فأخذوا يحطمون النوافذ ويشعلون النار، ودافع حراس الأمير عن حرمه أكرم دفاع، ولكن الثورة تشتد والتحطيم توالي، والفوضى تتفاقم، حتى خيل للثائرين أن ساعة الحكم قد دنت، ونظر الأمير فوجد الخطب يدهمه عن شمال ويمين، فتفتق ذهنه عن حيلة بارعة هي أن يسحب بعض الحرس متظاهرين بالانضمام إلى العامة حيث يأتون مساكن الربض فيشعلون بها النيران.

ونظر الثائرون فوجدوا النار تشتعل عن كثب في منازلهم، وعلموا أن نساءهم وأطفالهم وأموالهم أصبحت في طعمه للهيب، ففروا إلى ديارهم يطفئون الحريق، ولكنهم وقعوا بين فكي الكماشة، إذ أطبق عليهم جيش الحرس ممن كانوا يشعلون النار، ومن أخذوا يتعقبونهم حين تركوا القصر، وكان زهو المفاجأة باعث التفرق والاضطراب، فحصدتهم سيوف الحكم حصدًا وأخذتهم رماحه دون شفقة أو هوادة حتى فني عدد كبير من الثائرين وهدمت دورهم، وصلب ثلاثمائة من رؤسائهم، مدلاة رؤوسهم إلى أسفل تنكيلًا وإرهابًا، وذاق الفقهاء من الهول والشدة ما تركهم جزر السيوف، تسيل دماؤهم في الطرقات، ومن نجا من المعركة لحسن حظه آثر الهروب والاختفاء كي لا يلحقه الموت العاجل! ثم أمر الحكم بهدم منزل الربض وترحيل من بقي من أهله إلى شمال أفريقية حيث نزلوا بفاس.

انتهى الصراع على وجه حاسم، وخمدت ثورة الفقهاء خمودًا لا قيامة بعده! وكان الفقيه المكي طالوت بن عبد الغفار المعافري ممن أسهموا في الثورة إسهامًا خطيرًا، ثم كتبت له النجاة، فلاذ بالفرار مستخفيًا لدى بعض معارفه من أهل الكتاب! وظن الأيام ستسعفه بالعفو والرحمة حين تهدأ الثائرة، وتصبح الثورة أثرًا بعد عين، ولكن الزمن يمضي دون أن يطرأ جديد على موقفه الضائق، والفقيه يتقلب على مثل الجمر حين يرى الكتابي يتحمل إيواءه ونفقته شهرًا وراء شهر دون أن يستطيع مكافأته! وهو أمر إن امتد إلى عام فلن يعقل أن يطول به الأمد إلى عام آخر!

وماذا وراء الانتظار والترقب، والدنيا دنيا الحكم إن شاء أطلقه، وإن شاء أراحه من كدر الاختفاء، لابد إذن من مواجهة الموقف، فوقوع الشر أهون من انتظاره، وبخاصة إذا كان أبو البسام القرطبي هو وزير الحكم، وقد كان تلميذ الفقيه الكبير، عنه أخذ، وعلى يده تعلم، حتى جلى وبرز!! فهو إذن طريقه إليه، يشفع في أمره ويهون من خطبه، وعسى أن تأتي الريح بما تشتهي السفينة المرهقة بعد إعصار عنيف.

بعث الفقيه إلى تلميذه الكبير وأعلمه بمأساته طالبًا شفاعته! وكان الوزير من الإسفاف الخلقي والضعف النفسي بحيث يدعى له أن العثور على أستاذه سيصبح زلفى لأميره، فعجل بلقائه، وذهب يدعى له أنه بث عيونه وأرصاده حتى عثر على طالوت المعافري مختفيًا في بيت أحد صحابته من أهل الذمة! وقد بذل في الكشف عن مخبئه ما بذل حتى اهتدى إلى مكانه! ثم قال للحكم في ابتسام ماكر: كيف رأيك إذن يا سيدي في كبش سمين على مذود، منذ عام طويل!

قال ابن البسام: ذلك وجهل أن الحكم منذ هدأت الثورة كان يستشعر الندم على إفراطه في الانتقام، ويعلل نفسه بأنه أضطر إلى ذلك اضطرارًا حين رأى الثوار يطلبون رأسه، ولا يرضون بغير أراقه دمه، وقد مالت نفسه إلى الصفح بعد خمود العاصفة! فما أن وقعت عينه على طالوت حتى أجلسه إلى كرسي بجواره، وقال له في عتاب مهذب: يا طالوت أخبرني لو أن أباك أو أبنك مالك هذا القصر أكان يزيد في البر والإكرام على ما كنت أفعله بك، هل قدمت علي قط لحاجة في نفسك أو لغيرك إلا سارعت إلا إسعافك؟ ألم أعدك في علتك مرات؟ ألم تتوف زوجتك فقصدت إلى بابك ومشيت في جنازتها راجلًا من الربض، ثم انصرفت معك راجلًا حتى أدخلتك منزلك، فماذا بلغ منك، وهذا لي عندك، إن لم ترض إلا بسفك دمي وهتك ستري وإباحة حرمتي!

قال ذلك الحكم متوقعًا أن لا يسمع من صاحبه ما يشبه الاعتذار! ولكن طالوت كان معتقدًا في قراءة نفسه أن الحكم لا يصلح للإمارة، وأن ثورة الفقهاء حق لا مرية فيه، فأجاب

في اعتداد: ما أجد لنفسي في هذا الوقت مقالًا خيرًا لي من الصدق، أبغضتك لله فلم ينفعك عندي كل ما صنعته لأجلي.

اكتئب الحكم لرد طالوت، غير أن شعوره النفسي بكراهية الانتقام قد تغلبت عليه، فقال في لهجة المتسامح الراغب يستعطف الفقيه: اعلم يا طالوت أن الذي أبغضتني من أجله قد صرفني عن عقابك، فانصرف آمنًا في حفظ الله، والله لا تركت برك، وما كنت عليه في جانبك طيلة حياتي إن شاء الله، وليت الذي كان لم يكن!.

لقد كان الأليق بطالوت أن يقنع بالسكوت، وبخاصة إذا كان هو الساعي بادئ ذي بدء إلى استرضاء الأمير، ولكن ثورته النفسية قد أخرجته عما يليق، فقال في غير اكتراث: تقول ليت الذي كان لم يكن، أما أنا فأقول لو لم يكن كان خيرًا لك!!

فأطرق الحكم متضايقًا وأراد أن يغير مجرى الحديث، فقال للفقيه المغضب: أين ظفر بك أبو بسام؟

فقال طالوت: والله ما ظفر بي، أنا أظفرته بنفسي لصلة علمية كانت بيني وبينه! فهو تلميذي. فقال الحكم متعجبًا: وأين استترت في عامك الطويل؟

فقال طالوت: كنت عند رجل من أهل الكتاب رعى مكاني وصان ذمامي!

فظهر الغضب في وجه الأمير، ثم التفت إلى وزيره يقول في استهزاء وسخرية: يا أبا بسام رجل من أهل الكتاب حفظ فيه محله من الدين والعلم، وخاطر بنفسه وأهله وماله وولده معي، وأردت أن تنشبني فيما أنا نادم عليه، اخرج عني بعيدًا، فوالله لا بأيت لك وجهًا أبدًا.. فخرج الوزير مدحورًا معزولًا إلى حيث لا رجعة!

رأى طالوت وسمع! فأدركه من الغضب على تلميذ العاق ما ظهر في احمرار وجهه ولمعان عينيه، ثم على شعوره فنهض قائمًا غير منتظر إذن الحكم!

ولكن الأمير سعى خلفه مودعًا، وقال له في هدوء: سأصلك وأبرك ولك أن تغضبني كما تشاء. فلم يجبه الفقيه بشيء؟ !

لقد تصرف كلا الرجلين بوحي خالص من اعتقاده، وإذا كنا نكبر في الأمير الأندلسي تسامحه وعفوه وترفعه، فإننا نكبر في الفقيه المالكي استعصامه بما يعتقد أنه الحق حين برقت الأسنة ولمعت السيوف دون تراجع، أو استخذاء ويا له من موقف!



المصادر:

- «علماء في وجه الطغيان» لمحمد رجب البيومي.
- «زهر البساتين من مواقف العلماء الربانيين» للدكتور سيد عفاني (١/ ٤٢٧).

الإمام العلامة/ الحافظ نعيم بن حماد

قال عنه الذهبي في «السير»: هو ابن الحارث بن همام بن سلمة بن مالك، الإمام العلامة خافظ، أبو عبد الله الخزاعي المروزي الفرضي الأعور، صاحب التصانيف.

قال أبو بكر الخطيب: يقال: إن أول من جمع المسند وصنفه نعيم.

وقال أحمد: كان نعيمًا كاتبًا لأبي عصمة – يعني نوحًا – وكان شديد الرد على الجهمية وأهل الأهواء ومنه تعلم نعيم.

قال يوسف بن عبد الله الخوارزمي: سأل أحمد بن حنبل عن نعيم بم حماد فقال: لقد كان من الثقات.

قال علي بن الحسين بن حبان: وجدت في كتاب أبي بخط يده، قال أبو زكريا: نعيم ثقة صدوق، رجل صدق أنا أعرف الناس به، كان رفيقي بالبصرة، كتب عن روح خمسين ألف حديث، فقلت له قبل خروجي من مصر: هذه الأحاديث التي أخذتها من العسقلاني، أي شيء هذه؟ فقال: يا أبا زكريا، مثلك يستقبلني بهذا؟ فقلت: إنما قلت شفقة عليك. قال: إنما كانت معي نسخ أصابها الماء، فدرس بعض الكتاب، فكنت أنظر في كتاب هذا في الكلمة التي تُشكل علي، فإذا كان مثل كتابي عرفته، فأما أن أكون كتبت منه شيئًا قط فلا والله الذي لا إله إلا هو.

قال محمد بن سعد: طلب نعيم الحديث كثيرًا بالعراق والحجاز، ثم نزل مصر، فلم يزل بها حتى أشخص منها في خلافة أبي إسحاق – يعني المعتصم – فسئل عن القرآن، فأبى أن يجيب فيه بشيء مما أرادوه عليه، فحبس بسامراء، فلم يزل محبوسًا بها حتى مات في السجن سنة ثمان وعشرين ومئتين.

قال ابن يونس: حُمل فامتنع أن يجيبهم، فسجن فمات ببغداد غداة يوم الأحد لثلاث عشر خلت من جمادي الأولى.

قال أحمد بن محمد بن سهل الخالدي: سمعت أبا بكر الطرسوسي يقول: أخذ نعيم بن حماد في أيام المحنة سنة ثلاث أو أربع وعشرين ومئتين وألقوه في السجن، ومات في سنة تسع وعشرين ومائتين، وأوصى أن يدفن في قيوده، وقال: إني مخاصم.

وقال أبو القاسم البغوي وإبراهيم بن عرفة نفطويه، وابن عدي: مات سنة تسع وعشرين، زاد نفطويه: وكان مقيدًا محبوسًا لامتناعه عن القول بخلق القرآن، فجر بأقياده، فألقي في حفرة ولم يكفن ولم يصل عليه، فعل به ذلك صاحب ابن أبي دؤاد.

هكذا يموت أصحاب العلم والقدوة بيد ظالمه ليكتب التاريخ كيف كانوا يصدعون بالحق، ولا يخافون في الله لومة لائم.



المصادر:

- «سير أعلام النبلاء» للذهبي جـ[١٠].

الفقيه العلامة/ يحيى بن يعمر

لو ازدهر التأليف في القرن الأول من الهجرة، كما ازدهر فيما تلاه من العصور، لغنمت الثقافة الإسلامية خيرًا كثيرًا منه، أن هذا القرن الجليل قد حفل بعلماء أماثل من أجلة الصحابة، وأهلة التابعين، وإذا كنا نرى اليوم ثراءهم العلمية متفرقة في مطاوي الكتب، فنقف على الكثير من اجتهادهم الحافل واستنباطهم الدقيق، فماذا كنا نغنم من المعرفة لو عكف هؤلاء الأعلام على تدوين آرائهم في كتب خاصة بهم كما فعل الخلف ممن تلاهم على مر العصور، وأن سماء ساطعة يتألق في أفقها المنير كواكب وضاءة من أمثال: علي وابن عباس وابن عمر وزيد ومعاذ وابن مسعود من شيوخ الصحابة، ومن طراز الزهري وابن المسيب وعطاء والشعبي وربيعة وابن جبير وحماد والحسن من أعيان التابعين، إن سماء تسطع بهذه الكواكب لجديرة أن تبعث الضوء في ظلمات الأحقاب، ودياجي العصور فتهدي إلى الطريق القويم.

قال عنه الذهبي في «السير»: الفقيه العلامة المقرئ أبو سليمان العدواني البصري، قاضي مرو ويكنى أبا عدي، كان من أوعية العلم وحملة الحجة.

ولقد كان يحيي بن يعمر العدواني أحد هؤلاء المتضلعين في علوم الشريعة والعربية من أفاضل التابعين، وقد شارك مشاركة مثمرة في غرس بذور النحو مع أبي الأسود الدؤلي، ثم إن كان كاتبًا لا يتلقى العلم مشافهة فحسب، بل يدون ويسجل، وقد عثر على بعض الصحف الأثرية ممهورة باسمه، كما أنه المخترع الأول لنقط الحروف بعد أن خاف اللبس من الإهمال فابتكر الإعجام، هذا إلى تضلع واسع في اللغة، إذ كان لا يسأل عن كلمة ينطق بها بدون مصحر إلا شرحها، واستشهد عليها من محفوظه.

هكذا كان يحيي فيما ينطق به من الغريب، حتى اشتهر عنه وتنوقلت منه طرائف وأفاكيه، روى أن يزيد بن المهلب كتب إلى الحجاج: لقد لقينا العدو ففعلنا وفعلنا حتى

اضطررناه إلى عرعرة الجبل، فقال الحجاج: ما لابن المهلب وهذا الكلام! فقيل له: إن يحيى بن يعمر لديه، فابتسم قائلاً: هو ذاك.

هذا بعض ما يشير إلى مكانته في علوم العربية، أما آراؤه العلمية في الفقه والتفسير والحديث فأكثر من أن يلم بها ملم في نطاق وجيز، ولسنا هنا بصدد إيضاح مركزه العلمي ولكننا نمهد لإيضاح عظمته النفسية وعزته الخلقية، فقد كان من الشجاعة الأدبية في الحق، والجرأة الخلقية في مواجهة الطغيان بالمكان السامق، والمنزل المرموق، وقد شاء له الله أن يبتلى بالحجاج أو يبتلى الحجاج به، فواجه وكابر وأدى دوره مرفوع الرأس عالي الجبين.

كان الحجاج طاغية العراق، يدين بفلسفة القوة والإرهاب، فليس من همه أن يستميل القلوب بمعسول القول وجميل الفعل، إذ أن ظروف حياته وحوادث عصره وفتن بيئته، قد جعلته لا يعبأ بمهادنة واستمالة، وغالبًا يرى الطغيان سبيل الهدوء والاستقرار، وقد اختاره عبد الملك بن مروان ليقمع ويردع لا ليؤلف ويقرب، ووجد بعد التجربة أن القمع يدني من مأربه، ويرفع من مكانته لدى الخلافة، فتمادى فيه تماديًا جائرًا، ووطن عزمه على ان يقوم السيف بواجب الطاعة والخضوع مهما امتلأت منه القلوب موجدة وغيظًا، وإنه ليجلس على العراق عالمًا أن حاشيته – قبل رعيته- يضيقون به ويسعون للتخلص من شره، ثم هو لا يعبأ بما يعلم ما دام السيف في يده والسجن من ورائه، فليغضب الغاضبون كما يشاءون، فالقوة الطاغية تقيه كل سوء.

هذا المتحكم الطاغي قد ابتلي بيحيي بن يعمر فيمن ابتلي بهم من العلماء فما وهنوا لما أصابهم، بل ناوشوه وقارعوه، وانتصروا عليه بالمنطق المفحم في يوم مجموع له الناس.

لقد رأى الحجاج أن الكوفة تهيم حبًا بالحسين بن علي، وتجعل من ذكراه منحدرًا للدمع ومصعدًا للزفير، وقد كافح وجاهد في تبديد هذا الحب الوثيق فما استطاع، وكان يعلم أن

قرابة السبط الشهيد من رسول الله ﷺ تجمع عليه القلوب، وتضعه بين الجوانح والشغاف، ففكر وقدر ثم رأى أن يعلن أن الحسين هو ابن علي بن أبي طالب بن عبد المطلب وليس من ذرية محمد بن عبد الله ﷺ لأن انتسابه لفاطمة لا يغير من الأمر شيئًا، فالأب هو المعتبر في النسب دون الأم.

وقد خطب في ذلك وأطال، وأخذ يتتبع مخالفيه سجنًا وتشريدًا، ويرسل عيونه في الكوفة ليأتوه بمعارض يصدر عن غير رأيه، فيجعل من عقابه مثلًا رادعًا لغيره، وسرعان ما جاءه الخبر أن يحيي بن يعمر سئل عن الحسين وانتمائه لمحمد ﷺ فأجاب في المسجد الجامع أن الحسن والحسين من ذرية رسول الله ﷺ وأن الحجاج يحكم ولا يفتي فإذا أفتى فعن غير علم واعتقاد!!

لم يدهش الطاغية لما بلغه، فهو يعرف في يحيي جرأة وشجاعة، وكثيرًا ما اصطدم معه في جدل مذهبي، فكان صاحب الحجة الفاصلة والمنطق الراجح دون أن تعصف به رهبة أو يلين من ثباته إبعاد، ثم هو بعد يتشيع في اعتدال، فلا يوازن بين الصحابة لينصر فريقًا على فريق، ولكن ليضع الحق في نصابه مستعصمًا بالعروة الوثقى من الإيمان، على أنه من وراء ذلك مسموع الكلمة، محترم الرأي، فإذا أفتى بما يعارض الحجاج فقد تمكن من قلوب الناس وذهبت دعوى الطاغية في الحسين أباديد، ماذا عسى أن يصنع به وقد اصطدم منه بداهية دهياء، لابد أن يتمكن من إسكاته عن طريق الادعاء والتعنت فيلزمه بنص واضح من القرآن يؤيد دعواه.

وليس في القرآن في منطق الحجاج ما يثبت ذلك، فإذا أعلن يحيي عجزه عن الاستشهاد بالقرآن فقد قامت عليه الحجة في رأي الجمهرة من العامة، وللطاغية بعد ذلك أن يتطاول عليه مستكثرًا بالسلطان والجبروت حتى يخذله خذلانًا لا نجح بعده- هكذا قدر الحجاج

وأراد، ثم تعجل فعقد مجلسًا حاشدًا من أعوانه ووجهاء الكوفة، ودعا معهم طلاب يحيى بن يعمر ومقدري علمه وفضله، لينكشف أمامهم في المعمعة، فيضيع ما ينسب إليه من علم وثبات، ثم أرسل من يحضر يحيى ليتجرع كأس الهزيمة في انكسار، وحانت الساعة المرتقبة، فحضر الرجل ليرى حفلًا غاصًا بالجموع، وقد تصدره الحجاج كالح الوجه، مقطب الجبين، وقد امتدت العيون، واشرأبت الأعناق لترى العالم الوقور يتقدم في اطمئنان، فيلقي تحية الإسلام، ثم يهم بالقعود فيصيح به الحجاج: لا تقعد يا يحيى، وأوضح لنا رأيك في صلة الحسين برسول الله!

فيرد يحيى في كبرياء وثقة: الحسين والحسن من ذرية رسول الله ﷺ وإن غضب الحجاج!

فيتنمر الحجاج متحفزًا ويصيح: ألديك دليل من كتاب الله؟

فيرد يحيى في ثقة بالغة: معي الدليل من القرآن!!

فيضرب الحجاج كفًا بكف ويقول متهكمًا: ما شاء الله، أفي القرآن أن الحسن والحسين من ذرية رسول الله، لقد قرأته مئات المرات فما وجدت ما تقول يا رجل!

فيتطلع يحيى إلى الحاضرين ثم يصيح بصوت مجلجل: قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [الأنعام: ٨٣-٨٥]. ثم التفت إلى الجمهور قائلًا: أيكون عيسى ابن مريم من ذرية إبراهيم بنص القرآن ولا يكون الحسين من ذرية رسول الله ﷺ وبينهما من القرابة الدانية أكثر مما بين عيسى وإبراهيم أيها الناس؟

لقد جاء الدليل صاعقًا قاصمًا، وقد اعتصم الحجاج بذكائه ليسعفه برد مضلل فما
ستطاع، وبدت الفرحة والشماتة في عيون الجالسين، فزادت من ضيق الحجاج وانبهاره، ثم
ى أن يتراجع في موقف ضائق يضغط عليه بآصاره، فابتسم في تصنع وقال: اجلس يا يحيي
فقد فاتني هذا الاستنباط!.

ولم يشأ أن يصرف القوم لوجوههم بعدما لحقه من خزي فاشل، فرأى أن ينهض
فيعترف بأن القرآن بحر لا ساحل له، وأن العربية الفصحى لا تسلس قيادها لغير من يحفظ
القرآن، وأنه هو وحده الذي أمر يحيي بن يعمر أن يضع النقط على حروف المصحف، لتسهل
سبيل الحفظ الدقيق، والاستظهار الصحيح، ورأى أن يجامل يحيي فاتجه إليه سائلًا: أتجدني
حن في قولي يا ابن يعمر؟

فابتسم يحيي ابتسامة المتهكم وقال في لهجة ذات مغزى خاص: الأمير أفصح من ذلك.
فغتاظ الحجاج وصاح قائلًا: عزمت عليك أتجدني ألحن.

فقال يحيي بملء فمه: نعم أيها الأمير!

فنظر منبهرًا وقال: ألحن في أي شيء؟

فصاح يحيي: في كتاب الله!

فنهض الطاغية مغتاظًا وهو يقول: ذلك أسوأ لو كان ففي أي حرف لحنت؟

فرد يحيي في تحد: لقد قرأت بالمسجد الجامع: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم ﴾ [التوبة: ٢٤]. فضممت الباء وهي مفتوحة.

فتغير وجه الرجل، وحدثته نفسه أن يهم بصاحبه، ولكن انهياره النفسي أورثه ترددًا لا
عهد له به، ثم إنه خشي أن يصيبه بسوء فيتناقل الناس في الأمصار قصة حجاجه في نسب

الحسين، وينتهي إلى قصر دمشق ما كان من تهوره حين جادل في أمر لا يقبل الجدل، فمكن لخصوم الخلافة من الانتصار.

وشاء بعض الحاضرين أن يصرف الحديث إلى موضوع آخر، فأخذ يسأل الحجاج عن مدينة واسط التي شيدها باذلًا جهده الجاهد في التعمير والتثمير، وكان الطاغية قد ارتاح إلى هذا الانتقال المنقذ، فأخذ يسهب في تقدير كفايته، ويبين حسن اختياره للمكان، وسخاءه في الإنفاق والتشييد، ويحصي أعداد من قاموا بالبناء من الفعلة والعمال، وما استخدم من الماشية والحيوان، وما أنفق من الدرهم والدينار، ثم رأى أن يصانع يحيي ليظهر أمام الناس بأن هزيمته لم تنل من نفسه، وأن الأمر لا يخرج عن مجرد رأي خاطىء، فربت على كتفه برفق ثم قال: لم تذكر لنا رأيك في مدينة واسط يا يحيي؟ فسكت الرجل ولم يرد!!

واتجهت العيون إليه، فزادت من حرج الحجاج وتورطه، فأعاد السؤال مغيظًا!

فقال يحيي: أيها الأمير، ماذا أقول عن واسط، وقد شيدتها من غير مالك، وسيسكنها غير أهلك؟

فلم يعد في قوس الصبر لدى الطاغية من منزع، وتلهب الجمر في عينيه، ثم صاح في انفعال: ما حملك على هذا؟

فقال يحيي في اعتداد: ما أخذ الله تعالى على العلماء في علمهم ألا يكتموا الناس حديثًا!! فأطرق الحجاج متخاذلًا، وساد صمت حائر غمر المكان لحظات، ورأى الطاغية أن يقوم بعمل ينقذ خشيته، فصاح بيحيي: لا تساكني ببلد أنا فيه، فاذهب منفيًا إلى خراسان. ثم نهض من مكانه مخذولًا ليتفرق الناس، كل إلى مثواه.

قال الراوي: وذهب يحيي بن يعمر إلى خراسان، فوجد صيته الطائر يسبقه هناك، ورأى الجميع يتحدثون بمجابهته للحجاج مكبرين مقدرين؟ ودنا خراساني فسأله في تعجب: ألم تخش سيف الحجاج؟

فرد في إيمان الواثق: لقد ملأتني خشية الله فلم تدع مكانًا لخشية إنسان.

قال الذهبي في «السير»: كان الحجاج قد نفاه، فأقبل عليه الأمير قتيبة بن مسلم وولاه قضاء خراسان، فكان إذا انتقل من بلد إلى بلد، استخلف على القضاء بها.



المصادر:

- «العلماء في وجه الطغيان» لمحمد رجب البيومي.
- «سير أعلام النبلاء» للذهبي.
- «الزهر البساتين من مواقف العلماء الربانيين» للشيخ سيد العفاني (١/ ٢٤١).

يعقوب بن السكيت

كانت الفترة العصيبة التي شهدت حياة المأمون مع سعة أفقه وغزارة معارفه وولوعه بالبحث والمناظرة، من أحلك الفترات في التعصب والاضطهاد لأن المأمون لم يشأ أن يترك الناس أحرارًا في آرائهم الخاصة، بل ضاق بخصومه وشن عليهم حربًا ظالمة لا طائل ورائها غير التنكيل والتعذيب والقتل في بعض الأحيان، مع أن صاحب الرأي الحر في مضمار البحث العلمي يجب أن يفسح صدره لمعارضيه، فإذا كانت لبعض المخالفين وجهة نظرهم الخاصة صحيحة أو باطلة فليس لنا أن نزجهم في أعماق السجون، وأن نعذبهم بالسياط ونكبلهم بالأغلال، وعاشق الحرية الفكرية هو الذي يمنحها أنصاره وخصومه على السواء، أما أن يستغل نفوذه السياسي لمحاربة مذهب فكري، لا صلة له بدعائم عرشه وهيبة سلطانه؛ فهذا ما يؤاخذ به في معرض الموازنة والحساب.

وقد تلا المأمون من الخلفاء من نهجوا نهجه في التعذيب والاضطهاد، فجاء المعتصم والواثق والمتوكل ليضايقوا على العامة والخاصة بأعنف ضروب الإعنات، وإذا كان المتوكل على الله قد منع القول بخلق القرآن ونصر أهل السنة في مذهبهم الخاص، فإنه كان مبذرًا متلافًا وطاغية سفاكًا، أجمع على ذلك مؤرخوه في الحديث والقديم حتى أطلق عليه نيرون العرب.

وفي عهد المتوكل ابتدأ اضمحلال الدولة العباسية، إذ ترك أمور الدولة لقواده، وانغمس في الملذات والشراب، وانتشرت الرشوة بين الولاة والموظفين، ولم يبن أحد من الخلفاء من الأبنية مثل ما بناه، فمن ذلك القصر المعروف بالعروس، أنفق عليه ثمانين ألف ألف درهم، والقصر الغريب أنفق عليه عشرة آلاف ألف درهم، والقصر المختار أنفق عليه خمسة آلاف ألف درهم، والقصر المعروف بالوحيد أنفق عليه ألفي ألف درهم، إلى قصور مماثلة مثل قصر الماحوزة، وقصر الجعفري، وقصر البهو، وقصر اللؤلؤة، وقصر الكامل، مما يوقف القارئ على تبذير أخرق لا يرعى مال العامة وموارد الدولة.

كانت هذه القصور جميعها تحتل مكانًا فسيحًا من رأى يسمى المتوكلية، وللبحتري في أوصافها من الأبيات ما يعرفه الدارسون، وهو إلى ذلك لسفه الأرعن، والظلم الباطش، يتندر بسب آل البيت ويعقد المجالس من علية وزارئه وخاصته ليشهدوا المضحكين ويستهزئون برهط علي وبنيه، ويلتفت الخليفة إلى جلسائه ليسمع صيحات الأعجاب، ويرى بسمات التأييد، فيعتقد أنه بطل فاتح رجع من الميدان مكللًا بغار النصر، ومسجلًا أعظم معارك التاريخ.

وقد عز على ابن السكيت أن يكون خليفة المسلمين بهذه الضعة التافهة من الرعونة والإسفاف، وآلمه أن يسمع جلساؤه - وفيهم بعض العقلاء والمتضلعين- أقذار السباب وأوضار الشتائم تقال عن علي وفاطمة والحسن والحسين رضي الله عنهم أجمعين صفوة آل بيت الرسول ﷺ، ثم يضطر هؤلاء إلى الملق المنافق فيبتسمون ضاحكين، ليته لم يغش مجلس الخليفة قبل اليوم، حتى لا تقذى عينه بما يؤلم من المشاهد، وتصك مسامعه بما يصم من الشتائم.

إنه ليتحدث في همس إلى معارفه ليكّون رأيًا عامًا يستطيع أن يجابه به هذا البغي السافر، ولكن نفرًا ممن خسروا ضمائرهم المتيقظة يستمعون إلى ابن السكيت لا ليعاونوه على ما التزم من إصلاح، ولا ليلوذوا بالصمت حيث تعذر عليهم أن يرتفعوا إلى مصاف الرجال، بل لينقلوا الحديث إلى المتوكل واشين متملقين. .

وتأتي الأنباء للطاغية، فيصمم على أن يخزي الشيخ في مجلسه ليظهر باكيًا يستنكر ويتزلف، ويقسم الأيمان المغلظة أنه لم يقل ولن يقول، هكذا تصور المتوكل على الله، فأرسل بمن يدعو الشيخ لساعته، فأقدم في وقار المؤمن وهدوء الواثق،، ثم فتح عينيه ليرى جلساء الطاغية يتغامزون متضاحكين، والخليفة ينظر إليه في اشمئزاز مترفع، وقد جلس بين ولديه الأميرين، ثم يسأل في تعاظم:

يا يعقوب أترى الأميرين هذين؟

فيقول في هدوء وقور: أراهما يا أمير المؤمنين.

فيهز الخليفة رأسه في سخرية، ويبرز أسنانه مستهزئًا ثم يسأل: أيهما أحسن؟ ولداي هذان أم الحسن والحسين أيها الشيخ المجنون؟

فرفع يعقوب رأسه في صلابة واتجه بنظره الفاحص إلى غريمه، ثم قال بصوت مرتفع زاده جلال الإيمان ووقار الشيب روعة وتأثيرًا: إن قنبرًا خادم الحسن والحسين أحسن منهما ومنك يا أمير المؤمنين.

صدم المتوكل بما لم يكن يتوقع وكسا الخزي الأحمر وجوه جلسائه، فقام كالثور الهائج يرغي ويزبد، ثم أمر غلمانه الأتراك فطرحوا الشيخ أرضًا وداسوه بالنعال، ثم تركوه في سكرات النزاع. . فيحمل إلى داره فاقد الإدراك، ويقلب المحتضر الشهيد عينيه في أهله مودعًا، حتى إذا قضي وطرًا مما يريد، جاء اليقين فلقي رضوان الله.

وتمضي الأيام وتسرع خطاها في فلك الزمان. . وإذا بالخليفة يحاول أن يغير خلافة العهد للمعتز، بدلًا من المنتصر، مما جعل الأخير يحنق على والده، ويدبر مكيدة لقتله حتى لا يفسح الطريق للخلافة لأخيه بدلًا منه، فاتفق مع الجنود الأتراك على قتل أبيه، فدخل خمسة منهم عندما ساد الظلام الليل، وكان مع وزيره الفتح بن خاقان، فقتلوهما معا، وكان ذلك في الخامس من شوال سنة ٢٤٧هـ.

هؤلاء الذين فرغوا من إعدام ابن السكيت ليتهيأوا بعد قليل لسحق الطاغية العنيد، فتأكله سيوف الأوباش في ليلة رهيبة دامية، وتقذف جثته في العراء، ويراها الناس، فيشمتون بالصريع ويترحمون على الشيخ يعقوب، ثم يصيحون داهشين: ما أعجل الثأر لقد انصفت السماء.

وقد حدّث الشاعر البحتري عن هذه الحادثة فقال:

اجتمعنا ذات يوم في مجلس المتوكل فتذاكرنا السيوف. فقال بعض من حضر:

دفع لرجل من أهل البصرة سيف من الهند ليس له نظير، فأمر المتوكل بكتابة كتاب إلى عامل البصرة بشرائه مهما بلغ. . فنفد الكتاب.

قال البحتري: وبينما نحن عند المتوكل في ليلة أخري إذ دخل عليه عامله عبيد الله، والسيف معه، فسرُّ المتوكل به وانتضاه واستحسنه وجعله تحت ثني فراشه، فلما كانت الغداة ضنب من الفتح بن خاقان غلامًا يثق بنجدته وشجاعته، فجاءه [بباغر] التركي، فدفع إليه سيف وزاد له الرزق، ولم تمض الأيام حتى قتل المتوكل بذلك السيف من يد [باغر] المذكور قيامًا بغرض المنتصر!

فسبحان من بيده ملكوت السموات والأرض



مصادر:

- «علماء في وجه الطغيان» لمحمد رجب البيومي.
- «حماة الإسلام» لمصطفى نجيب.
- «سير أعلام النبلاء» للذهبي.

الإمام الحافظ/ أبو المعالي الحسيني

قال الذهبي في «سير أعلام النبلاء»: هو الإمام الحافظ المجود السيد الكبير، المرتضى، ذو الشرفين، أبو المعالي محمد بن محمد بن زيد بن علي العلوي، الحسيني البغدادي، نزيل سمرقند.

قال السمعاني: هو أفضل علوي في عصره، له المعرفة التامة بالحديث، وكان يرجع إلى عقل وافر ورأي صائب، برع بأبي بكر الخطيب في الحديث، رُزق حسن التصنيف، وسكن في آخر عمره سمرقند، ثم قدم بغداد، وأملى بها، وحدث بأصبهان، ثم رجع إلى سمرقند.

وقال أبو سعد السمعاني: وسمعت أبا المعالي محمد بن نصر الخطيب [وكان من أصحاب الشريف]، يقول: إن الشريف أنشأ بستانًا عظيمًا، فطلب صاحب ما وراء النهر الخاقان خضر أن يحضر دعوته في البستان، فقال الشريف للحاجب: لا سبيل إلى ذلك، فألح عليه، فقال: لكني لا أُحضر، ولا أُهيئ له آلة الفسق والفساد، ولا أعصي الله تعالى.

قال: فغضب الخاقان، واراد أن يقبض عليه، فاختفى عند وكيل له نحوًا من شهر، فنودي عليه في البلد، فلم يظفروا به، ثم أظهروا ندمًا على ما فعلوا ليطمئن، وألح عليه أهله في الظهور، فجلس على ما كان مدة، ثم إن الملك نفذ إليه ليشاوره في أمر، فلما حصل عنده، أخذه وسجنه، ثم استأصل أمواله وضياعه، فصبر وحمد الله، وقال: من يكون من أهل البيت لابد أن يُبتلى، وأنا ربيت في النعمة، وكنت أخاف أن يكون وقع في نسبي خلل، فلما جرى هذا، فرحت، وعلمت أن نسبي متصل.

قال لي أبو المعالي الخطيب: فسمعنا أنهم منعوه من الطعام حتى مات جوعًا، وهو من ذرية زين العابدين علي بن الحسين.

الشيخ/ شمس الدين الديروطي

هو من علماء الأزهر واعظ زاهد وكان جرئيًا في الحق، يتعفف عن عطاء السلطان، وكان يعيش من تجارته، توفي بدمياط سنة ٩٢١هـ، له كتاب القاموس في الفقه، وشرح منهاج النووي.

دخل الشيخ الديروطي في أحد الأيام مجلس السلطان الغوري [سلطان مصر بويع بالسلطنة بقلعة الجبل سنة ٩٠٥هـ، وظل يحكم مصر حتى هزمه السلطان العثماني سليم الأول سنه ٩٢٢هـ]، وبادر الشيخ بإلقاء تحية الإسلام على السلطان، ولم يرد السلطان التحية.

هذا الموقف أغضب الشيخ الديروطي الذي تربى في مدرسة الإسلام فقرر أن يلقن هذا السلطان المتعجرف الذي لم يرد التحية درسًا في آداب الإسلام يكون عبرة له ولغيره.

قال الديروطي للسلطان: إن لم ترد السلام فسقت وعزلت.

فقال السلطان: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

ثم أضاف: ياشيخ ديروطي لماذا تهاجمنا على ترك الجهاد، ومقاتلة الأعداء، وليس لنا مراكب نجاهد المعتدين عليها.

فقال الشيخ: هذه حجة واهية، فأنت لديك من المال الكثير، الذي يمكن أن تجهزها به، فلماذا لم تفعل؟

وطال بينهما النقاش، فقال الشيخ: لقد نسيت نعم الله عليك وقابلتها بالعصيان، أما تذكر حين كنت نصرانيًا ثم أسروك، وباعوك من يد إلى يد، ثم منَّ الله عليك بالحرية والإسلام، ورقاك إلى أن صرت سلطانًا على الناس، وعن قريب يأتيك المرض الذي لا ينجح فيه طبيب، ثم تموت، وتكفن، ويحفرون لك قبرًا مظلمًا، ثم يدسون أنفك هذا في التراب، ثم تُبعث عريان عطشان جوعان، ثم توقف بين يدي الحاكم العدل الذي لا يظلم مثقال ذرة، ثم ينادى المنادي: من كان له حق على الغوري فليحضر، فيحضر خلائق لا يعلم عدتها إلا الله.

فتغير وجه السلطان من وقع هذا الكلام عليه وكتم غضبه وغيظه، ولم يجد أمامه من حيلة سوى أن يحاول إسكات الشيخ بالمال والهدايا، اعتقادًا منه أن هذا الشيخ يُشترى بالمال.

عرض عليه مبلغًا من المال هو عشرة آلاف دينار يشتري بها سكوته وضمنه على مخازيه، وسلبه حرية الشعب وأمواله، وجبنه على مواجهة الأعداء.

ولكن هذا الشيخ الذي يجابه السلطان بكلمة الحق، محال أن تخدعه عروض الدنيا، أو يغريه بريق الذهب، فردها عليه قائلًا: أنا رجل ذو مال، ولا أحتاج إلى مساعدة أحد، ولكن إن كنت أنت محتاجًا لأجل الجهاد، ولأجل تجهيز الجيش للدفاع عن الإسلام، أقرضتك وصبرت عليك.

فبهت السلطان ولم يدر بما يقول، وهكذا أعز الله الشيخ بالحق، وأذل السلطان المتكبر الذي قهره الديروطي بتقواه وتعففه.

ويغزو السلطان العثماني البلاد ويستولى على مصر، ويذهب الغوري إلى قاع التاريخ غير مأسوف عليه، ويبقى الشيخ بورعه وزهده، وتمسكه بالحق يجهر به دائمًا في وجه كل سلطان فهو لا يخاف إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ويدخل السلطان سليم الأول مزهوًا بانتصاره إلى القاهرة، ذهب إلى القلعة مقر الحاكم، وجلس هناك مغرورًا، طلب القائد المنتصر من أعيان الأمة وعلمائها وقوادها أن يأتوا إلى القلعة لتقديم فروض الطاعة والولاء.

هرع الكثيرون إليه تزلفون، ينافقون، ويقدمون الولاء والطاعة كما يفعلون مع أي حاكم، ولكن الديروطي لم يفعل فعلهم، فقد تربى في مدرسة القرآن، وتشرب روح الإسلام ونهل من ينابيع الإيمان الحق، امتنع عن تلبية السلطان، أرسل إليه سليم الأول أحد قواده مع مجموعة من الجنود لعل الشيخ يخاف ويأتي معهم، ولكن الرجل الرباني يرفض ويصر على الرفض، فالعلماء لا يذهبون إلى الحكام، وهم يؤتى إليهم ولا يأتون.

اندهش السلطان من موقف هذا الشيخ، الذي يتحدى أوامره، فقرر أن يذهب إليه يرى مدى قوته، جاء سليم الأول وسط حاشيته وأركان حربه، وكأنه ذاهب إلى معركة حربية. فما وصل إلى دار الديروطي فلم يجد حراس أو أحد في انتظاره، أعلموا الشيخ بوصوله، فلم يخرج إليه، ولم ترهبه أبهة الملك وجلال السلطان، دخل سليم عليه داره، فسلم ورد الشيخ التحية، وسأله السلطان: لما لم تأت إلينا يا ديروطي؟

قال الشيخ المؤمن بهدوء: لم نتعود الخروج إلى أحد.

بعد صمت يقول سليم الأول: ولكنني أنا السلطان.

فيقول الشيخ: إنما الملك لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ونحن العلماء ورثة الأنبياء، يأتي إلينا الحاكم ولا نذهب إليه.

ويطول الصمت، ويشعر السلطان سليم الأول بضآلته أمام هذا الشيخ الذي ظل ثابتًا ساكنًا لم يرهب شيء.

فيقول السلطان: ياسيدي، ألك حاجة نقضيها لك، قبل أن نذهب إلى تركيا؟

ويرد الديروطي بكرامة وعزة وإباء: لسنا في حاجة إلا إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فلا يملك السلطان إلا أن يسلم ويذهب إلى دار الحكم، ومن خلفه حاشيته لا يصدقون أن يكون في مصر مثل هذا العالم الذي تحدى السلطان سليم الأول قاهر الجيوش والمماليك.

وقبل أن يعود سليم الأول إلى تركيا يوصي واليه على مصر أن يذهب إلى الشيخ الديروطي من حين لآخر يتفقد شئونه ويحقق مطالبه.

وفي إحدى الزيارات، وكان الوالي يستعد لزيارة السلطان في تركيا، يذهب الوالي إلى دار العالم الجليل ويقول له: إننا أزعمنا الرحيل إلى تركيا، ونحن مقربون إلى السلطان فهل من حاجة نقضيها لك من سلطان البلاد؟

ورغم تقدم سنه فلم يزل الديروطي على تقاه وورعه، وتمسكه بالحق فيقول: إننا مقربون إلى الله أكثر فهل لك أنت حاجة!!!

ما أجمل القول، وما أعظم الحجة.



المصادر:

- «مشايخ ضد السلطة والسلطان» لإسماعيل إبراهيم.

شيخ الأكراد/ الشهيد القاضي محمد

لم يكن اسم القاضي محمد رئيس جمهورية كردستان [التي سميت جزافًا جمهورية مهاباد] اسمًا لا يلفت النظر أولًا يثير الاهتمام، ولغرض التقليل من أهمية التجربة الوطنية الكردية التي تم إجهاضها بتعاون عدة أطراف دولية، يشار إلى الاسم المختصر لها المرتبط بمدينة مهاباد والحقيقة غير ذلك.

القاضي محمد من الشخصيات الكردية المثيرة للاهتمام حقًا فقد كان الرجل يتمتع بثقافة كبيرة إضافة إلى شخصيته الساحرة التي تولد المحبة والتعاطف مع من يقابله، ويتصف الرجل بعلميته وتبحره في أمور الشريعة والفقه الإسلامي والدين، وإتقانه اللغة العربية والتركية والفارسية والفرنسية والإلمام باللغة الإنكليزية والروسية، إضافة إلى لغته الأم الكردية.

ويتميز القاضي محمد ببساطة شخصيته وتواضعه وشجاعته وإيمانه العميق بحقوق شعبه في الحياة، وضرورة النضال من أجل تحقيق هذه الحقوق المشروعة، وبالرغم من انحدار القاضي محمد من أسرة متمكنة مادية وغنية في المنطقة، وساهم ذلك في أن يجعله مثقفًا ومتعلمًا من النوع المتميز بين أقرانه، إلا أن ذلك لم يدفعه ليكون مغرورًا أو مبتعدًا عن مهمات شعبه ونضاله من أجل تحقيق حلمه المشروع.

كان يتميز بعلاقاته المتميزة بين أوساط الفقراء والمعدمين، وبساطته في تلبية حاجاتهم ومساعدتهم في قضاء بعض أشغالهم ومصاعبهم وحل مشاكلهم، وكان كثير الاهتمام بشؤون الفقراء والبسطاء من الناس، وكان حريصًا على الاستماع إليهم والرد على أسئلتهم الدينية والمتعلقة بالشريعة، والقضاء، وفي جميع مناحي الحياة العامة بالنظر لما يتمتع به من خصال المعرفة وشمول الثقافة التي اكتسبها في حياته، كما كان يدعو إلى نشر التعليم، والثقافة بين

الكرد، والتمسك بمواصلة الدراسة، والتسلح بالعلم والمعرفة من اجل مواجهة الاضطهاد والظلم الذي كان يقع على هذا الشعب، إضافة إلى تشخيص المعاملات المزرية والمآسي والمظالم التي تقع على الكرد بسبب قوميتهم الكردية، وعدم تقبلهم التنكر لها أو تبديلها وفق رغبة السلطات الحاكمة التي كانت تمارس السياسات الشوفينية المقيتة ضدهم، والتنكر لمقوماتهم الثقافية والاجتماعية إضافة إلى السياسية.

وخلال سنوات حياته كان القاضي محمد متفهمًا للواقع المرير الذي تعيشه الجماهير الكردية متلمسًا معاناة الناس وإحساسهم بالغبن والتغييب الذي يقع على كامل القضية الكردية.

كان الشهيد القاضي محمد غالبًا ما يستذكر الانتفاضات الكردية التي حدثت ويتحدث عنها كثيرًا بين أوساط الفقراء والتي تحدث تأثيرها وانعكاسها عليهم في تأجيج مشاعرهم القومية والمشروعة لتكون نبراسًا يتذكر به الكرد تاريخهم، ولتكون مساهمة للأجيال القادمة قراءة تاريخ السفر النضالي للشعب الكردي، منها على سبيل المثال أحداث انتفاضة عام ١٦٢١م في قلعة دمدم، وانتفاضة الشيخ عبيد الله النهري في العام ١٨٨٠م، وكان يؤكد دومًا على ضرورة توثيق الروابط بين الكرد، وضرورة أن يضحي الكردي مهما عظمت تضحيته من أجل الهدف الأسمى وهو مصلحة ومستقبل الشعب الكردي، وجعل الإرادة والأهداف فوق المصالح، والغايات الشخصية في ظل الظروف التي يعيشها الكرد في الدول التي تتقاسم وجودهم بعد تعمد اللعبة الدولية على تقسيمهم وتقطيع أوصالهم، لغرض أضعاف قوتهم وتشتيت إرادتهم ووأد أحلامهم المشروعة.

وكان القاضي محمد يقلب صفحات التاريخ الكردي بدقة، ويستل منها ما يؤثر في نفوس الكرد، وتشير الكتابات التي وصلتنا عنه أنه كان مؤثرًا بشكل لا يوصف في منطقة مهاباد من كل الطبقات الكردية المنتشرة في المنطقة، ومن مختلف طبقات الشعب الكردي،

وكان تأثيره واضحًا في قيام حركات سياسية متميزة، وتجمعات ثورية وعشائرية، وصدور مجلات كردية تنشر أفكارها وسياستها في المنطقة، وتؤثر خارج منطقتها.

وبالرغم من سيطرة القيادات العشائرية على المجتمع الكردي وابتعاد هذه القيادات عن الدعوة الى النضال والكفاح من أجل تطلعات الأكراد المشروعة، وإبداء المقاومة من قبل الأغاوات والشيوخ بسبب عدم التفريط في مناهج استغلالهم للطبقات الفلاحية المعدمة، وعدم تقبلهم ذهنيًا مفاهيم ثورية كان يدعو لها القاضي محمد تحت شتى الحجج والغايات الدينية والعشائرية والاجتماعية المختلفة، فقد كان القاضي محمد على الدوام يكرس كل وقته وجل اهتمامه في مصلحة الأكراد، والتطلع نحو مستقبلهم، وحياتهم ليس في منطقة مهاباد فحسب، بل في مجمل المناطق التي تعيش بها المجتمعات الكردية.

وقد يكون موقع مدينة مهاباد وقربها من مناطق الحدود مع الاتحاد السوفيتي تأثير في تركيز القاضي محمد على المطالبة الشعبية لحقوق الكرد، بالنظر لما لمسه من تحقيق لحقوق القوميات والشعوب في الاتحاد السوفيتي الفتي والمجسد الجديد لحقوق الشعوب والنصير حينها لحركات الثورة والتمرد على الظلم والاضطهاد والاستغلال.

وانتشرت دعوة القاضي محمد بين الناس انتشارًا سريعًا مثل البرق، وتوسعت القاعدة الشعبية لأعضاء الحزب الديمقراطي الكردستاني في المدينة لتحتوى أغلب شبابها وشيوخها وحتى نسائها، وأمام حالة رد الفعل لما تقوم به السلطات القمعية والشوفينية تجاه الكرد، ومع وقوع حوادث سياسية وأمنية استفزت الجماهير الكردية لتنتفض برمتها على القوات الإيرانية، وتستطيع السيطرة على مجمل المناطق كاملة في يوم ١٧ كانون الأول ١٩٤٥م، حيث سطرت قوات البيش مركة الكردية أروع الملاحم، وقصص البطولة في التصدي والثبات حتى يصار الى تسمية هذا اليوم (بيوم البيش مركة).

وتحركت القيادات السياسية الكردية بما يتناسب مع الوضع الراهن، وسيطرت على الوضع وبدأت تحركات سياسية وتقسيمات عسكرية بعد دراسة الظروف الإقليمية والدولية التي كانت صعبة ومتشابكة للغاية بالنظر لمخلفات الحرب العالمية الثانية، والتقسيمات الدولية الجديدة وانقسام العالم إلى عدم معسكرات وتعدد المصالح فيما بينها.

وبتاريخ ٢٢/ ١/ ١٩٤٦م تم إعلان قيام جمهورية كردستان التي تأسست ضمن الظروف الشائكة التي ورد ذكرها، وأصبحت مدينة مهاباد عاصمة للجمهورية الفتية، وأصبحت قيادة الحزب الديمقراطي الكردستاني قائدًا لهذه الجمهورية.

وأمام العالم ووسط أكبر ساحة من ساحات العاصمة، تم انتخاب القاضي محمد كأول رئيس للجمهورية الكردستانية، وكان حاضرًا هذه الاحتفالات المهيبة وفود من جميع أطراف منطقة كردستان، وبعد أن ألقى الرئيس الجديد كلمته تم، ولأول مرة في التاريخ الكردي رفع العلم الكردستاني الذي يتشكل من اللون الأحمر والأصفر والأخضر، كما تم طرح البرنامج الكفاحي الشامل للجمهورية.

وقد تجسد الحلم المشروع في قيام دولة كردية على أرض كردية لشعب يتمتع بجميع مقومات الاستقلالية والدولة الحديثة دون أن يؤثر هذا على سيادة أو كيان أي دولة من الدول المحيطة بها، واعتبرت اللغة الكردية لغة رسمية يتعلم بها الشعب، وتلتزم بها الدوائر الرسمية وتم فتح المدارس وأنشأت الصحافة والمسارح، ودخلت المرأة في معترك الحياة الكردستانية الجديدة، وقامت علاقات تجارية مع دول الجوار وأهمها العلاقة مع الاتحاد السوفيتي.

وبدأت الجمهورية الفتية تلقى الدعم والتأييد المطلق من الجماهير الكردية، وتتقدم بخطوات ثابتة ومتينة من أجل رسم معالم مستقبل إنساني يستحقه الكرد، وأمام ما يبهر العالم من تجربة ثورية يقودها الشهيد القاضي محمد.

تداخلت المساومات السياسية مع خيوط اللعبة الدولية ليتم تخلي جميع الدول وانسحاب الجيش الأحمر من المناطق القريبة، وخلو الساحة إلى الجيش الإيراني الذي تفرغ للإجهاض على الجمهورية الكردستانية ليطبق عليها بأنيابه ومخالبه على رقبتها ومحاولة إسكات صوتها، وتقدمت جحافل الجيش الإيراني الجرارة بقوة تقدر بـ ١٢٠ ألف جندي مع كافة أنواع الأسلحة العسكرية المتطورة حينها لمواجهة شعب لم يكن يملك سوى إرادته وتصميمه على الكفاح.

وعلى مشارف الجمهورية كان يمكن للقاضي محمد أن ينسحب ويتوارى عن الأنظار، وكان ممكن له أن يتخلى عن مبادئه وأفكاره لينزوي في داره يتابع مطالعاته والتنعم بالحياة مع عائلته، وكان من الممكن أن يساوم العدوان الإيراني وكان وكان، ولكنه آثر البقاء لمواجهة القوة الإيرانية مسجلًا بذلك ليس صفحة شجاعة ومشرقة في سجله الشخصي والعائلي، إنما سجل صفحة أخرى من صفحات البطولة والإصرار على الثبات والدفاع عن الحقوق الكردية المشروعة.

وتم القبض على القاضي محمد مرفوع الرأس مبتسمًا بمهابة وإجلال وأقتيد إلى سجون الجيش الإيراني ليتم تقديمه إلى المحاكمة العسكرية الاستثنائية، وهو الرجل المدني الذي لم يخالف القوانين العسكرية، إلا أن شموله بحالة الطوارىء والحرب جعله يتقدم إلى هذه المحاكمة بدفاع ليس عن نفسه إنما عن قضية الشعب الكردي، وعن القضية الكردية يفحم بها قضاة المحكمة مفندًا جميع الاتهامات الموجهة له، ويصر في النهاية على مواصلة طريق الكفاح من أجل قضية الشعب الكردي عمومًا ودون استثناء.

وكان من الطبيعي أن يصدر الحكم بالموت على البطل الأسطوري والفقيه الزاهد والمتعبد القاضي محمد لأن الحكم كان معد سلفًا، والذي تلقاه القاضي برباطة جأش، وثقة

عالية بالقدر، والمصير المحتوم وبشجاعة تنم عن ثقته بنفسه وبشعبه، وبما يشكله موته من فائدة كبيره لشعبه الذي يعاني من الاضطهاد والحرمان والظلم.

وفي يوم ٣٠ مارس ١٩٤٧م أقتيد البطل إلى نفس الساحة التي شهدت قيام الجمهورية الكردستانية [ساحة القناديل الأربعة]، وفي فجر ذلك اليوم البائس بعد أن أدى صلاة الفجر تم إعدام الشهيد القاضي محمد ليسجل اسمه خالدًا مع رفاقه بين أسماء الشهداء الخالدين، وبين أسماء المدافعين عن قضايا شعوبهم وعن حق الإنسان في الحياة الكريمة.

رحل الشهيد القاضي محمد وبقيت روحه ترفرف فوق ثرى كردستان يشير لنا أن نسمي الأشياء بأسمائها ويحلفنا بضمائرنا أن الجمهورية كانت تدعى [جمهورية كردستان] وكانت [مهاباد عاصمة لهذه الجمهورية]، ولم يكن اسمها قطعًا جمهورية مهاباد.

وبالرغم من تخيل الأعداء أن الصوت الكردي استكان وسكت عن المطالبة بحقوقه المشروعة إلا أن الشعب الكردي واصل نضاله وكفاحه لنيل حريته، وتحقيق تطلعاته الإنسانية مقدمًا التضحيات الجسام والشهداء.

وهكذا بقيت الإشارة المضيئة في التاريخ الإنساني تتحدث مليًا عن الرموز التي رحلت تحمل معها إيمانها بعقيدتها ومبادئها، غير أنها باقية في ضمير الشعوب كرمز من رموز الانحياز ضد قوى الباطل والظلم إلى جانب الشعوب المستضعفة والمنكوبة، ويصير الشهيد الخالد القاضي محمد بمواقفه وشجاعته وصبره، وأحلامه التي حولها إلى واقع، والتي أبقاها مأثرة حية في ضمير من بعده، وكتب بروحه حقوقًا للأكراد يجب أن لا يتم حجبها أو نسيانها، لأنها حقوق إنسانية أولًا ومشروعة ثانيًا، وقد حل العصر الذي لا ينكرها ثالثًا، وهي من الحقوق التي تدعو لها الشعوب في حق تقرير المصير ثالثًا.

المصادر:

- موقع علماء الإسلام»

- موقع الشبكة الإسلامية.

الإمام الشيخ/ ابن أبي الطيب

قال الذهبي في «السير»: هو الإمام العلامة، المفسِّر الأوحد، أبو الحسن علي بن أبي الطيب، عبد الله بن أحمد النيسابوري.

له تفسير في ثلاثين مجلدًا، وآخر في عشرة، وضعه في ثلاث مجلدات، وكان يملي ذلك من حفظه، وما خلف من الكتب سوى أربع مجلدات، إلا أنه كان آية في الحفظ، مع الورع والعبادة.

قيل: إنه حُمل إلى السلطان محمود بن سبكتكين ليسمع وعظه، فلما دخل جلس بلا إذنٍ، وأخذ في رواية حديث بلا أمر، فتنمَّر له السلطان، وأمر غلامًا، فلكمه لكمة أطرشته، فعرَّفه بعض الحاضرين منزلته في الدين والعلم، فاعتذر إليه، وأمر له بمال، فامتنع، فقال: يا شيخ! إن للملك صولة وهو محتاج إلى السياسة، ورأيت أنك تعديت الواجب، فاجعلني في حِلٍّ!

قال: الله بيننا بالمرصاد، وإنما أحضرتني للوعظ، وسماع أحاديث الرسول ﷺ وللخشوع، لا لإقامة قوانين الرئاسة، فخجل الملك واعتنقه.

هكذا ينتصر الحق ويثبت ورثة الأنبياء على هذا الحق في أصعب اللحظات وأدقها والفاصلة لأي إنسان، لكنه شموخ العزة بالدين في نفس هذا العالم فيصغر معها أي منصب أو سلطان أو ملك . فرحم الله الشيخ الجليل الذي احتمى بالدين ورفض الانحياز للرياسة ودروب الملوك.



المصادر:

- «سير أعلام النبلاء» للذهبي.



الشيخ/ آق شمس الدين

كان السلطان [محمد الفاتح] يُكِنُّ لأستاذه الشيخ [آق شمس الدين] مشاعر الحب، والإجلال، والتوقير، ويزوره على الدوام، حيث يستمع لأحاديثه ونصائحه، ويستفيد من علمه الغزير.

وكان أستاذه هذا مهيبًا لا يخشى سوى الله، لذا فإنه عند قدوم السلطان [محمد الفاتح] لزيارته، لا يقوم له من مجلسه، ولا يقف له. أما عند زيارته للسلطان [محمد الفاتح] فقد كان السلطان يقوم له من مجلسه توقيرًا له، واحترامًا ويجلسه بجانبه.

وقد لاحظ ذلك وزراء السلطان وحاشيته، لذا لم يملك الصدر الأعظم [محمود باشا] من إبداء دهشته للسلطان فقال له: لا أدري يا سلطاني العظيم، لِمَ تقوم للشيخ [آق شمس الدين] عند زيارته لك من دون سائر العلماء والشيوخ، في الوقت الذي لا يقوم لك تعظيمًا عند زيارتك له؟!.

فأجابه السلطان: أنا أيضًا لا أدري السبب ... ولكني عندما أراه مقبلًا علي، لا أملك نفسي من القيام له ... أما سائر العلماء والشيوخ، فإني أراهم يرتجفون من حضوري، وتتلعثم ألسنتهم عندما يتحدثون معي، في الوقت الذي أجد نفسي أتلعثم عند محادثتي الشيخ [آق شمس الدين].

وفي فتح القسطنطينية أراد السلطان أن يكون شيخه بجانبه أثناء الهجوم فأرسل إليه يستدعيه، لكن الشيخ كان قد طلب ألا يدخل عليه أحد الخيمة ومنع حراس الخيمة رسول السلطان من الدخول، وغضب محمد الفاتح وذهب بنفسه إلى خيمة الشيخ ليستدعيه، فمنع الحراس السلطان من دخول الخيمة بناءً على أمر الشيخ، فأخذ الفاتح خنجره وشق جدار الخيمة في جانب من جوانبها ونظر إلى الداخل فإذا شيخه ساجدًا لله في سجدة طويلة وعمامته

متدحرجة من على رأسه وشعر رأسه الأبيض يتدلى على الأرض، ولحيته البيضاء تنعكس مع شعره كالنور، ثم رأى السلطان شيخه يقوم من سجدته والدموع تنحدر على خديه، فقد كان يناجي ربه ويدعوه بإنزال النصر ويسأله النصر ويسأله الفتح القريب.

وعاد السلطان [محمد الفاتح] عقب ذلك إلى مقر قيادته ونظر إلى الأسوار المحاصرة فإذا بالجنود العثمانيين وقد أحدثوا ثغرات بالسور تدفق منها الجنود إلى القسطنطينية، ففرح السلطان بذلك وقال: ليس فرحي لفتح المدينة إنما فرحي بوجود مثل هذا الرجل في زمني.

وذكر الإمام الشوكاني صاحب «البدر الطالع» أنه « بعد يوم - من الفتح- جاء السلطان إلى خيمة [آق شمس الدين] وهو مضطجع فلم يقم له، فقبل السلطان يده وقال له: جئتك لحاجة، قال: وما هي؟ قال: أن أدخل الخلوة عندك، فأبى، فأبرم عليه السلطان مرارًا وهو يقول: لا. فغضب السلطان وقال: إنه يأتي إليك واحد من الأتراك فتدخله الخلوة بكلمة واحدة وأنا تأبى عليَّ، فقال الشيخ: إنك إذا دخلت الخلوة تجد لذة تسقط عندها السلطنة من عينيك فتختل أمورها فيمقت الله علينا ذلك، والغرض من الخلوة تحصيل العدالة، فعليك أن تفعل كذا وكذا - وذكر له شيئًا من النصائح- ثم أرسل إليه ألف دينار فلم يقبل، ولما خرج السلطان محمد خان قال لبعض من معه: ما قام الشيخ لي. فقال له: لعله شاهد فيك من الزهو بسبب هذا الفتح الذي لم يتيسر مثله للسلاطين العظام، فأراد بذلك أن يدفع عنك بعض الزهو».

هكذا يكون شموخ الإسلام يتجلى في موقف هذا العالم الجليل ....

المصادر:

- «روائع من التاريخ العثماني» لأورخان محمد علي ص[٤٧].
- «الدولة العثمانية» للدكتور/ محمد علي الصلابي ص[١٨٥].



الشيخ/ حسن العدوي

وقر في قلب وعقل الشيخ منذ أن أخذ العهد على أيدي شيوخه ومعلميه أن العلماء ورثة الأنبياء ماداموا على الحق وماداموا يعملون به ويدعون الناس إليه، ولم يكن يؤمن بذلك قولًا فقط، وإنما كان يبدأ بنفسه، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

وفي عهد الخديوي إسماعيل الذي أراد أن يجعل مصر قطعة من أوروبا ورغم نياته الحسنة، لف الأوربيون حبل الديون حول رقبته فغرق وأغرق مصر معه.

في هذا العهد زار السلطان العثماني عبدُ العزيز مصرَ، وكان إسماعيل حفيًا بالزيارة؛ لأنها كانت جزءًا من برنامجه لتأكيد سلطانه وتوكيد صلته بأولي الأمر في تركيا، وزاد في الحفاوة والتكريم أملًا منه في الحصول على لقب خديوي إضافة إلى عدة امتيازات كان يطمع في الحصول عليها من السلطان لتمكّن له الاستقرار في حكم مصر.

وحتى يبين إسماعيل للسلطان عبد العزيز أنه يستحق أن ينعم عليه السلطان بكل ما يريده، لأن الشعب بكل طبقاته يدين بالولاء ويحب إسماعيل حتى طبقة العلماء التي كان يخشى جانبها دائمًا، من أجل ذلك تضمن برنامج الزيارة أن يستقبل الخليفة العلماء في السراي.

ولما كانت للمقابلة السنية تقاليد منها أن ينحني الداخل إلى الأرض وغير ذلك من التقاليد السخيفة المنافية لروح الإسلام الحنيف التي تجعل السجود والركوع لله سبحانه وتعالى فقط، فلا انحناء إلا لواهب الموت والحياة.

وكان حتمًا على رجال السراي أن يدربوا العلماء على طريقة المقابلة عدة أيام؛ كي لا يخطئوا في حضرة السلطان حتى لا يغضبوه ويكون في حالة مزاجية ونشوة وسرور تجعله ينعم على حاكم البلاد باللقب الذي يطمح ويطمع في الحصول عليه.

وعندما حان الموعد دخل السادة العلماء الأجلاء على السلطان، كان منهم من نسي دينه واشترى به دنياه طمعًا في رضاء السلطان (وما أكثرهم في كل زمان ومكان)، وانحنوا أمام مخلوق مثلهم تلك الانحناءات التي تقلل من قدر أي إنسان فما بالك بورثة الأنبياء.

وبعد اللقاء خرجوا بظهورهم موجهين وجوههم إلى الخليفة العثماني كما أمرهم رجال التشريفات إلا عالمًا واحدًا هو الشيخ حسن العدوي الذي ذكر دينه ونسي دنياه واستحضر في قلبه أن لا عزة إلا لله ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، ودخل مرفوع الرأس في كرامة وإباء كما ينبغي أن يدخل الرجال الأحرار وواجه الخليفة بتحية الإسلام: السلام عليكم يا أمير المؤمنين. فرد عليه الخليفة التحية.

ولم يفوِّت عالم الدين الفرصة، فربما لا يتمكن من رؤية الخليفة مرة أخرى، وهو يعلم أنه الرأس المدبر لكل ما يدور في السلطنة، ووراء كل ما يحدث للمسلمين، ورسالته كعالم دين توجب عليه أن يؤدي واجبه تجاه هذا الحاكم وتجاه رعيته.

وابتدر الخليفة بالنصيحة التي ينبغي أن يتلقى بها العالمُ الحاكمَ، دعاه إلى تقوى الله والخوف من عذابه والعدل والرحمة بين رعاياه، فلما انتهى سلم وخرج مرفوع الرأس معطيًا ظهره للخليفة وإسماعيل وحاشيته.

وأُسْقط في يد الخديوي ورجال السراي وأُصيبوا بالخوف والفزع من رد فعل السلطان بعد هذا التصرف المرفوض - من وجهة نظرهم - من جانب الشيخ العدوي، الذي لم يلتزم بطريقة المقابلة التي رتبها السراي، وظنوا أن الأمر كله قد انقلب عليهم وأن السلطان لابد غاضب فضاعت تلك الجهود التي بذلوا والآمال التي نسجوا.

ولكن كلمة الحق المؤمنة لا تذهب سُدىً والكرامة لا تأتي أبدًا إلا بالخير، فالكلمة المؤمنة لابد أن تُصدع القلوب قويةً حارةً كما تنبعث من مكمنها قوية حارة، وهكذا كان فقد

أكبر السلطانُ هذا السلوك الحميد من الشيخ العدوي الذي لم يُهِنْ دينه ولم تهن كرامته وقام بواجبه.

قال السلطان موجهًا حديثه إلى إسماعيل باشا: ليس عندكم إلا هذا العالم التقي الورع، العارف لوظيفة العلماء وواجبهم تجاه السلطان والرعية، وخلع عليه بهدية دون سواه.

وتمضي الأيام ويخلف الخديوي توفيق والده إسماعيل الذي عزله السلطان، وإن كان توفيق قد بدأ عهده ببعض الإصلاحات التي أراد من خلالها أن يخفف المعاناة عن الشعب، ويجمع حوله النخبة منه، فإن موقفه من التدخل الإنجليزي في شئون البلاد وترك أمور الجيش في أيدي الشراكسة، وقصر الترقي عليهم أغضب العسكريين المصريين ومعهم الوطنيين الغيورين على بلدهم، وكان في مقدمتهم العَلَم الكبير حسن العدوي الذي كان رغم تقدم العمر به ما يزال على العهد والاقتناع الكامل بأن أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر كما قال الرسول ﷺ.

فما أن قدم الضباط المصريون شكواهم إلى الخديوي توفيق بتحسين أحوال الجيش حتى دب الخلاف بينهم وبين الخديوي الذي رغم إذعانه لطلباتهم وفتح باب الترقيات أمامهم وتكوين مجلس نواب وتشكيل وزارة وطنية برئاسة محمود سامي البارودي، وكان عرابي وزيرًا للحربية فيها، إلا أنه وبمشورة الإنجليز انقلب ضد الضباط، وجرت محاولة لتصفية عرابي وأتباعه ثم تطورت الأمور إلى نزول الإنجليز بالإسكندرية.

في هذه الأوقات العصيبة من تاريخ الوطن تُعرف أقدار الرجال، وهنا هب الشيخ العدوي مشاركًا في صفوف الثائرين يجمع الكلمة ويوحد الرأي المؤيد للقوى الوطنية.

وعندما غالى الخديوي في مواقفه الموالية للإنجليز والمحبطة للوطنيين والمجاهدين لم يتوانَ الشيخ عن الإفتاء بأن الخديوي بتصرفاته هذه يكون خارج عن الإسلام، وبالتالي لابد

من عزله عن حكم البلاد وذيَّل هذه الفتوى هو والشيخين محمد عليش ومحمد الخلفاوي من علماء الأزهر، وأصر الثلاثة على نشر وإذاعة هذه الفتوى بين الناس، رغم ما فيها من تحدٍّ لقوى المؤيدة للخديوي دون خوف أو رهبة.

فلما حلت الهزيمة وقبض على عرابي والعرابيين كان الشيح العدوي واحدًا من الذين قُدِّموا للمحاكمة التي كانت مؤلفة من لفيف من الباشوات ومن رجال الخديوي وعدد من الإنجليز.

أمام المحكمة وقف الشيخ العدوي الذي قارب سن الثمانين في مهابة وإجلال لم يتطرق الخوف إلى قلبه، كان ثابت الجنان فقد أقدم على ما أقدم عليه وهو لا يبغى إلا نصرة الحق مهما كانت النتائج.

سأله رئيس المحكمة بصوت غليظ جافٍ: هل وقعت باسمك أو خُتم بخاتمك قرارًا يقضي أن أفندينا المعظم سمو الخديوي توفيق باشا يستحق العزل؛ لأنه مارق عن الدين ويتعاون مع الإنجليز أعداء البلاد؟

وإذا بالشيخ الطاعن في السن يستعيد حمية الشباب وحماسته، فنظر إلى رئيس المحكمة نظرة حادة ثابتة وهو يتكئ بذراعيه على منضدة أمامه، وقال: أيها الباشا! إنني قد وقعتها، ولكنني أقول لك ما يأتي: إنه إذا أحضرت لي الآن ورقة تحتوي على مثل هذا المعنى الذي ذكرته فإنني لن أتأخر عن توقيعها باسمي، وأختمها بخاتمي في حضورك الآن أيها الباشا!

ونظر الشيخ إلى أعضاء المحكمة قائلا: إذا كنتم مسلمين فهل تستطيعون أن تنكروا أن توفيق باشا قد خان بلاده وذهب إلى الإنجليز وانضم إليهم، ولم يعد جديرًا بأن يكون حاكمًا لنا؟

واصفر وجه الباشا رئيس المحكمة الذي كان يظن أنه يخيف المحكومين، وأن بالشيخ رهبة من العقاب الذي ينتظره يمكن أن يتراجع أو يُنكر ما حدث منه، ولكنه أمام شجاعة

الشيخ المسن لم ينطق بكلمة واحدة يرد بها على هذا العالم الشجاع الجريء، وأومأ إلى حراس المحكمة أن يأخذوه ويخرجوا به من قاعة المحكمة، ثم نقلوه إلى قريته واعتقلوه فيها.

هكذا كان شيوخ الأمس، فهم ملح الأمة، وشتان بينهم وبين شيوخ اليوم الذين قال فيهم الشاعر:

يَا عُلمـاءَ الأمَّـةِ يا ملـحَ البلدْ مَاذا يُصلحُ الملحَ إذا المِلْحُ فَسَدْ



المصادر:

- «مشايخ ضد السلطة والسلطان» لإسماعيل إبراهيم.
- «زهر البساتين من مواقف العلماء الربانيين» للدكتور سيد العفاني (١/ ٤٨٣).
- «الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزي» لعبد الرحمن الرافعي.

الشيخ/ زكريا الأنصاري

لم يكن قانصوه الغوري - وقد شارف الستين من عمره- يظن أنه سيصبح سلطان البلاد، تسلم له القيادة عن رهب وامتثال، فالرجل قليل الحول، ضعيف الأتباع، وهناك من الأمراء الأفذاذ من يجمعون حولهم الحشود والعدد، ليفوز أعظمهم خطرًا بسلطة الديار، فالتزاحم على أشده بين ذوي القوة من مماليك الجركس، وماذا عسى أن يصنع شيخ كبير لا يقاس حوله بأقل المتنافسين خطرًا ومهابة، ولكن هذا الحول الضعيف كان عامل الترجيح في اختيار الغوري، لأن المتزاحمين الأشاوس قد تعادلت بهم القوى في كفة واحدة، ولم يستطع أحدهم أن يميل ببعض الضغط إلى كفته، فاتفقوا على تولية الغوري كحلٍّ مؤقت للصراع الملتهب، فالرجل شيخ مسن لا يظن أن الزمن سيتنفس بعمره غير مدى محدود! وفي مكنة كل أمير أن ينتهز بقاءه المحدود فرصة مواتية ليحصن قلاعه، ويميل بمركز الثقل إلى جانبه، لذلك فوجئ الغوري ذات يوم مفاجأة صعبة، حين تقدم إليه الأميران الخطيران [مصر باي] و[وقيت الرحبي] وهما أبرز المتصارعين جميعًا على السلطنة، يطلبان منه أن يلي العرش عن سماحة واقتناع، وارتعد الغوري وتخاذل، إذ أنه يعرف أن هذا المنصب الخطير محاط بالمؤامرات والدسائس، وهو بعدُ قليلُ النصيرِ والحولِ، فلا يعدم من يثور عليه فجأة، فيسيل دمه هدرًا دون موجب، وقد عاش بعيدًا عن هذه المؤامرات المملوكية طيلة حياته، فلماذا يقف في مهب العاصفة بعد الستين؟

وطال امتناع الرجل وتأبيه، حتى التهبت حماسة الحاضرين، فأقسموا على المصاحف أن يطيعوا السلطان، وألا يفكر أحدهم في التآمر والاغتيال، وبكى الغوري طويلًا وهو يرتدي الجبة البنفسجية والعمامة السوداء مما يسمونه شعار السلطنة، ثم يركب فرسه الأصيل ومن فوقه المظلة السلطانية ذات الطيور الفضية يحملها في ركابه الأمير وقيت الرحبي نفسه! وسار الموكب السلطاني، وفي نفس الغوري خواطر وشجون!

وقد أظهرت الأيام أن تباكي الغوري كان خديعة ماكرة يعرف بها من أين تؤكل الكتف، فقد عمد إلى مسلك حاذق يوطد به دعائمه، إذ أوهم كلًا من مصر باي ووقيت الرحبي أنه يمهد لسلطانه.

وأخذ يخلو بكليهما خلوات مغرضة حيث يملي لهما في الأماني، ويخلق من الحيل ما يخدم سياسته، حتى أوهم وقيت الرحبي أنه بسبيل التخلص من مصر باي لأجل خاطره، فمال المخدوع إلى طلائه وساعد على استئصال شأفه غريمه، وإذ ذاك أخذ الغوري يلوذ بأتباع مصر باي، مستعينًا بهم في الخفاء على وقيت الرحبي حتى تم له التخلص منه أيضًا! وأصبح سيد الموقف دون شريك.

نمى إلى صاحب الحجاب - وكان يقوم بمهمة مدير الأمن في المحافظة - أن رجلًا من الناس يأتي بيت صديقه في غيبته وأنه على صلة منكرة بزوجته، فأخذ الحاجب للأمر أهبته وراقب المنزل حتى داهم الصديق مع معشوقته، ومازال بهما ضربًا وتبريحًا حتى أقرا بالفاحشة، وإذ ذاك حُمِلا معًا على حمارين وطيف بهما في ملأ من الصبية والرعاع لتعلن فضيحتهما على الناس، جريًا على المألوف من تقاليد هذا العصر، ثم فرضت عليهما غرامة فادحة قاما بأدائها في أسف نادم وخزي شنيع، وكان من الميسور أن ينتهي الموقف دون أن يعقب صداه في دائرة السلطان!

ولكن بعض الذين يحبون أن تشيع أصداء الفاحشة في كل مجلس! حتى في مجلس الغوري نفسه! قد نقل الحادث إلى الغوري، وهو بعد ليس غريبًا عن سمعه، فقد رأى أمثاله في عمره المتطاول، ولكن الناقل المغِرض أردف ذلك بأنه يأمل أن يصدر السلطان أمره برجم المذنبين، فيكون أول من أحيا شريعة الإسلام من المماليك! وقد راقت الفكرة لدى الغورى، فحوَّل المسألة إلى القضاء، وطلب أن يصدر قرار الرجم سريعًا لتقوم به الدولة على ملأ مشهود يحضره السلطان!!

طار النبأ إلى الرجل المسكين، فأشار عليه بعض ناصحيه أن يعدل عن إقراره؛ لأنه اعترف بالزنا تحت سياط الحاكم، والرجوع عن الإقرار حتى ولو لم يكن مع الإكراه، بل لدى الاختيار الكامل؛ يمنع الحد كما أجمع عليه العلماء، وهم بصدد ذلك نصوص وأقيسة ووقائع لا تقبل التأويل.

وقد أثمرت النصيحة ثمرتها، فرجع الرجل عن إقراره، وكتب صاحبه فتوى طاف بها على العلماء بهذا الشأن، فأجابوا جميعًا بتوقيعاتهم الواضحة، وأعلنوا أن الرجوع عن الإقرار يُسْقِط حد الزنا دون نزاع!

وكان من الطبيعي أن ينتهي الأمر للسلطان، ولو كان ذا بصر فقهي لأدرك مغزى الشارع العادل في هذا الحكم الصائن، ولعرف ما رُوِي عن ماعز وغيره ممن راودهم الرسول على الإنكار، مؤكدًا أن مجرد الرجوع يمنع الحد!!

فالإسلام لا يريد اشتهار الفاحشة، بل يحاصرها في مكانها الضيق بعد أن يتعقبها تعقُّب الحريص الدءوب، فإذا حدثت نزوة طائشة من بعض المتهورين كان من الصون للجماعة الإسلامية بأجمعها أن تدرأ الحدود بالشبهات فلا تفاجأ أمة القرآن كل حين بمرجومة ومرجوم، وفي التعزير ما يكفي للتأنيب والردع!

ولو كان الغوري ذا إلمام بنصوص الشرع ما ارتكب الشطط حين صمم على الرجم، ودعا القضاة والعلماء لمناقشة الموضوع في مجلس خطير تصدَّره السلطان!! واكتنفته الأسنة والحراب.

كان العلماء على بينة مما يحاك، فأجمعوا أمرهم على أن يقولوا كلمة الحق دون مبالاة، وكان شيخهم الأكبر زكريا الأنصاري عضدهم في حومة الجدال، وثقوا في همته واطمأنوا إلى مؤازرته، فله من المكانة في بلاد الإسلام، والرسوخ في علم الشريعة، والأستاذية لمن تلاه من

الشيوخ، والمؤلفات الذائعة في شتى العلوم مع ما اشتهر عنه من النزاهة البريئة في القضاء والسيرة العاطرة في الناس، والسعي الدائب في الإصلاح، له من ذلك كله ما لا يستطيع السلطان أن يعصف به في مجلس علمي يعتمد على الحجة ويلوذ بالدليل.

والحق أن رأي شيخ الإسلام زكريا الأنصاري في هذه القضية مما يصعب على الغوري أن يهجنه ببعض التحامل أو الادعاء، فقد أجمع من كتبوا سيرة الشيخ الأكبر على ثنائه وتقديمه، إلا كلمات خطها السخاوي في «ضوئه اللامع»، وهي من التناقض والتأرجح بين الحمد والمؤاخذة بحيث تكون في مجموعها حجة لشيخ الإسلام، وأيٌّ سَلِمَ من السخاوي حتى يسلم منه الأنصاري على جلاله وبُعْد مرقاه! لقد ادخر الحق لخذلان الغوري سهامًا صائبة، وقد فتح لها صدره في غطرسة كاذبة حين دعا العلماء إلى النقاش وفي مقدمتهم شيخ الإسلام.

كان المجلس رهيبًا رائعًا، وقد شاء السلطان أن يوجه كلامه لزكريا الأنصاري بادئ ذي بدء بعد أن نظر في غضب إلى من حوله من العلماء، فصاح في غضب: كيف يا شيخ زكريا يضبط رجل في منزل صاحبه مع عشيقته ويقر بالجريمة ثم يتراجع فتقرون أنتم بالرجوع!

فسكت الشيخ قليلًا، فقال أحد تلاميذه من القضاة في اعتداد: للمعترف بالزنا أن يرجع عن اعترافه، وقد كان رسول الله ﷺ يراجع المعترفين فيقول لأحدهم: لعلك كذا ولعلك كذا، ليفسح له السبيل.

فاحمر وجه الغوري وتوقدت عيناه من الغيظ وصرخ يقول: أنا ولي الأمر، لي الحق في إصدار الحكم بالرجم، وليس لكم أن تقفوا أمامي باسم الدين.

فانبرى قاضٍ متحمس يقول: نعم لك الحق أن تصدر الحكم إذا كان متفقًا مع الشرع الكريم، فإذا أصررت على رجم المتهمينِ فأنت مذنب وعليك ديتهما.

ارتج المجلس الحاشد إثر هذه العبارة، ارتجاجًا عنيفًا، فأظهر بعض أمراء المماليك كلمات نابية منكرة، وتطور أحمقهم فسحب العالم من ثيابه وأجبره على الخروج، أما السلطان فقد وقف مغيظًا يضرب الأرض بقدمه، ولوح بسيفه مهددًا متوعدًا، وقد ندت منه عبارات ما كانت تصدر من شيخ محنك كبير، ثم التفت إلى الشيخ زكريا وصاح: وأنت ياشيخ الإسلام! ما تقول؟

فرد زكريا الأنصاري، وكان قد جاوز التسعين لكنه احتفظ بقسوة الأداء وارتفاع الصوت، وكأن الحق أعاد إليه شباب حنجرته، فقال: إن الرجوع بعد الاعتراف يُسْقِط الحد، وجمهور الأئمة على ذلك، وفي مقدمتهم صاحب المذهب رضي الله عنه

فأظهر السلطان استهزاءه وصاح متهكمًا: هل هذا ما ترضيه ذمتك يا شيخ الإسلام؟

فرد الشيخ زكريا الأنصاري يقول في لباقة: ليس هذا ما ترتضيه ذمتي وحدي، ولكنه ما ارتضته ذمة ساكن مصر الإمام الشافعي! صاحب المذهب، وذمته الشريفة لا تقبل التجريح بحال!

فزاد غضب الغوري ورد متعجلًا: أنت شيخ قد كبرت وضعف عقلك، أما أنتم أيها القضاة فلا أحب أن أراكم بعد الآن، وقد عزلتكم جميعًا عن القضاء!

وخرج السلطان مزبدًا سابًا لاغبًا، فانفض المجلس أسوأ انفضاض!! ثم هتف الغوري ببعض أعوانه فأصدر أمره بمصادرة أموال البعض، ونفي البعض الآخر إلى الواحات، وضُرب نائب مذهب الشافعي الشيخ الزنكلوني مع أولاده بالعصا، حتى كادوا يموتون؛ لأنه في اعتقاد السلطان قد هيأ للمتهم سبيل الرجوع عن الاعتراف، وبذلك أمكن القضاء من معارضته على رؤوس الأشهاد.

أما المتهمان فقد صدر الأمر بشنقهما علنًا وتعليق جثتيهما يومين كاملين، ليرى الناس في مصر قلة حيلة القضاة، وهل استطاعوا أن ينتصروا على السلطان!

هذا وقد لبث الشعب المصري يتحدث زمنًا غير قصير عن هذه المشادة المحرجة، فأذاعت الجماهير مختلف النكات عن الغوري، وأخذت تتحدث عنه بنبرات فيها من أساليب التورية والفكاهة، وكان كل ذلك يصل إلى السلطان فيزيد من أزمته النفسية، ولكنه لا يستطيع أن يتخذ إجراء رادعًا؛ لأن الكلام ذو وجهين، ومحاولة التحقيق فيه مما يثبت الوجه المذموم في الأسماع، فيعظم تداوله، ويساعد السلطان بذلك على إذاعة ذمه، فيحقق ما يبتغي مناوئوه.

بنى مسجده الشهير بالغورية، وأنفق من الأموال المصادرة في تشييده وزركشته ما كان موضع حديث الناس، وقد سئل عن جدواه فقيه ممن اضطهدهم السلطان، فقال في ملإ من الناس: إنه المسجد الحرام! فضج الجمهور بالتصفيق، وطار النبأ إلى الغوري، فانفجر غيظًا، وأمر بإحضار الفقيه ليؤاخذه على قولته، وكان المتهم لبقًا، فقال في ثبات: أردت أنه شبيه بالمسجد الحرام في مكة، وعلى الناس أن يخصوه بالتعظيم والإجلال، فهز الغوري رأسه وقال في ضيق: لقد أردت شيئًا آخر أيها الخبيث!

فنظر الفقيه في شجاعة وقال: لماذا يحاول السلطان أن يحرف كلام الناس؟

فكظم الغوري غيظه وصاح به: لا أريد أن أرى وجهك بعد الآن.

ومضت الأيام فإذا حادثة القضاة مفخرة باهرة تُسجَّل في كفاح العلماء فتصبح مثلًا خُلُقيًا في الاعتداد بالحق ومجابهة الطغيان.

المصادر:

- «زهر البساتين من مواقف العلماء الربانيين» للدكتور سيد العفاني (١/ ٤٧٢).
- «الضوء اللامع» (٣/ ٢٣٤).
- «بدائع الزهور» (٣/ ١٢١٠).

الشيخ/ صادق الحنفي

كان الشيخ صادق الحنفي إمامًا كاملًا، وعالمًا عاملًا، متمسكًا بدينه، لا يخشى سطوة أمير مكابر، ولا إمام جائر، صدَّاعًا في قوله، معتمدًا على الله في قوته وحوله، لا يميل مع نفسه إلى ملائم، ولا تأخذه في الله لومة لائم.

في سنة بضع وثمانين بعد المائتين والألف حضر لدار السلطنة العلية وعاصمة الأمة الإسلامية، في أيام خلافة السلطان عبد العزيز خان، وكان دخول الشيخ صادق أوائل رمضان، فكان يقرأ درس الوعظ بأيا صوفيا إلى اليوم السابع والعشرين، وقد جرت العادة أن السلطان في ذلك اليوم يدور على الدروس، فمتى أتى لدرس يختم المدرس الكلام ويدعو للسلطان، فما زال السلطان يجري العادة ومعه وكلاء الدولة العظام، وشيخ المسلمين والإسلام، إلى أن وصل لدرس الشيخ صادق، فلم يُجر العادة من الختم في الحال والدعاء، بل التفت إلى الوكلاء، وخاطبهم بكونهم أدخلوا على السلطان الغرور، وأبطلوا الشريعة، وارتكبوا سفاسف الأمور، ونكسوا الحق في هذا المقام، والسلطان صاغٍ إليه، فحقد الوكلاء عليه، فبعد أن ختم ذهب، وقد أضمروا له كل عطب، ثم بعد ذلك اجتمعوا وذهبوا إلى السلطان، فدخلوا عليه وتكلموا في حق الشيخ صادق بما غير قلب أمير المؤمنين عليه، وقالوا له: قد فعل ما أوجب توجيه المضرة إليه، فلابد من إعدامه ليتأدب غيره عن التكلم بمثل كلامه، فقال أمير المؤمنين: نعم، ولكن لابد من مرافعتكم معه في مجلس شيخ الإسلام، لئلا يقول الناس: قُتل ظلمًا، فنقع بين العموم في الملام، فحينما أحس شيخ الإسلام، دخل خفية عن الوكلاء العظام، ولم يزل يتعطف السلطان ويقول له: إن قتلناه قيل بالعبارات الصحيحة إن السلطان قد قتله لبذله النصيحة، ولكن نفيه أولى، ورأي أمير المؤمنين أعظم وأعلى، فأمر السلطان بنفيه في الحال فأرسل إلى عكا من غير إمهال.

هكذا نجى الله الشيخ صادق الحنفي من القتل ومن بطش السلطان.



الشيخ المجاهد الرحالة/ عبد الرشيد إبراهيم

ولد الشيخ عبد الرشيد بمدينة تارا بسيبيريا سنة ١٨٤٦م في أسرة تعتز بإسلامها حين كانت القيصرية الروسية في قمة طغيانها العنصري، وحيث كان المسلمون في مجاهل سيبيريا يعانون أشق أنواع الظلم والاضطهاد، ولم يزدها هذا الاضطهاد العنصري إلا تمسكًا بدينها القويم.

تلقى دروسه الأولى في هذا الجو الذي زاده إصرارًا على النهل من منابع الشريعة والثقافة الإسلامية، فارتحل وهو في الثانية عشر إلى مكة، وهناك راح يغذي نفسه بمصادر العربية الصحيحة ويدرس الفقه والشريعة، وكانت كل خطاه ما بين مكة والمدينة تذكره بأمجاد الإسلام الأولى، وجهاد المسلمين الأوائل لنشر كلمة الله، فتوقد في صدره حمية مشتعلة وغيرة متيقظة، وعَزَّ عليه وهو في غربته حال أبناء وطنه سيبيريا وما يعانون منه، وما تتعرض له عقائدهم من شبهات باطلة وأراجيف مختلفة، دون أن يجدوا من يميز لهم الخبيث من الطيب في منطق واضح وإيمان شديد، فقرر أن يعود إلى بلده بعد أن تزود بحصيلة وافية من المعارف الدينية الصحيحة.

في جد واجتهاد العالم العابد راح الشيخ عبد الرشيد يصحح المفاهيم المغلوطة، ويوضح حقائق الدين، فالتف حوله الباحثون عن الدين الحق وذاع صيته، وأحبه الناس مدافعًا عن الدين داعية سمحًا بليغًا، ولم تمضِ غير سنوات حتى تم اختياره قاضيًا بالمحكمة الشرعية ثم وكيلًا للإفتاء الديني.

ولم يتخذ هذا المنصب وسيلة للراحة أو المكانة والتقرب من ذوي السلطان، بل جعل منصبه أداة توجيه وإصلاح لخير المسلمين، فراح يطالب السلطات القيصرية بوجوب العمل على مساعدة المسلمين ومساواتهم بغيرهم في الحقوق والواجبات، ولم يُثْنِه عن هذه المطالب ترغيب أو وعيد، وظل يناضل من أجل هذه الحقوق.

وسافر إلى إستانبول عاصمة الخلافة العثمانية يوضح ما يتعرض لـه المسلمون في بلـده من ظلم واضطهاد وحرمان من أبسط الحقوق، وهناك عُرضت عليه المناصب، ولكنه آثر أن يكون بين أبناء وطنه يدافع عنهم ويقوم بواجبه تجاههم ليواصل الكفاح والجهاد، وعنـدما لم يوفَّق في الحصول على ترخيص بإصدار صحيفة يكتب فيها وتكون بمثابة منبر يخاطـب منـه مسلمين ويدافع عنهم أصدر عدة رسائل باللغة التركية القاذاتية، وراح تلاميذه مـن الطبقـة مستنيرة يجمعون المسلمين من كل بلاد الروس ليقرءوا علـيهم هـذه النـشرات التـي كانـت تحمل دعوات جريئة إلى الإصلاح الديني والتمسك بمبادئ الإسلام واليقظة لمـا يحـاك ضـد مسلمين من جانب الحكام الروس وغيرهم من حكام الدول الاستعمارية.

ولم تقتصر هذه الرسائل والمنشورات على اللغة القاذاتية، بل أخذ يدعو باللغـة العربيـة ويكتب الرسائل الموجهة إلى المسلمين في المشرق العربي يتحـدث فيهـا عـن مـآسي المـسلمين روس وما تمارسه السلطات الروسية من ظلم واضطهاد وتنكيل بالمسلمين.

كان الشيخ عبد الرشيد في كل أدوار حياته مثال المجاهد المتواصل الكفاح، ومثال عالم لدين الذي لم يكتفِ بالوعظ والإرشاد وإلقاء الخطب، وإنما حـوَّل علمـه وإيمانـه إلى سـلاح ضد أعداء الدين في روسيا القيصرية، ثم يرحل إلى الحجاز ليتعمق في دروس الشريعة واللغة، ويصل إلى تركيا ليوجه جهود الخلفاء إلى نصرة المستضعفين من أبنـاء الإسـلام، ويـسافر إلى الهند والصين واليابان، ليعلن كلمة الله في ربوع نائية لا تكاد تعرف عن الإسـلام إلا القليـل، وبمَنْطِقه العذب الجميل هدى الله آلاف القلوب إلى اعتناق الدين الإسلامي.

كان داعية غيور يشرح الوضوء والصلاة والزكاة ويبني المساجد، باذلًا الجهـد في جمـع التبرعات من شتى ربوع الإسلام، ليعلن كلمـة الله في بيـوت أذن الله أن تُرفـع ويـذكر فيهـا اسمه، وكان ميدان دعوته ونشاطه في أقاصي آسيا، في بلاد الصين واليابان وكوريا ومنشوريا، حيث ذهب إلى هناك لنشر نور الإيمان والهداية.

وآثر الشيخ أن يكون مجاهدًا يدعو إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، يؤلف في صمت، ويعظ في هدوء، ويرحل في مثابرة، ويدعو لله تعالى، وأثمر جهده بالتمكين للإسلام في أماكن نائية كانت تسبح في ظلمات الوثنية والجهل حتى في العصور الحديثة، فقد استطاع الشيخ عبد الرشيد سنة ١٩٣٩م أن يجبر البرلمان الياباني على الاعتراف بالإسلام واحدًا من أديان الدولة الرسمية، ثم بنى الشيخ مسجدين ينطلق من مآذنهما نداء: الله أكبر، الله أكبر.

ولأن الشيخ كان يؤمن بأن الإسلام دين عالمي، وأن الداعية الحق يجب أن يجعل العالم أجمع مكانًا لرسالته، رأى الشيخ أن يقوم بالدعوة للإسلام في البلاد البعيدة التي لم تصلها أضواء الإسلام، فتعددت رحلاته منذ عام ١٩٠٥م إلى اليابان وكوريا والصين وسنغافورة وجزائر ما وراء النهر وتركستان ومنشوريا، يدعو الناس إلى دين الإسلام، دين المستقبل، ذلك الدين الذي كان أول دين يهتف بالحرية والإخاء والمساواة.

لم تكن مهمته سهلة ميسورة، وإنما كان الطريق مليء بالصعاب التي لا يقدر على تَخَطِّيها إلا أصحاب الإيمان الراسخ والعقيدة الصادقة الذين عاهدوا الله على نصرة دينه. وكان الشيخ أحد هؤلاء الدعاة الصادقين الذين لا يبتغون إلا رضوان الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فتخطى هذه العقبات ببسالة نادرة، وكان يُنفق على رحلاته من ماله الخاص، وكان الله حليفه، فيهدي على يديه بنور الإسلام الآلاف في كل بلد كان يذهب إليه.

ولمس المجاهد الكبير من بشائر التوفيق ما زاده إيمانًا وحماسة لرسالته، حتى ذُعرت منه دوائر التبشير النصراني بآسيا، واعتبرت هذا الشيخ الفرد خطرًا على جمعياتها التبشيرية، فقد كان وحده دون أن تقف وراءه مؤسسة أو دولة تعينه وتمده بالمال، كان ندًا لهذه المؤسسات ذات الميزانيات الضخمة المدعومة من مجلس الكنائس العالمي وحكومات الدول الأوربية التي تساندها. استطاع هذا الشيخ بجهاده في نشر الدعوة الإسلامية في هذه البلاد أن يؤكد للعالم أجمع أن الإسلام أقوى من أي سلاح، وأكبر من أية أموال، فهو ينتشر فقط بقوة مبادئه

وصدق غاياته وهدفه الأسمى، فهو دين صالح لكل زمان ومكان يُصْلِح دنيا البشر وآخرتهم في سماحة ويسر، بعيدًا عن أي تعصب، فلم يكن الشيخ عبد الرشيد يملك في جهاده في هذه البلاد البعيدة غير سلاح المنطق والإقناع والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، ومجادلة الناس بالتي هي أحسن.

بعض القسس من مبشري النصرانية في الصين أفزعه سريان دعوة الشيخ عبد الرشيد بين أوساط الصينيين، فكتب إلى وزارة الخارجية في بلاده هذه البرقية: انتبهوا المسيحية تعاني هنا كثيرًا من جهود عدو يزحف عليها بقوته، أخبرونا ماذا نفعل؟

انزعجت وزارة الخارجية وأرسلت إلى عميلها في الصين تقول: أفزعتنا برقيتكم، نريد المزيد من التفاصيل عن قوة هذا العدو، ومدى نفوذه الحربي، وما هي القوى التي تقف خلفه، أفيدونا بسرعة حتى يمكن وضع خطة للتحرك ومواجهة هذا الخطر الذي تتحدثون عنه.

ويرد عليهم قائلًا: هذا العدو مجرد شيخ واحد اسمه عبد الرشيد!!!

واستمر هذا الشيخ الأمة يبشر بالدين السمح الرحيم حتى أسلم على يديه المئات والآلاف، وحتى أصبح الإسلام دينًا معترفًا به في بلاد الشمس المحرقة، وقد ارتفعت في طوكيو المآذن تردد في اليوم الواحد خمس مرات الله أكبر......

لم يقتصر جهاد الشيخ على ميدان الوعظ والإرشاد والكتابة في الصحف، فإلى جانب المنبر والقلم كان مجاهدًا يحمل السلاح، فقد كانت نصرة الإسلام هي غايته الكبرى، فعندما احتل الإيطاليون ليبيا، ذهب إلى هناك يجاهد مع إخوانه الليبيين سنة ١٩١٢م، وله في هذا الجهاد بطولات رائعة، وحين قامت الحرب العالمية الأولى حمل السلاح إلى جانب الجيش العثماني في جبهة القوقاز، و ذهب إلى ألمانيا أثناء الحرب لمتابعة أحوال الأسرى المسلمين.

هكذا كان الشيخ رحالة يجوب البلاد شرقًا وغربًا، يدعو إلى الله حتى كتب عن نفسه: ما تركت بقعة من العالم الإسلامي إلا زرتها وطوفت في أرجائها، جُبْتُ ما بين أقصى الشرق والمغرب الأقصى، ولم أَدَعْ موطنًا للمسلمين في آسيا وأوروبا وأفريقيا إلا يممته، وتعرفت ماضيه وحاضره، وقد أرهقتني الأسفار الكثيرة المتتالية، ومضيت في طريقي رغم كل شيء، فقد كان هناك نداء لا ينقطع من أعماق نفسي ألا تقف وتقدَّم، امض في سبيلك، نداء غيرتي على ديني، تلك الغيرة التي تصطدم كالبركان بين جوانحي، فلا أطيق وقوفًا ولا أثبت في مكان، لا يقيدني حب النفس والوطن والأهل والولد، فكل هذه الأشياء لم تكن لتثنيني عن عزمي، ولا تعدل بي عن مقصدي، لا أبغي إلا وجه الله، ذلكم كل أملي لا أبغي سواه.



المصادر:

- «النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين» للدكتور محمد رجب البيومي.
- «مشايخ ضد السلطة والسلطان» لإسماعيل إبراهيم.
- موقع التاريخ.

شيخ الإسلام/ زمبيلي علي مالي أفندي

علم السلطان [سليم الأول] أن الأقليات غير المسلمة الموجودة في [إسطنبول] من لأرمن والروم واليهود، بدأت تتسبب في بعض المشاكل للدولة العثمانية، وفي إثارة بعض لقلاقل، فغضب لذلك غضبًا شديدًا، وأعطى قراره بأن على هذه الأقليات غير المسلمة عتناق الدين الإسلامي، ومن يرفض ذلك ضرب عنقه.

وبلغ هذا الخبر شيخ الإسلام [زمبيلي علي مالي أفندي]، وكان من كبار علماء عصره، فساءه ذلك جدًا، ذلك لأن إكراه غير المسلمين على اعتناق الإسلام يخالف تعاليم الإسلام، لذي يرفع شعار «لا إكراه في الدين». ولا يجوز أن يخالف أحد هذه القاعدة الشرعية، وإن كان السلطان نفسه.

ولكن من يستطيع أن يقف أمام هذا السلطان، الذي يرتجف أمامه الجميع؟ من يستطيع أن يقف أمام هذا السلطان، ذي الطبع الحاد، فيبلغه بأن ما يفعله ليس صحيحًا، وأنه لا يوافق لدين الإسلامي.

ليس من أحد سواه يستطيع ذلك، فهو الذي يشغل منصب شيخ الإسلام في الدولة عثمانية، وعليه تقع مهمة إزالة هذا المنكر الذي يوشك أن يقع.

لبس جبته وتوجه إلى قصر السلطان، واستأذن في الدخول عليه، فأذن له، فقال لسلطان: سمعت أيها السلطان! أنك تريد أن تُكْرِه جميع الأقليات غير المسلمة على اعتناق لدين الإسلامي.

كان السلطان لا يزال محتدًا فقال: أجل. . إن ما سمعته صحيح. . وماذا في ذلك؟ م يكن شيخ الإسلام من الذين يترددون عن قولة الحق: أيها السلطان! إن هذا مخالف للشرع، ذ لا إكراه في الدين، ثم إن جدكم [محمد الفاتح] عندما فتح مدينة [إسطنبول] اتبع الشرع

الإسلامي فلم يُكْرِه أحدًا على اعتناق الإسلام، بل أعطى للجميع حرية العقيدة، فعليك باتباع الشرع الحنيف، واتباع عهد جدكم [محمد الفاتح].

قال السلطان سليم وحدته تتصاعد: يا علي أفندي! ... يا علي أفندي! لقد بدأت تتدخل في أمور الدولة ... ألا تخبرني إلى متى سينتهي تدخلك هذا؟

قال الشيخ: إنني أيها السلطان! أقوم بوظيفتي في الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وليس لي من غرض آخر، وإذا لم ينتهِ أجلي، فلن يستطيع أحد أن يسلبني روحي.

قال السلطان: دع هذه الأمور لي يا شيخ الإسلام!.

قال الشيخ: كلا أيها السلطان! إن من واجبي أن أرعى شؤون آخرتك أيضًا، وأن أجنبك كل ما يفسد حياتك الأخروية، وإن اضطررت إلى سلوك طريق آخر.

قال السلطان: ماذا تعني؟

قال الشيخ: سأضطر إلى إصدار فتوى بخلعك أيها السلطان، بسبب مخالفتك للشرع الحنيف إن أقدمت على هذا الأمر.

وأذعن السلطان [سليم] لرغبة شيخ الإسلام، فقد كان يحترم العلماء، ويجلهم، وبقيت الأقليات غير المسلمة حرة في عقائدها، وفي عباداتها، وفي محاكمها، ولم يمد أحد أصبع سوء إليهم بفضل شجاعة هذا العالم المسلم.

❁❁❁

المصادر:

- «روائع من التاريخ العثماني» لأورخان محمد علي ص[٥٧].

العالم الزاهد/ عمرو بن عبيد

كان أبو جعفر المنصور من الهيبة والخشية بمنزلة توحي بالرعب، وتبعث الفزع فيمن يخالطونه ويشاركونه الحكم من أمراء ووزراء وقواد، ولو نظرنا إلى تاريخه بنظرة فاحصة لرأيناه غير سعيد بأبهته وسلطانه على الرغم من أنه ملك الدنيا ودانت له الرقاب، فقد رأى من الأحداث المتناقضة المتضاربة منذ صباه الناشئ إلى أن لقي ربه، ما أورثه القلق والحيرة واليأس، فقد كان يظن إبان نشأته الأولى في حكم الأمويين أن ما تعانيه نفسه من فزع، وما تلقاه عشيرته من مضض، سيزول حتمًا بزوال الدولة الأموية المستبدة، ولذلك جاهد وجالد، وانتقل إلى شتى الأقاصي النائية، ليبشر بيوم جديد تشرق فيه الشمس على العالم الإسلامي ساطعة منيرة، ثم تغيرت الدنيا وتحقق الحلم المشتهى، وأصبح خليفة يأمر فيطاع!

فهل هدأت نفسه قليلًا من شجنها الثائر ووجدها المقيم؟ إنه لينظر فيجد نفسه مضطرًا إلى أن ينقلب على أصدقاء الأمس ممن بنوا مجده، ورفعوا خلافته، فتسيل دماؤهم على شفرات سيوفه، وتتساقط رقابهم بضربات أنانيته وحذره!! ثم إنه لا يقتصر في ذلك على أصدقائه وأعوانه، ممن لا تربطه بهم أواصر الدم والنسب، بل ينتقل إلى أبناء عمومته فيتخذهم خصومًا أشد خطرًا، وأفزع أثرًا من الأباعد الغرباء، ويعمل فيهم جبروته، فيغتال الأرواح ويسفك الدماء.

وليت شره اقتصر على بني عمومته، بل انتقل إلى بني العباس أنفسهم، فهو يُقْصِي ولي عهده بتدبير ظالم ليمهد السبيل لنجله، ثم يتتبع أنصاره وخلصاءه، فلا يفلت من يده أحد، ويظن الظنون في طوايا وزرائه ونيات قواده، فيعصف في الغد بصديق الأمس، ويحدث من الارتياب والقلق في نفوس حاشيته، ما يجعل الوزير المطاع يترقب يومه في حذر وإشفاق، بل هو يسبر أغوار خلصائه ومعارفه محللًا معللًا، فيجدهم مثله: طُلّاب جاهٍ ونفوذ، وعشاق

أموال وقصور، فليس فيهم من يخلص له النصيحة بنفس صادقة، وسريرة طاهرة، وإنه ليرى في وجوههم عيون الثعالب، يديرونها ذات الشمال وذات اليمين، وهو بعدُ مضطر إلى مصانعتهم، والتغاضي عن بعض ما يأتون، ليكونوا أعوان شدته ونصراء كريهته!!

ليت شعري أيستقيم له في هذا العباب المضطرب هدوء واثق، أو اطمئنان مريح، لقد أخذ يستعيد تاريخ حياته، ويفكر في بعض من يعرفهم من ذوي النفوس الخيِّرة، ليكونوا مستشاريه ونصحاءه، فلم يكد يعثر على أحد.

ثم لمع في ذهنه فجأة خيال صديقه القديم العالم العابد الزاهد عمرو بن عبيد، فرأى فيه مثلًا للصراحة المخلصة والنزاهة الخالصة من المأرب والهوى، والرجولة المترفعة عن الرغبات والميول، فبعث إليه من يستدعيه مكرمًا مبجلًا! وإنه ليأمل أن يجد بعض الراحة معه حين يجلس لحظات مع نفسٍ ملائكية لا تفكر في غير نوازع الحق والخير والجمال.

ولم يكن عمرو بن عبيد بالخامل الذكر أو المجهول القدر، فقد كان عالم البصرة ورأس متكلميها، وله جدل يفحم الخصم، ولسان يفلق الصخر..

وإن اختلف أعداؤه معه في آرائه الاعتزالية، ومسلكه القدري، ورأيه في العدل والمعصية، فهم متفقون جميعًا - إلا من ندر- على طهارة نفسه، ونزاهة ضميره، ومتانة خُلُقه، وأن أستاذه الحسن البصري ليعبر عن شعور عارفيه حين يقول عن تلميذه التقى كلمة يفوح منها عبير المحبة والتقدير، وقد خبره في حلقات الدرس، واكتشف سلوكه في معاملة الأنداد والنظراء، فاندفع يقول عنه في ثقة وإعجاب:

عمرو ما عمرو! رجل كأن الملائكة أدبته، وكأن الأنبياء ربته، إن قام بأمر قعد به، وإن قعد لأمر قام به، وإن أمر بشيء كان ألزم الناس له، وإن نهى عن شيء كان أترك الناس له، ما رأيت ظاهرًا أشبه بباطن منه، ولا باطنًا أشبه بظاهر منه.

هذه التزكية المشرفة من إمام خطير الرأي والمكانة والثقافة في عصره كالحسن البصري.. لا تكفي لدفع لجاجة بعض خصومه في الرأي، فاندفعوا وراء حقودهم الشخصية إلى مهاجمته في دينه وعقيدته، وإذا كان الرجل قد أفحمهم بالحجة والعقل، ورمى تقولهم بالوضع والافتراء، وأوّل ما يعتمدون عليه من الآيات والأحاديث والنصوص، فقد رموا منه بداهية دهياء، على أنه قد رُزِق من سلاسة القول وفصاحة العبارة ما ملك أزمة العامة والخاصة، فليس لخصومه معه في جميع هذه النواحي سبيل إلى المجابهة والعناد، وقد غلت الحقود المريضة ببعضهم، فاندفعوا يسبونه سبابًا جارحًا، يبرأ منه الخُلُق الأصيل، حتى لقد جاء إليه بعض تلاميذه ذات صباح فقال له: يا أبا عثمان! إني لأرحمك مما يقول الناس فيك، فقال: يا ابن أخي! أسمعتني أقول فيهم شيئًا؟ فقال: لا! قال: فإياهم فارحم!

هذا الرد الوجيز البليغ يكفي على قصره أن يكون مفتاحًا لشخصية قائله، فإنه ليكشف لك النقاب عن مشاعره وأحاسيسه لترى بذاته الداخلية أفقًا رحيبًا من التسامح والعفة والنقاء، وهذا بعض ما جذب المنصور إليه فبعث يستدعيه!!

لقد فكر عمرو بن عبيد في دعوة المنصور إذ بلغته، وأخذ يسأل نفسه: ماذا يريد مني هذا الرجل؟ وقد اعتزلت قصره وبلده، وما فكرت في زيارته منذ ولي أمور الناس، مع أنه كان من أصدقائي الأقربين أيام شبابه في الحكم الأموي، فكان ينزل إلى مسكني فيعرف زوجتي وأولادي وأقربائي، ويرى نفسه ما آتي وما أدع من الأمور، لقد مضت السنون الطويلة دون أن أخطر على باله في مضمار عظمته المرهوبة، وسلطانه العريض! يعلم الله أني أفر من هؤلاء المتسلطين فرار الصحيح من الأجرب، وأعرف أن في التقرب إليهم مشاركة إيجابية فيما يقترفون من المآثم، إن لم يجابهوا بالنصيحة الحاسمة والمعارضة الصريحة، كما أمر الإسلام، ثم ماذا أصنع الآن؟ أأرفض الدعوة أم أجيبها؟

هذا ما تردد في نفس عمرو! غير أنه لم يلبث أن قطع كل تردد، وصمم على زيارة أبي جعفر لا ليلاطفه ويخادعه، بل ليقول له كلمة الحق فيما يأتي من الأشياء، وهو بعد -كما يعلم المنصور- لا يخشى في الله لومة لائم! بل يقذف بالحق على الضلال.

فكر أبو عثمان في أثناء طريقه فيما سيواجه به أبا جعفر من أشياء، فهو في ميزانه النزيه قد حاد عن طريق الخلافة الراشدة فيما قام به من تجبر وإرهاب، إذ جعل كل همه أن يثبت قوائم عرشه، فتم ذلك على أشلاء الضحايا، ومع رنات الثكالى والنادبات، ولم يعتبر بما أصاب الدولة الأموية من انهيار، حين سلك مسلكها الوبيء، بل لم يعتبر بما حكاه القرآن عن إرم عاد وفرعون ذي الأوتاد، ممن طغوا في البلاد، ولابد أن يواجه بذلك ليرتدع عن غيه، ولن يهتم عمرو بعاقبة، فحسبه أن أدى أمانة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في دنياه، ثم إن الخليفة من ناحية ثانية قد نكس ببيعة ولي العهد وأجبره على النزول عن حقه لولده المهدي!

وولاية العهد عن طريق الوراثة في منطق عمرو وفي رأي الإسلام الصحيح مفسدة تضر الدولة وتقدِّم الفسل الكسول ليحتل مكان الحازم الإداري الصبور! فليواجه أبا جعفر بذلك ليكون على بصيرة مما تحت قدمه من بركان، أما حاشيته المتملقة، فلابد أن ينالها نصيب من اللوم والتقريع، فقد كانت عونًا للباطل على رسالته، وما برحت تميل مع السلطان حيث يميل لتضمن الجاه الزائف وتختلس في نطاق الرياسة ما تصل إليه الأيدي من قصور وضياع وأموال! وتلك ثالثة الأثافي في منطق العالم الصابر الزاهد!

وحان موعد اللقاء، فما أن علم أبو جعفر بوصول عمرو حتى أسرع في استدعائه وتخطى إلى حضرة الخلافة مئات الوجهاء من الأعيان والقواد والعلماء، ممن قعدوا يلتمسون الإذن، وينتظرون على أحر من الجمر أن يشملهم الخليفة برعايته، فيسرع في قبول المثول، وقد علم الخليفة مَنْ سيلقى من العلماء المخلصين! فوطَّن نفسه على الاستكانة والامتثال، وحسبه أن يسمع صوت الحق النزيه بريئًا من الأغراض والشبهات، وأدركته حصافته، فرأى أن ينتقل من

حجرة الخلافة ذات الأرائك المذهبة، والنمارق المزركشة، إلى حجرة واسعة فرشت بالحصير، كي لا يعلن الرجل احتجاجه قبل السلام!!

وقد هش للقاء صاحبه وعانقه وقبَّله، ثم رفع إليه عينه وهو يقول في انكسار: عظني يا أبا عثمان!

نظر عمرو إلى الخليفة نظرة تنطق بجميع ما يضمر من سخط وإنكار، ثم جللته سكينة وضيئة جعلت وجهه طاقة من نور، واندفع يقرأ بعد البسملة قول الله: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝٨ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ۝١٠ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ [الفجر: ٦-١٤].

وكرر الآية الأخيرة في تحدٍّ جريء عنيد، ففهم المنصور ما يعني عمرو، وملكته رعشة مرنحة، فتساقطت من عينه الدموع!!.

فلم ينقطع الرجل عن قوله، وصاح: إن الله أعطاك الدنيا بأسرها فاشترِ نفسك منه ببيعها، واعلم أن هذا الأمر الذي صار إليك كان في يد من كان قبلك ثم أفضى إليك، وكذلك يخرج منك إلى من هو بعدك، وإني لأحذرك ليلة تتمخض صبيحتها عن يوم القيامة يا أمير المؤمنين!!

وكان سليمان بن مجالد كبير حاشية المنصور يسمع ويرى، فاستفظع ما طرأ على الخليفة من حزن واضطراب، وصاح بعمرو: رفقًا بأمير المؤمنين، فقد أتعبته منذ اليوم!

فرفع عمرو رأسه: من أنت؟

فقال أبو جعفر: أو لا تعرفه يا أبا عثمان؟

قال: لا، وما أبالي ألا أعرفه!

فأجاب المنصور: هذا أخوك سليمان بن مجالد.

فضحك عمرو متهكمًا وقال: هذا أخو الشيطان، ويلك يا ابن مجالد! خَزَنت نصيحتك عن أمير المؤمنين، ثم أردت أن تحول بينه وبين من أراد نصيحته، يا أمير المؤمنين! إن هـؤلاء اتخذوك سلمًا لشهواتهم، فأنت كالآخذ بالقرنين وغيرك يحلب، فاتقِ الله فإنك ميت وحدك، ومحاسب وحدك، ومبعوث وحدك، ولن يغني عنك هؤلاء من ربك شيئًا!!

أُخذ الحاضرون من رجال الحاشية بصراحة أبي عثمان! وعلموا أن الرجل قد هتك بصائرهم المدخولة بما قال، وعقدت رهبة الحق ألسنتهم، فتدافعوا يتلاحظون بنظرات ضارعة منكسرة، وتطلعوا إلى الخليفة في حذر، فسمعوه يقول: يا أبا عثمان! أعني بأصحابك فأستعن بهم دون هؤلاء.

فرد الرجل في قوة: أظهِرْ الحق يتبعك أهله!.

يا لها من ساعة حرجة فرج فيها العالم الناصح عن نفسه بعض ما يعتلج بها من شجون، لقد ذكر رأيه صريحًا في جبروت الحاكم وطغيان الحاشية، وبقى أن يعلن رأيه في المهدي، ولي العهد الجديد!

فنظر بين الحاضرين إلى شاب مترف عليه دلائل الإمارة والجاه، وتوقع باستشفافه الملهم أن يكون الشاب ولي العهد، فرفع رأسه ليسأل المنصور: من هذا يا أبا جعفر؟ فرد الخليفة: هذا ابني محمد، وهو المهدي ولي عهد المؤمنين.

فاهتبلها فرصة سانحة وقال: والله! لقد سميته اسمًا ما استحقه بعمل، وألبسته لبوسًا ما هو لبوس الأبرار، ومهدت له أمرًا أمتع ما يكون به أشغل ما تكون عنه!

تضايق الخليفة من صراحة الرجل، وأراد أن يتخلص من لقائه، فسأله في تصنع: هل من حاجة؟

فقال: نعم.

فتعجل أبو جعفر يسأل: وما هي؟

فقال: ألا تبعث إليَّ حتى آتيك!

قال: إذن لا نلتقي؟

قال: عن حاجتي سألتني.

ونهض قائمًا، فودعه الخليفة، ومكث حائرًا لا يدري ما يصنع، فكأنه تقيد في مجلسه، ثم جعل يفكر في منطق هذا البطل العظيم، وكيف صدقه القول حين كذب عليه الناس، وتذكر - بكل مرارة- فاقته وحرمانه وكيف ضنَّ معها بكرامته أن يأخذ درهمًا أو دينارًا هما بعض حقه في بيت المال، وتدافعت في مخيلة الخليفة صور المتملقين والمادحين، ممن يتلمسون الكسب الكثير وراء نصيحة خادعة، أو مشورة موهومة، وكم شاهد في مدى حياته مئات من هؤلاء يتوجهون إليه وبريق الذهب يخطف أبصارهم، فما يزالون يسألون ويحلفون!!

إنه ليكشف دخائل هؤلاء جميعًا، فيرى نفسه - وهو الخليفة- فريسة يتطلع إليها الصائدون بحبائل مستترة، تدب خفية إلى خزائنه ووظائفه، فتفوح منها رائحة الأثرة والاستكلاب!! وما يزال صدره يجيش بأمثال هذه المعاني، حيث تجبره على التعبير عنها في نغم منظوم، فيجده يغني بهذه الشطرات البليغة:

كلكم طالب صيد... كلكم يمشي رويد.... غير عمرو بن عبيد.

فأي عالم ذلك الذي رنح أوتار الخليفة حتى دفعه -وهو غير شاعر- إلى مديحه بشطرات من الشعر كانت في حقيقتها متنفسًا سريعًا لمشاعره المتلاطمة، ذلكم هو أبو عثمان عمرو بن عبيد.

❁❁❁

قاضي إسطنبول الشيخ/ صاري خضر جلبي

أمر السلطان [محمد الفاتح] ببناء أحد الجوامع في مدينة [إسطنبول]، وكلف أحد المعماريين الروم واسمه [إبسلانتي] بالإشراف على بناء هذا الجامع، إذ كان هذا الرومي معماريًا بارعًا. وكان من بين أوامر السلطان: أن تكون أعمدة هذا الجامع من المرمر، وأن تكون هذه الأعمدة مرتفعة ليبدو الجامع فخمًا، وحدد هذا الارتفاع لهذا المعماري.

ولكن هذا المعماري الرومي - لسبب من الأسباب- أمر بقص هذه الأعمدة، وتقصير طولها دون أن يخبر السلطان، أو يستشيره في ذلك، وعندما سمع السلطان [محمد الفاتح] بذلك، استشاط غضبًا، إذ أن هذه الأعمدة التي جلبت من مكان بعيد، لم تعد ذات فائدة في نظره، وفي ثورة غضبه هذا، أمر بقطع يد هذا المعماري. ومع أنه ندم على ذلك إلا أنه كان ندمًا بعد فوات الأوان.

ولم يسكت المعماري عن الظلم الذي لحقه، بل راجع قاضي إسطنبول الشيخ [صاري خضر جلبي] الذي كان صيت عدالته قد ذاع وانتشر في جميع أنحاء الإمبراطورية، واشتكى إليه ما لحقه من ظلم من قِبَل السلطان [محمد الفاتح].

ولم يتردد القاضي في قبول هذه الشكوى، بل أرسل من فوره رسولًا إلى السلطان يستدعيه للمثول أمامه في المحكمة، لوجود شكوى ضده من أحد الرعايا.

ولم يتردد السلطان كذلك في قبول دعوة القاضي، فالحق والعدل يجب أن يكون فوق كل سلطان.

وفي اليوم المحدد حضر السلطان إلى المحكمة، وتوجه للجلوس على المقعد قال له القاضي: لا يجوز لك الجلوس يا سيدي ... بل عليك الوقوف بجانب خصمك.

وقف السلطان [محمد الفاتح] بجانب خصمه الرومي، الذي شرح مظلمته للقاضي، وعندما جاء دور السلطان في الكلام، أيد ما قاله الرومي.

وبعد انتهاء كلامه وقف ينتظر حكم القاضي، الذي فكر برهة ثم توجه إليه قائلًا: حسب الأوامر الشرعية، يجب قطع يدك أيها السلطان قصاصًا لك!!

ذُهِل المعماري الرومي، وارتجف دهشة من هذا الحكم الذي نطق به القاضي، والذي ما كان يدور بخلده، أو بخياله لا من قريب ولا من بعيد، فقد كان أقصى ما يتوقعه أن يحكم له القاضي بتعويض مالي. أما أن يحكم له القاضي بقطع يد السلطان [محمد الفاتح] فاتح [القسطنطينية] الذي كانت دول أوروبا كلها ترتجف منه رعبًا، فكان أمرًا وراء الخيال ... وبصوت ذاهل، وبعبارات متعثرة قال الرومي للقاضي، بأنه يتنازل عن دعواه، وأن ما يرجوه منه هو الحكم له بتعويض مالي فقط، لأن قطع يد السلطان لن يفيده شيئًا، فحكم له القاضي بعشر قطع نقدية، لكل يوم طوال حياته، تعويضًا له عن الضرر البالغ الذي لحق به.

ولكن السلطان [محمد الفاتح] قرر أن يعطيه عشرين قطعة نقدية، كل يوم تعبيرًا عن فرحه لخلاصه من حكم القصاص، وتعبيرًا عن ندمه كذلك.

هكذا كان القاضي المسلم الذي يحكم بالحق ولا يخاف في الله لومة لائم، يقف أمامه الحاكم والمحكوم فلا يرى المناصب، وإنما يرى الوقائع وحكم الله بين يديه!!!



المصادر:

- «روائع من التاريخ العثماني» لأورخان محمد علي ص[٤٨].



الإمام/ أبو الأعلى المودودي

أبو الأعلى المودودي الذي يعتبره كثيرون من مجددي الإسلام في القرن العشرين؛ وذلك لأنه نذر نفسه لمهمة الدعوة الإسلامية طوال حياته مع تقلب مواسمها في ظل مناخ حار -طبيعيًا وفكريًا- تشهده شبه القارة الهندية.

يعد أبو الأعلى المودودي نموذجًا فريدًا للداعية الإسلامي المجتهد الذي أوقف حياته على الدعوة إلى الإسلام، وجعل رسالته في الحياة إعلاءَ كلمة الحق، والتمكين للإسلام في قلوب أتباعه قبل ربوعه وأوطانه. وكان لإخلاصه في دعوته واجتهاده في رسالته أكبر الأثر في التفاف الكثيرين حوله، وانضوائهم تحت لواء فكره الذي تخطى حدود القومية ونطاق المكان؛ ليصبح راعية عالميًا للإسلام في كل مكان، بل إن أعماله ومؤلفاته قد انطلقت لتتخطى حدود المكان وتتجاوز إسار اللغة، فتُرجمت إلى معظم لغات العالم؛ لتظل ينبوعًا متجددًا لعطائه الفكري والدعوي الذي تجاوز مرحلة الدعوة باللسان والتنظير الفكري إلى مجال التطبيق العملي للتشريع الإسلامي حكمًا وقيادة ومعاملات.

ينتمي أبو الأعلى المودودي إلى أسرة تمتد جذورها إلى شبه جزيرة العرب، فقد هاجرت أسرته منذ أكثر من ألف عام إلى أن جاءت بالقرب من مدينة هراة، ثم رحل جده الأكبر «ضواجه مودود» إلى الهند في أواخر القرن التاسع الهجري.

وكان أبوه سيد أحمد حسن مودود الذي ولد في دلهي بالهند سنة ١٢٦٦ هـ واحدًا من طلاب جامعة عليكرة ذو ثقافة إنجليزية تلقاها في مدرسة العلوم، ولكنه لم يستكملها، وقد عمل مدرسًا، ثم عمل بالمحاماة لفترة من الوقت، وفي رجب ١٣٢١ هـ رزق بابنه «أبو الأعلى المودودي»، في مدينة «أورنك آباد» إحدى مدن ولاية حيدر آباد الهندية في بيت معروف بالعلم والتدين.

وبعد ذلك بنحو عام اعتزل الأب الناس، ومال إلى الزهد، فنشأ أبو الأعلى في ذلك الجو الصوفي، وتفتحت عيناه على تلك الحياة التي تفيض بالزهد والورع والتقوى.

وقضى أبو الأعلى طفولته الأولى في مسقط رأسه في مدينة «أورنك آباد الدكن»، بمقاطعة حيدر آباد، وكان أبوه معلمه الأول، وقد حرص أبوه على تنشئته تنشئة دينية، واهتم بتلقينه قصص الأنبياء والتاريخ الإسلامي، وكان يصحبه إلى مجالس أصدقائه من رجال الدين والعلماء؛ فتفتحت ملكاته وظهر نبوغه وذكاؤه منذ حداثة سنه، ونال إعجاب أساتذته منذ سنوات دراسته الأولى.

وحرص أبوه على تعليمه اللغة العربية والفارسية بالإضافة إلى الفقه والحديث، وأقبل المودودي على التعليم بجد واهتمام حتى اجتاز امتحان مولوي، وهو ما يعادل الليسانس.

تلقى المودودي علومه الأولية من والده؛ فتعلم اللغة العربية والقرآن والحديث والفقه واللغة الفارسية. ويقول المودودي عن أبيه: «إن والدي شملني بالتربية السليمة والتوجيه الشديد، وكان يلقي عليّ في الليالي حكايات الأنبياء، وأحداث تاريخ الإسلام، والوقائع الشهيرة في تاريخ الهند، ما أزال أشعر بفائدة تلك التربية حتى اليوم».

يحكي المودودي حادثًا طريفًا عن حياته المبكرة، وهو أنه ذات يوم ضرب ابن أحد الخدم في بيتهم، فأمر أبوه الخادم أن يضرب ابنه. ويعلق المودودي: «هذا الحادث لقنني درسًا، ولم أجرؤ طول حياتي أن أعتدي على الضعفاء».

التحق بالمدرسة الثانوية في [أورنك آباد] وهو في الحادية عشرة بعد ثلاث سنوات، فما لبث أن أثار الإعجاب لذكائه وتفوقه، رغم أنه كان يعيش في عوز شديد، وكان بيته يبعد عن مدرسته مسافة ١٥ كيلومترًا يقطعها على الأقدام ذهابًا وعودة.

وفي هذه الأثناء أصيب الأب بالشلل، وأصبح قعيدًا بلا حراك، وضاقت سبل العيش بالأسرة والأبناء، فكان على المودودي أن يكافح من أجل لقمة العيش، وعقب وفاة الوالد عام ١٩١٧م أدرك الابن أنه أصبح لا يملك إلا بناء الذات؛ فاتجه إلى الصحافة وقد وهبه الله ملكة الكتابة التي صقلها بالقراءة والمطالعة، فقرر أبو الأعلى أن يجعل من قلمه وسيلة للرزق، وكان أخوه الأكبر «سيد أبو الخير» مديرًا لتحرير جريدة مدينة بجنور، فعمل المودودي محررًا بالجريدة، إلا أنه لم يستمر طويلًا بها، فقد أغلقت الحكومة الجريدة، فانتقل بعد ذلك إلى جريدة تاج التي كانت تصدر أسبوعية من جبلبور، ثم أصبحت يومية. وفيها كتب افتتاحيات عديدة تتحمس للمحافظة على الخلافة الإسلامية، وفي هذه الأثناء كتب كتاب «النشاطات التبشيرية في تركيا».

وكان من نتيجة عمله بالصحافة أن سعى المودودي إلى تعلم اللغة الإنجليزية حتى أتقنها، وصار بإمكانه الاطلاع على كتب التاريخ والفلسفة والاجتماع ومقارنة الأديان باللغة الإنجليزية دون أية صعوبة في فهمها واستيعابها.

وما لبثت الحكومة أن أغلقت تلك الجريدة نتيجة احتكاكه بحركة الخلافة، فعاد المودودي إلى «دلهي»، وقابل مفتي الديار الهندية الشيخ «كفاية الله» والشيخ «أحمد سعيد»، وكانا من كبار جمعية العلماء بالهند، ووقع الاختيار عليه لرئاسة تحرير الصحيفة التي ستصدرها الجمعية، وصار مديرًا لتحريرها لمدة ثلاث سنوات حتى أغلقت عام [١٣٤١هـ / ١٩٢٢م] فانتقل إلى بهو بال، ثم عاد مرة أخرى إلى دلهي سنة ١٩٢٣م؛ حيث تولى الإشراف على إصدار جريدة تصدرها جمعية علماء الهند تحمل اسم الجمعية، وظل يتحمل وحده عبء إصدارها حتى سنة ١٩٢٨م.

وخلال إقامته في دلهي تعمق المودودي في العلوم الإسلامية والآداب العربية، كما تعلم الإنجليزية في أربعة أشهر، وحصَّل قراءات فاحصة للآداب الإنجليزية والفلسفة والعلوم

لاجتماعية؛ الأمر الذي مكنه من إجراء المقارنة بين ما تنطوي عليه الثقافة الإسلامية وما تضمنه الثقافة الغربية.

وفي تلك الفترة أيضًا ألَّف كتابين هما: «مصدر قوة المسلم» و«الجهاد في الإسلام».

وكان سبب تأليفه لكتاب «الجهاد في الإسلام» أن «المهاتما غاندي» نقل عنه قوله بأن لإسلام انتشر بحد السيف، كما قال آخرون: إن الإسلام هو دين العرب الذين كانوا يضربون عنق كل من لا يؤمن بدينهم؛ وهو ما أثار المشايخ والعلماء. . وخطب الإمام «محمد علي الجوهري» خطبة في الجامع الكبير بدهلي، وصدح بقولته: «ليت رجلًا من المسلمين يقوم برد»؛ فأراد المودودي أن يكون هذا الرجل، وغربل أمهات الكتب في هذا الموضوع، وأخذ يطالع تاريخ الحروب عند جميع الشعوب قديمًا وحديثًا وكتب حلقات متواصلة في جريدة جمعية، ثم صدرت في كتاب عام ١٩٢٨م، وكان الدكتور «محمد إقبال» ينصح دائمًا الشباب لمسلمين باقتناء هذا الكتاب.

وكان تأليف هذا الكتاب نقطة تحول كبيرة للمودودي، ويقول: «عرفت الإسلام، وعرفت طريقة إحيائه، وقررت ألا أدخل عالم الصحافة في المستقبل إلا لأنْ أجعلها وسيلة خدمة الإسلام وإحيائه.

وبعد هذه الفترة تولى إدارة مجلة «ترجمان القرآن»، والمذهل أنه كان يعمل وحده في إدارتها وتحريرها؛ فكان يكتب الافتتاحيات والمقالات والردود على الأسئلة، ويذهب إلى المطابع لطبعها، ويراجعها، ويربط الطرود، ويلصق الطوابع، ويحملها إلى البريد، ويرسلها للمشتركين، ورغم كل هذا فإنه كان يحب العمل فيها جدًا، ورفض مرارًا عرضًا من رئيس الوزراء بتعيينه أستاذًا في الكلية العثمانية مقابل راتب شهري مرموق.

وفي سبيل هذه الأهداف خرج كتابه «مبادئ الإسلام»، وقد تُرجم إلى ثلاثين لغة عالمية ونال رواجًا كبيرًا في أوروبا، واعتنق كثيرون بسببه الإسلام. . وسبب تأليفه أن إدارة التربية

والتعليم في ولاية «حيدر آباد الدكن» كلفت المودودي بوضع منهج التربية الإسلامية في مدارسها، والطريف أنه لم يكتب شيئًا حتى جاءه إخطار بضرورة تسليم الكتاب خلال أسبوع فأنجزه بالفعل في هذا الوقت اليسير.

وممن قُرنوا بالمودودي دائمًا الشهيد سيد قطب الذي رأى الكثيرون تشابهًا في أفكارهما؛ حتى إن المودودي ذاته أكد على هذا التشابه، فقد روى الشيخ «خليل الحامدي» سكرتير الشيخ المودودي عنه ذلك قائلًا: في أحد أعوام الستينيات بمكة المكرمة دخل شاب عربي مسلم على الأستاذ المودودي، وقدم له كتاب «معالم في الطريق» لمؤلفه «سيد قطب»، وقرأه الأستاذ المودودي في ليلة واحدة، وفي الصباح قال لي: «كأني أنا الذي ألفت هذا الكتاب»، وأبدى دهشته من التقارب الفكري بينه وبين سيد قطب، ثم استدرك يقول: «لا عجب؛ فمصدر أفكاره وأفكاري واحد، وهو كتاب الله وسنة رسوله ﷺ».

وأما عن علاقة الحب والإخاء التي كان يكنها المودودي لقطب رغم بُعد المسافة بينهما؛ فيحكي خليل الحامدي قائلًا: غداة تنفيذ حكم الإعدام بالشهيد سيد قطب، دخلنا على المودودي في غرفته، وكانت الصحافة الباكستانية قد أبرزت الخبر على صفحاتها الأولى، إلا أنه لم يكن قد قرأه بعدُ، فسبقنا وقصّ علينا المودودي كيف أنه أحس فجأة باختناق شديد، ولم يدرك لذلك سببًا. . فلما عرف وقت إعدام الشهيد سيد قطب من الصحف قال: «أدركت أن لحظة اختناقي هي نفس اللحظة التي شُنق فيها سيد قطب».

وكان شاعر الهند الكبير محمد إقبال من المعنيين كذلك بكتابات المودودي، وكتب ذات مرة: «إن هذا الشيخ يعرض دين الرسول (ﷺ) بقلم مداده الدم»، أما المودودي، فيقول: «كان بيني وبين إقبال انسجام كبير في الآراء والمخطط الذي كان في ذهني كان نفسه في ذهن إقبال.

حتى إن المودودي حين بلغته وفاة إقبال بكى قائلًا: «فقدت أكبر سند لي في الدنيا بموت هذا الرجل العظيم..»، وبعدها بوقت قصير ذهب إلى لاهور وقبل عرضًا من كلية «حماية الإسلام» بأن يكون محاضرًا شرفيًا، وألقى محاضرات عن الإسلام لمدة عام، كما ألقى محاضرات في عدة جامعات أخرى.

وفي ١٩٤١م اجتمع المودودي مع عدد من الرجال الذين تحمسوا لفكره، ودرسوا إنشاء هيئة تدعو إلى إقامة النظام الإسلامي، ووضعوا في نفس اللقاء القانون الأساسي للجماعة الإسلامية، يتضمن عقيدتها وأهدافها. . فعقيدتها هي ما تحمله كلمة الشهادة: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله». وأهدافها إقامة الدين في الحياة الفردية والحياة الجماعية، وبعد ذلك بيومين صادقوا على القانون الأساسي للجماعة، وانتُخب المودودي أميرًا لها، وقد بدأت بـ ٧٥ عضوًا، وأصبح أتباعها الآن يُقدَّرون بالملايين.

وفي تلك الأثناء استدعى جميع رجال الجماعة الإسلامية، وكلفهم مهمة خدمة اللاجئين، وكانوا آلافًا مؤلفة قتل منهم آلاف على الطريق، وأصيب آلاف بالجروح خلال الاحتكاكات بين المسلمين وبين الهندوس والسيخ، كما ضاع آلاف الأطفال وخطفت آلاف البنات المسلمات، وأقامت الجماعة مخيمات لاستقبال اللاجئين، وكانوا يطبخون الطعام ويداوون المرضى ويدفنون الموتى.

وفي هذه الرحلة اتجه المودودي إلى تقوية وتوطيد قواعد حركته بالتركيز على ثلاثة أمور:

١- أن يكون زملاؤه في الدعوة أقوياء في العقيدة، وموثوقين في سلوكهم الفردي، يقول: إن الشيء الذي ضرب في النهاية الحركات والدعوات هو انضمام رجال غير مستقيمي السيرة.

٢- أن يكون النظام الداخلي محكًا قويًا؛ ذلك لأن التساهل والوهن وتخلخل النظام من أسباب انهيار الدعوات.

٣- أن يشتمل الداعية في آن واحد على عنصرين: العنصر المثقف ثقافة إسلامية أصيلة، والعنصر المثقف ثقافة عصرية؛ حتى نستطيع القضاء على أسطورة فصل الدين عن الدولة الذي لم يقبل فيه جدالًا؛ فحين قابله الرئيس «أيوب خان» في ١٩٦٠م أثنى عليه، واقترح عليه أن ينتهج فكر «الدعوة والتبليغ» دون التورط في أوحال السياسة؛ فرد عليه المودودي بكل هدوء ولطف: كما تفضلت يا سيادة الرئيس، فإن السياسية أصبحت أوحالًا، فدخلتُها لأطهرها من الأوساخ...

في مواجهة التهم الملفقة..

وعقب قيام الباكستان قام المودودي بجهد كبير لمواجهة النظريات الغربية التي يتم ترويجها في البلاد، وإثارة التغريبيين لشبهة صلاحية الإسلام كنظام للدولة العصرية.. ومع إصراره على الدعوة بأن تكون القوانين في الباكستان نابعة من الشريعة، وأن تلغى القوانين المخالفة فقد ضاقت السلطات بذلك؛ وهو ما أدى إلى القبض عليه في أكتوبر ١٩٤٨م، وسُجن لمدة عشرين شهرًا أنجز خلالها كتابه الشهير «الربا» وكتاب «مسألة ملكية الأرض في الإسلام»، كما أكمل المجلد الأول من تفسيره للقرآن الكريم «تفهيم القرآن»، وذلك رغم اعتلال كليته ومرضه.

عقب خروجه من السجن طاف المودودي أنحاء البلاد شارحًا أطر الدولة الإسلامية وأهميتها؛ وهو ما حدا بمعارضيه إلى إثارة الشبهات حوله، مثل: أنه عميل للهند أو أمريكا، وأنه لا يجوز له الفتوى؛ لأنه لم يتخرج في معهد ديني، وأنه من الساعين للحكم.. وكان منهجه عدم الانشغال بالرد على هذه الشبهات، ومتابعة سيره نحو تحقيق غايته الرئيسية.

وفي عام ١٩٥٢م حدثت في مقاطعة البنجاب اضطرابات عنيفة بين المسلمين والقاديانيين راح ضحيتها الآلاف، وكتب المودودي رسالة «المسألة القاديانية»، وكشف فيها بإيجاز عن عقائد هذه الفرقة ومخططاتها.

وفي تلك الأثناء قام الحاكم «غلام محمد» بإعلان الحكم العرفي في البنجاب وإلغاء الدستور، وإلقاء القبض على المودودي وعلماء الجماعة الإسلامية، وقدم إلى المحكمة العسكرية التي قضت بإعدامه. وعندما طُلب منه تقديم طَلَبِ استرحام خلال أسبوع، قال في هدوء: «لا أسترحم أحدًا؛ لأن أحكام الموت أو الحياة لا تصدر في الأرض وإنما تصدر في السماء»، ثم أصدرت المحكمة العسكرية نفسها قرارًا جديدًا بتخفيف عقوبة الإعدام إلى السجن المؤبد، لكنه لم يقضِ منها سوى ٢٥ شهرًا.

حين أوصى بعض الناس المودودي بالخلود إلى الراحة أكد أن الدعوة التي يحملها لا تعترف بالهدوء ولا تنتظر المواسم، وعقب معارضة المودودي للقوانين الغربية المطبقة، صدرت أوامر حكومية بحل الجماعة الإسلامية ومصادرة أموالها، واعتقال قادتها وعلى رأسهم المودودي في يناير ١٩٦٤م، وتمّ الإفراج عنهم عقب ذلك في سبتمبر ١٩٦٤م.

وعندما قامت الحرب بين باكستان والهند في [جمادى الأولى ١٣٨٥ هـ، سبتمبر ١٩٦٥م] [كان للمودودي والجماعة الإسلامية دور بارز في الشحذ المعنوي للجماهير ومساعدة مهاجري الحرب، كما ساهمت الجماعة بشكل إيجابي في الإمداد الطبي، فأقامت نحو عشرين مركزًا للإمداد الطبي في آزار كشمير، وألقى المودودي عدة خطابات عن الجهاد].

وفي [رمضان ١٣٨٦ هـ / يناير ١٩٦٧م] قامت الحكومة باعتقال المودودي لمدة شهرين، وبعد أن أطلق سراحه ظل يمارس دوره الدعوي في شجاعة وإيمان، فكان من أبرز دعاة الحرية والوحدة، وظل يحذر الشعب من مساندة الجماعات الانفصالية حتى لا ينقسم الوطن، ويقع في حرب أهلية لا يعلم مداها إلا الله.

وفي [رمضان ١٣٩٢ هـ / نوفمبر ١٩٧٢م] بعد نحو ثلاثين عامًا من الكفاح الطويل طلب المودودي إعفاءه من منصبه كأمير للجماعة الإسلامية لأسباب صحية، وانصرف إلى البحث والكتابة؛ فأكمل تفهيم القرآن، وشرع في كتابة سيرة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

لكنه اعتُقل مرة أخرى في عام ١٩٧٥م لسبب غريب وهو أن عيد الفطر قد صادف يوم الجمعة، فأراد أيوب خان الحاكم في حينها تقديم العيد إلى يوم الخميس وأصدر قراره بذلك؛ فاستنكر المودودي ذلك، وأفتى بأن العيد مع ثبوت الهلال؛ فاعتقل، وأفطر الناس يوم الجمعة على رأي المودودي، ومكث في السجن لمدة شهرين.

وظل المودودي في دفاعه عن الإسلام ضد الإلحاديين والقاديانيين، سواء من خلال تأليف الكتب أو تأليف الرجال بتربيته لجيل كامل يؤمن بالدعوة إلى تطبيق الشريعة الإسلامية، ولم تفتُرْ عزيمته عن دعوته، وفي [غرة ذي القعدة ١٣٩٩ هـ، ٢٢ من سبتمبر ١٩٧٩م] انطفأت تلك الجذوة التي أضاءت الطريق إلى الرشد والهداية لكثير من المسلمين، ورحل المودودي عن عالمنا إلى رحاب ربه، ولكنه بقي بأفكاره وتعاليمه ومؤلفاته الجليلة ليظل قدوة للدعاة على مر العصور، ونبعًا صافيًا من منابع الإسلام الصافية.



المصادر:

- «أبو الأعلى المودودي والصحوة الإسلامية» لمحمد عمارة.
- «زهر البساتين من مواقف العلماء الربانيين» للدكتور سيد العفاني (٣/ ٩٨).
- موقع علماء سلف الأمة.

الشيخ/ أحمد السرهندي

تولى حكم الهند سنة ٩٦٣هـ رجل من ملوك المغول من أحفاد تيمور، يدعى جلال الدين أكبر، وما أن تربع على كرسيه حتى سام مسلمي الهند سوء العذاب فاضطهد علماءهم، وضيق على عامتهم قتلًا وتشريدًا واعتقالًا، وعاث في البلاد الفساد؛ هذا حاله مع المسلمين، أما مع الإسلام فقد أعلن الحرب عليه، حربًا شعواء لا هوادة فيها، مبتدئًا بفسخ نبوة محمد ﷺ مدعيًا بأن عصر النبوة قد انتهى إلى هذا الألف من الأعوام وبدأ عصر الألف الثاني بإمامته العظمى، وأنه صاحب الكلمة لا يعصى في أمر ولا يرد له حكم.

عارض الكثير من العلماء ما يدعيه الملك، فكان جزاؤهم السجن المؤبد، أو القتل الزؤام جزاء وعقاب، وتمادى الملك في غيه فحرم ذبح البقر وكتابة التاريخ الهجري، كما حرم تسمية رجالات قصره وأعوان حكمه بأسماء النبي ﷺ، وأباح ذلك للعبيد وخدمه، تحقيرًا وامتهانًا للنبي الكريم ﷺ.

وحلل الخمر والقمار والخنزير والزواج من بنات الهندوس الوثنيين، ثم لم يكتفِ بهذا الكفر الصريح، بل شرَّع ديانة جديدة وابتكر طقوسًا وشعائر متعبدًا وآمرًا بها.

فكانت صلاته على طريقة براهمة الهند موليًا وجهه شطر الشمس، ومثل هذا الكفر والزيغ والإلحاد كثير وكثير، حتى وقعت الأمة الإسلامية بهذا القطر العزيز، بمحن ونكبات ومصائب جمة يتشقق منها القلب، ويضيق عنها نطاق النطق، وألحقها من الاضطهاد ما لم تره البشرية في تاريخها، إلا في عهد التتار والمغول.

في هذا الواقع الأليم الذي يعج بالكفر والإلحاد والاضطهاد، عاش الشيخ أحمد بن عبد الأحد الفاروقي السرهندي، ورأى تلك المحنة وهو في زهرة شبابه، ولمس هذا الشر المستطير، وهو في مرحلة العلم.

وما أن تخرج عالمًا، وأصبح في عداد المشايخ الذين يتأثر الناس بكلامهم، ويستمعون إلى إرشادهم، حتى عرضت له أسنى المناصب في هذه الدولة، فرفضها بإباء وشمم، لأنها خسة ومهانة، وما كان لمثله أن يشارك في تثبيت هذه الدولة الكافرة ويوطد أركان حكمها الفاسد، وإنما دعوته [دعوة الإسلام] بجرأة وشجاعة، إنه يريد تقويم حكام هذه الدولة، والقضاء على الدولة وإزاحتها من الوجود، لتحل محلها دولة الإسلام، تحفظ الشرع، وتقيم الحدود، ويرعى أبناء الأمة على أساسه، لا يرضى بذلك بديلًا، ولا يقبل عن الإسلام تحويلًا، ولقد تم له ما أراد وحقق ما عزم عليه، مستلهمًا التوفيق من الله وطالبًا النصر منه: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

ولكن هل يحصل له ما يريد؟ ويتحقق ما عزم عليه؟ دون محنة واضطهاد؟

استمر الشيخ بدعوته التي أوقف نفسه عليها، وهكذا شأن العلماء الرجال، فأخذ يجمع الناس على ما عزم عليه، فاستجاب له خَلْق كثير، فكثر أتباعه؛ فازداد همة ونشاط، لا يعرف السأم والملل، وفي تلك الأثناء هلك هذا الطاغية الجبار الملحد سنة ١٠١٤هـ وانتهت بهلاكه فكرة الإمامة العظمى المزعومة، وخلفه ابنه جهان أكبر.

أما الشيخ فانتبه للأمر، وأخذ له عُدَّة، واتخذ من إصلاح الحاكم الجديد نقطة ابتداء، فبصلاح الحاكم وصلاح العلماء من أمثال شيخنا الكريم، تصلح البلاد، ويصلح الناس، وتلك نظرة مقررة في الشرع، ولذلك قال: إن الملك الجديد قد أفسده المفسدون، فثار على الدين وانحرف عن الجادة، ولكن ليس هو الدولة كلها، وقد كُتب عليه الموت، وهو خاضع للسنن الإلهية، فيموت ويخلفه غيره، فلابد أن أؤدي رسالتي وأتصل ببلاطه وأركان دولته، ولا موجب للقنوط من الفطرة الإنسانية، فالصلاح فيها أصيل والفساد عليها طارئ، فلأجرب ولأحاول، وإن الله ناصر من نصره، وخاذل من خذله.

بتلك الروح العالية وبهذا الفهم الصحيح، أخذ يتصل ويكاتب أمراء الجيش ورؤساء الدوائر الحكومية، ممن آنس فيهم رشدًا، ينبههم من نوم الغفلة، ويلفت أنظارهم إلى ما أتت به الفتنة الكبرى، من مصيبة وبلاء للدين الحق، وما جرته من وبال على المسلمين.

وكان يقول في رسائله: إلى قواد الجيش الركن الأعظم للدولة في عهد جهان أكبر، إن ميدان البطولة الإسلامية لا يزال خاليًا ينتظر فارسًا من فرسان الإسلام، فهل تسبق إلى هذه السعادة، وتحرز قصب السبق، وتنصر هذا الدين المظلوم، وتغضب لهذا الحق المهضوم، وتبلغ بجهادك إلى حيث لا يبلغه المتعبدون الصائمون القائمون، فمهلًا يا أهل الغيرة والفتوة! ويا أهل الشهامة والمروءة!.

وما أن سمع رجال حاشية الملك جهان أكبر بتلك الرسائل حتى أخذتهم العزة بالإثم، ورأوا في وجود الشيخ خطرًا عليهم، وأن اتصالاته المريبة يُخشى منها على الدولة، وعلى الملك نفسه، فأوغروا صدر الملك عليه وهمسوا في أذنه على خطر دعوة الشيخ واتصالاته، وأشاروا عليه أن يطلبه إلى بلاط الحكم، ويمتحنه.

هكذا تآمروا ليوقعوا المحنة بالشيخ، وبهذا يقضي عليه وعلى دعوته لاعتقادهم أن الملك لن يقبل كلام الشيخ بأي حال من الأحوال، فكانت تلك هي المكيدة وهذه هي المؤامرة. لأن رجال الحاشية الملكية وجلاوزة الملك يعرفون حقًا صلابة الشيخ في إيمانه، وقوة عوده في يقينه، وجرأته في مخالفته لما عليه الملك في أحواله الخاصة والعامة، فلا تلين له قناة، ولا يجامل أحدًا، ملكًا كان أو مملوكًا، راعيًا أم رعية، وسوف لا يسجد للملك عند المقابلة، كما يقتضي العرف الدبلوماسي المقيت، وإن سأله الملك، فستكون أجوبته جريئة صريحة، ولن ترضي الملك، فتقع المحنة، ويصيبه شررها من اضطهاد ونحوه.

وافق الملك على إشارة رجال حاشيته، واستدعى الشيخ إلى قصره وبلاطه، فاستجاب الشيخ ولكنه كما توقع الكائدون عندما دخل قصر الملك نبهه رجال القصر إلى أن يسجد

للملك عند لقائه، فامتنع ودخل مسلمًا بتحية الإسلام. فاستشاط الملك غيظًا وغضبًا وقام هائجًا، وسأل منكرًا: ما هذا؟ أخرجوه، وأمر بسجنه في الحال.

وكان لحاشية الملك ما أرادوه وخططوا له فأخذ الشيخ من تلابيبه وسحبوه في مهانة وطرحوه في سجن حصن كواليار في قلب مدينة الهند الذي يسجن به كبار اللصوص وعتاولة المجرمين.

لبث الشيخ في السجن بضع سنين يشتغل بالعبادة ويدعو المسجونين معه إلى الإسلام، فأسلم على يده مئات المسجونين، وصار الجناة من السارقين وقطاع الطرق، يؤدون العبادة ويسجدون للحي القيوم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأصبحوا يأتمرون بأوامر الشيخ، وظهرت عليهم الصفات الخُلُقية الكريمة، فتنبه لذلك مدير السجن، فكتب رسالة إلى الملك رسالة خاصة يخبره فيها أن المحبوس الشيخ السرهندي، ليس من شأنه أن يحبس!! وإنما هو ملك قلما ينجب الدهر مثله، فإن رأى الملك أطلقنا سراحه وأكرمناه بما يستحقه.

وصلت الرسالة إلى الملك وقرأ ما فيها من علامات الصلاح التي ظهرت على يد الشيخ، وكيف أن كبار اللصوص وعتاولة الإجرام تابوا وأسلموا، بل وصلح إسلامهم، فتحرى أخبار ذلك الشيخ بنفسه ودرس حياته بعناية فوجد أنه عالم عامل وصدوق، فشعر الملك أن هناك مكيدة دُبِّرت لهذا الشيخ للإيقاع به، فندم الملك على ما ظهر منه من بوادر الشدة في شأن الشيخ، وأمر بإحضاره إلى مقر المملكة، ولما بلغه خبر دنوه من العاصمة، بعث له ولي عهد مملكته ليكون في شرف استقبال الشيخ.

وعلى مدخل القصر انتظره الملك ورحَّب به أشد ترحيب، ودخل الشيخ عليه وأعاد التحية بالسلام: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته... فرد الملك التحية بالترحاب، وأخذ يكسب وده ويتقرب إليه، ويعتذر له على ما حدث له.

وكان يوم هذه المقابلة في ليلة شهر رمضان المبارك، وأبى الملك إلا أن يضيف الشيخ عنده في هذا الشهر الكريم، ورجاه أن يُسْمِعه ما يدور في خاطره وأن يحدِّثه عما يريد، وأن يخبره بحقيقة دعوته، فاستجاب الشيخ مستبشرًا بذلك، فهذا يوم طالما تمناه.

قضى الشيخ شهر رمضان في ضيافة الملك، وفي بلاطه، محدِّثًا إياه عن الإسلام وعدله، شارحًا له واقع الخلفاء، والصالحين الذين تولوا حكم المسلمين، وقد وهبه الله صدقًا في اللهجة وحسنًا في التعبير، وسلاسة في العرض، والملك ينصت له، فبدأ الصلاة خلفه، وأقام صلاة التراويح، وأخذت أصداء آيات القرآن الكريم تجلجل في رحاب القصر، وعاش الملك في جو روحي عبق، حتى استطاع الشيخ بفضل الله وتوفيقه أن يغير قلب الملك وفكره، فأحب الإسلام واعتقد به، وأعلن ذلك للأمة بمرسوم أصدره يحمل الأوامر التالية:

١ - تحريم السجود للملك.

٢ - الإذن بذبح البقر.

٣ - تعيين القضاة ورجال الحسبة في كل بلد.

٤ - إعادة بناء المساجد المهدمة.

٥ - إبطال القوانين المعارضة للشريعة الإسلامية.

وهكذا أخذ الولد الصالح المؤمن ينفض ما أبرمه والده الكافر الفاسد.

استأذن الشيخ من الملك بالرجوع إلى بلده، فأذن له معززًا مكرمًا، فعاد الشيخ إلى زاويته بسرهند، مستمرًا على النصح والإرشاد، يعلم أتباعه ليحملوا رسالته، وليواصلوا من ارتقاء سلم الكمال بالدولة نحو الإسلام، بعد أن تركها الشيخ في وضع حسن، أمن المسلمون فيها على دينهم وزال عنهم ما أصابهم من هم وغم، ومحن واضطهاد.

الأستاذ/ مصطفى السباعي

ولد الأستاذ مصطفى حسني السباعي في عام ١٩١٥م في مدينة حمص السورية في أسرة علمية عريقة. كان أجداده وأبوه يتولون الخطابة في الجامع الكبير بحمص جيلًا بعد جيل، وكان أبوه الشيخ حسني في طليعة العاملين والمؤيدين للحركات الوطنية، ومن محبي الخير مساهمًا في تأسيس الجمعيات الخيرية والمشاريع الاجتماعية، يحرص على عقد مجالس العلم مع لفيف من فقهاء حمص وعلمائها الأخيار حيث كانوا يتدارسون الفقه ويتناقشون في أدلة مسائله.

بدأ مصطفى السباعي بحفظ القرآن الكريم، وتلقى مبادئ العلوم الشرعية على أبيه حتى بلغ السن التي تخوله دخول المدرسة الابتدائية، حيث التحق بالمدرسة المسعودية، وبعد أن أتم فيها دراسته بتفوق ظاهر، التحق بالثانوية الشرعية وأتم دراسته فيها عام ١٩٣٠م بنجاح باهر لفت أنظار كبار أساتذته الذين كانوا يتوقعون له مستقبلًا علميًا باهرًا. ولم يقتصر في دراسته الشرعية على المناهج المدرسية، وإنما كان يحضر مجالس العلم التي كان يعقدها والده مع كبار الفقهاء والعلماء، وكان يتردد على غيرهم من علماء حمص يتلقى عنهم العلوم الإسلامية المختلفة. كما كان السباعي مولعًا بالمطالعة والبحث في كتب الأدب والثقافة المختلفة، وفي ذلك قام بتأليف جمعية سرية لمقاومة مدارس التبشير الأجنبية التي أنشئت بمساعدة السلطات الاستعمارية الفرنسية، وكانت هذه المدارس تحبّب إلى طلابها الثقافة الغربية وتعمل على إبعادهم عن عقيدتهم. . فعمل السباعي على محاربتها، كما ساهم في تأسيس وقيادة عدد من الجمعيات الإسلامية في حمص وفي غيرها، ومنها [الرابطة الدينية بحمص] و[شباب محمد ﷺ] و[الشبان المسلمين في دمشق].

وكان يلقي خطبة الجمعة في كثير من الأحيان في الجامع الكبير نيابة عن أبيه، مما جعله يحتل مكانة مرموقة في بلده، وحاز إعجاب الجماهير التي كانت تتوق لسماع خطبه القوية

الحماسية ضد الاستعمار الفرنسي مما أدى إلى اعتقاله مرتين: ١٩٣١م، ١٩٣٢م، وعندما أُفرج عنه رأى أن يتابع دراسته وتحصيله العالي في مصر.

سافر مصطفى السباعي إلى مصر عام ١٩٣٣م، والتحق بالجامعة الأزهرية، وانتسب إلى قسم الفقه، وأدهش أساتذته لما أبداه من تفوق باهر، ثم انتسب إلى كلية أصول الدين، ونال إجازتها بتفوق التحق بعدها بقسم الدكتوراه لنيل شهادتها في التشريع الإسلامي وتاريخه، وقد قدم أطروحته العلمية وموضوعها [السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي] التي نالت درجة الامتياز، وكان ذلك عام ١٩٤٩م وقد أدهش اللجنة بدقته العلمية، وأصبح هذا الكتاب القيم من أهم المراجع العلمية في موضوعه. وما أن استقر السباعي في القاهرة، حتى بادر للاتصال بداعية الإسلام الشهيد حسن البنا، وكان قد سمع به من قبل وعرف جهاده في سبيل الإسلام، وكان الإمام البنا قد فرغ من بناء جماعته التي استطاعت بقيادته الفذة أن توجد في مصر التيار الإسلامي الذي أثبت وجوده، وقد أفزع الإمام البنا الاستعمار وعملاءه، فأقدموا على اغتياله عام ١٩٤٩م، بعد أن أثبت أنه وجماعته قوة ترهب المستعمرين وتهدد وجودهم ومصالحهم.

وقد أعجب السباعي بعمل الإمام البنا، ورأى أن ما كان ينشده ويفكر به من تنظيم جماعة تنهض بعبء رسالة الإسلام، قد تحقق على يدي الإمام البنا، فساهم خلال وجوده في مصر بدفع هذه الحركة، وتوسيع نشاطها، وتدعيم أساسها، فاستفاد من تجربتها وأفادها من خبرته ونشاطه. وبلغ نشاطه حدًا أقلق الاستعمار البريطاني وأتباعه في مصر آنذاك، فألقي القبض عليه من قِبَل القيادة البريطانية بتهمة تحريض الشعب المصري على الثورة ضد الإنكليز، وزُجَّ به في السجن، وبعد شهرين سُلم إلى السلطات الإنكليزية في فلسطين، فأودع معتقل صرفند وبعد مضي أربعة أشهر أفرج عنه لتعيد السلطات الفرنسية اعتقاله من جديد فور وصوله إلى سورية، وزَجَّته في سجون لبنان أكثر من سنتين ونصف، وبعد أن أفرج عنه

عاد إلى حمص ثم انتقل إلى دمشق ليتابع نشاطه في الدعوة إلى الإسلام، وقيادة الجماهير في طريق [الحق والقوة والحرية]، ورأى أن الوقت قد حان لإخراج الحركة من نطاق العمل الشعبي العام إلى نطاق الحركة المنظمة، وبدأ باصطفاء الأكفياء من الرجال، وانتهى إلى تأسيس الجماعة المنشودة مختارًا لها اسم الحركة الإسلامية في مصر، لإخراج الحركة من النطاق المحلي إلى نطاق الوطن العربي الكبير، فأعلن عام ١٩٤٥م قيام [جماعة الإخوان المسلمين]، وقد انتخبته الهيئة التأسيسية للجماعة فيها بعد مراقبًا عامًّا مدى الحياة، فقاد الجماعة قيادة الحكيم حتى استطاع أن يوجد في سورية التيار الإسلامي الواعي الذي استقطب خيرة الشباب المثقف المؤمن، واستمر السباعي القائد يمنح دعوته وجماعته من شبابه المتوقد وحيويته النادرة وعقله الجبار وروحه القوية كلَّ ذرة من جهده ووقته حتى سقط من الإرهاق، لكنه لم يستسلم للمرض وكان يقول: [خير لي أن أموت وأنا أقوم بواجبي نحو الله، من أن أموت على فراشي، فالآجال بيد الله، وإن ألمي من حرمان الطلاب من دروس التوجيه أشد وأقسى من آلامي الجسدية، وحسبي الله وعليه الاتكال].

بعد أن أنهى السباعي دراسته وعاد إلى بلده انخرط في سلك التعليم، رغبة منه في نشر العلم، وتربية النشء على أخلاق الرجولة، فكان يدرّس اللغة العربية والتربية الدينية في مدارس حمص الثانوية، وعندما انتقل إلى دمشق عمل مع فئة من إخوانه على إنشاء مدرسة تحقق ما يصبو إليه من أهداف في التربية والتعليم، فأسس [المعهد العربي] في دمشق الذي انضمت إلى إدارته فيما بعد جمعية التمدن الإسلامي، فأصبح الاسم [المعهد العربي الإسلامي]، ولم يقتصروا على إنشاء هذا المعهد في دمشق، بل فتحوا له فروعًا في أكثر المحافظات، وكان السباعي أول مدير لهذا المعهد الذي خرّج في زمانه طلابًا كانوا خيرة ما أنتجته المدارس في سورية.

وفي عام ١٩٥٠م عيّن السباعي أستاذًا في كلية الحقوق في دمشق، فكان من ألمع الأساتذة في فن التدريس وخصب الإنتاج العلمي. وقد فكر في إنشاء كلية خاصة مستقلة

ـشريعة الإسلامية، على أرفع المستويات العلمية والفكرية، فنجحت مساعيه رغم العراقيل والصعوبات وتم تأسيسها عام ١٩٥٥م، وكان أول عميد لها إلى جانب قيامه بالتدريس في كلية الحقوق واضطلاعه بكافة المسؤوليات العامة الملقاة على عاتقه كداعية وكصاحب فكرة.

وفي عهد الشيشكلي في أواخر عام ١٩٥٢، تعرَّض الدكتور السباعي لمضايقة السلطة الحاكمة التي فرضت عليه رقابة مزعجة تحصي عليه حركاته وسكناته. ولم يكتفِ الشيشكلي بهذه المضايقة، بل طلب من أساتذة الجامعة ومن كبار الموظفين أداء قسم الولاء لعهده والدخول في الحركة التي أسسها باسم [حركة التحرير]، ولكن السباعي رفض الانصياع للأوامر، فغضب الشيشكلي وأصدر مرسومًا بتسريحه من الجامعة، وأبعده عن البلاد فاختار لبنان وبقي فيه حتى أواخر عهد الشيشكلي، وهناك في لبنان التف حوله مئات الشباب الجامعي المثقف، وأظهروا له استعدادهم لإنشاء حركة إسلامية في لبنان بقيادته، وفعلًا أسس معهم الحركة التي استمرت تسير على النهج الذي رسمه لها.

وفي مطلع عام ١٩٥٦م حاول أحد المجرمين المأجورين الإقدام على اغتيال السباعي، ولكن الله سلمه، وتمكنت سلطات الأمن من إلقاء القبض على المجرم الذي تبيَّن أنه أحد أفراد عصابة مأجورة لمصلحة دولة أجنبية، وأن سبب الاغتيال وقوف السباعي في وجه الأحلاف الغربية.

في نهاية الطريق كان الابتلاء قبل أن يتوفَّ السباعي بمرض ألم به، وتوفي من أثره يوم السبت الثالث من تشرين الأول عام ١٩٦٤م.

❁❁❁

الإمام/ سليم البشري

«إن رأيي لي، ومنصبي لهم، ولن أُضحي لهم بما يدوم في سبيل ما يزول»

هذه العبارة الدالة على تمسك صاحبها برأيه وتقديسه لكلمة الحق، وعدم تنازله عن قولها، حتى ولو ضحى من أجل ذلك بأرفع المناصب، حتى ولو كان المنصب هو شيخ الأزهر. قالها العالم الإمام سليم بن أبي فراج البشري الإمام رقم ٢٥ في تولي مشيخة الأزهر، الذي قدَّم استقالته من هذا المنصب الهام والحساس عندما وجد أن ثمن بقائه في المنصب هو التنازل عن رأيه والانصياع لرغبة الحاكم.

هو الشيخ سليم بن أبي فراَج بن السيد سليم بن أبي فراج البشري، نسبه إلى محلة بشر من قرى شبراخيت بمحافظة البحيرة، وهو من مواليد عام ١٢٤٨هـ ١٨٨٢م، توفي والده وهو في السابعة من عمره، فكفله أخوه الأكبر عبد الهادي البشري، ولما بلغ التاسعة كان قد حفظ القرآن الكريم وجوَّده.

ثم قَدَم إلى القاهرة، وأقام عند خاله «بسيوني البشري» أحد العلماء فتلقى عنه مبادئ العلوم، وظل في كنفه عامين درس فيهما عليه وعلى غيره من العلماء قراءات القرآن الكريم ثم التحق بالأزهر الشريف، واتصل بكبار العلماء، حيث درس الفقه على مذهب الإمام مالك، ودرس بالأزهر تسع سنوات كاملة، حيث تلقى العلم على يد عدد من العلماء الأجلاء منهم الشيخ الخناني والشيخ عليش والإمام الباجوري وغيرهم.

ولما مرض شيخه الخناني أوكل إليه أن يقوم مكانه بالتدريس لما أنس فيه من علم، وأقبل الطلاب على دروسه، ونبغ في علوم كثيرة، وكان يجد لكل مسألة حلًا، حتى قصده العلماء، يحضرون دروسه مع الطلاب، ونبغ في علوم الحديث نبوغًا كبيرًا أبلغه درجة كبار المحدثين، ثم عُين شيخًا ونقيبًا للسادة المالكية وهو من أكبر مناصب الأزهر.

ولما اتجهت النية إلى إصلاح الأزهر في عهد الشيخ حسونة النواوي كان في مقدمة العلماء الذين وقع عليهم الاختيار لعضوية مجلس إدارة الأزهر، مع الشيخ محمد عبده والشيخ عبد الكريم سلمان وغيرهم من كبار العلماء، الذين أوكل إليهم مهمة إصلاح وتطوير الدراسة بالأزهر ليواكب علوم العصر ومستجدات الحياة الحديثة، فكان عضوًا بارزًا ووقع عليه الاختيار ليكون شيخًا للأزهر عام ١٩٠٠م ١٣١٧هـ.

وحدث أثناء توليه مشيخة الأزهر أن اختير الشيخ أحمد المنصوري شيخًا لأحد الأروقة بالأزهر، ولم يكن الحاكم راضيًا عن هذا الشيخ، فأوعز إلى فضيلة الإمام الأكبر بالعدول عن هذا القرار، فأبى الشيخ الرجوع عن اختياره وقال: إن كان الأمر لكم في الأزهر دوني فاعزلوه، وإن كان الأمر لي دونكم فهذا الذي اخترته ولن أحيد عنه.

انتهز الدساسون الفرصة وأوغروا صدر الخديوي عباس عليه فأرسل إليه من يقول له: إنَّ تشبثك برأيك قد يضرك في منصبك. ولما رأى الشيخ سليم أن هذه رسالة تهديد مباشرة صمم على رأيه ورفض التراجع عنه، وقال قولته المشهورة: إن رأيي لي ومنصبي لهم، ولن أضحي لهم بما يدوم في سبيل ما يزول... وقدَّم استقالته، فقبلت في اليوم الثاني من ذي الحجة سنة ١٣٢٠هـ. وعُين بدلًا منه في منصب شيخ الأزهر الشيخ علي بن محمد الببلاوي الذي قضى في المنصب حوالي ثلاثة أعوام حيث قدم استقالته وحل محله الشيخ عبد الرحمن الشربيني الذي لم يقضِ بالمشيخة إلا حوالي عام واحد واستقال من منصبه، وأُعيد الشيخ حسونة النواوي كشيخ للأزهر حتى عام ١٣٢٧هـ، وعندما استقال تقرر إعادة تعيين الشيخ سليم البشري كشيخ للأزهر للمرة الثانية عام ١٣٣٥هـ.

وفي عهده طبق نظام امتحان الراغبين في التدريس بالأزهر، واجتاز هذا الامتحان كثيرون من العلماء، وكان: حازمًا في إدارته للأزهر، وعلى الرغم من الأعباء الكبيرة التي كان يحملها في مباشرته لمشيخة المالكية ومشيخة الأزهر، فإنه ظل يباشر إلقاء دروسه في الأزهر،

كما ظل يباشر التدريس والتصنيف، وقيادة الحركة الإصلاحية بعزم وحزم حتى ظهرت آثارها في عهده، وحتى أصبح معظم مدرسي الرياضة في عصره من علماء الأزهر، بعد أن كادت صلات الأزهر بهذه العلوم تنقطع انقطاعًا تامًا.

ومن أمثلة شجاعته واعتزازه بنفسه، أنه عقب استقالته من منصب شيخ الأزهر في المرة الأولى ذهب في اليوم التالي لعزله إلى الجامع الأزهر للجلوس في مقعد التدريس حيث ألقى درسي التفسير والحديث اللذين حضرهما نحو خمسمائة عالم وما لا يحصى من الطلاب.

وعندما اضطربت الأحوال في الأزهر وكثرت استقالات مشايخه، اضطر ولاة الأمر إلى اللجوء إليه ليعود إلى منصبه شيخًا للأزهر ليعالج هذه الاضطرابات، فاشترط لقبوله أن تقوم الحكومة بإكرام العلماء والطلبة والتوسع في أرزاقهم، ورد حقوقهم إليهم، فتقرر زيادة مرتبات العلماء عشرة آلاف جنية سنويًا، واستطاع أن يحصل من الحكومة على ترخيص يسمح لكل عالم في أي معهد من المعاهد الأزهرية بالسفر في قطارات السكك الحديدية بنصف الأجر المقرر، وكذلك الطلبة في أيام حضورهم للدراسة وانصرافهم في الأجازات. وظل الإمام سليم البشري يكافح ويجاهد في النهوض بالأزهر الشريف، حتى نال الحظوة لدى السلطان، فمنحه النيشان المجيدي الأول، والوشاح الأكبر وسام النيل.

وكان من عاداته أن يستيقظ من نومه في الثالثة صباحًا فيتهجد ما شاء الله له أن يتهجد، ثم يوقظ حَفَدته الصغار، فيتناول معهم طعام الإفطار، ثم يلقي عليهم بعض الدروس. وكان دائم التصدُّق بمرتبه حيث لم يقبض مرتبه في حياته مرة واحدة، وإنما كان يكل ذلك إلى من يثق به، ويطلب منه أن يتصدق به على بعض الأسر الفقيرة.

وتوفي الشيخ وهو في التسعين من عمره بعد أن قام بنهضة إصلاحية تعليمية وعلمية، وخفف أعباء مادية كثيرة عن كواهل العلماء والطلاب.

الإمام المجاهد/ بدر الدين الحسني

عالم الدين الحق هو الذي يكون في الطليعة دائمًا، إذا دعا الناس إلى فعل الخير كان هو من السابقين إليه، وإذا نهى عن شيء كان أول المنتهين عن إتيانه، وإذا ما دعا داعي الجهاد كان في مقدمة الساعين إلى الشهادة أو النصر.

وهكذا كان عالم الشام الشيخ بدر الدين الحسني، الذي لم يكتفِ بواجبه التعليمي في العلوم الشرعية والكونية، بل إنه قام بدور رئيسي في الجهاد ضد المستعمر الفرنسي.

هو محمد بن يوسف بن عبد الرحمن بن عبد الغني المراكشي السبتي[نسبة إلى مدينة سبتة في المغرب]، ولد في دمشق سنة ١٢٦٧هـ الموافق ١٨٥٠م لأبوين فاضلين تقيين، يُشهد لهما بالصلاح، فوالدته السيدة عائشة الكزبري بنت الشيخ إبراهيم الكزبري من أعرق أسر دمشق علمًا وفضلًا وحسبًا ونسبًا، وقد عُرفت هذه الأسرة برواية الحديث.

أما والده فهو السيد يوسف، ويكفيه فخرًا أنه هو الذي استخلص دار الحديث الأشرفية بدمشق من يد بائع خمر حوَّلها إلى مستودع للخمور، فعندما قدم هذا الرجل إلى دمشق، وسمع ذلك، حتى هبَّ يستنصر أهل الشام لإزالة هذا المنكر، فرفع الأمر إلى الوالي الذي لم يفعل شيئًا خوفًا من إغضاب القنصلية الفرنسية التي كان يتمتع بحمايتها تاجر الخمور. فما كان منه إلا أن ذهب إلى الأستانة حيث حصل على فرمان سلطاني بإنقاذ دار الحديث الأشرفية من يد ذاك الرومي. ولكن الوالي لم ينفذ الأمر السلطاني، فسعى السيد يوسف لدى الأمير عبد القادر الجزائري الذي كان يقيم في ذاك الوقت بدمشق وأقنعه بشراء الدار من بائع الخمر، وتولى السيد يوسف إصلاحها وإدارة شئونها.

نشأ الشيخ محمد بدر الدين في رعاية هذا الوالد العلامة الشيخ يوسف، وحفظ القرآن بمعونته وإرشاده، وقرأ عليه مبادئ العلوم حفظًا وفهمًا.

ولما بلغ الثانية عشرة من عمره، توفي والده فجلس في غرفة والده بدار الحديث وأخذ يدرس الكتب التي تركها له والده بهمة عظيمة، حتى أدهش علماء عصره بعقله فقد حفظ اثني عشر ألف بيت من الشعر في فنون مختلفة وهو لم يتعدَّ الثانية عشرة من عمره، ولم يكد يكمل الثانية عشرة إلا وقد نبغ نبوغًا باهرًا استلفت أنظار مشايخه، فأجازوه وأذنوا له بالتدريس.

أقبل الشيخ الشاب على تحصيل العلم بهمة صادقة، وعزيمة صحيحة، لا يفتر عن ذلك آناء الليل وأطراف النهار، وكان حصاد خلوته هذه أنه أَلَّف نحوًا من أربعين مؤلفًا قبل أن يكمل سن العشرين، معظمها كان شروح وتعليقات على الكتب والمتون المعتمدة، وحفظ صحيحي البخاري ومسلم بأسانيدهما، وموطأ مالك ومسند أحمد وسنن الترمذي وأبي داود والنسائي وابن ماجه، وكان يحفظ أسماء رجال الحديث، وما قيل فيهم من جرح وتعديل.

ولم يكن قد تجاوز الثلاثين من عمره حتى تصدر للإقراء والتدريس، فألف الكتب الكثيرة وأقرأ الكتب الكبيرة، وليس هذا بمستغرب على شاب انكب على المطالعة وأولع بها كثيرًا منذ أن كان صغيرًا جدًا، وساعده على ذلك تجنبه كثرة الاختلاط بالناس، وابتعاده عن فضول الأمور، فكان لا يتكلم إلا بما لا يدمنه من الكلام.

وأشاد به كل علماء عصره، قال العلامة الشيخ بهجة البيطار: كان أعلم محدثي الشام، حفظ ودراية وكتابة ودراسة، أما الحديث فلا نعلم له نظيرًا في حفظه، ولا في ضبط رجاله ومعرفة سنده، وحسبه روايته في الجامع الأموي تحت قبة النسر، من بعد فريضة الجمعة إلى أذان العصر، وقد دأب على ذلك نحو ثلاثة أرباع قرن.

وأما دار الحديث الأشرفية، فقد كان يجلس فيها للدرس صباح كل جمعة وثلاثاء، ولم يكن يقرأ للطلاب فيها من كتب العلوم الشرعية والعربية والعقلية إلا مطولاتها وصعابها،

فقد رأى أن هذه الكتب ترفع الهمم وتقوى الملكات في الفهم، وتعين على دفع الإشكالات والشبهات.

كان يقضي يومه في حركة دائبة وعمل مستمر، لا يكاد يستريح إلا سويعات من الليل ينام فيها، ثم يقوم قبل الفجر للعبادة والطاعة والعمل المستمر.

يشرح أحد تلاميذه نمط عمله اليومي، يقول الشيخ محمود ياسين: كان الشيخ بدر الدين يُصلي الصبح في الجامع الأموي ثم بعد أن يقرأ بعض أوراده يذهب إلى غرفته في دار الحديث، وحوله جماعة ممن وُلعوا به، فإذا وصل إلى باب المدرسة أقبل عليهم بوجهه وطلب منهم الدعاء، ثم سلم ودخل غرفته، وهناك يتم بقية أوراده، ثم يُصلي صلاة الضحى التي لم يتركها حتى في سفره إلى الحجاز ولا يوم وفاته.

وبعد أن يقضي إغفاءة يبتدئ الدروس التي تمتد إلى ما بعد الصحوة الكبرى، فإذا قرب الظهر توضأ واستقبل القبلة ودعا، وصلى ما شاء الله له أن يصلي، فإذا أُذن الظهر صلاها بجماعة، وأقبل بعد قراءة أوراده على الدروس، فإذا قرب العصر تهيأ، ثم بعد أن يصليها مع الجماعة يعود إلى الدروس في بيته، وهذا الدرس يحضره بعض الطلبة وكثير من العامة، ويؤخر صلاة العشاء لأجله، فإذا صلاها مع الجماعة ذهب فورًا إلى مضجعه من غير أن يكلم بعدها أحدًا فينام وهو ذاكر الله تعالى، ثم يقوم للتهجد حتى يقرب الفجر، فيأتي الجامع الأموي فيصلي فيه الفجر.

وهكذا كانت حياته دائرة بين ذكر وصلاة ودعاء ومناجاة وصيام وقيام ودروس خاصة وعامة، وشفاعة لدى حاكم، ونصيحة به، وسؤال عن أحوال الناس، وعن أسعار أقواتهم، ومواضع شكاتهم، وترحيب بزائر وطلب الدعاء منه، وزيارة للسجون يتفقد أحوال المسجونين بها ويعظهم، وكذلك القبور، وصلة الأرحام، وعيادة المرضى، وجَمْعٍ للناس على الله تعالى وتخويف من عقابه.

وكان الشيخ بدر الدين الحسني من دعاة الجهاد في سبيل الله فقد كان يهيئ نفوس طلابه ويعدهم للقتال، ويبين لهم فضل المجاهدين بأموالهم وبأنفسهم، مصداقًا لقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٤١].

وكان يحدثهم أن المسلم يقاتل إما للنصر وإما للشهادة، وللشهداء منزلة عالية عند ربهم وأنهم أحياء عند ربهم يرزقون: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًاۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾

[آل عمران: ١٦٩-١٧١]

هذه الرغبة في الجهاد التي كان يزرعها في قلوب وعقول تلاميذه، كانت راسخة مستقرة في وعيه ويقينه، لذلك لم يكتفِ بواجبه التعليمي في العلوم الشرعية والكونية، بل إنه قد رفض مقابلة الجنرال الفرنسي غورو عندما وصل إلى دمشق، وحضَّ الناس على عدم دفع الضرائب للفرنسيين أو التعامل معهم، وصار يعلن في مجالسه الخاصة وفي دروسه أن الجهاد ضد الفرنسيين فرض على الناس.

وحتى يُعد النفوس للثورة والجهاد خرج الشيخ بدر الدين مع بعض تلاميذه ومنهم الشيخ على الدقر والشيخ هاشم الخطيب. يجوبون البلاد داعين إلى الجهاد والثورة على ظلم واستبداد الفرنسيين، بدأوا رحلتهم من دمشق في سنة ١٩٢٤م إلى دوما وإلى حمص وحماة، وإلى حلب، طافوا في سرية كاملة، وكانوا كلما وصلوا إلى بلدة أو قرية، خرج أهلها عن بكرة أبيهم لاستقبالهم بالأهازيج والمواكب، ثم ساروا وراءهم إلى المسجد فتكلموا فيه ووعظوا، وحمسوا وأثاروا العزة الإسلامية في النفوس، وذكروا بالمجد الغابر، وحثوا على الجهاد لإعلاء

كلمة الله، فكانت هذه الرحلة هي العامل الأول والمباشر لقيام ثورة ١٩٢٥م السورية ضد الفرنسيين التي امتدت سنتين، وأذهلت ببطولتها العالم كله.

كان يعيش في سعة من دنياه، ولكن الدنيا كانت في يده لا في قلبه، وكان اعتماده على الله، لا على المال، فلا يحرص عليه حتى يناله من غير محله، ولا يجزع إذا ذهب بغير عمله، عاش ثمانين سنة بالعلم وللعلم، ما جرى فيها بغير العلم لسانه، إلا أن تكون كلمة لابد منها.

ظل طوال هذه السنوات يقوم بالواجب الكبير، والجهاد العظيم المزودج الجبهة: جهاد ضد المستعمر، وجهاد ضد الجهل والظلام والفساد، لا يكف عن تعليم، ولا يغيب عن درس، يحافظ على نظام عمله وترتيب أوقاته. . وما زال في حيوية ونشاط، كان وهو ابن ثمانين سنة ظننته ابن الثلاثين، مازال في حركته الدائبة، وهمته الكبيرة وعمله الشاق، لا يغير منها شيئًا طيلة سبعة وثمانين عامًا، لم يقطع درسًا، ولم يؤجل مجلسًا، اللهم! إلا ما كان في اليوم السابق لوفاته.

ولما أحس الشيخ بدنو أجله ازدحم طلابه وأحبابه حوله حتى شعر بالاحتضار فسارعوا بالانصراف ليتركوه يلاقي ربه وحده وهو يناجيه بالذكرَ والدعاء والشكر، وأسلم الروح إلى بارئها، وكان ذلك بعد الضحى بساعة من صباح يوم الجمعة السابع من ربيع الآخر سنة أربع وخمسين وتسعمائة وألف هجرية الموافق الثامن والعشرين من حزيران سنة خمس وثلاثين وتسعمائة وألف ميلادية، وخرجت سورية بعلمائها ومعها عدد من علماء البلاد العربية والإسلامية في وداع العالم الكبير..

❁ ❁ ❁

الشهيد/ حسن البنا

هو حسن أحمد عبد الرحمن البنا، ولد في المحمودية، من أعمال محافظة البحيرة بدلتا النيل، وذلك يوم الأحد ٢٥ شعبان سنة ١٣٢٤هـ الموافق ١٤ أكتوبر سنة ١٩٠٦م، وهو ينتسب إلى أسرة ريفية متوسطة الحال من صميم الشعب المصري، كانت تعمل بالزراعة في إحدى قرى الدلتا هي قرية «شمشيرة» قرب مدينة رشيد الساحلية. ومطلة على النيل في مواجهة بلدة إدفينا، تابعة لمركز فوة بمحافظة البحيرة.

كان جده عبد الرحمن فلاحًا ابن فلاح من صغار الملاّك، وقد نشأ الشيخ أحمد - أصغر أبنائه ووالد حسن البَنّا - نشأةً أبعدته عن العمل بالزراعة؛ تحقيقًا لرغبة والدته، فالتحق بكُتَّاب القرية حيث حفظ القرآن الكريم وتعلّم أحكام التجويد، ثم درس بعد ذلك علوم الشريعة في جامع إبراهيم باشا بالإسكندرية، والتحق أثناء دراسته بأكبر محل لإصلاح الساعات في الإسكندرية حيث أتقن الصنعة، وأصبحت بعد ذلك حرفة له وتجارة، ومن هنا جاءت شهرته بـ«الساعاتي».

وقد أهّل الشيخ نفسه ليكون من علماء الحديث، فبَرَع فيه، وله أعمال كثيرة خدم بها السنة النبوية أشهرها كتابه «الفتح الرباني في ترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني»، وفي كنفه نشأ «حسن البَنّا» فتطبع بالكثير من طباعه، وتعلم على يديه حرفة «إصلاح الساعات» وتجليد الكتب أيضًا.

بداية الرحلة:

بدأ «حسن البَنّا» تعليمه في مكتب تحفيظ القرآن بالمحمودية، وتنقل بين أكثر من كُتّاب حتى أن أباه أرسله إلى كتّاب في بلدة مجاورة للمحمودية. وكانت المدة التي قضاها في

الكتاتيب وجيزة لم يتم حفظ القرآن خلالها؛ إذ كان دائم التبرم من نظام «الكُتّاب»، ولم يُطِق أن يستمر فيه، فالتحق بالمدرسة الإعدادية رغم معارضة والده الذي كان يحرص على أن يحفّظه القرآن، ولم يوافق على التحاقه بالمدرسة إلا بعد أن تعهّد له «حَسَن» بأن يتم حفظ القرآن في منزله.

وبعد إتمامه المرحلة الإعدادية التحق بمدرسة «المعلمين الأولية» بدمنهور، وفي سنة ١٩٢٣م التحق بكلية «دار العلوم» بالقاهرة، وفي سنة ١٩٢٧م تخرج فيها، وقد قُدّر له أن يلتحق بها وهي في أكثر أطوارها تقلبًا وتغيرًا، خاصة في مناهجها الدراسية التي أضيفت إليها آنذاك، دروس في علم الحياة، ونظم الحكومات، والاقتصاد السياسي، فكان نصيبه أن يتلقى تلك الدروس إلى جانب الدروس الأخرى في اللغة والأدب والشريعة وفي الجغرافيا والتاريخ.

وكان لديه مكتبة ضخمة تحتوي على عدة آلاف من الكتب في المجالات المذكورة، إضافة إلى أعداد أربع عشرة مجلة من المجلات الدورية، التي كانت تصدر في مصر مثل مجلة المقتطف، ومجلة الفتح، ومجلة المنار وغيرها، ولا تزال مكتبته إلى الآن في حوزة ولده الأستاذ «سيف الإسلام».

أمضى البَنّا تسعة عشر عامًا مدرسًا بالمدارس الابتدائية؛ في الإسماعيلية، ثم في القاهرة، وعندما استقال من وظيفته كمدرس في سنة ١٩٤٦م كان قد نال الدرجة الخامسة في الكادر الوظيفي الحكومي، وبعد استقالته عمل لمدة قصيرة في جريدة «الإخوان المسلمون» اليومية، ثم أصدر مجلة «الشهاب» الشهرية ابتداءً من سنة ١٩٤٧م؛ لتكون مصدرًا مستقلًا لرزقه، ولكنها أغلقت بحل جماعة الإخوان المسلمين في ٨ ديسمبر ١٩٨٤م.

مؤثرات و تأثيرات:

تأثر الشيخ حسن البَنّا بعدد كبير من الشيوخ والأساتذة، منهم والده الشيخ أحمد والشيخ محمد زهران – صاحب مجلة الإسعاد وصاحب مدرسة الرشاد التي التحق بها حسن

البَنّا لفترة وجيزة بالمحمودية –، ومنهم أيضًا الشيخ طنطاوي جوهري صاحب تفسير القرآن«الجواهر»، ورَأس تحرير أول جريدة أصدرها الإخوان المسلمون سنة ١٩٣٣م، عَمِلَ حسن البَنّا بعد تخرجه في دار العلوم سنة ١٩٢٧م مدرسًا بإحدى المدارس الابتدائية بمدينة الإسماعيلية، وفي السنة التالية ١٩٢٨م أسس جماعة الإخوان المسلمين، ولكنه قبل أن يؤسسها كان قد انخرط في عدد من الجمعيات والجماعات الدينية، وشارك أيضًا في تأسيس جمعية الشبان المسلمين سنة ١٩٢٧م، وكان أحد أعضائها. أما جماعة الإخوان المسلمين التي أسسها فقد نمت وتطورت وانتشرت في مختلف فئات المجتمع، حتى أصبحت في أواخر الأربعينيات أقوى قوة اجتماعية سياسية منظمة في مصر، كما أصبح لها فروع في كثير من البلدان العربية والإسلامية.

قاد البَنّا جماعة الإخوان المسلمين على مدى عقدين من الزمان [١٩٢٨م-١٩٤٩م]، وخاض بها العديد من المعارك السياسية مع الأحزاب الأخرى، وخاصة حزب الوفد والحزب السعدي، ولكنه وجّه أغلب نشاط الجماعة إلى ميدان القضية الوطنية المصرية التي احتدمت بعد الحرب العالمية الثانية، ونادى في ذلك الحين بخروج مصر من الكتلة الإسترلينية للضغط على بريطانيا حتى تستجيب للمطالب الوطنية. وفي هذا السياق قام الإخوان بعقد المؤتمرات، وتسيير المظاهرات للمطالبة بحقوق البلاد، كما قاموا بسلسلة من الاغتيالات السياسية للضباط الإنجليز، ولجنود الاحتلال، وخاصة في منطقة قناة السويس.

وقد أولى البَنّا اهتمامًا خاصًّا بقضية فلسطين، واعتبرها قضية العالم الإسلامي بأسره، وكان يؤكد دومًا على أن الإنجليز واليهود لن يفهموا إلا لغة واحدة، هي لغة الثورة والقوة والدم، وأدرك حقيقة التحالف الغربي الصهيوني ضد الأمة الإسلامية، ودعا إلى رفض قرار تقسيم فلسطين الذي صدر عن الأمم المتحدة سنة ١٩٤٧م، ووجه نداءً إلى المسلمين كافة –وإلى الإخوان خاصة– لأداء فريضة الجهاد على أرض فلسطين حتى يمكن الاحتفاظ بها

عربية مسلمة، وقال: «إن الإخوان المسلمين سيبذلون أرواحهم وأموالهم في سبيل بقاء كل شبر من فلسطين إسلاميًّا عربيًّا حتى يرث الله الأرض ومن عليها»، واتخذت الهيئة التأسيسية للإخوان المسلمين قرارًا في ٦ مايو سنة ١٩٤٨م ينص على إعلان الجهاد المقدس ضد اليهودية المعتدية، وأرسل البَنّا كتائب المجاهدين من الإخوان إلى فلسطين في حرب سنة ١٩٤٨م. وكان ذلك من أسباب إقدام الحكومة المصرية آنذاك على حل جماعة الإخوان في ديسمبر سنة ١٩٤٨م؛ الأمر الذي أدى إلى وقوع الصدام بين الإخوان وحكومة النقراشي.

ولم يَدْعُ البَنّا قط إلى إقامة نظام حكم ديني ثيوقراطي بالمعنى الذي عرفته أوروبا في عصورها الوسطى، بل دعا إلى إقامة حكم إسلامي على أساس الشورى والحرية والعدل والمساواة. وقبل قبولًا صريحًا بصيغة الحكم الدستوري النيابي، واعتبره أقرب نظم الحكم القائمة في العالم كله إلى الإسلام، ورأى أن تلك الصيغة إذا طُبِّقت كما ينبغي فإنها تضمن تحقيق المبادئ الثلاثة التي يقوم عليها الحكم الإسلامي، وهي مسئولية الحاكم، ووحدة الأمة، واحترام إرادتها.

نهاية في منتصف الليل:

وفي يوم ١٢ فبراير من عام ١٩٤٩م وبعد منتصف الليل تتقدم قافلة من عربات الشرطة في سكون الليل، تصل إلى أحد شوارع الحلمية بمدينة القاهرة، تتوقف السيارات، يندفع الجند بأسلحتهم لحصار الشارع كله، وتُشدَّد الحراسة، حول بيت متواضع في منتصف الشارع، تتقدم إحدى سيارات الشرطة إلى هذا البيت، صف من الجنود ينقُلون جسد ميتٍ من السيارة إلى البيت في سرعة، يطرقون بابًا في أعلاه، يفتح الباب شيخ جاوز التسعين من عمره، يدخل عدد من الضباط إلى البيت قبل دخول الجثمان للتأكد من عدم وجود آخرين به، التعليمات صارمة للشيخ، لا صوت، لا عزاء، ولا حتى أحد من المتخصصين في إعداد الموتى، فقط أنت وأهل البيت، في تمام التاسعة صباحًا يتم دفن الميت.

كان الشيخ هو والد المتوفَّى، ورغم الفجيعة، ورغم شيخوخته، قام بإعداد ابنه للدفن، ويمسح الشيخ دماء ابنه من أثر الرصاصات التي سكنت جسده.

ويأتي الصباح، ويأتي الضباط في موعدهم، هلمّ بابنك لتدفنه، فيصرخ الأب ذو التسعين عامًا، كيف لي بحمله؟ فليحمله الجنود! فيرفض الضباط، ويكون الرد فليحمله أهل البيت، وكان المُتوفَّى له بنات وصبي صغير.

ويتقدم الجثمان في الطريق تحمله زوجته وبناته، وخلفه فقط والده، ومن تجرأ على السير في الجنازة كان المعتقل مآله، وتصل الجنازة إلى المسجد للصلاة على الفقيد، فإذا به خاليًا حتى من خدمه، فيصلي الوالد ومن خلفه أهل البيت من النساء، ويقومون بإنزاله إلى قبره، ويعود الجميع إلى البيت في حراسة مشددة، هذه هي جنازة الإمام الشهيد «حسن البَنَّا»، ويتم إلقاء القبض على كثير من الجيران، لا لشيء إلا لمجرد كلمة عزاء قالوها لهذه الأسرة، ويستمر الحصار ليس على البيت خشية ثورة من يأتي للعزاء، ولكن أيضًا يستمر الحصار حول القبر، خشية أن يأتي من يُخرج الجثة ويفضح الجريمة، بل وانتشرت قوات الشرطة في المساجد؛ لتأمر بغلقها عقب كل صلاة، خشية أن يتجرأ أحد بالصلاة على الفقيد.

وعلى الجانب الآخر كان ملك البلاد قد أجّل الاحتفال بعيد ميلاده من ١١ فبراير إلى ١٢ فبراير؛ ليحتفل مع من يحتفل بموت هذا الرجل، ويروي أحد المفكرين أنه شاهد احتفالات في أحد الفنادق في الولايات المتحدة الأمريكية، وعندما تقصّى سبب هذا الاحتفال، عرف أنه ابتهاجٌ بموت هذا الرجل.

وإن كان الحق ما يشهد به الأعداء، فإن مراكز الأبحاث في فرنسا وأمريكا اشتركت في وضع قائمة بأهم مائة شخصية أثّرت في العالم في القرن العشرين، فكان ممن اختاروهم من العالم العربي الإمام الشهيد «حسن البنا».

الشيخ/ عبد الحميد بن باديس

من علماء الجزائر الذي يمكن بحق اعتباره الأب الروحي لثوار الجزائر ضد المستعمر الفرنسي، فهو الذي أوقد شعلة الحرية وظل حارسًا لها حتى اليوم الأخير من عمره، والتي حملها من بعده تلاميذه الذين غرس فيهم روح الجهاد والدفاع عن الدين والوطن.

ولد الشيخ عبد الحميد في مدينة قسنطينة في عام ١٨٨٩م لأسرة اشتهرت بمكانتها العلمية والأدبية، نشأ نشأة دينية نيرة، درس علوم اللغة العربية والإسلام على أيدي أناس يفهمون الشريعة فهمًا صافيًا، ثم رحل إلى جامعة الزيتونة وهو في التاسعة عشرة من عمره، فأكمل دراسته الدينية بتونس على يد كثيرين في مقدمتهم الشيخ محمد النخلي والشيخ طاهر بن عاشور.

وبعد أربع سنوات من الدراسة بالزيتونة سافر إلى الحجاز عام ١٩١٢م، وهناك التقى بالشيخ حمدان الونيس الذي درس على يده بالجزائر والذي أخذ على ابن باديس عهدًا ألا يعمل موظفًا بالحكومة الاستعمارية في يوم من الأيام، كما تتلمذ على الشيخ أحمد الهندي الذي نصحه بعد تحصيل العلم أن يعود إلى وطنه والاجتهاد في خدمة الإسلام والمسلمين.

وقبل أن يعود إلى الجزائر وهو في المدينة المنورة تدارس مع رفيق جهاده الشيخ البشير الإبراهيمي خطة النضال لبعث الإسلام من جديد في الجزائر، وإعداد النفوس للثورة وبناء كتائب الشباب المسلم وتجهيزهم ليوم التحرير، واتفقا على ضرورة تربية جيل من العلماء والمثقفين ينهض بمهمة إعادة الجزائر إلى الإسلام، تجهيز جيل يمتلك فكرة صحيحة عن الدين ولو مع علم قليل، وتوفير كتائب معدة لمهمة محددة، هي مهمة وضع الوطن الجزائري على طريق الحرية والاستقلال، وتسليمه لجيل جديد يواصل رحلة النضال بالسلاح.

وكانت هذه الخطة هي الرد الواجب والضروري لمواجهة إجراءات الاحتلال الفرنسي التي هدفت إلى فرنسة الجزائر، ومطاردة اللغة العربية والإسلام بأقصى صور الإبادة

والتشريد والسحق والاستئصال، فقد أقامت قوات الاحتلال على هدم المساجد وإغلاق المدارس والكتاتيب في غلظة وحشية، وحاربت القضاء الشرعي محاربة ضارية حاقدة، ووضعت سلطات الاحتلال مجموعة من القوانين الجائرة لإبادة اللغة العربية، إذ أعلنت فرنسا أن اللغة الفرنسية هي لغة الدولة الرسمية، وأصدرت قوانين صارمة تُحرم أن يقوم أي مسلم بإدارة مكتب لتعليم اللغة العربية إلا بتصريح من قائد المنطقة، فإذا اتجه عربي غيور إلى المطالبة بهذا التصريح أُعْتُقِل أو أُعدم، ثم فتحت المدارس الفرنسية، وكانت المناهج التعليمية لا تعتبر اللغة العربية مادة تستحق الدراسة وكذلك الدين الإسلامي، ولكنها تركز اهتمامها على تاريخ فرنسا القديم والحديث، والتغني بالحرية والحضارة الفرنسية المزعومة.

وحتى يقاوم ويواجه هذه الهجمة الشرسة على الإسلام ولغة القرآن نهض ابن باديس بعد عودته إلى الجزائر بتنفيذ برنامج تعليمي وتثقيفي وإصلاحي كبير استمر ثمانية عشر عامًا في إعداد العدة وتكوين النواة التي تبلورت في قيام جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في سنة ١٩٣١م التي نضج تيارها الفكري وولد هيكلها التنظيمي من خلال لقاءات المثقفين الجزائريين في نادي الترقي بالعاصمة الجزائر، بعد مؤتمر حضره علماء الجزائر وفقهاؤها، دام أربعة أيام، وانتخب ابن باديس في غيابه رئيسًا لها.

طوال هذه السنوات التي سبقت قيام جبهة العلماء، كان ابن باديس يُلقي بقسطنطينية دروسه في مسجد سيدي قموش وفي الجامع الكبير، وعندما منعته الحكومة الفرنسية عام ١٩١٤م من التدريس في الجامع الكبير، تحول إلى التدريس في الجامع الأخضر، وكانت دروسه تبدأ في مسجد سيدي قموش بعد صلاة الفجر، ثم يقضي النهار في تعليم أطفال المدينة القرآن والعربية والدين، وفي المساء تبدأ دروسه للكبار والكهول في الجامع الكبير أو الجامع الأخضر، وكثيرًا ما كان يسافر بعد الفراغ من دروسه الليلة إلى الجزائر ووهران وتلمسان.

ومن سنة ١٩١٣م حتى انتهاء الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٨م كانت قد تكونت من حوله مجموعة من التلاميذ والمريدين والأنصار بلغت الألف عددًا، كل ذلك بالتعليم واللقاء مباشر فقد كان بحق مصنع لصناعة الرجال.

وكما حارب الفرنسيون عروبة الجزائر وذاتيتها القومية بواسطة إشاعة الجهل والأمية بين الأغلبية الساحقة من الشعب، وبواسطة فرنسة التعليم للقلة القليلة من الجزائريين الذين تُيحت لهم فرص الالتحاق بمدارسهم، فإنهم قد شنوا هجومهم على الإسلام عندما رأوه خنًا يميز المواطن الجزائري ووشيجة تربطه بالعروبة والعالم العربي، وتشده بعيدًا عن فرنسا والفرنسيين.

ولم يعتمد الفرنسيون في حربهم للإسلام بالجزائر على المبشرين فقط، ولا على إطلاق عنان لجماعات التبشير في المناطق الجنوبية وإغلاقها أمام جمعية العلماء فحسب، وإنما اعتمدوا أيضًا على رجال الطرق الصوفية وكنوا لهم من إحكام القبضة على القلوب وشل عقول أغلبية الشعب بالشعوذة والخرافات، وشل إرادتهم وفعاليتهم بالتواكل والاستسلام، ولذلك بدأ ابن باديس حملته العلنية ضد الطرق الصوفية سنة ١٩٢٥م ذلك المسخ المشوه للإسلام وتعاليم الدين الحنيف.

وضع هؤلاء الرجال أنفسهم في خدمة المستعمر، وأصبحوا أدواته التي يعتمد عليها في تخدير الجماهير، ودعوا من أجل ذلك للاندماج في فرنسا امتثالًا لإرادة الله، أعلن ابن باديس الحرب ضد هذه الطائفة الضالة التي فرت إلى حمى المستعمر، والتي نُسبت إلى الله زورًا وبهتانًا، والله بريء مما يفترونه عليه.

وقد نجحت جمعية العلماء الجزائريين بقيادة ابن باديس نجاحًا ملحوظًا في تجريد هؤلاء المشعوذين من صلاحيات التحدث باسم الإسلام، وأخذ المجتمع الجزائري ينظر إليهم

كمارقين باعوا دينهم وكرامتهم للمستعمر، حتى لم يعودوا هم ومن تبعهم على درب الاندماج يستحقون شرف الانتساب للإسلام، بل امتنع الناس عن دفن هؤلاء بمقابر المسلمين، وكان انحسار نفوذ هؤلاء المشعوذين يعني زيادة القوة والأنصار لجمعية العلماء، وتصحيح صورة الإسلام، واتخاذه أداة في مناوأة الاستعمار، فقد رأى ابن باديس أن العودة إلى منابع الإسلام النقية الأولى وأصوله الجوهرية السبيل الأوحد لبعث الجزائر المناضلة، والطريق الذي لا طريق سواه كي يتحول الإسلام إلى سلاح في معركتها ضد المستعمر، بعدما حوله المتصوفة إلى وسيلة لتبرير الخضوع للفرنسيين.

وكانت الصحافة أحد الجوانب الهامة من كفاح ابن باديس، فقد أنشأ صحيفتا المنتقد والشهاب ليؤديا دور الإرشاد والتوجيه والتحفيز والدعوة إلى التحرير، وجعل ابن باديس من الصحيفتين ميدانًا رحبًا لدحض وإبادة الفرنسيين الزاعمين أن بلدهم تحمل رسالة الحرية والحضارة والإنسانية في العالم، فأخذ يبين كيف تشن بلد الحرية والحضارة حرب الإبادة والاستئصال دون رحمة أو هوادة، وراح يكشف فظائع فرنسا في الجزائر، فيعلن كيف هاجمت القوات الفرنسية قبيلة العوفية وهي نائمة في الخيام قبل الفجر، فذبحت هؤلاء العزل الآمنين ذبحًا لا رحمة فيه، كما بيَّن كيف كانت تساق حيوانات الفلاحين غصبًا للبيع، وكان من بين الغنائم أساور نساء في الأيدي المقطوعة وأقراط فتيات لا تزال تلتصق بها قطع من الآذان.

ومن الفظائع التي بيَّنها ابن باديس أيضًا في الصحف ما فعله جنود الاحتلال، حين أوقدوا النار ليلة كاملة أمام كهف يضم قبيلة بأجمعها، وما جاء الصباح ودخل الجند الكهف حتى وجدوا نحو ثمانمائة من جثث الضحايا البريئة من نساء وشيوخ وأطفال تحت أقدام الثيران والحيوانات التي انطلقت تتلمس النجاة من النار فداست كل عزيز ثم لقيت حتفها مع الناس.

ومن أفظع ما شوهد داخل الكهف، رجل أسلم الروح وهو ممسك بقرني أحد الثيران وخلفه امرأته وابنه الصبي، كأنه كان يدفع عنهما الثور الهائج من لفح اللهيب.

هذه الفظائع وأمثالها كانت أدلة ابن باديس وحججه القاطعة على نذالة الطغيان الفرنسي، وهي التي أوحت له العزم في جهاده المستشهد حتى تنوعت آفاقه الإصلاحية، واستطاع أن يعصف بأسطورة فرنسة الجزائر وتنصير المسلمين.

هذا الجهاد المتواصل بكل وسيلة جعله يتعرض للاغتيال في سنة ١٩٢٧م وهو عائد إلى بيته منتصف الليل بعد فراغه من إلقاء درسه في تفسير القرآن، لكن المحاولة فشلت، وأُلقي القبض على الجاني بواسطة أعوان ابن باديس ولكنه عفا عنه، واستمر في جهاده لا يخاف في الله لومة لائم.

تفاصيل الحادثة التي وقعت لابن باديس:

في قسطنطينة شرع شخص موفد مع بعض مساعديه يترصدون الشيخ لمعرفة مسكنه وتحركاته وأوقاته، وفي يوم ٩ جمادى الثانية ١٣٤١ هـ الموافق ليوم ١٤ ديسمبر ١٩٢٦ م عندما كان ابن باديس عائد إلى بيته بنهج (السود) بعد منتصف الليل، كمن له الجاني في منحدر (مايو)، وأقدم على تنفيذ محاولته الآثمة، فلما دنا منه هوى عليه بهراوة وأصابه بضربة على رأسه وصدعه، فشج رأسه وأدماه، لكن الشيخ أمسك به، وهو الضعيف النحيل، وصعد به في الدرج إلى الطريق العام، ويصيح مستغيثا فتبلغ صيحته جماعة كانت بمكان قريب منه، فيهرعون إليه ولما رأى المجرم إقبال الجماعة لاذ بالفرار، وإلى أين ؟ إلى منزل الإمام حيث وقف ببابه ولعله كان ينتظر الإجهاز عليه بطعنة خنجرا من نوع «البوسعادي» كان يحمله، ولكن خاب ظنه، وخذلته بركة الشيخ والزاوية، فعثرة عليه جماعة النجدة هناك، وانقضوا عليه، وكادوا يفتكون به، لو لا تدخل الإمام بن باديس قائلًا : «كفوا عنه فليس الذنب ذنبه، فما هو إلى صخرة مسخرة».

شاع خبر محاولة الاغتيال في المدينة فأقبلت الجموع تستطلع الخبر، وتتأكد من حياة

الإمام بن باديس برؤيته، ومن القلة الذين أذن لهم الشيخ بدخول عليه الشيخ محمد الصالح بن عتيق أحد أبرز طلبته رفقة بعض زملائه، يتحدث عن حالة الإمام: «ولما دخلنا عليه رأينا ويا هول ما رأينا شخصا نحيلا علاه الاصفرار يصارع الألم الذي أصابه بصبر وثبات فأصابنا حزن عميق وقد أدرك ما نحن عليه فابتسم وقال لنا أتذكرون درس الليلة في تفسير قول تعالى: ﴿لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون﴾، قلنا نعم نذكره جيدا، والحمد لله على سلامتكم. وقبل أن ننصرف سألناه عن الحادثة وكيف جرت بينه وبين المجرم قال: «بينما كنت عائدًا من إدارة الشهاب ليلا، وقد تلفعت ببرنوسي من شدة البرد أفكر في أعمال الغد، وأنا ذاهب إلى المنزل، وعندما كنت على السلم الواصل إليه، لم أشعر إلا بضربة شديدة تهوي على رأسي، ولولا العمامة التي وقتني لنالت مني هذه الضربة أكثر مما نالت، فاشتبكت مع المجرم، واستطعت أن أحمله بين يدي هاتين، مشيرا بيديه، وأصعد به في الدرج وبلغت به الطريق العام، ثم سكت قليلا، ثم قال: أتدرون كيف تغلب عليه؟ قلنا لا، والله الرجل بدوي يجهل السير على الدرج وخاصة الضيق منها، أما أننا فقد تعودت السير عليها، ولم أجد في ذلك حرجا». وأبي رحمة الله أن يجعلنا نعتقد أنها كرامة له من الله، وهي كذلك فمن عرف المكان الوعر والوحش الكاسر، وما معه من سلاح، ومن عرفه ما عليه الأستاذ من الضعف والهزال أيقن أن الله كان معه يدافع عنه.

أما الجاني فقد أمسكت به جماعة النجدة وساقوه إلى الشرطة فأوقفته وفتشته فوجدت عنده سبحة وتذكرة ذهاب وإياب بتاريخ ذلك اليوم (من مستغانم إلى قسطنطينة) زيادة عن الخنجر والعصا، اتضح أثناء التحقيق أنه من سكان سكان برج بوعريريج وأعترف أنه كان يريد القضاء على ابن باديس بدعوى أنه يحارب الدين الإسلامي ولا يعترف بكرامات أولياء الله الصالحين !! وأنه مبعوث خاص من الزاوية العلوية بمستغانم لأجل إخماد شُعلة الشيخ وإطفاء نور الشهاب، وقد قام بالتحقيق في القضية قاضي الاستنطاق (أودوانو) من محكمة

قسطنطينة الذي أمر بتحويل الجاني إلى محكمة الجرائم التي أصدرت في شأنه الحكم بخمس سنوات سجنا. رغم أن ابن باديس عفا عنه في المحكمة قائلًا: «إن الرجل غرر به، لا يعرفني ولا أعرفه، فلا عداوة بيني وبينه.. أطلقوا سراحه»، ولكن الزبير بن باديس المحامي (شقيق الشيخ بن باديس) قام باسم العائلة يدافع عن شرفها، ويطالب بحقها في تنفيذ الحكم قائلًا: «إن أخي بفعل الصدمة لم يعد يعي ما يقول إلى غير ذلك مما جرى في المحاكمة». المجرم بعد أن قضى حكمه عاد إلى مستغانم وعاش فيها ثلاث سنوات ثم عاد إلى حوزته في برج بوعريج، وأنشأ مركزًا للطريقة العلوية وكان يأمر أتباعه بأن يكثروا ذكر اسم الله ألف مرة وأن ينظروا إلى نقطة واحدة معينة حتى ينزل الله في ذواتهم واستطاع أن يسيطر على عقول أهل حوزته وعلى أموالهم إلا أن نشاط رجال الإصلاح من أمثال الشيخ البشير الإبراهيمي حال دون تمكينه واستمرار نشاطه.

كان الشيخ ابن باديس صاحب موقف جهادي ضد الاستعمار الفرنسي، وقد تصاعد هذا الموقف الجهادي بتصاعد قوة التنظيم الذي أسسه وقاده ورعاه، كما كان يدعو الجميع أن يسلكوا مثله هذا المسلك الجهادي، وأن ينفخوا مثله روح الاجتماع الجهادي في كل ما يهمهم من أمر دينهم ودنياهم حتى لا يستبد بهم مستبد.

وسافر إلى باريس عام ١٩٣٦م وفد يمثل المؤتمر الإسلامي الجزائري، ولقيهم دلاييه وزير شئون الجزائر في الحكومة الفرنسية، الذي هدد الوفد بقوله: إن لدى فرنسا مدافع طويلة، فتصدى له ابن باديس قائلًا: إن لدينا مدافع أطول، فتساءل دلاييه عن أمر المدافع الأطول التي تحدث عنها الشيخ، فأجابه الرجل: إنها مدافع الله.

وشهدت سنة ١٩٣٧م تزايد حرارة المواقف الجهادية لابن باديس، فعندما أراد الفرنسيون الاحتفال بمرور قرن على احتلالهم لمدينة قسنطينة طالب ابن باديس الأهالي بمقاطعة الاحتفال فاستجاب له الشعب، وفشلت احتفالات الفرنسيين، ووجه إلى الأمة نداء

يدعوها فيه إلى المقاومة السلبية حتى تسلم السلطات الفرنسية بالمساواة بين الجزائريين والمستوطنين الفرنسيين في المجالس النيابية بالجزائر.

وعندما اقترب خطر الحرب العالمية الثانية من فرنسا، سعت الحكومة الفرنسية إلى الحصول على مساندة جبهة علماء الجزائر، فهدد ابن باديس بتقديم استقالته إذا ما ساندت الجبهة رئيسًا في حربها، وقال: إنني لن أوقع هذه البرقية حتى لو قطعوا عنقي. وكان ثلاثة من أعضاء الجبهة قد اقترحوا إرسال برقية تأييد للحكومة الفرنسية.

وأطلق ابن باديس على يوم افتتاح جمعية العلماء لمؤسسة دار الحديث التعليمية بتلمسان يوم عيد النهضة الجزائرية تعبيرًا عن اقتراب الثمرة التي عمل لها من النضج والاستواء، وفي خطابه في ذلك اليوم حدد ابن باديس أعداء هذه النهضة وهم: الظلمة المستعمرون والدجالون الطرقية والخونة دعاة الاندماج، وأعلن أن هذه النهضة قد بلغت الحد الذي يخشاها فيه هؤلاء الأعداء.

وفي سنة ١٩٣٨م أعلن الشيخ المجاهد أن الحركة التي صنعها وقادها قد انتقلت إلى طور جديد فقد أصبحت تخيف بعد أن كانت تخاف، ومنذ هذا التاريخ وهذه الكتيبة المؤمنة تقدم العديد من النجوم المتألقة وترتفع بها إلى سماء النضال.

وإذا كان المصلح العظيم قد انتقل إلى جوار ربه في سنة ١٩٤٠م، فإنه قد خلف من بعده أساتذة يحملون الراية ويواصلون الجهاد، وفي مقدمتهم رفيق كفاحه الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، كما ترك من تلاميذه الشبان من صلوا قادة الثورة الجزائرية التي انطلقت في الفاتح من نوفمبر سنة ١٩٥٤م التي حققت حلم ابن باديس في الاستقلال بعد قرن وثلث قرن من الاحتلال الفرنسي الوحشي ومحاولات الإبادة لهذا الشعب العربي المسلم الصابر المناضل العنيد، الذي دفع حريته مليون شهيد من خيرة شبابه.

الإمام الشيخ/ عبد المجيد سليم

يحفل التاريخ المصري بكوكبة من علماء الدين الذين عُرفوا بمواقفهم القاطعة ودفاعهم المخلص والمستميت عن الدين، والتصدي بكل حزم لأي مساس بالشريعة الإسلامية، ومن هؤلاء العلماء الأجلاء فضيلة الإمام الأكبر الشيخ عبد المجيد سليم، وهو واحد من أهم الأئمة الذين شرفوا بتولي مشيخة الأزهر وشرفت بهم، فقد كان من نوابغ علماء الإسلام الذين حباهم الله بفيض من علمه وفضله، حتى أصبح فقيهًا لا يبارى ومُشرعًا ذائع الصيت، ومُصلحًا لا يخشى في الله لومة لائم.

كان للإمام عبد المجيد بصماته التي لا تنسى في خدمة الإسلام والمسلمين مدرسًا بالمعاهد الدينية ومدرسة القضاء الشرعي، يمتاز بغزارة العلم ومداومة البحث والاطلاع وبراعة الأداء، وقاضيًا شرعيًا يمتاز بدقة البحث وتحري الحق، ومفتيًا لمصر يستقضي البحث في موضوع الفتوى، لا يكتفي برأيه هو وإنما يحرص على ذكر آراء الفقهاء، ويرجح بينها ويستنبط منها ما يراه صحيحًا، ثم يدعم رأيه بالأدلة العقلية والبراهين النقلية.

ولد الإمام في سنة ١٨٨٢م في قرية ميت شهالة بمحافظة المنوفية، وتعلم مبادئ القراءة والحساب بكُتَّاب القرية، ثم التحق بالأزهر، وحصل على الشهادة العالمية من الدرجة الأولى عام ١٩٠٨م، ثم اشتغل بالتدريس في المعاهد الدينية ومدرسة القضاء الشرعي، حيث كان يدرس للطلاب مادتي الفقه وأصوله، ثم ولي القضاء قبل أن يصبح مُفتيًا للبلاد على مدى سبعة عشر عامًا، وفاز بعضوية جماعة كبار العلماء، ثم أصبح وكيلًا لها، قبل أن يُعهد إليه بالإشراف على الدراسات العليا بالأزهر ورئاسة لجنة الفتوى.

وفي السادس والعشرين من ذي الحجة عام ١٣٦٩هـ صدر قرار تعيينه شيخًا للأزهر، حيث كان الإمام الثالث والثلاثين في تاريخ الأزهر.

وقضى الشيخ عبد المجيد في منصب المفتي سبعة عشر عامًا متواليات، وهي أكبر مدة قضاها عالم من علمائنا في منصب المفتي، وقد كان تمسكه بالحق ودقته في الفتوى وراء هذه الفترة الطويلة في المنصب، وبلغ إجمالي القضايا التي أفتى فيها ١٥٧٩٢ فتوى، وهي ثروة فقهية عالية القيمة.

وشجاعة الشيخ عبد المجيد في فتواه لم تكن وليدة شغله منصب الإفتاء، وإنما كانت جزءًا من شخصيته حتى وهو طالب في المعاهد الأزهرية ثم وهو قاضٍ شرعي بعد تخرجه من مدرسة القضاء الشرعي.

ومن قضائه الشجاع قضيةُ وقفٍ كان ناظره الملك فؤاد ملك مصر، وقد رُفعت القضية لإقصاء الملك عن هذه النظارة للوقف، وقال المدعي في دعواه: إنه لا يجوز للملك أن ينظر وقفًا بشخصه، لأنه صاحب وضع دستوري لا يجيز له القيام بأعمال مثل نظارة الوقف، فهو يدير أملاكه بنفسه أو بأجهزته الخاصة الملكية، أما كونه ناظرًا للوقف فهذا يجعله محل المساءلة إذا أخطأ، والوقف تتعلق به حقوق خيرية كثيرة منها ما يصيب الأشخاص، ومنها ما يصيب الهيئات، وكل صاحب حق له وجهة نظره في قدر ما يؤدي إليه ريع الوقف، فإذا وجد خطأ كان من واجبه أن يشير إليه وأن يقتضيه، وهذا يجعل موقف الملك حرجًا، فإما أن تضيع حقوق الموقوف عليهم، وإما أن تضيع هيبة ولي الأمر.

وعلى الناحية الأخرى من الدعوى كان محامي الملك فؤاد يدافع عن نظارة الملك للوقف، ويطالب برفض الدعوى، ولكن القضية ينظرها قاضٍ شجاع، لا يتحرج من الحكم بالحق، فقضى بعزل الملك فؤاد عن نظارة الوقف، وتم تنفيذ الحكم.

وبرغم هذا الحكم الشجاع، فإن الملك فؤاد عندما عُرض عليه تعيين الشيخ سليم في منصب الإفتاء وافق على الفور، ولم يحاول الانتقام منه، وإنما أصدر المرسوم الملكي بالتعيين،

بـالـرغم من أنه لم يكن عضوًا في المحكمة الشرعية العليا، وكان التقليد أن يُختار المفتي من بين أعضائها إن لم يكن رئيسها.

وفي منصب الإفتاء واجه الشيخ تحديًا آخر، ولكن ضد الملك فاروق الذي تولى الملك بعد وفاة أبيه الملك فؤاد، فقد وصل إلى الشيخ سؤال من إحدى المجلات عن مدى شرعية إقامة الحفلات الراقصة في قصور الكبار، وقد حمل رسالة المجلة إليه أحد أمناء الفتوى في دار الإفتاء، ولفت نظره إلى أن المجلة التي طلبت الفتوى من المجلات المعارضة للملك، وأن الملك قد أقام حفلًا راقصًا في قصر عابدين، فالفتوى إذن سياسة، وليس مقصودًا بها بيان الحكم الديني، وتريد المجلة بذلك الوقيعة بينه وبين الملك، إلى جانب التعريض بالتصرف الملكي وصولًا إلى هدف سياسي.

فقال فضيلته: وماذا في ذلك؟ إن المفتي إذا سُئل لابد أن يجيب مادام يعلم الحكم، فإن لم يكن يعلمه بحث عنه بوسائله المتاحة من اطلاع على القرآن والسنة، وعلى كتب الأقدمين، وبواسطة جهاز الأمناء في دار الإفتاء، فإذا أعجزت الوسائل قال: لا أدري.

وأصدر المفتي فتواه بحرمة هذه الحفلات، ونشرت المجلة الفتوى مؤيدة بالأدلة الشرعية، وحدثت الأزمة بين الملك والمفتي، وصمم الملك على الانتقام من المفتي الذي كانت فتواه سببًا في إحراج موقفه السياسي.

وعلى إثر هذه الفتوى وجَّه الديوان الملكي الدعوة إلى الشيخ عبد المجيد لحضور صلاة الجمعة مع الملك في مسجد قصر عابدين، وهو القصر الذي أُقيم فيه الحفل الراقص، فذهب المفتي وجلس في المكان المخصص له، وحين حضر الملك جلس في مكانه بالصف الأول، وبعد انتهاء الصلاة وقف كبار المصلين لمصافحة الملك بعد الصلاة قبل أن يدخل إلى حديقة القصر من الباب الداخلي للمسجد المؤدي إلى الحديقة، وكان كل من يأتي عليه الدور

للمصافحة يرفع يده قبل أن يدركه الملك استعدادًا لمصافحته، لكن الشيخ عبد المجيد هدته فطرته الإيمانية إلى عدم رفع يده، وكانت نية الملك أن يترك يد الشيخ ممدودة دون أن يصافحه، ويكون في ذلك عقابه والانتقام منه، لكن إيمان الشيخ أنقذه.

فقال له الملك: ما الذي دعاك يا شيخ للفتوى ضدي؟

فأجابه الشيخ: المفتي إذا سُئل لابد أن يجيب ليعرف الناسُ الحقَّ من الباطل، ولينتهي المبطلون إذا أرادوا، وإلا عرَّضوا أنفسهم لعقاب الله.

ولم يكتفِ الشيخ بهذه المواجهة مع الملك على رؤوس الأشهاد، بل رفض بعد ذلك حضور الحفلات الرسمية التي يترأسها الملك، وكانت تأتيه الدعوة ولا يعتذر عن عدم الحضور، ومعنى هذا: أن يبقى المقعد المخصص للمفتي شاغرًا مما يسيء إلى الملك.

اتصل رئيس الديوان الملكي بالمفتي يلفت نظره إلى أهمية الالتزام بالبروتوكول، وأن عليه إذا كان هناك ما يمنعه من الحضور أن يخطر الديوان.

فأجابه المفتي: أن موقفه قضية كرامة، وإذا اتصلت الكرامة بالبروتوكول كانت الأولوية للكرامة، ولا بأس عليكم إذا لم توجهوا الدعوة إلى المفتي.

ورفع الديوان الأمر إلى الملك، ليدرك أنه أمام شخصية فذة من علماء المسلمين، وأنه لا سبيل إلى زحزحته عن موقفه إلا بالاعتذار إليه. فأمر الملك رئيس الديوان أن يذهب إلى الشيخ ويعتذر إليه، فجاء رئيس الديوان إلى المفتي، وقال له: إن مولانا جلالة الملك بعثني إليك؛ لأن جلالته يرجو رضاك.

وبعد أن عُين الشيخ عبد المجيد شيخًا للأزهر ضغطت الحكومة ميزانية الأزهر، فثار الإمام الأكبر ثورة عارمة، وقال عبارته المشهورة: قصد هنا [أي تقطير هنا] وإسراف هناك.

وكان الملك وقتها يقضي عطلة الصيف باستراحته في كابري بإيطاليا، وعندما علم بما قاله الشيخ عبد المجيد غضب، وأمر بعزل شيخ الأزهر من منصبه في سبتمبر سنة ١٩٥١ م، ثم أعيد إليه مرة أخرى في فبراير ١٩٥٢م، ولكنه استقال من المنصب في سبتمبر ١٩٥٢م.

وحدث أن أهدت مصلحة الترام إلى فضيلته تصريحين للركوب بالمجان هو وتابعه، فرفض الشيخ استعمال هذا التصريح وحمل تابعه على رفضه، وعندما علم أنه استعمله مرة ذهب الشيخ إلى إدارة المصلحة ودفع ثمن تذكرة تابعه.

[ونحن في زمان يركب فيه المفتي وشيخ الأزهر وكبار العلماء السيارات الفارهة، بل ومنهم من يسير في موكب تتقدمه سيارات الشرطة والحراسات الخاصة ولا حول ولا قوة إلا بالله].



المصادر:

- «مشايخ ضد السلطة والسلطان» للدكتور/ إسماعيل إبراهيم.
- موقع ملتقى أهل الحديث (مواقف خالدة لعلماء الأزهر).

الشيخ/ محمد الخضر حسين

هذا الرجل من عظماء الجهاد الفكري، مؤمن صادق في إيمانه، مجاهد أخذ على عاتقه مهمة الحفاظ على حرية الكلمة، ومقاومة حركات المسخ والتغريب التي تعرض لها الإسلام، وكان من أخطرها ما جاء على يد أبنائه من أمثال علي عبد الرازق، وطه حسين.

هذا الشيخ آمن بالإسلام ودعوته، وأحب من صدر حياته أن يكون من الذين قال الله سبحانه فيهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠].

قاتل في صفوف الوطنيين ضد الاحتلال والاستبداد الفرنسي، حتى حُكم عليه بالإعدام ففر بدينه إلى عدد من الأقطار الإسلامية، ثم استقر بمصر، التي فتحت ذراعيها لجهاده وتقواه وعلمه وورعه، وبادلته حبًا وتقديرًا حتى أصبح شيخًا للأزهر الشريف، وتمثيل حي لوحدة العرب والمسلمين وتجسيدًا لضرورة التكامل العربي الإسلامي.

ويعود نسب الشيخ إلى أسرة جزائرية شريفة يرتفع نسبها إلى الأمراء الأدارسة بالمغرب، جاء والده، ومن أسرة تونسية اشتهرت بالعلم والفضل والتقوى جاءت والدته.

وفي مدينة نفطة من أعمال الجريد بجنوب القطر التونسي، ولد الشيخ الفاضل محمد في عام ١٢٩٣هـ، وفي هذه المدينة كانت نشأته الأولى، التي تأثر فيها بأبيه، وبخاله السيد محمد المالكي بن عزوز الذي كان من كبار العلماء، وموضع احترام رجالات الدولة العثمانية يومئذ، وله مؤلفات علمية معروفة، وفي هذه النشأة الأولى بنفطة حفظ شيخنا القرآن الكريم، وألمّ بجانب من الأدب والعلوم العربية والشرعية.

وعندما وصل الشيخ إلى الثانية عشرة من عمره، انتقل مع أسرته إلى تونس العاصمة، وفي عام ١٣٠٧هـ التحق بجامع الزيتونة، حيث تقدم في تحصيل العلم، وظهرت علامات نبوغه في علوم العربية وعلوم الشريعة، وتجلى ذوقه الأدبي في الإنشاء وفي التذوق.

ونال شهادة العالمية في سنة ١٣٢١هـ وأصبح من علماء الزيتونة، وأنشأ في نفس العام مجلة السعادة العظمى التي كانت رائدة المجلات العلمية والأدبية في بلاد الشمال الإفريقي يومئذ، فلفت الأنظار إلى قلمه ولسانه، فلقد كان خطيبًا ومحاضرًا إلى جانب كونه أديبًا وشاعرًا وكاتبًا.

وتولى سنة ١٣٢٤هـ قضاء مدينة بنزرت ومنطقتها إلى جانب التدريس والخطابة بجامعها الكبير، وفي يونيه ١٩٠٦م ألقى محاضرة عن الحرية في الإسلام، فكشف بها عن موقف فكري ذي مغزى في بلد يستبد بحكمه المستعمرون الفرنسيون، ثم استقال من قضاء بنزرت وعاد إلى مدينة تونس بالمدرسة الصادقية، ثم عُين بعد ذلك مدرسًا بجامع الزيتونة.

وفي عام ١٩٠٧هـ اشترك في تأسيس الجمعية الزيتونية، وأخذ على عاتقه الدعوة إلى إحياء قيم الحرية والعروبة في وطنٍ يخضع لاستعمار ينهب خيراته، ويستبد بمقدراته، ويمسخ هويته العربية والإسلامية.

وفي هذه الفترة رفض رغبة الحكومة الفرنسية في ضمه إلى سلك القضاء في المحاكم الفرنسية، وكان لابد من الصدام بين الشيخ المناضل الرافض للتعاون مع المستعمر وبين سلطات الاستعمار الفرنسي في تونس، فوجَّهت هذه السلطات إليه في سنة ١٣٢٩هـ تهمة بث روح العداء للغرب وخاصة السلطات الفرنسية في تونس، وهي تهمة تصل عقوبتها إلى الإعدام، فهاجر بدعوته وبجهاده إلى الأستانة، مواصلًا سعيه لتخليص بلده وأمته من الاستعمار، معلنًا أن ذلك لا يكون إلا بالدعوة إلى الله، وإحياء الوحدة الإسلامية من جديد، وبعث روح الجهاد في نفوس المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها.

وخلال تجواله ما بين دمشق والقاهرة والأستانة وألمانيا تعرف على كوكبة من العلماء الأعلام المناضلين في سبيل النهضة العربية والإحياء الإسلامي، منهم الشيخ طاهر الجزائري، والشيخ محمد رشيد رضا، والشيخ محب الدين الخطيب، والأستاذ أحمد تيمور باشا، وعُين في

دمشق مدرسًا في المدرسة السلطانية ولنشاطه الوطني الملحوظ اعتقله أحمد جمال باشا الحاكم العام في سورية لعدة أشهر، حتى أنقذه من السجن تدخُّل وزير الحربية العثماني أنور باشا، وبعد خروجه من السجن أوفده أنور باشا إلى برلين مرة ثانية حيث التقى فيها بزعماء الحركات الإسلامية الشيخ عبد العزيز جاويش والدكتور عبد الحميد سعيد والدكتور أحمد فؤاد ثم عاد إلى الأستانة، ثم إلى دمشق.

وكان الشيخ قد سئم كثرة الأسفار وعدم الاستقرار، فاستقر عزمه على أن يستوطن القاهرة، فألقى بها عصى ترحاله الذي استمر عشر سنوات، فأقام بالقاهرة سنة ١٩٢١م.

وفي القاهرة أعانه الاستقرار على الإنتاج العلمي المنظم والنشاط الإصلاحي الدائم، فوضحت معالم نضجه في التجديد والإصلاح، وتكونت من حوله الطلاب والمريدين، وأخذت تأثيرات علمه وإصلاحه تلفت إليه أنظار العلماء وطلاب الإصلاح.

وتجنس بالجنسية المصرية ثم تقدم إلى امتحان العالمية بالجامع الأزهر، فحصل عليها بجدارة، وأصبح واحدًا من علماء الأزهر الشريف.

ولم يمنعه الانخراط في هيئة كبار العلماء والاشتغال بالبحث والتحقيق عن مواصلة النهوض بمسئولياته وواجباته كعالم مسلم ومجاهد عربي، وأيضًا رعاية حقوق وطنه الأصلي تونس، وأشقائه الرازحين بالمغرب تحت نير الاستعمار الفرنسي، فأسس سنة ١٩٢٤م جمعية تعاون جاليات إفريقيا الشمالية لتكتيل وتحريك جهود أبنائها في خدمة قضية تحرير هذه البلاد من الاستعمار.

وفي سنة ١٩٥٢م بدأت معاركه الفكرية الكبرى دفاعًا عن الإسلام ضد من أرادوا النيل منه، وخاصة أبنائه، ففي هذا العام أصدر الشيخ علي عبد الرازق كتاب «الإسلام وأصول الحكم»، فكان أول كاتب مسلم يسعى إلى زرع العلمانية في العقل الإسلامي، وفي

واقع المسلمين، بل وإلى علمنة الإسلام، وكان أخطر ما في هذه المحاولة: أنها جاءت في ثوب إسلامي، وتحت رايات إسلامية، ومن عالم فاضل تخرج من الجامع الأزهر، ويشغل منصب القاضي في المحاكم الشرعية الإسلامية.

ورغم أن الشيخ الخضر حسين كان صديقًا للشيخ علي عبد الرازق وعائلته، لم يمنعه ذلك بدافع من غيرته على دينه أن يهب دفاعًا عن الإسلام منذ هذه الهجمة العلمانية، فعكف على الرد على كتابه ونقضه، وذلك من خلال كتاب «نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم»، الذي نفدت طبعته خلال شهر واحد.

عمد الشيخ الخضر في كتابه إلى نهج يغني قارئه عن قراءة الكتاب الذي يرد عليه وينقضه، حتى لا يكاد يترك من كتاب «الإسلام وأصول الحكم» فقرة إلا أوردها ليناقش صاحبها ولينقدها، ونَقْض فكرتها أو تبيين رأيه فيها، فهو يتبع أبواب الكتاب بابًا بعد باب، ولم يقف الشيخ في نقد مصادر خصمه، عندما استند إليه الخصم من نصوص واقتباسات، بل يعود إلى المصادر التي يقتبس منها الخصم.

واستمر في نقضه لأفكار الكتاب فكرة فكرة، حتى بيَّن للناس الباطل الذي يحمله مضمون الكتاب عندما أراد صاحبه أن يجرد الإسلام من طابعه ودوره السياسي.

وأكد في رده على كتاب الإسلام وأصول الحكم أن من يقول بما قاله الشيخ على عبد الرازق يخدم الاستعمار خدمة جليلة، فهو يدعو إلى تجريد الإسلام من طابعه ودوره السياسي، وتجريد الدولة في وطن المسلمين من صبغتها الإسلامية، وتقديم الإسلام دينًا لا دولة، ورسالة روحية لا شرع فيها ولا سياسة، ذلك أن المسلمين في ظل الاستعمار إذا اهتموا بما لله وتركوا بما لقيصر لقيصر كان المستفيد الأول من ذلك هو الأجنبي؛ لأن قيصر هنا هو الاستعمار.

فعلمنة الإسلام - كما يرى الشيخ- هي في حقيقتها وبغض النظر عن النوايا تشريع يمنع الحرج والإثم عن ضمير المسلم إن هو خضع لسلطان أجنبي أو سلطة غير إسلامية، ومن ثَمَّ فإن اشتراط إسلامية الدولة وإسلامية القانون هو في الحقيقة دعوة للمسلمين كي يثوروا في سبيل حريتهم وتسويد شريعة الإسلام في الوطن الذي يعيشون فيه، وهذا ما لا يتحمله أو يريده المستعمر أو الحاكم المستبد.

وفي العام التالي ١٩٢٦م ظهر كتاب «في الشعر الجاهلي» للدكتور طه حسين، فرد عليه الشيخ بكتابه «نقض كتاب في الشعر الجاهلي»، فصنع معه ما صنع مع كتاب «الإسلام وأصول الحكم» عندما فنده فقرة فقرة وفكرة فكرة، مع أدب رفيع في الحوار، وبراعة في الجدل، كشف عن عقل متمكن ومتمرس في ميدان البحث والمناظرة، يغترف صاحبه من معين من العلم لا يغيض أو ينقص ماؤه.

وأثبت الشيخ بما لا يدع مجالًا للشك في كتاب «نقض كتاب في الشعر الجاهلي» أن كل أفكار طه حسين منقولة عن المستشرق الإنجليزي جب، واستشهد ضمن استشهاداته على بطلان فكرة طه حسين بكتاب نُشر بالإنجليزية للمستشرق الإنجليزي تسارلس ليال، نقض فيه فكرة جب، وأثبت بطلانها حيث أقام الأدلة الواضحة والبراهين القاطعة على أصالة الشعر الجاهلي.

وكان للشيخ الخضر دورًا بارزًا في تأسيس العديد من الجمعيات العالمية للتعريف بالإسلام والزود عن حضارته ضد فكرة التغريب، فأسس مع الأستاذ أحمد تيمور باشا سنة ١٩٢٥م جمعية الشبان المسلمين، ثم أسس جمعية الهداية الإسلامية، التي ضمت كوكبة من المثقفين ثقافة دينية ومدنية، ومن خلال هذه الجمعية ومجلتها قدم للعالم دعوته للإحياء الإسلامي والنهضة العربية وتحرير ديار العروبة والإسلام.

وقد كان الشيخ الخضر من أقدم أعضاء مجمع اللغة العربية بالقاهرة، كما اختير عضوًا بالمجمع العلمي العربي بدمشق، وفي عام ١٩٥١م نال عضوية هيئة كبار العلماء.

وعندما قامت الثورة المصرية في ٢٣ يوليو ١٩٥٢م كان منصب شيخ الأزهر شاغرًا، فوقع اختيار الثورة وحكومتها على الشيخ ليكون إمامًا أكبر وشيخًا للإسلام ووجهًا مشرقًا لهذه الجامعة العريقة تُطِل من خلاله على عالم العروبة والإسلام، فنهض بالأمانة ما وسعته الطاقة، ولديه أمل عريض في برنامج إصلاحي كبير للنهوض بتلك المؤسسة الإسلامية، وجعلها وسيلة لبعث النهضة الإسلامية العظمى، التي يتطلع إليها العالم الإسلامي في جميع القارات.

وأعطى الإمام للمنصب حقه، وعندما شعر بضغوط تحول بينه وبين تنفيذ ما يريد، أو تطلب منه لتنفيذ ما لا يرضى صمَّم على الاستقالة في عام ١٩٥٤م قائلًا كلمته الشهيرة: يكفيني كوب لبن وكسرة خبز، وعلى الدنيا العفاء.

وكان خلال قيامه بواجبات منصبه يقول دائمًا: إن الأزهر أمانة في عنقي أسلمها -حين أسلمها- موفورة كاملة، وإذا لم يتأتَ أن يحصل للأزهر مزيد من الازدهار على يدي فلا أقل من ألا يحصل له نقص.

ومن ذلك التاريخ تفرغ للبحث والكتابة والمحاضرة حتى وافاه الأجل، فانتقل إلى جوار ربه في فبراير عام ١٩٥٨م، وقد امتد موكب جنازته ما بين ميدان باب الخلق حتى جامع الأزهر الشريف.



سماحة الشيخ/ محمد بن إبراهيم آل الشيخ

مفتي الديار السعودية

هو الإمام العلامة والبحر الفهامة سماحة الشيخ: محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن ابن شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب التميمي.

ولد يوم عاشوراء من عام ١٣١١هـ، وكانت أمه صائمة عاشوراء يوم ولدته.

نشأ نشأة دينية علمية، في بيت علم ودين، فأدخل الكتّاب في صغره فحفظ القرآن مبكرًا، ثم بدأ الطلب على العلماء مبكرًا قبل أن يبلغ السادسة عشر، ثم أصيب بمرض في عينيه وهو في هذه السن ولازمه سنة تقريبًا حتى فقد بصره في حدود عام ١٣٢٨هـ، وهو في سن السابعة عشر.

وكان يعرف القراءة والكتابة قبل فقده لبصره، ويوجد له بعض الأوراق بخطه قبل أن يفقد بصره، وكان يعرف الكتابة حتى بعد فقده بصره، يقول أحد تلاميذه: وشاهدته يكتب بعض الكلمات على الأرض.

كان متوسط الطول، مليء الجسم، متوسط اللون ليس بالأبيض ولا بالأسمر، بل بين ذلك، خفيف شعر العارضين جدًا، يوجد شعر قليل على ذقنه، إذا مشى يمشي بوقار وسكينة، وكان كثير الصمت، وإذا تكلم لا يتكلم إلا بما يُفيد.

عيِّن قاضيًا في [الغطغط] واستمر في هذا العمل ستة أشهر، وتزوج الشيخ من أهلها أثناء إقامته هناك.

كان إمامًا لمسجد الشيخ عبد الرحمن بن حسن-المسمى الآن مسجد الشيخ محمد بن إبراهيم-، وكان خطيبًا للجامع الكبير، واستمر في الإمامة والخطابة إلى وفاته.

التعليم:

وكان -قبل انشغاله بالأعمال الكثيرة في مصالح المسلمين- له حلقة تدريس في مسجده بعد الفجر، وفي بيته في الضحى، وفي مسجده أيضًا بعد العصر أحيانًا.

وكذلك كان هو المفتي للبلاد، وكان قبل فتح [إدارة الإفتاء] رسميًا هو الذي يفتي، ثم افتتحت [إدارة الإفتاء] رسميًا في شهر شعبان من عام ١٣٧٤هـ تحت إشرافه.

ولما افتتحت رئاسة المعاهد والكليات أيضًا كان هو الرئيس، وكان قد أناب عنه أخاه الشيخ عبد اللطيف. ولما تأسست رئاسة القضاء عام ١٣٧٦هـ عمد رسميًا برئاسة القضاء، ووضعت لها ميزانية خاصة، وعين ابنه الشيخ عبد العزيز نائبًا له فيها، والشيخ عبد الله بن خميس مديرًا عامًا.

ولما افتتحت رئاسة البنات عام ١٣٨٠هـ كان هو المشرف العام عليها، فوضع الشيخ عبد العزيز بن ناصر بن رشيد رئيسًا عليه، ثم عين بدلًا عنه الشيخ ناصر بن حمد الراشد.

ولما افتتحت رابطة العالم الإسلامي كان هو رئيس المجلس التأسيسي لها، وكان الأمين للرابطة هو محمد سرور الصبان.

ولما افتتحت الجامعة الإسلامية عام ١٣٨٠هـ كان هو المؤسس لها وعين نائبًا له الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز.

كان إذا صلى الفجر استند على سارية مستقبلًا القبلة - في الصيف على الجدار الشرقي لمسجده، وفي الشتاء في خلوة المسجد، ويتحلق عليه الطلبة، ثم يبدأون بالقراءة عليه من المتون حفظًا، ثم يبدأ بالشرح، لمدة ساعة أو أكثر، ثم يفترقون ويأتي آخرون عند الشيخ في البيت للدرس وقت الضحى.

لمس فيه مشايخه الألمعية النادرة المبكرة والنجابة الظاهرة فأدركوا أنه الخليفة لهم الذي يمكن أن يطمئن إليه في مجالس العلم فأوصى عمه الشيخ عبدُ الله الملكَ عبدَ العزيز بابن أخيه

خيرًا، وذكر له ما يتمتع به من المزايا الفذة التي لا تكاد تتوافر إلا في قليل من الرجال الذين وهبهم الله ذكاءً وفطنةً وجلدًا وإخلاصًا. وحين توفي الشيخ عبدالله عام ١٣٣٩هـ أخذ ابن أخيه مجلسه، فبدأ التدريس إلى جانب مشايخه الذين ما زالوا على قيد الحياة، ولما توفي شيخه سعد بن حمد بن عتيق عام ١٣٤٩هـ وتوفي قبله الشيخ حمد بن فارس عام ١٣٤٥هـ توسع في مجالس التدريس واستقل بأكثرها إلى جانب أعمامه - رحمهم الله - وغيرهم من أفاضل العلماء الذين كانوا يقومون بالتدريس على فترات متعاقبة في بعض العلوم.

ولكن ينبغي أن نؤكد أن الشيخ محمدًا كان له النصيب الأوفر في كثرة المجالس وكثرة القاصدين له من طلبة العلم وغزارة العلم وعموم النفع، فقد كان يعمر أكثر نهاره بالتدريس، حيث كان يجلس ثلاث جلسات منتظمة، فالأولى بعد صلاة الفجر إلى شروق الشمس، والثانية بعد ارتفاع الشمس مدة تتراوح ما بين ساعتين وأربع ساعات، والثالثة بعد صلاة العصر، وهناك جلسة رابعة لكنها ليست مستمرة وهي بعد صلاة الظهر.

وكل هذه الجلسات كانت تتم في جامع الشيخ عبد الله ابن الشيخ محمد بن عبد الوهاب المعروف الآن في [حي دخنه شمال الميدان] ما عدا جلسة الضحى، فقد كانت في أول الأمر في هذا الجامع ثم نقلها إلى بيته.

وكان ينقطع بعد المغرب لمطالعة دروس الغد في الكتب التي كانت تدرس بعد الفجر، ومنها [الروض المُربع] و[سبل السلام] و[شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك] وما يعين عليها من المراجع.

كان يطلب القراءة من بعض الطلبة الذين يمتازون بقوة الصوت أو حسنه - دون من في صوتهم ضعف- كالشيخ أحمد بن قاسم وأخوه الشيخ محمد والشيخ فهد بن حمين والشيخ عبد الرحمن بن فريان.

كان يُلْزِم طلبته بحفظ المتون، وكان حازمًا في هذا الأمر، ويقول: إن الذي لا يحفظ المتون ليس بطالب علم، بل هو مستمع.

الابتلاء قبل وفاته:

في صباح أحد أيام شعبان من عام ١٣٨٩هـ خرج الشيخ إلى عمله كالعادة ووقف يوصي ببعض الأعمال، ورُئي على وجهه أثر صفرة ظاهرة، فسألوه إن كان متعبًا، أو لم ينم؟ فسأل عن سبب السؤال، فقيل له عن أثر الصفرة في وجهه، فرجع إلى بيته فسأل أهل البيت فأخبروه، فذهب إلى المستشفى المركزي، فأجروا له بعض التحاليل، فاكتشفوا فيه أحد الأمراض المستعصية، فلم يخرج من المستشفى إلا عند تحري رؤية هلال رمضان، حيث خرج إلى البيت، فلما ثبت الشهر عاد إلى المستشفى، ثم صدر أمر ملكي بنقله إلى لندن لمواصلة العلاج، فلما وصل لندن أجروا له الفحوصات والتحاليل اللازمة، فرأوا أن المرض بلغ غاية لا ينفع معها عملية أو علاج فأتي به إلى الرياض على طائرة خاصة محمولًا على نقالة.

وقال بعض مرافقيه: إنه في آخر أيامه في المستشفى قبل رجوعه إلى الرياض كره الطعام، فقدم له كأس لبن فطعمه ثم تركه فقال له: إنه زين وطيب، فقال الشيخ: صحيح، ولكن ليس بزين للميت.

فلازم الفراش ولسانه يلهج بذكر الله والثناء عليه، لا يفتر عن ذلك، ثم دخل في غيبوبة وبقي فيها حتى وافته المنية في الساعة الرابعة صباحًا - بالتوقيت العربي- من يوم الأربعاء الرابع والعشرين من شهر رمضان من عام ١٣٨٩هـ، وصلي عليه بعد صلاة الظهر من نفس اليوم، وأمَّ الناس عليه تلميذه سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز. ولما تسامع الناس بالخبر، تصدعت الأفئدة، ونكست الأذقان، فكم من دمعة ترقرقت، وكم من حزن قضى، وكم وكم، ولكن إنا لله وإنا إليه راجعون. وامتلأ المسجد وجميع الطرقات المؤدية إليه حتى أن كثيرًا من الناس لم يدركوا الصلاة عليه من الزحام، وحُمِل على الأعناق إلى مقبرة العود، فلما سير بجنازته تذكر المتذكر جنازة الإمام أحمد بن حنبل أو ابن تيمية من ذوي الجنائز المشهودة، فلا تحصي الألسنة المترحمة عليه والمستغفرة له، ويا لها من غبطة؛ أنتم شهداء الله في أرضه.

ولقد تتابع الناس من أنحاء المملكة يفدون بأنفسهم يعزون، ويستغفرون، ويشهدون للفقيد بالإحسان.

وتتابع ذوو الأقلام يرثون إمامَ وقته، فكم من عالم نثر رثاءه، وكم من عالم نظم رثاءه، وكم من مثقف كتب، وكم من عاقل سطّر، والعجز عن وصف المشاعر سمة الجميع، فجزاهم الله خيرًا.

وصلى عليه جماعات كثيرة في المقبرة ممن فاتهم الصلاة عليه في المسجد، وأذكر أن أول جماعة صلت عليه في المقبرة كان إمامهم الشيخ عبد الرحمن بن محمد بن فارس، وهو من طلبة الشيخ.

رحم الله الشيخ رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته.

❁❁❁

المصادر:

- «سيرة الإمام سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ» لمؤلفه الشيخ صالح آل الشيخ.
- «ترجمة حياة الشيخ» لفضيلة الشيخ محمد بن قاسم.
- موقع طريق السلف.
- موقع شركة سحاب السلفية.

شيخ القسامين/ عز الدين القسام

اسمه يثير الرعب والفزع، تحرُّكُ أتباعِه تصاحبه حالة من إعلان الطوارئ في صفوف جيش الإسرائيلي، كتائبه هي أخشى ما يخشاه قادة اليهود، رغم أنه قد استشهد منذ عام ١٩٣٥م فهو قائد أول ثورة مسلحة ضد البريطانيين واليهود في فلسطين، وصاحب أول تنظيم جهادي يخوض الحرب دفاعًا عن عروبة فلسطين، كان خير مثال لرجل الدين المجاهد والمعلم، وباعث الوطنية والهمم في النفوس الأبية.

سيظل اسمه علمًا من أعلام النضال العربي في العصر الحديث، عندما يُذكر اسمه تتزلزل الأرض تحت أقدام اليهود.

وُلِد عز الدين القسام في بلدة جبلة التابعة لقضاء اللاذقية في سورية عام ١٨٨٢م، نشأ في أسرة ريفية عُرفت بالعلم والتقوى، أبوه الشيخ عبد القادر مصطفى القسام من المشتغلين بعلوم الشريعة الإسلامية، وأمه حليمة قصاب من عائلة علم ودين.

كان أبوه من المهتمين بنشر العلم، حيث درّس في كُتّاب القرية القرآن الكريم والعربية والخط والحساب وبث روح الجهاد بتعليم الأناشيد الدينية والحماسية، ثم عمل لفترة مستنطقًا في المحكمة الشرعية.

تعلم عز الدين في كُتَّاب البلدة القراءة والكتابة وتلاوة القرآن الكريم، وتميز بنبوغه وتفوقه على أقرانه وامتاز بميله للتأمل وطول التفكير.

بعد تفوقه في دراسته في الكُتَّاب، التحق عز الدين للدراسة في الأزهر في مصر، فقد كان الأزهر في ذلك الوقت منارة كبرى لنشر علوم الشريعة والعربية، فحضر دروس الشيخ محمد عبده، وارتوت نفسه من علمه وفهمه. كما تتلمذ على معظم حلقات الأزهر، واعتكف في أروقة مكتباته، وكان يرافق اهتمامه بدروس العلم اهتمام آخر بحركات التحرر التي كان يغذيها رجال الأزهر، ففهم عز الدين أن الإسلام دين عز وقوة وتحرر وجهاد.

تعرَّف القسام في مصر على الاستعمار الغربي وجهًا لوجه، حيث كانت مصر خاضعة للاحتلال البريطاني المباشر بعد ثورة عرابي عام ١٨٨٢م، وكان فيها تيار المقاومة الإسلامي للاحتلال قويًا، كما رأى القسام هجوم المفكرين المتغربين على الإسلام فكرًا وحضارة وتاريخًا، وعايش بنفسه الصراع الدائر بين هؤلاء وبين المفكرين الإسلاميين، كما تعرَّف في مصر على المشروع الصهيوني بأبعاده، وأدرك خطره على الأمة الإسلامية، وأنه وليد الاستعمار الغربي، وسمع عن تطلعات الصهاينة وأطماعهم في فلسطين. وبين مدرسة الشيخ محمد عبده ومدرسة الشيخ رشيد رضا الشامي المقيم في مصر اتضح أمام عيني الشيخ عز الدين القسام الجهاد وسيلة للدفاع عن حقوق الأمة وللعودة بها إلى سابق مجدها.

عاد القسام إلى جبلة عام ١٩٠٦ بعد أن قضى عشر سنوات في الدراسة في الأزهر، بعدها حصل على شهادة الأهلية، ومن ثَمَّ قام برحلة إلى تركيا للاطلاع على طرق التدريس في جوامعها، وبعد عودته عكف على التدريس في زاوية والده، في جامع السلطان ابن أدهم قطب الزاهدين. كما أخذ القسام دور والده في تدريس أطفال البلدة قواعد القراءة والكتابة وتحفيظ القرآن الكريم، وبعض العلوم الحديثة، وتولى خطبة الجمعة في مسجد المنصوري الذي يتوسط البلدة، وغدا بخطبه ودروسه وسلوكه موضع احترام الناس، وامتدت شهرته وسمعته الحسنة إلى المناطق المجاورة فقدَّم الإسلام بفهمه الواسع الطلق، وربطته بكثير من المواطنين صداقات متينة، فكثر أتباعه، وعظم شأنه، وذاع صيته.

ولما دخلت القوات الإيطالية طرابلس الغرب ليبيا عام ١٩١١م، قاد القسام مظاهرة طافت شوارع جبلة تأييدًا للمسلمين هناك، ودعا الناس إلى التطوع لقتال الطليان، وجَمع التبرعات للأسر المنكوبة، إلا أن السلطات التركية منعته ورفاقه المتطوعين من السفر إلى ليبيا، فعادوا بعد أربعين يومًا من الانتظار، وبنوا مدرسة بمال المتبرعين لتعليم الأمّيين.

وعندما دخلت القوات الفرنسية سورية عام ١٩٢٠م، رفع القسام راية المقاومة ضد المستعمرين الفرنسيين في الساحل الشمالي لسورية، وكان في طليعة المجاهدين الذين حملوا السلاح في الثورة [١٩١٩- ١٩٢٠] مع المرحوم عمر البيطار، فقد ترك قريته على الساحل، وباع بيته -وهو كل ما يملك- واشترى أربعًا وعشرين بندقية، وانتقل بأسرته إلى قرية جبلية ذات موقع حصين.

حاول الفرنسيون إقناع الشيخ القسام بترك الثورة والرجوع إلى بيته وإغرائه بالمناصب، إلاَّ أنه رفض عرضهم، ونتيجة لإصراره على خط الجهاد حكم عليه الديوان العرفي الفرنسي في اللاذقية وعلى مجموعة من أتباعه بالإعدام، وطارده الفرنسيون فقصد دمشق ومنها إلى فلسطين.

عاش القسام ورفاقه في حيفا، ونزلت عائلاتهم في بيت واحد في الحي القديم من المدينة، وهو الحي الذي يجمع فقراء الفلاحين النازحين من قراهم بعد الاستيلاء عليها وتوطين اليهود المهاجرين إلى فلسطين.

أبدى القسام اهتمامًا حقيقيًا بتحسين أحوال معيشة هؤلاء الفلاحين، وبدأ يكافح الأمية في صفوفهم من خلال إعطاء دروس ليلية، وسرعان ما أصبح فلاحو المنطقة الشمالية وعمالها يكنون له المودة والاحترام بفضل زياراته المتكررة لهم وبما يتسم به من أصالة في الخُلُق والتقوى.

عمل القسام مدرسًا في المدرسة الإسلامية بحيفا، وكان يحرص على لفت أنظار الطلاب إلى الدور المستقبلي الذي ينتظرهم في ظل وجود الاستعمار، ثم عمل إمامًا وخطيبًا في جامع الاستقلال بموافقة من مفتي القدس وزعيم الحركة الوطنية الحاج محمد أمين الحسيني، واتجه القسام في أسلوبه إلى توعية الشعب الفلسطيني بالأخطار الماثلة أمامه، وكان يكثر من القول بأن اليهود ينتظرون الفرصة لإفناء شعب فلسطين، والسيطرة على البلد وتأسيس دولتهم .

كما كان للشيخ القسام دروس في المسجد تقام عادة بين الصلوات المفروضة، وقد جعل منها وسيلة لإعداد المجاهدين وصقل نفوسهم وتهيئتها للقتال، معتمدًا اختيار الكيفية دون الكمية.

عمل على تأسيس جمعية الشبان المسلمين عندما استفحل الخطر البريطاني في فلسطين وانتشرت الجمعيات التبشيرية التي تدعو إلى تنصير المسلمين، وقام القسام من خلال نشاطه في الجمعية بتربية جيل من الشباب المسلم، الذين أنقذهم من دائرة الانحراف والضياع بسبب قسوة الظروف الاقتصادية والسياسية، وأدخلهم في دائرة العمل الجاد لصالح الوطن. . . كما أنه وثّق اتصالاته بقيادات المدن الفلسطينية الأخرى، وكسب عددًا من شباب المناطق المختلفة للانضمام إلى تنظيم الجهاد. وقد واظب القسام خلال وجوده في الجمعية على إعطاء محاضرة دينية مساء كل يوم جمعة، وكان يذهب كل أسبوع بمجموعة من الأعضاء إلى القرى، ينصح ويرشد ويعود إلى مقره. وقد تمكن من إنشاء عدة فروع للجمعية في أكثر قرى اللواء الشمالي من فلسطين، وكانت الفرصة للّقاء بالقرويين وإعدادهم للدفاع عن أراضيهم.

عمل القسام مأذونًا شرعيًا لدى محكمة حيفا الشرعية سنة ١٩٣٠م، وقد كانت هذه الوظيفة للقسام وسيلة من الوسائل التي اتصل عن طريقها بمختلف فئات المواطنين من شباب وشيوخ، وعمال وفلاحين، وطلاب وموظفين، وتجار وحرفيين، وتحدث إليهم وأقام معهم علاقات قوية كان لها أثر كبير في اتساع دائرة حركته الجهادية.

يعتبر القسام صاحب دعوة مستقلة وأسلوب متميز وحركة جهادية رائدة سبقت جميع الاتجاهات في ميدان الجهاد المعاصر في فلسطين.

ويتلخص هذا الأسلوب في تربية جيل من المجاهدين، فكان يعقد اجتماعات سرية مكتومة في بيته وفي بيوت بعض أصدقائه، يحضرها عدد من الأشخاص المغمورين [غير

ـبرزين أو المعروفين في ميدان الحركة الوطنية]، وكان يختارهم من الذين يحضرون دروسه ومواعظه، ويقوم بتهيئتهم وإعدادهم للجهاد، ويكوّن منهم خلايا جهادية، تقتصر عضويتها على نفر من المؤمنين الصادقين الذين لديهم الاستعداد الكامل للتضحية والفداء.

وعندما تم إنشاء القوة المجاهدة بشكل متكامل، كانت مقسمة إلى وحدات مختلفة المهام، حيث لكل وحدة دور خاص بها تتولاه، وهذه الوحدات هي:

الأولى: وحدة خاصة بشراء السلاح.

الثانية: وحدة خاصة للاستخبارات ومراقبة تحركات العدو البريطاني واليهودي.

الثالثة: وحدة خاصة بالتدريب العسكري.

الرابعة: وحدة خاصة للدعاية في المساجد والمجتمعات، وأبرز أعمالها الدعوة إلى الجهاد.

الخامسة: وحدة العمل الجماهيري والاتصالات السياسية.

السادسة: وحدة جمع المال من الأعضاء والأنصار، ورعاية أسر المعتقلين والشهداء.

ولما قطعت الحركة شوطًا من الإعداد تم فيه تهيئة المقاتلين للجهاد، ابتدأ رجال القسام بتنفيذ عمليات فدائية ضد المستوطنات اليهودية عن طريق إعداد كمائن والهجوم على أفراد محددين ومستوطنات معينة، بهدف دفع اليهود في الخارج إلى وقف الهجرة إلى فلسطين.

ولم تكن أعمال القسام مهاجمة المستعمرات فحسب، وإنما قاموا بمجموعة أعمال أخرى ذكرها الأستاذ أميل الغوري في كتابه [فلسطين عبر ستين عامًا] فقال: [أمّا الأعمال التي قام بها القساميون فكانت من أروع ما قام به المجاهد في فلسطين، وعلى الرغم من كثرتها وتعدد أشكالها ومظاهرها، فإنها ظلت محاطة بالسرية والكتمان إلى مدى كان معه أكثر الناس يجهلون مصدر هذه الأعمال، بل كانوا لا يعرفون إطلاقًا بوجود حركة القساميين، وكان من هذه الأعمال: ملاحقة وتأديب الذين يخرجون عن الشعب ومصالحه، مثل التعاون مع الحكومة

ضد الحركة الوطنية، والتجسس لحساب المخابرات البريطانية، أو بيع الأراضي لليهود أو السمسرة عليها للأعداء. وكان من أعمال القساميين العديدة الواسعة النطاق، التصدي لدوريات الجيش والشرطة، وقطع طرق المواصلات والإغارة على ثكنات الجيش ومراكز الشرطة، ومهاجمة حرس المستعمرات اليهودية، وزرع الألغام والمتفجرات فيها.

وفي الوقت الذي اعتبرت فيه أعمال القسام بمثابة الروح التي سرت في أوصال الأمة، فحركت الهمم وشدت العزائم، وحفزت الناس إلى العمل، كانت الحكومة البريطانية تعلن عن مكافآت ضخمة لمن يدلي بأية معلومات عن منفذي هذه الأعمال؛ لأنها فعلًا ألقت الرعب في قلوب اليهود الذين رأوا ولأول مرة عملًا جديدًا من حديد ونار، وهذه لم يتعود عليها اليهود في فلسطين. . وازدادت الحكومة البريطانية واليهود ذعرًا وبثوا الأرصاد، ونشروا الجواسيس في الليل والنهار، وصار الاعتقال لمجرد الشبهة.

لذا أصبحت تحركات جماعة القسام تلاقي صعوبة شديدة، إذ استطاعت الشرطة الإنجليزية الحصول على معلومات بشأن عدد أفراد الجماعة وأسمائهم وأسلحتهم، نتيجة التحقيقات المكثفة التي قامت بها، وكذلك استطاعت الحصول على معلومات تساعدهم أكثر وأكثر على تحديد مكانهم.

وأخيرًا وفي أحراش يعبد في منطقة جنين يوم ٢٠ تشرين ثاني عام ١٩٣٥م، حددت الشرطة البريطانية مكانهم وهاجمتهم بقوات عسكرية كبيرة، ودارت معركة رهيبة بين المجاهدين والشرطة، صمد فيها رجال القسام، وقاتل شيخهم قتال الأبطال، وظل يكافح حتى خر صريعًا في ميدان الجهاد شهيدًا كريمًا في سبيل إعلاء كلمة الله فوق أرض فلسطين، واستشهد معه بعض إخوانه المجاهدين، وجرح آخرون وتم أسرهم.

نقل الشهداء إلى حيفا، وتمت الصلاة عليهم في جامع الاستقلال، وشيعت جثامينهم الطاهرة بتظاهرة وطنية كبرى نادت بسقوط الإنجليز ورفض الوطن القومي اليهودي.

كان لاستشهاد القسام أعمق الأثر في شباب فلسطين في الثلاثينات والأربعينات، كما أصبح القسام رمزًا للتضحية والفداء، مما جعل بعض المؤرخين يعتبرونه بحق شيخ ثوّار فلسطين.

رحمه الله وأدخله فسيح جناته.....



المصادر:

- «الشيخ عز الدين القسام قائد حركة وشهيد قضية» لحسني جرار.
- «موسوعة السياسة» للدكتور عبد الوهاب الكيالي.
- «تاريخ الثورات السورية في عهد الانتداب الفرنسي» للأستاذ أدهم آل جندي.

شيخ المجاهدين/ عمر المختار

في سجلات البطولة والجهاد ضد المستعمر واستقلال الأوطان يحظى المجاهد الليبي عمر المختار بحظ وافر من صفحات النضال والكفاح، وبذل الروح والنفس محاربًا غطرسة الإيطاليين الذين أرادوا طمس الهوية الليبية وتحويل ليبيا إلى مستعمرة تابعة لهم يتحول فيها أهل البلاد إلى عبيد يخدمون السادة الطليان.

استمر عمر المختار رافعًا راية الجهاد طوال ٢١ عامًا، خاض خلالها أكثر من ألف معركة مع الإيطاليين، منها ٢٦٣ معركة في مدة لا تتجاوز عشرين شهرًا، وهي المدة التي تبدأ بتولي غراتسياني قيادة الجيش الإيطالي في برقة، وتنتهي بموت عمر المختار يوم ١٦ سبتمبر سنة ١٩٣١م.

ذهب عمر المختار ذلك اليوم ضحية الغدر وشهيد الوفاء، نتيجة غدر الطليان به، وقد وقع أسيرًا في أيديهم طاهر الصحيفة، لم يدنس تاريخه الجهادي بأي جريمة ولا عمل صغير يخالف لأصول الشرف ومقتضيات المروءة، وشهيد الوفاء فقد قال حينما توجه للجهاد سنة ١٩٢٣م بعد أن اشتد حوله الحصار وأصبح الجهاد ميئوسًا منه: ما الفائدة من العيش مهاجرًا ذليلًا؟ يجب أن أعود لأموت وأؤدي بذلك آخر حق عليَّ لله ولبلادي.

وقعت ليبيا فريسة في أيدي الإيطاليين في سنة ١٩١١م، رفع الليبيون رايات الجهاد أمام حملات الاستيطان والتبشير والتطهير العرقي ومحاكم التفتيش التي أقامها الإيطاليون، على غرار ما حدث في إسبانيا إبان العصور المظلمة في القرن الثاني عشر.

كان عمر المختار أحد أهم رايات الجهاد الليبي ضد الاستعمار، ولم يكن المجاهد الوحيد ولا الشهيد الوحيد في قوافل وجيوش المجاهدين والشهداء الليبيين، وإنما شكلت ظروف استشهاده حالة فريدة، سجلت سطورًا متلألئة في صفحات التاريخ العربي

والإسلامي ضد محاولات النيل منه وطمس هويته ومعالمه، فقد كان عمر المختار شيخ المجاهدين أثناء الجهاد، وتحول باستشهاده إلى شيخ الشهداء فحاز الحُسْنَيين.

كان المختار علمًا مشهورًا فهو ابن مختار بن عمر المنفى من قبيلة [المنفة] أهم القبائل الليبية ضمن قبائل أولاد علي الكبيرة المنتشرة في أراضي مصر وبرقة الليبية، وكان مولد عمر المختار سنة ١٨٦١م في قرية جنزور التابعة لمنطقة دفنه، وتقول رواية أخرى: إنه ولد في برقة عام ١٨٥٨م، وتوفي والده المختار ووالدته عائشة وهما في طريقهما إلى أداء فريضة الحج.

بلغ عمر السن التي تؤهله لحفظ القرآن الكريم، فبعثه والده المختار إلى زاوية السنوسية في الجغبوب ليقرأ فيها القرآن وما تيسر من العلوم، وقد ظهر عليه من دلائل النجابة ورجاحة العقل ما لفت إليه المهدي السنوسي، وكان صاحب الجاه العريض والسلطان النافذ في برقة، فصار موضع اهتمامه وأحله من عنايته أعلى مراتبها.

كان عمر المختار شديد الحرص على أداء الصلوات في أوقاتها وكان يقرأ القرآن يوميًا، فيختم المصحف الشريف كل سبعة أيام منذ أن قال له الإمام محمد المهدي السنوسي: يا عمر [وردك القرآن]، وقصة ذلك أنه استأذن في الدخول على الإمام محمد المهدي من حاجبه في موقع بئر السارة الواقع في الطريق الصحراوي بين الكفرة والسودان، وعندما دخل على المهدي تناول مصحفًا كان بجانبه وناوله للمختار، وقال: هل لك شيء آخر تريده؟ فقلت له: يا سيدي إن الكثيرين من الإخوان يقرأون أورادًا معينة من الأدعية والتضرعات أجزتوهم قراءتها، وأنا لا أقرأ إلا الأوراد الخفيفة عقب الصلوات فأطلب منكم إجازتي بما ترون، فأجابني بقوله: [يا عمر! وردك القرآن] فقبَّلت يده، وخرجت أحمل هذه الهدية العظيمة [المصحف]، ولم أزل بفضل الله أحتفظ بها في حلي وترحالي، ولم يفارقني مصحف سيدي منذ ذلك اليوم وصرت مداومًا على القراءة فيه يوميًا لأختم السلكة كل سبعة أيام، وسمعت من شيخنا سيدي أحمد الريفي أن بعض كبار الأولياء يداوم على طريقة قراءة القرآن مبتدئًا

[بالفاتحة] إلى [سورة المائدة] ثم إلى [سورة يونس]، ثم إلى [سورة الإسراء] ثم إلى [سورة الشعراء]، ثم إلى [سورة الصافات] ثم إلى [سورة ق] ثم إلى آخر السلكة، ومنذ ذلك الحين وأنا أقرأ القرآن من المصحف الشريف بهذا الترتيب.

إن المحافظة على تلاوة القرآن والتعبد به تدل على قوة الإيمان، وتعمقه في النفس، وبسبب الإيمان العظيم الذي تحلى به عمر المختار انبثقت عنه صفات جميلة، كالأمانة والشجاعة، والصدق، ومحاربة الظلم والقهر والخنوع، وقد تجلى هذا الإيمان في حرصه على أداء الصلوات في أوقاتها، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾ [النساء: ١٠٣]. وكان يتعبد المولى عَزَّ وَجَلَّ بتنفيذ أوامره ويسارع في تنفيذها، وكان كثير التنفل في أوقات الفراغ، وكان قد ألزم نفسه بسُنَّة الضحى وكان محافظًا على الوضوء حتى في غير أوقات الصلاة، ومما يُرْوَى عنه أنه قال: لا أعرف إنني قابلت أحدًا من السادة السنوسية وأنا على غير وضوء منذ شرفني الله بالانتساب إليهم.

لقد كان هذا العبد الصالح يهتم بزاده الروحي اليومي بتلاوة القرآن الكريم، وقيام الليل واستمر معه هذا الحال حتى استشهاده.

فهذا المجاهد محمود الجهمي الذي حارب تحت قيادة عمر المختار وصاحَبه كثيرًا، يذكر في «مذكراته» أنه كان يأكل معه وينام معه في مكان واحد ويقول: [لم أشهد قط أنه نام لغاية الصباح، فكان ينام ساعتين أو ثلاثًا على أكثر تقدير، ويبقى صاحيًا يتلو القرآن الكريم، وغالبًا ما يتناول الإبريق ويسبغ الوضوء بعد منتصف الليل ويعود إلى تلاوة القرآن، لقد كان على خُلُق عظيم يتميز بميزات التقوى والورع، ويتحلى بصفات المجاهدين الأبرار. . . .].

وأما الأستاذ محمد الطيب الأشهب فقد قال: [وقد عرفته معرفة طيبة وقد مكنتني هذه المصاحبة من الاحتكاك به مباشرة، فكنت أنام بخيمته وإلى جانبه وأهم ما كنت أمقته منه

-وأنا وقت ذاك حديث السن-: هو أنه لا يتركنا أن ننام إذ يقضي كل ليلة يتلو القرآن ويقوم مبكرًا فيأمرنا بالوضوء بالرغم مما نلاقيه من شدة البرد ومتاعب السفر...].

وكأني أراه من خلف السنين وهو قائم يصلي لله رب العالمين في وديان وجبال وكهوف جبل الأخضر، وقد التف بجرده الأبيض في ظلمة الليل البهيم، وهو يتلو كتاب الله بصوت حزين، وتنحدر الدموع على خدوده من خشية العزيز الرحيم.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴾ [فاطر: ٢٩].

لقد وصى رسول الله ﷺ أبا ذر بذلك فقال: **«عليك بتلاوة القرآن؛ فإنه نور لك في الأرض، وذخر لك في السماء»** وقد حذَّر الرسول الكريم من هجر القرآن فقال: **« إن الذي ليس في جوفه شيء من القرآن كالبيت الخَرِبِ»**.

إن من أسباب الثبات التي تميز بها عمر المختار حتى اللحظات الأخيرة من حياته إدمانه على تلاوة القرآن الكريم والتعبد به وتنفيذ أحكامه؛ لأن القرآن الكريم مصدر تثبيت وهداية، وذلك لما فيه من قصص الأنبياء مع أقوامهم، ولما فيه من ذكر مآل الصالحين، ومصير الكافرين والجاحدين وأوليائه بأساليب متعددة.

لقد كان عمر المختار يتلو القرآن الكريم بتدبر وإيمان عظيم، فرزقه الله الثبات، وهداه طريق الرشاد، ولقد صاحبه حاله في التلاوة حتى النفس الأخير، وهو يُساق إلى حبل المشنقة، وهو يتلو قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾[الفجر: ٢٧-٢٨].

فما كاد عمر المختار أن يتم حفظ القرآن ودراسة بعض العلوم حتى انتشر ذكره وتناولته الألسن بالثناء، واحترمته قبائل العرب لعراقة بيته ولمكانته السنوسية، وولاه المهدي شيخًا على زاوية القصور في الجبل الأخضر قرب مدينة المرج، حيث قام بتعليم أولاد المسلمين

وإكرام من يأوي إلى تلك الزاوية من الفقراء وعابري السبيل وفضّ المنازعات بين قبائل العرب والسعي في مصالحهم.

وكان اختياره شيخًا لزاوية القصور لغرض نبيل، ذلك أن تلك الزاوية تقع في حوزة قبيلة العبيدات، التي اشتهرت بالاستقلالية وفيها أفراد صعب مراسهم، وكان المختار لدماثة خُلُقه وصلابة عوده أهلًا لترويض هذه النفوس.

ونال عمر المختار لقب السيد من انتسابه إلى السنوسية، ووقعت أمور عارضة اقتضت سفر المهدي إلى السودان، فاختار عمر المختار لمرافقته في ذلك السفر الطويل، وكان عمر محل ثقة المهدي، الذي عينه شيخًا لزاوية في السودان واستمر نائبًا عن المهدي هناك، حتى عاد إلى برقة شيخًا لزاوية القصور مرة ثانية، واستمر يدير شؤونها حتى احتل الإيطاليون ليبيا، فكان أول من لبى نداء الوطن وباشر الجهاد.

شجاعته وكرمه:

هذه الصفة الجميلة تظهر في سيرة عمر المختار منذ شبابه الباكر، ففي عام ١٣١١هـ [١٨٩٤م] تقرر سفر عمر المختار على رأس وفد إلى السودان يضم كلًّا من السيد خالد بن موسى، والسيد محمد المسالوسي، وقرجيله المجبري وخليفة الدبار الزوي أحد أعضاء زاوية واو بفزان [وهو الذي روى القصة]، وفي الكفرة وجد الوفد قافلة من التجار من قبيلتي الزوية والمجابرة، وتجار آخرين من طرابلس وبنغازي تتأهب للسفر إلى السودان، فانضم الوفد إلى هؤلاء التجار الذين تعوَّدوا السير في الطرق الصحراوية، ولهم خبرة جيدة بدروبها، وعندما وصل المسافرون إلى قلب الصحراء بالقرب من السودان، قال بعض التجار الذين تعودوا المرور من هذا الطريق: إننا سنمر بعد وقت قصير بطريق وعر لا مسلك لنا غيره، ومن العادة [إلا في القليل النادر] يوجد فيه أسد ينتظر فريسته من القوافل التي تمر من هناك،

وتعوَّدت القوافل أن تترك له بعيرًا كما يترك الإنسان قطعة اللحم إلى الكلاب أو القطط، وتمر القوافل بسلام، واقترح المتحدث أن يشترك الجميع في ثمن بعير هزيل، ويتركونه للأسد عند خروجه، فرفض عمر المختار بشدة قائلًا: [إن الإتاوات التي كان يفرضها القوي منا على الضعيف بدون حق أُبطلت، فكيف يصح لنا أن نعيد إعطاءها للحيوان، إنها علامة الهوان والمذلة. إننا سندفع الأسد بسلاحنا إذا ما اعترض طريقنا]، وقد حاول بعض المسافرين أن يثنيه عن عزمه، فرد عليهم قائلًا: إنني أخجل عندما أعود وأقول: إنني تركت بعيرًا إلى حيوان اعترض طريقي، وأنا على استعداد لحماية ما معي، وكلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته، إنها عادة سيئة يجب أن نبطلها، وما كادت القافلة تدنو من الممر الضيق حتى خرج الأسد من مكانه الذي اتخذه على إحدى شرفات الممر، فقال أحد التجار -وقد خاف من هول المنظر، وارتعشت فرائصه من ذلك-: أنا مستعد أتنازل عن بعير من بعائري، ولا تحاولوا مشاكسة الأسد، فانبرى عمر المختار ببندقيته وكانت من النوع اليوناني، ورمى الأسد بالرصاصة الأولى فأصابته ولكن في غير مقتل واندفع الأسد يتهادى نحو القافلة فرماه بأخرى فصرعته، وأصر عمر المختار على أن يسلخ جلده ليراه أصحاب القوافل فكان له ما أراد.

إن هذه الحادثة تدلنا على شجاعة عمر المختار، وقد تناولتها المجالس يوم ذاك بمنتهى الإعجاب، وقد سأل الأستاذ محمدُ الطيب الأشهب عمرَ المختار نفسه في معسكر المغاربة بخيمة السيد محمد الفائدي عن هذه الواقعة فأجاب بقوله: تريدني يا ولدي أن أفتخر بقتل صيد قال لي ما قاله قديمًا أحد الأعراب لمنافسه وقد قتل أسدًا: [أتفتخر عليّ بأنك قتلت حشرة]، وامتنع عمر المختار بقول الله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧].

كان عمر المختار في طليعة المجاهدين الليبيين، حيث أسهمت نشأته الدينية وجهاده في السودان ضد الفرنسيين في غرس قيمة الجهاد والكفاح من أجل الاستقرار والاستقلال

والدفاع عن الدين والوطن داخل نفسه، وبرز مردود عمله أثناء التصدي للعدوان الإيطالي عام ١٩١١م عندما أنذرت إيطاليا السلطنة العثمانية بعدم معارضة احتلال الأراضي الليبية، وشنت بعد إنذارها الحرب في ٢٩ سبتمبر ١٩١١م، وساعدتها القوات الإنجليزية بمنع عبور الإمدادات العثمانية إلى ليبيا عبر الأراضي المصرية، مما سهّل على الطليان احتلال طرابلس الغرب وبعدها درنة وبنغازي وطرابلس، وبدأت معركة الجهاد الإسلامي الليبي ضد الإيطاليين، وقاد العلماء طلائع المجاهدين ضد الغزاة، وتصدى الفرنسيون للتونسيين، بعد أن قاد حزب [تونس الفتاة] حملة للتضامن مع الشعب الليبي ضد الاحتلال.

ومن هنا بدأ التحالف الإيطالي الفرنسي ومعهما الإنجليز والأسبان، للسيطرة على شمال أفريقيا، حيث سيطرت أسبانيا على جزء من المغْرب وسيطرت فرنسا على تونس والجزائر، وسيطرت إيطاليا على ليبيا والحبشة، وسيطرت بريطانيا على مصر والسودان.

لم يهدأ العدوان الإيطالي على ليبيا، حيث استهدف المناطق العامرة بالسكان بغية القضاء عليهم تمهيدًا للاستيطان، ونتج عن ذلك نزوح آلاف الأسر عن ديارها إلى بلدان أخرى، لكن ذلك لم يُجِدّ من متابعة رسالة الجهاد، وبدأ تفعيل المقاومة بشكل أكبر ومنظم. لكن الفتن الداخلية والنزاعات العشائرية أضعفت موقف المجاهدين في عدة من مناطق المقاومة، وبرغم ذلك تجدد الجهاد في برقة في شرق ليبيا بقيادة الشيخ عمر المختار.

ازدادت شراسة المعارك، وشعر شيخ المجاهدين بخطورة الموقف، فشكل قيادة عليا للمجاهدين تكونت برئاسته وضمت القبائل العربية الليبية، التي جاءت من شبه الجزيرة العربية أيام الفتوحات الإسلامية، والقبائل الأخرى، ولم يقتصر الجهاد على أبناء القبائل، بل انضم إليهم أيضًا عدد كبير من المجاهدين على اتخاذ خطوات جهادية قتالية، ولكن ما أبداه عمر المختار من النشاط في الغزو والهجوم والثبات والإقدام وشدة البأس والإيمان أفشل مخطط الطليان.

وقد حصل انقلاب سياسي في الحكومة الإيطالية بسبب الخلاف على السياسة التي يجب اتباعها والإقدام بالقضاء على عمر المختار.

وفي ديسمبر ١٩٢٨م استقال وزير المستعمرات في روما وحاكم طرابلس وحاكم برقة، وأعلن موسوليني توحد الإدارة في طرابلس وبرقة، وعين الجنرال بادوليو حاكمًا عليها، وكان من أشهر القادة الطليان في الحرب العالمية الأولى، واشتهر بالثبات والإقدام، وكان موسوليني يرى فيه المنقذ الوحيد للسياسة الإيطالية في طرابلس، مما حل بها من الفشل والتذبذب طوال ثماني عشرة سنة.

وبدأ بادوليو مهمته بدعوة المجاهدين إلى الاستسلام للحكومة الإيطالية، ووزع منشورات في جميع المناطق يدعو لذلك، ويهدد بالعقاب الصارم بلا رحمة لكل من يستمر في الخروج على الحكومة، وأصدر بادوليو عفوًا عن السياسيين المبعدين، وأخذ يستعد لتنفيذ خطته التي جاء من أجلها، وهي القضاء على حركة السيد عمر تمهيدًا لاستقرار السياسة الاستعمارية الإيطالية في طرابلس.

وأراد بادوليو أن يقضي على ثورة المختار عن طريق المفاوضات، فدعاه إليها، وكان يعتقد أن عمر المختار قد يرضخ مقابل إصدار عفو يكفل له حياته هو ومن معه نظرًا لموقفه الحرج من انقطاع المواصلات من كل جهة والحصار المفروض عليه.

وظنَّ عمر المختار أن هذه المفاوضات قد تأتي بخير، وليقيم الدليل العملي على حبه للسلام أجاب طلب بادوليو لبدء المفاوضات، وكان من شروط عمر المختار أن يحضر مندوب من طرف الحكومة المصرية وآخر من الحكومة التونسية ليشهدا الشروط المتفاوض عليها، وألا تتدخل الحكومة الإيطالية في الأمور الدينية للشعب الليبي، وأن تكون اللغة العربية معترفًا بها رسميًا، وأن تُفتح مدارس خاصة يدرس فيها التوحيد والتفسير والحديث

وعلوم الدين، وألا يُحرم الوطنيون من التعليم العالي، وأن يكـون للـبلاد رئـيس مـن أهلهـا ويكونوا أحرارًا في حمل السلاح للدفاع عن الوطن.

لكن السيد عمر اكتشف أن هدف المباحثات الإيطالية سواء في الخارج مع المجاهـدين الليبيين أم في الداخل، ترمى إلى المراوغة وكسب الوقت وتمزيـق وحـدة المجاهـدين، وتأكـد المختار من نياتهم، فأصدر نداءه المشهور عـام ١٩٢٩م، ودعـا مواطنيـه إلى المـضي في طريـق الجهاد باذلين دماءهم الزكية فداءً للوطن، وفي سبيل الوصول لتحقيق غايتهم المنشودة، وكان المنشور في حيثياته يدل على صراحة عمر المختار في سبيل الوصول إلى التفاهم، فلبى الـدعوة إلى المفاوضات وطرح شروطه الأولية وقَبَل مد الهدنة وانتظر رد الإيطاليين، لكـنهم أبـوا أن يردوا عليه مع أنهم هم الذين طلبوا الهدنة، ولكنهم لم يطلبوها لتبادل الآراء، بل لتكون طريقًا من طرق الخداع الحربية.

وقد استعمل عمر المختار حقه في جباية الزكاة من العـرب بمقتـضى شروط الهدنـة التـي سقطت، وعاد القتال بين الطرفين، وامتدت أيدي الطليان إلى كل من أعطى زكاة أموالـه لعمـر المختار، وحُكم على بعضهم بالإعدام، ودارت المعارك الحربيـة عـلى الأراضي الليبيـة، وتوافـق معها حملة إعلامية قادها بشير السعداوي وشكيب أرسلان ضد العدوان الإيطـالي، وتكاملـت الوحدة الجهادية بين المقاتلين والكُتَّـاب المناضـلين، واشـتد سـعير الحـرب الجهاديـة، فأرسـل الإيطاليون السفاح غراتسياني إلى ليبيا، فاستخدم ما توافر لديه من أسلحة برية وجوية في الحرب لإبادة الليبيين، وحاصر الحدود الليبية، وزرع الألغام، ووضع الأسلاك الشائكة، وأطلق أيـدي حُكَّامه للتنكيل بالليبيين عن طريق المحاكم الصورية التي طبقهـا لاحقًـا، واسـتمرت المعـارك الضارية بين قوى الحق وقوى العدوان في ظروف غير متكافئة من حيث العدة والعدد.

وقامت القوات الإيطالية آنذاك بحشد قواتها، وكانت أكبر حملاتها في تاريخ الاحـتلال الإيطالي، لاحتلال الكفـرة [وهـي مجموعـة واحـات في صـحراء ليبيـا] وهـي أكـبر معقـل

السنوسية، وفيها من الخيرات الكثير، وجاء احتلال الكفرة كالصاعقة على الرؤوس، وأحس بخطرها كل من يهمه أمر طرابلس.

ولم يبقَ منفذ لعمر المختار يتصل منه بالعالم، بعد احتلال الكفرة إلا الحدود المصرية المخفورة بجيوش إيطاليا وطائراتها، ولكن هذه الجيوش وتلك الطائرات ما كانت تمنع عمر المختار من الاتصال بالأسواق المصرية ليرسل إليها ما يغنمه المجاهدون من الطليان، ويختار منها ما يلزم المجاهدين.

وعاد غراتسياني من الكفرة لحصار المجاهدين من ناحية الحدود المصرية، فأضاف إلى ذلك قوة ثالثة، هي الأسلاك الشائكة لمسافة ثلاثمائة كيلو مترًا، وأصبح المجاهدون بعدها معزولين عن الخارج من جميع الجهات، وقد حاولوا عدة مرات اختراق هذه الأسلاك، لكنها كانت مانعًا قويًا استحال عليهم اختراقها.

وكان من عادات عمر المختار أن يقوم باستكشاف مواقع العدو بنفسه، لمعرفة آفاق الهجوم عليها بغتة، وكان يرافقه من أصحابه المجاهدين ما لا يزيد على الأربعين فارسًا، وبينما هو يسير مساء يوم جمعة في سرية من أصحابه فاجأته جيوش الطليان، بعد أن علموا بخبره، وحاول هو وأصحابه الخروج من الوادي الذي هم فيه، لتفادي محاصرتهم، ففاجأته طليعة أخرى من جنود المعتدين، ونشب القتال بينهم وبين العدو، وقُتل كثير من أصحاب عمر كما قُتل حصانه فأوقعه على الأرض، وبينما كان يحاول النهوض رآه أحد الجنود فتقدم إليه وقبض عليه.

وحضر حاكم المرج في طائرة خاصة، وقد عرف عمر بمجرد رؤيته؛ لأنه اجتمع به عدة مرات في المفاوضات، ونقل إلى مرسى سوسة، ونُقل منها بحرًا إلى بنغازي ثم إلى السجن، وبقي فيه إلى يوم محاكمته في ١٥ سبتمبر سنة ١٩٣١م حيث عُقدت محاكمته في القاعة الكبرى للحزب الفاشيستي، وهي دار مجلس النواب [السابق] في بنغازي، وبعد أن اكتملت هيئة

المحكمة نودي بالدعوة ضد عمر المختار لاعتدائه على سلامة الدولة، وعلى أمن البلاد ولقطعه الطريق، ثم نودي عليه لاستجوابه.

وكان أول سؤال له: لماذا حاربت الإيطاليين؟

وكان الجواب: حاربت من أجل ديني ووطني.

وبعد محاكمة قصيرة مدتها نصف ساعة صدر الحكم بإعدام عمر المختار، وفي اليوم التالي مباشرة صباح يوم الأربعاء ١٦ سبتمبر ١٩٣١م، اتخذت التدابير اللازمة بمركز سلوق لتنفيذ الحكم فيه، وحضر جمع غفير من سكان تلك الناحية والبوادي القريبة منها، وأُحضر جميع المعتقلين السياسيين خصيصًا من أماكن مختلفة لمشاهدة تنفيذ الحكم، وحشد الإيطاليون حشدًا كبيرًا من القوات البحرية والمشاة لهذا الغرض.

وفي التاسعة صباحًا سُلم عمر المختار إلى الجلاد فوضع حبل المشنقة في عنقه، وبعد دقائق صعدت روحه الطاهرة إلى ربها تشكو إليه ظلم الظالمين وجور المستعمرين الذي أذاقهم بجهاده صنوف العذاب وألوان من البذل في سبيل راية الجهاد لدحض المستعمر عن بلاد الإسلام.

❁❁❁

المصادر:

- «عمر المختار ضحية الاستعمار الوحشي» لمحمود شلبي.
- موقع علماء الأمة.

محمد البشير الإبراهيمي

منذ عشرات القرون والعالم العربي والإسلامي محط أطماع كثير من الدول الاستعمارية المتربصة به، والتي استهدفت دائمًا تفكيك أوصاله واستنزاف ثرواته، ونجحت أغلب تلك المحاولات الاستعمارية العديدة المنظمة في أن تفرض سيطرتها وتبسط نفوذها وهيمنتها على بعض أقطار الوطن العربي والإسلامي في فترات متفاوتة من تاريخ الأمة العربية والإسلامية عبر مسيرة تاريخها الطويل، ولكن إرادة التحرر وعزيمة أبناء تلك الأمة كانت دائمًا تنتصر على أطماع الغزاة والمستعمرين مهما طال الزمان، وكان الله يقيض لهذه الأمة روادًا من بين أبنائها يبعثون فيها روح الجهاد، ويشعلون فيها إرادة المقاومة حتى تنتصر على أعدائها وتستعيد حريتها وكرامتها، وتملك زمام أمرها من جديد.

وكان محمد البشير الإبراهيمي واحدًا من هؤلاء الرواد والزعماء الذين أشعلوا تلك الجذوة في نفوس أبناء أمتهم، وساهموا في رفع راية الجهاد ضد الاستعمار في أوطانهم، وفي إيقاظ الوعي بين أبناء أمتهم حتى تحقق لها النصر وتحررت من أغلال الاستعمار البغيض.

لقد كان البشير الإبراهيمي حلقة من حلقات الجهاد الطويل في الجزائر ضد الاستعمار الفرنسي، وأحد الذين شكلوا وعي ووجدان الأمة العربية والإسلامية على امتداد أقطارها؛ حيث كان أحد رواد الحركة الإصلاحية في الجزائر، وأحد مؤسسي جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وكان زميلًا للشيخ عبد الحميد بن باديس في قيادة الحركة الإصلاحية، ونائبه في رئاسة جمعية العلماء، ورفيق نضاله لتحرير عقل المسلم من الخرافات والبدع.

ولد «محمد البشير الإبراهيمي» في [١٥ من شوال ١٣٠٦ هـ، ١٦ من يوليو ١٨٨٩م] في قرية «سيدي عبد الله» قرب «سطيف» غرب مدينة «قسنطينة»، في بيت من أعرق بيوت الجزائر، يرجع نسبه إلى الأدارسة العلويين من أمراء المغرب العربي في أزهى عصوره، وتلقى

تعليمه الأوَّلي على والده وعمه الشيخ «محمد المكي الإبراهيمي» الذي كان من أبرز علماء «الجزائر» في عصره؛ فحفظ القرآن ودرس بعض المتون في الفقه واللغة، كما حفظ العديد من متون اللغة ودواوين فحول الشعراء، فلما مات عمه صار يُدَرِّس ما تلقاه عنه، ولم يكن قد جاوز الرابعة عشرة من عمره.

لكنه ما لبث أن غادر الجزائر إلى الحجاز وهو في العشرين من عمره [سنة ١٣٣٠ هـ، ١٩١١م] ليلحق بأبيه الذي كان قد سبقه إلى هناك قبل ذلك بنحو أربعة أعوام.

وواصل البشير تعليمه في المدينة، واتصل بعالمين كبيرين كان لهما أثر كبير في توجيهه وتكوين فكره، وهما الشيخ عبد العزيز الوزير التونسي وقد درس عليه الفقه المالكي وأخذ عنه «موطأ مالك»، والشيخ حسين أحمد الفيض آبادي الهندي الذي أخذ عنه «صحيح مسلم». وكان البشير شغوفًا بالعلم، يقضي معظم وقته بين المكتبات الشهيرة بالمدينة، ينهل من كنوزها، ليروي ظمأه المعرفي ويشبع نهمه العلمي.

وفي أثناء إقامته في المدينة تعرف على الشيخ عبد الحميد بن باديس عندما قَدِم لأداء فريضة الحج عام [١٣٣١ هـ، ١٩١٣م]، كما التقى بعالم جزائري آخر هو الطيب العقبي وكان قد سبقه إليها قبل سنوات، وجمعت بين ثلاثتهم ألفة ومودة شديدة زادتها اتصالًا ميولهم واهتماماتهم المشتركة، وأَضْفَتْ عليها الغربة مزيدًا من القوة والعمق.

وعاد ابن باديس إلى الجزائر ليبدأ بها برنامجه الإصلاحي، بينما ظلَّ البشير في المدينة حتى غادرها إلى دمشق سنة [١٣٣٥هـ، ١٩١٦م] حيث اشتغل بالتدريس، وشارك في تأسيس المجمع العلمي الذي كان من غاياته تعريب الإدارات الحكومية، وهناك التقى بالعديد من علماء دمشق وأدبائها.

وفي عام [١٣٣٨هـ، ١٩٢٠م] غادر البشير الإبراهيمي دمشق عائدًا إلى الجزائر، وبدأ بدعوته إلى الإصلاح ونشر العلم في مدينة سطيف، وبدأ في إلقاء الدروس الدينية والمحاضرات

العلمية لطلاب العلم من أبناء بلده، وعندما رأى إقبال طلاب العلم على دروسه وخطبه شجَّعه ذلك على إنشاء مدرسة لتدريب الشباب على الخطابة وفنون اللغة والأدب، ولم تنقطع صلته بصديقه ابن باديس طوال تلك الفترة، فكانا يتبادلان الزيارات من حينٍ لآخر.

وفي عام [١٣٤٢ هـ ١٩٢٤م] زاره ابن باديس وعرض عليه فكرة إقامة جمعية العلماء، فلاقت الفكرة قبولا في نفس البشير، فأخذا يدرسانها ويضعان لها الأطر والأهداف التي تقوم عليها تلك الجمعية، وقد استغرق ذلك زمنًا طويلًا حتى خرجت إلى حيز الوجود، وعقد المؤتمر التأسيسي لها في [١٧ من ذي الحجة ١٣٤٩هـ، ٥ من مايو ١٩٣١ م]، وذلك في أعقاب احتفال فرنسا بالعيد المئوي لاحتلال الجزائر، وبعد تأسيس الجمعية اختير ابن باديس رئيسًا لها واختير الإبراهيمي نائبًا لرئيسها، وانتدب من قِبل الجمعية لأصعب مهمة، وهي نشر الإصلاح في غرب الجزائر وفي مدينة وهران، وهي المعقل الحصين للصوفية الطرقيين، فبادر إلى ذلك وبدأ ببناء المدارس الحرة، وكان يحاضر في كل مكان يصل إليه، وبنى أكثر من مائتي مسجد، وامتد نشاطه إلى تلمسان، وهي واحة الثقافة العربية في غرب الجزائر.

وقد أثار نشاط البشير حفيظة الفرنسيين كما أثار قلقهم ومخاوفهم من نتيجة هذا الغرس الذي يؤدي إلى صحوة إسلامية عارمة، وإيقاظ وعي أبناء الأمة، فأسرعوا باعتقاله ونفيه إلى صحراء وهران سنة [١٣٥٩ هـ، ١٩٤٠ م]، وبعد أسبوع من اعتقاله توفي ابن باديس فاختاره العلماء رئيسًا لجمعيتهم خلفًا له، ولم يُفرج عنه إلا بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية سنة [١٣٦٢ هـ، ١٩٤٣ م]، لكنه ما لبث أن اعتُقِل مرة ثانية عام [١٣٦٤ هـ ١٩٤٥م]، وأفرج عنه بعد عام واحد.

وفى عام [١٣٦٦ هـ، ١٩٤٧ م] عادت مجلة «البصائر» للصدور، وكانت مقالات الإبراهيمي فيها غاية في القوة والبلاغة، وتتسم بقدر كبير من الجرأة والصراحة والنقد القاسي لفرنسا وعملاء فرنسا.

وقد وقف البشير في «البصائر» مدافعًا عن اللغة العربية ضد حملات التغريب من المستعمر الفرنسي وأعوانه،يقول عن اللغة العربية: اللغة العربية في القطر الجزائري ليست غريبة، ولا دخيلة، بل هي في دارها وبين حماتها وأنصارها، وهي ممتدة الجذور مع الماضي، مشتدة الأواصر مع الحاضر، طويلة الأفنان في المستقبل. . كما اهتم أيضًا بالدفاع عن قضية فلسطين، وسخر قلمه للتعريف بها والدفاع عنها.

وقد كان البشير الإبراهيمي واسع المعرفة، متنوع الثقافة، متعدد الميول والاهتمامات، ألف في الأدب واللغة، كما صنف في الفقه والمعاملات، ونظم الشعر وكتب العديد من المقالات، وترك البشير تراثًا علميًا وأدبيًا كبيرًا ما يزال بعضه حبيسًا حتى الآن.

وقد عاش البشير الإبراهيمي حتى استقلت الجزائر، فلما أُعلِن الاستقلال عاد إلى وطنه، وخطب لأول صلاة جمعة في مسجد كتشاوة بالعاصمة الجزائرية، وكان الفرنسيون قد حوَّلوه إلى كنيسة بعد احتلالهم الجزائر.

وقد لزم البشير بيته بعد عودته، ولم يشارك في الحياة العامة بعد أن تقدم به العمر ووهنت صحته، إلا أنه لم يكن راضيًا عن الاتجاه الذي بدأت تتجه إليه الدولة بعد الاستقلال؛ فأصدر عام [١٣٨٤ هـ ١٩٦٤ م] بيانًا قال فيه: إن الأسس النظرية التي يُقيمون عليها أعمالهم يجب أن تنبعث من صميم جذورنا العربية الإسلامية لا من مذاهب أجنبية.

تُوفي رَحِمَهُ اللَّهُ يوم الخميس [١٨ من المحرم ١٣٨٥ هـ ١٩ من مايو ١٩٦٥ م] عن عمر بلغ [٧٦] سنة، قضاها في خدمة الإسلام والمسلمين.

❀❀❀

القاضي/ محمد بن بشير القرطبي

تعرض الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل لأول عهده بالأندلس لمحنة قاسية كادت تقضي على ملكه، لولا ثباته الجريء، فقد سار مع البطش إلى نهايته حتى قمع الفتنة وقضى على الثائرين، ومجمل ما كان من حديثه أن والده هشام بن عبد الرحمن كان في أثناء حكمه ذا ورع وزهد، فاستدنى الفقهاء وجعلهم أرباب مشورته، وأداة تنفيذه، وصار لهؤلاء من الرياسة والأبهة ما جعلهم وزراء الدولة وحجابها وقضاتها، حتى كان لا يقضي أمرًا ما دون استشارة فقيه، ولكن نشأة الحَكَم ومنحاه يختلفان اختلافًا واضحًا عن أبيه، إذ أولع منذ نشأته بكتب الفلسفة والمنطق والأدب، وأخذ يقرأ تواريخ الأمم قراءة الدارس المحلل، ويجمع من الكتب شرقًا وغربًا وعربيًا وأعجميًا، ما ضاقت به الخزائن الملكية على سعتها الحافلة.

وحين أُفضى الأمر إليه من بعد أبيه، لم يشأ أن يسير سيرته مع الفقهاء، ورأى أن يقف بهم في حدود المناصب الدينية من قضاء وإمامة وتدريس، ونظر القوم فإذا سلطانهم يتضاءل وينكمش، وإذا الحاكم الجديد يستمع إلى الأدباء والشعراء وقادة الحرب، أكثر مما يستمع إلى أصحاب الفقه والتشريع، فأعلنوا الحرب الباردة عليه بادئ ذي بدء، فأوحوا إلى العامة بأنه ملحد يدرس كتب الزندقة والزيغ، وفاسق يصحب الخلعاء والمتهتكين، ويدمن على الشراب والعربدة، وانهالت القوارص المحرجة على الرجل، فلم تترك في أديمه موضعًا خاليًا من تمزيق، ثم تحولت الحرب الباردة إلى حرب ساخنة حين جمع الفقهاء جموعهم مع من كانوا أولياء نعمتهم من القادة والولاة، وأعلنوا الثورة على الحَكَم، وحاصروه ورموه بالكفر والمروق، فاضطر اضطرارًا إلى البطش، وأورثه هذا الموقف العدائي غلظة وجفاء، فأمعن في التنكيل، وانقلب إلى طاغية سفاك حتى استقام له الأمر وسلس القياد.

ومع ما اشتهر به من القسوة المرهبة، فقد وجد من علماء عصره من يتصدى له بالحق، رغبةً في تنفيذ العدالة، لا بالباطل شهوة في تقلُّد الرياسة وامتلاك السلطان، وهو العالم الحر النزيه والقاضي الكبير محمد بن بشير القرطبي إمام المسجد الجامع وقاضي الجماعة الغيور.

نشأ ابن بشير نشأة علمية كريمة، فطاف ببلاد الإسلام شرقًا وغربًا حتى وصل إلى المدينة، وتلقى العلم مشافهة على إمام دار الهجرة مالك بن أنس، ثم عرج في طريقه على مصر فساجل فقهاءها وعقد أواصر الصداقة، بين قضاتها الأعلام، وقد نفعه ذلك في منصبه القضائي بالأندلس، فكان يكتب إليهم بمصر مستفتيًا فيما يشكل عليه من الأحكام، فيجيئه الرد مشفوعًا ببرهانه الثابت من السنة والكتاب، وفي هذا ما يكشف عن نفسية ابن بشير، إذ لو شاء لكان أمره القضائي بالأندلس حاسمًا لا معقب عليه، ولكنه تحرز العالم وتواضع الكبير.

كان ابن بشير في قضائه مجددًا ينظر إلى الأشياء نظرات عميقة ذات بُعد ونفاذ، وقد أحدث من الأوضاع لعهده ما عدّ به سابقًا غير لاحق، إذ كان أول من جعل المسجد بمنأى عن مهاترة الخصوم في مجالس القضاء، واختصه بالعبادة والصلاة حين أمر بانتقال محكمته من المسجد الجامع إلى سقيفة تتصل به دون أن يسمع المصلي بعض ما يدور بها من حِجَاجٍ ولجاجٍ، وقد نظم مسائل الدعوى والشهادة في القضاء تنظيمًا مريحًا، إذ جعل لكل يوم جلستين: جلسة صباحية تسمع فيها الدعوى وتسجل في أوراق، وجلسة بعد الظهيرة يجتمع بها الشهود ويناقشون على انفراد كيلا يعرفهم الجاني، إلا إذا دفعت الحاجة إلى المواجهة والإعلان، ومهما يكن من شيء فقد كان للعالم الكبير رأيه المفكر، واستقلاله الكبير.

وقد اصطدم في أول قضية عُرضت عليه بالحَكَم أمير الأندلس، إذ أصدر أمره بإدانته في مسألة هامة، وتوقع الناس أن يصدر الأمر بعزله، وخاصة وهم يعرفون نفسية الحَكَم ونفورها من القضاة والفقهاء، بعد أن ألبوا عليه الجموع، وبذلوا جهدهم البالغ في التجريح

والتشهير، وكان القاضي جريئًا حازمًا في موقفه، فجعل رضا الله نُصْبَ عينيه دون اكتراث بغضب إنسان، وكان الله عَزَّ وَجَلَّ قد كافأه على نيته، إذ ألهم الأمير الحَكَم أن يخضع ويستكين، فتقبَّل الإدانة بصدر رحب ونزل على رأي القاضي، فرفع المظلمة عن المجني عليه، وقال لجلسائه وقد أخذوا يتملقونه إذ يتحرشون بابن بشير: لا يا قوم! لقد أحسن ابن بشير فيما فعل على كرهٍ منا، كان في يدنا شيء فصحَّحه لنا، وصار حلالًا طيبًا في أعقابنا.

وبديهي أن الذي يتصدى للأمير الحاكم، ويحكم عليه بالإدانة، يسهل عليه أن يتصدى لمن دونه من الوزراء والحُجَّاب والولاة، فكان يصدر أحكامه الكثيرة بإدانتهم، فتمتلئ صدورهم حفيظة وغيظًا دون أن يجدوا متنفسًا لما يستشعرون، وقد حكم ذات مرة في قضية هامة على الوزير ابن فطيس، ولم يعرِّفه بالشهود، فاغتاظ الوزير غيظًا ناقمًا وشكاه إلى الحَكَم وجعل يستعديه عليه، فاضطر الحَكَم أن يكتب إلى القاضي فيقول: إن الوزير كره حكمك عليه بشهادة قوم لم تُعرِّفه بهم ولا أعذرت إليه فيهم، وأهل العلم يقولون إن ذلك له.

وخطاب الحَكَم -على إيجازه- غاية الغايات في الأدب واللباقة، فهو يعترض على إخفاء الشهود عن الوزير، ولا يقول إن له ذلك الحق، بل يسند القول إلى أهل العلم وحدهم لا إليه. . ولن تجد ذوقًا كهذا الذوق من رئيس أو أمير أو ملك.

وقد جاء رد ابن بشير على رسالة الحكم مقنعًا مريحًا، فهو يجزم بأن ابن فطيس إذا عرف خصومه في الشهادة لم يتحرج عن طلب أذاهم في أنفسهم وأموالهم، وإذ ذاك لا يجرؤ أحد على الشهادة ضده وتضيع حقوق الناس.

هذا الفهم النفسي لمكايدة الوزراء ودخائلهم يوقفك على الرصيد الضخم من البصيرة والاستشفاف لدى القاضي ابن بشير. . ويعلمك أنه ليس فقيهًا فقط، ولكنه باحث متعمق يستكْنِهُ السرائر، ويضع لكل حالة علاجها المصيب، وقد رد شهادة الأمير الحَكَم نفسه في

قضية هامة ولم يخشَ لومة لائم من إنسان، وإنَّ قاضيًا يجابه السلطان هذه المجابهة الخطيرة لقوي أمين.

أما كيف تمت هذه المجابهة المحرجة فقد كان للحكم عم يسمى سعيد الخير، وكان له في دولته مقام كبير، فوكل عند قاضي الجماعة ابن بشير وكيلًا يخاصم عنه بشيء اضطره إليه، وكانت بيده وثيقة فيها شهادات شهود قد ماتوا، ولم يكن فيها من الأحياء إلا ابن أخيه الحَكَم، وشاهد آخر مبرز، فشهد ذلك الشاهد لسعيد الخير، وضربت على وكيله الآجال ليأتي بشاهد ثانٍ، فلما جدَّ به الخصام دخل سعيد الخير بالكتاب إلى الحَكَم، وأراد شهادته في الوثيقة، وقد كتبها في حياة أبيه قبل أن يقوم بأمر الأندلس، فعرفه مكان حاجته إلى شهادته عند قاضيه خوفًا من بطلان حقه.

وكان الحَكَم يعظم عمه سعيد الخير، ويلتزم مبرته، ولكنه خاف من ابن بشير أن يرد شهادته، فيكون لذلك أثر غير محمود في ملكه، فقال له: يا عم! إنا لسنا من أهل الشهادة، وقد التبسنا من هذه الدنيا بما لا تجهله، ونخشى أن توقفنا مع القاضي موقفَ مخزاةٍ كنا نفديه بملكنا، فسِرْ في خصامك حيث صيَّرك الحق إليه، وعلينا خلف ما انتقصك.

فأبى سعيد الخير ذلك من الحَكَم، وقال له: سبحان الله! ما عسى أن يقول قاضيك في شهادتك؟ وأنت ولَّيته، وهو حسنة من حسناتِك، وقد لزمتك في الديانة أن تشهد لي بما علمته، ولا تكتمني ما أخذ الله عليك.

فقال له الحَكَم: بلى، إن ذلك لمن حقك، كما تقول، ولكنك تُدْخِل علينا به داخلة، فإن أعفيتنا منه فهو أحب إلينا، وإن اضطررتنا لم يمكننا عقوقك.

فعزم سعيد الخير على الحَكَم في أداء شهادته، وألح عليه فيها إلحاحًا شديدًا فأرسل الحَكَمُ عند ذلك إلى فقيهين من فقهاء زمانه، وخط شهادته في قرطاس بيده، وختم عليها بخاتمه، ودفعها إلى الفقيهين، وقال لهما: هذه شهادتي بخطي تحت ختمي، فأدياها إلى القاضي.

فذهب الفقيهان بهذه الشهادة إلى ابن بشير، فدخلا عليه بها في مجلسه وقت قعوده لسماع من الشهود، فأدياها إليه، فقال لهما: قد سمعت منكما، فقوما راشدين في حفظ الله تعالى.

ثم جاء وكيل سعيد الخير بعد انصرافهما، وتقدم إلى ابن بشير مُدِلًا واثقًا، لأنه أتى بشهادة سلطان البلاد، فقال له: أيها القاضي! قد شهد عندك الأمير أصلحه الله تعالى، فما تقول؟

فأخذ ابن بشير كتاب الشهادة ونظر فيه، ثم قال للوكيل: هذه شهادة لا تقبل عندي، فجئني بشاهد عدل.

فدُهش الوكيل عند سماع ذلك من القاضي، ومضى إلى سعيد الخير فأعلمه بما قال، فركب سعيد الخير من فوره إلى الحَكَم وقال له: ذهب سلطاننا وأزيل بهاؤنا، يجترئ هذا القاضي على رد شهادتك!! والله سبحانه قد استخلفك على عباده، وجعل الأمر في دمائهم وأموالهم إليك، وهذا ما يجب أن تحمله عليه.

وجعل سعيد الخير يغري الحَكَم بالقاضي ويحرضه على الإيقاع به، فقال الحَكَم له: وهل شككت أنا في هذا يا عم؟ القاضي رجل صالح، والله! لا تأخذه في الله لومة لائم، فعل ما يجب عليه ويلزمه، وسد دونه بابًا كان يصعب عليه الدخول منه، فأحسن الله تعالى جزاءه.

ولما سمع سعيد الخير ذلك من الحَكَم غضب، وقال له: هذا حسبي منك.

فقال الحكم: نعم قد قضيتُ الذي كان لك عليَّ، ولست والله أعارض القاضي فيما احتاط به لنفسه، ولا أخون المسلمين في قبض يد مثله.

وقد عوتب ابن بشير من بعض أصدقائه فيما أتاه من ذلك، فقال لمن عاتبه: يا عاجز! أما تعلم أنه لابد من الأعذار في الشهادات، فمن كان يجترئ على الدفع في شهادة الأمير لو قبلتها؟ ولو لم أعذر لبخست المشهود عليه حقه.

ولن تحتاج صرامة ابن بشير وجرأته إلى تعليق، فقد رفض شـهادة رئـيس الدولـة وولي الأمر متحرجًا متحرزًا، وكان في وسعه أن يقبلها- كما يرى ذلك كثير من العلماء-، ولكنه ينظر إلى الحّد الأبعد حين يحجم المعترض عن دفع الشهادة هيبة وخشية، فليحجم هو عن قبولهـا، ليتحمل التبعة ويواجه السلطان، هذه البطولة ولا يُلقاها إلا ذو حظ عظيم.



المصادر:

- «علماء في وجه الطغيان» للدكتور/ محمد رجب البيومي.
- «زهر البساتين من مواقف العلماء الربانيين» للدكتور سيد العفاني.

العلامة الشيخ/ إحسان إلهي ظهير

حفظ القرآن في سن التاسعة، ودرس علومه في الجامعة الإسلامية بمدينة «ججرانوالا». درس كتب الحديث النبوي الشريف على يد الحافظ محمد جوندلوي - الشيخ العلامة عطا الله حنيف- ذلك في مدينة «فيصل آباد».

درس الفلسفة والمنطق والعقل على يد الشيخ شريف الله حتى برع فيها، ويظهر ذلك من خلال ردوده الفعلية العلمية في مؤلفاته، وذلك في ردّه على الملل والنِّحَل والعقائد.

حصل على ليسانس في الشريعة من الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، وكان ترتيبه الأول على جميع طلبة الجامعة، وحصل على نسبة ٩١٪، وذلك عام ١٩٦١ م. وبعد نجاحه في الجامعة الإسلامية رجع إلى بلاده باكستان، والتحق بجامعة «البنجاب» بكلية الحقوق والعلوم السياسية، وحصل على الليسانس. ثم حصل في الدراسات العليا على الماجستير في الشريعة وفي اللغة العربية والفارسية والأردية، ثم أصبح رئيس تحرير مجلة «ترجمان الحديث» - التابعة لجمعية أهل الحديث بـ«لاهور»، باكستان. ثم مدير تحرير مجلة «أهل الحديث» الأسبوعية. وزاول الخطابة، ومناظرة المنحرفين، وكان قوي الحجة، له قدم راسخة في المناظرة.

المناصب والوظائف والدعوة:

كان رحمه الله رئيسًا لمجمع البحوث الإسلامية.

بالإضافة إلى رئاسة تحرير مجلة «ترجمان الحديث» التابعة لجمعية أهل الحديث بلاهور في باكستان، كذلك كان مدير التحرير بمجلة أهل الحديث الأسبوعية.

وكان رحمه الله عظيم الشأن في أموره كلها... رجع يوم رجع إلى بلاده ممتلئًا حماسًا للدعوة الإسلامية.

وقد عرض عليه العمل في المملكة العربية السعودية فأبى آخذًا بقوله تعالى: ﴿وَمَا

كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة:١٢٢].

يقول عنه الدكتور محمد لقمان السلفي في مجلة الدعوة:

«لقد عرفت هذا المجاهد الذي أوقف حياته بل باع نفسه في سبيل الله أكثر من خمس وعشرين سنة عندما جمعتني به رحمه الله مقاعد الدراسة في الجامعة الإسلامية، جلست معه جنبًا إلى جنب لمدة أربع سنوات فعرفته طالبًا ذكيًا يفوق أقرانه في الدراسة، والبحث، والمناظرة! وجدته يحفظ آلاف الأحاديث النبوية عن ظهر قلب كان يخرج من الفصل... ويتبع مفتي الديار الشامية الشيخ ناصر الدين الألباني ويجلس أمامه في فناء الجامعة على الحصى يسأله في الحديث ومصطلحه ورجاله ويتناقش معه، والشيخ رحب الصدر يسمعه منه، ويجيب على أسئلته وكأنه لمح في عينيه ما سيكون عليه هذا الشاب النبيه من الشأن العظيم في الدعوة إلى الله والجهاد في سبيله بالقلم واللسان».

وكان الشيخ رحمه الله يتصل بالدعاة والعلماء في أيام الحج في شتى بقاع الأرض... يتداول معهم الموضوعات الإسلامية والمشاكل التي يواجهها المسلمون.

دعاة الضلالة والحقد المستعر:

لكل مجاهد مخلص... خصوم وأعداء، ولكل حق ضده من الباطل وبما أن الشيخ كان سلفي العقيدة من المنتمين لأهل الحديث فقد جعله هذا في حرب فكرية دائمة مع الطوائف الضالة كالرافضة والإسماعيلية والقاديانية.

لقد كان يرفضها... ويرد على ضلالاتها... ويجابهها في كل مكان وكل منتدى شأنه شأن كل مؤمن حقيقي الإيمان يعتقد في قرارة نفسه أن الكتاب والسنة هما الطريق الأوحد ولا طريق سواه لكل من أراد أن يكون من المنتمين لدين الإسلام. ويعتقد كذلك أن أديانًا تبنى على الكذب وتتستر خلف الترهات والأباطيل لجديرة بألا تصمد أمام النقاش وأن

تتضعضع أمام سواطع الحق ونور الحقيقة ولهذا الأمر طفق يلقي المحاضرات، ويعقد المناقشات والمناظرات مع أصحاب الملل الضالة، ويصنف الكتب المعتمدة على مبدأ الموضوعية في النقل والمناقشة والتحقيق. وكثيرًا ما كان يرد على المبطلين بأقوالهم.. ويسعى إلى كشف مقاصدهم والإبانة عن انحرافهم وضلالهم وفي كل ذلك كان يخرج من المعركة منتصرًا يعضده الحق، وينصره الله تعالى.

ولما أحس أهل الانحراف، وشعروا بأنه يخنق أنفاسهم، ويدحض كيدهم عمدوا إلى طريقة تنبئ عن جبن خالع... عمدوا إلى التصفية الجسدية بطريقة ماكرة.

وفاته واستشهاده:

في لاهور بجمعية أهل الحديث وبمناسبة عقد ندوة العلماء كان الشيخ يلقي محاضرة مع عدد من الدعاة والعلماء، وكان أمامه مزهرية ظاهرها الرحمة والبراءة، وداخلها قنبلة موقوتة... انفجرت لتصيب الشيخ إحسان إلهي ظهير بجروح بالغة، وتقتل سبعة من العلماء في الحال وتلحق بهم بعد مدة اثنان آخران.

كان ذلك في ٢٣ رجب ١٤٠٧هـ الساعة ١١ ليلًا. ونتج عن الانفجار سقوط بعض العمارات والبيوت القريبة من الحادث.

الموقف في باكستان: حزن عام في باكستان ومدنها، وأغلقت بعض المحلات التجارية وغيرها في المدن التالية: «لاهور» و«إسلام آباد» و«كراتشي». في الدول العربية والإسلامية: استياء عام من قِبَل بعض الحكومات، وكثير من محبيه وقرّاء كتبه. فقد أذاع راديو الرياض خبر الفاجعة الأليمة، ثم عرضت السعودية عن طريق سفيرها في «كراتشي» طلب معالجته في مستشفيات الرياض.

وفاته: كانت في الساعة الرابعة من صباح يوم الاثنين ١ شعبان ١٤٠٧هـ الموافق ٣٠

من مارس ١٩٨٧م. جيء به من الباكستان إلى المملكة العربية السعودية للعلاج في مستشفيات الرياض بناءً على طلب من سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز -رئيس إدارات الإفتاء والإرشاد بالرياض-، وذلك عندما كلّم الملك فهدًا عن إحسان، فأمر الملك بطائرة من باكستان إلى الرياض، ولكن وافته المنية قبل أن يستكمل علاجه وفاضت روحه إلى بارئها، فغسّل هناك، وصلّى عليه جمع كبير من أهله وطلابه ومحبيه، على رأسهم الشيخ عبد العزيز بن باز حيث صلّى عليه، فسمع البكاء والنشيج من الناس حزنًا على المجاهد الكريم، ثم نقل جثمانه بعد ذلك بالطائرة إلى المدينة المنورة حيث دفن في مقبرة البقيع مع الصحابة وآل البيت وأمهات المؤمنين. فنعم المكان ونعم جار القبر. نسأل الله تعالى ذا الجلال والإكرام أن يكرم نزله، ويجعل أعماله متقبلة عنده، وأن يرزقه الفردوس الأعلى في روح وريحان، وجنة نعيم. إنه ولي ذلك والقادر عليه.

المصادر:

- «زهر البساتين من مواقف العلماء الربانيين» للدكتور سيد العفاني (٥/ ٢٠٩).
- مجلة الدعوة السعودية العدد [١٠٨٧].

الشيخ الداعية/ أحمد ديدات

وجه مسلم من الهند تربى في جنوب أفريقيا وسط الفقراء وأجواء من العنصرية البغيضة ، هكذا نشأ الفتى اليافع بائع الجرائد، الذي قدَّر الله له أن يكون أكبر داعية في وجه التنصير في القرن المنصرم.

اسمه أحمد حسين ديدات وقد ولد في ولاية سوارات في الهند عام ١٩١٨ وهذا العام هو العام الذي أنجب نيلسون مانديلا. ولذلك اقترن اسم جنوب أفريقيا بأحمد ديدات كما اقترن اسمها بالزعيم المناضل نيلسون مانديلا فبينما كان مانديلا يخوض نضالًا سياسيًا لتحرير البلاد من العنصرية من داخل زنزانته كان أحمد ديدات يقود نضالًا عقائديًا شجاعًا لتحرير العقول من الكفر والتخلف والخزعبلات فأسلم عشرات الآلاف على يديه في جنوب أفريقيا وخارجها.

كان والده حسين ديدات خياطًا قرر الهجرة من الهند إلى جنوب أفريقيا طلبًا للرزق ورغبة في تحسين أوضاع أسرته المعيشية، وذلك بعد أن وُلد ابنه أحمد الذي لحق بوالده في جنوب أفريقيا عندما أكمل التسع سنوات من عمره، أي في سنة ١٩٢٧م حيث عاش سنوات طفولته الأولى في ولاية سوارات الهندية موطن أبيه وأجداده من قبل، ولكن الشوق الدفين إلى حنان الوالد والرغبة الجامحة في لَمّ شمل الأسرة دفعاه إلى الرحيل إلى جنوب أفريقيا ومن ثَمَّ الاستقرار بها.

تعلم الفتى أحمد ديدات في البلد الجديد اللغة الإنجليزية، وحصل على شهادة السادس أو الثاني من المرحلة المتوسطة إلى أن بلغ السادسة عشر من عمره، وعندها توقف عن الدراسة حين اضطر والده إلى إخراجه من المدرسة في بداية المرحلة الثانوية بسبب الظروف المادية السيئة وعمل بعدها بائعًا في أحد البقالات التي تبيع المواد الغذائية ويمتلكها أحد المسلمين،

ويقع في منطقة نائية في ساحل جنوب إقليم ناتال، وكانت بجانب إرسالية مسيحية، وكان ذلك في عام ١٩٣٦م حين كان طلبة الإرسالية المسيحية يأتون إلى الدكان الذي يعمل به ديدات وكان جميع العاملين به من المسلمين، ومضى هؤلاء الطلاب المسيحيون يكيلون الإهانات لديدات وصحبه عبر الإساءة للدين الإسلامي.

وعن هذا يقول الشيخ ديدات: كانوا يأتون إلينا ليقولوا: هل تعلمون شيئًا عن عدد زوجات محمد؟ ألا تدرون أنه نسخ القرآن وأخذه من كتب اليهود والنصارى؟ هل تعلمون أنه ليس نبيًّا؟ ويستمر الشيخ قائلًا:

لم أكن أعلم شيئًا عما يقولون، كل ما كنت أعلمه أنني مسلم. . اسمي أحمد. . أصلي كما رأيت أبي يصلي. . وأصوم كما كان يفعل، ولا آكل لحم الخنزير أو أشرب الخمور، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله.

المسارعة إلى تعلم القرآن والعلوم الشرعية أثناء العمل:

عمل بعدها أحمد ديدات سائقًا في أحد مصانع الأثاث، ومن ثَـمَّ صار كاتبًا في نفس المصنع إلى أن أصبح مديرًا لهذا المصنع، وإن مثل هذا الترقي في درجات العمل يثبت بما لا يَدَعُ مجالًا للشك بأن هذا الرجل كان صبورًا ومجتهدًا ويعمل بكل أمانة وإخلاص وهذا جعل منه محبوبًا بين زملائه ومديريه في العمل، وإلا لما تحول بائع البقالة البسيط في فترة قياسية إلى مدير لمصنع الأثاث، فسبحان الله الذي يفتح أبواب الرزق للأتقياء ويعطي المجتهدين المثابرين.

بالرغم من حاجته الماسة إلى المال وحاجة أسرته إلا أن أحمد ديدات لم ينسَ ربه وحاجته إلى التعلم فسارع إلى حفظ القرآن الكريم ودراسة العلوم الشرعية وقراءة الكتب الدينية المتنوعة التي تدافع عن الإسلام وترد على الشبهات التي يزرعها بعض المستشرقين والمشككين فيه، فحاجة الإنسان إلى العلم لا يحدها سن ولا عمل ولا يقف في وجهها ظروف

ومصاعب لأن الإنسان المسلم يلبي حاجة روحه بالإيمان وطاعة الرحمن، ويلبي حاجة عقله بالعلم والمعرفة، ويلبي حاجة جسمه بالعمل والمثابرة، ليفيد بذلك نفسه وأسرته ودينه ويحقق بذلك رضا الله ورسوله والمؤمنين.

وفي الأربعينيات من القرن المنصرم أخذ أحمد ديدات دورة في تصليح وصيانة أجهزة الراديو والإلكترونيات، فجمع قليلًا من المال فقرر، أن يسافر إلى باكستان عام ١٩٤٩م حيث اشتغل في معمل للنسيج ويبدو أنه تزوج هناك وله ولدان وبنت على ما ذُكر عنه إلى أن قرر أحمد ديدات العودة مرة أخرى إلى البلاد التي أمضى فيها فترة المراهقة والشباب [جنوب أفريقيا]، فهو وإن لم يكن يعود إليها في الأصل، ولكنه حصل على جنسيتها وعاش وتعلم وعمل فيها فأصبح ولاؤه وانتماؤه لها.

الدعوة إلى الله ومناظرة القساوسة وإلقاء المحاضرات:

وعندما عاد أحمد ديدات إلى جنوب أفريقيا، فإنه رجع من جديد كمدير لنفس المصنع الذي عمل فيه منذ ثلاث سنوات مضت، فظل يعمل في هذا المصنع، وفي نفس الوقت استمر في حفظ القرآن وتعلم العلوم الشرعية وقام بشراء نسخ من الأناجيل المتنوعة، وانهمك في قراءتها ودراستها جيدًا، ثم عقد المقارنة بين ما جاء فيها، فاكتشف تناقضات غريبة وأخذ يسأل نفسه: أي من الأناجيل هذه أصح؟ وواصل وضع يده على التناقضات المختلفة، ومن ثَمَّ تسجيلها لطرحها أمام أولئك الذين يناقشونه بحدة في البقالة التي كان يعمل بها حيث قام بتحويل دكانه الصغير الذي مازال يحتفظ به إلى مكان يجتمع فيه مع القساوسة ورجال الدين المسيحيين الذين صاروا يأتون إليه يناظرونه ويجادلونه في الفَرْق بين الإسلام والمسيحية إلى أن أنشأ هو وصديقه غلام حسن من جنوب أفريقيا مكتبًا للدعوة الإسلامية يأتي إليه القساوسة ورجال الدين في مدينة ديربان بجنوب أفريقيا عام ١٩٥٦م، ومن هذا المكتب انطلق

الصديقان إلى الدعوة الإسلامية في الكنائس والمدارس المسيحية، وكانت أول محاضرة للشيخ ديدات بعنوان «محمد ﷺ رسول السلام» في عام ١٩٤٠م وألقاها أمام ١٤ شخصًا بإحدى دور السينما بالإقليم الذي عاش فيه ونجحت قوة حجته في إعادة مرتدين كانوا قد تخلوا عن عقيدتهم إلى الإسلام. وهكذا بدأت شؤون وشجون الدعوة تهيمن على كل جوانب حياته حتى بلغ عدد الحضور في محاضراته ٤٠ ألفًا.

أصبح الشيخ أحمد ديدات الداعية الإسلامي الأول في أفريقيا كلها، واستطاع بالحكمة والموعظة الحسنة، وبأسلوب الإقناع العقلي: أن يجعل عشرات الآلاف من المسيحيين يعتنقون الإسلام ويتركون المسيحية إلى أن صارت مدينة [كيب تاون] الجنوب أفريقية تعرف بمدينة أحمد ديدات، وبفضل المناظرات المقنعة التي كان يقيمها مع كبار القساوسة في المنطقة واستطاعته التغلب عليهم فيها بإظهار الأدلة الدامغة والبراهين الواضحة أسلم الناس، وازداد أحمد ديدات شهرة ومحبة لم يكن يحلم بها أو يتوقعها، فصار كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦]، صدق الله العظيم.

استعان أحمد ديدات بكتاب [إظهار الحق] للشيخ: الهندي، والذي جمع فيه هذا الشيخ الجليل دعاوى القساوسة وردوده المقنعة عليهم قبل مائة عام تقريبًا، علمًا بأن هذا الشيخ هو مؤسس المدرسة الصولتية في مكة المكرمة.

صديقين مخلصين.. ورفيقين صالحين:

رافق الشيخ أحمد ديدات في مسيرته الدعوية إلى الإسلام صديقاه المخلصان غلام حسن فنكا وصالح محمد، واللذان قدما له المعونة المادية والمعنوية التي سخرها أحمد ديدات في الدعوة إلى الله وإلى الدين الإسلامي، فقد كان غلام حسن يساعده في البحوث والدراسات، بينما كان صالح محمد رجل أعمال ذا مال وتجارة، فأخذ ينفق في سبيل الله،

ويعين أحمد ديدات من الناحية المادية، ويتولى ترتيب المناظرات من الألف للياء متحملًا كل الأعباء، فكان هذان الاثنان نعم الصديقين المؤمنين للشيخ أحمد، ولذلك فتح الله على أيديهم قلوب وعقول الآلاف للدخول إلى الإسلام.

أنشأ الشيخ أحمد ديدات ورفيقاه مركزًا للدعوة الإسلامية ومركزًا آخر لتعلم الحِرَف اليدوية كالنجارة والكهرباء وغيرها، وفي ذلك دعوة واضحة للناس بأن الدين الإسلامي دين يحارب الجهالة والبطالة والخمول، ويدعو إلى التعلم والعمل، وهم بذلك يضربون أروع المثل في كيفية بناء المجتمع المسلم وتعليم أبنائه وإصلاح الأسر المسلمة التي عاشت سنوات في ظل الكفر والجهالة والبطالة، ففتح الله على أيديهم أبواب الرزق الحلال وفتح مداركهم للعلم والعمل بالإخلاص والأمانة التي دعا إليها الإسلام.

وبعدها توفي صديقاه الحبيبان إلى قلبه ورفيقي مسيرته الدعوية غلام حسن وصالح محمد فأرسل الله له صديقًا جديدًا هو إبراهيم جادات الذي وقف بجانبه حتى أتاه اليقين. ومات صديقاه قبل أن يقيم أحمد ديدات مناظرته العالمية الأولى بقاعة لندن الكبرى عام ١٩٧٧م.

مناظراته مع القساوسة ورجال الدين المسيحيين:

أزعجه هجوم النصارى عليه في صغره واتهامهم الإسلام بأنه دين باطل، وظل قلبه الصغير يتميز حُرْقةً حتى قرر الرد عليهم ؛ فبدأ بدراسة القرآن، وكذا في نفس الوقت دراسة الأناجيل ، فما هاله إلا التناقض الشديد بين الأناجيل، فبدأ يقابل هجوم النصارى من زبائن دكانه الصغير لبيع الجرائد بهجوم مماثل، بدأ يطرح عليهم تناقضات الأناجيل، وما وقعت عينه عليه من تحريف؛ فلما وجد نفسه لأول مرة ينتصر عليهم بعد هزيمة وانكسار طويل، وقف شامخًا مهاجمًا لباطلهم داحضًا لمعتقدهم، حتى اشتهر في جنوب أفريقيا وقرر تكريس

عمره لنشر الإسلام والهجوم على باطل النصارى وغيرهم من أصحاب الأديان المحرَّفة وبمعاونة رفيق دربه غلام حسن فونكا بدأ يشتهر ديدات وتقام له المناظرات مع القساوسة، حتى وصل إلى العاصمة كيب تاون، وأقام فيها أشهر مناظراته في جنوب أفريقيا.

أقلق الكنيسة العالمية، وقضَّ مضاجع كهنتها وقساوستها، وزلزل عروشهم بمناظراته التي وصلت لقلب عاصمتهم الكبيرة لندن، وكانت مناظراته مع سواجارت وغيره ممن افتضحوا على يد العالم الجليل المتواضع أحمد ديدات والتي اهتز العالم بمشاهدتها، ففرح بها المؤمنون وأذلَّ الله بها الكافرين.

وبذلك جاهد أحمد ديدات في سبيل الله كأروع ما يكون الجهاد بالدعوة إلى دين الله بالتي هي أحسن وبأسلوب الإقناع العقلي والدليل المنطقي، ولا ينسى العالم مناظراته مع مجموعة من أبرز رجال الدين المسيحيين مثل القس الأمريكي جيمي سواجارت، وكلارك، وأنيس شروش.

ومن أشهر مناظراته مناظرة «هل صُلب المسيح؟ » التي ناظر فيها بنجاح الأسقف جوسيه ماكدويل في ديربان عام ١٩٨١م وكذلك في مناظرته مع القس الأمريكي سواجارت والتي حضرها ٨٠٠٠ شخص، وكانت حول موضوع «هل الكتاب المقدس كلام الله؟» واستطاع الشيخ أحمد ديدات أن يفند بحزم مزاعمه وادعاءاته، وقرأ عليه أجزاء كاملة من الإنجيل، وقارن بين نسخه المختلفة في براعة وشدة، وكأنه يعرف عن المسيحية أكثر مما يعرفه القسيسون والرهبان!.

ومع حماسه الكبير استمر ديدات في العديد من الأنشطة فعقد دورات متخصصة في دراسة الإنجيل، وشكَّل مؤسسة السلام لتدريب الدعاة. أما المركز العالمي للدعوة الإسلامية فهو العضو المؤسِّس له، وقد ترأسه لسنوات عديدة. وفاز المركز بجائزة الملك فيصل عام

١٩٨٦م. ويوزع المركز ملايين النسخ المجانية من القرآن الكريم، وخاصة من الترجمة الإنجليزية لمعاني القرآن الكريم.

كما يقوم المركز بإعداد دورات للدعاة، ودعوة غير المسلمين عن طريق السياحة والجولات بين المساجد والتعريف بالإسلام، كما يحرص المركز على ترجمة معاني القرآن والكتب الإسلامية باللغات المحلية في جنوب أفريقيا.

رؤيا حسنة يتمم نصفها ويكملها رفيقه:

رأى أحمد ديدات رؤيا حسنة في منامه، ويرويها رفيقه إبراهيم جادات قائلًا: «في عام ١٩٧٦م روى لنا الشيخ ديدات أنه رأى في منامه أنه يقدم بيده مليون نسخة من القرآن الكريم لكل من يناظره حول الإسلام.. وبعد أن استيقظ من منامه أخذ على نفسه عهدًا بطباعة وتوزيع مليون نسخة من معاني القرآن الكريم في كل مكان يذهب إليه من العالم».

وعندما أصيب بالمرض عام ١٩٩٦م كان الشيخ قد أتم توزيع ٤٠٠ ألف نسخة من معاني القرآن الكريم مترجمة بواسطة العالم البارع «يوسف علي» أشهر مترجم لمعاني القرآن، يضيف السيد إبراهيم جادات: «وقد استدعاني الشيخ بعد مرضه، وحمّلني أمانة إكمال هذه المهمة، والحمد لله ما زلت أقوم بإكمالها بالتعاون مع المركز العالمي للدعوة الإسلامية برئاسة الأستاذ أحمد سعيد مولا الذي أكد مرارًا أن المركز تعهد للشيخ بضمان استمرار نشر رسالة القرآن الكريم على نطاق واسع ودون انقطاع...».

صلابته أمام المرض. . ورحيله عن الدنيا:

استسلم أحمد ديدات للمرض الذي أصابه بالشلل الكلي ماعدا دماغه، وكان عائدًا من رحلة دعوية في أستراليا، وظن العالم أنه مات من سنوات، ولكن ويالله العجب الحقيقة أن الرجل أصيب بشلل كامل من عام ١٩٩٥م، ولم يعمل في جسده إلا الدماغ ، فقهر المرض

واخترع طريقة للإشارة بالعين من خلال لوحة أحرف موجودة أمامه ليرد من خلالها على زائريه ، ويتابع رسائل واستفسارات سائليه ، فلم يترك الدعوة حتى وهو على سرير المرض، فأصبح يرد على الرسائل والاستفسارات التي تأتيه بالإشارة ويصل عددها في المتوسط إلى ٥٠٠ رسالة يومية سواء بالهاتف، أو الفاكس أو عبر الإنترنت والبريد، واستطاع الشيخ الراحل التواصل مع أسرته وضيوفه بواسطة لغة خاصة تشبه النظام الحاسوبي، فكان يحرك جفونه سريعًا وفقًا لجدول أبجدي يختار منه الحروف، ويكون بها الكلمات، ومن ثَمَّ يكون الجمل، وقد اهتمت به زوجته [حواء] -التي كان يلقبها بأم الأمهات- اهتمامًا عظيمًا حتى توفاه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فوافته المنية يوم الاثنين ٨/ ٨/ ٢٠٠٥م. وقد لاقى الشيخ ديدات ربه عن عمر يناهز ٨٧ عامًا بمنزله في منطقة فيرولام بإقليم كوازولو ناتال بجنوب أفريقيا بعد صراع طويل مع المرض، وبعد أن أقام الحجة على النصارى وجاهد في سبيل الدعوة إلى الإسلام بالحكمة والموعظة مرسلًا رسالة سامية إلى كل شعوب الدنيا يخبرهم فيها بأن الإسلام هو دين العقل والمنطق، وهو دين المحبة والسلام.

رحم الله الشيخ وأسكنه فسيح جناته.



المصادر:

- موقع صيد الفوائد.
- موقع الإسلام أون لاين.

الشهيد/ سيد قطب

في قرية صغير في صعيد مصر وُلد سيد قطب، ونشأ في أسرة متدينة متوسطة الثراء، وقد حرص والداه على تحفيظه القرآن الكريم في صغره، فما أتمّ العاشرة إلا وقد حفظه كاملًا.

ولما بلغ التاسعة عشرة عاش فترة من الضياع، وصفها بنفسه بأنه كانت [فترة إلحاد] حيث قال: [ظللت ملحدًا أحد عشر عامًا حتى عثرت على الطريق إلى الله، وعرفت طمأنينة الإيمان].

وفي سنة ١٩٤٨م غادر سيد القاهرة متوجهًا إلى أمريكا في بعثة لوزارة المعارف آنذاك، فكانت تلك الرحلة هي بداية الطريق الجديد الذي هداه الله إليه، ووفقه لسلوكه والسير فيه.

كان سفره على ظهر باخرة عبرت به البحر المتوسط والمحيط الأطلسي. . . وهناك على ظهر الباخرة، جرت له عدة حوادث أثرت في حياته فيما بعد، وحددت له طريقه، ولذلك ما إن غادر الباخرة في الميناء الأمريكي الذي وصل إليه، وما إن وطئت قدماه أرض أمريكا حتى كان قد عرف طريقه، وحدد رسالته، ورسم معالم حياته في الدنيا الجديدة.

والآن... لنترك الحديث لسيد ليخبرنا عما حدث له على ظهر السفينة يقول:

[منذ حوالي خمسة عشر عامًا... كنا ستة نفر من المنتسبين إلى الإسلام، على ظهر سفينة مصرية تمخر بنا عباب المحيط الأطلسي إلى نيويورك، من بين عشرين ومائة راكب وراكبة ليس فيهم مسلم].

وخطر لنا أن نقيم صلاة الجمعة في المحيط على ظهر السفينة!

والله يعلم أنه لم يكن بنا أن نقيم الصلاة ذاتها أكثر مما كان بنا حماسة دينية إزاء مبشِّر كان يزاول عمله على ظهر السفينة، وحاول أن يزاول تبشيره معنا!

وقد يسَّر لنا قائد السفينة -وكان إنجليزيًا- أن نقيم صلاتنا، وسمح لبحارة السفينة وطهاتها وخَدَمها - وكلهم نوبيون مسلمون- أن يصلي منهم معنا من لا يكون في [الخدمة] وقت الصلاة. وقد فرحوا بهذا فرحًا شديدًا إذ كانت هذه هي المرة الأولى التي تقام فيها صلاة الجمعة على ظهر السفينة.

وقمت بخطبة الجمعة، وإمامة الصلاة، والركاب الأجانب معظمهم متحلقون، يرقبون صلاتنا! وبعد الصلاة جاءنا كثيرون منهم يهنئوننا على نجاح [القداس]!! فقد كان هذا أقصى ما يفهمونه من صلاتنا.

ولكن سيدة من هذا الحشد -عرفنا فيما بعد أنها يوغسلافية مسيحية هاربة من جحيم [تيتو] وشيوعيته- كانت شديدة التأثر والانفعال، تفيض عيناها بالدمع، ولا تتمالك مشاعرها... جاءت تشد على أيدينا بحرارة وتقول -في إنجليزية ضعيفة-: إنها لا تملك نفسها من التأثر العميق بصلاتنا هذه، وما فيها من خشوع، ونظام وروح... الخ.

وبعد ذلك كله... وفي ظلال هذه الحالة الإيمانية، راح سيد يخاطب نفسه قائلًا:

[أأذهب إلى أمريكا وأسير فيها سير المبتعثين العاديين، الذين يكتفون بالأكل والنوم، أم لابدّ من التميز بسمات معينة؟!

وهل غير الإسلام والتمسك بآدابه، والالتزام بمناهجه في الحياة وسط المعمعات المترف المزوّد بكل وسائل الشهوة واللذة الحرام؟...].

قال: ورأيت أن أكون الرجل الثاني، [المسلم الملتزم]، وأراد الله أن يمتحنني هل أنا صادق فيما اتجهت إليه أم هو مجرد خاطرة؟ !

وكان ابتلاء الله لي بعد دقائق من اختياري طريق الإسلام، إذ ما إن دخلتُ غرفتي حتى كان الباب يقرع... وفتحتُ... فإذا أنا بفتاة هيفاء جميلة، فارعة الطول، شبه عارية، يبدو من

مفاتن جسمها كل ما يغري... وبدأتني بالإنجليزية قائلة: هل يسمح لي سيدي بأن أكون ضيفة عنده هذه الليلة؟

فاعتذرتُ بأن الغرفة معدة لسرير واحد، وكذا السرير لشخص واحد... فقالت: وكثيرًا ما يتسع السرير الواحد لاثنين!!

واضطررت أمام وقاحتها ومحاولتها الدخول عنوة لأن أدفع الباب في وجهها لتصبح خارج الغرفة، وسمعت ارتطامها بالأرض الخشبية في الممر، فقد كانت مخمورة... فقلت: الحمد لله... هذا أول ابتلاء... وشعرتُ باعتزاز ونشوة، إذ انتصرت على نفسي... وبدأت تسير في الطريق الذي رسمته لها...

ولقد واجه سيد ابتلاءات كثيرة بعد ذلك، ولكنه تغلّب عليها وانتصر على نفسه الأمارة بالسوء!

يحدثنا عما رأى فيقول: ولقد كنت -في أثناء وجودي في الولايات المتحدة الأمريكية- أرى رأي العين مصداق قول الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٤]. فإن المشهد الذي ترسمه الآية مشهد تدفق كل شيء من الخيرات والأرزاق بلا حساب، لا يكاد يتمثل في الأرض كلها كما يتمثل هناك!

وكنت أرى غرور القوم بهذا الرخاء الذي هم فيه... وشعورهم بأنه وَقْفٌ على الرجل الأبيض... وطريقة تعاملهم مع الملونين في عجرفة مرذولة، وفي وحشية كذلك بشعة... وفي صلف على أهل الأرض كلهم، كنتُ أرى هذا كله فأذكر هذه الآية... وأتوقع سنة الله... وأكاد أرى خطواتها وهي تدبّ إلى الغافلين.

وبعد سنتين قضاهما سيد في أمريكا، عاد إلى مصر... ولكنه عاد رجلًا آخر... رجلًا مؤمنًا ملتزمًا صاحب رسالة ودعوة وغاية.

وكان لمقتله أثر بالغ في نفوس من عرفوه وعلموا صدقه، ومنهم اثنان من الجنود الذين كُلفّوا بحراسته وحضروا إعدامه.

يروي أحدهما القصة فيقول:

هناك أشياء لم نكن نتصورها هي التي أدخلت التغيير الكلي على حياتنا.

في السجن الحربي كنا نستقبل كل ليلة أفرادًا أو مجموعات من الشيوخ والشباب والنساء، ويقال لنا: هؤلاء من الخونة الذين يتعاونون مع اليهود، ولابدّ من استخلاص أسرارهم. . ولا سبيل إلى ذلك إلا بأشدّ العذاب. وكان ذلك كافيًا لتمزيق لحومهم بأنواع السياط والعصي. كنا نفعل ذلك ونحن مُوقنون أننا نؤدي واجبًا مقدّسًا... إلا أننا ما لبثنا أن وجدنا أنفسنا أمام أشياء لم نستطع لها تفسيرًا، لقد رأينا هؤلاء [الخونة]، مواظبين على الصلاة أثناء الليل وتكاد ألسنتهم لا تفتر عن ذكر الله حتى عند البلاء.

بل إن بعضهم كان يموت تحت وقع السياط، أو أثناء هجوم الكلاب الضارية عليهم، وهو مستمرون على الذكر.

ومن هنا... بدأ الشك يتسرب إلى نفوسنا... فلا يعقل أن يكون مثل هؤلاء المؤمنين الذاكرين من الخائنين المتعاملين مع أعداء الله.

واتفقتُ أنا وأخي هذا سرًا على أن نتجنب إيذاءهم ما وجدنا إلى ذلك سبيلًا. وأن نقدم لهم كل ما نستطيع من العون.

ومن فضل الله علينا أن وجودنا في ذلك السجن لم يستمر طويلًا... وكان آخر ما كُلفنا به من عمل هو حراسة الزنزانة التي أُفْرِد فيها أحدهم وقد وصفوه لنا بأنه أخطرهم جميعًا، أو أنه رأسهم المفكر وقائدهم المدبر، وكان قد بلغ به التعذيب إلى حدٍّ لم يعد قادرًا معه على النهوض، فكانوا يحملونه إلى المحكمة العسكرية التي تنظر في قضيته.

وذات ليلة جاءت الأوامر بإعداده للمشنقة، وأدخلوا عليه أحد الشيوخ!!! ليذكره ويعظه!!! وفي ساعة مبكرة من الصباح التالي، أخذت أنا وأخي بذراعيه نقوده إلى السيارة المغلقة التي سبقنا إليها بعض المحكومين الآخرين... وخلال لحظات انطلقت بنا إلى مكان الإعدام... ومن خلفنا بعض السيارات العسكرية تحمل الجنود المدججين بالسلاح للحفاظ عليهم...

وفي مثل لمح البصر أخذ كل جندي مكانه المرسوم محتضنًا مسدسه الرشاش، وكان المسئولون هناك قد هيئوا كل شيء... فأقاموا من المشانق مثل عدد المحكومين... وسيق كل منهم إلى مشنقته المحددة، ثم لفّ حبلها حول عنقه، وانتصب بجانب كل واحدة [العشماوي] الذي ينتظر الإشارة لإزاحة اللوح من تحت قدمي المحكوم. . ووقف تحت كل راية سوداء الجندي المكلف برفعها لحظة التنفيذ.

كان أهيب ما هنالك تلك الكلمات التي جعل يوجهها كل من هؤلاء المهيئين للموت إلى إخوانه، يبشره بالتلاقي في جنة الخلد، مع محمد ﷺ وأصحابه، ويختم كل عبارة الصيحة المؤثرة: الله أكبر ولله الحمد.

في هذه اللحظات الرهيبة سمعنا هدير سيارة تقترب، ثم لم تلبث أن سكت محركها، وفتحت البوابة المحروسة، ليندفع من خلالها ضابط من ذوي الرتب العالية، وهو يصيح بالجلادين: مكانكم!

ثم تقدم نحو صاحبنا الذي لم نزل إلى جواره على جانبي المشنقة، وبعد أن أمر الضابط بإزالة الرباط عن عينه، ورفع الحبل عن عنقه، جعل يكلمه بصوت مرتعش:

يا أخي. . سيد. . إني قادم إليك بهدية الحياة من الرئيس الحليم الرحيم، كلمة واحدة تدليها بتوقيعك، ثم تطلب ما تشاء لك ولإخوانك هؤلاء.

ولم ينتظر الجواب، وفتح الكراس الذي بيده وهو يقول: اكتب يا أخي هذه العبارة فقط: [لقد كنت مخطئًا وإني أعتذر. . .].

ورفع سيد عينيه الصافيتين، وقد غمرت وجهه ابتسامة لا قدرة لنا على وصفها. . وقال للضابط في هدوء عجيب: أبدًا. . لن أشتري الحياة الزائلة بكذبة لن تزول!

قال الضابط بلهجة يمازجها الحزن: ولكنه الموت يا سيد.

وأجاب سيد: [يا مرحبًا بالموت في سبيل الله. .]، الله أكبر!! هكذا تكون العزة الإيمانية، ولم يبقَ مجال للاستمرار في الحوار، فأشار الضابط للعشماوي بوجوب التنفيذ.

وسرعان ما تأرجح جسد سيد وإخوانه في الهواء. . . وعلى لسان كل منهم الكلمة التي لا نستطيع لها نسيانًا، ولم نشعر قط بمثل وقعها في غير ذلك الموقف، [لا إله إلا الله، محمد رسول الله. . .].

الأستاذ سيد قطب من بيت مبتلى في سبيل الله، فلقد استشهد رفعت بكر شافع ابن أخته الكبرى الطالب بكلية الهندسة تحت التعذيب عام ١٩٦٥م، وسجن عزمي شقيق رفعت، وسُجنت أمهما وعُذبت عذابًا شديدًا مع أن عمرها في هذا الوقت كان خمسة وستين عامًا، ولم يخرجوها من السجن إلا بعد استشهاد ولدها، كما أن أختيه أمينة وحميدة دخلتا السجن ولقيتا من العذاب الشيء الكثير، وسُجن أخوه محمد عامي ١٩٥٤م و١٩٦٥م أما زوج أخته كمال السنانيري فسجن عام ١٩٨١م وقتل في السجن.

من أشعاره:

أَخـي أنـتَ حـرٌّ وراءَ السُّدودِ أَخـي أنـتَ حـرٌّ بتلـك القُيـودِ

إذا كُنْـتَ بـاللهِ مستعـصمٌ فمَـاذا يَـضيرُكَ كَيـدُ العبيـدِ

أَخـي هَـلْ تُـراك سـئمتَ الكِفَـاحَ وألقيـتَ عَـنْ كَاهِلِـك الـسِّلاحَ

فمَـنْ للـضَّحايا يواسِـي الجـراحَ ويرفـعُ راياتِهـا مِـنْ جَديـدِ

أخِـي إنَّـني اليـومَ صـلْبُ المِـراسِ	أدكُّ صُـخورَ الجبـالِ الرُّواسِـي
إذا سأشـيح بفـأسِ الخَـلاصِ	رؤوسَ الأفـاعِي إلى أنْ تَبيـد
أَخـي إنْ ذرفـتَ علـيَّ الـدموعَ	وبَلَلـتَ قَبْـري بهَـا فيْ خُـشُوعِ
فأوقِـد لَهُـم مِـنْ رُفَـاتي الـشُّموعَ	وسِـيروا بهَـا نَحْـو مجـدٍ تليـدِ
أخـي إنْ نَمُـتْ نلـقَ أحبابنَـا	فَرَوْضَـاتُ ربِّـي أُعِـدَّت لَنَـا
وأَطيارُهـا رَفْرَفـتْ حولَنـا	فطُـوبَى لنـا فيْ ديـارِ الخُلُـودِ
أخِـي إنَّـني مـا سئمـتُ الكفـاحَ	ولا أنـا أَلْقيـتُ عنِّـي الـسلاحَ
فـإنْ أنـا مِـتُّ فـإنِّي شـهيدٌ	وأنـتَ ستَمْـضِي بنـصرٍ مجيـدِ
سَـأَثْأر ولكـنْ لـربٍّ وديـنِ	وأمْـضِي علَـى سُـنَّتي فيْ يقـينِ
فإمَّـا إلى النَّـصْرِ فـوقَ الأنـامِ	وإمَّـا إلى اللـهِ فيْ الخُلُـودِ

ومن كلماته الخالدة:

إن كلماتنا تظل عرائس من الشمع حتى إذا متنا في سبيلها دبت فيها الروح وكتبت لها الحياة.

رحم الله سيدًا وأسكنه فسيح جناته وعفا عنا وعنه



المصادر:

- «زهر البساتين من مواقف العلماء الربانيين» للدكتور سيد العفاني.
- «من القرية للمشنقة» لعادل حمودة.
- موقع علماء الإسلام.

العلامة/ أبو بكر الرازي

أبو بكر محمد بن زكريا الرازي، طبيب وكيميائي وصيدلاني وفيلسوف مسلم، اشتهر في القرن الثالث والرابع الهجريين / التاسع الميلادي، وقد بلغ مرتبة رفيعة في الطب حتى لقب بـ «جالينوس العرب». وُلد في مدينة الري في خراسان شرقي مدينة طهران حاليًا.

عاش الرازي طفولة عادية فلم يختلف في صغره عن رفقائه في شيء ثم اهتم كغيره ممن عاشوا في ذلك الوقت بالدراسات الفلسفية واللغوية والرياضية، وظل على هذه الحالة حتى الثلاثين من عمره، حين عزم على تغيير حياته تغييرًا جذريًا. ومن أجل تحقيق هذا التغيير رحل الرازي إلى مدينة بغداد حيث بدأ في دراسة الطب بكل عزم وإصرار، فتعلم فن العلاج الإغريقي والفارسي والهندي والعربي حتى برع فيه. وبدأ العمل في المستشفى المقتدري، في بغداد، ثم عاد راجعا إلى بلده، حيث شغل منصب رئيس الأطباء في البيمارستان الملكي في الري. وكان لذلك يتنقل كثيرًا بين بغداد والري، مما أتاح له خبرة عملية كبيرة.

وفي فترة زمنية قصيرة ذاعت شهرة الرازي في طول البلاد وعرضها، حيث أصبح أشهر من عُرف بممارسة الطب السريري في وقته. فرحل إليه طلاب العلم من كل أقطار الدولة الإسلامية، فازدحمت قاعات التدريس بالأطباء وتلاميذهم الذين تناقلوا مأثوراته في الطب وقصصه في العلاج بعد وفاته بـ ٢٠٠ سنة.

ولقد تمثل إسهام الرازي العلمي في عدد كبير من الابتكارات والاختراعات التي سجلت باسمه في مجال الطب والصيدلة والكيمياء، بما يدل على نبوغه وتفوقه في تلك العلوم. ففي مجال الطب قام الرازي بتجربة الأدوية الجديدة على الحيوانات قبل وضعها للتداول الطبي لمعرفة فعاليتها وآثارها الجانبية.

وفـي مجـال الجراحـة اسـتخدم مادة الأفيون كمخدر في العمليات الجراحية وأمراض الجهاز التنفسـي. ومـن ابتكاراتـه أيضـًا صناعـة خيوط الجراحة من أمعاء القطط، واستعمال فتيلة الجـرح وتـركيب مـراهم الـزئبق، ومعالجـة السـل بالتغذية بالحليـب المحـلى بالـسكر، إلا أنـه يؤخذ عليه أنه لم يكن يجري العمليات بنفسه بل كان يكلف آخرين بها ويكتفي بالتوجيه والإشراف.

ولقـد اهتـم أيضـا اهتمامـًا كبـيرًا باختيـار مـواقع بنـاء المستـشفيات، وضرورة تـوفر الشروط الصحيـة والطبيعيـة فـي تلك المواقع، وكان منهجه في عـلاج مرضـاه يعتمـد عـلى الملاحظات السريرية وربطها بالسن والوضع الاجتماعي والنفسي للمريض. كما كان يتعـرف على طبيعة الألـم بقيـاس النبض وسرعة التنفس وأحوال البول والبراز. وإلى جانب نبوغه في الطب فقد كـان أيضًا طبيبًا متميزًا في العلاج النفسي، كما عني عناية فائقــة بالمجــانين. وقــد وضـع الإرشادات والنصائح الطبية للأطباء ولعامة الناس، وله العديد من الأقوال المأثورة في ذلك.

وفي مجالي الصيدلة والكيمياء كان الرازي أول من نادى بفـصل الـصيدلة عـن الطـب، وكذلك أول مـن جـعل الكيمياء في خدمة الطب بعيدًا عن الشعوذة التي صاحبتها في ذلـك الوقت، كمـا تـوصل إلـى تحـضير عـدد غـير مسبوق من المواد الكيميائية، وأدخـل العديـد منها في المعالجـة الدوائية ففتح بذلك باب الصيدلة الكيميائية. فهو مثلًا أول من حـضر مـادة الكحول بعـد تخـمير بعض المحاليل السكرية، كما حضر زيت الزاج بتقطير الزاج الأخـضر. وعلى الرغم من ابتكاراته الكيميائية الدوائية إلا أنه كان يفضل العلاج بالأعشاب. كما نسب إليه ابتكار قرابة عشرين أداة استخدمها في الكيمياء.

الابتلاء من سنن الله الكونية:

كان الرازي محبًّا للفقراء يعطيهم العلاج مجانًا، ويعطيهم أيضًا مالًا، بينما كان هو يعيش فـي بساطة وتواضع فأحبه العامة، كما أن نبوغه وتفوقه العلمي قربـه مـن الملـوك والأمـراء.

كـان كـل ذلـك سـببًا في حقد زملائه عليه وضيقهم بـه وبشهرته وبكرمـه، فـزوَّروا الـتُّهَم ضـده حـتى أبعـده الخليفـة من بغداد إلى مدينته الري، وحرمه من كل المناصـب التـي كـان يشغلها بكفاءة واقتدار.

وأقـام الرازي في فترة العزلة في منزل شقيقته خديجة بعد أن فقد بصره، وذلـك بـسبب ما عُـرف عنـه مـن أنه كان من العلماء الذين يكثرون القراءة ليلًا، وخاصة عند النوم. فكـان ينـام عـلى ظهـره حـتى إذا أخذتـه سـنة مـن النـوم وهو يقرأ، سـقط الكتـاب عـلى وجهـه، واسـتيقظ ليـواصل القراءة. فكان ذلك سببًا في ضعف بصره، بالإضـافة إلى أعمالـه وتجاربـه الكيميائية. ولَكَمْ كان يومًا حزينًا في حياة الرازي، عندما جـاءه طبيـب يجـري لـه عمليـة في عينيـه لإنقـاذ بصـره. وقبـل أن يشـرع الطبيـب في عمليته، سأله الرازي «عن عدد طبقـات أنسـجة العيـن»، فـاضطرب الطّبيـب وصمـت. عندئـذ قال الرازي: «إن من يجهل جـواب هذا السؤال عليه أن لا يمسك بأية آلة يعبث بها في عيني».

تـوفي الـرازي عـام ٣١١هــ/ ٩٢٣م، مخلفـًا وراءه كتبـًا عديـدة وصلـت وفق بعض الروايـات إلـى[٢٣٠] عـملًا بيـن مؤلفات كتبها بيده أو ترجمات قام بها من لغات أخـرى، تبحـث فـي الفلسـفة والعلـوم الدينيـة والفلك والفيزياء والرياضـيات، فـضلا عـن كتـب أخرى تبحـث في فن الطبخ وغيره من الفنون. ومن أشهر الكتب التي تركها الرازي وتعتـبر علامة بـارزة فـي تـاريخ العلـوم كتاب الحاوي في التداوي وهو أشمل مـا أُلِّـف في العلـوم الطبية، وكتـاب «المنصـوري فـي الطـب» وهو مختصر للحاوي، وكتاب «الجدري والحصبة» وبيَّن فيه لأول مـرة الفـرق بيـن أعراضهما، وكتاب «برء الساعة» وتناول فيه الأمراض التـي تشفى في سـاعة لبيـان احتيـال الأطبـاء فـي إطالـة فـترة العـلاج، وكتـاب «مـن لا يحضـره طبيب» وهو مرشـد للمسـافر أو مـن لـم يجـد طبيبًا في محيطه. أما أشهر مؤلفاته في الكيمياء

فتشمل كتاب «سر الأسرار» ويشرح فيه كيفية تحويل المواد الرخيصة إلى ذهب، وكتاب «التدبير» ويشرح فيه تحضير المواد الكيمياوية وأهم الأدوات المستخدمة في ذلك.

هكذا عاش الرازي محبًا للعلم والطب وترك إرثًا ضخمًا يتمتع به العالم أجمع ويتبحر فيه ويستفيد منه ويفيد البشرية.



المصادر:

- «سير أعلام النبلاء» للذهبي (١٦/ ٣٤٠).
- «إخبار العلماء بأخبار الحكماء» لجمال الدين القفطي ص[١٧٨].
- «أعلام العرب في الكيمياء» د. فاضل أحمد الطائي ص(٩٨-١٧٤).
- «عيون الأنباء في طبقات الأطباء» لابن أبي أصيبعة (٢/ ٣٤٣).
- «إسهام علماء العرب والمسلمين في الصيدلة» د. علي عبد الله الدفاع ص[١٨٣].



الشيخ المجاهد/ أحمد ياسين

يتمتع الشيخ أحمد ياسين مؤسس حركة حماس بموقع روحي وسياسي متميز في صفوف المقاومة الفلسطينية، مما جعل منه واحدًا من أهم رموز العمل الوطني الفلسطيني طوال القرن الماضي.

المولد والنشأة:

وُلد أحمد إسماعيل ياسين في قرية تاريخية عريقة تسمى جورة عسقلان في يونيو/ حزيران ١٩٣٦م، وهو العام الذي شهد أول ثورة مسلحة ضد النفوذ الصهيوني المتزايد داخل الأراضي الفلسطينية. مات والده وعمره لم يتجاوز خمس سنوات.

عايش أحمد ياسين الهزيمة العربية الكبرى المسماة بالنكبة عام ١٩٤٨م وكان يبلغ من العمر آنذاك اثني عشر عامًا، وخرج منها بدرس أثر في حياته الفكرية والسياسية فيما بعد مؤداه أن الاعتماد على سواعد الفلسطينيين أنفسهم عن طريق تسليح الشعب أجدى من الاعتماد على الغير، سواء كان هذا الغير الدول العربية المجاورة أو المجتمع الدولي.

ويتحدث الشيخ ياسين عن تلك الحقبة فيقول: «لقد نزعت الجيوش العربية التي جاءت تحارب إسرائيل السلاح من أيدينا بحجة أنه لا ينبغي وجود قوة أخرى غير قوة الجيوش، فارتبط مصيرنا بها، ولما هُزمت هُزمنا وراحت العصابات الصهيونية ترتكب المجازر والمذابح لترويع الآمنين، ولو كانت أسلحتنا بأيدينا لتغيرت مجريات الأحداث».

خشونة العيش:

التحق أحمد ياسين بمدرسة الجورة الابتدائية وواصل الدراسة بها حتى الصف الخامس، لكن النكبة التي ألمت بفلسطين وشردت أهلها عام ١٩٤٨م لم تستثنِ هذا الطفل

الصغير، فقد أجبرته على الهجرة بصحبة أهله إلى غزة، وهناك تغيرت الأحوال وعانت الأسرة -شأنها شأن معظم المهاجرين آنذاك- مرارة الفقر والجوع والحرمان، فكان يذهب إلى معسكرات الجيش المصري مع بعض أقرانه لأخذ ما يزيد عن حاجة الجنود ليطعموا به أهليهم وذويهم، وترك الدراسة لمدة عام [١٩٤٩م-١٩٥٠م] ليعين أسرته المكونة من سبعة أفراد عن طريق العمل في أحد مطاعم الفول في غزة، ثم عاود الدراسة مرة أخرى.

شلله:

في السادسة عشرة من عمره تعرض أحمد ياسين لحادثة خطيرة أثرت في حياته كلها منذ ذلك الوقت وحتى الآن، فقد أصيب بكسر في فقرات العنق أثناء لعبه مع بعض أقرانه عام ١٩٥٢م، وبعد ٤٥ يومًا من وضع رقبته داخل جبيرة من الجبس اتضح بعدها أنه سيعيش بقية عمره رهين الشلل الذي أصيب به في تلك الفترة.

وما زال يعاني إضافة إلى الشلل التام من أمراض عديدة منها فقدان البصر في العين اليمنى بعدما أصيبت بضربة أثناء جولة من التحقيق على يد المخابرات الإسرائيلية فترة سجنه، وضعف شديد في قدرة إبصار العين اليسرى، والتهاب مزمن بالأذن وحساسية في الرئتين وبعض الأمراض والالتهابات المعوية الأخرى.

العمل مدرسًا:

أنهى أحمد ياسين دراسته الثانوية في العام الدراسي ٥٧/ ١٩٥٨م ونجح في الحصول على فرصة عمل رغم الاعتراض عليه في البداية بسبب حالته الصحية، وكان معظم دخله من مهنة التدريس يذهب لمساعدة أسرته.

نشاطه السياسي:

شارك أحمد ياسين وهو في العشرين من العمر في المظاهرات آلتي اندلعت في غزة احتجاجًا على العدوان الثلاثي الذي استهدف مصر عام ١٩٥٦م، وأظهر قدرات خطابية

وتنظيمية ملموسة، حيث نشط مع رفاقه في الدعوة إلى رفض الإشراف الدولي على غزة مؤكدًا ضرورة عودة الإدارة المصرية إلى هذا الإقليم.

الاعتقال:

كانت مواهب أحمد ياسين الخطابية قد بدأت تظهر بقوة، ومعها بدأ نجمه يلمع وسط دعاة غزة، الأمر الذي لفت إليه أنظار المخابرات المصرية العاملة هناك، فقررت عام ١٩٦٥م اعتقاله ضمن حملة الاعتقالات التي شهدتها الساحة السياسية المصرية، والتي استهدفت كل من سبق اعتقاله من جماعة الإخوان المسلمين عام ١٩٥٤م، وظل حبيس الزنزانة الانفرادية قرابة شهر، ثم أفرج عنه بعد أن أثبتت التحقيقات عدم وجود علاقة تنظيمية بينه وبين الإخوان. وقد تركت فترة الاعتقال في نفسه آثارًا مهمة لخصها بقوله: «إنها عمقت في نفسه كراهية الظلم، وأكدت [فترة الاعتقال] أن شرعية أي سلطة تقوم على العدل وإيمانها بحق الإنسان في الحياة بحرية».

بعد هزيمة ١٩٦٧م التي احتلت فيها إسرائيل كل الأراضي الفلسطينية بما فيها قطاع غزة استمر الشيخ أحمد ياسين في إلهاب مشاعر المصلين من فوق منبر مسجد العباسي الذي كان يخطب فيه لمقاومة المحتل، وفي الوقت نفسه نشط في جمع التبرعات ومعاونة أسر الشهداء والمعتقلين، ثم عمل بعد ذلك رئيسًا للمجمع الإسلامي في غزة.

ملاحقات إسرائيلية:

أزعج النشاط الدعوي للشيخ أحمد ياسين السلطات الإسرائيلية فأمرت عام ١٩٨٢م باعتقاله ووجهت إليه تهمة تشكيل تنظيم عسكري وحيازة أسلحة وأصدرت عليه حكمًا بالسجن ثلاثة عشر عامًا، لكنها عادت وأطلقت سراحه عام ١٩٨٥م في إطار عملية لتبادل الأسرى بين سلطات الاحتلال الإسرائيلي والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين «القيادة العامة».

تأسيس حركة حماس:

اتفق الشيخ أحمد ياسين عام ١٩٨٧م مع مجموعة من قادة العمل الإسلامي الذين يعتنقون أفكار الإخوان المسلمين في قطاع غزة على تكوين تنظيم إسلامي لمحاربة الاحتلال الإسرائيلي بغية تحرير فلسطين أطلقوا عليه اسم «حركة المقاومة الإسلامية» المعروفة اختصارًا باسم «حماس»، وكان له دور مهم في الانتفاضة الفلسطينية التي اندلعت آنذاك، والتي اشتهرت بانتفاضة المساجد، ومنذ ذلك الوقت والشيخ ياسين يعتبر الزعيم الروحي لتلك الحركة.

عودة الملاحقات الإسرائيلية:

مع تصاعد أعمال الانتفاضة بدأت السلطات الإسرائيلية التفكير في وسيلة لإيقاف نشاط الشيخ أحمد ياسين، فقامت في أغسطس/ آب ١٩٨٨م بمداهمة منزله وتفتيشه وهددته بالنفي إلى لبنان. ولما ازدادت عمليات قتل الجنود الإسرائيليين واغتيال العملاء الفلسطينيين قامت سلطات الاحتلال الإسرائيلي يوم ١٨ مايو/ أيار ١٩٨٩م باعتقاله مع المئات من أعضاء حركة حماس. وفي ١٦ أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٩١م أصدرت إحدى المحاكم العسكرية حكمًا بسجنه مدى الحياة إضافة إلى خمسة عشر عامًا أخرى، وجاء في لائحة الاتهام أن هذه التهم بسبب التحريض على اختطاف وقتل جنود إسرائيليين وتأسيس حركة حماس وجهازيها العسكري والأمني.

محاولات الإفراج عنه:

حاولت مجموعة فدائية تابعة لكتائب عز الدين القسام -الجناح العسكري لحماس- الإفراج عن الشيخ ياسين وبعض المعتقلين المسنين الآخرين، فقامت بخطف جندي إسرائيلي قرب القدس يوم ١٣ ديسمبر/ كانون الأول ١٩٩٢م، وعرضت على إسرائيل مبادلته نظير

الإفراج عن هؤلاء المعتقلين، لكن السلطات الإسرائيلية رفضت العرض، وقامت بشن هجوم على مكان احتجاز الجندي مما أدى إلى مصرعه ومصرع قائد الوحدة الإسرائيلية المهاجمة ومقتل قائد مجموعة الفدائيين.

وفي عملية تبادل أخرى في الأول من أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٩٧م جرت بين المملكة الأردنية الهاشمية وإسرائيل في أعقاب المحاولة الفاشلة لاغتيال رئيس المكتب السياسي لحماس خالد مشعل في العاصمة عمان وإلقاء السلطات الأمنية الأردنية القبض على اثنين من عملاء الموساد سلمتهما لإسرائيل مقابل إطلاق سراح الشيخ أحمد ياسين، أفرج عن الشيخ وعادت إليه حريته منذ ذلك التاريخ.

الإقامة الجبرية:

وبسبب اختلاف سياسة حماس عن السلطة كثيرًا ما كانت تلجا السلطة للضغط على حماس، وفي هذا السياق فرضت السلطة الفلسطينية أكثر من مرة على الشيخ أحمد ياسين الإقامة الجبرية مع إقرارها بأهميته للمقاومة الفلسطينية وللحياة السياسية الفلسطينية.

محاولة الاغتيال:

وقد تعرض الشيخ أحمد ياسين في ٦ سبتمبر/ أيلول ٢٠٠٣م لمحاولة اغتيال إسرائيلية حين استهدفت مروحيات إسرائيلية شقة في غزة كان يوجد بها الشيخ، وكان يرافقه إسماعيل هنية (رئيس الوزراء فيما بعد). ولم تكن إصاباته بالقاتلة إلا بجروح طفيفة في ذراعه الأيمن.

استشهاده:

شيع آلاف الفلسطينيين مؤسس حركة المقاومة الإسلامية [حماس] الشهيد الشيخ أحمد ياسين ورفاقه الذين استشهدوا معه في غارة إسرائيلية استهدفتهم عقب خروجهم من صلاة الفجر بحي صبرا في غزة وسط غضب ودعوات بالانتقام والثأر.

وما أن شاع نبأ استشهاد الشيخ ياسين حتى خرج عشرات الآلاف من الفلسطينيين الغاضبين إلى الشوارع وهم يهتفون بدعوات الانتقام ومواصلة المقاومة والعمليات الفدائية. ووصف مراسلو الأخبار الأوضاع في الضفة الغربية وقطاع غزة بأنها متوترة جدًا، وقالوا: إن حالة من الغليان الشديد والصدمة تسيطر على الفلسطينيين الذين خرجوا إلى الشوارع وقاموا بمسيرات غاضبة.

ودعت المساجد في الضفة والقطاع إلى الإضراب العام وقد أخذت مكبرات الصوت في مساجد غزة تصدح بتلاوة القرآن الكريم، بينما سمعت أصوات إطلاق نار في حي صبرا الذي يسكنه الشيخ ياسين. وأغلقت المتاجر والمدارس بشكل تلقائي في وقت سابق في غزة. كما أعلن الحداد العام في الأراضي الفلسطينية لمدة ثلاثة أيام فيها عُلِّقت الدراسة في كافة المدارس.

وقالت حماس: إن مقاتلات إسرائيلية أطلقت عدة صواريخ استهدفت بشكل مباشر الشيخ ياسين، بينما كان الشيخ عائدًا من أداء صلاة الفجر في المسجد القريب من منزله في حي صبرا بغزة.

وقالت مصادر فلسطينية: إن اثنين من مرافقي الشيخ ياسين كانا يدفعان كرسيه المتحرك عندما استهدفه أحد الصواريخ بشكل مباشر فاستشهدوا جميعًا على الفور.

وأكد بيان لقوات الاحتلال أنها اغتالت الشيخ ياسين في غارة جوية بغزة في ساعات الصباح الباكر اليوم، وقال: إنه كان مسؤولًا بشكل مباشر عن عشرات من عمليات المقاومة المسلحة. وقالت مصادر إسرائيلية: إن رئيس الوزراء أرييل شارون أمر شخصيًا باغتيال الشيخ ياسين.

رحم الله الشيخ الجليل وأسكنه فسيح جناته مع النبيين والصديقين والشهداء وجمعنا وإياه في مستقر رحمته

العلامة الشيخ/ محمد ناصر الدين الألباني

هو محمد ناصر الدين بن نوح بن آدم نجاتي، الألباني الأصل، الدمشقي الإقامة، الأردني مهجرًا ووفاة، ولد في أشقودرة عاصمة ألبانيا سنة ١٩١٤م، وإليها ينسب.

محدث فقيه، داعية إلى التمسك بالكتاب والسُنة والسير على منهج السلف الصالح، ومؤلف مُتقن، كان والده الحاج نوح من كبار علماء الحنفية في بلده، وفي أثناء حكم أحمد زوغو لألبانيا كان ثمة تضييق شديد على المسلمين فهاجر بسببه الحاج نوح مع جميع أبنائه، ومنهم محمد ناصر الدين؛ فرارًا بدينه إلى بلاد الشام، لما ورد فيها من فضائل ومناقب في السنة النبوية، وهناك استقر بهم المقام، ومنها بعد نحو خمسين عامًا هاجر الشيخ إلى عمان عاصمة الأردن، وبها قضى بقية حياته؛ عالمًا معلمًا، فقيهًا مربيًا، تلقى تعليمه الأساسي في مدرسة تابعة لجمعية الإسعاف الخيري في دمشق، عاصمة سوريا، ثم استكمل علمه الشرعي على أيدي المشايخ بطريقة الإجازات التي كان يتبعها السلف الصالح، وعلى الرغم من توجيه والد الألباني المنهجي له بتقليد المذهب الحنفي وتحذيره الشديد من الاشتغال بعلم الحديث، فقد أخذ الألباني بالتوجه نحو علم الحديث وعلومه، فتعلم الحديث في نحو العشرين من عمره متأثرًا بأبحاث مجلة المنار التي كان يصدرها الشيخ محمد رشيد رضا، وكان أول عمل حديثي قام به هو نسخ كتاب «المغني عن حمل الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار» للحافظ العراقي مع التعليق عليه.

كان ذلك العمل فاتحة خير كبير على الشيخ الألباني حيث أصبح الاهتمام بالحديث وعلومه شغله الشاغل، فأصبح معروفًا بذلك في الأوساط العلمية بدمشق، حتى إن إدارة المكتبة الظاهرية بدمشق خصَّصت غرفة خاصة له ليقوم فيها بأبحاثه العلمية المفيدة، بالإضافة إلى منحه نسخة من مفتاح المكتبة حيث يدخلها وقت ما شاء.

أما صلته بالعلماء فقد التقى بالعديد منهم كالشيخ حامد الفقي، والشيخ أحمد شاكر، والشيخ عبد الرزاق عفيفي، والشيخ محمد بن إبراهيم، والشيخ عبد العزيز بن باز، فقد كانت له به علاقة قوية، وجلسات علمية عديدة مفيدة.

وكان يكتسب رزقه من مهنة إصلاح الساعات؛ حيث ورثها من والده.

تولى التدريس في مادة الحديث النبوي في الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية إبان افتتاحها لمدة ثلاث سنين بدءًا من سنة ١٣٨١هـ، وقد رشحه الملك خالد عضوًا في المجلس الأعلى للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة من عام ١٣٩٥هـ، وقررت لجنة جائزة الملك فيصل العالمية للدراسات الإسلامية أن تجعل موضوع جائزة عام ١٤١٩هـ الجهود العلمية التي عنيت بالحديث النبوي تحقيقًا وتخريجًا ودراسة لفضيلة الشيخ الألباني؛ تقديرًا لجهوده القيمة في خدمة الحديث النبوي، وذلك في كتبه التي تربو على المئة.

أما عن التأليف والتصنيف، فقد ابتدأهما في العقد الثاني من عمره، وكان أول مؤلفاته الفقهية المبنية على معرفة الدليل والفقه المقارن كتاب «تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد» وهو مطبوع مرارًا، ومن أوائل تخاريجه الحديثية المنهجية أيضًا كتاب «الروض النضير في ترتيب وتخريج معجم الطبراني الصغير» ولا يزال مخطوطًا.

كان لاشتغال الشيخ الألباني بحديث رسول الله ﷺ أثره البالغ في التوجه السلفي للشيخ، وقد زاد تشبثه وثباته على هذا المنهج مطالعته لكتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم وغيرهما من أعلام المدرسة السلفية.

حمل الشيخ الألباني راية الدعوة إلى التوحيد والسنة في سوريا حيث زار الكثير من مشايخ دمشق وجرت بينه وبينهم مناقشات حول مسائل التوحيد والاتباع والتعصب المذهبي والبدع، فلقي الشيخ لذلك المعارضة الشديدة من كثير من متعصبي المذاهب

ومشايخ الصوفية والخرافيين والمبتدعة، فكانوا يثيرون عليه العامة والغوغاء ويشيعون عنه بأنه «وهابي ضال» ويحذرون الناس منه، هذا في الوقت الذي وافقه على دعوته أفاضل العلماء المعروفين بالعلم و الدين في دمشق، والذين حضوه على الاستمرار قُدُمًا في دعوته، ومنهم: العلامة بهجت البيطار، والشيخ عبد الفتاح الإمام رئيس جمعية الشبان المسلمين في سوريا، والشيخ توفيق البزرة، وغيرهم من أهل الفضل والصلاح [رحمهم الله].

رحلاته الشهرية المنتظمة التي بدأت بأسبوع واحد من كل شهر ثم زادت مدتها حيث كان يقوم فيها بزيارة المحافظات السورية المختلفة، بالإضافة إلى بعض المناطق في المملكة الأردنية قبل استقراره فيها مؤخرًا، هذا الأمر دفع بعض المناوئين لدعوة الألباني إلى الوشاية به عند الحاكم مما أدى إلى سجنه.

صبره على الأذى. و هجرته:

في أوائل ١٩٦٠م كان الشيخ يقع تحت مرصد الحكومة السورية، مع العلم أنه كان بعيدًا عن السياسة، و قد سبَّب ذلك نوعًا من الإعاقة له. فقد تعرض للاعتقال مرتين، الأولى كانت قبل ١٩٦٧م حيث اعتقل لمدة شهر في قلعة دمشق، وهي نفس القلعة التي اعتقل فيها شيخ الإسلام [ابن تيمية]، وعندما قامت حرب ١٩٦٧م رأت الحكومة أن تفرج عن جميع المعتقلين السياسيين.

لكن بعدما اشتدت الحرب عاد الشيخ إلى المعتقل مرة ثانية، ولكن هذه المرة ليس في سجن القلعة، بل في سجن الحسكة شمال شرق دمشق، وقد قضى فيه الشيخ ثمانية أشهر، وخلال هذه الفترة حقق «مختصر صحيح مسلم» للحافظ المنذري واجتمع مع شخصيات كبيرة في المعتقل.

يقول الشيخ محمد بن إبراهيم الشيباني: لقد ذبَّ ناصر الدين عن السُّنَّة خمسين عامًا تحريف الغالين وانتحال المبطلين، حتى أصبح حديث رسول الله ﷺ والدفاع عنه

جزءًا من حياته ودمه الذي يجري في عروقه، فحورب كثيرًا من أقرانه، ومن متعصبة زمانه فزُجَّ في السجن مرتين بسبب العداوة والبغضاء، وكان دائمًا يردد مقولة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ في كتاب الله: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ ﴾ [يوسف: ٣٣]. وقد كان من نعم الله على الشيخ أثناء سجنه أن دعا المسجونين إلى ما كان يدعو إليه خارج السجن، وهو الكتاب والسُّنَّة ونبذ الابتداع في الدين والانقياد لقول الله عز وجل، وقول رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وترك التقليد، فاستجاب لدعوته خَلْقٌ كثير منهم، وحث الناس في السجن على صلاة الجماعة والجمعة، وهذه أول مرة تقام صلاة الجمعة في القلعة من بعد سجن شيخ الإسلام ابن تيمية.

واستفاد الشيخ من سجنه أنه ألف فيه مختصره على «صحيح مسلم بن الحجاج» وهو غير اختصار مسلم للمنذري الذي حقق أحاديثه الشيخ.

ويذكر فضيلة الشيخ الألباني المشكلات التي يتصل بعضها برقاب بعض من آثار دعوته إلى الكتاب والسنة الصحيحة: [فمرة يدعوه وكيل وزارة الداخلية لشئون الأمن، ليبلغه طلب مفتي أدلب منع الشيخ من دخول تلك البلدة، وإبعاده عن منطقة الحسكة، ومرة أخرى يتلقى دعوة من الشرطة بوجوب مواجهة مفتي دمشق، فلم يسعه سوى التوجه إليه، وإذا مكتب سماحته حافل بالمشايخ الذين حُشدوا لهذه الغاية، وأثير بعض النقاش إلا أنه لم يستمر طويلًا، إذ لم يكن من خطة القوم استمراره، واكتفى سماحته بأنْ وجَّه إلى الشيخ تهمة إثارة الفتنة!!

وتحت التهديد اضطر الشيخ إلى توقيع تعهد بألا يقدم على الخطابة في الناس، وكان ذلك تعهد غير ذي موضوع بالنسبة إلى الشيخ؛ لأنه غير ذي صلة بالخطابة أصلًا].

ويختم الشيخ الألباني عرضه المؤسف بهذا الخبر الغريب، وهو أن نقمة الخصوم قد تجاوزت حدود المضايقات إلى إباحة الدم، وذلك بما أذيع عن فضيلة رئيس رابطة العلماء من أنه أفتى بقتله!!

وقد أتاح له السجن الاتصال بمن لولا ضرورات السجن لما فكروا يومًا بلقائه، فضلًا عن الدخول معهم في حوار عدّل الكثير من أفكارهم عن الشيخ وعن السلفية.

سُجن الشيخ الألباني عام ١٩٦٧م لمدة شهر فقط، ثم سجن بعد ذلك نحو ستة أشهر. يقول الشيخ: إنه هو الذي سُجن في سبيل التوحيد.

لقد خاف أصحاب السلطان من الإسلام نفسه، إذ هم واثقون أن كل كلام للألباني في الإسلام الصحيح هو تشهير بحكمهم وتسفيه لأحلامهم، وقد جربوا أن يستكشفوا سريرة الشيخ في هذا المضمار عندما سألوه رأيه في النظام القائم، فأعلن خصومته له بسبب مخالفته لحكم الله، فكان جوابهم على ذلك استبقاؤه في المعتقل بعد أن كانوا على وشك الإفراج عنه.

وخرج الشيخ من سجنه وانتشر علمه، وذهبَ ساجنوه إلى مزابل التاريخ، إن المحبوس من حُبِس عن ربه، وإن الأسير مَنْ أَسَرَه هواه، والأسير فعلًا أسير الآخرة لا الدنيا، فأسير الدنيا يومًا من الأيام تُفَكّ قيوده وتُفْصم كبوله، أما الآخرة فهناك السلاسل والأغلال والقيود والأنكال.

مرض الشيخ في آخر حياته:

يروى أحد تلاميذ الشيخ هذه الواقعة: حادثة حدثت معي باختصار وهي من غرائب الشيخ الألباني وسائر علماء أهل السُّنَّة وهذه لم تجدوها ولن تجدوها في كتاب أو شريط سواء للشيخ أو لمن ترجم له إلا إذا كانت قد وصلت لفلان من تلامذة الألباني عندما كنت عنده في مصر وأخبرته بالقصة فقال لي لابد وأن تنقل هذه القصة للشيخ فلان في كفر الشيخ في مصر؛ لأنه يكتب ترجمة للألباني.

كنت قد زرت الشيخ الألباني في المستشفى قبل وفاته بقليل وهو على الفراش، ففي إحدى الزيارات كان معي أخ ليبي من إخواننا المستقيمين، فلما دخلنا على الشيخ الغرفة كان يتألم من شدة المرض وهو السرطان!!

فسلمنا عليه فرد علينا السلام وهو على حالته هذه، فقلت له: يا شيخ! إذا كان الكلام يؤثر عليك فلا تتكلم، فنظر لي بعينيه وظل ساكتًا.

وجاء الأخ الليبي ووضع يده في يد الشيخ وأخذ يقرأ حديث النبي ﷺ . الذي رواه أبي داود: «**أسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يشفيك**» سبع مرات وبصوت مسموع للشيخ، وهو مازال آخذ بيده وأنا واقف بجواره فنظرت إلى يد الشيخ الأخرى وإذ به يَعُد مع الأخ الليبي تكراره للحديث بأصابع يده الأخرى حتى انتهى الأخ من القراءة، فقال له الشيخ: بارك الله فيك .. ففهمت من حال الشيخ أنه يريد أن يعلم هل الأخ الليبي طبَّق السنة على الحقيقة في العد أم لا، فاستغربت منه وهو على هذه الحالة وهو يحرص على تطبيق السنة، وليس الخبر كالمعاينة وهذه أذكرها للذين يتهمونه بالإرجاء.

فرحم الله الشيخ الألباني رحمة واسعة وسائر أهل السنة والجماعة



المصادر:

- «الألباني وآثاره وثناء العلماء عليه» للشيخ/ محمد إبراهيم الشيباني.
- موقع الشيخ الألباني.
- موقع طريق الإسلام.

الشيخ/ سيد سابق

الشيخ سيد سابق أحد علماء الأزهر الذين تخرجوا في كلية الشريعة، وقد اتصل بالإمام الشهيد حسن البنا وبايعه على العمل للإسلام ونشر دعوته، وجمع الأمة على كلمته، وتفقيهها في شريعته، وأصبح عضوًا في جماعة الإخوان المسلمين منذ كان طالبًا. كان معاصرًا لإخوانه من أبناء الأزهر النابهين الذين انضموا إلى قافلة الإخوان المسلمين، من أمثال الشيخ محمد الغزالي، والشيخ عبد المعز عبد الستار، وغيرهما، وإن كانوا هم في كلية أصول الدين، وهو في كلية الشريعة.

اشتغل الشيخ سيد سابق بالفقه أكثر مما اشتغل إخوانه من الدعاة الأزهريين؛ لأنه الأليق بتخصصه في كلية الشريعة، وقد بدأ يكتب في مجلة الإخوان الأسبوعية مقالة مختصرة في فقه الطهارة، معتمدًا على كتب فقه الحديث وهي التي تعنى بالأحكام، مثل «سبل السلام» للصنعاني، و«بلوغ المرام» للحافظ ابن حجر، ومثل «نيل الأوطار» للشوكاني، و«منتقى الأخبار من أحاديث سيد الأخيار» لابن تيمية. ومستفيدًا من كتاب «الدين الخالص» للعلامة الشيخ محمود خطاب السبكي، مؤسس الجمعية الشرعية في مصر، وأول رئيس لها، الذي ظهر منه تسعة أجزاء في فقه العبادات، ومن غير ذلك من المصادر المختلفة، مثل «المغني» لابن قدامة، و«زاد المعاد» لابن القيم، وغيرهما.

وقد اعتمد الشيخ سيد رَحِمَهُ اللَّهُ منهجًا يقوم على طرح التعصب للمذاهب مع عدم تجريحها، والاستناد إلى أدلة الكتاب والسنة والإجماع، وتبسيط العبارة للقارئ بعيدًا عن تعقيد المصطلحات، وعمق التعليلات، والميل إلى التسهيل والتيسير على الناس، والترخيص لهم فيما يقبل الترخيص، فإن الله يحب أن تؤتى رُخَصه، كما يحب أن تؤتى عزائمه، وكما يكره أن تؤتى معصيته، وحتى يحب الناس الدين ويُقْبِلوا عليه، كما يحرص على بيان الحكمة من التكليف،

اقتداء بالقرآن في تعليل الأحكام. وكان من التسهيل الذي اتبعه الشيخ في منهجه الذي ارتضاه في كتابة الفقه البعد عن ذكر الخلاف إلا ما لا بد منه، فيذكر الأقوال في المسألة، ويختار الراجح أو الأرجح في الغالب، وأحيانًا يترك الأمر دون أن يرجِّح رأيًا، حيث لم يتضح له الراجح، أو تكافأت عنده الأقوال والأدلة، فيرى من الأمانة أن يدع الأمر للقارئ يتحمل مسئولية اختياره، أو يسأل عالمًا آخر، وهذا ما لا يسع العالم غيره.

أصدر الشيخ سيد الجزء الأول من كتابه الذي سماه فقه السنة في أواسط الأربعينات من القرن العشرين الميلادي، أو في سنة ١٣٦٥هـ، وهو رسالة صغيرة الحجم، من القطع الصغير، وكان في فقه الطهارة، وقد صدَّره بمقدمة من المرشد العام للإخوان المسلمين الشيخ الإمام حسن البنا، تنوِّه بمنهج الشيخ في الكتابة، وحسن طريقته في عرض الفقه، وتحبيبه إلى الناس.

وقال الشيخ سابق في مقدمته القصيرة المختصرة التي قدَّم بها كتابه: هذا الكتاب يتناول مسائل من الفقه الإسلامي مقرونة بأدلتها من صريح الكتاب وصحيح السنة، ومما أجمعت عليه الأمة. وقد عُرِضت في يسر وسهولة، وبسط واستيعاب لكثير مما يحتاج إليه المسلم، مع تجنب ذكر الخلاف إلا إذا وُجد ما يسوِّغ ذكره فنشير إليه. والكتاب يعطي صورة صحيحة للفقه الإسلامي الذي بعث الله به محمدًا ﷺ، ويفتح للناس باب الفهم عن الله ورسوله، ويجمعهم على الكتاب والسنة، ويقضي على الخلاف وبدعة التعصب للمذاهب، كما يقضي على الخرافة القائلة: بأن باب الاجتهاد قد سُدّ. ظل الشيخ سيد يوالي الكتابة في الفقه بعد ذلك، ويخرج في كل فترة جزءًا من هذا القطع الصغير حتى اكتمل أربعة عشر جزءًا، ثم صدر بعد ذلك في ثلاثة أجزاء كبيرة. واستمر تأليفه نحو عشرين سنة على ما أظن. سَدَّ كتاب الشيخ سيد سابق فراغًا في المكتبة الإسلامية في مجال فقه السنة، الذي لا يرتبط بمذهب من المذاهب، ولهذا أقبل عليه عامة المثقفين الذين لم ينشأوا على الالتزام بمذهب معين أو

التعصب له، وكان مصدرًا سهلًا لهم يرجعون إليه كلما احتاجوا إلى مراجعة مسألة من المسائل. وقد انتشر الكتاب انتشارًا كبيرًا، وطبعه بعض الناس بدون إذن مؤلفه مرات ومرات، كما يفعلون مع غيره من الكتب التي يطلبها الناس.

قُدِّم الشيخ سيد للمحاكمة في قضية مقتل النقراشي باشا، حيث زعموا في ذلك الوقت أنه هو الذي أفتى الشاب القاتل عبدالمجيد حسن بجواز قتله، عقوبة على حل جماعة الإخوان، وكانت الصحف تلقب الشيخ في ذلك الوقت بمفتي الدماء. والحمد لله، قد برأته المحكمة، وخلت سبيله، ولكنه اعتقل مع من اعتقل من الإخوان في سنة ١٩٤٩م، واقتيد إلى معتقل الطور، وفي عنبر رقم (٢) -الذي كان إمامه الشيخ الغزالي-، وكان الشيخ سيد يعقد حلقات في الفقه بعد صلاة الفجر وقراءة الأدعية المأثورات، كما كان الشيخ الغزالي يعقد حلقات أخرى في الدعوة إلى الله.

وظل الشيخ مرموق المكانة في وزارة الأوقاف، حتى جاء عهد وزيرها المعروف الدكتور/ محمد البهي، فساءت علاقته بالشيخين الغزالي وسابق، رغم أنها كانت من قبل علاقة متينة، وسبحان مغير الأحوال. وقد نقل الشيخان إلى الأزهر، لإبعادهما عن نشاطهما المعهود، وإطفاء لجذوتهما، وقد بقيا على هذه الحال، حتى تغير وزير الأوقاف، ودوام الحال من المحال. كان الشيخ سيد سابق رجلًا مشرق الوجه، مبتسم الثغر، فَكِهُ المجلس، حاضر النكتة، ومما يحكى عنه أنهم حين قبضوا عليه في قضية مقتل النقراشي، وسألوه عن محمد مالك الذي ضخَّمت الصحافة دوره، واعتبروه أكبر إرهابي، وقد اختفى ولم يعثروا عليه، فلما سألوا الشيخ: هل تعرف شيئًا عن مالك؟ قال: كيف لا أعرفه وهو إمام من أئمة المسلمين، وهو إمام دار الهجرة رضي الله عنه ؟! قالوا: يا خبيث! نحن لا نسألك عن الإمام مالك، بل عن مالك الإرهابي، قال: أنا رجل فقه أعرف الفقهاء ولا أعرف الإرهابيين. كان الشيخ الغزالي في المعتقل إذا سئل عن مسألة فقهية يحيلها إلى الشيخ سيد سابق، فقد كان هو المعتمد لدى

الإخوان في الفقه، ومع هذا كتب الشيخ سيد في العقيدة [العقائد الإسلامية]، وفي الدعوة [إسلامنا] وغيره من الكتب.

انتقل الشيخ في السنين الأخيرة من عمره إلى جامعة أم القرى بمكة المكرمة، سعيدًا بمجاورة البيت الحرام، مع نخبة من أجلاء علماء الأزهر، الذين كان لهم دور يذكر ويشكر في ترسيخ جامعة أم القرى ورفع دعائمها، وتعليم أبنائها، وفي سنة ١٤١٣هـ حصل الشيخ على جائزة الملك فيصل في الفقه الإسلامي، وسعدت بمشاركته فيها.

انتقل إلى جوار ربه مساء يوم الأحد ٢٣ من ذي القعدة ١٤٢٠هـ، الموافق ٢٧/ ٢/ ٢٠٠٠م عن عمر يناهز ٨٥ سنة.

رحم الله الشيخ الجليل وأسكنه فسيح جناته



المصادر:

- «مجلة المجتمع» العدد [١٧٠٣].
- موقع علماء الأمة.
- الإسلام أون لاين.

الشيخ/ عبد الباسط عبد الصمد

وُلد القارئ الشيخ عبد الباسط محمد عبد الصمد عام ١٩٢٧م بقرية المراعزة التابعة لمدينة أرمنت بمحافظة قنا بجنوب مصر.س حيث نشأ في بقعة طاهرة تهتم بالقرآن الكريم حفظًا وتجويدًا. . فالجد الشيخ عبد الصمد كان من الأتقياء والحفظة المشهود لهم بالتمكن من حفظ القرآن وتجويده بالأحكام. . والوالد هو الشيخ محمد عبد الصمد، كان أحد المجودين المجيدين للقرآن حفظًا وتجويدًا.

أما الشقيقان محمود وعبد الحميد فكانا يحفظان القرآن بالكُتَّاب فلحق بهما أخوهما الأصغر سنًّا: عبد الباسط، وهو في السادسة من عمره. . كان ميلاده بداية تاريخ حقيقي لقريته ولمدينة أرمنت التي دخلت التاريخ من أوسع أبوابه. التحق الطفل الموهوب عبد الباسط بكُتّاب الشيخ الأمير بأرمنت فاستقبله شيخه أحسن ما يكون الاستقبال، لأنه توسم فيه كل المؤهلات القرآنية التي أصقلت من خلال سماعه القرآن يتلى بالبيت ليل نهار، بكرة وأصيلًا. لاحظ الشيخ «الأمير» على تلميذه الموهوب أنه يتميز بجملة من المواهب والنبوغ تتمثل في سرعة استيعابه لما أخذه من القرآن وشدة انتباهه وحرصه على متابعة شيخه بشغف وحب، ودقة التحكم في مخارج الألفاظ والوقف والابتداء وعذوبة في الصوت تشنف الآذان بالسماع والاستماع. . وأثناء عودته إلى البيت كان يرتل ما سمعه من الشيخ رفعت بصوته القوي الجميل متمتعًا بأداء طيب يستوقف كل ذي سمع حتى الملائكة الأبرار.

يقول الشيخ عبد الباسط في «مذكراته»:

(... كان سني عشر سنوات أتممت خلالها حفظ القرآن الذي كان يتدفق على لساني كالنهر الجاري، وكان والدي موظفًا بوزارة المواصلات، وكان جدي من العلماء.. فطلبت منهما أن أتعلم القراءات فأشارا عليَّ أن أذهب إلى مدينة طنطا بالوجه البحري لأتلقى علوم

القرآن والقراءات على يد الشيخ «محمد سليم»، ولكن المسافة بين أرمنت إحدى مدن جنوب مصر وبين طنطا إحدى مدن الوجه البحري كانت بعيدة جدًا. ولكن الأمر كان متعلقًا بصياغة مستقبلي ورسم معالمه مما جعلني أستعد للسفر، وقبل التوجه إلى طنطا بيوم واحد علمنا بوصول الشيخ محمد سليم إلى «أرمنت» ليستقر بها مدرسًا للقراءات بالمعهد الديني بأرمنت، واستقبله أهل أرمنت أحسن استقبال، واحتفلوا به؛ لأنهم يعلمون قدراته وإمكاناته؛ لأنه من أهل العلم والقرآن، وكأن القدر ساق إلينا هذا الرجل في الوقت المناسب. . وأقام له أهل البلاد جمعية للمحافظة على القرآن الكريم «بأصفون المطاعنة»، فكان يحفِّظ القرآن ويعلِّم علومه والقراءات. فذهبت إليه وراجعت عليه القرآن كله، ثم حفظت «الشاطبية» التي هي المتن الخاص بعلم القراءات السبع).

بعد أن وصل الشيخ عبد الباسط الثانية عشرة من العمر انهالت عليه الدعوات من كل مدن وقرى محافظة قنا وخاصة «أصفون المطاعنة» بمساعدة الشيخ محمد سليم الذي زكّى الشيخ عبد الباسط في كل مكان يذهب إليه. . وشهادة الشيخ سليم كانت محل ثقة الناس جميعًا.

في عام ١٩٥٠م ذهب ليزور مسجد السيدة زينب. . والذي كان يحيي القراءة فيه عمالقة القراء المشاهير، كالشيخ عبد الفتاح الشعشاعي والشيخ مصطفى إسماعيل والشيخ عبد العظيم زاهر والشيخ أبو العينين شعيشع وغيرهم من كوكبة قراء الرعيل الأول بالإذاعة. بعد منتصف الليل والمسجد الزينبي يموج بأوفاج القادمين من كل مكان من أرجاء مصر كلها. . استأذن أحد أقارب الشيخ عبد الباسط القائمين على الحفل أن يقدم لهم هذا الفتى الموهوب ليقرأ عشر دقائق فأذن له، وبدأ في التلاوة وسط جموع غفيرة، وكانت التلاوة من سورة الأحزاب. . عمَّ الصمت أرجاء المسجد، واتجهت الأنظار إلى القارئ الصغير الذي تجرأ وجلس مكان كبار القراء.. وبدلًا من القراءة عشر دقائق امتدت إلى أكثر من ساعة ونصف خُيِّل للحاضرين أن أعمدة المسجد

وجدرانه وثُرِيّاته انفعلت مع الحاضرين، وكأنهم يسمعون أصوات الصخور تهتز وتسبح بحمد ربها مع كل آية تتلى بصوت شجي ملائكي، يحمل النور، ويهز الوجدان بهيبة ورهبة وجلال.

الشيخ الضَّبَّاع يقدم الشيخ عبد الباسط للإذاعة:

مع نهاية عام ١٩٥١م طلب الشيخ الضباع من الشيخ عبد الباسط أن يتقدم إلى الإذاعة كقارئ بها، ولكن الشيخ عبد الباسط أراد أن يؤجل هذا الموضوع نظرًا لارتباطه بالصعيد وأهله، ولأن الإذاعة تحتاج إلى ترتيب خاص. ولكن ترتيب الله وإرادته فوق كل ترتيب وإرادة. كان الشيخ الضباع قد حصل على تسجيل لتلاوة الشيخ عبد الباسط، وقدَّم هذا التسجيل للجنة الإذاعة، فانبهر الجميع بالأداء القوي العالي الرفيع المحكم المتمكن وتم اعتماد الشيخ عبد الباسط بالإذاعة عام ١٩٥١م ليكون أحد النجوم اللامعة والكواكب النيرة المضيئة بقوة في سماء التلاوة.

بعد الشهرة التي حققها الشيخ عبد الباسط في بضعة أشهر كان لابد من إقامة دائمة بالقاهرة مع أسرته التي نقلها من الصعيد إلى حي السيدة زينب، وبسبب التحاقه بالإذاعة زاد الإقبال على شراء أجهزة الراديو، وتضاعف إنتاجها، وانتشرت بمعظم البيوت للاستماع إلى صوت الشيخ عبد الباسط، وكان الذي يمتلك [راديو] في منطقة أو قرية من القرى كان يقوم برفع صوت الراديو لأعلى درجة حتى يتمكن الجيران من سماع الشيخ عبد الباسط وهم بمنازلهم، وخاصة كل يوم سبت على موجات البرنامج العام من الثامنة وحتى الثامنة والنصف مساءً. بالإضافة إلى الحفلات الخارجية التي كانت تذاع على الهواء مباشرة من المساجد الكبرى.

زياراته المتعددة إلى دول العالم:

بدأ الشيخ عبد الباسط رحلته الإذاعية في رحاب القرآن الكريم منذ عام ١٩٥٢م، فانهالت عليه الدعوات من شتى بقاع الدنيا في شهر رمضان وغير شهر رمضان. . كانت

بعض الدعوات توجه إليه ليس للاحتفال بمناسبة معينة، وإنما كانت الدعوة للحضور إلى الدولة التي أرسلت إليه لإقامة حفل بغير مناسبة، وإذا سألتهم عن المناسبة التي من أجلها حضر الشيخ عبد الباسط، فكان ردهم [بأن المناسبة هو وجود الشيخ عبد الباسط] فكان الاحتفال به ومن أجله؛ لأنه كان يضفي جوًا من البهجة والفرحة على المكان الذي يحل به. . وهذا يظهر من خلال استقبال شعوب دول العالم له استقبالًا رسميًا على المستوى القيادي والحكومي والشعبي. . حيث استقبله الرئيس الباكستاني في أرض المطار وصافحه وهو ينزل من الطائرة. . وفي جاكرتا بدولة أندونيسيا قرأ القرآن الكريم بأكبر مساجدها، فامتلأت جنبات المسجد بالحاضرين، وامتد المجلس خارج المسجد لمسافة كيلو متر مربع، فامتلأ الميدان المقابل للمسجد بأكثر من ربع مليون مسلم يستمعون إليه وقوفًا على الأقدام حتى مطلع الفجر.

وفي جنوب أفريقيا عندما علم المسئولون بوصوله أرسلوا إليه فريقَ عملٍ إعلامي من رجال الصحافة والإذاعة والتليفزيون لإجراء لقاءات معه ومعرفة رأيه عما إذا كانت هناك تفرقة عنصرية أم لا من وجهة نظره ، فكان أذكى منهم وأسند كل شيء إلى زميله وابن بلده ورفيق رحلته القارئ الشيخ أحمد الرزيقي، الذي رد عليهم بكل لباقة، وأنهى اللقاء بوعي ودبلوماسية، أضافت إلى أهل القرآن مكاسب لا حد لها، فرضت احترامهم على الجميع.

كانت أول زيارة للشيخ عبد الباسط خارج مصر بعد التحاقه بالإذاعة عام١٩٥٢م زار خلالها السعودية لأداء فريضة الحج ومعه والده. . واعتبر السعوديون هذه الزيارة مهيأة من قِبَل الله، فهي فرصة يجب أن تجنى منها الثمار ، فطلبوا منه أن يسجل عدة تسجيلات للمملكة لتذاع عبر موجات الإذاعة.. لم يتردد الشيخ عبد الباسط، وقام بتسجيل عدة تلاوات للمملكة العربية السعودية أشهرها التي سجلت بالحرم المكي والمسجد النبوي الشريف

[لقب بعدها بصوت مكة]. . ولم تكن هذه المرة الأخيرة التي زار فيها السعودية، وإنما تعددت الزيارات ما بين دعوات رسمية وبعثات وزيارات لحج بيت الله الحرام.

ومن بين الدول التي زارها [الهند] لإحياء احتفال ديني كبير أقامه أحد الأغنياء المسلمين هناك. . فوجئ الشيخ عبد الباسط بجميع الحاضرين يخلعون الأحذية ويقفون على الأرض وقد حَنَوا رؤوسهم إلى أسفل ينظرون محل السجود وأعينهم تفيض من الدمع يبكون إلى أن انتهى من التلاوة وعيناه تذرفان الدمع تأثرًا بهذا الموقف الخاشع. لم يقتصر الشيخ عبد الباسط في سفره على الدول العربية والإسلامية فقط، وإنما جاب العالم شرقًا وغربًا.. شمالًا وجنوبًا، وصولًا إلى المسلمين في أي مكان من أرض الله الواسعة.. ومن أشهر المساجد التي قرأ بها القرآن هي: المسجد الحرام بمكة، والمسجد النبوي الشريف بالمدينة المنورة بالسعودية، والمسجد الأقصى بالقدس، وكذلك المسجد الإبراهيمي بالخليل بفلسطين، والمسجد الأموي بدمشق، وأشهر المساجد بآسيا وإفريقيا والولايات المتحدة وفرنسا ولندن والهند ومعظم دول العالم، فلم تَخْلُ جريدة رسمية أو غير رسمية من صوره وتعليقات تُظْهِر أنه أسطورة تستحق التقدير والاحترام.

تكريمه:

يعتبر الشيخ عبد الباسط القارئ الوحيد الذي نال من التكريم حظًا لم يحصل عليه أحد بهذا القدر من الشهرة والمنزلة، التي تربع بها على عرش تلاوة القرآن الكريم لما يقرب من نصف قرن من الزمان، نال خلالها قدرًا من الحب الذي جعل منه أسطورة لن تتأثر بمرور السنين، بل كلما مر عليها الزمان زادت قيمتها، وارتفع قدرها، كالجواهر النفيسة. ولم يُنْسَ حيًا ولا ميتًا فكان تكريمه حيًا عام ١٩٥٦م عندما كرمته سوريا بمنحه وسام الاستحقاق ووسام الأرز من لبنان والوسام الذهبي من ماليزيا ووسام من السنغال وآخر من المغرب

وآخر الأوسمة التي حصل عليها كان بعد رحيله من الرئيس مبارك في الاحتفال بليلة القدر عام ١٩٩٠م.

رحلته مع المرض والوفاة:

تمكن مرض السكر منه، وكان يحاول مقاومته بالحرص الشديد والالتزام في تناول الطعام والمشروبات، ولكن تضامن الكسل الكبدي مع السكر، فلم يستطع أن يقاوم هذين المرضين الخطيرين، فأصيب بالتهاب كبدي قبل رحيله بأقل من شهر، فدخل مستشفى إلا أن صحته تدهورت مما دفع أبناءه والأطباء إلى نصحه بالسفر إلى الخارج ليعالج بلندن، حيث مكث بها أسبوعًا، وكان بصحبته ابنه طارق، فطلب منه أن يعود به إلى مصر، وكأنه أحسّ أن نهار العمر قد ذهب ، وعيد اللقاء قد اقترب. فما الحياة إلا ساعة ثم تنقضي ، فالقرآن أعظم كرامة أكرم الله بها عبده، وأجَلُّ عطية أعطاها إياه، فهو الذي استمال القلوب، وقد شغفها طربًا وطار بها، فسافرت إلى النعيم المقيم بجنات النعيم، وقد غمر القلوب حبًا، وسحبهم إلى الشجن، فحنت إلى الخير والإيمان وكان سببًا في هداية كثير من القلوب القاسية، وكم اهتدى بتلاوته كثير من الحائرين، فبلغ الرسالة القرآنية بصوته العذب الجميل كما أمره ربه، فاستجاب وأطاع كالملائكة يفعلون ما يؤمرون.

وكان رحيله ويوم وداعه بمثابة صاعقة وقعت بقلوب ملايين المسلمين في كل مكان من أرجاء الدنيا، وشيّعه عشرات الآلاف من المحبين لصوته وأدائه وشخصه على اختلاف أجناسهم ولغاتهم، وكانت جنازته وطنية ورسمية، على المستويين المحلي والعالمي، فحضر تشييع الجنازة جميع سفراء دول العالم نيابة عن شعوبهم وملوك ورؤساء دولهم؛ تقديرًا لدوره في مجال الدعوة بكافة أشكالها، حيث كان سببًا في توطيد العلاقات بين كثير من شعوب دول العالم؛ ليصبح يوم ٣٠ نوفمبر من كل عام يوم تكريم لهذا القارئ العظيم؛ ليذكّر المسلمين

بيوم الأربعاء ٣٠/ ١١/ ١٩٨٨م الذي توقف عنه وجود المرحوم الشيخ عبد الباسط بين أحياء الدنيا، ليفتح حياةً خالدةً مع أحياء الآخرة يرتل لهم القرآن الكريم كما كان يرتل في الدنيا.



المصادر:

- موقع قراء القرآن.
- موقع علماء الأمة.

أسد المنابر الشيخ/ عبد الحميد كشك

وُلد الشيخ عبد الحميد كشك في قرية شبراخيت بمحافظة البحيرة في العاشر من مارس لعام ١٩٢٣م، وحفظ القرآن وهو دون العاشرة من عمره، ثم التحق بالمعهد الديني بالإسكندرية، وفي السنة الثانية ثانوي حصل على تقدير ١٠٠٪. وكذلك في الشهادة الثانوية الأزهرية وكان ترتيبه الأول على الجمهورية، ثم التحق بكلية أصول الدين بجامعة الأزهر. وكان الأول على الكلية طوال سنوات الدراسة، وكان أثناء الدراسة الجامعية يقوم مقام الأساتذة بشرح المواد الدراسية في محاضرات عامة للطلاب بتكليف من أساتذته الذين كان الكثير منهم يعرض مادته العلمية عليه قبل شرحها للطلاب، خاصة علوم النحو والصرف.

جديرٌ بالذكر أن الداعية الكريم الراحل الشيخ عبد الحميد كشك كان مبصرًا إلى أن صار عمره ثلاثة عشر عامًا ففقد نور إحدى عينيه، وفي سن السابعة عشرة، فقد العين الأخرى، وكان كثيرًا ما يقول عن نفسه، كما كان يقول ابن عباس رضي الله عنه: إن يأخذ الله من عينيّ نورهما، ففي فؤادي وعقلي عنهما نورُ.

عُيِّن الراحل الكبير الشيخ عبد الحميد كشك معيدًا بكلية أصول الدين عام ١٩٥٧م، ولكنه لم يقم إلا بإعطاء محاضرة واحدة للطلاب بعدها رغب عن مهنة التدريس في الجامعة، حيث كانت روحه معلقة بالمنابر التي كان يرتقيها من سن ١٢ سنة، ولا ينسى فضيلته تلك الخطبة التي ارتقى فيها منبر المسجد في قريته في هذه السن الصغيرة عندما تغيَّب خطيب المسجد، وكيف كان شجاعًا فوق مستوى عمره الصغير، وكيف طالب بالمساواة والتراحم بين الناس، بل وكيف طالب بالدواء والكساء لأبناء القرية، الأمر الذي أثار انتباه الناس إليه والتفافهم حوله.

بعد تخرجه في كلية أصول الدين، حصل على إجازة التدريس بامتياز، ومثَّل الأزهر الشريف في عيد العلم عام ١٩٦١م، ثم عمل إمامًا وخطيبًا بمسجد الطحان بمنطقة الشرابية

بالقاهرة، ثم انتقل إلى مسجد منوفي بالشرابية أيضًا، وفي عام ١٩٦٢م تولى الإمامة والخطابة بمسجد عين الحياة، بشارع مصر والسودان بمنطقة دير الملاك بحدائق القبة بالقاهرة. . ذلك المسجد الذي ظل عينًا للحياة قرابة عشرين عامًا. . هي عمر الشيخ الجليل على منبره إلى أن اعتُقل في عام ١٩٨١م، وتم منعه نهائيًا من الدعوة والخطابة إلى أن لقي ربه ساجدًا بين يديه.

وتعتبر أن الذخيرة التي تركها الراحل الكبير من الأشرطة التي تضم خطبه ودروسه، كانت من أهم روافد التربية الإسلامية خلال العشرين سنةٍ الماضية، وقد كتب الله لها الذيوع والانتشار في شتى أنحاء الأرض، وقد وصلت إلى ٤٢٥ خُطبة جمعة، وأكثر من ثلاثة آلاف درس، وكانت آخر خطبه هي الخطبة رقم ٤٢٥ الشهيرة قبيل اعتقاله عام ١٩٨١ م، والتي بدأها بقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴾ [إبراهيم: ٤٢-٤٣]، وظل بعدها رهين المحبوسين إلى أن لقي ربه ساجدًا في الخامس والعشرين من شهر رجب لعام ١٤١٧ هـ، الجمعة، الموافق ٦ ديسمبر لعام ١٩٩٦م.

اعتقل الشيخ الجليل: عام ١٩٦٥م وظل بالمعتقل لمدة عامين ونصف، تنقل خلالها بين معتقلات طرة وأبو زعبل والقلعة والسجن الحربي.

يقول الشيخ في كتابه «قصة أيامي» عن المضايقات التي تعرض لها وقصص استدعائه واعتقاله وتعرضه للتعذيب النفسي والبدني فيقول:

ادلهمت الخطوب، واحتدمت المحن، وكشرت قوى الشر عن أنيابها، تحاول اقتلاع شجرة طيبة من مكان طيب، إنها شجرة الدعوة إلى الله في جامع الملك [وهو اسم الشارع الذي يقع فيه الجامع]، فوجئت في شتاء ١٩٦٥م باستدعاء إلى أحد جهات الأمن، ولأول مرة في حياتي أدخل مثل هذه الأماكن، وإذا المقصود من هذا الاستدعاء إنذار شديد اللهجة بمنع

الصوت الخارجي للمسجد أثناء إلقائي دروس المساء، وقلت في نفسي: لا مانع، وليقتصر الدرس على الجالسين داخل المسجد؛ لأنني قد فهمت من هذا الاستدعاء أن المسألة ليست مسألة صوت داخلي أو خارجي، فليس ذلك من الأهمية بمكان، فالصوت الخارجي في جامع الملك لا يمثل أي قلق لأحد من القاطنين حول المسجد، فشارع الملك ذاته لا تكف السيارات عن ذرعه جيئة وذهابًا ليلًا ونهارًا، ولها أصوات مفزعة، فلم يكن الدافع إذن قلقًا أو فزعًا لأحد، إنما من باب قول الذئب للحمل: [لقد عكرت عليَّ الماء]، لذلك تلقيت المسألة بحكمة وصبر، فليست الشجاعة تهورًا، إنما الشجاعة أن تقول الحق دون أن تسمح للآخرين أن يتسلقوا على كتفيك. ومُنع الصوت الخارجي، وجاء كثير من القاطنين حول المسجد يطلبون إعادته، فقد كانوا يستمعون إلى الدرس وهم في بيوتهم إلى أن تؤذن العشاء، وتقدموا بكثير من الشكاوى إلى الجهات المختصة، يطالبون بذلك، فإن الدين للنفوس كالماء والهواء والضياء، ولكن شكواهم ذهبت أدراج الرياح.

وبعد أيام من منع الصوت، جاءني استدعاء آخر من نفس الجهة، وذهبت إلى هناك عملًا بقول الله جل شأنه: ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل: ١٢٧-١٢٨].

وسئلت في هذا الاستدعاء: لماذا لم تمنع الصوت الخارجي؟ فأجبت: لقد منعته. فقال: لم يحدث هذا. قلت: لقد حدث ولست بكذاب. واحتدم النقاش، وكان لابد أن يحتدم؛ لأن النيات لم تكن خالصة من الطرف الآخر وتطورت الأمور من سيئ إلى أسوأ!!

في أغسطس عام ١٩٦٥م رُجت الأرض رجًا، وهبت رياح هوج، اشتدت كأنها رماد في يوم عاصف، فقد أطلت الفتنة برأسها تحاول اقتلاع شجرة الدعوة الإسلامية عندما وقف حاكم الدولة أمام قبر لينين في موسكو يوعد ويهدد ويرغي ويزبد: يهدد بالثبور وعظائم الأمور، يهدد كل العاملين في مجال الدعوة الإسلامية، ونسي ربه، فأنساه الله نفسه حتى قال:

إنني لن أرحم وأَقْسَمَ أنه لن يعفو بعد اليوم مع أن الذي يعفو ويرحم ويملك الرحمة والعفو هو الله، ولكن ما أشقى الإنسان إذا استحوذ عليه الشيطان فأنساه ذكر ربه.

ذات يوم من أيام شهر أغسطس عام ١٩٦٥م وكان يومًا شديد الحر، كأن شمسه طلعت من بين الرمال لا من بين السحب، وكان الجو كله ينذر بالبروق والرعود والعواصف ضد الإسلام ورجاله، فوجئت بالباب يُطْرَق طرقات عنيفة، وبمجرد أن فُتح الباب دخل جماعة غلاظ شداد وقاموا بعملية التفتيش، وكانت جناية لا تُغتفر إذا تم ضبط أي كتاب لشهيد الإسلام الأستاذ سيد قطب خاصة كتاب «معالم في الطريق»، وكان هذا الكتاب بين يدي يُقرأ لي فيه، لكن الله سلَّم فلم ينتبه أحد لهذا الكتاب، أمروني بارتداء ثيابي؛ لأنني سأذهب معهم إلى أين؟ ولماذا؟ وعما أسأل؟ لست أدري. وحاول بعض الإخوة أن يصحبوني، ولكن لم يُسمح لهم؛ لأنهم صمموا أن آتيهم فردًا، وبعد إلحاح شديد من شقيقي سمحوا له بالركوب معي في سيارة عسكرية ذات مقاعد خشبية غليظة، وانطلقت بنا السيارة تنهب الأرض نهبًا، وبعد بضعة أمتار، أُمر أخي بالنزول فنزل، وظللت وحدي بين قوم لا عهد لي بهم وكأني في سرير المنايا لا أدري ما يُفعل بي.

وقفت بنا تلك السيارة في مكان لا أعلمه، وأحسست بنزول من فيها جميعًا، وظللت وحدي وبدأت الحرب النفسية، وسمعت من يتساءل: أهذا هو الذي يخطب في مسجد دير الملاك؟ فيرد عليه الآخر: نعم هو. فيسأل آخر: أألقي القبض عليه اليوم؟ فيجيبه: نعم.. وهكذا أسئلة كثيرة ألقيت وأجوبة رُد بها عليها، وشممت رائحة الموت في الهواء الذي أستنشقه، فالقوم غلاظ شداد، والأصوات رهيبة، والجو مكفهر خانق، وسمعت وقع أقدام ثقيلة تريد أن تدك الأرض دكًا حتى انتهت إلى السيارة التي كنت فيها وحدي، وإذا هو أحد غلاظ الأكباد يجذبني من ذراعي، وفي صمت أشد من صمت القبور أدخلني غرفة شعرت كأن المنية جاثمة فيها. قلت في نفسي: إن الروح والرزق لا يملكها إلا الله، وأنزل الله برد

السكينة في قلبي، وإذا بصوت ينبعث من الجالسين في الغرفة ولم أكن أدري ما عددهم إلا بعد أن أمطروني وابلًا من الأسئلة، صاح صاحب الصوت: أحضر لـه كرسيًا لـيجلس. كنـت ساعتها أرتدي العمامة والجبة، فلعل الرجل قد رحم كف بصري واحترم تلـك الثيـاب التـي درجنا على احترامها وتوقيرها، وجلست وجاء السؤال الأول: أأنت فلان؟ قلت: نعم، قال: ما هذه الضجة التي تحدثها في مسجد دير الملاك؟

قلت: إنني أؤدي دور المسجد كما كان في فجر الإسلام، أؤديه على أنه رسالة لا وظيفة. ثم أخذ يسأل في موضوعات شتى أذكر منها: أنه أجرى تفتيشًا عقليًا عـلى الفكـر الإسـلامي سأل في مسألة الجبر والاختيار، والتخيير والتسيير، كما سأل عـن نظـام الحكـم في الإسـلام، وأخيرًا وبعد مدة استغرقت أكثر من ساعة عرض عليَّ مجموعة مـن الأسـماء وقـال: أتعـرف هؤلاء أو أحدًا منهم؟ ولم يكن لي معرفة سبقت بهذه الأسماء جميعًا، والذي قد علمته فيما بعد أنهم قد تم اعتقالهم، وأنهم في السجن الحربي، ولعله سألني عـنهم؛ لأنهـم كـانوا يـصلون في المسجد الذي أقوم بالخطابة فيه، وبعد صمت قصير قام أحدهم فربت على كتفي بيده وهمس في أذني قائلًا: إن هناك الكثير من الشكاوى قُدمت فيـك لـذلك اسـتدعيناك، وحـسبت أنـه سيصدر الإشارة بترحيلي إلى أحد السجون التي تحولت إلى جحـيم وسـعير، اشـتعلت فيهـا نيران تعذيب الأبرياء، ولكن الله سلم، فقد نادى على الذي قبض عليَّ وقال له: أعده إلى بيته، فكان ذلك الذي ألقى القبض عليَّ يسألني في عجب: مـاذا كنـت تقـرأ وأنـت قـادم إلى هـذا المكان؟ لقد جئنا بالمئات إلى هنا، فلم يعد منهم أحد إلى بيته!! فقلت لـه: ﴿لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ [التوبة: ٥١]. في أحد أيام شهر مارس ١٩٦٦م وُجهت إليَّ دعـوة لحـضور حفل إسلامي في جامعة عين شمس، شاركني فيها بعض كبـار الـدعاة، وكـان حفـلًا بهيجًـا اغتصت فيه المقاعد بالحاضرين، حتى لم يبقَ فيه مكان لقدم، وبعد أن فرغنا من الحديث فُـتح الباب للأسئلة فاستأذن الذين كانوا يشاركونني الحفل لما لهم من ارتباطات في أماكن أخـرى، وأصبحت وحدي في تلقي الأسئلة، وكانت متنوعة يدل الكثير منا على اتجاهـات الـسائلين،

ولقد علمتنا الأيام في مجال الدعوة أن هناك أسئلة قد لا يكون الغرض منها طلب الإفادة، إنما المقصود بها أن تكون مصايد وشراكًا يقع المجيب فيها؛ لأن السائل قد يكون مريض القلب، سقيم الوجدان، خَرِب الضمير، وقد كان من ضمن الأسئلة التي علمت أن سائلها يريد أن يحفر بها بئرًا لا يريد علمًا؛ سؤال قال صاحبه: هل الاشتراكية من الإسلام؟

فقلت: يا أيها السائل! إن الإسلام نظام إلهي متكامل، ونزل به الروح الأمين على صاحب الرسالة، فهو وحي معصوم، انتظم شئون الدنيا والآخرة، أما الاشتراكية فهي مذهب اقتصادي وضعي والإسلام كل لا يتجزأ ولا تنفصم منه عروة عن عروة. . وتقبل المستمعون هذه الإجابة بقبول حسن......

وحدث ما كنت أتوقعه؛ ونفذ القضاء في اليوم الذي حدده صاحب العظمة والكبرياء جل جلاله، ففي يوم الخميس الرابع عشر من شهر إبريل عام ١٩٦٦م تم اقتحام المنزل، وكنت أعددت خطبة الجمعة بناء على ما حدث في العراق وهو قتل المشير عبد السلام عارف، وكنت قد هيأت في نفسي كلامًا يتركز موضوعه في عظمة الله وسلطانه.

تمت عملية التفتيش، ثم أُمرت بالذهاب مع هؤلاء، وقيل لي ساعتها: إنها خمس دقائق لن تزيد ثم تعود، وركبت سيارة أَخذت طريقها إلى مكان نزلت فيه، وكنت يومها صائمًا، وظللت مع الحارس في هذا المكان، وأشهد أنه كان غليظ القلب فيه جفاء وقسوة وذا صوت مقلق، سألني ولم يكن معنا ثالث إلا الله: أإذا أُمرتُ من رئيس في العمل أن أضربك حتى الموت هل عليَّ من ذنب؟ قلت له: نعم، قال: وكيف وأنا عبد مأمور؟ قلت له: تستطيع أن تتصرف دون أن تكون شريكًا في الجريمة. أمامك الحائط فاضرب كيف شئت مادام لن يراك أحد إلا الله. وأردت أن أستطرد معه في الحديث لأشغله عن أفكاره الشيطانية، فقلت له: إن المؤمن كيس فطن، يستطيع أن يتصرف في الأمر مادام صادرًا من جهة تضر العباد والبلاد.

وأذنت المغرب، وجيء لي بما يسمونه باكو بسكويت وكوب من الماء، وحمدت الله تبارك وتعالى على ما ساقه إليَّ من الرزق، وبعد قليل جمعونا استعدادًا للرحيل، وكانت مفاجأة كأنها صدمة كهربائية، عندما رأيت الكثير من الذين معي في مبنى الداخلية، كانوا يؤدون الصلاة معي في مسجد الشهداء بالسويس، وأخذت أفكر في الخيط الذي جمع بيننا، وما هي الصلة التي ربطت بين من يسكن القاهرة وبين من اختار مدينة السويس منزلًا؟ وهل ترددي على هذا المسجد لأداء بعض الخطب هناك يوم الجمعة هو الذي جاء بي إلى هذا المكان؟ ثم ما هي التهمة التي سوف توجه إليَّ، وأنا من فضل الله عليَّ ما كنت يومًا من الأيام مقترفًا لجريمة أو آتيًا بجناية، لقد كنت كما يقولون في المثل المصري: من البيت للجامع.

مهما يكن من أمرٍ فسوف تتضح المسائل المبهمة وتُفك الطلاسم وتُحل الألغاز، وقطع تفكيري على صوت نادى على أسمائنا وجُمعنا في سيارة قطعت بنا الطريق إلى مكان إن صح أن يُقال فيه شيء فهو مقبرة الأحياء، ومُشمت الأعداء، ومُحزن الأصدقاء، ومفرق الأحباء، وجيء بالأغطية التي تغطي الأعين حتى تحجب الرؤية، مع أن الساعة قد بلغت العاشرة مساء، والليل قد أرخى سدوله، لكنه ظلم الإنسان لأخيه الإنسان..... لقد علمت أن هذا المكان هو القلعة، وصاحت أصوات مرعبة تأمر بتوزيعنا على الزنازين، ودخلت في الزنزانة لأول مرة، ورأيتني أتحسس أربعة جدران فيها حديد معلق، فتذكرت عندئذ دخول القبر حيث لا صديق ولا رفيق ولا جليس ولا أنيس... لم يكن في الزنزانة فراش ولا غطاء، والمكان قارس البرد، وأرض الزنزانة تكاد تأكل الأجسام الصلبة، فقد بطنت بطبقة من الأسمنت فضلًا عما فيها من الحشرات المختلفة الأنواع من قارص وقارض ولاسع، استسلمت لقضاء الله وقدره، وخلعت جبتي ففرشتها وخلعت حذائي فتوسدته، وأدخل لي السجان كوبًا من الماء، ثم أغلق عليَّ الباب فنمت مرهقًا من شدة الإعياء نومًا كان أشد من الإرهاق نفسه.

وبعد ما انتصف الليل فتح باب زنزانتي بعنف شديد فقمت من نومي فزعًا وبصوت كالرعد يصم الآذان قال لي أحد الجلادين: قم للتحقيق. وصعدت درج سلم في جو مشحون بالصراخ والعويل وجلست أمام المحقق. . هل ذهبت إلى مسجد السويس؟ قلت: نعم، قال: لماذا؟ قلت: لأقوم بخطبة الجمعة هناك. أين كنت تبيت ليلة الجمعة؟ قلت: في منزل مخصص للاستراحة، قال: أي شيء كنتم تتكلمون؟ قلت: كنا نتكلم كلامًا عاديًا. قال: ألم تتكلموا في غلاء الأسعار؟ قلت: لا. فأمر بانصرافي، ونزلت إلى الزنزانة محبوسًا حبسًا انفراديا، ووضعت جنبي على الأرض أحاول النوم، ولكن دون جدوى فبعد ساعة أو يزيد قليلًا فتح الباب مرة أخرى، حيث ذهبت لتحقيق وأعيدت الأسئلة مرة أخرى إلى سمعي، وأجبت عنها بنفس الإجابة، ثم عدت. وفي صباح يوم الجمعة وهو اليوم التالي من اعتقالي، وكنت في مسيس الحاجة إلى أن أذهب إلى دورة المياه، فقد حصرني البول، فرد عليَّ الحارس بغلظة وفظاظة قائلًا: غير مسموح لك بذلك وأمامك ست ساعات لا طعام ولا شراب ولا قضاء للحاجة، ومهما قلت عما لاقيناه فإن البيان يعجز واللسان يقف، والجنان يصاب بالصداع، والحياء يمنع مما وقع للمسلمين في تلك الأيام النحسات.

في الليلة الثانية من اعتقالي وقبل الفجر بقليل فتح عليَّ باب الزنزانة، وصاح أحد الجلادين بصوت مرتفع قائلًا لي: إذا سمعت صوت الزنزانة يفتح فقم واقفًا بلا تردد، فقال أحد مرافقي [الذين سُجنوا مع الشيخ وكانوا من مريديه وممن يحضرون خطبه]: إنه كفيف، وأُخذت من يدي إلى مكان التحقيق، وجلست أمام المحقق فإذا هو يلقي عليَّ هذه الأسئلة: هل سبق لك الحج أو العمرة؟ قلت: لا، ثم سأل هل أسلم على يديك بعض النصارى؟ قلت: نعم، وسأل: وكيف ذلك؟، قلت: كانوا يستمعون إلى دروس العلم من خارج المسجد، وكانت تدور بيني وبينهم مناقشات في أرض الحديقة الملحقة بالمسجد. . . .

وانتهى التحقيق عند هذا الحد، فقد حاولوا أن ينتزعوا أي كلمة من الشابين اللذين دخلا معي السجن؛ ليجعلوا منها قضية، ولكن كان الحق أقوى، أين أخفي السلاح؟ أأخفيه في المنبر الذي أخطب عليه؟ وماذا أصنع بالسلاح والحق قوة بين قوى الجبار أمضى من كل أبيض عندي. . إنني ما زلت أذكر عندما حضر أحدهم إلى بيتي للتفتيش ولم يكن قد مضى على زواجي خمسة أشهر وجد بعض السكاكين التي كنا قد جئنا بها بمناسبة الزواج، فسأل متهكمًا: ما هذا السلاح؟ وقلت في نفسي: سبحان الله! أتسمه سلاح الطيران أم المدفعية أم المدرعات أم الصواريخ؟ ،أخيرًا قلت: نعم إنه سلاح البصل!!.

سألت نفسي وأنا داخل السجن في أيامه الأولى: لماذا جئت إلى هذا المكان؟ وما هو الذنب الذي جنيته؟ ومتى وقت الرحيل؟ وهل لهذا الليل من آخر؟ ليل الظلم والظلمات. . وقطع عليَّ هذه الأسئلة النوم، فقد نمت بغد الإرهاق الشديد، فرأيت في المنام الصِّدِّيق رضي الله عنه واقفًا أمام منبر المصطفى صلى الله عليه وسلم وسألته: أيرضيك يا خليفة رسول الله! ما نحن فيه؟ فَرَدَّ عليَّ بقول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴾ [الطور: ٤٨-٤٩].

وعلمت أن هذه الشدة لابد لها من الصبر، والصبر كما قال العلماء: احتمال الكد، أو هو مقاومة النفس الهوى لئلا تنقاد للقبائح، أو هو ثبات باعث الدين في مقابل باعث الشهوات، وقد يكون الصبر عفة إذا كان صبرًا عن شهوة، وقد يكون حلمًا إذا كان عن جهالة الجاهلين، وكاد الحليم أن يكون نبيًا.

وعلمت أنه لابد من الصبر، التسبيح بحمد لله حين يقوم الإنسان وحين الليل وساعة إدبار النجوم، ولابد من لزوم الاستغفار، فإن من لزم الاستغفار جعل الله له من كل ضيق فرجًا، ومن كل شدة مخرجًا، ورزقه من حيث لا يحتسب.

من الصور التي يسيل له الكبد مرارة صورة مؤسفة إذ شكوت ألمًا في المفاصل من طول المُكث على أرض لا تليق إلا بالدواب حتى أوشكت ألا أقوى على القيام، ونُودي ذات يوم من أراد الباشا الدكتور فليبلغ عن اسمه، فبلغت عن اسمي عسى أن أجد عنده من الدواء ما يُسكن ألمي، وجاء من يأخذ بيدي فإذا الطبيب على غير ملة الإسلام وسألني: مم أشكو؟ وشرحت له، فقال متهكمًا: إذا كنت تشكو الألم عندما تقوم فلا داعي إلى قيامك، فقلت له: يؤلمني أكثر أن أصلي جالسًا، فقال متهكمًا ساخرًا: لا داعي أن تصلي وماذا فعلتم بصلاتكم؟ وتذكرت قول الشاعر:

والمستجيرُ بعَمْروٍ عِنْد كُرْبَتِهِ كَالمُستَجير مِنَ الرَّمْضاءِ بالنَّارِ

كان من أشد الأشياء إيلامًا أنه لم يكن معنا ثياب حتى نغسل ما على أجسامنا ونلبسها، بل لقد خرجنا من ديارنا أو أُخرجنا منها وقيل لنا يومها: إنكم لن تتأخروا خمس دقائق، وكادت الثياب تبلى وقد ملأتها الهوام ومنها حشرة القمل، وأوشكت العورات أن تنكشف، ولم يكن معنا إبرة ولا خيط، فكنا نقضي أكثر وقتنا ندعو الله بدعوتين علمها النبي ﷺ يوم الخندق: **«اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا»**.

قضيت في سجن القلعة ثلاثة أشهر مضت الساعة فيها كأنها شهر، ومضى اليوم كأنه دهر، كان الزمن يمضي متثاقلًا بطيئًا، كأن أيامه سلسلة من الجبال، ولكن مما كان يخفف عن النفس قليلًا أننا كنا مجموعة تزيد عن العشرة في مكان واحد، لكن كان الأنين الذي ينبعث من أصوات المعذبين يمنع النوم، ويجعل الطعام ذا غصة كأنه الضريع أو الزقوم أو الغسلين، فكان ذلك كله يحز في النفوس أَضِفْ إلى هذا ما كنا نعانيه من الانشغال على أولادنا وأهلينا، فإذا هان علينا العذاب البدني، فمن الصعب أن يهون العذاب النفسي، ولكن الليل مهما طال فلابد من طلوع الفجر، كان القرآن لنا خير جليس، وأفضل أنيس، وأعظم صديق، وأكرم رفيق.

ترامت الأنباء بقرب رحيلنا من هذا المكان، وظن البعض إفراجًا، فَسَرَتْ البهجة في النفوس؛ فإن الإفراج للسجين كالإحياء للميت؛ لأن السجن مقبرة الأحياء، ومشمت الأعداء، ومفرق الأحباء، ومحزن الأصدقاء، لكني لم أشعر بهذه البهجة، فقد زارني أحد الصالحين في المنام وقال لي: اصبر واحتسب الأجر؛ فإنه ما زال هناك قضاء سينفذ، وصلينا الفجر ونودي على أسمائنا، وقال المنادي: من سمع فليحضر متاعه، وليستعد لركوب السيارة، ولم يكن لدينا متاع سوى ثيابنا التي بليت.

كانت هذه أحوالنا من ثياب بالية، وهزال وضعف في الأجسام، وعافية هزمها العذاب والضعف وجفوة النوم وسوء التغذية والتهوية، وسألت نفسي بعدما أُمر بالرحيل: لماذا سُجنت؟ ولماذا لم يفرج عني من هذا المكان؟ ولماذا الرحيل إلى سجن آخر؟ وطريقي ما طريقي؟ أطويل أم قصير؟ وحتى الآن ما زلت أتحدى من يجيب على هذا السؤال؟ لماذا سجنت؟ وما هي التهمة التي وجهت إليَّ؟ وأي ذنب اقترفت؟

قطعت بنا السيارة الطريق من القلعة إلى سجن طرة تحت حراسة مشددة من الجنود الصامتين الذين لا يردون على سؤال منا، وقد دارت في نفوسنا أسئلة كثيرة كان منها: إلى أين؟ وإلى متى؟ وكان الجواب عنها: علم ذلك عند ربي، ونزلنا في ساحة السجن الرهيب حيث وقفنا ساعات طوالًا ننتظر ما سيقع بنا، وأمرنا بخلع ثيابنا لنلبس ثياب السجن، وحمدنا الله فقد بليت الثياب التي كانت علينا من يوم اعتقلنا ولبسنا ثياب السجن... ودخلنا العنبر وما فيه من اسمه شيء، فهو من أسماء الأضداد كما تسمى الصحراء بالمفازة، وما هو بعنبر، بل إني أقسم بالله غير حانث على أنه لا يليق حتى بالدواب!! الداخل فيه مفقود، والخارج منه مولود، نعم مفقود لأن الحضور فيه موت بطيء، والخروج منه موت بطيء، فما نجا من المرض إلا القليل، وليس مرضًا عابرًا أو خفيفًا، إنما أمراض أقلها الربو والروماتيزم، يشعر الإنسان عندما يدخل هذه الأماكن بالسآمة والملل والكلال، فسوء التهوية وسوء التغذية، والظلام

الدامس بالليل والنهار، والحر الشديد اللافح، وإغلاق الباب، أضف إلى ذلك هذه المأساة الكبرى، لم يكن هناك دورة مياه تصرف الفضلات خارج المكان، إنما كان هناك بجانب العنبر صفيحة على جانبيها قطعتان من الخشب وسط بول كثير تنبعث منه رائحة تزكم الأنوف، وتعمى الأبصار، وتملأ الرئتين وباء ووبالًا، والويل كل الويل لمن زلت قدمه فسقط في تلك الصفيحة لضعفه أو لكبر سنه، أو لضعف بصره، إنه حينئذ يرى من المتاعب والمصاعب ما لا تشرحه العبارة، فهو إما أن يقع في الغائط حتى منتصف جسمه أو يقف في بحر من البول إنه في كلا الحالين ضائق الصدر، معتل الوجدان، سقيم النفس، وكم كنت ألاقي من العناء ما ألاقي عندما أريد قضاء الحاجة مما كان يدفعني إلى أن أقلل من الطعام والشراب، وكثيرًا ما كنت أصوم، وأنا أعلم أنه لا غذاء في الإفطار، وما هي إلا لقيمات بقطعة جبن هي عبارة عن ملح متجمد، كأنها قُطعت من جبل في ظلمات العصور الوسطى.

كان الحر يشتد، ونسبه الرطوبة ترتفع، فذلك العنبر الذي لا يصلح اصطبلًا للخيول، ولا حظيرة للمواشي كان يضم بين جدرانه مائة وعشرين، وكانت الجدران ذات ألوان سود، والأرض حفر وتعاريج، وقد تلاصقت الأجسام من شدة الزحام، وانعقد في سماء العنبر بخار كثيف من التنفس، فإذا كان كل إنسان يتنفس في الدقيقة ست عشرة مرة فما بالك بمائة وعشرين يتنفسون في مكان قد أحكم إغلاقه، وهو في نفس الوقت يحتوي على بحيرة من البول الواقف والغائط والروائح الخبيثة!! لقد كنا نتبادل وضع الأنف في ثقب مفتاح الباب لعل أحدنا في ليالي الصيف القائظة يحصل على شيء من الهواء الذي ملأ الله به جنبات الأرض، لكن ذلك كان علينا حرامًا، وكانت المأساة الكبرى عندما يُكلَّف اثنان منا بحمل صفيحة البراز للإلقاء بها في مكان خارج العنبر، كانت هذه فرصة لمن يأتي عليه الدور، فإنه سيستنشق شيئًا من الهواء، لكنهما وهما يحملان تلك الصفيحة كان يسقط منها وسط العنبر ما يثير في النفس الغثيان، وفي الكبد المرارة، كانت مأساة ما بعدها مأساة. . . لا هواء ولا ماء إلا

ما يسد الرمق، ولا نوم حيث لا فراش، ولا غطاء إلا القليل الذي لا يمنع ألم الأرض، ولا شدة البرد، ولا طعام إلا كطعام الأثيم، كالضريع والزقوم والغساق والغسلين، والظُّلْمة قاتمة، والفراغ قاتل، وأصحاب الفكر قد تجمد فكرهم، والكفاءات وأساتذة العلوم والمعرفة أصبحوا يلتمسون من الحارس أن يفتح باب العنبر ولو لدقائق قليلة، والمرضى يموتون أو يئنون، أو يستغيثون فلا يغاثون، والحر لافح، والعرق ملجم، والثياب في حاجة إلى تنظيف، وارتفاع درجة الرطوبة لا تساعد على تجفيف العرق!! لقد بلغت القلوب الحناجر، وضاقت علينا الأرض بما رحبت!!.

لما ضاقت بنا الأرض، والظلم ضارب أطنابه، والقلوب أصبحت أشد قسوة من الحجارة، رأينا أن نخفف من وطأة الأحداث أن يتحدث من يستطيع الحديث إلى إخوانه بعد صلاة العصر من كل يوم، فليحاضرنا الأطباء في الطب، والأدباء في الأدب، والمهندسون في الهندسة، والعلماء في الإسلام حتى لا يضيع العمر في هذا الجمود، وحتى نقضي الوقت في شيء مما يخفف الأعباء، وقد كلفت بإلقاء درس بعد العصر، فاخترت التفسير، واخترت من القرآن ما يناسب المقام، فكان حديثي يدور في سورة يوسف حول ما لقيه الصِّدِّيق من شدائد وعناء.

مضت شهور الصيف بما فيها من المآسي والمعاناة والشدائد والمحن والفتن، وكان رأس تلك المآسي ما أُصبنا به - أعني الكثير من المسجونين بالأمراض الجلدية التي سَرَت في صفوفنا سريان النار في الحَلْفاء، والسم الرعاف في الأحشاء، وكان ذلك ناتجًا عن منع الماء عنا مما كان يدفعنا كثيرًا إلى استعمال قطرات الماء في الشرب، ونستعمل التيمم لنؤدي الصلاة.

ما زلت أذكر صوت ذلك الجلاد يزمجر كالرعد عندما دخل علينا سجن القلعة، وحر الظهيرة قائم، وقد سال من الشمس لعابٌ يشوي الوجوه، دخل ذلك الجلاد، فوجد باب الزنزانة يسمح بدخول الهواء فأزبد وزمجر وأرعد وتوعد وهدد، وسالت على لسانه صفائح القمامات القذرة من الشتم والسب للحراس، وقال فيما قال: أتحسبون أن هؤلاء الكلاب في

هيلتون أو شيراتون، أتوارون باب الزنزانة لأولاد كذا وكذا من عبارات القذف التي لو طُبِّق شرع الله لأقيم عليه حد الجلد ثمانين جلدة. ذكرني هذا الموقف بكلمة قالها جلاد مصر الأول شمس بدران لأحد المعتقلين في السجن الحربي قال له: ماذا نفعل بكم يا أولاد كذا؟ لقد سجناكم وجلدناكم وشردناكم، فماذا نصنع بكم؟ فقال له الأخ: اذهبوا بنا إلى مكان ليس فيه الله، إن الله معنا أينما كنا وحيثما حللنا، ومن كان الله معه فمن عليه؟

في الخامس من رمضان سرى خبر بين نزلاء السجن بأن هناك مائة وثمانية عشر سيرحلون مساء هذا اليوم إلى سجن آخر؛ لأنهم من الخطرين على الأمن، ودب الحزن في قلوبنا؛ لأن الترحيل فيه تمزيق للألفة التي قامت بيننا، فما بالك بمثلي من الذين يحتاجون إلى من يقوم على خدمتهم.

استعددنا للرحيل بعدما صلينا الفجر، ولكنهم جمعونا في فناء السجن، وكان يومًا عاصفًا تحمل رياحه الهوج والرمال والغبار، وظللنا واقفين في هذا الجو المكفهر، وفي هذا العراء حتى بعد الظهر، ثم جيء بسيارة الترحيل ذات المقاعد الخشبية الخشنة، فحُشِرنا فيها حشر الأنعام، وانطلقت بنا السيارة ونحن يلفنا صمت أعمق من صمت المقابر، واستقر بنا المقام أمام أحد السجون المشهورة في مصر، إنه أبو زعبل ونزلنا هناك وكان النهار قصيرًا، ودخلنا أحد العنابر ولم يكن يتسع لهذا العدد، فقام بعض المهندسين المعتقلين بتوزيعنا على عدد البلاط بحيث إننا تلاصقنا لو أراد أحدنا أن يغير جنبه الأيمن إلى الأيسر لا يستطيع إلا إذا جلس أولًا، ثم يتحول إلى الجانب الآخر، وبعض الأفراد لم يكن لهم مكان، فاضطروا إلى أن يناموا في دورة المياه، وكان بها مرحاض، فكان كل واحد منهم يضع جسمه داخل المرحاض ورأسه خارجه، وقد يعتصرك الألم اعتصارًا عندما تعلم أنه لم يكن بالسجن طعام نتناوله عند الإفطار لولا أن تداركنا الحق بلطف بِرِّه فجاء لنا بعض المعتقلين ببعض كِسَرِ الخبز الجاف وبعض حصيات الملح!!

وصبيحة اليوم الثاني نودي علينا وعلى المعتقلين جميعًا في هذا السجن، فوقفنا في الفناء الفسيح وكلٌّ يحمل أمتعته، وكنا ألوفًا، قالوا: إنه بلغة السجون تسكين جديد، وتم التسكين وقد أصابنا الإعياء واللغوب، وكان المقصود الأهم أن تهزم العافية في الأجسام المتعبة، لا نوم ولا طعام ولا هواء، إنه تخطيط لموت بطيء. إنهم غلاظ الأكباد، قساة القلوب، جفاة الطباع، قُدَّت قلوبهم من حديد، بل إن الحديد يألم عندما تشبه به قلوبهم.

كان هذا السجن -أعني سجن أبي زعبل- أقل سوءًا من سجن طرة، وذلك لأن عنابره نظيفة، ودورات مياهه جارية، كان المرحلون إلى أبي زعبل يعلمون أنهم جيء بهم ليمكثوا مدة طويلة، فكان السجن يسمى بالمخزن، وكان فناؤه يسمى المحمصة لشدة ما وقع فيه من العذاب.

وتمر الأيام بالشيخ ثقيلة مريرة، يتجرع فيها هو وكل المعتقلين معه مرارة السجن ووحشيته وزاد على ذلك مرور البلاد بحالة الهزيمة من اليهود في حرب ١٩٦٧م، وما أعقب ذلك من التكدير عليهم، فصارت الأيام بطيئة، حاول خلالها الشيخ جمع شتات من معه بإقامة الدروس الوعظية لهم وحلقات لتحفيظ القرآن، ثم محاربة الأفكار الهدامة كالبهائية التي كانت له معهم صولات وجولات تمتد من بعد العشاء حتى الفجر، وكانت الغلبة دائمًا للإسلاميين؛ لأن الحق معهم.

ويستكمل الشيخ كلامه عن تلك المحنة فيقول: وتمر الأيام في المعتقل وذات يوم نودي على أكثر من ثلاثمائة من المعتقلين الإسلاميين، وذلك للإفراج عنهم، ثم توالت بعد ذلك كشف الإفراج على مستوى السجون، ولم أكن من بين هؤلاء الذين أُفرج عنهم في تلك الآونة، وبقيت أعداد قليلة، والتقى بي قائد السجن ذات يوم، وقال لي: هل بينك وبين وزير الداخلية شيء من سوء التفاهم؟ وكان يومها شعراوي جمعة، فقلت له: إنني لم ألتقِ به ولم يجمعني به مكان، فقال: إنني كلما رشحت اسمك للإفراج أشار بقلمه الأحمر إلى اسمي،

فقلت له: إذا أذن الله بالإفراج فإنه لا راد لمشيئته، ولا معقب لحكمه، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

وتحرك الفلك ومضت الأيام، ونودي على أسماء كثيرة في المعتقل كنت واحدًا منهم، وظنناه إفراجًا، ولكنه كان ترحيلًا من سجن أبي زعبل إلى سجن طرة، وجيء بعربات الترحيل ليُشحن الناس فيها كالسائمة، وبينما نحن في ساحة السجن استعدادًا للرحيل إذا بي أفاجأ بمن يهمس في أذني ويقول: أنا ضابط الترحيل، وإنني أذاكر وعندي امتحان في الشريعة، وسأجلسك بجانبي في السيارة لتشرح لي أصول علم الميراث، . . . وأظهرت استعدادي وأجلسني بينه وبين السائق، وفي المسافة بين السجنين كنت قد أعطيته فكرة واضحة عن ميراث أصحاب الفرائض والعصبات، واخترقت السيارة أبواب السجن العتيق، ثم ألقت برجالها ودلفنا من السيارة وعدنا إلى طرة مرة أخرى، ورأى ذلك الضابط أن يرد إليَّ شيئًا من المعروف، فحمل عني المتاع حتى دخلنا إلى مكان لا يعرف الخليل فيه خليله، ذلك هو مكان التفتيش حيث نجلس القرفصاء، ويقوم بعض القائمين على شئون السجن بتفتيشنا تفتيشًا دقيقًا؛ خشية أن يكون مع أحدنا شيء من الممنوعات، كالقلم والورق والسكين والنقود، فكل هذه تعتبر في سجون مصر مخالفات كبيرة لا يُسمح بدخولها في العنابر والزنازين.

ومع مرور الأيام الثقيلة صرَّحت إدارة السجن للمعتقلين بالزيارة، وعلى المعتقل أن يستعد ليزوره بعض أهله الأقربين، وفوجئت ذات يوم بأنني مطلوب للزيارة، فبعدما يقرب من عامين رأيتني وجهًا لوجهٍ أمام إخوتي ومعهم ابني الذي وُلد دون أن أراه، والذي تركته جنينًا في قرار مكين إلى قدر معلوم، ولقد رأيته في المنام قبل الزيارة يفصل بيني وبينه الباب الحديدي للسجن، ومد يده من بين القضبان فصافحته، وسألته عن اسمه فقال لي: أنا ابنك سند.. وعلمت أن هناك من الله سندًا وعونًا لكل مغلوب ومظلوم.

وانتهى وقت الزيارة الذي استمر دقائق معدودات فكانوا يحسبون علينا الزمن حسابًا دقيقًا، ونادى السجان معلنًا انتهاء الزيارة، واختطف ابني من بين ذراعي ولم أجد بين ذراعي سواي، وودعني إخوتي بعد أن أوصاني شقيقي الأكبر بالصبر والاحتمال والتسليم والتفويض لله تعالى، وتلا على مسمعي قوله جل شأنه: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ۝١٢٦ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ۝١٢٧ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٦-١٢٨].

الليل مهما طال فلابد من طلوع الفجر، ولله تعالى في كل نفس مائة ألف فرج، استيقظت صبيحة يوم السبت الثلاثين من شهر مارس سنة ١٩٦٨م وقد طالعتنا صحف الصباح أن الزعيم الأوحد [جمال عبد الناصر] سيلقي بيانًا مساء هذا اليوم، وبينما أنا أجلس مع بعض الإخوة نطالع الصحف، وقد أرسلت الشمس أشعة هادئة إذا بي أسمع اسمي في مكبر الصوت فذهبت إلى مكاتب الإدارة، فقالوا لي: أحضر أمتعتك، ولم أسأل لماذا؟ فقد سئمنا السؤال، وأخذني أحد المسئولين في الأمن، حيث ركبنا سيارة خاصة وكنا ثلاثة: السائق والحارس وأنا، وساد الصمت العميق فلم يتكلم أحد منا بكلمة، وأخذت الأفكار تداعب عقلي، إلى أين؟ أهذا إفراج، لو كان ذلك كذلك لسمعت كلمة تهنئة، إذن فماذا يكون؟ أهو ذهاب إلى سجن القلعة للتحقيق في قضية اكتشفوها حديثًا؟ أهو ذهاب إلى سجن أبي زعبل مرة أخرى حيث التخزين إلى أجل غير مسمى؟ كل هذه الأفكار والسيارة تطوي الأرض تحت عجلاتها طيًا إلى أن وقفت بنا في مكان لا أعرفه، ورأيت بعض أفراد يفتحون باب السيارة ويحملون عني الأمتعة وقد وضع أحدهم ذراعه في ذراعي، واقتادني إلى داخل المبنى، وقد اعتدت أنني إذا دخلت في مكان مجهول أعلم أن الداخل فيه مفقود والخارج منه مولود، اعتدت أن أردد هذا الدعاء: يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث، وهمس بعضهم في أذني قائلًا: أبشر فإنه إفراج، ولكنك ستنتظر في هذا المبنى قليلًا لمقابلة تتم بينك وبين مدير

المباحث، وبعد برهة تم اللقاء، وإذا به يُلقي عليَّ محاضرة في بطولة الزعيم الملهم، وأن العرب لم يكن لهم وزن في العالم لولا جمال عبد الناصر. . . . ويعلم الله ويشهد رسوله أن قائل هذا الكلام قد لا يؤمن به.

وما أن انتهى حسن طلعت من إلقاء محاضرته حتى شعرت كأنني وضعت على كاهلي جبلًا ثقيلًا، ولما أذن لي بالانصراف، ظننت أنني سأنصرف إلى بيتي، ولكن قيل لي: إنك ستنتظر حتى الساعة السادسة مساء لمقابلة بينك وبين السيد الوزير، ومرت الدقائق كأنها شهر والساعات كأنها دهر، واقترب الوعد المضروب بيننا، والتقيت به في مكتبه، وأنا أسأل الله العافية.

ولقد مد الرجل يده وبها عشرون جنيهًا وقال لي: خذ هذه النقود البسيطة واستعن بها في نفقة أولادك فسألته: وبأي وجه أستحقها؟ إن كانت على سبيل الصدقة فلست فقيرًا، فأرجو أن تعافيني من هذا الحرج، وألحَّ في الأخذ وألححت في الرد، وعافاني الله منها.

وانتهت الزيارة وانصرفت حيث كان بصحبتي أحد الضباط، وتوجهنا إلى المنزل بعد غيبة استمرت حولين كاملين، وطرقتُ باب المنزل وكانت الزيارة مفاجئة للأهل، أما الأم فقد انعقد لسانها من الفرحة فلم تستطيع الكلام، وأما الإخوة فقد فاضت من أعينهم دموع الفرحة، وصليت لله ركعتين، وقلت: الحمد لله على جزيل نعمه، فقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن، يا فاطر السماوات والأرض! أنت وليي في الدنيا والآخرة توفني مسلمًا وألحقني بالصالحين.

ويعود الشيخ إلى مسجده ومنبره وذاع صيته بين الناس يأتونه من كل مكان في ربوع مصر، وصارت أشرطة خطبه ودروسه تتناقل بين الناس بأسرع مما يكون فما أن تنتهي الخطبة حتى تتداولها الأيدي والأسماع بشغف في كل مكان في مصر، بل وخارجها، في أغلب البلاد

العربية والإسلامية، بل وصلت أشرطته إلى أقصى الأرض في اليابان وأمريكا وغيرها من البلاد التي أحبت الشيخ حبًا خالصًا، ولا تكاد تسير في أي شارع من شوارع القاهرة أو الأحياء الفقيرة إلا وتسمع صوت الشيخ في كل اتجاه، بل وفي وسائل المواصلات الخاصة، وكان للشيخ درس مسائي أسبوعيًا يناقش فيه المشاكل الاجتماعية التي يعيشها المجتمع، ويشارك في وضع الحلول المناسبة لها وكثير من المشكلات الأسرية التي يعجز كبار العلماء عن حلها، كما كان يشارك في حل المشكلات بين الأزواج -وما أكثرها- حتى لا يصلون إلى الطلاق وخراب البيوت، وغير ذلك من المشاكل التي كانت تعرض عليه، وتحل بفضل الله على يديه.

وما أن يعود الشيخ إلى منبره يدعو إلى الله على بصيرة ومنتقدًا الأوضاع الخاطئة التي تحدث في البلاد حتى يُستدعى إلى التحقيق معه، ولا تمر خطبة إلا ويستدعونه للتحقيق في كل كلمة يقولها حتى جاء شهر أغسطس ١٩٨١م صعد المنبر، وكانت درجة سخونة الأحداث وارتفاع درجة حرارتها يشعر بها الشيخ تحت أقدامه، وكل شيء ينذر بوقوع أشياء جسيمة وخطيرة... ووجَّه كلامه إلى الظالمين في كل مكان، وكأنه يلقي خطبة الوداع على الحاضرين. .

وتحمل الأيام معها نذير البلاء، ففي ليلة الأربعاء الثاني من شهر سبتمبر ١٩٨١م والشيخ فرغ من بعض أشغاله وذهب للنوم إذ سمع أصوات أقدام، تكاد تدك البيت دكًا، حتى كأن أصواتها أصوات جند يقتحمون موقعًا حصينًا، وعلم الشيخ منذ الوهلة الأولى أنه بلاء قد وقع، وسأل الله أن يلهمه الصبر عليه، وسرعان ما سمع بالباب طرقات عنيفة تكاد تصخ الآذان صخًا، فما أن فتح الباب حتى فوجئ بهجوم عنيف بعدد كبير من الجند، وقد دخلوا البيت وأخذ كل موقعه في أرض المعركة، دخلوا على سبعة أطفال فأفزعوهم وأقلقوهم، وكانت ساعات رهيبة كأنها الشدائد التي تذهل فيها كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها.

يقول الشيخ: أمرت أن أرتدي ثيابي للذهاب معهم فعجلت بذلك حتى لا أترك لأهلي لحظةً للبكاء والحزن العميق، وأخذوني بينهم... وما أشبه هذه الساعة التي خُطفت فيها من بين أطفالي السبعة وجُذبت بعنف من قوم غلاظ شداد -لو وُزِّعت قسوة قلب واحد منهم على أهل الأرض ما بقي للرحمة سبيل إلى قلب إنسان ممن يسكنون تلك المعمورة- لقد أتونا بغتة دون مقدمات، ولو أنهم أرسلوا إليَّ بالحضور إليهم ما امتنعت لحظة فكثيرًا ما أرسلوا وذهبت وما تأخرت، إن الذي كان له أسوأ الوقع في قلبي توديع هؤلاء الأطفال الذين باتوا يشكون لربهم ظلم العباد.

حُملت في سيارة بين الحرس المسلح، وكأنني مجرم حرب أو هارب من وجه العدالة، وأخذت أقرأ سورة ﴿يسٓ﴾. فقال لي الحرس: لا تحسبن علينا، فنحن ننفذ الأوامر. ووجُدت ألا أنشغل عن قراءة القرآن بالرد عليهم، فقد أسلمت كياني كله لمن بيده الأمر وأنا لا أدري مَنْ هؤلاء الذين أجدني بينهم، كما لا أدري إلى أين يذهبون بي ولماذا؟ وما المصير؟

ووقفت بنا السيارة أمام مكان علمت فيما بعد أنه قسم الوايلي، وجلست وحدي في مكان شديد الحرارة أغلقت أبوابه ونوافذه وتصبب الجبين عرقًا غزيرًا، وفتح الباب بعد ساعة ليدخل عليَّ أفراد عرفت بعضهم ولم أتشرف بمعرفة الآخرين. كان معظمهم من الشباب الذي ضبط متلبسًا بصلاة الفجر، وتحركت الساعات وصلينا الفجر، وأُحضر لنا سيارة ذهبت بنا إلى مكان كنا نحن أول داخليه، لقد تجاذبنا أطراف الحديث فيما بيننا، ما الذي جمع هذه الأفراد قوم متدينون وآخرون سياسيون شباب وشيب، ولكن كانت نهاية المطاف: إن الأمر لله وحده، وغدًا تتبين الحقائق وينجلي الغموض.

وتوقفت بنا السيارة أمام مؤسسة السجون في طرة وأمام سجن الاستقبال وتحت حراسة مشددة وجنود مدججين بالسلاح كأنهم يستعدون لغزو معركة فاصلة على أرض فلسطين، في هذا الجو الرهيب وتلك الأصوات التي ارتفعت تهتك حجاب السكون أُمرنا

بالنزول واحدًا واحدًا حتى يفتشونا تفتيشًا دقيقًا حتى يدخل أحدنا إلى الزنزانة وليس معه أي شيء إلا ثيابه التي تستره، فالقلم ممنوع والورق ممنوع، وكل شيء ممنوع، وبعد أن تم التفتيش تحت الزجر والنهر والردع وزعنا على الزنازين، وأغلق علينا باب الزنزانة وقد صُرف لكل واحد منا بطانية للنوم عليها والغطاء بها، وما أن جلسنا وتعارفنا حتى أخذ النعاس يغالبنا، فقد كانت الليلة التي أُخذنا فيها من ديارنا وانتزعنا منها انتزاعًا من بين أحضان أبنائنا، كانت ليلة عصيبة على الأنفس والأبدان ولم ندرِ إلا وقد غشانا النعاس، واستيقظنا على وقع أقدام الحراس تذرع المكان جيئة وذهابًا، كما كان لأصواتهم وقع ثقيل على الآذان ومرعب ومفزع للنفوس، وكأننا أسرى حرب في أيدي الأعداء، وما أن استيقظنا حتى أخذ كل منا يسأل الآخر: لماذا جيء بنا إلى هذا المكان؟ فمن قائل: إنه بسبب أحداث الزاوية الحمراء وما سمي بالفتنة الطائفية!! ومن سائل: لماذا جيء بالشيوعيين معنا؟ ومن قائل: ولماذا جيء بالسياسيين والنصارى؟

إنها أنماط من البشر يموج بعضها في بعض لا يكاد يجمع بينها قاسم مشترك أعظم، لقد اعتقل في هذه الليلة على حد قولِ المسئولين ١٥٣٦ شخصًا، اختلفت مذاهبهم ومشاربهم، وتناقضت أفكارهم واتجاهاتهم، ولكن غدًا سيظهر ما كان مستورًا، وتتضح الأمور، ولم تغرب الشمس في هذا اليوم يوم الخميس الثالث من سبتمبر حتى كانت المجاري قد طفحت، فأغرقت البطاطين، وكان موقفًا عصيبًا فباب الزنزانة قد أغلق، والأرض قد غطتها المياه النجسة، وماء الشرب قد انقطع، وقد جاءوا لنا بطعام تأباه النفوس النظيفة، وصفه أحد المسجونين بقوله:

أما الجبن فهو قطعة من جبال العصور الوسطى لا يعرف حقيقته إلا علماء طبقات الأرض، وأما الفجل فإنه خشب مبلول، ورءوسه تصلح أن تكون أرجلًا للطبالي، وأما الفول فإنه يصلح لفض المظاهرات السلمية، وأما البصارة فهي طعام الأثيم تغلي في البطون كغلي الحميم، وأما اللحوم فما أكل منها إنسان صنحيح إلا أصيب بنزلة معوية حادة.

لقد جاءوا لنا بخبز هو إلى قطع الأسمنت أقرب، وجبن انطبق عليه وصف الشيخ، وعسل أسود حامض تشمئز النفوس من رائحته، ولكن فمن اضطر في مخمصة فإنه لابد أن يُكره على الأكل.

لقد كان اليوم يوما عبوسًا قمطريرًا وكانت الليلة ليلاء، وكان شرها مستطيرًا، ولكنا كنا نستعذب كل هذا العذاب ابتغاء مرضاة الله؛ إذ كان هدفنا ساميًا طاهرًا زاكيًا، فكان سجننا كسجن يوسف الصديق عَلَيْهِ السَّلَامُ .

علمت أن المصلين في مسجد عين الحياة قاموا بمظاهرات بعد صلاة الجمعة لما علموا أنني قد تم إلقاء القبض عليَّ كما قام المصلون في مسجد النور بنفس المظاهرات احتجاجًا على اعتقال عدد من الدعاة إلى الله، وكان الناس ينتظرون الخطاب الذي سيلقيه السادات يوم السبت الخامس من سبتمبر بثورة ثالثة، فتكون الثورة الأولى يوم الثالث والعشرين من يوليو سنة ١٩٥٢، والثانية يوم ١٥ مايو سنة ١٩٧١، والثالثة يوم ٥ سبتمبر ١٩٨١، وهكذا يفعل المنافقون بالمجتمعات، إنهم موجودون في كل زمان، إنهم عالة على المجتمع في السراء، وسوس ينخر في عظام الأمة في الضراء، هل يمسى يوم الظلم ثورة، ثورة على من؟ ثورة على المظلومين؟ أم ثورة على المبادئ والقيم؟ إن كان كذلك فإنها ثورة ظالمة والظلم مرتعه وخيم، إن عبد الناصر كان ظالمًا، ولكن السادات قنَّن هذا الظلم وسنَّ له القوانين الجائرة.

لقد أجرى استفتاء على القرارات التي اتخذها ضدنا وأدخلنا بمقتضاها السجون حتى صارت مهزلة استفتاء في مصر تُضْحِك الثكالى، أيستفتى على الظلم وتكون نتيجة الاستفتاء كالعادة: خمس تسعات؟ !! إن هذا لشيء عجاب!!ووقف السادات يخطب وقد فقد صوابه، وطاش لُبُّه، وكأنه أصيب بالسعار فأنشب أنيابه ومخالبه فأوعد وهدد وأرغى وأزبد، وحمل على الجماعات الدينية وخصَّ الإخوان المسلمين بنصيب الأسد، كما سفَّه كبار الدعاة الاسلاميين فرمى هذا بالجنون وذاك بالبذاءة، وذلك بأنه مرمي كالكلب، وبقي أن يقول: ما

علمت لكم من إلهٍ غيري أو أن يقول: أنا ربكم الأعلى، كما خصني في بيان من بياناته بتهمة كاذبة خاطئة ذكر فيها أن الرئيس السوداني جعفر نميري قد شكاني إليه، وأنني أهاجمه، ماذا يحدث لو صح هذا؟ أهناك أحد فوق مستوى التوجيه؟ أليس من عادة الأمراء والصالحين أن يسألوا العلماء المخلصين النصح؟

لقد كان لخطاب السادات في ٥ سبتمبر ١٩٨١م أسوأ الأثر على قلوب الناس، فقد أوعد بأنه لن يرحم، ونسى خلقه، نسي أن من لا يرحم لا يُرحم، ونسي أن الرحمة لا تنزع إلا من شقي.

مرت بنا الأيام ثقيلة متباطئة كأنها سلسلة من الجبال تمشي الهوينا فالعيش في السجون نكد، والناس قد ذبلوا وصاروا أشباحًا خاصة كبار السن الذين أصبحوا لا يستطيعون أن يقاوموا شدائد الحبس، والذين قد أصيبوا بأمراض مزمنة، وأصبح الطعام لا يلائم حالتهم الصحية، فمريض الضغط لا يجد إلا جبنًا قد قطع من جبال الملح، ومريض السكر لا يجد إلا عسلًا أسود حامضًا تزكم رائحته الأنوف، ولولا أن تداركنا الحق بلطف بِرِّه لكنا تحت الثرى أجسامًا هامدة.

أعلنوا أن التحقيقات قد بدأت وبين آونة وأخرى كانوا ينادون على الأسماء التي سيحقق معها، وكان موعدي مع التحقيق يوم الخميس ٢٤ سبتمبر ١٩٨١م ففي صبيحة هذا اليوم جيء بقافلة من السيارات، وفي موكب مسلح تتقدمه الدراجات البخارية التي تمرق مروق السهم من الرمية، وقد انطلقت الصفارات تفسح الطرق لسيارتنا التي حُشِرنا فيها حشرًا، وأخذ الموكب يتهادى شيئًا فشيئًا لا يخضع لقواعد المرور؛ لأنه فوق القوانين كلها حتى استقر بنا المقام أمام المبنى الذي سيحقق معنا فيه، ودخلت على المحقق ووجَّه أسئلته، وكان أكثرها يدور حول الخطب، وتم التحقيق وعدت إلى السجن أنتظر ما سوف تتمخض عنه القضايا، وكان الإيمان يضع نصب عيوننا قوله تعالى: ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [التوبة: ٥١].

ووعدتنا إدارة السجن بمناسبة قرب عيد الأضحى المبارك بفتح باب الزيارات، حيث يزورنا الأهل، ولكنهم جعلوها زيارة سلكية، أي: يحول بيننا وبينهم حاجز سلكي لا يسمع كل منهما الآخر إلا إذا تكلم بصوت مرتفع فما ظنك بأصوات العشرات ترتفع في وقت واحد، وهو وقت الزيارة، وأخذ كل منهم ينادي على الآخر يسأله عن حاله وحال أولاده وذويه. . الحق أن هذه الزيارة التي وُعدنا بها كان لها أسوأ الأثر في نفوسنا، حتى أنني أذكر عندما التقيت بالدكتور عبد الله رشوان وكان معتقلًا معنا، قلت له: هل تزور إن شاء الله؟ فقال: لا إنها زيارة لا تليق إلا بالقردة ولسنا قردة.

وعقدت كل زنزانة جلسة في تلك الليلة ليناقشوا تلك الزيارة هل يقبلونها؟ وعقدنا جلسة في زنزانتنا واختلفت الآراء بيننا، فمنا من قبل الزيارة وقال: شيء أحسن من لا شيء، ومنا من رفضها وقال: إن ضررها أكثر من نفعها إذ أنها ستثير الأحزان، ولن نتمكن من إجراء أي حديث مع الأهل حيث اللقاء غير مباشر، وسُئلت الرأي فقلت: أنا لا أقبل ولا أرفض، ولكن أفوض الأمر إلى الله وحده، ودعوت الله قائلًا: اللهم رضِّنا بقضائك وبارك لنا في قدرك، حتى لا نحب تعجيل ما أخرت ولا تأخير ما عجلت.

وجاء الليل وقد أغلقت أبواب الزنازين، والزيارات ستبدأ صبيحة الغد والقلوب واجفة، وقد برح بها الشوق للأهل والأبناء، ولكن لا يعلم ما في غدٍ إلا الله وحده. . وقبيل الفجر جاء من يوقظني ويكاد يصاب بالجنون من شدة الفرح، ويقول: قُمْ، لقد قُتل السادات، ولكني لم أعر التفاتًا فقد ظننت أن هذا نوع من الشائعات التي يُقصد بها تغيير الجو الكئيب، ولكني صحوت على المعتقل كله يهتف بصوت واحد: لا إله إلا الله. . وكادت جدران السجن تهتز من هدير الحناجر التي تهلل وتكبر، حتى اضطر مأمور السجن أن يذيع نبأ موجزًا قال فيه: لقد توفي الرئيس السادات، وأعلنت حالة الطوارئ من أسوان إلى الإسكندرية، وازدادت الأصوات حماسة، فقد أصبح الخبر يقينًا لا مراء فيه، وسبحان صاحب العزة القائمة والمملكة الدائمة.

.كنا ممنوعين من سماع الإذاعة وقراءة الصحف بحيث صرنا ممنوعين من الاتصال بالعالم الخارجي، لا ندري عنه شيئًا. . وهكذا كانت المأساة بل الملهاة، حاكم استبد برأيه حتى جاء اليوم الذي قال فيه: ﴿ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ ﴾ [قٓ: ٢٩].

وقال فيه: لن أرحم، وبلغ من نفاق المنافقين أن بعضهم أراد أن يلقبه بسادس الخلفاء الراشدين، كما نسبوا فاروقًا من قبله لآل البيت الطيبين الطاهرين، والتاريخ حافل بمفتريات الطغاة.

لقد قُتل السادات بين رجال جيشه وفي حصنه المنيع، وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله، فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا، وقد خاب من افترى، قتل يوم الزينة بعدما جمع الناس لميقات يوم معلوم، وعلى مرأى ومسمع من العالم أجمع، وعن طريق أجهزة الإعلام.

وفي السجن ألغوا الزيارة التي وعدونا بها، فقد حدثت أحداث جسام، فقد رحِّلنا إلى سجن أبي زعبل، ومرت بنا الذكريات الأليمة عبر السنين الخاليات، فهذا هو السجن الذي كنا فيه من قبل سنة ١٩٦٧م وقد ساءت حاله حتى أصبح لا يطاق، حيث أسراب الذباب نهارًا، وجحافل البعوض ليلًا، بالإضافة إلى ما تحتويه دورات المياه من سوء دونه أي سوء، أضِفْ إلى ذلك سوء التغذية وما حل بنا من إرهاب شديد، فقد كان ينادى على بعض الأسماء في منتصف الليل ليذهب بهم إلى سجن الاستقبال، حيث دارت رحى العذاب بعنف، ولقد عشنا في هذا الجو الكئيب من التاسع والعشرين من أكتوبر إلى السابع والعشرين من نوفمبر، حيث ذهب بنا إلى مستشفى ليمان طرة، ولقد كان الله لطيفًا بنا حيث لم نمكث في هذا المستشفى أكثر من يوم، ولست أدري لماذا سموه مستشفى، فليس فيه ماء ولا غذاء ولا هواء ولا دواء ولكننا لا نقف كثيرًا عند الأسماء.

ولقد ذُهب بنا من هذا المستشفى إلى سجن ملحق طرة حيث غادره السياسيون الذين تم الإفراج عنهم في محفل رهيب.. ومكثنا بالملحق يومًا ثم ذُهب بنا إلى عنبر المعتقلين بالقصر العيني، حيث تنفسنا الصعداء، فكانت الزيارة لا تنقطع من الأهل والأحباء والأبناء

والأصدقاء، وتم الإفراج عنا بعد ذلك في ٢٧ يناير ١٩٨٢م خرجت من السجن إلى البيت، ولكن لم يصرح لي بالعودة إلى المسجد وظللت رهين البيت.

(إلى هنا انتهى كلام الشيخ في كتابه الرائع «قصة حياتي»).

ترك الداعية الكبير الراحل ١٠٨ كتاب تناول كافة مناهج العمل والتربية الإسلامية، وكان في كل هذه الكتابات ميسِّرًا لعلوم القرآن والسنة، مراعيًا لمصالح الناس وفِقهِ واقعهم بذكاء وعمق وبصيرة. كما توج جهوده العلمية بمؤلفه الضخم في عشرة مجلدات «في رحاب التفسير» الذي قام فيه بتفسير القرآن الكريم كاملًا، وهو أول تفسير يعرض للجوانب الدعوية في القرآن الكريم.

إلى جانب ما تركه الشيخ من كتب؛ فقد ترك مكتبة من الخطب والدروس مسجلة على أشرطة كاسيت لا تزال حتى الآن تطبع وتوزع على الرغم من مرور سنوات طوال على وفاة الشيخ، وعجبًا أن تسمع الشيخ بعد مرور سنوات طويلة يتحدث وكأنه يتكلم عن واقع الأمة في وقتها الحالي، ولا تزال كلماته الرائعة تشنف الآذان، وتسري إلى القلوب في روعة واقتدار، ويذكر للشيخ أنه دائم على محاربة البدع والخرافات التي يبتدعها الصوفية وأمثالهم، ويقف بالمرصاد إلى محاولات النصارى التشكيك في دين الإسلام، فكانت له صولات وجولات، وكم أسلم على يديه من الكفار والملحدين والنصارى وغيرهم ممن يدينون بديانات مختلفة.

نهاية رحلة حياته:

كانت نهاية الشيخ المجاهد الراحل بحق هي حسن الختام. . فقد توضأ في بيته لصلاة الجمعة وكعادته، كان يتنفل بركعات قبل الذهاب إلى المسجد، فدخل الصلاة وصلى ركعة، وفي الركعة الثانية، سجد السجدة الأولى ورفع منها، ثم سجد السجدة الثانية وفيها أسلم الروح إلى بارئه. . متوضئًا مصليًا ساجدًا. . وبقدر ما كان الحزن يعتصر المعزّين. . بقدر ما

كانت سعادة الكثير منهم بهذه الخاتمة الطيبة الحسنة. . فالمرء يُبعث على ما مات عليه، لذلك فإن الداعية الشهير الشيخ محمد حسان عندما حضر إلى العزاء ليلة الوفاة قال لأبنائه: لم آتِ مُعزيًا. . وإنما أتيت مهنئًا. . وحُقَّ لكم أن ترفعوا رؤوسكم؛ لأنكم أبناء المجاهد الطاهر عبد الحميد كشك.

صورة أخرى من جموع مسجد عين الحياة، حيث توافد مئات الآلاف من شتى أرجاء الجمهورية، بل وحضر الكثيرون من الدول الإسلامية لتقديم العزاء في الشيخ الجليل الراحل.

رحم الله شيخنا الجليل الراحل الشيخ عبد الحميد كشك
وأسكنه فسيح جناته.



المصادر:

- «قصة أيامي» للشيخ كشك الصادر عن المختار الإسلامي.
- موقع الشيخ كشك على الإنترنت.
- من أعلام الحركة الإسلامية.
- الشبكة الدعوة على الإنترنت.



الشيخ العلامة/ عبد الرزاق عفيفي

هو العالم الجليل والسلفي النبيل عبد الرزاق بن عفيفي بن عطية بن عبد البر بن شرف الدين النوبي، وُلد في الربع الأول من القرن الرابع عشر الهجري، وعلى وجه التحديد في السابع والعشرين من شهر رجب سنة ١٣٢٣ هـ، الموافق ١٦ ديسمبر سنة ١٩٠٥ م، في قرية شنشور مركز أشمون التابع لمحافظة المنوفية، وهي إحدى محافظات مصر.

نشأ الشيخ عبد الرزاق في بيئة معطرة بأنفاس القرآن الكريم وسط أسرة محافظة، وفي مجتمع ريفي بعيد عن فتن الحواضر ومفاسدها.

ففي قرية شنشور، تلك القرية الهادئة المتواضعة التي تترابط أسرها وتمتزج في كيان واحد وتتنسم عبير الإخاء والود، في هذه القرية نشأ الفتى عبد الرزاق عفيفي، نشأة صالحة، تغمرها العاطفة الدينية الجياشة، وتوثق عراها سلامة الفطرة وحسن الخُلُق والبعد عن الخرافات والخزعبلات، وكان لهذه النشأة الطيبة أثرها البالغ في حياة المترجَم له، حيث بدأ حياته العلمية بحفظه لكتاب الله تعالى حفظًا متقنًا مع تجويده على يد عدد من مشايخه آنذاك ومنهم الشيخ محمد بن حسن عافية والشيخ محمد بن عبود عافية، هذا فضلًا عن والده الذي قام على تربيته وتنشئته أحسن ما ينشأ الفتيان الذين في مثل سنه.

ينتمي الشيخ عبد الرزاق عفيفي إلى أسرة كريمة، طيبة الأخلاق، محمودة السيرة، حسنة السمعة، متمسكة بالأخلاق الإسلامية وأخلاق أهل القرية والريف التي لم تتلون بمظاهر الحضارة الكاذبة.

فوالده هو الشيخ عفيفي بن عطية النوبي، من مشاهير قرية شنشور وصالحيها، كان حافظًا لكتاب الله تعالى، وكان الشيخ عبد الرزاق كثيرًا ما يتحدث عن والده للخاصة من طلابه، وقد ذكر فضيلة الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن البسام أنه رأى والد الشيخ عبد الرزاق

عند أول قدوم له إلى المملكة سنة ١٣٦٨هـ، وهي نفس السنة التي قدم فيها الشيخ عبد الرزاق إلى أرض الحرمين الشريفين، وكان والد الشيخ عبد الرزاق يرتدي العمامة البيضاء المستديرة فوق رأسه، وهي لباس أهل مصر آنذاك.

حصل على شهادة التخصص في الفقه وأصوله (الماجستير)، ثم العالمية (الدكتوراه) من جامعة الأزهر، وعمل مدرسًا في المعاهد العلمية الأزهرية. والشيخ أحد علماء أول هيئة لكبار العلماء بأنصار السنة المحمدية مع جمع من العلماء الكبار أمثال: الشيخ أحمد شاكر، والشيخ حامد الفقي، اختير نائبًا أول لرئيس الجماعة في صفر ١٣٦٥هـ، في الوقت الذي كان فيه رئيس الجماعة لفرع محرم بك بالإسكندرية. - وبطلب خاص من مفتي المملكة العربية السعودية آنذاك الشيخ محمد بن إبراهيم، سافر الشيخ ومعه الشيخ محمد خليل هراس إلى السعودية للتدريس بدار التوحيد بالطائف. وفي عام ١٣٧٠هـ نقل للتدريس بالمعاهد العلمية وكلية الشريعة بالرياض في٤صفر ١٣٧٩هـ، ثم أُختير الشيخ بالإجماع رئيسًا عامًا للجماعة خلفًا للشيخ حامد الفقي، ثم تدرج في سلك التدريس في المملكة العربية السعودية إلى أن أصبح مديرًا للمعهد العالي للقضاء عام ١٣٨٥هـ، كما شارك في اللجان المتخصصة لوضع مناهج التعليم بالمملكة العربية، وفي عام ١٣٩١هـ نُقل إلى الإدارة العامة للبحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد وعُيِّن نائبًا لرئيس اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء، مع جعله عضوًا في مجلس هيئة كبار العلماء بالمملكة العربية السعودية، والذي ظل يشغله حتى يوم وفاته [٢٥ ربيع الأول ١٤١٥هـ)]. وقد تخرج على يديه جيل من علماء المملكة والعالم الإسلامي المعروفين، مثل: الشيخ عبد الله بن جبرين، الشيخ صالح اللحيدان، الشيخ عبد الله بن حسن بن قعود، الشيخ عبد العزيز آل الشيخ، الشيخ عبد الله بن غديان، الشيخ صالح السدلان، الدكتور صالح الفوزان، الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، والشيخ مناع القطان. . . وغيرهم الكثير.

كان الشيخ رجلًا متميزًا في هيئته ولباسه يرتدي ما يراه متفقًا مع مكانة العلم والعلماء وظل متمسكًا بهذه الهيئة المتميزة من اللباس إلى آخر حياته المليئة بالجد والكفاح والمثابرة.

كان الشيخ رجلًا مهيبًا، من رآه بديهة هابه، فيه عزة العلماء، لا يتزلف إلى أصحاب المناصب زائرًا أو مزورًا، يقول أحد تلاميذه: إن الشيخ كان يفرض احترامه على طلابه، وكان الطلاب يهابونه حياء، ويقدرونه في أنفسهم، وما سمعت منه كلمة مؤذية قط.

لقد كان الشيخ مهيبًا حقًا، ومع هذه الهيبة كان آية في التواضع وحسن المعاشرة وعلو الهمة، بعيدا عن الصلف والتكلف المذموم، أبيًا عزيز النفس.

فصاحته:

اللغة العربية لغة جميلة فهي لغة القرآن والسنة، أسلوبًا ومنهجًا ومقصدًا ومغزى فهي الطريق إلى فهمها والعمدة في إدراك أسرارهما، فهي بحق من مستلزمات الإسلام وضروراته.

والشيخ يُعَد وبجدارة من أرباب الفصاحة وأساطين اللغة في علم النحو خاصة وعلوم العربية كافة. وكان آية في التحدث بلغة الضاد [اللغة العربية الفصحى] كتابة ومحادثة، وكان هذا بيان مشرق متدفق وأداء جميل ونبرات مؤثرة في غير تكلف، وكان إذا تكلم أسمع وعُقِل عنه.

وكانت إحاطته بمفردات اللغة العربية تكاد تكون شاملة، وهو إلى جانب ذلك سهل العبارة، عذب الأسلوب، تتسم عباراته بالإيجاز والإحكام والبيان والجزالة، وكان بعيدًا عن التكلف والتمتمة والفأفأة والتنطع والتشدق.

وكان الشيخ عبد الرزاق عفيفي صاحب بصيرة نافذة وفراسة حادة، يعرف ذلك عنه من خالطه وأخذ العلم على يديه، ومما يدلل ويؤكد على فراسة الشيخ أنه كان يتأمل وجوه تلاميذه ويتفرس فيهم، فيعرف المجد من الخامل، والنابه من الجاهل، فيخص هؤلاء بعلم قد

لا يخص به أولئك. وثَمَّ دليل آخر على فراسة الشيخ أنه كان يدرك حقيقة ما يعرض عليه من المشكلات، ويتأمل وجوه أصحابها، فيكشف ما وراءها من الدوافع ببصيرته الفذة وقلما ينطلي عليه مكر أو احتيال. ومما يدل كذلك على صدق فراسة الشيخ ومعرفته بالرجال ما ذكره فضيلة الشيخ عبد العزيز بن محمد عبد المنعم قائلًا: حدثني في مجلس الفتوى في منى فقال: إذا سأل البدوي عن مسألة وكان الجواب موافقًا لما يهوي فإنه يسأل سؤالًا آخر قريبًا من الأول أو بعيدًا، أما إذا كان الجواب بخلاف ما يهوى فإنه يسكت وينصرف. وهكذا أكسبه طول التعامل مع المستفتين معرفة لنفسياتهم، فكانت إجاباته بإيضاح الحكم فيما يسأل عنه من التوسع أو من الإيجاز، ملحوظًا فيها ما ينقدح في ذهنه من مقصد السائل عند إلقاء السؤال من رغبة في معرفة الحكم الشرعي في المسألة أو في خلاف ذلك.

قوة حافظته وحضور بديهته:

كان رَحِمَهُ اللَّهُ قوي الحافظة، سريع البديهة، مستحضر الفهم، شديد الذكاء، وافر العلم، غزير المادة، صاحب ألمعية نادرة، ونجابة ظاهرة.

إن نعمة الحفظ وقوة الذاكرة من أقوى الأسباب - بعد توفيق الله عَزَّ وَجَلَّ - على طلب العلم، ولقد كان لهذه الحافظة القوية والذاكرة الجبارة أثرها البالغ في تحصيل ثروته العلمية، والتي بُنيت على محفوظاته التي علقت بذاكرته في مرحلة التعلم والتعليم، وقد رزقه الله من الذكاء وقوة الحفظ ما مكَّنه من إدراك محفوظاته العلمية عن فهم وبصيرة، فكان الشيخ يدرك حقيقة ما يعرض عليه من المشكلات فيكشف ما وراءها من الدوافع بتوفيق الله ثم بذكائه الحاد وبصيرته النافذة، ولم يكن ينطلي عليه خداع أو احتيال.

وفور عقله وبُعْد نظره:

إن من المسلَّم به أن لكل فضيلة أسًّا، ولكل أدب ينبوعًا، وأسُّ الفضائل وينبوع الآداب هو العقل، الذي جعله الله تعالى للدين أصلًا وللدنيا عمَّارًا، فأوجب التكليف بكماله، وجعل الدنيا مدبَّرة بأحكامه، وألَّف به بين خَلْقه مع اختلاف هممهم ومآربهم وتبايُن أغراضهم ومقاصدهم.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أصل الرجل عقله، وحَسَبه دينه، ومروءته خُلُقه.

وقال الحسن البصري: ما استودع الله أحدًا عقلًا إلا استنقذه به يومًا.

وقال بعض الأدباء: صديق كل امرئ عقله.

كان الشيخ من العلماء القلائل الذين جمع الله لهم بين وفرة العلم ووفور العقل وبُعْد النظر، فكان مثالًا للداعية المسلم الحق الذي يدعو إلى الله على بصيرة وإلى جانب تعقُّل الشيخ وبُعْد نظره فقد تميز: بسعة علمه، ومقدرته على الفهم الدقيق، والاستنباط الواعي، والتمييز المستبصر.

إن كل من رأى الشيخ وجلس إليه يشهد له بحنكة باهرة، وحكمة ظاهرة، واطلاع واسع، وعدم خوضه فيما لا يعنيه، وإعراضه عن التحدُّث في الموضوعات ذات الحساسية، وهو مع ذلك فقيه بواقع أمته، ومطلع على ظروف عصره، يعيش آمال الأمة وآلامها، ساعة بساعة، ولحظة بلحظة.

لقد كان الشيخ صافي الذهن، بعيد النظر، ينظر إلى عواقب الأمور، ويوازن بين المصالح والمفاسد، ويبين لجالسيه وطلابه أن التعجل والتهور وعدم النظر في العواقب، يجلب على الأمة ويلات كثيرة، فلله دَرّه من عالمٍ فحلٍ وعاقلٍ متأدبٍ وداعيةٍ محنَّكٍ، لم يهزه طيش، ولم يستفزه خَرْقٌ.

صفاته الخُلُقية:

إن من عاصر الشيخ عبد الرزاق رَحِمَهُ ٱللَّهُ وخالطه وعاشره يتفق معي أنه كان رجلًا قوي الشخصية، متميز التفكير، مستقل الرأي، نافذ البصيرة، سليم المعتقد، حسن الاتباع، جمّ الفضائل، كثير المحاسن، مثال العلماء العاملين والدعاة المصلحين، فيه عزة العلماء وإباء الأتقياء، غاية في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع حكمة ولطف وبُعْد نظر، لا يجابه أحدًا بما يكره، ولا ينتصر لنفسه.

كان زاهدًا عابدًا أمينًا صادقًا، كثير التضرع إلى الله، قريب الدمعة، زكي الفؤاد، سخي اليد، طيب المعشر، صاحب سنة وعبادة، كثير الصمت، شديد الملاحظة، نافذ الفراسة، دقيق الفهم، راجح العقل، شديد التواضع، عَفّ اللسان. كان رمزًا ومثالًا يُحْتَذى، وقدوة تؤتسى في الزهد والورع وإنكار الذات. كان زاهدًا في الدنيا متقللًا منها مُعْرِضًا عنها، متحليًا بالطاعة، مستشعر العفاف والكفاف، مقتصرًا من نفقته وملبسه على ما تدعو إليه الحاجة والضرورة.

لقد كان متواضعًا في مسكنه ومأكله ومشربه وسائر أموره وما عرفت الدنيا طريقًا إلى قلبه، ولم يكن يهتم بها، ومع أن غيره ممن هو دونه كان يتقلب في النعيم وينام على الوثير من الفراش، كان الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ متواضعًا في مسكنه ومشربه وسائر أموره، يؤثر خشونة العيش وعدم التوسع في الملذات، على الرغم من أنه مُدَّ بأسبابها.

ابتلاؤه وصبره:

لقد ابتلى الشيخ عبد الرزاق رَحِمَهُ ٱللَّهُ بابتلاءات عظيمة في هذه الدنيا، ونزلت به كوارث شديدة، فلم تضعفه هذه الابتلاءات وتلك الكوارث، بل كان صابرًا محتسبًا ومن هذه الابتلاءات التي ابتلى بها الشيخ في حياته أنه أصيب بشلل نصفي وعافاه الله منه، وأصيب بعدد من الأمراض فكان نِعْمَ العبد الصابر، واستشهد ولده الأكبر أحمد عاصم، فتلقى الخبر

صابرًا محتسبًا، ثم توفى أصغر أبنائه عبد الرحمن فكان كذلك غاية في الصبر والرضى بقضاء الله وقدره، ثم توفى ابنه عبد الله فجأة فكان أيضًا مثالًا في الصبر والاحتساب.

يقول الشيخ محمد لطفي الصباغ:

كان صابرًا نزلت به كوارث شديدة فلم تضعضعه ولم تخرجه عن اتزانه وخُلُقه.

فقد أصيب في عام ١٣٧٦هـ بشلل نصفي، وعافاه الله منه، وأصيب بعدد من الأمراض كان فيها نعم العبد الصابر، واستشهد ولده الكبير أحمد عاصم في حرب رمضان ١٩٧٣م التي قامت بين مصر واليهود، فتلقى الخبر صابرًا محتسبًا، وكان في مجلسه يحمد الله، ويحدِّث الحاضرين، وإذا غلط أحد المعزين في قول يجاوز به الحد الشرعي أنكر عليه ذلك وردَّه إلى الحق.

ثم توفي ولده الأصغر عبد الرحمن، فكان كذلك في غاية الصبر والرضى بقضاء الله وقدره، ثم توفي ابنه عبد الله في ١٤٠٣هـ فجأة في جدة، فكان أيضًا مثلًا في الصبر والاحتساب والتسليم.

وسافرت زوجته مرة إلى مصر، وعندما أرادت أن تعود إلى الرياض إلى زوجها وأولادها مُنعت من العودة مدة طويلة لمضايقة الشيخ وإيذائه، فصبر وصابر حتى أذن الله بالفرج وعادت إلى بيتها.

وظل فترة طويلة وهو مبتلى بأمراض عدة كالتهاب المسالك البولية وتعطل إحدى الكليتين وضعف الأخرى، والضغط والسكر، ومع ذلك نراه صابرًا محتسبًا، ولم يُثْنِه ذلك عن طلب العلم وتعليمه والعناية به، وإفادة الناس وتوجيههم وإرشادهم إلى آخر أيام حياته.

ويقول الدكتور صالح بن سعود آل علي: وقبل وفاته كان مبتلى، ابتلاه الله سبحانه بمصائب ولكنه كان الصابر المحتسب، فإضافة إلى الأمراض التي عرضت له في العقد الأخير من عمره أصيب بثلاثة من أبنائه، وهم في ريعان الشباب: عبد الرحمن الذي كان يلازمه في

شيخوخته كظله يخدمه ويساعده إذ به يفاجأ بوفاته بسبب انفجار أسطوانة غاز، وعبد الله بسكتة قلبية، ومن قبلهما أحمد أكبر أبنائه الذي جاءه نعيه شهيدًا في حرب الدبابات مع إسرائيل في سيناء عام ١٩٧٣م.

ومما يلفت النظر في جَلَد هذا الشيخ وصبره أنه لما جاء خبر وفاة ابنه أحمد وهو مدير ومحاضر في المعهد العالي للقضاء لم يتوقف عن برنامجه اليومي، فقد جاء إلى طلابه في مرحلة الماجستير، وكنت واحدًا منهم وألقى المحاضرة كالعهد به دون أثر أو تلعثم، وكانت من بعد العصر إلى المغرب، وكان الطلاب كعادتهم بعد أن ينتهي من المحاضرة يوجهون الأسئلة واحدًا تلو الآخر، وإذا به يجيب عنها دون أن يظهر عليه ما يلفت النظر، وبعد انتهاء المحاضرة خرج من القاعة ونحن وراءه، وإذا بنا نحن الطلاب نفاجأ بطابور من الأساتذة وطلاب آخرين يقابلونه معزين بوفاة ابنه، ولا تسأل عن ذهولنا نحن ليس من الوفاة، ولكن لأن الشيخ لم يترك المحاضرة، لا بل لأنه لم يخبرنا ولم يظهر عليه أي أثر للصدمة، فأقبلنا عليه مع غيرنا مواسين ومعزين، فرحمه الله وغفر له.

قدر الله على الشيخ رحمه الله الإصابة بأمراض في آخر حياته، وفي يوم الخميس الخامس والعشرين من الشهر الثالث سنة ١٤١٥هـ أدخل المستشفى إثر تردي حالته الصحية، وبقي فيها مدة وجيزة حتى فاضت روحه إلى بارئها عن عمر يناهز التسعين عامًا قضاها مجاهدًا بقلمه ولسانه معلمًا مدرسًا مفتيًا مرشدًا، وقد أمَّ المصلين عليه سماحة مفتي عام المملكة الشيخ عبد العزيز آل الشيخ بحضور جمع غفير من طلابه ومحبيه، ودفن في مقبرة العود في الرياض، رحمه الله رحمة الأبرار، وقد عزاه ولاة الأمر وفقهم الله والعلماء وطلاب العلم، وأثنوا على ما كان يتمتع به – رحمه الله – من مكانة علمية عالية وما لفقده – رحمه الله – من أثر على الساحة العلمية والإسلامية.

الداعية الشيخ/ محمد الغزالي

كان الشيخ «محمد الغزالي» واحدًا من دعاة مصر وعلماء الأزهر المعروفين ومن دعاة الإسلام العظام، ومن كبار رجال الإصلاح، اجتمع له ما لم يجتمع إلا لقليل من النابهين؛ فهو مؤمن صادق الإيمان، مجاهد في ميدان الدعوة، ملك الإسلامُ حياتَهُ؛ فعاش له، ونذر حياته كلها لخدمته، وسخر قلمه وفكره في بيان مقاصده وجلاء أهدافه، وشرح مبادئه، والذود عن حماه، والدفاع عنه ضد خصومه، لم يَدَعْ وسيلة تمكنه من بلوغ هدفه إلا سلكها؛ فاستعان بالكتاب والصحيفة والإذاعة والتلفاز في تبليغ ما يريد.

رزقه الله فكرًا عميقًا، وثقافة إسلامية واسعة، ومعرفة رحيبة بالإسلام؛ فأثمر ذلك كتبًا عدة في ميدان الفكر الإسلامي، تُحيي أمة، وتُصلح جيلًا، وتفتح طريقًا، وتربي شبابًا، وتبني عقولًا، وترقي فكرًا. وهو حين يكتب أديب مطبوع، ولو انقطع إلى الأدب لبلغ أرفع منازله، ولكان أديبًا من طراز حجة الأدب ونابغة الإسلام «مصطفى صادق الرافعي»، لكنه اختار طريق الدعوة؛ فكان أديبها النابغ.

ووهبه الله فصاحة وبيانًا، يجذب من يجلس إليه، ويأخذ بمجامع القلوب فتهوي إليه، مشدودة بصدق اللهجة، وروعة الإيمان، ووضوح الأفكار، وجلال ما يعرض من قضايا الإسلام؛ فكانت خطبه ودروسه ملتقى للفكر ومدرسة للدعوة في أي مكان حل به. والغزالي يملك مشاعر مستمعه حين يكون خطيبًا، ويوجه عقله حين يكون كاتبًا؛ فهو يخطب كما يكتب عذوبة ورشاقة، وخطبه قطع من روائع الأدب.

والغزالي رجل إصلاح عالم بأدواء المجتمع الإسلامي في شتى ربوعه، أوقف حياته على كشف العلل، ومحاربة البدع وأوجه الفساد في لغة واضحة، لا غموض فيها ولا التواء، يجهر بما يعتقد أنه صواب دون أن يلتفت إلى سخط الحكام أو غضب المحكومين، يحرّكه إيمان راسخ وشجاعة مطبوعة، ونفس مؤمنة.

المولد والنشأة:

في قرية «نكلا العنب» التابعة لمحافظة البحيرة بمصر ولد الشيخ محمد الغزالي في [٥ من ذي الحجة ١٣٣٥هـ ، ٢٢ من سبتمبر ١٩١٧م] ونشأة في أسرة كريمة، وتربى في بيئة مؤمنة؛ فحفظ القرآن، وقرأ الحديث في منزل والده، ثم التحق بمعهد الإسكندرية الديني الابتدائي، وظل به حتى حصل على الثانوية الأزهرية، ثم انتقل إلى القاهرة سنة [١٣٥٦هـ، ١٩٣٧م] والتحق بكلية أصول الدين، وفي أثناء دراسته بالقاهرة اتصل بالإمام حسن البنا وتوثقت علاقته به، وأصبح من المقربين إليه، حتى إن الإمام البنا طلب منه أن يكتب في مجلة «الإخوان المسلمين» لما عهد فيه من الثقافة والبيان؛ فظهر أول مقال له وهو طالب في السنة الثالثة بالكلية، وكان البنا لا يفتأ يشجعه على مواصلة الكتابة حتى تخرج سنة [١٣٦٠هـ، ١٩٤١م] ثم تخصص في الدعوة، وحصل على درجة«العالمية» سنة [١٣٦٢هـ، ١٩٤٣م] وبدأ رحلته في الدعوة في مساجد القاهرة.

في ميدان الدعوة والفكر:

كان الميدان الذي خُلق له الشيخ الغزالي هو مجال الدعوة إلى الله على بصيرة ووعي، مستعينًا بقلمه ولسانه؛ فكان له باب ثابت في مجلة الإخوان المسلمين تحت عنوان «خواطر حية» جلَّى قلمه فيها عن قضايا الإسلام ومشكلات المسلمين المعاصرة، وقاد حملات صادقة ضد الظلم الاجتماعي، وتفاوت الطبقات، وتمتُّع أقلية بالخيرات في الوقت الذي يعاني السواد الأعظم من شظف العيش.

ثم لم يلبث أن ظهر أول مؤلفات الشيخ الغزالي بعنوان «الإسلام والأوضاع الاقتصادية» سنة [١٩٤٧م] أبان فيه أن للإسلام من الفكر الاقتصادي ما يدفع إلى الثروة والنماء والتكافل الاجتماعي بين الطبقات، ثم أتبع هذا الكتاب بآخر تحت عنوان «الإسلام

والمناهج الاشتراكية»، مكملًا الحلقة الأولى في ميدان الإصلاح الاقتصادي، شارحًا ما يراد بالتأمين الاجتماعي، وتوزيع الملكيات على السنن الصحيحة، وموضع الفردِ من الأمة ومسئولية الأمة عن الفرد، ثم لم يلبث أن أصدر كتابه الثالث «الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين».

والكتب الثلاثة تبين في جلاء جنوح الشيخ إلى الإصلاح في هذه الفترة المبكرة، وولوجه ميادين في الكتابة كانت جديدة تمامًا على المشتغلين بالدعوة والفكر الإسلامي، وطَرْقه سبلًا لم يعهدها الناس من قبله، وكان همُّ معظم المشتغلين بالوعظ والإرشاد قبله الاقتصار على محاربة البدع والمنكرات.

محنته في المعتقل:

ظل الشيخ يعمل في مجال الدعوة حتى ذاعت شهرته بين الناس لصدقه وإخلاصه وفصاحته وبلاغته، حتى هبّت على جماعة [الإخوان المسلمين] رياح سوداء؛ فصدر قرار بحلها في [صفر ١٣٦٨هـ، ديسمبر ١٩٤٨م] ومصادرة أملاكها والتنكيل بأعضائها، واعتقال عدد كبير من المنضمين إليها، وانتهى الحال باغتيال مؤسس الجماعة تحت بصر الحكومة وبتأييدها، وكان الشيخ الغزالي واحدًا ممن امتدت إليهم يد البطش والطغيان، فأودع معتقل الطور مع كثير من إخوانه، وظل به حتى خرج من المعتقل في سنة [١٣٦٩هـ، ١٩٤٩م] ليواصل عمله، وهو أكثر حماسًا للدعوة، وأشد صلابة في الدفاع عن الإسلام وبيان حقائقه.

ولم ينقطع قلمه عن كتابة المقالات وتأليف الكتب، وإلقاء الخطب والمحاضرات، وكان من ثمرة هذا الجهد الدؤوب أن صدرت له جملة من الكتب كان لها شأنها في عالم الفكر مثل: «الإسلام والاستبداد السياسي» الذي انتصر فيه للحرية وترسيخ مبدأ الشورى، وعدّها

فريضة لا فضيلة، وملزِمة لا مُعْلِمة، وهاجم الاستبداد والظلم وتقييد الحريات، ثم ظهـرت له تأملات في: «الدين والحياة»، و«عقيدة المسلم»، و«خلق المسلم».

من هنا نعلم

وفي هذه الفترة ظهر كتاب للأستاذ خالد محمد خالد بعنوان «من هنا نبدأ»، زعم فيه أن الإسلام دين لا دولة، ولا صلة له بأصول الحكم وأمور الدنيا، وقد أحـدث الكتـاب ضـجة هائلة وصخبًا واسعًا على صفحات الجرائد، وهلل له الكارهون للإسلام، وأثنوا على مؤلفه، وقد تصدى الغزالي لصديقه خالد محمد خالد، وفند دعاوى كتابه في سلسلة مقالات، جُمعت بعد ذلك في كتاب تحت عنوان «من هنا نعلم».

ويقتضي الإنصاف أن نذكر أن الأستاذ خالد محمد خالد رجع عن كل سطر قاله في كتابه «مـن هنا نبدأ»، وألّف كتابًا آخر تحت عنوان «دين ودولة»، مضى فيه مع كتاب الغزالي في كل حقائقه.

ثم ظهر له كتاب «التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام»، وقد ألفه على مضض؛ لأنه لا يريد إثارة التوتر بين عنصري الأمة، ولكن ألجأته الظروف إلى تسطيره ردًّا على كتـاب أصدره أحد الأقباط، افترى فيه على الإسلام. وقد التزم الغزالي الحجة والبرهان في الـرد، ولم يلجأ إلى الشدة والتعنيف، وأبان عن سـماحة الإسـلام في معاملـة أهـل الكتـاب، وتعـرض للحروب الصليبية ومـا جرّتـه عـلى الـشرق الإسـلامي مـن شرور وويـلات، ومـا قـام بـه الأسبانيون في القضاء على المسلمين في الأندلس بأبشع الوسائل وأكثرها هولًا دون وازع من خُلُق أو ضمير.

الغزالي وعبد الناصر:

بعد قيام ثورة ١٩٥٢م، ونجاح قادتها في إحكام قبضتهم على الـبلاد، تنكـروا لجماعـة الإخوان المسلمين التي كانت سببًا في نجاح الثورة واستقرارها، ودأبوا على إحداث الفتنة بين

صفوفها، ولولا يقظة المرشد الصلب «حسن الهضيبي» وتصديه للفتنة لحدث ما لا تُحمد عقباه، وكان من أثر هذه الفتنة أن شب نزاع بين الغزالي والإمام المرشد، انتهى بفصل الغزالي من الجماعة وخروجه من حظيرتها.

وقد تناول الغزالي أحداث هذا الخلاف، وراجع نفسه فيه، وأعاد تقدير الموقف، وكتب في الطبعة الجديدة من كتابه «من معالم الحق في كفاحنا الإسلامي الحديث»، وهو الكتاب الذي دوّن فيه الغزالي أحداث هذا الخلاف فقال: «لقد اختلفت مع المغفور له الأستاذ حسن الهضيبي، وكنت حادّ المشاعر في هذا الخلاف؛ لأني اعتقدت أن بعض خصومي أضغنوا صدر الأستاذ حسن الهضيبي لينالوا مني، فلما التقيت به - عليه رحمة الله- بعد أن خرج من المعتقل تذاكرنا ما وقع، وتصافينا، وتناسينا ما كان. واتفقت معه على خدمة الدعوة الإسلامية، وعفا الله عما سلف». وهذا مما يحسب للغزالي، فقد كان كثير المراجعة لما يقول ويكتب، ولا يستنكف أن يؤوب إلى الصواب ما دام قد تبين له، ويعلن عن ذلك في شجاعة نادرة، لا نعرفها إلا في الأفذاذ من الرجال.

وظل الشيخ في هذا العهد يجأر بالحق ويصدع به، وهو مغلول اليد مقيد الخطو، ويكشف المكر السيئ الذي يدبره أعداء الإسلام، من خلال ما كتب في هذه الفترة الحالكة السواد مثل: «كفاح دين»، «معركة المصحف في العالم الإسلامي»، و«حصاد الغرور»، و«الإسلام والزحف الأحمر».

ويُحسب للغزالي جرأته البالغة وشجاعته النادرة في بيان حقائق الإسلام، في الوقت الذي آثر فيه الغالبية من الناس الصمت والسكون؛ لأن فيه نجاة حياتهم من هول ما يسمعون في المعتقلات. ولم يكتفِ بعضهم بالصمت المهين بل تطوع بتزيين الباطل لأهل الحكم وتحريف الكلم عن مواضعه، ولن ينسى أحد موقفه في المؤتمر الوطني للقوى الشعبية الذي عُقد سنة [١٣٨٢هـ، ١٩٦٢م] حيث وقف وحده أمام حشود ضخمة من الحاضرين

يدعو إلى استقلال الأمة في تشريعاتها، والتزامها في التزيّي بما يتفق مع الشرع، وكان لكلام الغزالي وقعه الطيب في نفوس المؤمنين الصامتين في الوقت الذي هاجت فيه أقلام الفتنة، وسلطت سمومها على الشيخ الأعزل فارس الميدان، وخرجت جريدة «الأهرام» عن وقارها وسخرت من الشيخ في استهانة بالغة، لكن الأمة التي ظُن أنها قد استجابت لما يُدبَّر لها خرجت في مظاهرات حاشدة من الجامع الأزهر، وتجمعت عند جريدة الأهرام لتثأر لكرامتها وعقيدتها ولكرامة أحد دعاتها ورموزها، واضطرت جريدة الأهرام إلى تقديم اعتذار.

في عهد السادات:

واتسعت دائرة عمل الشيخ في عهد الرئيس السادات، وبخاصة في الفترات الأولى من عهده التي سُمح للعلماء فيها بشيء من الحركة، استغله الغيورون من العلماء؛ فكثفوا نشاطهم في الدعوة، فاستجاب الشباب لدعوتهم، وظهر الوجه الحقيقي لمصر. وكان الشيخ الغزالي واحدًا من أبرز هؤلاء الدعاة، يقدمه جهده وجهاده ولسانه وقلمه، ورزقه الله قبولًا وبركة في العمل؛ فما كاد يخطب الجمعة في جامع «عمرو بن العاص» - وكان مهملًا لسنوات طويلة - حتى عاد إليه بهاؤه، وامتلأت أروقته بالمصلين.

ولم يتخلَّ الشيخ الغزالي عن صراحته في إبداء الرأي ويقظته في كشف المتربصين بالإسلام، وحكمته في قيادة من ألقوا بأزمّتهم له، حتى إذا أعلنت الدولة عن نيتها في تغيير قانون الأحوال الشخصية في مصر، وتسرب إلى الرأي العام بعض مواد القانون التي تخالف الشرع الحكيم؛ قال الشيخ فيها كلمته، بما أغضب بعض الحاكمين، وزاد من غضبهم التفاف الشباب حول الشيخ، ونقده بعض الأحوال العامة في الدولة، فضُيق عليه وأُبعد عن جامع عمرو بن العاص، وجُمّد نشاطه في الوزارة، فاضطر إلى مغادرة مصر والعمل في جامعة «أم

القرى» بالمملكة العربية السعودية، وظل هناك سبع سنوات لم ينقطع خلالها عن الدعوة إلى الله، في الجامعة أو عبر وسائل الإعلام المسموعة والمرئية.

في الديار الحجازية:

جاء عرض إلى الشيخ الغزالي بالتدريس في جامعة أم القرى بمكة المكرمة فوافق وودع مصر.. ليقضي بعدها سبع سنوات قضاها في الدعوة، كذلك فقد كان له برنامج إذاعي بعنوان: «ادع إلى سبيل ربك» وكتب كتابه: «فقه السيرة»، في المدينة المنورة وكان له أثرًا مميزًا وعطاء لا زال الكثيرون ينهلون من نبعه إلى اليوم.

في قطر:

طلب قطر من الشيخ أن يعمل بجامعتها أستاذًا بكلية الشريعة، فرحب بالفكرة، فكان يمضي فيها نصف عام كل سنة، ساهم فيها بتطوير كلية الشريعة وتخريج أجيال صالحة، ويُذكر أن الحكومة كانت تعامله بكرم وتستشيره في كثير من الأمور.

في الجزائر:

كانت الجزائر من الدول التي يذهب الشيخ الغزالي إليها مرارًا، يحضر الملتقيات الفكرية ويلقي المحاضرات... وفي إحدى زياراته وصلته رسالة تحذره من العودة إلى مصر لأن الرئيس السادات يتوعد له بالسجن.. فلما علم الرئيس الجزائري الشاذلي بن جديد، والذي كان ضيفًا في مؤتمر حضره الشيخ، سلم على الشيخ وطلب منه أن يعتبر الجزائر بلده الثاني، فمكث الغزالي فيها وساهم في أكثر من مشروع دعوي سكان أهمها افتتاح جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية.

الصفحة الأخيرة:

في ٩ أذار من عام ١٩٩٦ دُعي الشيخ للمشاركة في مهرجان الجنادرية الثقافي، وفي اليوم الرابع كان الشيخ يستمع لكلمة من أحد المشاركين وكان في الكلمة هجومًا على الإسلام، لم يتحمل الشيخ ذلك فطلب الكلمة، وبعد أن تأخر إعطاؤه إياها، لم يتحمل قلبه ففاجأته أزمة قلبية لم تدع لطبيب فرصة فالتفت الجمع حول الشيخ وهبَّ أكثر من طبيب وهكذا ودع الشيخ الحياة... وطوى آخر صفحات جهاده..



المصادر:

- «زهر البساتين من مواقف العلماء الربانيين» للدكتور سيد العفاني (٦/ ٣٣٧).
- موقع الشيخ على الإنترنت.
- مجلة الأدب الإسلامي ١٨ أغسطس ٢٠٠٣.
- موقع علماء الأمة.
- موقع الشبكة الإسلامية.

الشيخ/ محمد رفعت

الشيخ «محمد رفعت» أعظم صوت قرأ آيات الذكر الحكيم في القرن العشرين، استطاع بصوته العذب الخاشع أن يغزو القلوب والوجدان في قراءة عذبة خاشعة.. صوته يشرح الآيات، ويجمع بين الخشوع وقوة التأثير، فكان أسلوبًا فريدًا في التلاوة.

وُلِد محمد رفعت، واسمه مركب، في حي «المغربلين» بالدرب الأحمر بالقاهرة يوم الاثنين [٩-٥-١٨٨٢]، وكان والده «محمود رفعت» ضابطًا في البوليس، وترقّى من درجة جندي - آنذاك - حتى وصل إلى رتبة ضابط، وحينها انتقل إلى السكن في منزل آخر في «درب الأغوات»، بشارع «محمد علي»، وكان ابنه «محمد رفعت» مبصرًا حتى سن سنتين، إلا أنه أصيب بمرض كُفّ فيه بصره، وهناك قصة لذلك، فقد قابلته امرأة، وقالت عن الطفل: إنه ابن ملوك - عيناه تقولان ذلك، وفي اليوم التالي استيقظ الابن وهو يصرخ من شدة الألم في عينه، ولم يلبث أن فقد بصره.

ووهب «محمود بك» ابنه «محمد رفعت» لخدمة القرآن الكريم، وألحقه بكتّاب مسجد فاضل باشا بـ«درب الجماميز»، فأتم حفظ القرآن وتجويده قبل العاشرة، وأدركت الوفاة والده - مأمور قسم الخليفة في تلك الفترة -، فوجد الفتى نفسه عائلًا لأسرته، فلجأ إلى القرآن الكريم يعتصم به، ولا يرتزق منه، وأصبح يرتّل القرآن الكريم كل يوم خميس في المسجد المواجه لمكتب فاضل باشا، حتى عُيِّن في سن الخامسة عشرة قارئًا للسورة يوم الجمعة، فذاع صيته، فكانت ساحة المسجد والطرقات تضيق بالمصلين ليستمعوا إلى الصوت الملائكي، وكانت تحدث حالات من الوجد والإغماء من شدة التأثر بصوته الفريد، وظلّ يقرأ القرآن ويرتله في هذا المسجد قرابة الثلاثين عامًا؛ وفاءً منه للمسجد الذي بدأ فيه.

لم يكتفِ الشيخ محمد رفعت بموهبته الصوتية الفذَّة، ومشاعره المرهفة في قراءة القرآن، بل عمق هذا بدراسة علم القراءات وبعض التفاسير، واهتم بشراء الكتب.

وامتاز محمد رفعت بأنه كان عفيف النفس زاهدًا في الحياة، وكأنه جاء من رحم الغيب لخدمة القرآن، فلم يكن طامعًا في المال لاهثًا خلفه، وإنما كان ذا مبدأ ونفس كريمة، فكانت مقولته: «إن حافظ القرآن لا يمكن أبدًا أن يُهان أو يُدان»، ضابطة لمسار حياته، فقد عرضت عليه محطات الإذاعة الأهلية أن تذيع له بعض آيات الذكر الحكيم، فرفض وقال: «إن وقار القرآن لا يتماشى مع الأغاني الخليعة التي تذيعها إذاعتكم».

وعندما افتُتحت الإذاعة المصرية الخميس ٣١/ ٥/ ١٩٣٤م كان الشيخ أول من افتتحها بصوته العذب، وقرأ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح:١]، وقد استفتى قبلها الأزهر وهيئة كبار العلماء عما إذا كانت إذاعة القرآن حلالًا أم حرامًا؟ فجاءت فتواهم بأنها حلال حلال، وكان يخشى أن يستمع الناس إلى القرآن وهم في الحانات والملاهي.

وقد جاء صوت الشيخ رفعت من الإذاعة المصرية نديًا خاشعًا، وكأنه يروي آذانًا وقلوبًا عطشى إلى سماع آيات القرآن، وكأنها تُقْرأ لأول مرة، فلَمَع اسم الشيخ، وعشقت الملايين صوته، بل أسلم البعض عندما سمع هذا الصوت الجميل، ففي ذات يوم التقى «علي خليل» شيخ الإذاعيين، وكان بصحبته ضابط طيَّار إنجليزي - بالشيخ رفعت، فأخبره «علي خليل» أن هذا الضابط سمع صوته في «كندا»، فجاء إلى القاهرة ليرى الشيخ رفعت، ثم أسلم هذا الضابط بعد ذلك.

وقد تنافست إذاعات العالم الكبرى، مثل: إذاعة برلين، ولندن، وباريس، أثناء الحرب العالمية الثانية لتستهل افتتاحها وبرامجها العربية بصوت الشيخ محمد رفعت؛ لتكسب الكثير من المستمعين، إلا أنه لم يكن يعبأ بالمال والثراء، وأبى أن يتكسَّب بالقرآن، فقد عُرض عليه

سنة ١٩٣٥م أن يذهب للهند مقابل (١٥) ألف جنيه مصري، فاعتذر، فوسّط نظام حيدر آباد الخارجية المصرية، وضاعفوا المبلغ إلى (٤٥) ألف جنيه، فأصرَّ الشيخ على اعتذاره، وصاح فيهم غاضبًا: «أنا لا أبحث عن المال أبدًا، فإن الدنيا كلها عَرَضٌ زائل».

وقد عرض عليه المطرب «محمد عبد الوهاب» أن يسجِّل له القرآن الكريم كاملًا مقابل أي أجر يطلبه، فاعتذر الشيخ خوفًا من أن يمسَّ أسطوانة القرآن سكران أو جُنُب.

ومع تمتع الشيخ بحس مرهف ومشاعر فياضة، فقد كان - أيضًا - إنسانًا في أعماقه، يهتزّ وجدانه هزًّا عنيفًا في المواقف الإنسانية، وتفيض روحه بمشاعر جياشة لا تجد تعبيرًا عن نفسها إلا في دموع خاشعات تغسل ما بالنفس من أحزان؛ فقد حدث أن ذهب لزيارة أحد أصدقائه المرضى، وكان في لحظاته الأخيرة، وعند انصرافه أمسك صديقه بيده ووضعها على كتف طفلة صغيرة، وقال له: «تُرى، من سيتولى تربية هذه الصغيرة التي ستصبح غدًا يتيمة؟»، فلم يتكلم محمد رفعت، وفي اليوم التالي كان يتلو القرآن في أحد السرادقات، وعندما تلا سورة الضحى، ووصل إلى الآية الكريمة: ﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴾ [الضحى:٩]، ارتفع صوته بالبكاء، وانهمرت الدموع من عينيه كأنها سيل؛ لأنه تذكر وصية صديقه، ثم خصَّص مبلغًا من المال لهذه الفتاة حتى كبرت وتزوجت.

وعُرف عنه العطف والرحمة، فكان يجالس الفقراء والبسطاء، وبلغت رحمته أنه كان لا ينام حتى يطمئن على فرسه، ويطعمه ويسقيه، ويوصي أولاده برعايته، وهو إحساس خرج من قلب مليء بالشفقة والشفافية والصفاء.

كان بكّاءً بطبعه، يقرأ على الهواء مرتين أسبوعيًا من خلال الإذاعة [يومي الثلاثاء والجمعة] مدة (٤٥) دقيقة في كل مرة، والدموع تنهمر من عينيه.

يقول عنه الأستاذ علي خليل شيخ الإذاعيين: إنه كان هادئ النفس، تحس وأنت جالس معه أن الرجل مستمتع بحياته وكأنه في جنة الخلد، كان كيانًا ملائكيًا، ترى في وجهه الصفاء والنقاء والطمأنينة والإيمان الخالص للخالق، وكأنه ليس من أهل الأرض.

شاء الله أن يُصاب الشيخ محمد رفعت بعدة أمراض لاحقته وجعلته يلزم الفراش، وعندما يُشفى يعاود القراءة، حتى أصيب بمرض الفُواق [الزغطة] الذي منعه من تلاوة القرآن، بل ومن الكلام أيضًا؛ حيث تعرَّض في السنوات الثمانية الأخيرة من عمره لورم في الأحبال الصوتية، منع الصوت الملائكي النقي من الخروج، ومنذ ذلك الوقت حُرم الناس من صوته، فيما عدا ثلاثة أشرطة، كانت الإذاعة المصرية سجلتها قبل اشتداد المرض عليه، ثم توالت الأمراض عليه، فأصيب بضغط الدم، والتهاب رئوي حاد، وكانت أزمة الفُواق [الزغطة] تستمر معه ساعات.

وقد حاول بعض أصدقائه ومحبيه والقادرين أن يجمعوا له بعض الأموال لتكاليف العلاج، فلم يقبل التبرعات التي جُمعت له، والتي بلغت نحو(٢٠) ألف جنيه، وفضَّل بيع بيته الذي كان يسكن فيه في حي [البغالة] بالسيدة زينب، وقطعة أرض أخرى؛ لينفق على مرضه. عندئذ توسط الشيخ «أبو العينين شعيشع [لدى] الدسوقي أباظة «وزير الأوقاف آنذاك»، فقرَّر له معاشًا شهريًا.

وشاء الله أن تكون وفاة الشيخ محمد رفعت في يوم الاثنين ٩ مايو ١٩٥٠م، نفس التاريخ الذي وُلد فيه، عن ثمانية وستين عامًا قضاها في رحاب القرآن الكريم.

ونَعَتْهُ الإذاعة المصرية عند وفاته إلى المستمعين بقولها: «أيها المسلمون! فقدنا اليوم عَلَمًا من أعلام الإسلام. أما الإذاعة السورية فجاء النعي على لسان المفتي حيث قال: «لقد مات المقرئ الذي وهب صوته للإسلام».

العلامة الشيخ/ صفي الدين المباركفوري

جاءت الأخبار حزينة من الهند، حيث بلاد الإسلام الواسعة لا تعرف الحدود، بوفاة شيخ جليل أحبته جموع من المسلمين كثيرة، احتفظت في مكتباتها بكتاب ينقلها من طغيان المادة وضيق أفقها وضغوطها إلى رحابة السيرة العطرة وحياة الأرواح، حيث الجمع المبارك والجيل الفريد من صحب كرام، رضوان الله عليهم يتقدمهم رسول كريم ﷺ.

«الرحيق المختوم» أشهر كتب السيرة المعاصرة على الإطلاق لصاحبه صفي الرحمن المباركفوري، كم ترك من أثر في نفوس المحبين للنبي ﷺ، وكم غيَّر في النفوس والسلوك، وكم حبَّب هذه الحقبة من التاريخ الأنصع لهذه الأمة في صدر الإسلام وقلبه، وكم ظل طلاب العلم يدعون لصاحبه الشيخ الجليل بالخير والثواب نظير استعراضه العصري لسيرة النبي ﷺ وغزواته.. لم يكن الكثيرون يعرفون عن الشيخ المباركفوري شيئًا كثيرًا لابتعاد البلدان عن بعضها البعض، لكن الأرواح جنود الله المجندة لا تعرف الحدود ولا المسافات، لذا فقد فجعها النبأ بوفاة الشيخ المباكفوري حيث طارت الأخبار إلينا تذكر بالخير رجلًا أهدى لنا «الرحيق المختوم»، فسألنا الله أن يسقيه منه في مقعد صدق عند مليك مقتدر، وآلينا على أنفسنا أن نعرِّف القراء بهذا الشيخ الكريم.

وُلد في قرية حسين آباد قرية قريبة من مدينة بنارس في شمال الهند عام١٩٤٢م، ودرس على الطريقة النظامية المعروفة في القارة الهندية، في مدرسة فيض عام، ومن نظام المدرسة تفرغ طالب العلم للدراسة بعيدًا عن الأهل والأقارب ولا يزورهم إلا لفترة وجيزة، خلال مدة الدراسة، ومن الطرائف أنه كلما ذهب لزيارة أهله تأخر يومًا أو يومين متعمدًا بلا سبب، فإذا عاتبه مدير المدرسة أو مدرس المادة قال وبكل ثقة: لم أخسر شيئًا فأعطني نصف ساعة حتى أراجع ما تم شرحه ثم اختبرني، فقد كان ذكيًا ونابغةً منذ صغره، فإذا اختُبِر أجاب بأجوبة مثالية لا تقل أهمية عن أجوبة الطلاب الذين حضروا شرح الدرس.

وبعد التخرج اختير الشيخ مدرسًا في نفس المدرسة،ثم أستاذًا في الفقه والحديث لعدة سنوات في الجامعة السلفية ببنارس، [كبرى جامعة السلفيين في الهند] ثم شغل بعد ذلك منصب رئيس التحرير لمجلة «محدث» وهي تصدر شهريًا إلى الآن من الجامعة السلفية، وفي عام ١٤٠٨ هـ اختير باحثًا في مركز السنة والسيرة بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، واستمر فيه إلى عام ١٤١٨ هـ، ثم بطلب من مدير مكتبة دار السلام بالرياض اختير مشرفًا على البحوث العلمية فيها

وإذا ذكر الشيخ فأول ما يتبادر إلى الذهن هو كتاب «الرحيق المختوم من سيرة الرسول»، فهذا الكتاب قد قدمه الشيخ في مسابقة السيرة النبوية العالمية التي نظمتها رابطة العالم الإسلامي، وأعلنت عنها عقب أول مؤتمر للسيرة النبوية الذي عقدته دولة باكستان في شهر ربيع الأول عام ١٣٩٦هـ.

ومن الغرائب أن الشيخ ألف هذا الكتاب خلال فترة وجيزة جدًا لا تتجاوز الثلاثة الأشهر، وفيه يقول الشيخ: وكان من حديث هذا الكتاب أني لم أطلع على إعلان الرابطة عن المسابقة في وقته، ولما أُخبرت به بعد حين لم أمِلْ إلى الإسهام فيها، بل رفضت هذا الاقتراح رفضًا كليًا إلا أن القدر ساقني إلى ذلك. وكان آخر موعد لتلقي بحوث المسابقة واستقبالها عند الرابطة أول شهر محرم من العام القادم ١٣٩٧هـ، أي: نحو تسعة أشهر من وقت الإعلان، وقد ضاعت مني من ذلك عدة أشهر، والمدة الباقية لم تكن تكفي لإعداد مثل هذا الكتاب، ولكن لما عزمت على ذلك استعنت الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وشمرت عن ساق الجد، حتى تم إنجازه وإرساله في الموعد. اهـ.

وليس هذا فحسب بل المتأمل لحال الشيخ في ذلك الوقت يجد أنه قد ألفه مع شح المصادر في منطقته،وعدم القدرة على مراجعة الإحالات، وتوثيقها مع ضيق الوقت، فالحمد لله على إحسانه وتوفيقه .

ومن خدمات الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ المناظرة التي جرت بينه وبين أحد المبتدعة من القبوريين في عام ١٩٧٩م تقريبًا، والذي غقدت في مدينة بجرديه، قرب مدينة بنارس، بناء على طلب منهم والذين يسمون بالبريلوية، وكان موضوع المناظرة عن الوسيلة المشروعة والممنوعة، وحضر هذه المناظرة آلاف الأشخاص من الطَّرَفَيْنِ وجمع كبير من العلماء وطلبة العلم، وكان يمثل من طرف جمعية أهل الحديث فضيلة الشيخ صفي الرحمن المباركفوري [تغمده الله برحمته]، ومن جانب البريلويين عالمهم الموسوم بعبد المصطفى، وخلال المناظرة ألجمهم الشيخ، ولم يترك لهم مجالًا في الحديث إلا في ما يتعلق بمسألة، الوسيلة فلما أُفْحِموا غلبوا وانقلبوا صاغرين. وكان من نتيجة هذه المناظرة توبة تسعة وأربعين شخصًا وتسع أسر من الشرك في مجلس المناظرة، وتحولوا من البريلوية إلى العقيدة الصحيحة.

وهذه المناظرة مفرغة ومطبوعة باللغة الأردية، وهي مشتملة على أصول جامعة في الرد على شبهات القبوريين في التوسل والوسيلة الممنوعة، وخلطهم مع الوسيلة المشروعة.

ومن خدمات الشيخ أيضًا تفنيد لشبهات الجماعات المنحرفة التي أضلت كثيرًا من الشباب في شبه القارة الهندية، كالقاديانية ومنكري السنة أو القرآنيون وغيرهم. فألف الشيخ كتبًا في بيان الخلل في منهجهم وتفنيد شبهاتهم صونًا لشباب الأمة بإذن الله ونبراسًا لمن أراد الهداية، وطلب الحق منهم. ومن هذه الكتب -وكلها باللغة الأردية-: كتاب «القاديانية»، و«ثناء الله الأمرتسري والقاديانية»، و«حقيقة منكري الحديث» وغيرها من الكتب. ومن خدمات الشيخ تأليفه لكتاب «النبي محمد ﷺ في كتب الهندوس». فمن المعلوم أن للهندوس كتبًا مقدسة وفي مقدمتها أربعة كتب، إلا أنه لا يسمح بقراءتها ومطالعتها إلا للكهنة ومن بلغ رتبة معينة في النسب والعبادة فقط دون سواهم، وأكثر هؤلاء الكهنة لا يفهمون نصف ما يذكر في كتبهم؛ لأنها مكتوبة بلغة تسمى سنسكرت، وهي لغة قديمة من قبل مئات السنين، بل هي أصل اللغات المتداولة في الهند، ففي هذه الكتب المقدسة توجد

أوصاف كثيرة لنبي الرحمة للبشرية، وعند البحث لا تنطبق هذه الأوصاف إلا على نبينا محمد ﷺ، بل ذكر بأن اسمه يكون الرجل الذي يكثر الحمد لربه، فحيث إن كتب الهندوس لا يطالعها إلا النزر اليسير، فنتج عن ذلك جهل كثير من الهندوس عن هذه البشائر، وقد أسلم بعض كبار كهنة الهندوس بعد قراءتهم لهذه البشائر. فجمع الشيخ هذه البشائر لإقامة الحجة عليهم ولردع هجومهم على المسلمين، والكتاب مطبوع باللغة الأردية والهندية، وهو مفيد لمن يسكن في مناطق الهندوس.

هذا وقد اختير الشيخ أميرًا لجمعية أهل الحديث في الهند في عام ١٤١٨هـ تقريبًا، إلا أنه وبعد مرور بضعة أشهر اعتذر عنها لانشغاله بأموره العلمية والدعوية، وكذلك ظروفه الصحية لم تساعده، وكانت إمارة الجمعية تتطلب منه التفرغ ولم يكن ذلك ممكنًا للشيخ.

من أخلاق الشيخ: كان متواضعًا سهلًا لينًا، يداعب الصغير والكبير، لا يحب الإطراء والمدح، بعيدًا عن الأضواء. حتى أنه كان لينًا مع خصمه، ففي عام ١٤٢٠هـ وفي أحد محاضراته والحضور بالمئات، فسئل الشيخ عن حكم صلاة الوتر على صفة صلاة المغرب، فقال الشيخ: إن الصلاة بهذه الصفة منهي عنها كما في حديث: **«ولا تشبهوا بصلاة المغرب»**. فقام رجل من الحاضرين وقاطع كلام الشيخ أمام الملأ - والذي يظهر والعلم عند الله أنه ما قام إلا دفاعًا عما كان يعتقده افتراءً لا تثبتًا - وقال: ليس كما قلت، بل ثبت عن عائشة أنها صلت مثل المغرب. فسكت الشيخ، وفي قرارة الشيخ أن ما ذكره الرجل خطأ،ثم قال: لا أعلم إلا هذا الحديث، والذي ذكرته لم أطلع عليه، فتأمل كيف يقوم رجل بين مئات الحاضرين وفي مجلس يضم جمعًا من الدعاة وطلبة العلم، ويرد على الشيخ متجاوزًا حدود الأدب والاحترام مع العلماء، بل مخالفًا لآداب المجلس وأدب الحديث، ويعترض بجهل، لكن ومع ذلك يرد عليه الشيخ بكل حلم: لا أعلم؛ ثم يبين له أن الحديث ليس بمعروف بين طلبة العلم، فيسأل أحد طلبته، ولا يجد فيه غضاضة، فرحم الله الشيخ رحمة واسعة .

من نتاج الشيخ العلمي: للشيخ أشرطة كثيرة لدروسه ومحاضراته إلا أن الجزء الكبير منها باللغة الأردية، وله بالعربية من الأشرطة:

١- فضل أهل الحديث.

٢- أثر الإيمان في بناء دولة الإسلام. وهي موجودة في موقع «طريق الإسلام».

و أما المؤلفات فهي كثيرة باللغة الأردية، وله من المؤلفات بالعربية ما يلي:

١- الرحيق المختوم.

٢ - روضة الأنوار.

٣- تهذيب تفسير ابن كثير.

٤- تحقيق تفسير الجلالين.

٥- منة المنعم في التعليق على صحيح مسلم.

٦- إتحاف الكرام في التعليق على بلوغ المرام (وهي تعليقات يسيرة).

٧- إبراز الحق والصواب في مسألة السفور والحجاب. وغيرها من الكتب.

في نهاية مشواره ابتلي بالمرض:

وفي آخر حياة الشيخ وقبل وفاته بأربعة أشهر تقريبًا أصيب بجلطة دماغية مما جعله ملازمًا للفراش، وفي يوم الجمعة ١١/ ١٠/ ١٤٢٧هـ وفي الساعة الثانية ظهرًا بالتوقيت الهندي فارقت الروح إلى بارئها، فرحم الله الشيخ وأمنه من عذاب القبر ووسع له في قبره. وصُلي عليه يوم السبت ودفن في مقبرة قريته حسين آباد.

رحم الله الشيخ رحمة واسعة وأسكنه في فسيح جناته وسقاه من الرحيق المختوم شربة هنيئة مريئة.

المجاهد د/ عبد الله عزام

وُلد الشيخ عبد الله عزام في فلسطين [سيلة الحارثية] من أعمال مدينة جنين سنة ١٩٤١م، وقد درج على أرض القرية فشبّ و ترعرع في أحضان والديه يسهران عليه ويقومان برعايته وتربيته، ثم تلقى علومه الابتدائية والإعدادية في مدرسة القرية، وأكمل دراسته في معهد خضورية الزراعية في مدينة طولكرم، وقد كان الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يهيئ نفسه ويعدها إعدادًا إيمانيًا، فكان ملازمًا لتلاوة القرآن، كما كان ملازمًا لمسجد القرية يعطي الدروس الدينية كذلك، فإن الشيخ تربى في حضن الدعوة الإسلامية وعلى أيدي بعض رجالاتها في مدينة جنين في الضفة الغربية، وكأن الله عَزَّ وَجَلَّ كان يعده لأمر جلل.

عمله ومواصلة دراسته الجامعية:

بعد أن حصل على شهادة خضورية الزراعية بدرجة امتياز تم تعيينه معلمًا في قرية أدر منطقة الكوك - جنوب الأردن - في مطلع الستينات، ثم نقل بعد ذلك إلى مدرسة برقين في الضفة الغربية، وقد تابع دراسته الجامعية في جامعة دمشق [كلية الشريعة]، ونال منها شهادة الليسانس في الشريعة بتقدير جيد جدًا، وكان هناك قد التقى مع بعض علماء الشام أمثال الدكتور محمد أديب الصالح وبأبي الفتح البيانوني، كما تعرَّف على مروان حديد المشهور بعداوته للطواغيت وجهاده لهم، ثم عاد الشيخ إلى عمله في مدرسة برقين، وكان زواجه سنة ١٩٦٥م، فقد اختار شريكة حياته [أم محمد]، وهي من بيت محافظ على الدين تربت على يدي والدها الذي هاجر من قرية [أم الشوف] في شمال فلسطين بعد طردهم من قبل اليهود إلى قرية [سيلة الحارثية]، وقد سكنوا فترة وجيزة في بيت أهله، ثم ارتحل والدها مع عائلته إلى قرية [دير الغصون] في منطقة طولكرم وقد طلب الشيخ من والده ووالدته أن يجهزوا هدية، ثم انطلقوا إلى دير الغصون، وتم بفضل الله عَزَّ وَجَلَّ عقد القران [الزواج] بينهما ومن هذا

الزواج المبارك الذي تم بين الشيخ عبد الله عزام وشريكة حياته أنجبت خمسة ذكور: محمد نجله الأكبر الذي ذهب إلى ربه شهيدًا مع والده وعمره عشرون سنة، وحذيفة، وإبراهيم الذي اختاره الله شهيدًا مع والده وعمره خمس عشرة سنة وحمزة ومصعب ومن الإناث أنجبت منه: فاطمة ووفاء وسمية.

جهاده في فلسطين:

عندما سقطت الضفة الغربية وقطاع غزة بيد اليهود عام ١٩٦٧م كان شيخنا لا يزال على أرض فلسطين، وقد حاول مع مجموعة من الشباب من أهل القرية أن يقفوا في وجه الدبابات الإسرائيلية التي اجتاحت الضفة الغربية، و لكن ماذا تفعل مجموعة من البنادق الإنجليزية القديمة في وجه الدبابات الحديثة؟ فكانت نصيحة ضابط المخفر آنذاك لهؤلاء الشباب أن يعودوا إلى ديارهم حتى لا يُسْحقوا تحت جنازير الدبابات اليهودية، وبالفعل عندما أطلق هؤلاء الشباب بعض الطلقات من رشاش كان مع واحد منهم والتي لم تؤثر على دهانها عاود الشباب وأخذوا بنصيحة الضابط.

عداوة الشيخ لليهود:

بعد الاحتلال اليهودي للضفة الغربية والقطاع بأسبوع خرج الشيخ ماشيًا على الأقدام ومعه مجموعة من الشباب بينهم رجل كبير من أهالي القرية، وبينما هم يتحركون باتجاه الشرق وفي منتصف الطريق اصطدموا بدورية عسكرية إسرائيلية فاستوقفتهم، وقام أحد الجنود بتفتيش الإخوة، وكان الدور ينتظر الشيخ، فلما مد الجندي يده في جيب الشيخ أمسك بيد الجندي حتى لا يقع المصحف الصغير الذي كان يحمله بيد اليهودي لأن الكافر لا يجوز لنا أن نمكّنه من المصحف، فرجع الجندي اليهودي إلى الوراء وسحب أقسام البندقية، وأراد أن يقتل المجموعة ومن ضمنهم شهيدنا فتشاهد الشيخ وتقدم الرجل الكبير الذي يرافقهم

يرجو الجندي أن يطلق سراحهم قائلًا له: إنهم أبنائي، وتدخل أحد الضباط اليهود الذي دار بينه وبين الجندي محاورة أسفرت عن إطلاق سراحهم، ثم تابع الشيخ سيره باتجاه الأردن حتى وصل إليها وقد تعاقد مع التربية و التعليم في السعودية لمدة سنة، رجع بعدها إلى الأردن وكان العمل الفدائي قد ظهر على الساحة الأردنية.

رجع الشيخ من السعودية إلى الأردن سنة ١٩٦٨م، وكان رَحِمَهُ اللَّهُ يرى أن السيف أصدق أنباء من الكتب، وأن الكلمة لا بد أن يرافقها السيف، وأن الأمم لا تعترف بالضعفاء فالشطر الأول من عمره قضاه على أرض فلسطين دون أن تتاح له فرصة استعمال السلاح، وهو يدب على أرضها نظرًا لدخول قضية فلسطين الإسلامية إلى المحافل الدولية وللجمود والركود الذي واكبها بين سنة ١٩٤٩ - ١٩٦٧م ولذلك عاودت فكرة التدريب واستعمال السلاح للوقوف في وجه اليهود تداعب أفكار الشيخ، وكيف يهدأ له بال آنذاك وهو يرى حثالة اليهود تسرح على أرض فلسطين وتدنس مقدسات المسلمين، فحرض الشباب واستنهض هممهم للتدرب على استعمال السلاح لمقاتلة اليهود وقد اتخذ الشيخ مع مجموعات من الشباب المسلم قاعدة لهم في شمالي الأردن كان الناس يطلقون عليها [قواعد الشيوخ] وكان الشيخ أميرًا لقاعدة بيت المقدس للانطلاق منها إلى فلسطين لمواجهة العصابات اليهودية على أرض فلسطين وقد صدق في شهيدنا وحبه للجهاد على أرض فلسطين قول الشاعر وهو يقول:

فلسطين التي تهوى ... وفيها كانت السلوى
وقد حاربت أعداها ... وكنت السيد الأقوى
وعنكم أجمل الأخبار ... ما زالت بهنا تروى
تودعكم بفيض الحب ... تشهد فيكم التقوى

وقد اشترك الشيخ في بعض العمليات على أرض فلسطين كان من أهمها:

أولًا- معركة المشروع أو الحزام الأخضر التي خاضها الشيخ مع إخوانه والتي جُرِح فيها أبو مصعب السوري، وقد حصلت هذه المعركة في منطقة الغور الشمالي.

ثانيًا- معركة ٥ حزيران ١٩٧٠م، وقد اشترك فيها ستة من المجاهدين كان من بينهم أبو إسماعيل [مهدي الأدلبي] الحموي، وإبراهيم [بن بلة]، وبلال الفلسطيني؛ في أرض مكشوفة تصدوا لدبابتين وكاسحة ألغام، وكان موشيه دايان وزير الدفاع اليهودي قد أرسل مراسلًا كنديًا وآخر أمريكيًا ليطوف بهم على الحدود، ويريهم أن العمل الفدائي قد انتهى، وإذا بجند الله يخرجون لهم كالجن المؤمن من باطن الأرض، وانهالت القذائف وجرح الصحفيان، واعترف اليهود باثني عشر قتيلًا من الجنود والضباط، ولكن قتلى الأعداء كانوا أكثر من هذا بكثير، وقد استشهد ثلاثة من الإخوان في هذه المعركة، لكن ما جرى في أيلول ١٩٧٠م حال دون مواصلة الشيخ وإخوانه الجهاد على أرض فلسطين، وأغلقت الحدود ولم يتمكن هؤلاء المجاهدين من مواصلة جهادهم على أرض فلسطين وإلا لأذاقوا اليهود ويلات المعارك التي كانوا يَصِلُون بها اليهود جهارًا نهارًا.

كان الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ يجاهد بسلاحه وقلمه، وقلما تجد له نظيرًا في هذا العصر، لذا فقد كان وهو في قواعد الشمال قد انتسب إلى جامعة الأزهر، ونال شهادة الماجستير في أصول الفقه سنة ١٩٦٨م، حيث عمل بعد ذلك محاضرًا في كلية الشريعة في عمان ١٩٧٠-١٩٧١م، ثم أوفد إلى القاهرة لنيل شهادة الدكتوراه، وقد حصل عليها في أصول الفقه بمرتبة الشرف الأولى ١٩٧٣م.

ثم عمل مدرسًا في الجامعة الأردنية [كلية الشريعة] من سنة ١٩٧٣ - ١٩٨٠م، حيث تربى على يديه مئات الشباب المسلم العائد إلى ربه، والذين كان يعدهم ليوم اللقاء مع العدو؛

ليزيل الاحتلال عن رقاب أمة الإسلام في فلسطين، ولكن الرياح لا تجري بما تشتهي السفن، فصدر قرار الحاكم العسكري الأردني بفصله من الجامعة الأردنية عام ١٩٨٠م.

بدأ الشيخ يبحث عن مكان آخر للدعوة فغادر إلى السعودية حيث عمل مع جامعة الملك عبد العزيز في جدة عام ١٩٨١م، ولكنه لم يطق البقاء هناك فطلب من مدير الجامعة العمل في الجامعة الإسلامية الدولية في إسلام آباد في الباكستان؛ ليكون قريبًا من الجهاد الأفغاني فانتدب للعمل فيها سنة ١٩٨١م.

رجع الشيخ في نهاية عام ١٩٨٣م إلى جدة من أجل تجديد فترة الانتداب، فوجد إدارة الجامعة قد أنزلت له برنامجًا حتى يدرس فيها، ورفضت الجامعة تجديد عقد الإعارة لحساب الجامعة الإسلامية في إسلام آباد فقدم الشيخ استقالته .

وتعاقد مع الرابطة سنة ١٩٨٤م وعاد مستشارًا للتعليم في الجهاد الأفغاني، وعندما اقترب من المجاهدين الأفغان وجد ضالته المنشودة وقال: هؤلاء الذين كنت أبحث عنهم منذ زمن بعيد، وهناك في بيشاور بدأ العمل الجهادي حيث قام سنة ١٩٨٤م بتأسيس مكتب الخدمات الذي كان يوجه الإخوة العرب لخدمة الجهاد الأفغاني، وكان لهذا المكتب نشاطات تعليمية وتربوية وعسكرية وصحية واجتماعية وإعلامية كثيرة في كل أنحاء أفغانستان تقريبًا.

لقد صبر الشيخ على الظلم، ولكنه وقف كالطود الشامخ لا يحني هامته إلا لله العزيز القهار، وآثر الأفعال على الأقوال وآثر الجهاد على القعود، آثر الجهاد على البريق الخادع والمناصب الكاذبة التي تجذب أصحابها إلى الأرض، ولهذا كانت كلماته النورانية تعبر أصدق تعبير عما كان يجول في خاطره.

كان الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يتمتع بخصال ومناقب كثيرة ولكن الاقتصار على بعضها يدل على الكثير منها، فقد كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ منارة هداية للسائرين، وقلعة جهاد يتحصن بها الشباب المسلم في سائر أنحاء المعمورة، ولا بد من توضيح بعض سمات شخصيته التي كان يتمتع بها رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

أولًا- الشجاعة و الحماسة: كانت هذه السمة هي الغالبة على شخصيته رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فقد طرق الدعاة أبواب الدعوة فوجدوه قلعة حصينة من قلاعها، وعندما تحدث الناس عن الجهاد وجدوه علمًا بارزًا من أعلامه، ولقد كان آخر مقالة كتبها الشيخ قبل استشهاده بعنوان «الأسود الجائعة» تحدَّث في مقدمة المقال عن الشجاعة وأن عمادها القلب، وأن القلب إذا امتلأ بالإيمان فإنه يعود لا يخشى أحدًا إلا الله، ولا يخاف من الموت، بل يُقْبِل على الموت في ساحات الوغى بشكل منقطع النظير.

ولقد وجدنا هذه الصفات قد انطبقت على شهيد الأمة الإسلامية، فشجاعته في المعركة ليس لها نظير، فلم يكن يرضى إلا أن يتقدم الخطوط الأمامية للعدو مع حرص المجاهدين عليه دائمًا ومحاولتهم إقناعه أن لا يتقدم إلى الأمام خوفًا عليه، ولقد شهدت له أرض أفغانستان في جاجي [المأسدة] وقندهار، ففي قندهار اخترق الصفوف في منطقة سهلية حتى وصل إلى بُعْد ١٥٠٠م من مواقع الشيوعيين.

كان الناس يعتكفون العشر الأواخر من رمضان في المساجد، أما الشيخ فقد اعتكف السنوات الماضية العشر الأواخر من رمضان في ساحة المعركة [جلال آباد]، وكان على أبوابها يبعد عن العدو عدة كيلومترات وهو يبوأ للمؤمنين مقاعد القتال.

وقد كان لشجاعة الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الأثر الكبير في شخصية الشيخ، يقول الصحابة رضوان الله عليهم: كنا إذا اشتد البأس وحمي الوطيس اتقينا برسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وإنه ليكون أقربنا إلى العدو.

كان الشيخ يعبر عن السعادة الغامرة التي تملأ قلبه وهو يحيا هذه الحياة الجهادية حيث يقول: ما أجملها من أيام تقضيها بين المجاهدين، كل واحد ارتقى إلى قمة الجبل مرابطًا وراء سلاحه..حتى إذا جنّ الليل لا تسمع منهم إلا صوت التكبير يقطع صمت الظلام الساجي.

ثانيًا- الزهد و البعد عن الترف: وحسبك في هذا أنه ترك الدنيا وطرحها عن عاتقيه، وأقبل على الجهاد والاستشهاد حتى نال الشهادة .

ويوم أن قاتل على أرض فلسطين بعد سنة ١٩٦٧م ترك الوظيفة، وآثر أن تسكن زوجته وأولاده الثلاثة في غرفة واحدة تكاد أن تكون مظلمة بلا تهوية ولا مطابخ ولا حمامات، وحسبك في زهده أنه ترك العمل في الجامعة الإسلامية [إسلام آباد] وتفرغ للجهاد عندما شعر أن هذه الوظيفة تعيقه وتعرقل سير جهاده.

ثم إنه غادر الحياة الدنيا تاركًا لعياله الله ورسوله ، وكان بإمكانه أن يكون صاحب الثراء والمال الوفير، وقد خرج من الدنيا دون أن يأخذ منها شيئًا، وقدم إلى ساحة الجهاد بنفسه وماله وعياله، ووظَّف كل ما يملك لصالح الجهاد، وهو في هذا يسير على نهج رسول الله ﷺ كما روى الإمام أحمد بسند صحيح: [أن رسول الله ما ترك دينارًا ولا درهمًا ولا شاة ولا بعيرًا].

لقد جاءه بعض محبيه وقد خاف عليه أن يقتل يومها [يوم مؤامرة جنيف على الجهاد] وعرض عليه منصبًا بأن يصبح مديرًا لجامعة إسلامية حتى يحميه من تلك المؤامرة، ولكن الشيخ آثر أن يعيش كما عاش رسول الله ﷺ ، روى الترمذي بسند حسن أن رسول الله ﷺ قال: «**عَرَض عليّ ربي أن يجعل لي بطحاء مكة ذهبًا، فقلت: لا يا رب، بل أجوع يومًا وأشبع يومًا، إذا جعت تضرَّعتُ إليك ودعوتك وإذا شبعت شكرتك وحمدتك**».

ولو أراد الشيخ الدنيا لنالها وقد أقبلت عليه طائعة بزينتها، ولكنه كان يمقت الترف، وآثر حياة الجهاد على التقلب في أطراف النعيم، ولقد كان رحمه الله يعتبر الزهد من أعمدة الجهاد.

رابعًا- حلمه وصبره: وكيف لا يصبر وهو يَعْتبر الصبر أحد أعمدة الجهاد، والصبر من طبيعة الجهاد، ولا يمكن أن يكون هناك جهاد دون صبر، وقد شاء الله أنْ انكفأ قِـدْرُ مَـرَقٍ

ساخن بما فيه على يد ابنه الصغير مصعب، وإذا بالبيت يرتبك، فقال لهم الشيخ بهدوء: [سبحان الله! إن بيوت الأفغان لا تخلو من عدة مصائب، فأحيانًا تجد البيت فيه مأتمًا وقد شُوِّه وجه ابنه أو قلعت عين ابنته، وهذا قطعت يده أو رجله، وهم مع ذلك صابرون محتسبون]، وإذا بالبيت فجأة يلفه الصمت ويرضون جميعًا بقضاء الله.

وقد حاول الظَّلَمة في الأرض محاصرته، ولكنهم لم يستطيعوا أن يصلوا إلى هذه القمة السامقة التي تعيش فوق ذروة سنام الإسلام فماذا فعلوا ؟ وجهوا سهامهم وحركوا أذنابهم ليتناوشه الأعداء من كل جانب، وليطلق المنافقون ألسنتهم بالسوء في محاولة لتشويه سمعته، ولكنه صبر، واحتسب ذلك عند علام الغيوب، وكان لسان حاله يقول، كما قال الشاعر:

فإمَّا حَيَاةٌ تُسِرُّ الصَّدِيقَ ... وإمَّا مماتٌ يَغِيظُ العِدَا

ونَفْسُ الشَّهِيدِ لَهَا غَايَتَانِ ... وُرُودُ المَنَايَا ونَيْلُ المُنَى

ويوم أنْ كشَّر أهلُ النفاق عن أنيابهم وبدأت الأشرطة المسموعة والمنشورات تُكتب ضده لتشويه سمعته، قال له بعض الإخوة: [لو أنك ترد على هؤلاء؟] فقال رَحِمَهُ اللَّهُ: [والله ما عندي وقت أن أقرأها فضلًا عن أرد عليها] لقد وكل أمره إلى الله، وكان لسان حاله يقول كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عندما شجّ وجهه يوم أحد وانكسرت رباعيته، فقال له أصحابه: [لو دعوت عليهم؟] فقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**إني لم أبعث لعانًا وإنما بُعثت رحمة**» ثم قال: «**اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون**» [رواه البخاري].

وما رؤي الشيخ في حياته منتصرًا لنفسه، ولكنه كان إذا انتهكت حرمات الله يغضب ويحمر وجهه، ولقد تخلق في هذا بخُلُق الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول بعض أصحابه ومنهم علي بن الحسن: «ما رأيت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منتصرًا من مظلمة ظُلِمَها قط ما لم تكن حرمة من محارم الله، وما ضرب بيده شيئًا قط إلا أن يجاهد في سبيل الله» [رواه مسلم].

خامسًا- التواضع: كان الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ على علو منصبه وشهرته ورفعة رُتبته مَن أشد الناس في هذا العصر تواضعًا وأبعدهم عن الكبر، وكان الناس يقولون عنه: هذا الدكتور يختلف عن جميع الدكاترة الذين يحملون الشهادات، وكان بعضهم يقول: إنه رجل شعبي كان وهو في الجامعة يجلس مع طلابه ومريديه يعلمهم وينهلون منه المعرفة والعلم والخُلُق القويم، وهم لا يشعرون بفارق بينهم وبينه، وكان عندما يذهب إلى الجبهات أو إلى مخيمات التربية الإسلامية داخل أفغانستان يقول للإخوة: عاملوني أنا وأولادي كما تعاملون أي واحد منكم. وكان هذا منتهى التواضع منه، وكيف لا وقد اختار حياة الجهاد، وهي أصعب عبادة وأشقها على النفس، ورفض أنْ يتقلد أعلى المناصب الرفيعة.

لأنه قدوة يقتدي به أبناء الجيل في سلوكه وأخلاقه وتصرفاته، وحبه للجهاد، بيّت أعداء هذا الدين لقتله، وإن كنا لا نستطيع أن نضع أيدينا على القتلة ونحدد هوياتهم لكننا نستطيع أن نجزم أن أعداء الجهاد هم الذين دبروا هذه المؤامرة ونسجوها من وراء ستار ليلقوا بها إلى أذنابهم لتنفيذها. لقد بدأ أعداء الجهاد يترصدون لشهيد الأمة الإسلامية ويحصون أنفاسه، ويحدّون من حركته ونشاطه، للحيلولة دون استيقاظ همم العلماء في العالم الإسلامي، ونحن إذا أردنا أن نتلمس الأسباب ونتعرف على الدوافع التي جعلت أعداء الجهاد يُقْدِمون على قتل الشيخ يمكن أن نحصرها فيما يلي:

لقد قدم الشيخ إلى ساحة الجهاد الأفغاني سنة ١٩٨٢م وبدأ يحرض المؤمنين على القتال، ويستنهض همم الشباب للقدوم إلى ساحات النزال، ويوقظ إحساس العلماء أنْ أفيقوا من رقادكم، فإن دين الله عَزَّ وَجَلَّ لا يمكن أن يقوم على وجه الأرض ولا تصبح له شوكة إلا بالجهاد في سبيل الله. وصدرت أول فتوى من الشيخ بشأن حكم الجهاد في فلسطين وأفغانستان أو أي شبر من أرض المسلمين دِيسَ من قِبَلِ الكفار أنه فرض عين على كل مسلم بالمال والنفس، ولا عذر بالتخلف إلا لأصحاب الأعذار.

ولقد ارتجفت أوصال الكثيرين من أصحاب النفوذ من هذا الصوت الـذي انطلـق في أرجاء المعمورة، وخاصة أن هذا العالم طبق ما يقول على نفسه، فامتشق سلاحه وطرح الدنيا عن عاتقيه، وإنك لتقف متعجبًا وأنت تراه يتسلق قمم جبـال أفغانـستان بـين الثلـوج يـشق الطريق ويمهدها لإعادة تلك المنارة المفقودة [الخلافة الراشدة].

ولهذا حرص أعداء الله على التخلص منه بأي طريقة كانت، وفي هذا يقـول أحـد قـادة الجهاد الأفغاني: [إن شيخنا الكريم كان من الشخصيات التي إذا سمع باسـمها أعـداء هـذه الأمة، يثير فيهم القلق والاضطراب، وإن أعداءنا كانوا يعرفون الشيخ أكثـر ممـا نعرفـه، وإن الشيخ كان عدوًا لدودًا للشيوعية والصهيونية والجبابرة].

لم يعهد أعداء هذه الأمة أن يروا عالمًا من هذا الطـراز يحمـل الـسلاح ويقاتـل الكفـرة والملاحدة من أجل إقامة دين الله في الأرض - في هذا القرن - مثلما عهدوه في شهيدنا الغـالي. كان الشيخ تُرْسًا للجهاد، يجاهد في سبيل الله بقلمه ولسانه، وكان صوت الحق الناطق باسـم الجهاد في العالم فأراد أعداء الجهاد أن يُسْكِتوا هذا الصوت بعد أن انتصر الجهاد في أفغانستان على الدب الروسي، وأجبره على العودة إلى قمقمه، وبعد أن قلَّم المجاهـدون أظـافره، بـدأت المؤامرة بترتيب بين الشرق والغرب أن لا يكون الإسلام هو البـديل بعـد خـروج الـروس، فجاءت المؤامرات يتلو بعضها بعضًا، وكان الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ كلما تعرض الجهاد إلى سبهم يوجـه إليه أو شبهة تثار حوله من قِبَل أعداء الله ينبري للرد عليها بكل مـا أوتي مـن حجـة وبيـان، ولهذا السبب أيضًا ضاق به الشرق والغرب ذرعًا، وعجزوا عن مواجهته وجهًا لوجـه، لا في ساحة ميدان الجهاد ولا عبر البيان والكلام.

كان الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ يعمل على تصدير الجهاد من أفغانستان إلى بقاع الأرض التي ديست بأرجل الكفار، ولقد أصبح العالم خائفًا مـن الجهـاد، ويحـسب للجهـاد في أفغانـستان ألـف حساب خاصة أن الجهاد قد امتد حتى وصل إلى معظم المناطق التي تعرضت للغزو من قِبَـل

أعداء الله، ولهذا حرص أعداء الله على التخلص من هذه الشخصية الجهادية التي بدأت تصدِّر الجهاد إلى المناطق المحتلة من العالم الإسلامي، وإلى المستضعفين في الأرض، ولا بد من قتل رموز الجهاد.

لقد كان الشيخ ينشد وحدة الأمة الإسلامية تحت علم الجهاد، ويعمل من أجل ذلك، وقد عمل حتى آخر لحظة من حياته من أجل جمع كلمة المجاهدين وطالما ردد كثيرًا: إن موت جميع أولادي أحبّ إليّ من أن يختلف قادة الجهاد.

وقد استصرخ الشيخ ضمائر الأمة الإسلامية في شتى أنحاء العالم فحث التجار في البلاد العربية والإسلامية أن يقدموا أموالهم في سبيل الله، وصرخ صرخته المدوية في البلاد العربية والإسلامية للعلماء أن ينفروا إلى أرض الجهاد، وأن يساهم كل مسلم بقدراته ونفسه وعلمه في هذا الجهاد المبارك. فكان لهذا النداء صداه، فوفد إلى الجهاد مجموعات من الشباب من كافة الأقطار، والتقت هذه الجموع، وانصهرت كلها في بوتقة العقيدة، وعلى أساسها تجاهد في سبيل الله، وإذا بالأمة الإسلامية المترامية الأطراف المقطعة الأوصال في أنحاء المعمورة تتجمع من جديد في جسم متكامل، ولهذا حرص أعداء الأمة على اغتيال الشيخ والتخلص منه.

الشيخ يحط الرحال شهيدًا بإذن الله:

وفي يوم الجمعة بتاريخ ٢٤/ ١١/ ١٩٨٩ م انطلق الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ الى مسجد سبع الليل لإلقاء خطبة الجمعة، فمرت السيارة التي كان يستقلها من فوق لغم بوزن ٢٠كغم من متفجرات [تي.إن.تي] كان قد زرعه الحاقدون المجرمون، وقد نتج عن هذا الانفجار استشهاد شهيد الأمة الإسلامية الدكتور عبد الله عزام ومعه زهرتان من فلذات كبده [محمد نجله الأكبر وإبراهيم].

وقد سارت الجموع الغفيرة وهي تودع الشيخ وولديه، إلى مقبرة الشهداء في بابي بعد أن صلى عليه جمع غفير من المجاهدين العرب والأفغان .. وغيرهم من المسلمين الذين حضروا الجنازة.

وقد حدّث الذين حضروا جنازته وهم ألوف، أنهم اشتموا رائحة المسك تنبعث من دمه الزكي وبقيت هذه الرائحة حتى تم دفنه، وأن الله تعالى قد حفظ جسمه من التشويه رغم شدة الانفجار الذي قطع تيار الكهرباء وحفر حفرة عميقة في الأرض، وتناثرت أجزاء السيارة، وقد وجدت جثة الشيخ على مقربة من الحادث.

وقد فُجِع العالم الإسلامي والمسلمون في شتى أنحاء الأرض بهذا الخبر المحزن، وكان لهذا الخبر أثرًا كبيرًا زلزل قلوب المحبين له؛ لهول هذا المصاب، لقد بكى ملايين المسلمين شهيدنا، بقلوبهم وعيونهم أكثر من البكاء على الأب والأم والزوجة والزوج، وحزنت على فقده الأمة كلها أكثر مما حزنت على فقد أي شيء آخر.

إن حب الملايين من المسلمين لهذا الرجل العظيم، الذي كان كله لله لهو دليلٌ على رضى وقبول من الله عَزَّ وَجَلَّ له ولما قدمه في سبيل الله، فقد أحب الشيخ - رَحِمَهُ اللَّهُ - الله ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فكتب حبه في قلوب العباد حيًّا وشهيدًا، ولم نجد في عصرنا الحاضر عالمًا ومجاهدًا أحبه هذا العدد الهائل من الخلق كما أحبوا عبد الله عزام رَحِمَهُ اللَّهُ .

❁❁❁

المصادر:

- موقع علماء السلف.

- موقع الشبكة الإسلامية.

الداعية الفقيه سماحة الإمام/ عبد العزيز بن باز

الإمام الداعية الفقيه عبد العزيز بن عبد الله بن باز أشهر علماء وفقهاء الجزيرة العربية الذي تلقى الناس فتاواه ورسائله بالقبول، وتتلمذ على يديه المئات، وهو الإمام الصالح الورع الزاهد أحد الثلة المتقدمين بالعلم الشرعي، ومرجع المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، في الفتوى والعلم، وبقية السلف الصالح في لزوم الحق والهدي المستقيم، واتباع السنة الغراء.

نسبه ونشأته:

هو عبد العزيز بن عبد الله بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله آل باز، وآل باز أسرة عريقة في العلم والتجارة والزراعة، معروفة بالفضل والأخلاق، أصلهم من المدينة النبوية، وُلد في الرياض عاصمة نجد يوم الثاني عشر من شهر ذي الحجة سنة ١٣٣٠هـ، وترعرع فيها وشب وكبر، ولم يخرج منها إلا ناويًا للحج والعمرة.

نشأ سماحة الشيخ عبد العزيز في بيئة عطرة بأنفاس العلم والهدى والصلاح، بعيدة كل البعد عن مظاهر الدنيا ومفاتنها، وحضاراتها المزيفة، إذ الرياض كانت في ذلك الوقت بلدة علم وهدى فيها كبار العلماء، وأئمة الدين، من أئمة هذه الدعوة المباركة التي قامت على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وهي دعوة الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب، وفي بيئة غلب عليها الأمن والاستقرار وراحة البال، بعد أن استعاد الملك عبد العزيز الرياض، ووطد فيها الحكم العادل المبني على الشريعة الإسلامية السمحة، بعد أن كانت الرياض تعيش في فوضى لا نهاية لها، واضطراب بين حكامها ومحكوميها.

فهكذا نشأ سماحته في بيئة علمية، ولا ريب أن القرآن العظيم كان هو النور الذي يضيء حياته، وهو عنوان الفوز والفلاح، فبالقرآن الكريم بدأ الشيخ دراسته - كما هي عادة علماء

السلف - رحمهم الله -، إذ يجعلون القرآن الكريم أول المصادر العلمية - فيحفظونه ويتدبرونه أشد التدبر، ويعون أحكامه وتفاسيره، ومن ثَمَّ ينطلقون إلى العلوم الشرعية الأخرى، فحفظ الشيخ القرآن الكريم عن ظهر قلب قبل أن يبدأ مرحلة البلوغ، فوعاه وأتقن سوره وآياته أشد الإتقان، ثم بعد حفظه لكتاب الله، ابتدأ سماحته في طلب العلم على يد العلماء بجد وجلد وطول نفس وصبر.

ولقد ذكر سماحته في محاضرته النافعة «رحلتي مع الكتاب»: أن لوالدته أثرًا بالغًا، ودورًا بارزًا في اتجاهه للعلم الشرعي وطلبه والمثابرة عليه، فكانت تحثه وتشد من أزره، وتحضه على الاستمرار في طلب العلم والسعي وراءه بكل جد واجتهاد.

فقده لبصره أولى محطات المحن:

كان سماحة الشيخ عبد العزيز مبصرًا في أول حياته، وشاء الله لحكمة بالغة أرادها أن يضعف بصره في عام ١٣٤٦ هـ إثر مرض أصيب به في عينيه، ثم ذهب جميع بصره في عام ١٣٥٠ هـ، وعمره قريب من العشرين عامًا؛ ولكن ذلك لم يُثْنِه عن طلب العلم، أو يقلل من همته وعزيمته بل استمر في طلب العلم ملازمًا لصفوة فاضلة من العلماء الربانيين والفقهاء الصالحين، فاستفاد منهم أشد الاستفادة، وأثّروا عليه في بداية حياته العلمية، بالرأي السديد، والعلم النافع، والحرص على معالي الأمور، والنشأة الفاضلة، والأخلاق الكريمة، والتربية الحميدة، مما كان له أعظم الأثر، وأكبر النفع في استمراره.

ومما ينبغي أن يعلم أن سماحة الشيخ عبد العزيز قد استفاد من فقده لبصره فوائد عدة نذكر على سبيل المثال منها أربعة أمور:

الأمر الأول- حسن الثواب، وعظيم الأجر من الله سبحانه وتعالى، فقد روى الإمام البخاري في «صحيحه» في حديث قدسي: «إِنَّ الله قَالَ: إِذَا ابْتَلَيْتُ عَبْدِي بِحَبِيبَتَيْهِ فَصَبَرَ عَوَّضْتُهُ مِنْهُمَا الجَنَّةَ» (البخاري).

الأمر الثاني- قوة الذاكرة، والذكاء المفرط: فالشيخ حافظ العصر في علم الحديث، فإذا سألته عن حديث من الكتب الستة، أو غيرها كـ«مسند الإمام أحمد» والكتب الأخرى تجده في غالب أمره مستحضرًا للحديث سندًا ومتنًا، ومن تكلم فيه، ورجاله وشرحه.

الأمر الثالث- إغفال مباهج الحياة، وفتنة الدنيا وزينتها، فالشيخ كان متزهدًا فيها أشد الزهد، وتورع عنها، ووجَّه قلبه إلى الدار الآخرة، وإلى التواضع والتذلل لله سبحانه وتعالى.

الأمر الرابع- استفاد من مركب النقص بالعينين، إذ ألح على نفسه وحطمها بالجد والمثابرة حتى أصبح من العلماء الكبار، المشار إليهم بسعة العلم، وإدراك الفهم، وقوة الاستدلال، وقد أبدله الله عن نور عينيه نورًا في القلب، وحبًا للعلم، وسلوكًا للسنة، وسيرًا على المحجة، وذكاءً في الفؤاد.

المكانة العلمية لأسرته:

وأسرة آل باز معروفة بالعلم والفضل، والزهد والورع، ويغلب على بعض أفرادها العناية بالتجارة، وعلى بعضها العناية بالزراعة، ولعل من أبرز علماء هذه الأسرة الشيخ عبد المحسن بن أحمد بن عبد الله بن باز المتوفى سنة ١٣٤٢ هـ، كانت له دراية تامة في الفقه، واطلاع واسع على العلوم الشرعية، ومحبة لطلبة العلم والاعتناء بهم، مع حسن الأخلاق، وكريم الشمائل، وطيب التعليم والتدريس.

ومن العلماء البارزين من تلك الأسرة، الشيخ مبارك بن عبد المحسن بن باز المكنى «بأبي حسين»، وهو من كبار حملة العلم المعروفين بالعلم والفضل وحسن السيرة، وكان والده الشيخ / عبد المحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ هو قاضي بلدة الحلوة، فقرأ عليه في بعض العلوم الشرعية في أول طلبه للعلم، ثم لما توفي والده، تولى القضاء بعده، ثم نقل بعد ذلك إلى قضاء عدة بلدان منها بيشة والأرطاوية ورنية.

ولما تولى الملك عبد العزيز على الحجاز عينه قاضيًا في الطائف، والشيخ مبارك يعتبر أحد العلماء الذين بعثهم الملك عبد العزيز إلى مكة لكي يناظروا علماءها ويناقشوهم في مسائل تتعلق بالتوحيد والعقيدة الصحيحة، وقد أبلى الشيخ مبارك في ذلك بلاء حسنًا وكانت له اليد الطولى في تبيين بعض المسائل وإيضاحها، وظهر الحق إلى جانب علماء الدعوة.

وخلاصة القول: أن الطابع الغالب على هذه الأسرة، هو طابع الجد في ممارسة الخير، سعيًا في نشدان الكسب الحلال، والمذاكرة الحيّة في مسائل الدين، مع الالتزام بالفضائل والأخلاق الحميدة - رحم الله أمواتهم، وبارك في أحيائهم، وجعل منهم العلماء الصالحين.

من أخلاق الإمام:

كانت للشيخ هيبة فيها عزة العلماء مع عظيم مكانتهم وكبير منزلتهم، وهذه الهيبة قذفها الله في قلوب الناس، وهي تنم عن محبة وإجلال وتقدير له، لا من خوف وهلع وجبن معه، بل إن الشيخ قد فرض احترامه على الناس، بجميل شمائله وكريم أخلاقه، مما جعلهم يهابونه حياء منه، ويقدرونه في أنفسهم أشد التقدير.

ومما زاد هيبته أنه ابتعد عن ساقط القول، ومرذول اللفظ، وما يخدش الحياء أشد الابتعاد، فلا تكاد تجد في مجلسه شيئًا من الضحك إلا نادرًا ولمامًا، بل كنت تجد مجالسه عامرة بذكر الله، والتفكر والتأمل في الدار الآخرة.

ومع هذه المكانة العظيمة، والمنزلة السامية، والهيبة، فإنه آية في التواضع، وحسن المعاشرة، وعلو الهمة، وصدق العزيمة، مع عزة في النفس، وإباء في الطبع، بعيد كل البعد عن الصلف والتكلف المذموم كأنه وضع بين نصب عينيه قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾.

لعل من أبرز ما تميز به شيخنا الزهد في هذه الدنيا، مع توفر أسبابها، وحصول مقاصدها له، فقد انصرف عنها بالكلية، وقدم عليها دار البقاء، لأنه علم أنها دار الفناء،

متأسيًا بزهد السلف الصالح الذين كانوا من أبعد الناس عن الدنيا ومباهجها وزينتها الفانية، مع قربها منهم، فالشيخ كان مثالًا يحتذى به، وعلمًا يقتدى به، وقدوة في الزهد والورع وإنكار الذات، والهروب من المدائح والثناءات العاطرة، وكم من مرة سمعته في بعض محاضراته، حين يطنب بعض المقدمين في ذكر مناقبه وخصاله الحميدة، وخلاله الرشيدة، يقول: «لقد قصمت ظهر أخيك، وإياكم والتمادح فإنه الذبح، اللهم اجعلني خيرًا مما يظنون، واغفر لي ما لا يعلمون» بمثل هذه الكلمات النيرة، والتوجيهات الرشيدة نراه يكره المدح والثناء كرهًا شديدًا، وهذا يدل على زهد في القلب وعفة في الروح، وطهارة في الجوارح، وخشية للمولى جل وعلا.

فصاحته وخطابته:

يعد سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ من أرباب الفصاحة، وأساطين اللغة وخاصة في علم النحو، وفي علوم اللغة العربية كافة.

وفصاحته تبرز في كتاباته ومحادثاته، وخطبه ومحاضراته وكلماته، فهو ذو بيان مشرق، ونبرات مؤثرة حزينة، وأداء لغوي جميل، ويميل دائمًا إلى الأسلوب النافع الذي كان عليه أكثر أهل العلم وهو الأسلوب المسمى «السهل الممتنع» فتجده من أكثر الناس بعدًا عن التعقيد والتنطع في الكلام والتشدق في اللفظ والمعنى، والتكلف والتمتمة، بل هو سهل العبارة، عذب الأسلوب، تتسم عباراته وكتاباته بالإيجاز والإحكام والبيان.

ومن نوافل الأمور أن يقدر القارئ الكريم ثقافة الشيخ في اللغة والأدب وحسن البيان؛ لأن معرفة ذلك وإتقانه من الأسس الرئيسية في فهم آيات الكتاب ونصوص السنة النبوية، ومعرفة مدلولات العلماء، ولهذا كان الشيخ متمكنًا مجيدًا للخطابة والكتابة.



والشيخ خطيب مصقع، وواعظ بليغ سواء في محاضراته الكثيرة النافعة أو تعقيباته على محاضرات غيره، ومن مميزاته وخصائصه الخطابية قدرته على ترتيب أفكاره حتى لا تتشتت، وضبطه لعواطفه حتى لا تغلب عقله، ثم سلامة أسلوبه، الذي لا يكاد يعتريه اللحن في صغير من القول أو كبير، وأخيرًا تحرره من كل أثر للتكلف والتنطع.

وكان الشيخ عبد العزيز صاحب بصيرة نافذة، وفراسة حادة، يعرف ذلك جيدًا من عاشره وخالطه، وأخذ العلم على يديه. ومما يؤكد على فراسته أنه يعرف الرجال وينزلهم منازلهم، فيعرف الجادّ منهم في هدفه ومقصده من الدعاة وطلبة العلم فيكرمهم أشد الإكرام، ويقدمهم على مَنْ سواهم، ويخصهم بمزيد من التقدير ويسأل عنهم وعن أحوالهم دائمًا، وله فراسة في معرفة رؤساء القبائل والتفريق بين صالحهم وطالحهم، وله فراسة أيضًا في ما يعرض عليه من المسائل العويصة، والمشكلات العلمية؛ فتجده فيها متأملًا متمعنًا لها، تقرأ عليه عدة مرات، حتى يفك عقدتها، ويحل مشكلها، وله فراسة أيضًا في ما يتعلق بالإجابة عن أسئلة المستفتين، فهو دائمًا يرى الإيجاز ووضوح العبارة ووصول المقصد إن كان المستفتي عاميًّا من أهل البادية، وإن كان المستفتي طالب علم حريص على الترجيح في المسألة، أطال النَّفَس في جوابه مع التعليلات وذكر أقوال أهل العلم، وتقديم الأرجح منها، وبيان الصواب بعبارات جامعة مانعة.

ولسماحة الشيخ مواقف كثيرة مضيئة أفردها بعض الكُتَّاب في كتب مثل كتاب «مواقف مضيئة في حياة الإمام عبد العزيز بن باز» أفرد فيه المؤلف العديد من مواقف الشيخ في حياته الوظيفية أو الدعوية أو الأسرية أو في المعاملات بين الناس، وكلها تدل على حسن خُلُقه رَحِمَهُ اللَّهُ، وهناك كتب أخرى أبرزها كتاب يقع في أكثر من سبعمائة صفحة تحت عنوان «الإنجاز في ترجمة الإمام ابن باز».

وفي محطة الشيخ الأخيرة التي مات فيها يقول الشيخ أحمد بن عبد العزيز بن باز: في تلك الليلة كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ بصحة طيبة، وجلس مع الناس في المجلس، واستقبل الزوار ومع شدة مرضه إلا أنه أحس ألا يترك عادته، بل حتى المكالمات الهاتفية استقبلها وأفتى أهلها.

وبعد العشاء جلس مع أهله وأبنائه واستقبل من قدم من سفر منهم ثم اضطجع ونام ساعتين تقريبًا، واستيقظ في منتصف الليل وتناول عشاء خفيفًا، كما استقبل بعض الأهل وجلس معهم ثم تفرغ للذكر والتسبيح، وقد دخلت عليه حوالي الساعة الواحدة والنصف فجرًا فوجدته جالسًا في مصلاه، حيث كان يرحمه الله شديد الحرص على صلاة الليل، فلما سلمت عليه وقبلت يده ورأسه وسألته عن صحته بادرني مستفسرًا عن سبب سهري، فقلت: إنني لن أنام حتى ينام مرتاحًا، فطلب مني النوم وطمأنني على حاله.

ثم نام رَحِمَهُ ٱللَّهُ ولاحظت الوالدة في حوالي الثالثة والنصف فجرًا أنه تبسم فسألته إن كان يريد شيئًا فلم يُجِبْ عليها، فاتصلت بي، فلما نزلت وجدته يتنفس بصوت عالٍ وبصورة غير طبيعية.

طلبنا الإسعاف والطبيب وحضر الإخوة كلهم، واجتمعنا حوله، وحاولنا إيقاظه إلا أنه كان في غيبوبة وفجأة انقطع النفس، فأُصبنا بصدمة لم نعرف معها ماذا نفعل حتى حضر أحد الأقارب وكان طبيبًا وقام بالإسعافات الأولية، ونقلناه للمستشفى وحاولنا إسعافه، وبذل الأطباء جهودًا للتنفس الصناعي إلا أن إرادة الله كانت أن يموت رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تلك الليلة. اهـ

ويتحدث صاحب كتاب «الإنجاز في ترجمة الإمام عبد العزيز بن باز» عن مرضه ووفاته فيقول:

من طبيعة الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه كان جلدًا لا يتشكى ولا يتأوه وتحمل ما لا يتحمل غيره حتى كان يعتل العلل الشديدة ولا يكاد يبدو ذلك عليه، أو يثنيه عن أعماله ومهامه، وقد

عاش الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ حياة حافلة بالجد والاجتهاد في الدعوة إلى الله والمثابرة عليه، حتى في مرضه الشديد أنجز كثيرًا من الأعمال الموكلة به من شفاعة وإعمار مسجد وإغاثة وإحسان للفقراء والمساكين. اهـ

ويقول د. ناصر مسفر الزهراني إمام وخطيب مسجد الشيخ ابن باز بمكة المكرمة: لقد رأيته رَحِمَهُ اللَّهُ في الأيام الأخيرة من حياته، وهو على عمله الدؤوب، وصبره العظيم، بل يزيد ولا ينقص، في ليلة من الليالي صلى المغرب ثم ألقى درسًا، ثم صلى العشاء . ثم عاد إلى البيت ليستقبل عددًا من حالات الطلاق، استنفذت من وقته أكثر من ساعة، ثم قام لموعد مع عدد من الأطباء بالجامعة لديهم أسئلة واستفسارات، ثم انتهى منهم، وألقى محاضرة في مدينة أخرى عن طريق الهاتف، كل هذا الجهد والعمل فقط من المغرب إلى ما قبل النوم، دعك من بقية النهار، وهو مريض منهك، المرض يفتك بجسمه، والوباء يلتهم أحشاءه، ولم يبقَ منه إلا جلد على عظم، وفي الليلة التي توفي فيها رَحِمَهُ اللَّهُ كان جالسًا للناس من المغرب للعشاء، وأفتى في بعض المسائل بعد العشاء وجلس إلى أهله وأبنائه، ثم في الثلث الأخير من الليل وهو في مصلاه يذكر ربه ويسبحه ويحمده ويمجده: سافرت الروح إلى بارئها وغادرت الروح الطاهر هذه الدنيا بأتعابها وأوصابها، سافرت في ليلة الخميس، لأنه كان يستحب السفر كل اثنين وخميس فسافر إلى مولاه، وأجاب ربًّا دعاه رَحِمَهُ اللَّهُ.

ويحدثنا الدكتور محمد الشويعر عن مرضه وطبيعته قائلًا: وكانت قضايا المسلمين هي شغله الشاغل حتى آخر لحظة في حياته وهو على سرير المرض في المستشفى العسكري في الهدا، وصحته إلى قبل ذلك كانت جيدة، وكان يتردد بين الفينة والأخرى على المستشفى التخصصي بالرياض لفحوصات خاصة إلا أنه في الأسبوع الماضي وتحديدًا مساء الأربعاء قبل الماضي أدخل مستشفى القوات المسلحة في الهدا بعد تعرضه لفقدان الشهية، حيث لم يستطع أن يتناول الطعام، وهذا ما عرضه لإمساك شديد نتج عنه بعض التأثيرات والجروح،

ولكونه لا يشكو من أمراض السكر والضغط، فقد تحسنت حالته، ونتيجة لتقارير الأطباء والتحاليل حول ذلك ولرغبة سماحته بالعودة إلى منزله خرج من المستشفى مساء الثلاثاء الماضي، وكان يعاني من خمول وضعف عام، وحال عودته لم يكن للراحة طريق إليه، حيث طالب بالجلوس في مجلسه المفتوح بمنزله الأربعاء، وباشر لقاءه مع المراجعين كالمتبع في قراءة المعاملات والفتاوى، ولم يُلاحَظ عليه - كما عرفناه دومًا- أي تغير في الاهتمام والاستيعاب، وظلت ذاكرته الحافظة التي يشهد بها كل من رآه لا تتغير وكانت تلك الجلسة هي الجلسة الأخيرة لسماحته مع المراجعين والحضور وعبر الهاتف، وقد أدى صلاة العشاء مع أسرته في منزله وتحدث معهم في مجلس أسري حتى شعر في الثانية عشر ببعض الآلام في القلب وضيق في التنفس، وعند الثالثة صباحًا اشتدت عليه الأزمة حتى فارق الحياة.

مرضه:

من طبيعة الشيخ رَحِمَهُ اللهُ أنه كان جلدًا صبورًا لا يشتكي ولا يتأوه مع ما مر به من أمراض شديدة في أوقات مراحل عمره، ومع ذلك لم تُثْنِهِ عما هو فيه من الجد والاجتهاد ومن الدعوة إلى الله والمثابرة على ذلك حتى إنه في مرضه الشديد أنجز كثيرًا من الأعمال الموكلة به.

فمرض وفاته رحمه الله بدأ منذ عام ١٤١٩ـ في شهر رمضان حيث كان يشعر بألم في البطن، فاشتد به المرض، فشكلت لجنة طبية بأمر خادم الحرمين الشريفين للنظر في حالته، وعُرض عليه السفر للعلاج في الخارج فرفض، فأحضر له أطباء من أمريكا وبلجيكا، فلما حضروا أوصوا بكي المريء، فخف الألم قليلًا، ثم عاوده بعد شهرين وهو في الرياض، فدخل المستشفى، ثم خرج منه بعد فترة لاستقرار حالته، ثم أصبحت حالته تتدنى حتى شهر ذي القعدة، فنصحه الأطباء بالبقاء في المستشفى ولكن كان قلبه معلقًا بالحج.

وبعد إلحاح شديد من ولي العهد الأمير عبد الله بن عبد العزيز، ترك الحج ووكل نائبه الشيخ عبد العزيز آل الشيخ ليقوم مقامه بالحج، ثم قام في تاريخ ٢٢/ ١٢/ ١٤١٩هـ بأداء

العمرة وبقي في مكة حتى نهاية ذي الحجة، ثم انتقل إلى مقره الصيفي بالطائف، فبدأت صحته بالتدني، ومع ذلك كانت همته وعزيمته ونشاطه وعمله، ومزاجه وتفكيره، وذاكرته ودروسه ومواعظه على ما هي عليه قبل مرضه، وفي يوم الخميس ٢٠/ ١/ ١٤٢٠هـ اشتد به المرض، فنقل إلى المستشفى العسكري بالهداء في محافظة الطائف، ومع هذا كانت المعاملات تقرأ عليه، والمستفتون والزوار يتوافدون عليه من كل مكان، وهو يستقبلهم بتهلل وفرح وسعة بال، واستمر على هذه الحال إلى يوم الثلاثاء ٢٥/ ١/ ١٤٢٠هـ فخرج من المستشفى فاستقبل الناس في بيته وجلس لهم بعد المغرب ليلة وفاته فقرئت عليه المعاملات، ورَدَّ على الفتاوى المباشرة والهاتفية، وقبل الفجر من يوم الخميس الموافق ٢٢/ ١/ ١٤٢٠هـ يقول ابنه أحمد: صلى الشيخ ما شاء أن يصلي في تلك الليلة، فاضطجع ونام، وبعد ساعة جلس في فراشه، فالتفت يمينًا وشمالًا؛ فتبسم ثم اضطجع، وبعد ذلك ارتفعت نفسه وحشرجت، فنقلناه إلى مستشفى الملك فيصل بالطائف، وهو يردد: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر.

وفي صباح الخميس الموافق ٢٧/ ١/ ١٤٢٠هـ لفظ أنفاسه وهو في طريقه إلى مستشفى الملك فيصل بالطائف، ثم نُقل إلى ثلاجة القوات المسلحة في الهداء حتى جاء وقت تغسيله وذلك في صباح يوم الجمعة، فنقل جثمانه إلى منزله بمكة المكرمة فغسل، وصلى عليه أهل بيته يتقدمهم فضيلة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله آل الشيخ مفتي عام المملكة العربية السعودية، ثم صلى عليه في المسجد الحرام بعد صلاة الجمعة .

ويذكر ابنه الشيخ أحمد عن اللحظات الأخيرة في حياة سماحة الشيخ فيقول: إن سماحته عانى في الفترة الأخيرة من إمساك مزمن وعدم رغبة في الأكل، وأنه في ليلة الخميس -وهي الليلة الأخيرة- شهدت نشاطًا واضحًا جلس فيها للإفتاء وكان يرد على الهاتف بنفسه، وقبل ذلك أنهى مع مدير مكتبه عددًا من المعاملات، وكان قبل ذهابه للنوم بصحة جيدة يحدث عائلته، ويتجاذب أطراف الحديث معهم متفقدًا حال الأبناء والأحفاد في جلسة خاصة مع

أبنائه حتى الساعة الثانية عشر مساء، ثم انتقل بعدها للنوم، لكنه أحس بضيق في التنفس نُقِل على أثره إلى مستشفى الملك فيصل بالطائف، وهناك توفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وقبل وفاته كان يردد «سبحان الله، والحمد لله، والله أكبر» الكلمات التي أحبها وذكر الله بها في كل وقت وحين في الدروس والمساجد، في المكاتب والاجتماعات، في حِلَق العلم، في منزله، في الولائم والمناسبات؛ خُتِم له بخير الأعمال وأفضل الكلمات، وأحسن الأذكار، وأحب الكلمات إلى رب الأرض والسماوات.

ثم نقل إلى مكة المكرمة ليكون دفينًا فيها، وتم غسله وتكفينه في منزله بالعزيزية، ورؤي ولله الحمد والمنة وقد اكتسى وجهه بعلامات من الضياء والنور الساطع، فكان بياضه شديدًا يأخذ بالأبصار ويبهر الألباب، وذلكم فضل الرب الوهاب جازاه بأحسن الثواب.

ولقد صلى على جثمانه الولاة والعلماء وخَلْقٌ كثير، وجموع غفيرة لا يحصيها إلا الله، لأن المصاب كان عظيمًا والفاجعة به كبيرة، والرزية به عظيمة، وصُلِّي عليه بعد صلاة الجمعة الثامن والعشرين من شهر محرم عام ١٤١٩هـ، وشهدت الصلاة عليه جموع غفيرة كلهم يترحمون عليه ويدعون له بقلوب ملأها الحزن والأسى على فراقه ووداعه، والكل يريد أن يشارك في حمل جنازته ويلقي عليه النظرة الأخيرة، مع كثرة الزحام وشدته وكثرة المشيعين له، وكان يومًا مشهودًا تذكرنا جنازته بالجنازات المشهورة، كجنازة الإمام أحمد بن حنبل أو ابن تيمية أو جنازة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ وغيرهم، بل هي أعظم من تلك كلها، فقد قُدر العدد بمليوني مسلم امتلأت بهم رحبات المسجد الحرام جاءوا من جميع أنحاء المملكة، بل ومن البلاد العربية والأوربية، وضاقت بهم ساحاته حتى لا تكاد تجد موطن قدم، وموضعًا خاليًا من الناس، والكل يترحم ويستغفر له، وهكذا تبرز دومًا الكلمة الذهبية من الإمام أحمد حينما قال لأهل البدع: بيننا وبينكم يوم الجنائز.

وأمَّ المصلين إمام المسجد الحرام فضيلة الشيخ محمد بن عبد الله السبيل، حيث تحدث في خطبته عن فضل العلم والعلماء، وذكر بعض مآثر الفقيد، وعزى الأمة به، وصبَّر الناس، وبعد صلاة الجمعة قدمت الجنازة، فعلا النحيب والبكاء والدعاء للشيخ، فما كادت الجنازة تصل إلى المكان الذي هو أقرب للإمام إلا بشق الأنفس لكثرة الزحام، ولقد شهدها آلاف مؤلفة من المسلمين، حيث سارت في موكب مهيب وسط الجموع الغفيرة إلى مقبرة العدل بمكة المكرمة يتقدمهم فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وكان ذلك اليوم يومًا مشهودًا للجميع.

فرحم الله الشيخ رحمة واسعة، وأسكنه فسيح جناته، وجعله في الفردوس الأعلى، وحشره في زمرة الأنبياء والصِّدِّيقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا



المصادر:

- مقدمة كتاب مجموع فتاوى الشيخ الصادر عن إدارة البحوث العلمية والإفتاء بالرياض.
- موقع الشيخ على الإنترنت.
- مواقف مضيئة في حياة الإمام عبد العزيز بن باز.
- «الإنجاز في ترجمة الشيخ ابن باز» للشيخ عبد الرحمن بن يوسف.

الإمام/ شمس الدين الذهبي

هو محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز بن عبد الله التركماني الأصل الفارقي ثم الدمشقي، شمس الدين الذهبي.

ولد الإمام الذهبي في اليوم الثالث عشر من شهر ربيع الآخر سنة ٦٧٣هـ بكفربطنا من غوطة دمشق، واهتم بدراسة القرآن بالقراءات العشرة، وأتقنها قبل أن يبلغ العشرين من عمره. وعني بالحديث عناية فائقة، فسمع من جم غفير من المحدثين، ورحل داخل البلاد الشامية وخارجها، فسمع الحديث بدمشق، وبعلبك، وحمص، وحماه، وحلب، وطرابلس، ونابلس، والرملة، وبلبيس، والقاهرة، والإسكندرية، والقدس. وحج سنة ٦٩٨هـ فسمع من علماء الحجاز وغيرها.

واحتوى معجم شيوخه على ألف وثلاثمائة شيخ. واتصل الذهبي اتصالًا وثيقًا بثلاثة من شيوخ ذلك العصر، وهم: جمال الدين أبو الحجاج يوسف بن عبد الرحمن المِزِّي، وتقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم المعروف بابن تيمية الحراني، وعلم الدين أبو محمد القاسم بن محمد البرزالي، وأحبَّهم وترافق معهم طيلة حياته، وتأثر بهم تأثرًا عظيمًا. لاسيما شيخ الإسلام ابن تيمية الذي قال عنه الذهبي: «وهو أكبر من أن ينبه مثلي على نعوته، فلو حُلِّفتُ بين الركن والمقام لحلفتُ أني ما رأيت بعيني مثله، ولا والله رأى هو مثل نفسه في العلم»، وقد خالفه الذهبي مع ذلك في مسائل، وانتقده في بعض آرائه حتى أرسل إليه نصيحة مكتوبة في بعض ذلك.

شمائله وأخلاقه:

قال تلميذه تقي الدين ابن رافع السلامي: «كان خيّرًا، صالحًا، متواضعًا، حسن الخُلُق، حلو المحاضرة. غالب أوقاته في الجمع والاختصار والاشتغال بالعبادة. له ورد بالليل، وعنده مروءة وعصبية وكرم».

وقال الزركشي: «.. مع ما كان عليه من الزهد التام، والإيثار العام، والسبق إلى الخيرات، والرغبة بما هو آتٍ».

نشأ الإمام الذهبي: في عصر كثرت فيه الأحداث والصراعات الفكرية والسياسية، وتميزت تلك المرحلة بالعديد من السلبيات. منها على سبيل الإيجاز ما يلي:-

بدأت الحروب الصليبية في أواخر القرن الخامس الهجري، ودامت قرنين من الزمان، أنهكت جميع قوى الإسلام السياسية، وصيَّرت البلاد الإسلامية ممالك صغيرة تحت أمراء ضعفاء، حتى استعان بعضهم بأعداء الإسلام من الصليبيين والتتار، ناهيك عن الخيانات التي قام بها الفاطميون بانحيازهم للصليبيين.

سقوط الخلافة العباسية على يد التتار عام ٦٥٦هـ:

لقد تم إنهاء الخلافة وسقطت بغداد على يد هولاكو خان بالتآمر مع ابن العلقمي الرافضي الذي خان المعتصم بالله الخليفة العباسي وطمَّع التتار في الاستيلاء على العراق انتقامًا من أهل السنة والجماعة، وقُتل ببغداد يومئذ أكثر من ألف ألف، حتى جرت السيول من الدماء، ثم تشوف هولاكو إلى الشام ومصر، وتمت سيطرته عليها ثم على حلب ودمشق، وملك العراقين وخراسان. حينئذ دخل العالم الإسلامي في حالة من الفوضى التي يرثى لها.

لا شك أن الحوادث التي تقدم ذكرها قد تركت آثارًا ظاهرة على حياة الأمة الإسلامية، وخلَّف دخول التتار على البلاد الإسلامية من التقاليد والعادات ما جعل من المجتمع الإسلامي مجتمعًا منحلًا انتشرت فيه المعاصي والمنكرات من البغاء والرشوة والحيل في المعاملات وغيرها.

وقد دفع ذلك بالعلماء العاملين والدعاة المخلصين إلى القيام بدور بارز في محاربة تلك الظواهر الاجتماعية الفاسدة عن طريق الوعظ والتدريس والتأليف وسائر وسائل الإصلاح

الاجتماعي. ومن هؤلاء العلماء الأفذاذ الإمام شمس الدين الذهبي ورفقاؤه شيخ الإسلام ابن تيمية وأبو الحجاج المزي وعلم الدين البرزالي وغيرهم من علماء ذلك العصر مثل النووي والعز ابن عبد السلام وابن دقيق العيد وعدد لا يحصى من العلماء كثرة.

كانت دمشق في نهاية القرن السابع الهجري ومطلع القرن الثامن قد أصبحت مركزًا كبيرًا من مراكز الحياة الفكرية، فيها من المدارس العامرة ودور الحديث والقرآن العدد الكثير. وكانت العناية بالعلوم الشرعية من التفسير والحديث والفقه والأصول هي السمة البارزة لهذا العصر. وظهرت فيه الموسوعات العلمية، مثل: «بداية المجتهد» لابن رشد و«تفسير الفخر الرازي» و«المغني» لابن قدامة المقدسي و«الكامل في التاريخ» لابن الأثير و«الإحكام في أصول الأحكام» للآمدي و«المجموع» للنووي ومؤلفات ابن تيمية وتلاميذه ومعاصريه وهي كثيرة جدًا.

وشهدت دمشق كذلك في هذا العصر نزاعًا مذهبيًا وعقائديًا حادًا. وكان الحكام المماليك يتدخلون فيه في كثير من الأحيان، فيناصرون فئة على أخرى. وكان الأيوبيون قبل ذلك قد عملوا على نشر المذهب الشافعي وعقيدة أبي الحسن الأشعري، حتى قال المقريزي: «وقد أخذ بها - يعني الأشعرية - جماهير أهل الأمصار الإسلامية، ومن خالف هذه العقيدة أُريق دمه». وكان النزاع بين الأشاعرة وبين الحنابلة نزاعًا مضطرمًا، زاده اعتماد الحنابلة على النصوص في دراسة التوحيد واعتماد الأشاعرة على البرهان العقلي والأدلة المنطقية.

وإلى جانب ذلك كان الجهل والاعتقاد بالخرافات سائدًا بين عوام المسلمين. وكان التصوف منتشرًا في أرجاء البلاد انتشارًا عظيمًا. وظهر بينهم كثير من المشعوذين الذين وجدوا اهتمامًا وتأييدًا من قِبَل الحكام. وانتشر تقديس الأشياخ والاعتقاد فيهم، وطلب النذور عند قبورهم، بل كانوا يسجدون لبعض تلك القبور ويطلبون المغفرة من أصحابها. والتف غالبية

الرعاع من الناس حول المتصوفة مثل أحمد البدوي وإبراهيم الدسوقي وغيرهما للتبرك بهم والاهتداء بسيرهم.

وعلى النقيض من ذلك كان الحنابلة يرفعون لواء الإصلاح والتجديد وقمع البدع والخرافات، والعودة إلى نهج السلف والتمسك بهديهم. وعلى رأسهم الإمام الذهبي ورفاقه الذين سبق ذكرهم.

في ذلك الجو السياسي والعلمي والفكري نشأ وترعرع الإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي.

اتفق علماء عصره على الاعتراف بفضله وبراعته وعلو منزلته في العلم إلى درجة أن الإمام الحافظ ابن حجر شرب ماء زمزم سائلًا الله عَزَّ وَجَلَّ أن يبلغه مرتبة الذهبي في الحفظ، وأن يبلغ فطنته.

قال السيوطي في «ذيل تذكرة الحفاظ»: «والذي أقوله: إن المحدثين عيال الآن في الرجال وغيرها من فنون الحديث على أربعة: المزي، والذهبي، والعراقي، وابن حجر».

وتاج الدين السبكي مع مخالفته للذهبي في عدد من المسائل ورَدّه عليه إلا أنه لزم فيه الإنصاف حيث قال: «اشتمل عصرنا على أربعة من الحفاظ، بينهم عموم وخصوص: الذهبي والمزي والبرزالي والشيخ الإمام الوالد، لا خامس لهؤلاء في عصرهم..».

وقال الحافظ ابن حجر العسقلاني نقلًا عن البدر النابلسي في مشيخته: «كان علامة زمانه في الرجال وأحوالهم، حديد الفهم، ثاقب الذهن، وشهرته تغني عن الإطناب فيه»

وقال ابن حجر في «الدرر الكامنة»: «ومهر في الحديث وجمع فيه المجاميع المفيدة الكثيرة حتى كان أكثر أهل عصره تصنيفًا، وجمع تاريخ الإسلام فأربى فيه على مَنْ تقدم بتحرير أخبار المحدثين خصوصًا».

وقال الحافظ ابن كثير في «البداية والنهاية»: «الحافظ الكبير مؤرخ الإسلام وشيخ المحدثين وقال: وقد ختم به شيوخ الحديث وحفاظه» .. وقال ابن شاكر الكتبي في «فوات الوفيات»: الشيخ الإمام العلامة الحافظ، حافظ لا يُجارى، ولافظ لا يُبارى، أتقن الحديث ورجاه، ونظر علله وأحواله، وعرف تراجم الناس، وأبان الإبهام في تواريخهم والإلباس. جمع الكثير، ونفع الجم الغفير، وأكثر من التصنيف، ووفر بالاختصار مؤنة التطويل في التأليف».

وقال أبو المحاسن الحسيني في «ذيل تذكرة الحفاظ»: «الشيخ الإمام العلامة شيخ المحدثين وقدوة الحفاظ والقراء محدث الشام ومؤرخه ومفيده».

وقال البدر النابلسي: «كان علامة زمانه بالرجال وأحوالهم، حديد الفهم، ثاقب الذهن، وشهرته تغني عن الإطناب فيه».

وقال السيوطي في «ذيل تذكرة الحفاظ»: «الإمام الحافظ، محدث العصر، خاتمة الحفاظ، ومؤرخ الإسلام، وفرد الدهر، والقائم بأعباء هذه الصناعة»، وقال: «والذي أقوله: إن المحدثين عيال الآن على أربعة: المزي، والذهبي، والعراقي، وابن حجر..».

قال أبو المحاسن الحسيني: «وكان أحد الأذكياء المعدودين والحفاظ المبرزين».

تولى الحافظ الذهبي منذ سنة ٧٠٣هـ الخطابة بمسجد كفر بطنا، وهي قرية بغوطة دمشق، وظل مقيمًا بها إلى سنة ٧١٨هـ. وفي هذه السنة وُلي مشيخة دار الحديث بتربة أم الصالح، وكانت من كبريات دور الحديث بدمشق آنذاك، وقد اتخذ من هذه المدرسة سكنا له إلى أن توفاه الله.

وتولى كذلك مشيخة الحديث بكبريات دور الحديث الدمشقية كدار الحديث العدوية، ودار الحديث الفاضلية، ودار الحديث الظاهرية، ودار الحديث التنكزية، ودار الحديث النفيسية التي تولى التدريس والإمامة بها بعد وفاة رفيقه علم الدين البرزالي عام ٧٣٩هـ.

وقد خلَّف الحافظ الذهبي للأمة الإسلامية ثروة هائلة من المصنفات القيمة النفيسة التي هي المرجع في بابها. وعظمت الفائدة بهذه المؤلفات، ونالت حظًّا كبيرًا من الثناء، وكان لها القبول التام لدى الخاص والعام.

قال الحافظ ابن حجر: إنه أكثر أهل عصره تصنيفًا. وقال عن مؤلفاته: «ورغب الناس في تواليفه، ورحلوا إليه بسببها، وتداولوها قراءة ونسخًا وسماعًا».

قال الشوكاني في وصفها: وجميع مصنفاته مقبولة مرغوب فيها، رحل الناس لأجلها، وأخذوها عنه، وتداولوها وقرأوها، وكتبوها في حياته.. وطارت وقرأوها في جميع بقاع الأرض، وله فيها تعبيرات رائعة وألفاظ رشيقة غالبًا، لم يسلك مسلكه فيها أهل عصره ولا من قبله ولا قبلهم ولا أحد بعدهم .. وبالجملة فالناس في التاريخ من أهل عصره فمن بعدهم عيال عليه، ولم يجمع أحد في هذا الفن كجمعه، ولا حرره كتحريره، قال الحافظ ابن حجر: ورغب الناس في تواليفه، ورحلوا إليه بسببها، وتداولوها قراءة ونسخًا وسماعًا.

وقال أبو المحاسن الحسيني: وصنف الكتب المفيدة، فمن أطولها «تاريخ الإسلام»، ومن أحسنها «ميزان الاعتدال في نقد الرجال» .. وقال: مصنفاته ومختصراته وتخريجاته تقارب المائة، وقد سار بجملة منها الركبان في أقطار البلدان.

ابتلاءات قبل وفاته:

أضر الذهبي في أخريات حياته، وما زال بصره ينقص قليلًا قليلًا إلى أن تكامل عدمه، وذلك قبل أربع سنين من وفاته أو أكثر بقليل. وتوفي ليلة الاثنين ثالث ذي القعدة سنة ٧٤٨هـ في دمشق بالمدرسة المنسوبة لأم صالح في قاعة سكنه رَحِمَهُ اللَّهُ.

وقد حضر جنازته جم غفير من العلماء، كان من بينهم تاج الدين السبكي. ورثاه غير واحد من تلامذته منهم الصفدي والتاج السبكي.

الشيخ المجاهد/ عبد العزيز البدري

وهو عبد العزيز بن عبد اللطيف البدري، ولد في بغداد سنة ١٣٤٧ هـ، الموافق سنة ١٩٢٩م، وأصله من مدينة سامراء، ونشأ في بيئة علمية وتلقى دروسه الدينية على يد طائفة من علماء بغداد، ومنهم الشيخ أمجد الزهاوي، والشيخ محمد القزلجي، والشيخ عبد القادر الخطيب، ومحمد فؤاد الألوسي، وغيرهم، ونال إجازاته العلمية وعين إماما في مسجد السور سنة ١٩٤٩م، كما عُين خطيبًا في جامع الخفافين سنة ١٩٥٠م، ثم نقل إلى جامع الوشاش وبعده إلى جامع الحيدرخانة في شارع الرشيد، وقد تنقل بوظيفته في كثير من مساجد بغداد.

حياته ومعاناته:

الشيخ عبد العزيز البدري من أوائل الدعاة في العراق الذين قاوموا استبداد السلطات الحاكمة، ويعد أول داعية تم إعدامه في ظل حكم النظام الأسبق، خوفاً من قوة تأثيره في الناس.. ولم يعرف الخوف طريقه إلى نفسه أبداً، فواجه بإيمانه وصبره وشجاعته بطش السلطات؛ فكان يترجل على المنابر وينتقل بين المدن، مبيناً ظلم النظام ومخالفته لأحكام الشريعة الإسلامية.

ينتمي الشيخ البدري إلى عشيرة السامرائي، وقد ولد عام ١٩٢٩م في مدينة بغداد وكان شغوفاً بالعلم والتعلم، وتتلمذ على يد كبار مشايخ وعلماء العراق أمثال الشيخ الفقيه أمجد الزهاوي، والشيخ محمد فؤاد الألوسي، والشيخ عبد القادر الخطيب، والشيخ شاكر البدري، وغيرهم من فقهاء العراق وعلمائه.

وكانت ملكته العلمية وقدرته على الخطابة واضحة، وتجلى ذلك في وقوفه المبكر على منابر مساجد بغداد وهو دون العشرين من عمره، ففي عام ١٩٤٩م عُين إماماً في مسجد

السور في بغداد، واستمر على حمل أمانة المنبر حتى عام ١٩٥٤م عندما أدركت السلطة في العهد الملكي نشاطه وتأثيره في الناس، فعمدت إلى إبعاده إلى قرية نائية من قرى محافظة «ديالى» تدعى «قرية الحديد»، فعمل إماماً وخطيباً لجامع القرية، وترك فيها أثره الطيب، وخرّج منها أئمة وخطباء ودعاة صار لهم شأن في المجتمع العراقي. وبعد سقوط الحكم الملكي في ١٤ يوليو ١٩٥٨م أصبح إماماً وخطيباً لمسجد الحاج أمين في منطقة الكرخ، وفي عام ١٩٥٩م كان المدّ الشيوعي قد أخذ مأخذه، فتصدى للشيوعية على المنبر، فتم وضعه تحت الإقامة الجبرية لمدة عامين، حتى صدور العفو العام عن السياسيين في ٤ ديسمبر ١٩٦١م.

لا يخشى في الحق أحداً كان واعظاً وخطيباً، وجريئاً في كلمة الحق، ومتحمساً في الدعوة للإسلام، وحج إلى بيت الله الحرام عدة مرات وكان رجلاً مجاهداً لا تأخذه في الله لومة لائم وأعتقل بسبب ذلك عدة مرات. وقد تصدى للمد الشيوعي في العراق في عهد عبد الكريم قاسم، الذي أطلق على نفسه (الزعيم الأوحد) فخاطبه وهاجمه في محاضراته وأطلق عليه:(عتل بعد ذلك زنيم)، وقد بلغ التحدي مداه، عندما أعدم عبد الكريم قاسم مجموعة من قادة الجيش ومنهم ناظم الطبقجلي، ورفعت الحاج سري وغيرهم، فأثار الشيخ البدري الجماهير وقاد المظاهرات التي يقدر عددها في وقتها بأكثر من أربعين ألف متظاهر، وكلهم يهتفون بسقوط عبد الكريم قاسم، كما أصدر الفتوى بكفر الشيوعيين أنصار عبد الكريم قاسم ومؤيديه، وطالب بمحاربتهم، فما كان من الحكومة إلا أن تصدر الأوامر بفرض الإقامة الجبرية عليه في منزله، لمدة عام كامل من ٢ ديسمبر ١٩٥٩م، ولغاية ٢ ديسمبر ١٩٦٠م، ثم رفع الحظر عنه، فلم يهدأ ولم يتوقف عن الخطابة والتهجم على الحكومة، وتأليب الناس ضدها، فصدرت الأوامر بإيقافه عن العمل الوظيفي وحبسه في داره، ثم تكرر سجنه من ٨ يوليو ١٩٦١م، ولغاية ٤/ ١٢/ ١٩٦١م، حيث صدر العفو العام عن السجناء السياسيين،

ولقد لقي من البلاء في السجن والتعذيب الكثير ولكنه صبر ورفض كل العروض المغرية التي قدمت له.

ومن القصص المعروفة عن شجاعة الشيخ البدري، أنه تم فصل أحد طلابه في مدرسة التربية الإسلامية التي كان يعمل بها، بسبب تهجمه على سياسات الرئيس الأسبق عبد السلام عارف، وعلى إثر ذلك تصدى البدري لهذا التصرف، فتم إبعاده عن المدرسة ونقله إلى مسجد لم يتم اكتمال بنائه، لتعجيزه وتعطيل آلية جهاده ضد الظلم والطغيان، وبعد فترة قياسية وجهود الخيّرين، استطاع إنجاز بناء جامع «عادلة خاتون» قرب جسر الصرافية في جانب الرصافة، وعند افتتاح الجامع وهو يلقي خطبته على المنبر فوجئ بدخول عبد السلام عارف رئيس الجمهورية آنذاك، ولم يكد يأخذ عارف مكانه حتى بدأ الشيخ البدري بتوجيه كلماته المشهورة إلى عارف دون خوف أو تردد: «يا عبد السلام، طبق الإسلام.. إن تقربت من الإسلام باعاً تقربنا إليك ذراعاً.. يا عبد السلام، القومية لا تصلح لنا، وحدة الإسلام ملاذنا». وعند الانتهاء من خطبته جلس جانباً ولم يلتفت إلى الرئيس العراقي، فقام الأخير وصافحه قائلا: «أشكرك على هذه الجرأة!» ليُنقل بعد هذه المجابهة مرة أخرى إلى مسجد الخلفاء المغلق بين العامين (١٩٦٤ ـــ ١٩٦٦م) وذلك لشل نشاطه الإسلامي الذي لم يتوقف.

رده على علماء السلطة:

أتبع الحكام أساليب عدة لإثناء الشيخ البدري عن عزمه في التصدي لهم، فكانوا يرسلون له في بيته أو السجن بعض المرتزقة من علماء السلطة من المشايخ وأدعياء العلم، مظهرين محبتهم وحرصهم عليه، منكرين له التصدي للحكام وتدخله في السياسة، إن الدين لا علاقة له بالسياسة!

فكان يحزن لكلامهم ويستاء من مواقف الجبن والخذلان لدى هؤلاء العلماء ولهذا قام في محل أقامته الجبرية بتأليف كتاب في الرد عليهم مبينا سيرة السلف الصالح من العلماء العاملين والفقهاء، الذين تصدوا لظلم الظالمين، وأسماه (الإسلام بين العلماء والحكام).

ومن مقولاته في كتابه القيم الإسلام بين العلماء والحكام: (لقد جرت سنة الله في خلقه أن يفتنهم ويختبرهم ليميز الخبيث من الطيب، وقد أعتاد الظالمون من الحكام أن يضطهدوا الذين يخالفونهم في سلوكهم المنحرف، ويناهضونهم في أفكارهم الباطلة ولم يسايروهم في أهوائهم، وينزلوا بهم أنواع المحن، بعد أن أعرضوا عن أشكال المنح التي قدمها الحكام إليهم في ذلة وصغار، ولكن أنى للنفوس الكريمة، ذات المعدن الطيب أن تغرى بالمال أو يسيل لعابها على فتات الدنيا، أو تستمال بعرض زائل من الحياة).

واصل الشيخ البدري نهجه الشجاع وعدم انصياعه لرغبات حكام العراق، وكان دائماً يوجه لهم النصيحة والنقد، أملاً في رجوعهم إلى منهج الإسلام.. وقد ذكر حامد الجبوري، وزير الدولة والإعلام والشؤون الخارجية لفترات متعاقبة من حكم البعثيين (لبرنامج «شاهد على العصر» في قناة «الجزيرة» الإخبارية القطرية) أن الرئيس «أحمد حسن البكر» كان يقرب العلماء والمشايخ منه ومنهم الشيخ البدري، ولكن الملف الأمني كان بيد صدام حسين المشرف على التعذيب والاغتيالات، ولقد استمر البدري رغم كل ذلك يعتلي منابر بغداد، مبتدئاً بمقدمته الشهيرة: «أعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات حكّامنا»، ويختم خطبته قائلاً: «اللهم ارزقنا دولة كريمة تعز بها الإسلام وأهله، وتذل بها النفاق وأهله، وتجعلنا من الدعاة إلى طاعتك والاقتداء إلى سبيلك، وترزقنا بها كرامة الدنيا والآخرة، وشهادة في سبيلك».

وبالطبع، لم تَرُقْ أعمال وتصرفات البدري للنظام السابق وأزلامه، وفي إحدى الليالي، وبينما كان راجعاً من المسجد بعد صلاة العشاء برفقة صديقه عبد الغني شندالة، انقض عليه

أزلام النظام وأخذوه معهم، ثم ذهبوا إلى بيته وصادروا كل خطبه وأشرطته المسجلة، بالإضافة إلى كتابين كانا معدين للطباعة هما: «كتاب الله الخالد»، و«الإسلام حرب على الاشتراكية والرأسمالية».

اعتقال وتعذيب:

اختطف ليلاً وهو في طريقه إلى داره، وأخذوه إلى معتقل قصر النهاية وتم تعريضه للتعذيب الشديد في السجن ثم قطعوا له أجزاء من جسده وقيل أنه قطعوا له لسانه، وبعد فترة عرفت عائلته أنه مُعتقل بسجن قصر النهاية (سيئ الصيت) لتعذيبه واستجوابه من قِبَل صدّام حسين (المسئول عن الملف الأمني للدولة)، وناظم كَزار (مدير الأمن العام الأسبق). ويقول أحد الشهود الذين كانوا معه في الزنزانة: «لم أرَ في حياتي رجلاً بشجاعته داخل المعتقل، يُعذب ويفقد الوعي، ثم يعود إلى رشده فيعذب مرة أخرى، وهو يكرر ذكر الله، ثم يفقد الوعي تارة أخرى»، لذلك كان المعتقلون معه يتوسلون إليه أن يلين بعض الشيء وأن يسكت؛ ولكنه لم يعترف للبعثيين بشرعية، ولم يمنحهم تأييداً، بل كان يصر في التحقيق على أنهم عملاء المستعمر.

وفي أحد الأيام شتم ناظم كزار الشيخ البدري، فما كان منه إلا أن رفع يده وضرب ناظم كزار، فانهال الجنود على البدري بالضرب من كل مكان وبمختلف الوسائل حتى أُغمي عليه، واستمروا في تعذيبه وحبسه انفرادياً.

وفي كل مرة بعد التعذيب كان يتم إرساله لمستشفى الرشيد العسكري لإيقاظه من غيبوبته، ثم يُعاد إلى التعذيب وهكذا.. وهو يذكر اسم الله، ويقرأ آيات من الذكر الحكيم، ويندمج بأدعية مستجابة لنيل الشهادة، حتى نالها في ٢٦ يونيو ١٩٦٩م، وهو تحت التعذيب، ونُقل إلى مستشفى الرشيد العسكري، حيث تم تغسيله وتكفينه لتغطية الجريمة، وبعد مرور

سبعة عشر يومًا حمل الجلادون جثته وتركوها أمام بيته، وأخبروا أهله، أنه مات بالسكتة القلبية، وأمروهم بدفنه دون الكشف عليه.

وكانت النية أن يُدفن في مدينة سامراء بجوار قبر والده؛ إلا أن قوات الأمن كانت قد طوقت المدينة والشوارع المحيطة في بغداد، فمنعوا خروج النعش إلى سامراء، فتم دفنه قرب قبر شيخه أمجد الزهاوي في مقبرة «أبو حنيفة النعمان» في الأعظمية في بغداد، وذلك بعد أن قام أخوه محمد توفيق البدري بكشف جثة الشهيد عند القبر أمام المشيّعين، حيث شاهدوا آثار التعذيب على سائر بدنه، فضلًا عن نتف لحيته، فصاح المشيّعون مرددين: «الله أكبر، والموت للكفرة»، الأمر الذي أدى إلى زج العديد منهم في السجون.

وعن استشهاد البدري، يقول حامد الجبوري (في شهادته على العصر): إن الرئيس البكر فوجئ بمقتل الشيخ البدري من قِبَل صدام حسين، فعبّر عن عدم ارتياحه لهذا العمل الوحشي.

توفي وهو لم يتجاوز الأربعين من العمر، بعد حياة مليئة بالمعاناة وكان قدوة ومثل يُضرب في الصبر على البلاء. ودفن في مقبرة الخيزران في الأعظمية.



المصدر:

- موقع علماء المسلمين. - موقع الموسوعة العربية

الشيخ المجاهد/ محمد مال الله الخالدي

ولد الشيخ محمد بن مال الله بن عبد الله الخالدي في مدينة المحرق في منطقة حالة أبي ماهر بالبحرين.

أصله: من نجد من قبيلة بني خالد فخذ المهاشير، وهاجر أجداده إلى البحرين منذ زمن بعيد واستقروا فيها تخرّج من مدرسة الهداية الخليفية في المحرق، وبعث إلى الأزهر لتكملة دراسته؛ لأنه كان من العشرين الأوائل على البحرين، ولكن ظروفه لم تسمح بسفره بعد أن توفي والده قبل السفر بعدة أيام، وقد تأثر بفكر الشيخ ابن باز والشيخ ابن عثيمين رحمهما الله تعالى، ثم عمل في وزارة العدل والشؤون الإسلامية، وفي الثمانينات أصبح خطيبا لمسجد [الخير] في مدينة حمد ثم أصبح خطيبًا لجامع «فاطمة» بنت الرسول ﷺ ورضي عنها، في مدينة حمد، ثم أصبح مأذونًا شرعيًا في أواخر الثمانينات رغم صغر سنّه، لقد كان في العشرينات من عمره عندما أصبح خطيبًا، وكان ذو شخصية قوية، لقد كان شديد الذكاء قوي الحفظ، فصيح اللسان، خفيف الظل، كريمًا، سخيًا، رقيق القلب، يحب المزاح والتلطف في الكلام، كان حنونًا جدًا على أهله، وعطوفًا بارًا بوالدته ومحبًا لها كثيرًا، ولقد بكته أمه كثيرًا بعد وفاته، جاءته مكالمة هاتفية قبل وفاته بشهر تخبره بأن أمه في المستشفى بين الحياة والموت، فحزن كثيرًا عليها، وصمّم على أن يذهب لوداعها مع أنه كان لا يستطيع المشي إلا قليلًا بعد أن أصيب بجلطة دماغية جعلته عاجزًا عن المشي إلا بصعوبة، لقد أخذه ابنه عبد الرحمن بالكرسي المتحرك إلى المستشفى لوداعها ظنًّا منه أنه لن يراها مرة أخرى فأخذ يقبّلها وتقبله وقالت له: إنها راضية عنه من قلبها؛ لأنه أفضل أولادها إلى قلبها، ولأنه بار بها. وسبحان الله! يشاء تعالى أن تشفى أمه قبل وفاته بعدة أيام بعد أن شُفيت من داء القلب، وكانت قد

أصبحت عمياء لا ترى أي شيء، وبعد أن أجريت لها العملية في عين واحدة أصبحت ترى قليلًا.

لقد فرحت جدًا عندما شاهدت وجه ابنها لأول مرة قبل أن يموت، بعد أيام طويلة وليالي من العمى والظلام، فقالت له: أنا سعيدة لأنني أشاهد وجهك لأول مرة منذ زمن بعيد ..لقد اشتقت إلى رؤية وجهك كثيرًا، فكانت هذه آخر مرة تشاهد فيها وجه ولدها رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وشاء الله تعالى أن تعيش هي و تخرج من المستشفى، ويموت هو بعد أن ذهب إلى وداعها، نسأل الله العظيم أن يلهمها الصبر على مصيبتها، لقد توفي لها تسعة أولاد حتى الآن، وقد أصيبت بالعمى بسبب كثرة الدموع والحزن عليهم

كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ من الشخصيات النادرة التي تجعلك غير قدير البتة على الوفاء بحقوقها العامة لا في الحياة ولا في المات .. لقد كان غزير الآثار، لقد ألف أول كتاب له وهو في العشرين من عمره بعد أن قرأ كثيرًا وتأثر كثيرًا بعلم ابن خاله الشيخ عبد الله السبت في الكويت، وتعلم العلم الغزير منه، وساعده كثيرًا في تعلم العقيدة السلفية السليمة، وكان أول شخص ينشر العقيدة السلفية السليمة في البحرين، وأنشأ مع الشيخ خالد آل خليفة أول مكتبة سلفية أثرية في البحرين [مكتبة ابن تيمية].

وتأثر كثيرًا بمؤلفات الشيخ إحسان إلهي ظهير الذي كان يكتب عن عقيدة الشيعة وبدعهم وضلالهم، وسار على نهجه ودربه لقد أكمل مشواره بعد أن قُتل الشيخ إحسان إلهي في باكستان من قِبَل الرافضة، حسبنا الله ونعم الوكيل، رحم الله الشيخ إحسان رحمة واسعة اللهم اجعله من الشهداء وأدخله فسيح جناتك.

لقد بقي الشيخ محمد مال الله المدافع الجريء عن سنة رسول الله ﷺ والمنافح بكل سلاح مباح عن عقيدة التوحيد وعن التفاسير السليمة للتاريخ والدفاع عن حمى صحابة رسول الله ﷺ والدفاع عن أمهات المؤمنين رضي الله عنهن.

وكان له كثير من المحاضرات في المعاهد و الجامعات في كثير من الدول الإسلامية رغم مرضه وعجزه، إلا أنه كان يستقبل كثيرًا من طلبة العلم والباحثين في المعاهد والجامعات للاطلاع على الكتب والمخطوطات التي يقتنيها أو للسؤال عن قضية من القضايا أو حادثة من الحوادث التاريخية أو المناقشة فيما كتبه من المخطوطات، وكان صدره يتسع لهؤلاء جميعًا رغم مرضه ومعاناته وإعاقته، ولم يكن يحجر عن طلبته أي شيء مما يقتنيه، ولم يتردد في مساعدة أي شخص في البحث في أي لحظة من ليل أو نهار.

في آخر زيارة له في المملكة العربية السعودية ذهب إلى الرياض قبل أن يشتد عليه المرض، كان يحرص على زيارة العلماء جميعًا، وقد وفقه الله لزيارة شيخه الشيخ ابن جبرين، وأهدى إليه كتابه [أيلتقي النقيضان حوار مع القرضاوي].

وفرح الشيخ كثيرًا بما كتبه وبارك له بعد أن راجعه وشجعه على طباعته، وكان العلامة ابن جبرين كلما زاره طلبة العلم من البحرين يسألهم عن صحة أبا عبد الرحمن، ويثني عليه، ويوصيهم عليه، وكذلك ذهب لزيارة الشيخ الفوزان، وأهدى إليه الكتاب، وكذلك الشيخ بكر أبو زيد.

لقد تعرض الشيخ محمد مال الله في حياته لكثير من المحن والمؤامرات والدسائس الكيدية المحبوكة من قِبَل الرافضة حتى اتهم بعدة تهم وحُكم عليه بالسجن لمدة عشر سنوات، وبعد محاولات كثيرة من قِبَل المشايخ وأهل العلم أفرج عنه بعد خمس سنوات بواسطة أمير البحرين الشيخ عيسى بن سلمان رحمه الله وغفر له.

لقد تعرض الشيخ في السجن لأمراض عديدة بسبب الحرارة الشديدة وعدم وجود المكيف، وكان مصابًا بالسكَّر فزاد عليه المرض، وكان يشكو من ألم في بطنه بسبب الفشل الكلوي بعد خروجه من السجن، وأصيب بالجلطة الدماغية مرتين، ثم أصيب بتضخم في

القلب والتهاب الرئتين وفشل كلوي حاد، وكل هذه الأمراض سببت له سكته دماغية وكانت النهاية.

ولم يكن أحد يعرف بمرضه حتى أقرب الناس إليه، وكان دائم الحمد لله، وكان يشكو بثّه وحزنه إلى الله سبحانه بعد أن صادروا ممتلكاته، وفُصِل من العمل، وجلس يعمل بصمت في البيت ومات في بيته على فراشه رحمه الله تعالى رحمة واسعة، وجزاه الله أجرًا عظيمًا على صبره وبلواه.

قبل وفاته بمدة قصيرة وقع بين يديه كتاب من أهل البدع والضلالة الرافضة، فيه كثير من السب والطعن وتكفير العلماء مثل الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ والشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ والشيخ صالح الفوزان ونقص في أسماء الله تعالى وصفاته، فاشتد غيظًا عليهم، وصمم رغم مرضه الدفاع عن العقيدة وعن أسماء الله الحسنى وصفاته، والدفاع عن العلّامة ابن باز وابن عثيمين والفوزان في آخر كتاب ألفه قبل وفاته بمدة قصيرة اسمه [الدفاع عن العقيدة وعن العلامة ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ والرد على جهالات المرتزقة].

وقد أُخذ الشيخ محمد إلى الرياض لعدة أشهر لعلاجه من جلطة في المخ وتحسنت حالته، ولكن بُعيد مدة قصيرة أصيب بفشل كلوي حاد ولم يكن يشكو لأحد من مرضه رَحِمَهُ اللَّهُ.

وتوجد عند الشيخ مكتبة فريدة من نوعها فيها كتب كثيرة متنوعة في جميع مجالات الأدب والدين والسياسة وجميع الثقافات وعلم النفس والكثير من المخطوطات، ونصف كتبه كتب الرافضة أنفسهم ومراجعهم جمعها من كل أنحاء العالم في ثلاث وعشرين سنة، لقد جاءته قبل وفاته مغريات كثيرة لشراء كتبه ومكتبته؛ لتكون وقفية لكنه رفض، وقال: عندما أموت سوف أجعلها مكتبة وقفية خالصة لوجه الله [رغم ظروفه المادية الصعبة لقد كان عزيز النفس عفيفًا].

بعد أن زاره عدد من طلابه من المملكة العربية السعودية قبل وفاته بمدة قصيرة، وصاهم بأن تكون كتبه وقفية في المملكة؛ لأنهم يقدرون العلم والعلماء، وكان يحبهم كثيرًا، وكان لهم أفضالًا كثيرة عليه، ولا ينسى ذلك حتى بعد مماته؛ ولأنه يوجد كثير من طلبة العلم الذين درس لهم في حياته وعلمهم كيف يسيروا على نهجه، ويدافعوا عن أهل السنة والجماعة والصحابة، عاش غريبًا في بلاده ومات غريبًا ولم يعرفوا قدره، فطوبى للغرباء.

رحم الله الشيخ أبا عبد الرحمن لم ينقطع عنه طلبة العلم وزواره أبدًا حتى في اللحظات الأخيرة من حياته وأثناء المعاناة الشديدة مع المرض واحتضاره، لقد زاره عدة طلبة من الخارج قبل وفاته بعدة ساعات ليلًا ...آخر شخص زاره الساعة التاسعة و النصف مساءً يوم الجمعة، وتوفي في نفس اليوم الساعة الرابعة فجرًا.



المصدر:

- موقع السلفيين، نقلًا عن تلميذه/ عبد الله بن عبد العزيز.

محنة الإمام الصنعاني

في تاريخ أمتنا الإسلامية المباركة الكثير من علماء الإسلام الكبار والأئمة الأعلام الذين عانوا من الإهمال الشديد من جانب الباحثين والدارسين، وذلك بسبب ظهور هؤلاء الأئمة الأعلام في بلاد غلب على أهلها الابتدساع في الدين، والضلال في باب العقائد والعادات، فظن الباحثون والدارسون أن تلك البلاد خالية من العلماء والأئمة، هذا على الرغم من المجهودات الضخمة والمعاناة الشديدة والمحن المتتالية التي بذلها وخاضها هؤلاء الأعلام مع بيئتهم، وحجم التغيير الكبير الذي أحدثوه في تلك البيئة، وهؤلاء الأعلام قد تعرضوا لمحن كثيرة ومتتابعة مع أقوامهم، وعندما ظهرت دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله، ظن الناس أنه رائد النهضة الإصلاحية في العصر الحاضر، في حين أنه كان هناك من العلماء من سبقه في ذلك المضمار، وله من الأثر الكبير ما يجعله شريكًا للشيخ ابن عبد الوهاب في الدعوة للتوحيد الخالص ونبذ البدع، ذلك الإمام هو إمام أهل اليمن الأمير ابن الأمير، الإمام الصنعاني، والذي عانى تمامًا مثل شريكه محمد بن عبد الوهاب من المحن والابتلاءات مع قومه، مما يجعله جديرًا أن يكون في ثبت الأئمة الأعلام لهذه الأمة.

هو الإمام الكبير، والعلم العلامة، والعالم الموسوعي، وأحد مجددي الإسلام، علامة القطر اليماني، البدر محمد بن إسماعيل بن صلاح بن محمد بن علي الصنعاني، الملقب بالأمير ابن الأمير، وُلد في جمادى الآخرة عام ١٠٩٩هـ لأسرة تدعي انتسابها لآل البيت من الفرع الحسني، بمدينة «كحلان» التي تبعد عن العاصمة صنعاء بأربعة وعشرين فرسخًا.

وُلد الإمام الصنعاني في أسرة علمية، فأبوه وجده كانا من العلماء الفقهاء فتأثر الصنعاني بالجو العلمي المحيط به، فحفظ القرآن صغيرًا حتى أتمه، وبدأ في طلب العلم وهو دون العاشرة، فانتقل والد الصنعاني من كحلان إلى صنعاء رغبة منه في نجابة أبنائه وتلقيهم العلم

على يد علماء صنعاء وشيوخها، وكانت تلك الهجرة من كحلان إلى صنعاء سنة ١١٠٧هـ، وفي صنعاء درس الإمام الصنعاني الفقه والنحو والبيان وأصول الدين والحديث وأظهر تفوقًا وبراعة ونجابة عن سائر أقرانه، وأعجب به شيوخه وطلبوا منه الرحيل إلى عواصم العلم الشرعي في بلاد الإسلام.

خرج الصنعاني يطلب العلم خارج اليمن، واتبع طريقة ذكية في الجمع بين العلم والعمل، إذ اختار أن يشهد مواسم الحج؛ ليجمع بين النسك ورؤية علماء الأقطار الذين يفدون إلى مكة للحج، ولقد حج أربع مرات، الأولى سنة ١١٢٤هـ، والرابعة سنة ١١٣٩هـ وفي كل مرة كان يلتقي بالشيوخ والعلماء والمحققين، ويستفيد منهم ويلازمهم، وخلال تلك الرحلات الأربع التقى بأعلام والقت وحمل عنهم علمًا غزيرًا، وكان معظم اهتمامه بالحديث النبوي وعلومه، وقد بان أثر هذا الاهتمام فيما بعد على توجهات الشيخ العلمية واختياراته الفقهية.

قضى الصنعاني حياته كلها مكبًا على العلم وطلبه ونشره والدعوة إليه، ولم يطلب جاهًا أو سلطانًا، ولما تولى نظارة الأوقاف مكرهًا سنة ١١٦١هـ تحرى العدل بشدة، ولكنه سرعان ما نزل عن هذا المنصب، وأوصى بأن يتصدق من تركته بمال كفارة منه عن توليه هذا المنصب، ولقد عرض عليه إمام اليمن القاسم بن الحسين منصب القضاء فرفض، ثم عرض عليه الوزارة فامتنع، ثم منصب قاضي قضاة اليمن والمتصدر على الأعلام، فرفض ذلك كله واستقر على عادته في التدريس ونشر الإفادة.

عقيدته:

على الرغم من نشأة الإمام الصنعاني في بيئة تغلب عليها الأفكار المخالفة لعقيدة أهل السنة والجماعة من تشيع واعتزال وغيرهما إلا إنه كان موافقًا لعقيدة أهل السنة، بل أحد

منظريها وأئمتها وحراسها في تلك البقاع البعيدة، وله العديد من الكتب والمؤلفات العظيمة والنافعة والتي تدل على صحة عقيدته مثل كتاب [تطهير الاعتقاد عن أدران الإلحاد] والذي عالج فيه مفهوم الفرق بين توحيد الربوبية والألوهية، وشرح فيه معنى "لا إله إلا الله" وسبق في هذا المضمار الشيخ محمد بن عبد الوهاب، بل يعتبر الصنعاني هو رائد الدعوة إلى التوحيد الخالص في القرن الثاني عشر الهجري، حتى أن الصنعاني لما سمع عن ظهور دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب بنجد، فرح بشدة، إذ وجد من يؤيده ويتبع نفس النهج والعقيدة، وأرسل إليه بقصيدة سنة ١١٦٣هـ قال فيها:

لقد سرني ما جاءني من طريقه وكنت أظن هذه الطريقة لي وحدي

ولقد كان الصنعاني شديدًا على المتكلمين والفلاسفة، متبعًا لنهج السلف في تقديم النقل الصحيح على العقل، وشرح مذهبه في ذلك في كتابه [إيقاظ الفكرة لمراجعة الفطرة] حيث بيّن فساد مناهج الفلاسفة وعلماء الكلام، كما أنه كان أيضًا شديدًا على المعتزلة والأشاعرة، رماهم بالابتداع في مواطن كثيرة من كتبه، محبًا لجميع الصحابة رضوان الله عليهم، على الرغم من بيئته الشيعية التي يغلب عليها بعض آراء الرافضة، كما أنه كان شديد الاحترام لعلماء وأئمة أهل السنة، لا يقع فيهم ولا يذم أيًا منهم كما هي عادة علماء المبتدعة.

محنته:

كانت بلاد اليمن التي ظهر بها الإمام الصنعاني، خاضعة لحكم الأئمة الزيود، وكان ثلثا السكان تقريبًا من أتباع المذهب الزيدي، والزيدية إحدى فرق الشيعة المعروفة، تتفق مع سائر فرق الشيعة في أمور، وتختلف في أخرى، وهي بالجملة من أقل فرق الشيعة غلوًا، وأكثرها اعتدالاً، وهي أقرب لأهل السنة من غيرها من فرق الشيعة، ولكن يغلب على عقيدة الزيدية الآراء الاعتزالية المليئة بالبدع والضلالات، ويغلب على عوام الزيدية في اليمن وفي

غيرها الجهل والتعصب، في حين يغلب على علمائها التقليد والجمود ودراسة العلوم الكلامية ونبذ العلوم الأثرية، وكانت أرض اليمن وعقول أهلها كلأً مباحًا لشياطين الإمامية، يفرخون ويعششون في أهلها، حتى أدخلوا في فكر الزيدية الكثير من أفكار الرافضة الإمامية.

كان من الطبيعي أن يعاني إمام مثل الصنعاني الذي يحمل تلك العقيدة والاجتهاد مع تلك البيئة وأهلها، ويتعرض للمحن المتتالية عليه، وهو صامد صابر على الدرب لا يلين ولا يهادن ولا يداهن، وهم يشهرون به ويشتمونه ويهددونه ويتهمونه ويحاولون قتله المرة تلو الأخرى، والله ينجيه في كل مرة لحسن قصده وسلامة غرضه ونقاء دينه ودعوته، وهذه صور من بعض المحن التي تعرض إليها الإمام الصنعاني لتعرف قدر الرجل ومكانته.

محنته مع يوسف الرافضي:

من الأمور التي يخالف فيها فرقة الزيدية باقي فرق الشيعة، مسألة سب الصحابة؛ فالزيدية وإن كانوا يفضلون عليًا رضي الله عنه على سائر الصحابة إلا إنهم يترضون على جميع الصحابة ولا يخوضون فيهم بتكفير أو بتفسيق ولا غيره، ولكن مع تطاول العمر وبعد العهد وغلبة الجهل وضعف العلم، بدأت بدع الإمامية الرافضة تتسلل إلى الزيدية من أهل اليمن، وذلك عن طريق دعاة الرفض والإمامية الذين كانوا ينشطون في تلك البلاد من أجل نشر التشيع على المنهج الجعفري، وعلى رأس هؤلاء الدعاة المدعو يوسف العجمي الإمامي الصفوي.

يوسف العجمي أحد دعاة الدولة الصفوية حضر إلى اليمن في عهد الإمام المنصور بالله، وتظاهر بالعلم، فحظي عند المنصور، وأعجب به المنصور فأذن له بإملاء كتاب نهج البلاغة وشرحه لابن أبي الحديد بالجامع الكبير في صنعاء، ثم تصدى هذا الدعيّ لتفسير القرآن حتى ذكر أن الصحابة قد حرفوا القرآن وسب الصحابة ولعنهم، فضج العامة بالسب

واللعن، وهكذا أخذ هذا الشيطان في دس مذهب الإمامية في عقول العامة.

لما علم الصنعاني ما جرى في الجامع الكبير وجهر الناس بالسب واللعن، وكان الصنعاني تم تعيينه خطيبًا للجامع الكبير بعد ذلك بقليل، فلما قام للخطبة لم يذكر الأئمة الذين جرت العادة بذكرهم في الخطبة، فثار عليه الشيطان يوسف العجمي وأخذ في تحريض العوام واستمال إليه جماعته من آل الإمام المنصور بالله، واتفقوا فيما بينهم على قتله وهو يخطب على المنبر في الجمعة القادمة، ووصلت أخبار تلك المؤامرة الخبيثة للمنصور بالله، فأرسل إلى الإمام الصنعاني وسجنه، ثم طرد الشيطان يوسف العجمي من بلاد اليمن وأدب العامة الذين تظاهروا معه على الصنعاني، وقد ظل الصنعاني في السجن مدة شهرين، ثم خرج واستمر على نهجه وطريقته في نشر العلم.

محنته مع أهل جبل برط:

مع استمرار الإمام الصنعاني في نشر العلم تدريسًا وإفتاءً وتأليفًا على طريقة أهل السنة والجماعة، عاكفًا على الأمهات وسائر كتب الحديث، عاملاً بمقتضى الدليل، غير عابئ بما عليه الناس من اتباع وتقليد أعمى لأقوال وآراء المتفقهة والمتعصبة، مما جعل الناس يرموه بالنصب أي بعداوة آل البيت على الرغم من كونه منتسبًا لآل البيت كما ذكرنا ذلك في التعريف به وهو لا يلتفت لتلك التفاهات والترهات، ماضيًا في منهجه ودعوته حتى صار له تلاميذ كثيرون وطلبة علم نابهون، وزوار يفدون إليه من كل مكان وقد طارت شهرته حتى وصلت إلى الدولة العثمانية وجاءه منها العديد من العلماء والطلبة لسماع دروسه وتلقي العلم على يديه، وكثر أتباعه من الخاصة والعامة أيضًا، وسرت نهضة علمية قوية باليمن، وكان إمام الوقت العباس بن الحسين بن القاسم ممن يسمع له ويعمل برأيه وكذلك الوزير الكبير أحمد بن علي النهمي وقائد الجند الأمير الماس المهديّ.

أثارت تلك النهضة العلمية والنشاط الدعوية لعقيدة أهل السنة والجماعة حفيظة علماء الزيدية الذين هالهم إقبال الناس كبيرهم وصغيرهم على الإمام الصنعاني، فأخذوا في تحريض العامة ضد الصنعاني، ولما فشلت المحاولات الواحدة تلو الأخرى لحفظ الله عز وجل لوليه وعبده الصنعاني ثم لحماية إمام الوقت العباس بن الحسين للإمام الصنعاني، عندها قرر بعض الشياطين بتدبير لعمل انقلاب شامل على الإمام العباس بدعوى أنه يساعد الصنعاني على هدم مذهب الزيدية في البلاد.

كتب بعض هؤلاء الشياطين العديد من الرسائل بهذا المعنى إلى أهل جبل برط وهو جبل عظيم وضخم يقع شمال اليمن في منطقة «صعدة»، وكان أهل ذلك الجبل هم جمرة اليمن ومصدر القلاقل والاضطرابات، أسرع الناس إلى أي شر وأبعد الناس عن أدنى خير، يعمهم الجهل وتعطيل الشرائع وسيطرة العادات البدوية والأعراف القبلية، فلما وصلتهم الرسائل التي تدعوهم للخروج على إمام اليمن العباس بن الحسين أقبلوا بجيوش كثيفة، ليس نصرة للدين ولا للمذهب بل طمعًا في الدنيا والمغنم.

واهتزت البلاد كلها لخروجهم لما يعلمه الناس من بطشهم وهمجيتهم، وحاول العلماء الأمناء ردهم عن البغي والطغيان، ولكن لم يفد ذلك معهم، وحاول الإمام العباس إقناعهم ببطلان تلك الدعايات والوشايات ومع ذلك ظلوا مصرين على اقتحام صنعاء العاصمة، وهم ينادون بقتل الإمام الصنعاني أو نفيه، وفي آخر الأمر دفع لهم إمام اليمن مبلغ عشرين ألف قرش وجعله مبلغًا ثابتًا لهم كل عام زيادة على مقرراتهم، وعندها أقلعوا عن صنعاء وعادوا إلى جبلهم؛ لأنه لا مطمع لهم في الأمر إلا المال والدنيا، وبعدها ضيق الأمر على الإمام الصنعاني ومنع من الجهر بآرائه ودعوته الإصلاحية حتى لا يعود هؤلاء الجهلة الجفاة إلى الفساد في الأرض مرة أخرى.

تلك كانت عينة من المحن التي كان يتعرض لها الإمام الصنعاني مع بني قومه وأهل

وطنه، والتي كانت كفيلة بجعل غيره من العلماء يركن إلى السكون ويرضى بالسلامة من أجل الحفاظ على نفسه وحاله، ولكنه أبدًا لم يصمت ولم يسكن ولم يؤثر الراحة والسلامة، بل ظل مشعلاً للحق والسنة داعيًا للعقيدة الصحيحة ليل نهار بلسانه وبقلمه، حتى أتاه اليقين رحمه الله سنة ١١٨٢هـ وقد ترك وراءه ثلة من العلماء والأئمة من تلامذته الذين ساروا على منهجه وطريقته، فحفظ الله عز وجل بهم أهل اليمن من الضلال والسقوط في شرك الرافضة الإمامية.



الشيخ القارئ / شعبان عبد العزيز الصياد

ولد الشيخ شعبان عبد العزيز الصياد بقرية صراوة التابعة لمركز أشمون بمحافظة المنوفية، وذلك في ٢٠/ ٩/ ١٩٤٠م. وهذه القرية تُعرف بقرية القرآن الكريم، حيث تتميز بكثرة الكتاتيب والمحفظين الأجلاء الذين حفظ وتخرج على أيديهم بعض الأعلام والمشاهير بجمهورية مصر العربية، وفي مقدمتهم الشيخ شعبان الصياد. نشأ الشيخ شعبان الصياد في منزل ريفي متواضع عن أم ريفية وأب هو الشيخ/ عبد العزيز إسماعيل الصياد. الذي كان يتمتع بجمال في الخُلُق والخَلْق إضافة إلى جمال وعذوبة صوته، الذي كان يعرفه الجميع في هذه القرية وفي القرى والمدن المجاورة. فقد كان صوته ملائكيًا، يشبه إلى حد كبير صوت الشيخ/ محمد رفعت. وذلك حسب روايات عديدة سمعناها ممن عاصروه. وكان الشيخ/ عبد العزيز والد الشيخ شعبان يُدْعَى إلى السهرات والمناسبات وذاع صيته. وقدم نفسه إلى الإذاعة المصرية، وكان ذلك في أوائل الأربعينات، وعندما ظهرت نتيجة امتحانه أمام لجنة الاستماع في الإذاعة وتم إرسال خطاب له للحضور إلى الإذاعة. وكان هذا اليوم نفسه هو يوم وفاته في عام ١٩٤٤م. وكان وقتها الشيخ شعبان الصياد لم يتجاوز الرابعة من عمره.

نشأ الشيخ شعبان عبد العزيز الصياد في بيت مليء بآيات الله، عن أب يحمل كتاب الله ويمتلك صوتًا جميلًا عذبًا. فورث الشيخ شعبان الصياد هذا المسلك حيث كان يتردد بانتظام على كُتَّاب القرية. وقد كان الشيخ شعبان الصياد متميزًا بين أقرانه في الكتاب، حيث كان الأسرع حفظًا والأجمل صوتًا، حتى أن المحفِّظة التي كانت تحفظه القرآن تثني عليه دائمًا وبين الحين والآخر تجعله يتلو بصوته الجميل ما حفظه من آيات أمام زملائه، وغالبًا ما كان يحظى بجوائز بسيطة للتشجيع والتحفيز على التميز باستمرار.

حفظ القرآن:

أتم الشيخ شعبان الصياد حفظ القرآن الكريم كاملًا وهو في السابعة من عمره. وكان طبيعيًا أن يكمل المسيرة الدينية التي نشأ عليها. فالتحق بالمعهد الديني الابتدائي، وأثناء دراسته بالمعهد كان أساتذته يعلمون موهبته الصوتية، فكانوا دائمًا يجعلونه يتلو عليهم بعض آيات الله البينات في الفصل الدراسي، وذاع صيته حتى أنه كان يفتتح أي مناسبة بالمعهد الذي يدرس به. وأتم الشيخ شعبان الصياد المرحلة الابتدائية، وكان وقتها قد عُرِف في البلدة كلها بحلاوة صوته وعذوبته، وتمكنه من التلاوة السليمة الصحيحة. فبدأ يظهر في المناسبات العامة على أثر دعوات من أصحابها وهو في سن الثانية عشرة، وكان وقتها يتقاضى عدة قروش بسيطة. ثم أكمل الشيخ دراسته بالمعهد الديني بمدينة منوف بمحافظة المنوفية، وكان أثناء هذه الدراسة يذهب إلى المناسبات المختلفة في مدينة منوف والقرى المجاورة لها، حيث أتم دراسته الثانوية.

التحق الشيخ شعبان الصياد بجامعة الأزهر في كلية أصول الدين شعبة العقيدة والفلسفة، واضطر إلى السكن هناك، وكانت أكثر إقامته في صحن الأزهر الشريف. وكان يجمع بين الدراسة التي كان متفوقًا فيها أيضًا وبين دعواته إلى المناسبات المختلفة. وذاع صيته وسمع به مشاهير القراء في ذلك الوقت، وفي إحدى الليالي كان الشيخ شعبان الصياد عائدًا من مناسبة كان يتلو فيها كتاب الله. وعاد إلى صحن الأزهر الشريف، حيث كان يستعد لامتحان في الكلية [أصول الدين]، وذلك في اليوم التالي لهذه السهرة. وعند عودته مباشرة بدأ في الاستذكار وغلبه النوم. فنام وفى هذه الأثناء كان الشيخ مصطفى إسماعيل القارئ المشهور في جامع الأزهر لصلاة الفجر وإذا به يرى الشيخ شعبان الصياد وهو نائم وفى يده كتابه الذي سوف يمتحن فيه صباحًا. فقال لمن معه: انظروا وتمعنوا في هذا الشباب النائم أمامكم، فإن له مستقبل عظيم في دنيا تلاوة القرآن الكريم.

وهكذا فإن موهبة الشيخ شعبان الصياد فرضت نفسها على الجميع بما فيهم كبار القراء الذين كان يتقابل معهم في المناسبات المختلفة التي يتم دعوته، إليها فكان دائمًا يصقل موهبته بكثرة الاستماع إلى قراء القرآن في ذلك الوقت، وأيضًا السابقين، وخاصة الذين كان يعجب بهم جدًا، ومنهم الشيخ محمد رفعت والشيخ محمد سلامة والشيخ مصطفى إسماعيل وهو قارئه المفضل، وبرغم أنه لم يعاصر والده الشيخ/ عبد العزيز الصياد إلا أنه كان له دائمًا المثل الأعلى حسبما كان يروى له ويحكى له عن جمال صوته وعذوبته وشهرته، برغم أنه لم يكن قد التحق بالإذاعة في ذلك الوقت.

أتم الشيخ شعبان الصياد تعليمه الجامعي، وتخرج من كلية أصول الدين شعبة العقيدة والفلسفة، وحصل على الليسانس بدرجة جيد جدًا في عام ١٩٦٦م، ورُشِّح للعمل بالسلك الجامعي كمحاضر بالكلية، ولكنه رفض، وكان رفضه من أجل القرآن الكريم، حيث قال: إن الجامعة وعمله بها كمحاضر وأستاذ سيجعل عليه التزامات تجاه الجامعة والطلبة، مما يعيقه عن رسالته التي يعشقها ويؤمن بها، وهي تلاوة القرآن الكريم.

فعمل كمدرس بالمعهد الديني بمدينة سمنود بمحافظة الغربية، وكان ينتقل إليها يوميًا من مقر إقامته بمدينة منوف - محافظة المنوفية. ثم نقل إلى معهد الباجور الديني، ثم إلى معهد منوف الثانوي، ثم إلى مديرية الأوقاف بشبين الكوم حيث رقى إلى موجه في علوم القرآن؛ لأنه كان يقوم بتدريس القرآن والتفسير والأحاديث النبوية الشريفة، ثم رقى إلى موجه أول حتى وصل إلى درجة وكيل وزارة بوزارة الأوقاف.

انطلق الشيخ شعبان الصياد في إحياء المناسبات المختلفة، وذاع صيته في جميع محافظات الجمهورية، وكان معظم الناس يتمسكون به في مناسباتهم حتى أنه كان هناك من يؤجل مناسبته إلى اليوم التالي في حالة انشغال الشيخ/ شعبان في مناسبة ما في نفس يوم مناسبته، وبدأ الشيخ شعبان الصياد بتلاوة القرآن في صلاة الجمعة في عدة مساجد صغيرة في مدينة

منوف حتى وصل إلى أن يكون قارئ السورة في مسجد الشيخ زوين بمدينة منوف أكبر مساجدها، وذلك قبل أن يلتحق بالإذاعة المصرية. وكان يسهر في شهر رمضان المبارك سنويًا في جمعية تحفيظ القرآن الكريم، ويحضرها يوميًا كبار رجال المحافظة ومشايخ المدينة؛ ليستمعوا ويستفيدوا من قراءة الشيخ شعبان الصياد، حيث إنه كان يقرأ القرآن الكريم وهو مُلِمٌّ وعلى دراية بكل معانيه وتفسيره، وهذا ما كان يميزه عن باقي القراء.

اتسعت شهرة الشيخ شعبان الصياد بجميع أنحاء الجمهورية. فتقدم للامتحان بالإذاعة والتليفزيون المصري. وبعد الامتحان والعرض على لجنة الاستماع التي كانت تضم فطاحل العلماء في ذلك الوقت أمثال الشيخ عبد الفتاح القاضي والشيخ محمد مرسى والشيخ عفيفي الساكت والشيخ رزق خليل حبة وغيرهم من العلماء.

اجتاز الشيخ شعبان الصياد امتحان الإذاعة والتليفزيون بنجاح باهر، وتم اعتماده كقارئ للقرآن الكريم بالبرنامج العام مباشرة دون المرور على إذاعات البرامج القصيرة. ففي هذا الوقت كان أي قارئ للقرآن الكريم يتم اعتماده بالإذاعة لا يذيع أي إذاعات بالبرنامج العام مباشرة، بل يذيع بضع آيات عبارة عن عشرة دقائق فقط في البرامج القصيرة فقط، ولا يستطيع إذاعة أي قرآن في البرنامج العام أو في صلاة الجمعة، ولكن الشيخ شعبان الصياد لجمال وعذوبة صوته وتمكنه من التلاوة جعل لجان الإذاعة والتليفزيون يجيزون دخوله مباشرة للإذاعة في البرنامج العام وجميع الإذاعات المحلية، وكذلك لجنة امتحانات التليفزيون أجازته مباشرة حتى أنه في أول شهر من التحاقه بالإذاعة والتليفزيون أُسْنِد إليه تلاوة القرآن الكريم يوم الجمعة من الإذاعة في صلاة الجمعة، وأيضًا أُسند إليه تلاوة القرآن الكريم يوم الجمعة التالية مباشرة في التليفزيون.

انهالت المكالمات التليفونية على منزل الشيخ شعبان الصياد للتهنئة بالتحاقه بالإذاعة والتليفزيون المصري. كما كانت الاتصالات التليفونية لا تنقطع للسؤال عن مواعيد إذاعاته

المسجلة والمباشرة على الهواء، وذلك لكثرة معجبيه واتساع القاعدة العريضة لمحبي الشيخ شعبان الصياد.

كان الشيخ شعبان الصياد يقرأ قرآن الفجر كل ثلاثة أسابيع في مساجد مصر. وكان دائمًا محبيه ينتظرون تلاوة قرآن الفجر، فكان منهم من ينتظره بالمسجد نفسه في ظل الظروف الجوية وفى البرد القارس، ويأتون من معظم محافظات الجمهورية. وكان البعض الآخر يسمع قراءته من الإذاعة مباشرة ثم يقومون بالاتصال تليفونيًا ليثنوا على أدائه وجمال وعذوبة صوته. تم استضافة الشيخ شعبان الصياد في العديد من البرامج الإذاعية في البرنامج العام وصوت العرب وإذاعة القرآن الكريم لمعرفة شخصيته والاطلاع على أسراره الخاصة.

أثنى العديد من مشاهير القراء على الشيخ شعبان الصياد، مثل الشيخ مصطفى إسماعيل والشيخ أبو العينين شعيشع والشيخ محمود على البنا، وذلك في عدة برامج في الإذاعة والتليفزيون. كما أثنى عليه الكثير منهم على صفحات الجرائد والمجلات، وتوقعوا له مستقبلًا باهرًا في دنيا تلاوة القرآن الكريم.

صال وجال الشيخ شعبان الصياد بتلاواته في جميع أنحاء الجمهورية، من أقصاها إلى أقصاها، وبالنسبة لسهراته في جمهورية مصر العربية فكان يتلو القرآن الكريم بصوته الجميل في المناسبات المختلفة بصورة شبه يومية.

كان دائمًا يدعى في شهر رمضان المبارك للسفر إلى معظم الدول العربية والإسلامية والأجنبية لإحياء شهر رمضان هناك، وأول دعوة له في شهر رمضان بعد دخوله الإذاعة مباشرة كانت إلى دولة الكويت وتلى آيات الله في معظم مساجدها وأشهرها وكان معه في هذا الوقت الشيخ محمد محمود الطبلاوي، والشيخ راغب مصطفى غلوش وهم من مشاهير قراء القرآن الكريم بجمهورية مصر العربية. فقضوا معًا شهر رمضان المبارك في دولة الكويت

وقاموا بالتسجيل في الإذاعة والتليفزيون الكويتي، بل قاموا بتسجيل القـرآن الكـريم مـرتلًا بالتناوب بعضهم مع بعض حتى تم تسجيله كـاملًا. ودُعـى في العـام التـالي إلى دبي، وذلـك لإحياء شهر رمضان هناك. وكانت وقتها تقام مسابقة القرآن الكريم في وزارة الداخلية بدبي، وكان الشيخ شعبان الصياد هو رئيس لجنة التحكيم واختبار القراء هناك. وتتابعت الدعوات عامًا تلو الآخر معظم الدول العربية والإسلامية والأجنبية.

حصل على العديد من الجوائز والأوسمة والشهادات التقديرية من معظم الدول التـي دُعى إليها لإحياء ليالي شهر رمضان المبارك، وكان آخرها سلطنة بروناي.

نشأ الشيخ شعبان الصياد يتيم الأب لا يملك شيئًا وسط أسرة فقيرة. فكان هذا دافعًا لأنْ يأخذ حياته منذ الطفولة مأخذ الجد والكفاح فلم يعرف معنى الطفولة حتى إنه في إحدى برامج الإذاعة حين استضافته وسؤاله عن طفولته، فأجاب: لقد وُلدت رجلًا. هكذا كان إحساسه منذ بداية عهده بالدنيا فكان لا يعرف غير العمل حتى في تربيته لأولاده كان دائمًا يذكرهم بحديث الرسول ﷺ: «اخشوشنوا فإن النعمة لا تدوم» وذلك حتى يحث أفراد الأسرة على الاجتهاد وتحمل المسئولية كما تحملها هو منذ الصغر. وكان دائمًا يضع نُصْبَ عينيه أنه لابد وأن يكون إنسانًا ذا شأن ومكانة عظيمة في المجتمع الذي يعيش فيه وزرع ذلك في أفراد أسرته الذين تبوؤوا أعلى المناصب الأدبية، فمنهم الضابط والطبيب والمحاسب والمحامي. وكان حريصًا أشد الحرص على انتظام أفراد أسرته في الصلاة وفى حفظ القرآن الكريم حتى أنه كان يحضر لهم محفِّظًا للقرآن في المنزل لتحفيظهم القرآن وتعليمهم أحكامه. وكان الشيخ شعبان الصياد يتمتع بالذكاء الشديد وذاكرة شديدة القوة، كما أنه كان شديد الثقة بالنفس، كما كان متواضعًا جدًا. وكان يحترم قراء القرآن الكريم أصغرهم وأكبرهم.

رحلته مع المرض حتى وفاته:

ظل الشيخ شعبان الصياد في عطائه المستمر في تلاوة القرآن الكريم في كافة أنحاء المعمورة إلى أن فاجأه المرض عام ١٩٩٤م. فأصيب بمرض الفشل الكلوي، فاستمر في تلاواته، ولكن في أضيق الحدود حتى أقعده المرض تمامًا. وقد أحسن المولى عَزَّ وَجَلَّ ختامه، ولبى نداء ربه، وفاضت روحه الطاهرة إلى بارئها في صباح فجر يوم من أعظم الأيام في الإسلام ١٩/ ١/ ١٩٩٨م، الموافق الأول من شهر شوال [عيد الفطر] عام ١٤١٩ هجرية. وكانت جنازته في مسقط رأسه بقرية صراوة مركز أشمون - محافظة المنوفية، حيث دُفن في مدافن الأسرة، وحضر الجنازة جمع غفير من جميع المحافظات.

رحم الله العالم الجليل والقارئ ذو الحنجرة الذهبية والمدرسة الفريدة في قراءة القرآن الكريم فضيلة القارئ الشيخ[شعبان عبد العزيز الصياد] رحمة واسعة، وأدخله فسيح جناته جزاءًا بما قدم للإنسانية من علم ينتفع به، وتلاوات سوف تظل على مدى الدهر يسمعها ويستفيد منها محبي سماع القرآن الكريم.



الشيخ العلامة/ محمد بن صالح العثيمين

هو الشيخ محمد بن صالح بن محمد العثيمين الوهيبي التميمي، عضو هيئة كبار العلماء بالمملكة العربية السعودية، وأستاذ بفرع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالقصيم، وإمام وخطيب الجامع الكبير بمدينة عنيزة.

وهو متزوج من امرأة واحدة، وله من الأولاد الذكور: عبد الله، وعبد الرحمن، وإبراهيم، وعبد العزيز، وعبد الرحيم.

مولده: ولد في مدينة عنيزة في ٢٧ رمضان عام ١٣٤٧ هـ. وعليه: فيكون الشيخ قد عمَّر [٧٤] عامًا.

حفظ الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ كتاب الله في سن مبكرة، وقبل أن يتجاوز الخامسة عشر من عمره كان يحفظ - بالإضافة إلى كتاب الله - «زاد المستقنع» و«ألفيَّة ابن مالك» - كما أخبر بذلك هو عن نفسه.

وقد جدَّ الشيخ ونشط في طلب العلم على قلة ذات اليد في ذلك الزمان، وقد حدَّث عن نفسه فقال إنه كان لا يملك إلا «الروض المربع» يقرأ فيه، في غرفة من طين تطل على «زريبة بقر!».

والشيخ عُرف عنه زهده في هذه الفانية، ومن ذلك:

(أ) أنك تجده على لباس واحد لا يتغير طوال الأسبوع، تبدأ «غترته» بالتناقص من بياضها يومًا فيوم، حتى ترجع إلى بياضها في يوم الجمعة.

(ب) ولما أُهديت له عمارة من الملك خالد بن عبد العزيز جعلها وقفًا على طلبة العلم، وصار هو القيِّم عليها.

(جـ) ولم يخرج من بيته الطيني إلا من قريب بضغطٍ من أبنائه.

(د) وكانت تعطى له الأعطيات الكبيرة فيعلن على الملأ مباشرة أنها لطلبة العلم.

وأما إنفاقه في سبيل الله من أموال غيره فكثير وسيأتي بعضٌ منه، وما يهمنا هنا هو إنفاقه من ماله الخاص، وقد حدَّث عن ذلك بعض تلامذته فقال: أما ما أخفاه الشيخ عن الأمة فهو تبرعه السخي الخاص للمسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، وأذكر (والكلام للدكتور عبد الله الموسى) أنني في إحدى زياراتي له في منزله عندما كنت أدْرس في الولايات المتحدة الأمريكية أنه أخذ بيدي إلى «مختصر» له، فقال: يا عبد الله! أنا وأنت هنا، ولا يرانا إلا الله، خُذ هذا المال، وكان كبيرًا، وهو من مالي الخاص! واشترِ به مصاحف ووزِّعها على المحتاجين في السجون الأمريكية، وأنت مسؤول عن الشراء وعن التوزيع، وأسألك بالله ألا تبلِّغ بهذا أحدًا!!

ولم أبلِّغ بهذا أحدًا منذ وقته إلى الآن، أما وقت انتقل الشيخ إلى الرفيق الأعلى فلا أرى بأسًا أن أذكر أنه كان من المنفقين في السراء والضراء، وكان لا يريد علم الناس بذلك، رحم الله الشيخ رحمة واسعة وأجزل له المثوبة والعطاء. اهـ.

عُرف عن الشيخ أسلوبه النادر في التعليم، فهو يوصل المعلومة بأسهل طريق إلى المتعلمين والسامعين. ولا يكاد يغيب ذهن الواحد من الجالسين في درسه حتى يوقفه الشيخ ليجيب على سؤال أو ليعيد آخر كلام قاله، وعُرف عنه طريقة السؤال والجواب - لا السرد -، وهي طريقة نافعة يترقب الطالب فيها كل لحظة أن يتوجه له سؤال، وهي طريقة تحيي المجلس، وتجعل الطالب دائمَ التحضير والمتابعة.

ويعطي الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ الدرس حقَّه ومستحقه من الشرح والبيان، ولا ينتقل بالطالب إلى موضوع جديد حتى يكون قد فهم ما مضى.

ويعيد على الطلبة في الدرس التالي بطريقة السؤال والجواب ما أُخذ في الدرس الماضي، وهكذا يتأهب الطالب لدرس اليوم، ويعيد قراءة ما سلف من الدروس الماضية.

والشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ كان حريصًا على تبليغ العلم لتلامذته وللناس جميعًا، وخاصة في رمضان الذي يحرص فيه الشباب وعامة الناس على لقيا الشيخ والاستماع له.

ولم يفوِّت الشيخ عليهم رغبتهم تلك حتى مع اشتداد مرضه، فلقد حرص رَحِمَهُ اللَّهُ على بقاء الدرس اليومي بعد «التراويح»، ولكنه لم يستطع أن يبذل فيه جهده المعروف في كل عام، فألقى ستة دروس في هذا العام، وكانت مدة كل درس لا تتجاوز النصف ساعة، ولنستمع إلى حادثة من حوادث تلك الأيام والتي يتبين فيها عظيم همة الشيخ ومزيد حرصه على التعليم وإفادة الناس، وهي حادثة تستحق أن يراجع بعدها كلُّ واحدٍ منًّا نفسه، فما أن يصيبه مرض يسير إلا ويسارع إلى إلغاء كل نشاط له علمي أو دعوي!!

قال ابن الشيخ الأوسط إبراهيم : الوالد رَحِمَهُ اللَّهُ كان من الناس الزهاد في حياته، حياته مليئة بالمآثر والمواقف، ولعلي أذكر آخر موقف من المواقف العظيمة، والتي لا نستطيع نحن ولا الكثير من الناس أن يأتوا بمثلها وهو في أواخر أيامه رَحِمَهُ اللَّهُ في اليوم التاسع والعشرين في رمضان حصل له بعض التعب في الصباح، فقرر الطبيب المرافق أن يتم نقله من «الحرم» إلى مستشفى «جدة»، وبالفعل تم نقله إلى هناك وأدخل العناية المركزة، وجلس هناك قرابة الأربع أو الخمس ساعات تقريبًا، وعندما جاء العصر تحسنت حالته شيئًا ما، فأصرَّ أن يذهب إلى «مكة» رغم محاولاتنا إثناءه عن ذلك، فقال : «لا تحرمونا هذا الأجر، فهذه آخر ليلة في رمضان!».

وبالفعل ذهبنا إلى مكة ومعنا الأطباء المرافقون، وأجلسناه في غرفة داخل الحرم، وأول ما دخل الغرفة طلب أن يتوضأ ويصلي المغرب والعشاء، وبعد أن انتهى من الصلاة طلب أن يُعدَّ للدرس!! ولما انتهى من الدرس قال للأطباء: «كيف تحرمونني من هذا الأجر العظيم»؟!

فهو إنسان غير عادي، فهذا الموقف من يستطيع اليوم أن يقفه، فالإنسان إذا أُدْخِل المستشفى لأي سبب جلس بعدها ما جلس حتى عن مباشرة عمله، فهو يخرج من غرفة العناية المركزة للدرس، فهذا تفكيره، وهذا شغله الشاغل، والحمد لله.

رعايته لتلامذته:

قال الشيخ خالد المصلح [تلميذ وصهر الشيخ]: شيخنا رَحِمَهُ اللَّهُ كان أبًا حانيًا على تلاميذه، حريصًا عليهم غاية الحرص، كان رَحِمَهُ اللَّهُ يخصهم بعنايةٍ فائقةٍ من حيث تزويدهم بالعلم والجوانب العلمية، بل حتى في قضاء حوائجهم الخاصة، فكان رَحِمَهُ اللَّهُ حريصًا على تهيئة المكان المناسب لهم وما يتعلق بذلك مما يحتاجون إليه، كان رَحِمَهُ اللَّهُ يرتب لهم مكافآت شهرية، سوى ما يعطيهم لستر حوائجهم من شراء الكتب أو إنهاء المعاملات أو غير ذلك.

كان رَحِمَهُ اللَّهُ يحصي طلابَه ولاسيما الذين في السكن التابع له رَحِمَهُ اللَّهُ بلقاء شهري يفتتحه رَحِمَهُ اللَّهُ بكلمة توجيهية، ثم يطلب من الطلاب أن يكتبوا الملاحظات المتعلقة بمعاشهم، فإذا لم يكن عندهم شيء من ذلك أجاب على أسئلتهم التي يقدمونها إليه إما مباشرة أو غير ذلك، وبعد هذا يتناول معهم رَحِمَهُ اللَّهُ طعام العشاء على مائدة واحدة يتزاحمون على القرب منه، ولا يخلو المجلس من مداعباته يدخل بها السرور على تلاميذه ويُشْعِرهم بقربه منهم وأنه لهم كالأب.

وقد كان الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ على علمٍ بأحوال تلامذته، يتفقد غائبهم، ويحرص على تفهيم حاضرهم، ويزود محتاجهم لما يريد من المال أو الكتب، وكان يكلف بعضهم بمراجعة الأحاديث أو تحرير بعض المسائل، وينظر في ذلك كله ويتابعه، بل كان يجعل بعضهم يدرِّس لبعض المبتدئين.

والشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ بذل جهدًا عظيمًا متنوعًا في التعليم:

١- فهو إمام وخطيب يعلِّم أهل المسجد. ٢- وهو مدرِّس في الجامعة يعلِّم الطلبة.

٣- وهو مدرِّس في مواسم الخير - مثل الحج والعمرة - في المسجد النبوي والمسجد الحرام وفي منى وعرفات، فيعلِّم الناس كافة من جميع بلدان العالم.

٤- وهو مدرِّس ومفتٍ في المذياع.

٥- وهو من « هيئة كبار العلماء» التي تنظر في المسائل المشكلة والنوازل.

٦- وهو مؤلف لكتب ورسائل ومطويات منتشرة في العالم كله.

٧- وهو مدرِّس للمسلمين خارج المملكة، وذلك عن طريق الهاتف، وقد حدَّثني بعض الشباب في «أمريكا» أنه للتوِّ قد حضر درسًا هناك للشيخ ابن عثيمين، وقد رُبط عن طريق الهاتف مع حوالي مائة مركز إسلامي!!!

٨- بل وحتى داخل المملكة فإنه يفتي للناس عن طريق الهاتف في وقت مخصَّص، وقد رأيناه في الحرم كلما انتهى الإمام من جزء من الصلاة رفع هاتفه الجوَّال ليجيب على أسئلة الناس في هذا الوقت!.

٩- وله محاضرات ودروس ومواعظ في مساجد المملكة كلما ذهب لزيارة أحد مناطقها.

١٠- وله موقع في «الإنترنت» فيه كتب الشيخ وأشرطته..

التأليف:

كان الشيخ قد أراد أن يتفرغ للتأليف، فنصحه بعض إخوانه أن الناس بحاجة إلى التعليم، وأن الله تعالى قد يهيئ لك من يجمع علمك الذي تعلِّم فيُجمع لك الأمران! وكان ذلك، وأخرجت أشرطته المسموعة إلى كتب مقروءة بعناية وترتيب فائق.

ولم يكن الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ حريصًا على «حفظ حقوق الطبع» ولا متأكلًا بعلمه وكتبه، ولو أراد وطلب «ريالًا واحدًا» على كل كتاب لصار مليونيرًا! فقد طُبع للشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ أكثر من «مليون» نسخة من كتبه في حياته، ولكتابه «الشرح الممتع» نصيب الأسد من كتبه تلك، فقد طبع منه عشرات الآلاف من النسخ.

والشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ من الموقِّرين لأهل العلم، وكيف لا والعلم رحِمٌ بين أهله، ومن ذلك:

-أنه دعيَ لافتتاح «تسجيلات إسلامية» ضخمة، وبينما هو يتجول في أنحائها إذ به يلاحظ أنه قد جعل لكل صاحب أشرطة من المشايخ لوحة كبيرة فيها اسمه، وبمروره على «زاوية الشيخ الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ» رأى أن لوحة اسمه صغيرة! فأنكر عليهم الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ غاية الإنكار! وأمرهم بتكبير لوحة الشيخ أو تصغير لوحات المشايخ الآخرين.

وكان ذلك، ففي اليوم التالي جاء الناس إلى «التسجيلات» وقد جعلوا لوحة الشيخ مثل أخواتها!

– ومن تواضعه وتوقيره لأهل العلم: تدريسه كتاب «حلية طالب العلم» للشيخ بكر أبو زيد، وهو معاصر للشيخ وأصغر منه سنًّا، فضرب الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ أروع الأمثلة في التواضع والتوقير لأهل العلم، وخاصة للمتعاصرين الذين يكون بينهم - أحيانًا - التنافس والعداوة.

– ولما بشَّره بعض الشباب برؤيا رآها بعض المجاهدين في الشيخ الألباني، وملخص الرؤيا: أن الرائي قد رأى النبيَّ ﷺ، فسأله إذا أشكل عليَّ شيءٌ في الحديث فمَن أسأل؟ فقال له النبي ﷺ: سَلِ الشيخ محمد ناصر الدين الألباني.

فرح بها الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ، وطلب من ناقلها له أن يتصل بالشيخ الألباني من بيته ليبشره بها، لكن قدَّر الله أن لا يكون الشيخ حينذاك في بيته.

– والشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ يذكر شيوخه بمزيد من الاحترام والتبجيل، أمثال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي والشيخ ابن باز، وأكثر منهما مَنْ كان له عظيم الأثر في حياته وهو الشيخ عبد الرحمن السعدي.

وعُرف عن الشيخ قيامه بالفرائض والنوافل والطاعات، ومن صور ذلك:

– أنه يحج في كل عام منذ سنوات طويلة.

- أنه يعتمر في رمضان وفي غيره من مواسم [العطلات].

- أنه يقيم الليل حتى مع شدة تعبه، وقد حدَّث عن ذلك بعض تلامذته [وهو الشيخ حمد العثمان] ومما قال بالمعنى: إنه سافر مع الشيخ إلى الرياض، فمكثوا فيه وقتًا، ثم غادروا إلى جدة فأدوا العمرة في مكة، فلما انتهوا من عمرتهم وإذ بالتعب قد سرى لجسدهم، فاستسلموا للنوم.

قال الشيخ حمد: فقمت في الليل إلى الحمام لقضاء الحاجة، وإذا بي أرى الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ قائمًا يصلي!!

فقلت: سبحان الله، أنا شاب واستسلمت للنوم، وهذا شيخ كبير تعب معي مثلي، ثم يقوم في الليل ليصلي؟ فتشجع أخونا «حمد» ليصلي فقام وتوضأ، ولما أراد أن يصلي فإذا بالنعاس يغالبه ! فقال: «يا عمي ! إحنا وين والشيخ وين !!؟» فرجع للنوم - ! ولا أدري أصلَّى شيئًا أو لا.

اهتمامه بالعالم الإسلامي:

والشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ كان له اهتمام بالمسلمين في العالم، وبالمجاهدين منهم، فكان رَحِمَهُ اللَّهُ يفتي بدفع الزكاة لهم، ويؤيدهم ويطلع على أحوالهم، ويلتقي بوفودهم.

وفي أوائل الجهاد في الشيشان كان قد خصهم بدروس - سمعتُ بعضها - في المسجد الحرام في العشر الأواخر منه، وأنهى كلمته بدعاء بليغ لأنْ ينصرهم الله ويثبت أقدامهم.

وله الموقف نفسه في الجهاد في البوسنة وأفغانستان وفي غيرها من بقاع العالم. فرحمه الله ورفع درجته، فما كان يشغله العلم والتعليم عن إخوانه المسلمين وأحوالهم. وهذا بعض ما قاله الإخوة في الشيشان بعد وفاة الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وإن ينسَ الناس فضل شيخنا، فلن ننسى وقوفه معنا في الحرب الأولى، ودعمه لنا بما يستطيع أثناء الحرب، وكان بعد الحرب حريصًا على افتتاح المعاهد وإنشاء المحاكم الشرعية. ولن ننسى مناصحته لنا، وتوجيهه الدائم في شأن المحاكم وتطبيق الشريعة. ولن ننسى وقوفه معنا أيضًا في حربنا هذه سواءً بماله يوم أن أرسل لنا زكاته وقال: هي لمصرف الجهاد فقط، أو وقوفه معنا بتوجيه الناس إلى دعمنا. ولن ننسى اتصاله اليومي أو شبه اليومي بنا؛ ليسمع أخبارنا، وينظر في حاجتنا ومشاكلنا ومسائلنا الشرعية .

ولن ننسى دعاءه لنا في السر والعلن من فوق منبره وفي دروسه ومحاضراته وفي قيامه وسجوده . ولن ننسى ما أخبرنا به طلابه أنه كان من شدة اهتمامه بقضيتنا، كان يقرأ على طلابه في المسجد الأخبار التي ننشرها في موقعنا ثم يختم بالدعاء لنا.

ولن ننسى أنه هو أول مَنْ أفتى بوجوب مناصرتنا، وأول مَنْ وضَّح الرؤيا للناس عن أوضاعنا ومدى شرعية جهادنا، ولقد كان لفتواه تلك بالغ الأثر، حيث تتابعت علينا بعد فتواه النصرة والمؤازرة .

وإن ينسَ الناس ذلك كله أو يجهلونه فإننا لن ننسى مواقف الشيخ في قضايا المسلمين جميعها. وهو الذي خصَّص من وقته كل أسبوع ساعة أو أكثر لقيادة المجاهدين في البوسنة، فكان يفتي لهم وينظر حاجتهم ويسمع أخبارهم، ويستبشر بها وينشرها، وقد حدثونا عن موقف له لا ننساه، وهو أن قيادة المجاهدين في البوسنة سألوه عن حكم القتل خطأ وماذا يجب على القاتل وبعد الإجابة قال: أما دية المقتول فعليَّ وسأرسلها لكم إن شاء الله.

وله قبل ذلك مواقف مشرفة مع جهاد إخواننا في أفغانستان، فمن إفتاءٍ بدعمهم ومناصرتهم بكل طريقة، ومناصحة للقادة واهتمام بشؤونهم، إلى عمل دائم يترجم فيه اهتمامه بقضايا المسلمين. ولم يكن الشيخ بعيدًا عن «أريتريا» و«الفلبين»، لا بماله ولا فتواه ولا جهوده.

هذا هو الجانب الجهادي من حياة الشيخ الذي قد يخفى على الناس.

فإن كان الناس لا يعرفون جهود الشيخ هذه، فمعهم عذر، فإن الشيخ عَلَم في الزهد والورع والاستخفاء بالأعمال، فقد أقبلت إليه الدنيا وأدبر عنها، والكل يعرف هذا عنه رَحِمَهُ اللَّهُ.

ولو أردنا استيعاب مواقفه المشرفة رَحِمَهُ اللَّهُ مع قضايا الجهاد لطال بنا المقام، فكيف لو أنا تحدثنا عن علم الشيخ ودعوته ودروسه وإنفاقه ونصحه للناس وإفتائه ومنهجه وطريقته وزهده وورعه و.. و .. إلخ.

والشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ يعد من نوادر العصر في هذا الأمر، فلو علمتَ مشاغله ومناصبه لقلتَ: إن هذا يحتاج إلى ضِعْف وقت اليوم ليقوم بأعماله!

لكن الله تعالى وفَّق الشيخ وبارك في وقته، وكم سمعنا ساعته تصدر صوتًا في الوقت المعيَّن لانتهاء الدرس ليبدأ بعدها بالأسئلة!

وحياته عجيبة، وهي مثال للمسلم الحريص على وقته، فهو يؤم المصلين ويدرس في المسجد ويدرس في الجامعة ويخطب الجمعة، ويجيب على أسئلة الناس على الهاتف، ويلبي دعوة الناس في أفراحهم، ومناسباتهم، ويحضر في «الرياض» اجتماع «هيئة كبار العلماء»، ويشرف على سكن الطلاب، ويزورهم هناك، ويجلس معهم، ويقوم بإلقاء المحاضرات على الهاتف، ويجيب على أسئلة المراسلين له الكتابيَّة، ويسجِّل حلقات في الإذاعة، هذا عدا عن قيامه بواجب أهله، ومناصحته لأهل المسئولية وغيرهم.

وعن برنامجه اليومي قال ابنه إبراهيم: إن الوالد كان عادة ما يستيقظ قبل صلاة الفجر ويوتر، ثم يصلي الفجر، ويرجع إلى البيت ويرتاح قليلًا، ثم بعد ذلك يبدأ اليوم إذا كان عنده محاضرة استعد لها، وإلا جلس للكتابة والرد على مكالمات السائلين حتى وقت الظهر، ثم يذهب للمسجد لصلاة الظهر، ثم يرجع للبيت مرة ثانية لمكتبته حتى يحين وقت الغداء، وهي

الفرصة التي يلتقي فيها بأبنائه! وحتى في هذه اللحظة يضع التليفون بالقرب منه لمباشرة الرد على الأسئلة، ثم بعد الغداء يجلس ويرد على التليفون، ثم يذهب لصلاة العصر، ويجلس بعدها بالمسجد قليلًا، حيث يلتقي غالبًا ببعض أهل القضايا والحاجات، ثم يعود للبيت ويجلس بالمكتبة حتى صلاة المغرب، ثم يذهب لصلاة المغرب ليبدأ بعدها الدرس إلى العشاء، ثم بعد صلاة العشاء يعود للبيت، ودائمًا ما يكون لديه برنامج بعد العشاء وحتى حوالي التاسعة والنصف إما خارج «عنيزة» أو عبر التليفون أي في بلدان المملكة أو أحيانًا خارج المملكة في هولندا وألمانيا وكثير من الدول، فيكون على اتصال بالمراكز هناك، ويقوم بإلقاء محاضرة ربما امتدت لساعة عبر التليفون، ثم بعدها يجلس إلى القراءة حتى حوالي الحادية عشرة، هذا هو يومه العادي .اهـ

ومن حرص الشيخ على تنظيم وقته أنه كان لا يخلط وقتًا بوقت، فوقت الدرس ليس هو وقت الأسئلة، ووقت القراءة ليس هو وقت الإجابة على الأسئلة، وهكذا.

وقد حدَّث الشيخ عثمان الخميس - أحد تلامذته - عن هذا، فقال: إن الشيخ العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان شديد الحرص على استغلال وقته، فكان يسمح للطلبة أن يقرءوا عليه الكتب ويستفتوا أثناء ذهابه إلى منزله من المسجد، بينما لا يسمح أبدًا بسؤاله أثناء خروجه من بيته إلى المسجد؛ لأنه وقت استغفاره وذكره ومراجعته لكتاب الله!!

مرض الشيخ:

قال أحد أبناء الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو عبد الله الصالح العثيمين: لقد جاء اكتشاف مرض الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالسرطان متأخرًا، وكان اكتشافه أول الأمر في مستشفى الملك فهد بالحرس الوطني، وقد قام المستشفى - إدارة ومختصين - بما يُشكرون عليه من عناية، ثم أجريت له فحوصات أخرى في مستشفى الملك فيصل التخصصي، ونال من إدارته والمختصين به كل عناية ورعاية، فجزى الله الجميعَ في المستشفيين خير الجزاء، وقد اختلفت آراء الأطباء سواء

من كشفوا عليه أو من اطلعوا على التقارير عنه، واستشيروا حولها في طريقة علاجه، فكان منهم من رأى علاجه بالأشعة والكيماوي، ومنهم من لم ير ذلك، وفي تلك الظروف كان الشيخ محمد مترددًا لِما رآه من اختلاف وجهات نظر الأطباء، ولمزيد من الاطمئنان - تشخيصًا وعلاجًا - جاءت مشورة ولاة الأمر في هذا الوطن له كي يسافر إلى أمريكا، حفظهم الله ورعاهم وجزاهم أفضل ما يجزي به عباده الصالحين، على ما أبدوه تجاهه من عطف، وما قاموا به من رعاية، وقد أكدت الفحوصات هناك ما تُوصل إليه من تشخيص في المملكة، واستقر الرأي الطبي على أن يعالج مدةً بالأشعة، مع جرعات مخففة بالكيماوي، ثم يبدأ العلاج بالكيماوي وحده، وسُرَّ الشيخ محمد بذلك، وقدمَ إلى الوطن ليبدأ في مستشفى الملك فيصل التخصصي ما استقر الرأي الطبي عليه، [وعولج] بالأشعة فعلًا، على أن الأطباء رأوا أخيرًا أن سلبيات علاجه بالكيماوي أوضح من إيجابياته، ففضلوا عدم علاجه به، وقبِل الشيخ ما فضَّلوه.

سُئلت زوجة الشيخ عن مرضه:

س: كيف تلقى الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ خبر إصابته بالمرض، وكيف أخبركم بذلك؟

جـ: تلقى رَحِمَهُ اللَّهُ خبر إصابته بالمرض بالصبر والاحتساب، حتى أنه رَحِمَهُ اللَّهُ حمل هم تلقينا نحن للخبر، وقد ذكر لي أحد أبنائي بعد ذلك بأن الوالد رَحِمَهُ اللَّهُ طلب منهم عدم ذكر شيء لوالدتكم وأخواتكم واتركوا ذلك لي، وقد قام رَحِمَهُ اللَّهُ بنقل الخبر لنا بالتدريج، نسأل الله تعالى أن يغفر له ويسكنه فسيح جناته.

س: علمنا أن الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ في مرضه كان يرفض أن يطلق على المرض بالخبيث، وكان يسميه الخطير.. هلا حدثتنا عن هذه النقطة وعن صور صبره رَحِمَهُ اللَّهُ ؟

جـ: لم يكن ذلك بعد مرضه فقط، بل كان هذا رأيه رَحِمَهُ اللَّهُ من قبل ذلك، وكأنه رَحِمَهُ اللَّهُ يكره كلمة خبيث، أما صور صبره رَحِمَهُ اللَّهُ فقد تجلت أثناء مرضه فقد كنت أعلم أنه يعاني من

ألم شديد، وقد كان الألم يوقظه من نومه عدة مرات في الليل، ولكنه عندما يُسأل عن الألم كان يرد بوجود ألم، ولكنه يضيف بأنني أقول ذلك من باب الإخبار وليس من باب الشكوى.

س: كيف كان الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ يتداوى من مرضه؟ وأرجو أن تذكري لنا شيئًا من مظاهر صبره رَحِمَهُ اللَّهُ؟

جـ: كان رَحِمَهُ اللَّهُ طوال حياته وعندما يعاني من أي عارض صحي يبادر في طلب الاستشارة الطبية، ويتلقى العلاج، مع أنه رَحِمَهُ اللَّهُ كان أشد الناس محافظة فيما يتعلق بالبرنامج الغذائي، إضافة إلى أنه رَحِمَهُ اللَّهُ كان يمشي إلى مسجده سيرًا على الأقدام خمس مرات في اليوم والليلة وكان يرى بأن المحافظة على صحة البدن أمانة، وأن الإنسان لا يجوز له أن يهمل في ذلك، إضافة إلى ذلك كان رَحِمَهُ اللَّهُ يرقي نفسه وأهل بيته وأحفاده في حالة مرضهم، كما أنه رَحِمَهُ اللَّهُ تلقى الرقية من مشائخ فضلاء في مرضه الأخير، وكان يرتاح لذلك.

س: في حياة كل منا أيام صعبة، فهلا ذكرتِ لنا شيئًا من هذه المواقف؟

جـ: لم تمر علينا أيام صعبة مثل أيام مرضه رَحِمَهُ اللَّهُ الأخير، فقد كنا في حالة لا يعلمها إلا الله رغم أنه رَحِمَهُ اللَّهُ كان يُصبِّرنا، وكان همه ألا يرى أثر ذلك على وجوهنا أو نفسياتنا.

الراحة في خدمة المسلمين...

قال الشيخ بدر بن نادر المشاري: رغم مرض الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ حرص على خطب الجمعة في الجامع الكبير والإمامة، والالتقاء بالناس للإجابة على أسئلتهم واستفساراتهم، رغم كل معاناته حتى قيل له في وقت مرضه: أرِحْ نفسك يا شيخ!

قال: الراحة في خدمة المسلمين ...

صلاة وقراءة قرآن...

قال الشيخ سعد بن عبد الله البريك: إن هذا العالم الجليل حتى آخر لحظة من لحظات عمره كما يخبرني الطبيب الذي كان معه آخر أيام حياته وقابلته بعد موته بساعة أو ساعتين في المستشفى التخصصي في جدة قال: إني كنت آخر الأيام مع الشيخ فسألته ما كان دأبه في الأيام الأخيرة قال: ما رأيت عليه سوى الصلاة وقراءة القرآن، ما اشتغل بغير ذلك بشيء أبدًا.

كلمة تدون بماء الذهب ...

قال الشيخ بدر بن نادر المشاري: لما رجع من أمريكا بعد العلاج سُئل عن حالته العلاجية والصحية، فقال الشيخ كلمة تدون بماء الذهب قال: اعلموا أن المرض لا يقدم الآجال، وأن العافية لا تؤخر الآمال والآجال، وأن أجلي مكتوب، وأجلكم مكتوب، من قبل أن يخلق الله السماوات والأرض، فآمنوا بهذا فإني قد آمنت به.

أصابه ألم في ركبته..

قال الشيخ علي بن عبد الله السلطان: أذكر أنه من حرص الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ على التعليم أنه قبل سنة ألف وأربعمائة للهجرة أصيب في ركبته أو أصابه ألم في ركبته أقعده حيث لم يتمكن معه الذهاب إلى الجامع الكبير فترةً من الزمن، فما كان منه رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلا أن نقل الدرس إلى المسجد الذي في جوار بيته، كل ذلك حرصًا على عدم انقطاع الدرس...

اعملوا ما شئتم وسألقي الدرس:

قال الشيخ محمد رابع سليمان: سجل فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين خلال شهر رمضان الماضي موقفًا مؤثرًا أمام أطبائه الذين كانوا يشرفون على حالته الصحية داخل المسجد الحرام، فقد كانت حالة الشيخ الصحية تستدعي راحته في تلك الليلة وعدم إلقائه الدرس بعد صلاة التراويح؛ لأن الأطباء يرغبون في إضافة دم للشيخ وعمل بعض الفحوصات، لكن الشيخ

قال لهم: اعملوا ما شئتم وسألقي الدرس، فكان يتحدث ويلقي المحاضرة والأطباء يضعون الإبر في جسده لزيادة الدم واستكمال الفحوصات والتأكد من درجة الحرارة والضغط والحالة الصحية العامة، فهكذا وإلى هذه الدرجة كان حرصه على نشر العلم وتعليم الناس حتى آخر يوم من رمضان قبل مغادرته المسجد الحرام...

بكى بكاءً شديدًا:

قال خالد بن عبد الله الحمودي: قبل وفاته رَحِمَهُ ٱللَّهُ حضرنا مجلسًا وكنت معه، فتليت قصيدةً في هذا المجلس عن الموت، فبكى الشيخ بكاءً شديدًا، وهو يسأل الله قائلًا: اللهم أعنا على الموت. وكان ذلك قبل وفاته بأشهر قليلة...

قليل الكلام و كثير الحمد...

قال الشيخ بدر بن نادر المشاري: قال الطبيب المعالج للشيخ: إن الشيخ محمد [رحمةُ الله عليه] كان يقرأ القرآن الكريم، ثم دخل في غيبوبة قبل وفاته بساعة، وكان الشيخ قليل الكلام وكثير الحمد والاستغفار، يقول الطبيب: سمعته مرة يقرأ سورة الفاتحة، وتارة كان يتمتم لصعوبة حالته الصحية، وعندما سُئل أبناؤه عما يتمتم به الشيخ ذكروا بأنه كان يقرأ القرآن..

مات بسبب السرطان:

قال الشيخ ناصر الأحمد: لقد بلغ الجميع نبأ وفاة عالم الأمة، ومفتي هذا الزمان سماحة الوالد الإمام العلامة الشيخ محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى رحمة واسعة، وأسكنه فسيح جناته، فقد انتقل الشيخ إلى جوار ربه يوم الأربعاء الخامس عشر من شوال من عام ١٤٢١هـ، حيث دخل في غيبوبة عند الساعة الواحدة والنصف بعد ظهر يوم الأربعاء، وتوقف قلبه ونفَسُه في الساعة السادسة إلا عشر دقائق قبل المغرب، فإنا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

لقد رحل عالم عنيزة عن هذه الدنيا بعدما ملأها علمًا، والله! لقد عظمت مصيبة الإسلام، وأهل الإسلام، لقد عظمت مصيبة أمة محمد ﷺ بوفاة العلامة الشيخ محمد بن صالح العثيمين، رحمه الله رحمة واسعة.

لقد كان الشيخ يعاني من المرض الخطير، مرض السرطان - عافانا الله وإياكم منه - الذي ألزمه الفراش، وبسببه رَحَل ولقي ربه، فيما نرجو أن يكون شهادة له عند الله.

كان رَحِمَهُ اللَّهُ في أيامه الأخيرة ملازمًا لذكر الله، وقراءة القرآن حتى رحل رَحِمَهُ اللَّهُ وقد ملأ الدنيا علمًا، فلا يكاد يوجد كتاب مهم لطلبة العلم في كل علوم الشريعة إلا وقد شرحه، كان رَحِمَهُ اللَّهُ زاهدًا في الدنيا، كما ظهر من حاله ولباسه، حريصًا على نفع الخلق مشتغلًا بتدريسهم حتى في فترة مرضه.

الدرس الأخير لفقيد الأمة وفقيد العلم في الحرم كان درس العَبَرات !!..

يقول أحد ممن حضر درسه الأخير - قدس الله روحه - في ليلة الثلاثاء المتمم للثلاثين من رمضان لهذا العلم ١٤٢١هـ :

وكان لحضور هذا الدرس أهمية في نفسي لسببين؛ أولهما :أنه قبل ذلك اليوم بيومين أخذ المرجفون يشيعون بالهاتف والإنترنت خبرًا كاذبًا عن وفاة الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ، فنكذّب الخبر بصفتنا قد استمعنا للدرس في الحرم .

والثاني- أننا نعلم حقيقة ما ألم بالشيخ من داء عضال، أجمع الأطباء قديمًا وحديثًا على أن من وصلت حالته إلى ما وصلت إليه حالة الشيخ، فقد أصبحت أيامه معدودة إلا أن يشاء الله شيئًا ... وكان صوت الشيخ - قدس الله روحه - يشي بما وصلت إليه حاله من تدهور في الصحة العامة، لاسيما وأن مرض السرطان - أجارنا الله وإياكم - معروف عنه أنه يسبب آلامًا رهيبة ومبرحة للمصاب به لا يمكن التغلب عليها إلا بجرعات كثيرة من دواء مخدر

[كالمورفين]، ولا أشك في أن الشيخ - قدس الله روحه - وكما سمعنا أيضًا قد رفض تعاطي ذلك الدواء، وآثر الاحتساب فلله الأمر من قبل ومن بعد .. كنت أستشف من خلال صوت الشيخ مقدار ما يعانيه، ولكنه كان مصرًا على إلقاء درسه كالعادة، حتى لو لم يستمر إلا ثلث ساعة أو أقل من ذلك، ولما تشتد وطأة المرض عليه يغيب عن الحرم وقد افتقدناه حوالي أربعة أيام لشدة ما ألم به، ثم عاد ونحن بين خوف ورجاء ..

كان درس ليلة الثلاثين درس عجيب مفرح ومحزن اختلطت فيه الفرحة بالخوف، واختنقت فيه العَبَرات !!..

كانت الفرحة بسماع صوت الشيخ المُتعب، وتمثل الفرح في أنني تأكدت بكذب خبر وفاته المشاع يومها ..

بدأ الشيخ بالحديث بصوتٍ أثقلته الآلام، فتحدث عن العيد، وأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جعل للمسلمين ثلاثة أعياد حُقَّ للمسلمين أن يفرحوا فيها بما أنعم الله عليهم من توفيق للأعمال الصالحة، وفصّل فيها قليلًا،ثم انتقل إلى الإجابة على الأسئلة ..

وقد أطال الشيخ - قدس الله روحه - درسه تلك الليلة على غير ما اعتدناه في هذه السنة من اختصار، حتى أن الدرس في الأيام السابقة لذلك اليوم لم يكد يستغرق العشرين دقيقة، إلا أن الدرس الأخير أخذ أكثر من خمس وثلاثين دقيقة أجاب فيها على أسئلة كثيرة !!..

ثم اقتربت النهاية، وتسارعت الأنفاس، واضطربت نبضات القلوب خوفًا من أن هذا الدرس ربما يكون آخر العهد بشيخنا الحبيب الذي طالما ارتوينا من معينه، واستنرنا بنور علمه وفقهه!!

لا أدري كيف كان حال من حولي، حيث أخذت أتخيل أننا ربما لا نلقى حبيبنا بعد عامنا هذا، بل بعد درسنا هذا !! لا أدري عم كانت آخر الفتاوى لانشغال الفكر بالتفكير في

أن هذا ربما كان آخر العهد، ولكن سرعان ما انتبهت على انتهاء الأسئلة، وقال الشيخ بعدها قولة حفرت في الذاكرة !!

نعم لا زلت أذكر آخر كلمات نطق بها الشيخ فأوشك على البكاء وأبكى من استمع له!!..

قال الشيخ بصوته المتعب: وحيث إن هذه الليلة هي ليلة الثلاثين من رمضان، فسيكون هذا آخر درس لهذا العام!!

يا للهول آخو درس !!! لقد قال الشيخ: آخر درس؟؟!! نعم قالها، ولكن قال بعدها وخنقته العبرة : لهذا العام، ولكن كان لسان الحال يقول: بل آخر درس إلى الأبد ..!!. كان صوت لسان الحال أعلى من ذلك الصوت المثقل بالآلام، فكأن الشيخ لم يقل: لهذا العام، وكأننا ما سمعناه قال إلا: آخر درس إلى الأبد!!!

إنا لله وإنا إليه راجعون ..اللهم اؤْجُرْنا في مصيبتنا واخلفنا خيرًا منها!! نعم والله ..كان هذا ما شعرت به وشعر به من حضر ذلك الدرس الذي لا ينسى أبد الدهر!!..

حتى لقد رأيت من نقل عن الشيخ - قدس الله روحه – قوله: هذا [آخر درس لهذا العام]، ولكن الناقل قد أسقط الكلمة الأخيرة وما قال إلا [آخر درس] !! ولا أشك في أنه لقي ما لقينا، ونقل عن الفقيد ما قال لسان الحال لا ما قال هو!!..

إنا لله وإنا إليه راجعون ..اللهم اؤجرنا في مصيبتنا واخلفنا خيرًا منها!!

أعظم الله أجرنا وأجركم في فقيد الأمة وفقيد العلم والعلماء ..

على مثل ابن العثيمين فلتبكِ البواكي..

آخر ساعات الشيخ كانت مع كتاب الله:

تحدث الدكتور «عامر رضوى» عن آخر ساعة في حياة فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين بأنه كان يقرأ القرآن الكريم، ثم دخل في غيبوبة وبعدها بساعة انتقل إلى جوار ربه الكريم.

وقد وصف د. رضوى - الطبيب المعالج - الأيام التي قضاها بجوار الشيخ بأنه كان يحس بالألم لمرض الشيخ، وأنه يتعامل معه مثلما يتعامل الابن مع أبيه، وقال: وكنت أدعو الله له بالشفاء، ولكن قَدَر الله كان أسرع.

وذكر د. رضوى بأن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان قليل الكلام، كثير الحمد والاستغفار، وقد سمعه يقرأ سورة الفاتحة، وفي مرات أخرى كان يتمتم لصعوبة حالته الصحية، وعندما سأل أبناءه عما يتمتم به الشيخ ذكروا بأنه يقرأ القرآن.

وعن الموجودين مع فضيلة الشيخ لحظة وفاته ذكر الدكتور رضوى بأن جميع أبناء الشيخ كانوا موجودين معه بالإضافة إلى أقاربه.

وعن دخول الشيخ في حالة الغيبوبة وشعور أقارب الشيخ ذكر د. رضوى أن أبناءه كانوا محتسبين وصابرين وراضين بقضاء الله وقَدَره .

وعن إعلانه لحالة الوفاة وأثرها على أقارب الشيخ يقول د. رضوى: الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بكى على ابنه إبراهيم فما بالك بأبناء الشيخ وهم مع أبيهم، إلا أنهم كانوا صابرين محتسبين الأجر عند الله، ولم أشاهد منهم أي تصرف غير طبيعي، سوى دموعهم التي أعتقد أن العالم الإسلامي ذرفها معهم على فقد عالم من علماء الدين.

وعن الحالة الطبية والمرض الذي كان يعاني منه فقيد الأمة أبدى د.رضوى عدم ترحيبه بالإجابة على هذا السؤال واكتفى بالقول: هذه أمانة طبية، ومن حق أبنائه فقط التصريح بمثل هذه الأمور، أما أنا فأعتقد أنه ليس من حقي أن أكتشف حالة الشيخ من منطلق الأمانة على أسرار مرضاي.

ذكر المغسلون الذين قاموا بتغسيل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ وتكفينه: أنهم شاهدوا نورًا وبشاشة في الوجه وسهوله في التغسيل، حتى أن المغسلين تفاجئوا من نظافة الشيخ عندما أتوا به،

وكانوا يعتقدون أنه قد غُسِّل قبل مجيئه، وبسبب ارتخاء في الفكين كان فم الشيخ مفتوحًا ظاهرة أسنانه وكأنه مبتسم، فحاول ابنه عبد الرحمن قفل فم الشيخ لمدة نصف ساعة ومع ذلك لم يستطيعوا ..

ولعل هذا بإذن الله من المبشرات ومن علامة حسن الخاتمة، وهذا ما نرجوه للشيخ غفر الله له ولنا ولوالدينا ولجميع المسلمين . اللهم آمين .

جنازة الشيخ:

قال بعض إخواننا الذين حضروا جنازة الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ:

هكذا كان مشهد الرحيل ...الذي ودعنا فيه شيخنا ابن عثيمين -رحمة الله تعالى عليه- ليبدأ فيه رحلة الدار الآخرة.

لقد كان مشهدًا يبعث على الرهبة والإجلال لذلك العالم الفذ، الذي ملأ الدنيا بعلمه مسموعًا ومرئيًّا ومقروءًا.

آهٍ! لو رأيت تلك الجموع التي توافدت من كل صوب لتحضر الصلاة والدفن على شيخنا الجليل .... وجوه واجمة حزينة تتعجل وصولها إلى الحرم منذ وقت مبكر غصَّ الحرم على غير عادته في مثل هذا الوقت، فالصلاة صلاة عصر وليس موسم إجازة، بل هو موسم اختبارات، ومع ذلك فقد كنت تشعر أن المسجد الحرام قد امتلأ بالمصلين وتتيقن تمامًا حينما تجد الأعناق تشرئب لتنظر إلى ذلك المسجى أَمام الإمام، فقد وُضعت الجنازة منذ الساعة الثالثة تقريبًا تحت حراسة مكثفة، وليس لهم سبيل أن يضعوها إلا في ذلك الوقت، فقد كان الحرم يغص غصًّا بالناس، وما عدت ترى في الصحن إلا شبابًا، وتوقفت حركة المطاف نهائيًّا، وما أن انتهت صلاة العصر وتقدم بالجنازة ليصلي عليها إمام الحرم - حفظه الله -، ونادى المنادي: «الصلاة على الأموات يرحمكم الله» حتى تحس كأن القلوب انخلعت من

أماكنها، وسرى خشوع عجيب، وصمت رهيب، لا تكاد ترى أحدًا لم يقم ولم يصلّ فقد كان الحديث عن الجنازة يملأ أرجاء الحرم قبل الأذان وبعده.

وصُلِّي عليه رحمه الله تعالى، وما أن فرغ الإمام من الصلاة عليه حتى تسابقت الجموع لحمله مئاتٌ كلٌّ يريد حمل ذلك الجثمان رحمة الله تعالى عليه، وانطُلق به إلى مقبرة «العدل» بسيارة إسعاف من طريق خاص حيث قد أغلقت الطرق، ولا تستطيع أن تصل إلى المقبرة إلا عن طريق طويل، والجموع قد سُبقت بالسيارات، وجموع منتظرة في المقبرة، لفيف عظيم من كل المستويات: علماء، وطلبة علم، وعوام، غصت بهم مقبرة «العدل» بمكة المكرمة، وازدحمت الشوارع المحيطة بالمقبرة بسياراتهم، ولك أن تتخيل ذلك الجو الكئيب الذي سيطر على الجميع، فلا تكاد تسمع إلا «أحسن الله عزاءنا في شيخنا، وعوض الأمة خيرًا في فقده».

حفر له قبره، ولحِّد، وأهيل التراب عليه، رحمة الله تعالى عليه، ولم تستطع قوات الطوارئ الكثيفة المتواجدة بالمقبرة أن تمنع الشباب [من] أن يصلوا إلى قبر الشيخ، فقد غلبتهم كثرة الناس، فما عاد لهم إلا أن يقفوا مع الواقفين، ووقفت تلك الجموع في رهبة عظيمة ترفع أيديها لمولاها أن يسبغ على الشيخ واسع رحمته، وأن يسكنه فسيح جنته، فلم تعد تسمع إلا همهمة دعاء، وابتهال متضرع، وسؤال خاشع، يسألون له الرحمة. وما انتهت مراسم الدفن إلا في الساعة الخامسة والنصف عصرًا من زحمة الناس. هنيئًا لذلك الجثمان الطاهر الذي عاش لأجل غيره، فعاش كبيرًا ومات كبيرًا. اختفى عن الأنظار لكنه لم يتزحزح من القلوب .... بقيت كلماته مدوية في الآذان، وعلمه مبسوطًا للناس، وما مات من كان ذلك شأنه، مثل الشيخ ابن عثيمين يُفْرَح له، فقد قدم للإسلام الشيء الكثير، وشهد له البشر بالخير والعلم والفضل والبذل، لا ينكر ذلك إلا حاقد .... وعلى أمثالنا فلتبكِ البواكي ...رحمة الله تعالى عليك، فقد كنت لنا جميعًا نعم الأب والمعلم . اهـ.



الشيخ/ محمد حامد الفقي

وُلد الشيخ محمد حامد الفقي بقرية نكلا العنب في سنة ١٣١٠هـ الموافق ١٨٩٢م بمركز شبراخيت مديرية البحيرة.

نشأ في كنف والدين كريمين، فوالده الشيخ أحمد عبده الفقي تلقى تعليمه بالأزهر، ولكنه لم يكمله لظروف اضطرته لذلك.

أما والدته فقد كانت تحفظ القرآن وتجيد القراءة والكتابة، وبين هذين الوالدين نما وترعرع وحفظ القرن وسنّه وقتذاك اثنا عشر عامًا.

ولقد كان والده أثناء تحفيظه القرآن يوضح له معاني الكلمات الغريبة، ويعلمه مبادئ الفقه، حتى إذا أتمَّ حفظ القرآن كان ملمًا إلمامًا خفيفًا بعلومه، ومهيأ في الوقت ذاته لتلقي العلوم بالأزهر على الطريقة التي كانت متبعة وقتذاك.

كان والده قد قسم أولاده الكبار على المذاهب الأربعة المشهورة ليدرس كل واحد منهم مذهبًا، فجعل الابن الأكبر مالكيًا، وجعل الثاني حنفيًا، وجعل الثالث شافعيًا، وجعل الرابع وهو الشيخ محمد حامد الفقي حنبليًا.

ودرس كل من الأبناء الثلاثة ما قد حُدد من قبل الوالد ما عدا الابن الرابع فلم يوفَّق لدراسة ما حدده أبوه فقُبل بالأزهر حنفيًا.

بدأ محمد حامد الفقي دراسته بالأزهر في عام ١٣٢٢هـ - ١٩٠٤م، وكان الطلبة الصغار وقتذاك يبدؤون دراستهم في الأزهر بعلمين هما: علم الفقه، وعلم النحو. وكانت الدراسة المقررة كتابًا لا سنوات، فيبدأ الطالب الحنفي في الفقه بدراسة «مراقي الفلاح». ويبدأ في النحو بكتاب الكفراوي، وهذان الكتابان هما السنة الأولى الدراسية، ولا ينتقل منها الطالب حتى يتقن فهم الكتابين.

كان آخر كتاب في النحو هو الأشموني، أما الفقه فحسب المذاهب فعند الحنابلة «الدليل»، وعند الشافعية «التحرير»، وعند الحنفية «الهداية»، وعند المالكية «الخرشي»، أما بقية العلوم الأخرى كالمنطق وعلم الكلام والبلاغة وأصول الفقه، فكان الطالب لا يبدأ في شيء منها إلا بعد ثلاث سنوات.

بدأ الشيخ محمد حامد الفقي دراسته في النحو بكتاب «الكفراوي» وفي الفقه بكتاب «مراقي الفلاح» وفي سنته الثانية درس كتابي الشيخ خالد في النحو وكتاب «منار السبيل» في الفقه، ثم بدأ في العلوم الإضافية بالسنة الثالثة، فدرس علم المنطق، وفي الرابعة درس علم التوحيد، ثم درس في الخامسة مع النحو والفقه علم الصرف، وفي السادسة درس علوم البلاغة، وفي هذه السنة وهي سنة ١٩١٠م بدأ دراسة الحديث والتفسير، وكانت سنه وقتذاك ثمانية عشر عامًا، فتفتح بصره وبصيرته بهدي رسول الله ﷺ وتمسك بسنته لفظًا وروحًا.

لما أمعن الشيخ في دراسة الحديث على الوجه الصحيح ومطالعة كتب السلف الصحيح والأئمة الكبار أمثال ابن تيمية وابن القيم وابن حجر والإمام أحمد بن حنبل والشاطبي وغيرهم، فدعا إلى التمسك بسنة الرسول الصحيحة والبعد عن البدع ومحدثات الأمور، وأن ما حدث لأمة الإسلام بسبب بُعْدها عن السنة الصحيحة وانتشار البدع والخرافات والمخالفات.

فالتف حوله نفر من إخوانه وزملائه وأحبابه، واتخذوه شيخًا لهم، وكان سنه عندها ثمانية عشر عامًا سنة ١٩١٠م بعد أن أمضى ست سنوات من دراسته بالأزهر، وهذا دلالة على نبوغ الشيخ المبكر.

وظل يدعو بحماسة من عام ١٩١٠م حتى أنه قبل أن يتخرج في الأزهر الشريف عام ١٩١٧م دعا زملاءه أن يشاركوه ويساعدوه في نشر الدعوة للسنة الصحيحة والتحذير من البدع.

ولكنهم أجابوه: بأن الأمر صعب، وأن الناس سوف يرفضون ذلك. فأجابهم: إنها دعوة السنة والحق، والله ناصرها لا محالة. فلم يجيبوه بشيء.

فأخذ على عاتقه نشر الدعوة وحده، والله معه، فتخرج عام ١٩١٧م بعد أن نال الشهادة العالمية من الأزهر، وهو مستمر في الدعوة، وكان عمره عندها ٢٥ سنة. ثم انقطع منذ تخرجه إلى خدمة كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

وحدثت ثورة ١٩١٩م، وكان له موقف فيها بأن خروج الاحتلال لا يكون بالمظاهرات التي تخرج فيها النساء متبرجات والرجال ولا تحرر فيها عقيدة الولاء والبراء لله ولرسوله، ولكنه بالرجوع لسنة الرسول ﷺ، وترك ونبذ البدع وإنكاره لمبادئ الثورة «الدين لله والوطن للجميع». «وأن خلع حجاب المرأة من التخلف»، وانتهت الثورة وظل على موقفه هذا.

ظل الشيخ يدعو عدة أعوام حتى تهيأت الظروف، وتم إشهارها، ثمرة هذا المجهود، وهو إنشاء جماعة أنصار السنة المحمدية التي هي ثمرة سنوات الدعوة من ١٩١٠م إلى ١٩٢٦م عام إشهارها. واتخذ لها دارًا بعابدين، ولقد حاول كبار موظفي قصر عابدين بكل السبل صد الناس عن مقابلته والاستماع إليه، حتى سخَّرُوا له من شرع في قتله، ولكن صرخة الحق أصمَّت آذانهم، وكلمة الله فلَّت جموعهم، وانتصر الإيمان الحق على البدع والأباطيل. [مجلة الشبان المسلمين رجب ١٣٧١هـ].

بعد أن أسس الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ جماعة أنصار السنة المحمدية، وبعد أن يسر الله له قراءة كتب الإمامين ابن تيمية وابن القيم، واستوعب ما فيها ووجد فيها ضالته، وفي مارس ١٩٣٦م صدر العدد الأول من مجلة الهدي في ١٩٣٧هـ لتكون لسان حال جماعته والمعبرة عن عقيدتها والناطقة بمبادئها، وقد تولى رياسة تحريرها، فكان من كُتَّاب المجلة على سبيل المثال

لا الحصر: الشيخ أحمد محمد شاكر، الأستاذ محب الدين الخطيب، والشيخ محيي الدين عبد الحميد، والشيخ عبد الظاهر أبو السمح، [أول إمام للحرم المكي]، والشيخ أبو الوفاء محمد درويش، والشيخ صادق عرنوس، والشيخ عبد الرحمن الوكيل، والشيخ خليل هراس، كما كان من كُتَّابها الشيخ محمود شلتوت.

وقد حدد الشيخ أغراض المجلة فقال في أول عدد صدر فيها: «وإن من أول أغراض هذه المجلة أن تقدم ما تستطيعه من خدمة ونصح وإرشاد في الشؤون الدينية والأخلاقية، أخذت على نفسها موثقًا من الله أن تنصح فيما تقول، وأن تتحرى الحق، وأن لا تأخذ إلا ما ثبت بالدليل والحجة والبرهان الصحيح من كتاب الله تعالى وحديث رسوله ﷺ » اهـ.

إنتاجه العلمي:

إن المكتبة العربية لتعتز بما زودها به من كتب قيمة مما ألف ومما نشر ومما صحح ومما راجع ومما علق، وشرح من كتب الإمام ابن تيمية وابن القيم وغيرهما. وكما كان الشيخ محبًا لابن تيمية وابن القيم، فقد جمعت تلك المحبة لهذين الإمامين الجليلين بينه وبين الشيخ عبد المجيد سليم شيخ الأزهر، وكذلك جمعت بينه وبينه الشيخ شلتوت الذي جاهر بمثل ما جاهر به الشيخ حامد، جاء في نشرة [أخبار التراث الإسلامي] العدد الرابع عشر ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م أنها اشترت خزانة الشيخ محمد حامد الفقي كاملةً مخطوطتها ومصورتها وكتبها وكتيباتها، وقد أُحصيت هذه تلك المحتويات على النحو التالي:

٢٠٠٠ كتاب - ٧٠ مخطوطة أصلية - مائة مخطوطة مصورة على ورق.

جهاده:

يقول عنه الشيخ عبد الرحمن الوكيل: «لقد ظل إمام التوحيد [في العالم الإسلامي] وَالِدُنا الشيخ محمد حامد الفقي رَحِمَهُ اللهُ أكثر من أربعين عامًا مجاهدًا في سبيل الله، ظل يجالد

قُوَى الشر الباغية في صبر، مارس الغلب على الخطوب، واعتاد النصر على الأحداث، بإرادة تزلزل الدنيا حولها، وترجف الأرض من تحتها، فلا تميل عن قصد، ولا تجبن عن غاية، لم يكن يعرف في دعوته هذه الخوفَ من الناس، أو يلوذ به، إذ كان الخوف من الله آخذًا بمجامع قلبه، كان يسمي كل شيء باسمه الذي هو له، فلا يُداهن في القول ولا يداجي ولا يبالي، ولا يعرف المجاملة أبدًا في الحق أو الجهر به، إذ كان يسمي المجاملة نفاقًا ومداهنة، ويسمي السكوت عن قول الحق ذلًّا وجبنًا».

عاش رَحِمَهُ ٱللَّهُ للدعوة وحدها قبل أن يعيش لشيء آخر، عاش للجماعة قبل أن يعيش لبيته، كان في دعوته يمثل التطابق التام بين الداعي ودعوته، كان صبورًا جلدًا على الأحداث، نُكب في اثنين من أبنائه الثلاث، فما رأى الناس منه إلا ما يرون من مؤمن قوي، أسلم لله قلبه كله.

ويقول الشيخ أبو الوفاء درويش: «كان يفسر آيات الكتاب العزيز، فيتغلغل في أعماقها، ويستخرج منها درر المعاني، ويشبعها بحثًا وفهمًا واستنباطًا، ويوضح ما فيها من الأسرار العميقة والإشارات الدقيقة والحكمة البالغة والموعظة الحسنة. ولا يترك كلمة لقائل بعده، بعد أن يحيط القارئ أو السامع علمًا بالفقه اللغوي للكلمات وأصولها وتاريخ استعمالها، فيكون الفهم أتم، والعلم أكمل وأشمل».

قلت: لقد كانت آخر آية فسَّرها قوله تبارك وتعالى: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١]. وقد فسرها رَحِمَهُ ٱللَّهُ في عدد ٦ و ٧ لسنة ١٣٧٨هـ في حوالي ٢٢ صفحة.

قال الشيخ حماد الأنصاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: عندما رأيته يدرس في مكة عند باب عليٍّ قلت: هذا ضالتي، وكانت حلقته أول حلقة أجلس فيها في الحرم، وكان ذلك عام ١٣٦٧ هـ.

وقال الشيخ أبو تراب الظاهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ إذا صعد المنبر لخطبة الجمعة يقول بأعلى صوته: كفرت بالطاغوت.. كفرت بالبدوي .. كفرت بكذا... ولقد كان يجتمع في حلقته في المسجد الحرام خَلْق كثير يجتمعون حوله ما بين قاعد وقائم.

وأما قصته تلك فيحكيها الشيخ حماد الأنصاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو أحد تلاميذه فيقول: قلت للشيخ: يا شيخ أنا عندي سؤال؟

فقال: ما هو سؤالك يا ولدي؟

فقلتُ لهُ: كيفَ صرتَ موحدًا وأنت درست في الأزهر؟ [وأنا أريدُ أن أستفيد والناس يسمعون].

فقال الشيخ: والله إن سؤالك وجيه.

قال: أنا درست في جامعة الأزهر، ودرست عقيدة المتكلمين التي يدرِّسونَها، وأخذت شهادة الليسانس ... وذهبت إلى بلدي لكي يفرحوا بنجاحي ...

وفي الطريق مررتُ على فلاّح يفلح الأرض، ولما وصلت عندَه .. قال: يا ولدي اجلس على الدكّة، وكان عندهُ دكة إذا انتهى من العمل يجلس عليها، وجلستُ على الدكة وهو يشتغل، ووجدت بجانبي على طرفِ الدكة كتاب، فأخذت الكتاب ونظرت إليه، فإذا هو كتاب «اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية» لابن القيم؛ فأخذت الكتاب أتسلى به، ولما رآني أخذت الكتاب وبدأت أقرأ فيه .. تأخر عني ... حتى قدّر من الوقت الذي آخذ فيه فكرة عن الكتاب .

وبعد فترة من الوقت وهو يعمل في حقلِهِ وأنا أقرأ في الكتاب جاء الفلاّح، وقال:

السلام عليكم يا ولدي، كيف حالك؟ ومن أين جئت؟ فأجبتهُ عن سؤالِهِ.

فقال لي: والله أنت شاطر، لأنك تدرجت في طلبِ العلم حتى توصلت إلى هذه المرحلة، ولكن يا ولدي أنا عندي وصية.

فقلتُ: ما هي؟

قال الفلاّح: أنت عندك شهادة تعيشك في كل الدنيا في أوربا في أمريكا، في أيِّ مكان.

ولكنها ما علمتك الشيء الذي يجب أن تتعلمه أولًا.

قلتُ: ما هو؟!

قال: ما علمتك التوحيد!

قُلتُ لهُ: التوحيـــد!!

قال الفلاّح: توحيد السلف.

قلتُ لهُ: وما هو توحيد السلف؟!!

قال لهُ: انظر كيف عرف الفلاّح الذي أمامَك توحيـد السلـف.

هذه هي الكتب: كتــاب «السنـــة» للإمام أحمد الكبير. - وكتـاب «الـسنـــة» للإمـام أحمد الصغير.

- وكتـاب «التوحيد» لابن خزيمة.
- وكتـاب «خلق أفعال العباد» للبخاري.
- وكتـاب «اعتقاد أهل السنة» للحافظ اللالكائي.

وعدَّ لهُ كثيرًا من كتب التوحيد. وذكر الفلاّح كتب التوحيد للمتـأخرين. وبعـد ذلـك كتب شيخ الإســلام ابن تيمية وابن القِّيم.

وقال لهُ: أنـــا أدلك على هذه الكتب إذا وصلت إلى قريتك ورأوك وفرحـوا بنجاحـك لا تتأخر ارجع رأسًا إلى القاهرة، فإذا وصلت القاهرة ادخل [دار الكتب المصرية] ستجد كل هذه الكتب التي ذكرتُها كلها فيها،ولكنها مكدّسٌ عليها الغبار، وأنا أريدك تنفض مـا عليهـا من الغبار وتنشرها.

ثم إنني استوقفت الشيخ وسألتُهُ: كيــف عرف الفلاّح كل ذلك؟!

قال الشيخ حامد: لقد عرفَهُ من أُستاذِهِ [الرمال] .. هل تسمعون بـ[الرمال]؟

قلتُ لهُ: أنا لا أعرف [الرمَّال] هذا .. ما هي قصتُهُ؟

قال: [الرمَّال] كان يفتش عن كتب سلفه .. ولما وجد ما وجد منها .. بدأ بجمع العمال والكنّاسين .. وقام يُدرّس لهم .. وكان لا يُسمح لهُ أن يُدرسَ علانيــة .. وكان مـن جُملَـتِهم هذا الفلاّح .. وهذا الفلاّح يصلح أن يكون إمامًا من الأئمة .. ولكنـهُ هنـاك في الفلاحـة .. فمن الذي يصلح أن يتعلم؟!

ولكن ما زال الخيرُ موجودًا في كُلِّ بلدٍ حتى تقوم الساعـة.

لماذا أقسو على الصوفية؟!

هذه الأسطر القادمة .. هي بيان من الشيخ مـوجز عـن خلاصـة مـا وصـل إليـه عـن الصوفية وتصوفهم..

الشيخ الذي كان يومًا من الأيام مع هؤلاء الضلال الجهال .. نزع غشاوة الظلمة بنـور الاتباع، قامعًا ظلمات الابتداع .. فهو هنا ناصح وموجه ومعلم ومحذر .. وأيضًا فهو يـبرر أن كان قد أحسوا منه شدة . فإنه قد عاش وذاق طعم المرارة . فأراد أن لا يذوقها غيره .

فإلى كلماتِهِ وتوجيهاته رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

إن هذه الطرق الصوفية المنتشرة في الناس اليوم تروِّج الكفر والوثنية والدجل، وتعمل جاهدة لتأليه الدجالين واعتصار دمــاء الجماهير لتتضخم جيوب شيوخها أوليـاء الـشيطان، وتنشر في الناس ظلمات الجاهلية الأولى، وتحارب الله ورسوله، وتهيئ الأمة الإسـلامية بهـذه الجاهلية العمياء، وهذه التقاليد الخرافية، وهذه الغباوة البهيمية؛ لتكون لقمـة سـهلة الهـضم للأعداء، هذه الطرق الصوفية هي المعول الذي هدم به اليهود والفرس صَرْح الإسلام، هـذه الطرق الصوفية هي اليد الأثيمة التي مزقت رقعة الدولة الإسلامية،وشيوخ الطرق الصوفية هم الذين يمكنون المستعمرين في مراكش وتونس والجزائر والهنـد وفي الـسودان وفي مـصر، وفي كل مكان من البلاد الإسلامية، وهم سـماسرة المـستعمر وخَدَمـه المخلـصون في خدمتـه وإذلال المسلمين واستغلالهم.

ولقد كُنتُ واحدًا منهم وعرفت دخائل أمورهم وخبايا زواياهم وسيئ مكرهم وخبث قصدهم، فالحمد لله الذي أنقذني وهداني إلى الإسلام الحق الذي بعث الله به رسله؛ ليُخْرِجوا الناس من الظلمات إلى النور، وإني بكيدهم وكفرهم ووثنيتهم أعرف، ولذلك أنا أشد حربًا عليهم، ولا أزال حربًا عليهم ما بقي فيَّ عرق ينبض بالحياة، مُستعينًا بربي وحده، متأسيًا بالرسولِ الكريم محمد -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- صابرًا على كل ما يكيد به أعداء أنفسهم من حزبِ الشيطان، أعداء الرحمن، مؤمنًا بأن العاقبة للمتقين، وأن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون.

مُقتطف من جُملة أحاديث للمُهتدي إلى مُعتقدِ أهل السنة والجماعة بعد تركه لضلالات المبتدعة أصحاب الطُرق الصوفية..

محاولة قتل الشيخ:

يقول الشيخ أحمد بن فتحي الزيني: لقد منّ الله عز وجل عليّ بمصاهرة أناسٍ محبين للتوحيد وأهله، ومتعلقين بمجددي السلفية والتوحيد في العصر الحديث تعلقًا عجيبًا قد لا يوصف، كتعلقهم بالعلامة الشيخ محمد حامد الفقي، ومحمد خليل هراس، وعبد الرزاق عفيفي، وغيرهم من مؤسسي ورائدي السلفية في مصر في العصر الحديث، ولاسيما الشيخ الفقي رحمة الله عليه الذي كان لجدهم قصة معه لمحاولة بعضهم قتل الشيخ، ثم ملازمة هذا الجد للشيخ ودفاعه عنه بعد ذلك.

فلما دخلت هذه الأسرة، وعشت معهم، وجدتُ مكتبة عامرة بعدد من الكتب السلفية القديمة القيمة، فسألت عن صاحب المكتبة، فقالوا: هي مكتبة عم عبد الله رحمه الله. (وهو أبو زوجتي).

وهذا الرجل كان ابنًا وثمرةً للحاج (محروس عبد الحي الجمل) الذي حاول مرارًا قتل الشيخ الفقي رحمه الله.

فتحكي لي أم زوجتي أن زوجها عم عبد الله رحمه الله كان وهو طفل صغير يذهب مع أبيه (الحاج/ محروس) للبائعين على الأرصفة وفي الشوارع ليقرأ له اسم (ابن تيمية) و(ابـن القـيم) من عناوين الكتب؛ فيشتريها الحاج محروس لأنه كان أميًا لا يقرأ ولا يكتب، ثم لما يذهب للبيت يجعل ولده عبد الله يقرأ له ما فيها، ثم شيئًا فشيئًا حفظ رسم كلمة (تيمية) فيذهب يبحث عن الكتب التي عليها هذا الرسم ليشتريها بنفسه، ثم ورَّثها لابنه عبد الله أبي زوجتي الذي صار بعد ذلك يجمع عامة الناس ليعلمهم التوحيد من كتب شيخ الإسلام وابن القيم.

فسألتها.. يا أم، وكيف عرف الحاج محروس ابن تيمية وابن القيم؟! فقالت: كان في فترة من الفترات قد نشط الشيوعيون في مصر ونشطت الصوفية ونشط الإخوان المسلمون، وفي نفس ذاك الوقت كان قد نشط الشيخ حامد الفقي رحمه الله في تعليم الناس التوحيد، وتأسيس جمعية أنصار السنة لينطلق منها ومن مساجدها معلمًا الناس، رابطًا لهم بمذهب السلف ومنهجهم، محذرًا إياهم من تلك الفرق المنحرفة التي صدّت الناس عن أصول التوحيد، وكان الشيخ الفقي رحمه الله يجلس بالمسجد شارحًا لكتب ابن تيمية وابن القيم وغيرهما من أهل السنة قديمًا وحديثًا، وكان يجتمع في درسه المئات من التجار، والعمال، والفلاحين، وغيرهم من مختلف فئات الشعب ذاك الوقت.

وكانت هذه الدروس تؤثر في كثير من الناس مما أدى لاغتياظ مناوئي الشيخ لاسيما الشيوعيين الذين كانوا يصدون الناس عن دعوته وعن الحضور عنده، فلما يئسوا عزموا على قتله، فراحوا يبحثون عن أحد يمشي خلفه ليطعنه بسكين ويقتله، فاختاروا من بين الناس الحاج (محروس عبد الحي الجمل) وقالوا له: كيف تسمع هذا الرجل السيئ الذي يفرق الأمة؟! وكيف تواظب على دروسه ونحن بحاجة للاستقلال وللحرب ومقاومة الفساد. و غير ذلك مما نادى به شعب مصر تلك الفترة. وظلوا به حتى أقنعوه بقتل الشيخ الفقي؛ فأعطوه سكينًا، وقالوا له: استغل أي فرصة واقتله، وأرحنا منه.

وبالفعل، أخذ منهم السكّين ووضعها في جيبه (داخل الجلابية البلدي المعروفة بمصر) وظل يمشي خلفه في كل مكان ليجد فرصة لطعنه.

وذات مرة صعد الشيخ الفقي على المنبر وخطب عن التوحيد فجاء الحاج محروس متربصًا، فجلس تحت المنبر وعزم على طعن الشيخ ما أن ينزل من على المنبر. فخطب الشيخ وظل يتكلم عن الله عز وجل، ومعرفته بأسمائه وصفاته، وتوحيده بإلهيته، وما أن انتهى الشيخ من الخطبة إلا وقام الحاج محروس مُقبِلا عليه، معانقًا له بشدة، وظل يحتضنه، وعيناه تذرفان، ويقول له: لقد أتيت لأقتلك يا شيخ فسامحني، وما رأيتك إلا وأنت تعرِّفنا بالله ولا تذكر لنا إلا الله، ولا تتكلم إلا عن الله، سامحني يا شيخ. فتبسم له الشيخ وسامحه وأكرمه وأحسن إليه، وصارت بينهما صُحبة قوية، وصار يمشي مع الشيخ ليدافع عنه ضد من يحاولون قتله من غلاة الصوفية والشيوعية والتكفيريين والإخوان المسلمين وغيرهم من مختلف الفِرق.

مرضه ووفاته:

توفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ فجر الجمعة ٧ رجب ١٣٧٨هـ الموافق ١٦ يناير ١٩٥٩م، على إثر عملية جراحية أجراها بمستشفى العجوزة، وبعد أن نجحت العملية أصيب بنزيف حاد، وعندما اقترب أجله طلب ماء للوضوء، ثم صلى ركعتي الفجر بسورة الرعد كلها، وبعد ذلك طلب من إخوانه أن ينقل إلى دار الجماعة حيث توفي بها، وقد نعاه رؤساء وعلماء من الدول الإسلامية والعربية، وحضر جنازته واشترك في تشييعها الشيخ عبد الرحمن تاج، والشيخ محمد حسنين مخلوف، والشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد، والشيخ أحمد حسين، وجميع مشايخ كليات الأزهر وأساتذتها وعلمائها، وقضاة المحاكم.

فرحمه الله رحمة واسعة

الشيخ القارئ/ محمد صديق المنشاوي

هو نبتة الشيخ صديق المنشاوي وهو أول قارئ تنتقل إليه الإذاعة لتسجل له ويرفض طلبها والاعتماد بها.. كان لا يكف عن قراءة القرآن .. يتلوه في كل أحواله.. عندما استمع المسلمون في إندونيسيا لصوته أجهشهم البكاء.... وهو من مواليد مركز المنشأة محافظة سوهاج عام ١٩٢٠م من أسرة حملت رسالة تعليم القرآن وتحفيظه وتلاوته على عاتقها، فأبوه المقرئ الشيخ صديق المنشاوي الذي ذاع صيته في أنحاء مصر والوجه القبلي معلمًا وقارئًا ومجودًا للقرآن، وله تسجيلاته النادرة بإذاعات سوريا ولندن، والتي تذاع بصوته حتى الآن، وعمه الشيخ أحمد السيد هو الذي رفض القراءة بالقصر الملكي، فكان الشيخ محمد صديق المنشاوي هو نبت هذا الفضل القرآني، وقد التحق بكُتَّاب القرية وعمره أربع سنوات، ورأى شيخه أبو مسلم خيرًا كثيرًا لسرعة حفظه وحلاوة صوته، فكان يشجعه ويهتم به، فأتم حفظه قبل أن يتم الثامنة من عمره، فاصطحبه عمه الشيخ أحمد السيد معه إلى القاهرة؛ ليتعلم القراءات وعلوم القرآن، ونزل في ضيافة عمه، وعند بلوغه الثانية عشرة درس علم القراءات على يد الشيخ محمد مسعود الذي انبهر به وبنبوغه المبكر، فأخذ يقدمه للناس في السهرات والليالي، وظل الصبي محمد صديق على ذلك الحال حتى بلغ الخامسة عشر، فاستقل عن شيخه ووالده بعد ذيوع صيته بمحافظات الوجه القبلي بصفة عامة، ومحافظة سوهاج بصفة خاصة، فزادت ثقته بنفسه، وكان له عظيم الأثر في رحلته مع القرآن بعد ذلك.

كان صيته وشهرته وحسن قراءته وتلاوته حديث الناس في مصر، ولما علم المسئولون بالإذاعة بتلك الموهبة أرسلوا إليه يطلبون منه أن يتقدم بطلب للإذاعة ليعقد له اختبار، فإن اجتازه يعتمد مقرئًا، بها فرفض الشيخ هذا المطلب وقال: لا أريد القراءة بالإذاعة، فلست في حاجة إلى شهرتها، ولا أقبل أن يعقد لي هذا الامتحان أبدًا... فما كان من مدير الإذاعة في

ذلك الوقت إلا أن أمر بأن تنتقل الإذاعة إلى حيث يقرأ الشيخ محمد صديق المنشاوي، وبالفعل فوجئ الشيخ وكان يحيي حفلًا رمضانيًا في قرية إسنا بدار أحد الأثرياء بأن الإذاعة أرسلت مندوبها لتسجل قراءته وتلاوته، وفي ذات الوقت كانت مجموعة أخرى من الإذاعة قد ذهبت لتسجل قراءة أبيه الشيخ صديق المنشاوي، والذي كان يقرأ بقرية العسيرات بمحافظة سوهاج، وكانت تلك التسجيلات من جانب الإذاعة لتقييم صوتيهما، فكانت تلك أول حادثة في تاريخ الإذاعة أن تنتقل بمعداتها والعاملين بها ومهندسيها للتسجيل لأحد المقرئين .

عندما قيَّم المسئولون بالإذاعة الشريطين اللذين سُجِّلا للشيخ محمد صديق وأبيه أرسلوا إليهما لاعتمادهما إلا أنهما رفضا مرة ثانية، فأثار هذا الموقف غضب المسئولين بالإذاعة، وكادت أن تصبح مشكلة كبيرة، إلا أن أحد المقربين من الشيخ محمد صديق وكان ضابطًا كبيرًا برتبة اللواء تدخل في الأمر، موضحًا للشيخ محمد أن هذا الرفض ليس له أي مبرر، ولا يليق به خاصة وأن الإذاعة قد أرسلت إليه مهندسيها وفنييها لتسجل له بعد رفضه، وطالما أن المسئولين قد أعطوه قَدْره وأنصفوه، فليس هناك أي مبرر للرفض، ولا بد أن يحسن معاملة المسئولين كما أحسنوا معاملته، وبعد إلحاح شديد ذهب الشيخ محمد صديق المنشاوي للإذاعة، واستكمل تسجيلاته، وظل قارئًا بالإذاعة منذ ذلك إلى أن توفاه الله، أما والده فقال: يكفي الإذاعة المصرية من عائلة المنشاوي ولدي محمد.

كانت شهرة الشيخ صديق السيد تملأ آفاق العلم العربي رغم أنه لم يقرأ بالإذاعة المصرية، فطلبت منه إذاعتا سوريا ولندن تسجيل القرآن بصوته لهما... فرفض في البداية، ولكنه بعد معاودة الاتصالات والإلحاح عليه وافق على تسجيل خمس أشرطة للقرآن بصوته للإذاعتين، ولم يزد على ذلك، وكان يقول: لولا إلحاحهم المستمر ما وافقت على تلك التسجيلات.

استقبل الشيخ محمد صديق المنشاوي رفض أبيه للقراءة بالإذاعة المصرية بالانصياع التام، حيث كان لا يعارض أباه أبدًا، ويحترم رأيه دون نقاش، ولم يعلق على ذلك الأمر.

طلب الملك فاروق من الشيخ أحمد السيد عم الشيخ محمد صديق المنشاوي أنْ يكون قارئًا بالقصر الملكي، فوافق إلا أنه اشترط على الملك أن تمتنع المقاهي عن تقديم المشروبات ولعب الطاولة اعتبارًا من الساعة الثامنة مساء وقت إذاعة القرآن الكريم، والذي كانت تنقله الإذاعة من القصر الملكي، قائلًا للملك: إن للقرآن جلالة، فهو كلام الله، ولا يجب أن ينشغل الناس عنه وقت تلاوته بالسؤال عن المشروبات والحديث واللهو ولعب الطاولة. فقال له الملك: ذلك يعني أن نكلف حارسًا على كل مقهى، وهذا أمر يتعذر علينا. فقال الشيخ أحمد: كذلك فهذا أمر يتعذر علينا أيضًا، وتلا قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]. فما كان من الملك إلا أن أَجَلَّه وقَدَّره ولم يجبره على القراءة بالقصر الملكي.

تزوج الشيخ عام ١٩٣٨م من ابنة عمه، وكان ذلك هو زواجه الأول، وأنجب منها أربعة أولاد ولدين وبنتين، ثم تزوج الثانية وكان عمره قد تجاوز الأربعين، وكانت من مركز أخميم محافظة سوهاج، وأنجب منها تسعة أبناء خمسة ذكور وأربع إناث، وكانت زوجتاه تعيشان معًا في مسكن واحد يجمعهما الحب والمودة، وكان يقول: الناس يحبونني ويتمنون مصاهرتي، وقد توفيت زوجته الثانية أثناء تأديتها فريضة الحج قبل وفاته بعام واحد.

شائعة عن ضعف صوته:

كان قد أشيع أن صوت الشيخ محمد صديق المنشاوي ضعيف، ولا يستطيع تبليغه لمستمعيه إلا من خلال ميكرفون، وكانت إشاعة ونكاية وحقدًا من أحد المقرئين، ولكن الله كشف حقيقة صاحب الإشاعة، حيث دُعي الشيخ محمد لإحياء سهرة بمحافظة المنيا ودعي

معه مقرئ آخر، وكان الحضور كثيرين جدًا قد يزيد عددهم عن العشرة الآلاف جاءوا جميعًا ليستمعوا إلى القرآن بصوت الشيخ محمد، فلما أحس ذلك المقرئ بشغف الناس ومطالبتهم صاحب الدعوة بتعجل الشيخ محمد صديق بالتلاوة، فما كان منه إلا أن أوصى عامل الميكرفون بافتعال عطل فني في الميكرفون وأطلق بين الناس شائعة أن صوت الشيخ محمد ضعيف جدًا، ولولا الميكرفون ما كان له هذا الصيت، وعندما بدأ الشيخ محمد صديق يستعد للقراءة فوجئ بعامل الميكرفون يخبره بوجود عطل فني بالميكرفون يتعذر إصلاحه في حينه، فاستشعر الشيخ محمد صديق بأن هناك مؤامرة لإحراجه وسط هذا الجمع الغفير، فما كان منه إلا أن استعاذ من الشيطان الرجيم، وأخذ يقرأ بين الناس ماشيًا على قدميه تاركًا دكة القراءة والناس تتجاوب معه حتى أبهر الناس بقوة، صوته فانخسأ هذا المقرئ الحاقد تاركًا الحفل للشيخ محمد صديق المنشاوي الذي أحياه على تلك الحالة حتى ساعة متأخرة.

محاولة دس السم له في الطعام:

كان مدعوًا في إحدى السهرات عام١٩٦٣م، وبعد الانتهاء من السهرة دعاه صاحبها لتناول الطعام مع أهل بيته على سبيل البركة، ولكنه رفض، فأرسل صاحب إليه بعضًا من أهله يلحون، عليه فوافق وقبل أن يبدأ في تناول ما قُدِّم إليه من طعام اقترب منه الطباخ وهو يرتجف من شدة الخوف وهمس في أذنه قائلًا: يا شيخ محمد سأطلعك على أمر خطير، وأرجو ألا تفضح أمري، فينقطع عيشي في هذا البيت فسأله عما به، فقال: أوصاني أحد الأشخاص بأن أضع لك السم في طعامك، فوضعته في طبق سيقدم إليك بعد قليل فلا تقترب من هذا الطبق أو تأكل منه، وقد استيقظ ضميري وجئت لأحذرك؛ لأني لا أستطيع عدم تقديمه إليك، فأصحاب السهرة أوصوني بتقديمه إليك خصيصًا تكريمًا لك، وهم لا يعلمون ما فيه، ولكن فلان... أعطاني مبلغًا من المال لأدس لك السم في هذا الطبق دون علم أصحاب السهرة ففعلت، فأرجو ألا تبوح بذلك فينفضح أمري... ولما تم وضع الطبق المنقوع في

السم عرفه الشيخ كما وصفه له الطباخ، وادعى الشيخ ببعض الإعياء أمام أصحاب الدعوة، ولكنهم أقسموا عليه، فأخذ كسرة خبز كانت أمامه قائلًا: هذا يبر يمينكم. ثم تركهم وانصرف.

كان شديد التواضع، وكان كثيرًا ما يتحرر من عمامته ويرتدي جلبابًا أبيض وطاقية بيضاء، ويجلس أمام باب بيته، فكان بعض الناس يعتقدون أنه بواب العمارة وخاصة وأن بشرته قمحية، ولكن ذلك لم يكن يضايقه، وذات مرة اقترب منه أحد الأخوة المسيحيين، وكان جارًا لنا في المسكن، فلما اقترب من الشيخ محمد صديق لم يعرفه، وقال له: لو سمحت يا عم ما تعرفش الشيخ محمد صديق المنشاوي موجود في شقته ولا لأ، فنظر إليه الشيخ محمد قائلًا له: «حاضر يا بني انتظر لما أشوفو لك» وبالفعل تركه الشيخ محمد صديق وصعد إلى شقته وارتدى العمة والجلباب والنظارة، ثم نزل إليه وسلم عليه هذا الذي سأل عنه منذ لحظات، ولم يقل له الشيخ عندما سأله أنه هو من يسأل عنه حتى لا يسبب له حرجًا لعدم معرفته به، وهو صاحب الصيت والشهرة في العالم العربي وقضى لذلك الرجل مسألته.

كانت علاقته بأهل بلدته لا تنقطع وهذه عادات أهل الصعيد فكان عطوفًا بهم محبًا لفقرائهم قال ذات مرة لأهل بيته: إنه يريد عمل وليمة كبيرة لحضور بعض الوزراء وكبار المسئولين على العشاء، فتم عمل اللزوم، ولكن فوجئ أهل بيته بأن ضيوفه كانوا جميعًا من الفقراء والمساكين من أهل البلدة وممن يعرفهم من فقراء الحي الذي كنا يعيش فيه.

دوالي المريء هي المرض الذي هاجم الشيخ في سن مبكرة:

في عام ١٩٦٦م أصيب رَحِمَهُ اللَّهُ بدوالي المريء، وقد استطاع الأطباء أن يوقفوا هذا المرض بعض الشيء بالمسكنات، ونصحوه بعدم الإجهاد، وخاصة إجهاد الحنجرة إلا أنه كان يصر على الاستمرار في التلاوة وبصوت مرتفع، حتى أنه في عامه الأخير الذي توفى فيه كان يقرأ القرآن بصوت جهوري بالدرجة الأمر الذي جعل الناس يجلسون بالمسجد الذي كان

أسفل البيت ليستمعوا إلى القرآن بصوته دون علمه، ولما اشتد عليه المرض نُقل إلى مستشفى المعادي، ولما علم الرئيس عبد الناصر بشدة مرضه أمر بسفره إلى لندن للعلاج على نفقة الدولة إلا أن المنية وافته قبل السفر في ٢٠/ ٦/ ١٩٦٩م.

رحم الله الشيخ وأسكنه فسيح جناته



الشيخ/ محمد علي عبد الرحيم

وُلد رَحِمَهُ اللهُ في ١٦ من سبتمبر ١٩٠٤م بحي المكس بالإسكندرية، ثم انتقلت الأسرة إلى وادي القمر حيث ابتنى والده منزلًا ومسجدًا متصلًا به.

حفظ القرآن الكريم وهو صغير، ثم التحق بمدرسة المعلمين بالإسكندرية، حيث تخرج منها عام ١٩٢٣م.

عمل منذ تخرجه في حقل التعليم متنقلًا بين شتى القرى والمدن لسنوات عدة، وقد رقي في الوظائف التعليمية حتى صارت له رئاسة إحدى المدارس عام ١٩٣١م، ثم موجهًا بعد ذلك.

أسس جمعية إخوان الحج بالإسكندرية عام ١٩٤٣م.

تعرف على الشيخ محمد حامد الفقي: مؤسس أنصار السنة المحمدية عام ١٩٤٨م في إحدى رحلاته للحج.

كما كان من أعز أصدقائه فضيلة الشيخ محمد عبد السلام رَحِمَهُ اللهُ صاحب كتاب «السنن والمبتدعات» وكان لا يترك فرصة إلا زاره في بلدة الحوامدية - وكان من أصدقائه أيضًا حبر الصعيد الشيخ أبو الوفاء درويش صاحب كتاب «صيحة الحق» وغيره من الكتب، وقد كان الشيخ محمد علي عبد الرحيم كثير الثناء عليه كما كان يزوره في سوهاج كلما ذهب إليها.

ولقد جمعت الدعوة بينه وبين الشيخ عبد العزيز بن راشد النجدي، فكان هذا الجمع الإلهي بينهما مصدر خير، حيث انتشرت دعوة التوحيد بالإسكندرية على يديهما.

وقد وقع اختيار سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ مفتي السعودية حينذاك على الشيخ محمد علي عبد الرحيم في شوال عام ١٣٧٠هـ الموافق يونيو ١٩٥١م؛ ليقوم بتأسيس وإنشاء مؤسسة دينية بالرياض يتخرج في كلياتها علماء يسدون حاجة المملكة من العلماء.

وتبدأ بالمعهد الديني وكليتي الشريعة واللغة العربية، وقد زامله في تلك الفترة كما يقول رَحِمَهُ اللَّهُ الشيخ عبد الرحمن الوكيل حتى عاد الأخير إلى مصر.

كما وكل إليه أمر تأسيس مدارس البنات بوضع المناهج الخاصة بتعليم البنات حيث شارك في وضع خطوطها الرئيسة ووضع المناهج ونظم التعليم والتوجيه بها.

كذلك اختاره الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ للتدريس بالمسجد الحرام هو والشيخ عبد الرزاق عفيفي خاصة في شهر رمضان وأشهر الحج لسنوات طويلة. كما كان الشيخان رحمهما الله في مقدمة العلماء الذين كانوا يحضرون مجلس العلم الذي كان يعقده جلالة الملك عبد العزيز آل سعود بقصره بالمربع، وذلك يوم الاثنين من كل أسبوع.

وفي عام ١٩٧٤م استقر الشيخ محمد علي عبد الرحيم بمصر بمدينة الإسكندرية، وبرغم المرض الشديد الذي كان يعانيه لم يتخلف لحظة واحدة عن المشاركة في الدعوة، والانتقال بين الفروع، وفي عام ١٩٧٥م اختير الشيخ رئيسًا لجماعة أنصار السنة المحمدية بعد أن تنازل له الشيخ محمد عبد المجيد الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ، فجمع الله به شمل الجماعة وجنَّبها شر الفرقة.

يعتبر الشيخ محمد علي عبد الرحيم صاحب أطول مدة في رياسة الجماعة بعد مؤسسها الأول؛ إذ تولى رياستها عام ١٩٧٥م حتى توفي عام ١٩٩١م، وبذلك تكون مدة رياسته خمسة عشر عامًا قام فيها بإدارة الجماعة بروح الأبوة الحانية لكل الدعاة.

رغم مكابدة الشيخ للمرض إلا أنه كان يسهر الليل مع المقالات محررًا ومفتيًا لما يوجَّه لمجلة التوحيد من أسئلة، سواء على صفحاتها أو يرد عليهم بصفة شخصية.

وقد كانت إسهاماته في الكتابة بمجلة التوحيد سببًا في أن عرفت طريقها إلى أنحاء متفرقةِ من العالم الإسلام. كما تضاعف عدد المطبوع منها من ٥ آلاف إلى ٣٦ ألفًا.

مكانته العلمية:

كان -رحمة الله عليه- لا يضارع في علم تقويم البلدان [الجغرافيا] حتى أنه بـذّ في هـذا العلم المتخصصين، وقد حضره عاهل السعودية الملك عبد العزيز آل سعود وهو يدرس مادة الجغرافيا لطلبة السنة النهائية في معهد الرياض العلمي، فشد إليه وأعجب بمادتـه وطريقتـه، ومكث يستمع إليه وقتًا طويلًا.

ولعلنا نذكر أن محطة القرآن الكريم قد سجلت معه حديثًا في أحد أشهر رمضان، وكان عن اختلاف المطالع تكلم فيه عن علوم الجغرافيا كأحد أستاذتها الأفذاذ.

رفاقه في الدعوة في مصر:

نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر ـ الشيخ محمـد حامـد الفقـي مؤسـس الجماعـة، والشيخ عبد العزيز بن راشد، والشيخ أبو الوفاء درويـش، والـشيخ عبـد الـرحمن الوكيـل، والشيخ عمر بن عبد السلام، والشيخ رشاد الـشافعي، ود. خليـل هـراس، والـشيخ رشـاد سليمان، والشيخ عكاشة عبده.

كانت فترة الثلاثة والعشرين عامًا التي قضاها بالسعودية فترة لقاء مع علماء أجلاء، منهم: الشيخ عبد الله المحمود من الشارقة، والـشيخ عبـد اللطيـف بـن إبـراهيم، والـشيخ محمـد بـن إبراهيم، والشيخ عبد العزيز بن باز، وكان من معارفه أيضًا الشيخ عبد الظاهر أبو الـسمح إمـام الحرم المكي، أما صلته بالشيخ عبد الرزاق فقد سبق القول عنها.

في عام ١٩٨٤م انتقل رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى غرب الإسـكندرية [الدخيلـة]، وابتنـى بهـا مـسجد التوحيد، واتخذ لنفسه سكنًا أعلى المسجد ـ وقد وقفه بعد موته؛ ليكون مقرًا لفرع الدخيلة.

تصانيفه العلمية والفقهية:

نظرًا لانشغال الشيخ بالتدريس، ثم بالكتابة في مجلة التوحيد كان قليل التأليف، وله كتاب يسمى «الأخلاق المحمدية» [جزءان]، وله رسالة طيبة تسمى «الوصية الشرعية».ويكفي الشيخ فضلًا أن ما تركه من أثر في نفوس إخوانه وأحبابه وتلاميذه لا يمحوه شيء ولا يعفى عليه الزمن.فجزاه الله خير الجزاء.

وفاته:

في صباح السبت الثامن والعشرين من صفر الخير سنة ١٤١٢هـ الموافق الثامن من سبتمبر ١٩٩١م فاضت روحه إلى بارئها بعد حياة حافلة بالجهاد والدعوة في سبيل الله بغير كلل ولا ملل.



الخطيب البغدادي

تعرض كثير من علماء الأمة الكبار لمحن عديدة وبأشكال شتى ومن أعداء مختلفين، فتارة من السلطان وأعوانه الذين لا يرضون من العلماء إلا أن يكونوا في ركابهم وتحت أوامرهم وتبع أهوائهم، يحلون ويحرمون تبعًا لما يريده السلطان وبطانته، وتارة من المبتدعين والمضللين الذين يريدون من العلماء موافقتهم على بدعهم وخرافاتهم، أو عدم التصدي لهم، وتارة من الجهال والعصاة الذين يضيقون ذرعًا من مهمة العلماء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويريدون من حراس الشريعة السكوت على المنكرات والمفاسد، وتارة من أعداء الأمة الداخليين الذين يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر والإلحاد والزندقة، وهؤلاء كانوا قديمًا وحديثًا يتتبعون رءوس العلماء في الأمة، ويغتالونهم في المساجد والجوامع، أثناء الصلاة وإلقاء الدرس، وذلك كله من أجل إضعاف الأمة الإسلامية، وتصفية القادة الحقيقيين لها، وبالتالي تسهل مهمتهم بعد ذلك في نشر الفوضى الدينية والأخلاقية في البلاد، وعلى رأس الأعداء الذين كانوا يفعلون ذلك بعلماء الأمة: الشيعة بأجنحتها الكثيرة وفرقها العديدة، من إمامية وإسماعيلية وباطنية وحشاشة وغيرهم، وثبت العلماء والقادة والأبطال الذين اغتالهم هؤلاء الأعداء أو حاولوا اغتيالهم طويلاً، وهذه محنة واحد من هؤلاء الأعلام الذي طارده الروافض من مكان لآخر من أجل تصفيته، ولكن الله عز وجل نجاه من كيدهم، ولكن بعد أهوال كثيرة ومتاعب جمة.

التعريف به:

الإمام الأوحد، العلامة المفتي، الحافظ الناقد، خاتمة الحفاظ، وأستاذ المصنفين، وعلم المحدثين، صاحب التصانيف الفائقة غير المسبوقة، أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي البغدادي، الملقب بالخطيب البغدادي، وُلد سنة ٣٩٢هـ بقرية درزيجان من أعمال بغداد

عاصمة الخلافة العباسية، وكان أبوه خطيب القرية ومن قراء القرآن، فدفعه إلى طريق العلم مبكرًا، وأجلسه لسماع الحديث والفقه سنة ٤٠٣هـ، أي وهو في الحادية عشرة، ولما اشتد عوده وبلغ العشرين خرج في رحلة علمية واسعة الدائرة، فطاف أقاليم الإسلام وكتب الكثير، وأبان عن حافظة خارقة، حتى فاق جميع معاصريه، وعلا كعبه في الحديث وتقدم في هذا الشأن، وبذَّ الأقران، وجمع وصنَّف وصحَّح، وعلل وجرَّح، وعدَّل وأرَّخ وأوضح، وكتب المصنفات الكثيرة، وصار علم الحفاظ في عصره بلا مدافعة، والجميع مقر بفضله، ومذعن لعلمه، وراض بقوله.

محنته:

وُلد الخطيب ببغداد وبها نشأ وترعرع، ثم خرج إلى رحلته العلمية الطويلة، ولما عاد إلى بغداد وجد أن شهرته قد سبقته إلى حاضرة الخلافة العباسية، فانهال عليه طلبة العلم وتهافت المحدثون على حضور مجالسه، وكان بجانب علمه الغزير بالحديث، فقيهًا متبحرًا على مذهب الشافعي رحمه الله، وقرأ بالقراءات العشر، وهذه العلوم الشتى رشحته لأن يكون وثيق الصلة برجال الدولة الكبار، وعلى رأسهم الوزير ابن المسلمة رحمه الله، وكان ابن المسلمة خيرًا دينًا يحب أهل العلم وخاصة أهل الحديث، فأحب الخطيب البغدادي كثيرًا وأعلى من شأنه، ثم تضاعفت مكانة الخطيب البغدادي عند الوزير ابن المسلمة، بعد أن كشف التزوير الذي قام به أهل خيبر، من أجل إسقاط الجزية عنهم، فعرف ابن المسلمة قدر الخطيب العلمي، ومدى سعة رواياته، فأصدر أوامره إلى سائر خطباء ووعاظ وكتَّاب بغداد، ألا يرووا حديثًا حتى يعرضوه على الخطيب البغدادي، فما صحَّحه أوردوه وما رده لم يذكروه.

هذه العلاقة الوثيقة بين الخطيب البغدادي والوزير ابن المسلمة، كانت السبب وراء المحنة التي سيتعرض لها الخطيب، ذلك أن بغداد عاصمة الخلافة العباسية في تلك الفترة

كانت تموج بالصراعات الطائفية والعرقية، وذلك في ظل ضعف منصب الخليفة العباسي الذي فقد كل صلاحياته تقريبًا قبل تلك الفترة بعشرات السنين، وتحديدًا منذ سيطرة الدولة البويهية الشيعية على مقاليد الخلافة سنة ٣٣٤هـ، ومن يومها صار الخليفة مجرد رمز ديني لا أمر له ولا نهي، وبغداد وقتها كانت تموج بالصراعات الطائفية، والتي كانت على أشدها بين الشيعة الروافض وزعيمهم أبي الحارث أرسلان البساسيري وهو أحد كبار قادة الجيش العباسي، وكان شيعيًا رافضيًا جلدًا، هواه مع الدولة الفاطمية الخبيثة في مصر، لاتحاد المذهب والعقيدة، وبين أهل السنة وهم غالب البلد ويمثلهم وزعيمهم وقتها رئيس الرؤساء الوزير ابن المسلمة، وكان رجلاً صالحًا خيرًا، ويبغض الروافض بشدة وكان بين ابن المسلمة والبساسيري عداوة شديدة ومنافرة وتربص بعضهما ببعض

قام البساسيري بالتآمر مع الخليفة الفاطمي المستنصر بالله سنة ٤٥٠هـ، واستطاع البساسيري بمساعدة روافض بغداد في باب الأرزج والكرخ أن يقتحم بغداد ويعزل الخليفة العباسي القائم بالله، ويطيح بالخلافة العباسية كلها، ولم يكن للبساسيري هم ولا عزم عندما احتل بغداد سوى القبض على خصمه اللدود ابن المسلمة، وبالفعل ظفر البساسيري بابن المسلمة، وقام بتشهيره وتعذيبه والتنكيل به ثم قتله شر قتلة.

بعد قتل ابن المسلمة استدار البساسيري الخبيث يتتبع علماء أهل السنة وزعماءهم وكبراءهم ومن ظفر به قتله ومثل بجثته، وهكذا دائمًا يفعل الروافض بأهل السنة إذا علوا عليهم وملكوا السيطرة عليهم، وما جرى في أفغانستان والعراق ولبنان في أيامنا هذه خير دليل على النفسية المريضة للروافض ضد أهل السنة في كل مكان وزمان، وقد اجتهد البساسيري في القبض على الخطيب البغدادي، لعلمه بعلاقته القوية بابن المسلمة، فاضطر الخطيب لأن يتوارى عن الأنظار فترة من الوقت، ريثما يهدأ الطلب عليه من الطاغية البساسيري.

ظل الخطيب البغدادي مختبئًا فترة طويلة، ومع ذلك لم يهدأ الطلب عليه، والبساسيري يفتش عنه في كل مكان، حتى كاد أن يصل إليه، فاضطر الخطيب أن يخرج من بغداد، فخرج منها في أوائل سنة ٤٥١هـ خائفًا يترقب، فتوجه تلقاء الشام، وقد اختار المقام في دمشق، وكان قد رحل إليها من قبل عدة مرات لسماع الحديث أثناء رحلته العلمية، وكان له بها معرفة، فلما وصلها وعلم الناس بقدومه ونيته بالمقام بها، فانهال عليه طلبة العلم والشيوخ ورواة الحديث، وأصبح للخطيب البغدادي مجلس تحديث ثابت بالجامع الأموي في دمشق.

كانت دمشق في تلك الفترة وسائر بلاد الشام تحت حكم الدولة الفاطمية الخبيثة، وهم زنادقة ملحدون وبالتشيع لآل البيت مستترون، وكان للفاطميين أسلوب معين في إدارة البلاد الشاسعة التي يحكمونها، وهي ترك الناس أحرارًا في معتقداتهم، فلم يجبروا أحدًا على التشيع، كما يفعل الروافض الإمامية، وسمح الفاطميون لعلماء السنة بمزاولة أنشطتهم العلمية، وذلك بعد مدة الحاكم الفاطمي سنة ٤١١هـ، وذلك من أجل تهدئة البلاد التي هاجت بشدة من زندقة الحاكم وهوسه المعروف.

جلس الخطيب البغدادي في جامع دمشق يروي الأحاديث، وقد وجد أريحية في نشر علمه الغزير، وحدثت نهضة علمية بدمشق، وتلك النهضة الكبيرة أغضبت بشدة رجال الفاطميين ودعاتهم، خاصة والخطيب يبث علم السنة بين الناس، فأخذ الوشاة يسعون في الإيقاع بالخطيب البغدادي، وكان أشدهم فيه، رجل اسمه حسين بن علي الدَّمنشي، إذ قال لأمير دمشق: الخطيب ناصبي يروي فضائل الصحابة وفضائل العباس في الجامع، ونظرًا للمكانة العلمية الكبيرة، تردد أمير دمشق الرافضي في الفتك بالخطيب خوفًا من ثورة أهل دمشق وغالبيتهم العظمى من أهل السنة.

أخذ أمير دمشق ومعه ابن الدمنشي في التدبير والكيد للخطيب البغدادي، ونسج مؤامرة دنيئة من أجل تأليب الناس عليه في دمشق، وضمان قتله بحيث لا يثور الناس عليهم،

وقد تفتق ذهنهم الخبيث عن رمي الخطيب البغدادي بفاحشة اللواط والعياذ بالله، حيث اتهموه بشاب مليح الهيئة كان يتردد عليه لسماع الحديث، وهي تهمة بشعة يستقبحها كل مسلم، وما بالك لو وقعت من إمام وعالم كبير مثل البغدادي، ولنا أن نتخيل حجم الألم ووقع تلك المحنة على البغدادي، خاصة وجند أمير دمشق قد أحاطوا بداره من أجل القبض عليه بمثل تلك التهمة.

وكما قلنا في مرات كثيرة، لأن الله عز وجل يدافع عن عباده المؤمنين والصالحين، فلقد قيض الله عز وجل للخطيب البغدادي من ينقذه من القتل في تلك المحنة؛ ذلك أن قائد شرطة دمشق كان سنيًا يعرف قدر الخطيب البغدادي العلمي، ويعرف أيضًا أن تلك التهمة باطلة ومحض كذب وافتراء، فلما ألقى القبض عليه قال له: قد أمرت بقتلك، ولا أجد لك حيلة إلا أني أعبر بك عند دار الشريف ابن أبي الجن ـ وكان من أعيان البلد وله وجاهة عند أمير دمشق ـ فإذا حاذيت الدار اقفز وادخل داره، فإني لا أطلبك، بل أرجع إلى الأمير وأخبره بالقصة، وبالفعل تم الأمر، فأرسل الأمير إلى الشريف يطلب منه تسليم الخطيب البغدادي، فقال الشريف: أيها الأمير، أنت تعرف اعتقادي فيه وفي أمثاله ـ يقصد تكفيره لأهل السنة ـ وليس في قتله مصلحة، هذا مشهور بالعراق، إن قتلته قتل به جماعة من الشيعة [لاحظ الترابط بين الفاطميين والروافض]، وخربت المشاهد. فقال الأمير: فما ترى؟ قال: أرى أن ينزح من بلدك، فأمر بإخراجه، فخرج منها إلى صور، وبقي بها مدة من الزمان.

والخطيب وإن نجا من القتل في هذه المحنة، إلا إنه لم ينج من التشهير به، فخروجه من دمشق نجّاه من القتل ولم ينف عنه تهمة الفاحشة الشنيعة، وأظهر أمير البلد الخبيث أنه أخرج البغدادي من بلده لفحشه ولجريمته النكراء، فراح البغدادي من البلد وهو يعاني مرارة التشهير به والتشنيع على أخلاقه وعلمه، فلما انتهى إلى مدينة صور، انقطع للتأليف والتصنيف، فأخرج للأمة روائع المصنفات في علم الحديث.

هذه كانت محنة واحد من كبار علماء الحديث، عانى ما عاناه من تشريد وتشهير ومطاردة من قبل الروافض أعداء الإسلام، بسبب مساهمته في نشر العلم والحديث، ونشر السنة النبوية المطهرة والتي هي أقوى أسلحة المسلمين ضد هؤلاء المبتدعين الضالين، وهذا التربص الرافضي والتآمر الشيعي بعلماء الأمة قديمًا وحديثًا، كان وما زال، ديدنهم الثابت وأسلوبهم المتبع ضد الأمة الإسلامية، وقائمة العلماء الذين اغتالتهم أيدي الروافض الخبيثة طويلة وحزينة، والله عز وجل ينتقم لهم بإذن الله وعدله يوم الدين.

❁ ❁ ❁

شيخ القراء/ محمود خليل الحصري

وُلد فضيلة الشيخ القارئ محمود خليل الحصري في غرة ذي الحجة سنة ١٣٣٥هـ، وهو يوافق ١٧ من سبتمبر عام ١٩١٧م، بقرية شبرا النملة، مركز طنطا بمحافظة الغربية بمصر. وحفظ القرآن الكريم وسنه ثمان سنوات، ودرس بالأزهر، ثم تفرغ لدراسة علوم القرآن لما كان لديه من صوت متميز وأداء حسن، وكان ترتيبه الأول بين المتقدمين لامتحان الإذاعة سنة ١٩٤٤م وعُيِّن مفتشًا للمقارئ المصرية ثم وكيلًا لها، إلى أن تولى مشيخة المقارئ سنة ١٩٦١م.

وكان أول من سجل المصحف الصوتي المرتل برواية حفص عن عاصم سنة ١٩٦١م، وظلت إذاعة القرآن بمصر تقتصر على صوته منفردًا حوالي عشر سنوات، ثم سجل رواية ورش عن نافع سنة ١٩٦٤م، ثم رواية قالون والدوري سنة ١٩٦٨م وفى نفس العام: سجل المصحف المعلِّم وانتخب رئيسًا لاتحاد قراء العالم الإسلامي. ورتل القرآن الكريم في كثير من المؤتمرات، وزار كثيرًا من البلاد العربية والإسلامية الأسيوية والإفريقية، وأسلم على يديه كثيرون.

وهو أول من نادى بإنشاء نقابة لقراء القرآن الكريم، ترعى مصالحهم وتضمن لهم سبل العيش الكريم، ونادى بضرورة إنشاء مكاتب لتحفيظ القرآن في جميع المدن والقرى، وقام هو بتشييد مسجد ومكتب للتحفيظ بالقاهرة.

وكان حريصًا في أواخر أيامه على تشييد مسجد ومعهد ديني ومدرسة تحفيظ بمسقط رأسه قرية شبرا النملة. وأوصى في خاتمة حياته بثلث أمواله لخدمة القرآن الكريم وحُفَّاظه، والإنفاق في كافة وجوه البر.

توفي مساء يوم الاثنين السادس عشر من شهر المحرم سنة ١٤٠١هـ الرابع والعشرين من نوفمبر عام ١٩٨٠ أدى الشيخ الحصري صلاة العشاء ثم أصيب بنوبة قلبية توفى على أثرها ..

وكانت آخر كلماته: «إن الإيمان إذا دخل قلبًا خرج منه كل ما يزيغ العقل».

وهذه محطات من حياته رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

- نذره والده لخدمة القرآن
- التحق بالأزهر الشريف، و تعلم القراءات العشر، وأخذ شهاداته في ذلك العلم [علم القراءات].
- في عام ١٩٤٤م تقدم للإذاعة بطلب تحديد ميعاد لامتحانه، وبالفعل تم تحديد ذلك الميعاد واجتاز الاختبار، وتم التعاقد معه في نفس اليوم، فكانت أول قراءة له على الهواء مباشرة يوم ١٦ نوفمبر عام ١٩٤٤م، وكان وقتها لا يزال مقيمًا بقرية شبرا النملة.
- وفي عام ١٩٤٨م صدر قرار بتعيينه مؤذنًا لمسجد سيدي حمزة بمدينة طنطا، إلا أنه طلب أن يكون قارئًا للسورة رغم أن أجر الوظيفة الأخيرة أقل من الأولى، ثم صدر قرار وزاري بقيامه بمهمة الإشراف الفني على مقارئ محافظة الغربية.
- وفي عام ١٩٥٧ م عُيِّن مفتشًا للمقارئ المصرية.
- وفي عام ١٩٥٨م عين وكيلًا لمشيخة المقارئ المصرية.
- وفي عام ١٩٥٨ م تخصص في علوم القراءات العشر الكبرى وطرقها ورواياتها بجميع أسانيدها، ونال عنها شهادة علوم القراءات العشر من الأزهر الشريف.
- وفي عام ١٩٥٩م عين مراجعًا ومصحِّحًا للمصاحف بقرار مشيخة الأزهر الشريف.
- وفي عام ١٩٦٠م أول من ابتعث لزيارة المسلمين في الهند وباكستان، وقراءة القرآن الكريم في المؤتمر الإسلامي الأول بالهند في حضور الرئيس الأول بالهند وفي حضور الرئيس جمال عبد الناصر والرئيس جواهر النهرو وزعيم المسلمين بالهند.
- وفي عام ١٩٦١م عُيِّن بالقرار الجمهوري شيخ عموم المقارئ المصرية، ليكون بذلك أول من شغل هذا المنصب من قراء آيات الذكر الحكيم، وفى نفس الوقت اختارته وزارة الأوقاف مستشارًا فنيًا لشئون القرآن الكريم..

- وفي عام ١٩٦١م كان أول من سجل المصحف المرتل في أنحاء العالم برواية حفص عن عاصم، وظلت إذاعة القرآن الكريم تقتصر على إذاعة صوته منفردًا حوالي عشر سنوات.
- وفي عام ١٩٦٢م عُيِّن نائبًا لرئيس لجنة مراجعة المصاحف وتصحيحها بالأزهر الشريف ثم رئيسًا لها بعد ذلك.
- وفي عام ١٩٦٣م أثناء زيارته لدولة الكويت عثر على مصاحف قامت بتحريفها اليهود، وتصدى لألاعيب الصهاينة.
- وفي عام١٩٦٤م كان أول من سجل المصحف المرتل في أنحاء العالم برواية ورش عن نافع.
- وفي عام١٩٦٥م قضى فضيلة الشيخ محمود خليل الحصري عشرة أيام كاملة في مسجد باريس، وهناك وعلى يديه أشهر عشرة من الفرنسيين إسلامهم .. أيضًا أشهر ثمانية عشر أمريكيًّا إسلامهم من بينهم طبيبان وثلاثة مهندسين، وفى مدينة [سان فرانسيسكو] تقدمت منه سيدة أمريكية مسيحية لتعلن أن قراءته مست وجدانها، وأحست من عمق نبرات القراءة أن القرآن الكريم على حق، .. رغم أنها لم تفهم كلماته، ولذلك أشهرت إسلامها على يد الشيخ الحصري .. ووعدته بأن تلتحق بأحد المراكز الإسلامية لتتعلم اللغة العربية.
- وفي عام١٩٦٦م عين مستشارًا فنيًا لشئون القرآن الكريم بوزارة الأوقاف.
- وفي عام١٩٦٦م اختاره اتحاد قراء العالم الإسلامي رئيسًا لقراء العالم الإسلامي بمؤتمر [اقرأ] بكراتشي بالباكستان.
- وفي عام١٩٦٧م عين خبيرًا بمجمع البحوث الإسلامية لشئون القرآن الكريم [هيئة كبار العلماء] بالأزهر الشريف.
- وفي عام ١٩٦٧م حصل على وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى في عيد العلم.
- وفي عام١٩٦٧م أصبح رئيس اتحاد قراء العالم.

- وفي عام ١٩٦٨م كان أول من سجل المصحف المرتل في أنحاء العالم برواية قالون ورواية الدوري ورواية البصري.
- وفي عام ١٩٦٩م أول من سجل المصحف المعلم في أنحاء العالم [طريقة التعليم].
- وفي عام١٩٧٠م سافر إلى الولايات المتحدة لأول مرة موفدا من وزارة الأوقاف للجاليات الإسلامية بأمريكا الشمالية و الجنوبية.
- وفي عام١٩٧٣م قام الشيخ محمود خليل الحصري أثناء زيارته الثانية لأمريكا بتلقين الشهادة لثمانية عشر رجلًا وامرأة أمريكيين أشهروا إسلامهم على يديه بعد سماعهم لتلاوته القرآن الكريم.
- وفي عام ١٩٧٢م كان أول من رتل القرآن الكريم في العالم بطريقة المصحف المفسر [مصحف الوعظ].
- وفي عام ١٩٧٧م كان أول من رتل القرآن الكريم في أنحاء العالم الإسلامي في الأمم المتحدة أثناء زيارته لها بناء على طلب جميع الوفود العربية والإسلامية.

زار إندونيسيا والفلبين والصين والهند وسنغافورة .. وفى ماليزيا حاصرته السيول والأمطار، فأرسل له رئيس الوزراء طائرة هليكوبتر أقلته إلى الألوف الذين كانوا ينتظرونه، وكان الكثير من رحلاته يتم في شهر رمضان المعظم للدول الإفريقية والعربية والأسيوية لقراءة القرآن .

- وفي عام١٩٧٨م كان أول من رتل القرآن الكريم في القاعة الملكية وقاعة هايوارت المطلة على نهر التايمز في لندن، ودعاه مجلس الشئون الإسلامية إلى المدينتين البريطانيتين ليفربول وشيفلد ليرتل أمام الجاليات العربية والإسلامية في كل منهما.
- وسافر إلى جميع الدول العربية والإسلامية، وكذلك روسيا والصين وسويسرا وكندا وأغلب عواصم العالم. استقبله عدد كبير من الملوك والرؤساء في أغلب دول العالم. كان

قد أوصى بثلث تركته للإنفاق منها على مشروعات البر والخير، ولخدمة المسجدين اللذين شيدهما في القاهرة وطنطا والمعاهد الدينية الثلاثة الابتدائي والإعدادي والثانوي الأزهري ومكتبين لحفظ القرآن الكريم في المسجدين بالقاهرة وطنطا وحفاظ القرآن الكريم ومعلميه والإنفاق في كافة وجوه الإحسان.

أما قراءته فتمتاز بأشياء منها:

- متانة القراءة ورزانة الصوت، وحسن المخارج التي صقلها بالرياضة.
- العناية بتساوي مقادير المدود والغُنات ومراتب التفخيم والترقيق، وتوفية الحركات.
- الاهتمام بالوقف والابتداء حسبما رسمه علماء الفن.

يعتبر الشيخ محمود خليل الحصري أشهر من رتل القرآن الكريم في عالمنا الإسلامي المعاصر، وهو أول من سجل القرآن بصوته مرتلًا في الإذاعة المصرية، وكان ذلك في مطلع سنة ١٩٦١ ذاع صوته وأداؤه المتميز في أرجاء العالم أجمع وقرأ القرآن في جميع عواصم العالم، سواء منها الإسلامي أو غير الإسلامي، فعلى سبيل المثال قرأ القرآن الكريم بالقصر الملكي [بلندن] ومقر الأمم المتحدة في نيويورك وقاعة الكونجرس، واستقبله أغلب زعماء العالم.

علمه:

إلى جانب أنه قارئ للقرآن الكريم عبر أكثر من أربعين عامًا وفى الإذاعات المصرية والعربية والإسلامية، كان عالمًا في علم القراءات العشر، ويعرف طرق رواياتها وجميع أسانيدها، وكان يحاضر في كثير من الجامعات المصرية والعربية والإسلامية، فكان عالمًا ذو رسالة نبيلة، بل هي أعظم رسالة في دنيا العلوم والمعارف، وهى رسالة حفظ كتاب الله من أي تحريف وتشويه، وكان مراجعا لكتاب الله سواء في الإذاعة مختبرًا للقراء الجدد ومراجعًا لكتابة المصحف، كذلك ظل شيخًا لقراء العالم الإسلامي طيلة عشرين عامًا، وكان عضوًا في

مجمع البحوث الإسلامية [هيئة كبار العلماء] بالأزهر الشريف. وبالرغم من كل ذلك ظل متواضعا يحب الفقراء ويجالسهم ويعطف عليهم.

بُعد النظر:

كان الشيخ الحصري بعيد النظر في كثير من الأمور الخاصة بالعقيدة، فقد أحس بخطورة التبشير وحملات التنصير في أفريقيا، والتي بدأت تحرِّف في القرآن فأراد أن يكون القرآن مسجلًا على شرائط كاسيت أو أسطوانات، فكانت رحلته مع الأستاذ لبيب السباعي وآخرين، فتم تسجيل المصحف المرتل بصوت الشيخ الحصري بعد أن رفض العديد من المشايخ والقراء الفكرة من بدايتها لاختلافهم حول العائد المادي منها، وبذلك أصبح الشيخ الحصري أول صوت يجمع القرآن الكريم مرتلًا على أسطوانات، وكان ذلك برواية حفص، وقد تم تسجيل بعض السور، ثم عُرِضت على وزارة الأوقاف التي وافقت على الاستمرار في تسجيل المصحف مرتلًا كاملًا، وقد كتب لهذا التسجيل النجاح المنقطع النظير، ثم تم التسجيل مرتلًا برواية ورش عن نافع، ثم سجل الشيخ الحصري أيضًا القرآن مجودًا بصوته، ثم مرتلًا برواية قالون والدوري، ثم سجل المصحف المعلم، وقد مكث مدة تقترب من العشرة سنوات لتسجيل المصحف مرتلًا بالروايات المختلفة.

لم يسجل المصحف المرتل لحساب أي شركة من شركات القطاع الخاص أو لحسابه هو، ولكن لحساب المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، على أن يتولى المجلس توزيعه على إذاعات العالم الإسلامي، ولم يكن الشيخ الحصري يسعى إلى العائد المادي قدر سعيه لنيل رضاء الله عَزَّ وَجَلَّ عنه، وخاصة بعد أن رفض العديد من القراء التسجيل المرتل، لاختلافهم حول نسبة العائد المادي من التوزيع، ولكن الشيخ الحصري لم يهتم بكل ذلك، حتى أنه كان يردد قائلًا: إن النجاح الذي تحقق لم أكن أتوقعه، وهذا فضل من ربي عليَّ كبير.

في عامه الذي توفي فيه كان يحاول الانتهاء من بناء مسجد البلدة ومسجد آخر أُعد ليكون مكتبًا لتحفيظ القرآن، وقد تم الانتهاء من بناء المسجد الكبير، وتسلمته إدارة الأزهر قبل وفاته بخلاف المعهد الديني، وقد جمع الشيخ رحمه الله أولاده، وأشار عليهم بوصيته التي قرر فيها التبرع بثلث جميع أملاكه؛ لاستكمال الأعمال الخيرية التي كان يقوم بها، وقد سعد أولاده بما وصى به والحمد لله فقد تحقق له ما أراد.

الإبتلاء بالمرض:

في عام ١٩٨٠ م عاد من رحلته من السعودية مريضًا، وقد زاد عناء السفر وإجهاده من مرضه الذي كان يعاني منه وهو القلب، إلا أن المرض اشتد عليه بعد ثلاثة أيام من عودته، ونصح الأطباء بضرورة نقله إلى معهد القلب، إلا أنه رفض نصيحة الأطباء، بل ورفض تناول الأدوية مرددًا: الشافي هو الله، ولما تدهورت صحته تم نقله رغمًا عنه إلى معهد القلب، وقد تحسنت صحته، فعاد إلى البيت مرة أخرى، حتى ظُنَّ أنه شُفِيَ تمامًا، إلا أنه في اليوم الاثنين الموافق ٢٤ نوفمبر عام ١٩٨٠م فاضت روحه إلى بارئها بعد أن أدى صلاة العشاء مباشرة.

رحم الله الشيخ الجليل ونفع الله بقراءته وعلمه للأمة الإسلامية

وجعلها في ميزان حسناته يوم القيامة



الإمام/ سفيان الثوري

من أهم مهمات العلماء الربانيين في الأمة الإسلامية، إرشاد الناس وتعليمهم وتبصيرهم بالحق ووعظهم وزجرهم عن الباطل، ولا يزال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أهم بنود هذه المهمة المقدسة، فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو قطب الدين الأعظم وعليه يدور الدين، ومن أجله أرسلت الرسل والأنبياء، وقام سوق الجنة والنار، وانقسم به الناس بين دعاة ومدعوين، كما لا يزال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أهم أسباب المحن والابتلاءات التي تعرض لها كثير من علماء الأمة خاصة في الفترات التي يحكم فيها الطغاة، حيث لا تجد الأمة من يتصدى لهؤلاء الطغاة سوى علمائها، وهذه محنة واحد منهم بل واحد من أعظمهم.

التعريف به:

هو شيخ الإسلام، إمام الحفاظ، سيد العلماء العاملين في زمانه، أمير المؤمنين في الحديث، المجتهد المطلق، العابد الزاهد، قدوة العصر، الإمام أبو عبد الله سفيان بن سعيد بن مسروق بن حبيب الثوري، وُلد سنة ٩٧هـ بالكوفة في بيت علم وورع وديانة، فأبوه المحدث الثقة: سعيد الثوري، وهو من طبقة صغار التابعين، وأمه كانت امرأة صالحة دفعت ولدها منذ صغره نحو طلب العلم، وقالت له: اذهب فاطلب العلم حتى أعولك بمغزلي، وكان أبوه فقيرًا مشغولاً بالحديث.

انطلق الثوري كالشهاب يطلب العلم من مشايخ الوقت وعلماء العراق، وأكثر من ذلك حتى بلغ عدد شيوخه ستمائة شيخ، وعلا ذكره وطارت شهرته وعرفه الناس وهو شاب دون العشرين وذلك لعلو همته وكثرة رحلته وشدة زهده وورعه وفرط ذكائه وسعة

محفوظاته، وما زال أمره في علو ورفعة وخبره في ذيوع وشهرة حتى لقب بأمير المؤمنين في الحديث، وكان أحفظ أهل زمانه، على الرغم من وجود العديد من الحفاظ الأعلام والأئمة الأثبات في زمانه، إلا إنه يفوقهم جميعًا.

جمع الثوري بين العلم والعمل والزهد والورع والعبادة والجهر بالحق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومجافاة السلاطين والأمراء، والفرار من المناصب والتحرز من الشبهات حتى صار درة الدهر وبركة العصر وحجة الله على الخلق.

محنته:

محنة الإمام سفيان الثوري ترجع في المقام الأول لوجوده في عصرين مختلفين وشهوده لقيام دولة وانهيار أخرى، ومعاينته للأهوال والملاحم التي وقعت خلال ذلك القيام والانهيار، فأثر ذلك في نفسيته بشدة، وكوَّن الإمام رؤيته وحكمه على الدولة الجديدة من خلال الفتن والملاحم التي وقعت، وجعلت الإمام يفر من أي علائق مع تلك الدولة ويرفض أي منصب تعرضه عليه السلطة الجديدة لاعتراضه الكامل عليها شكلاً وموضوعًا. وُلد سفيان الثوري سنة ٩٧هـ بالكوفة كما أسلفنا، ونشأ وترعرع وطلب العلم في عهد الدولة الأموية المجاهدة، وطاف البلاد ولاقى الشيوخ، ولما صار في سن الكهولة في الخامسة والثلاثين أي في سنة ١٣٢هـ وقع الزلزال الكبير في الأمة الإسلامية، وقامت الدولة العباسية على أنقاض الدولة الأموية وذلك بعد سلسلة رهيبة من المعارك الطاحنة والمجازر المروعة، وكان إعلان قيام تلك الدولة في الكوفة نفسها ورأى سفيان الثوري ذلك كله، وكان وقتها قد صار من علماء الكوفة وشيوخها المعروفين، إليه يفزع الناس عند النوازل والمهمات طلبًا للفتيا والسؤال، وكان سفيان الثوري لا يرى الخروج على الأئمة ولو جاروا من باب درء الفتنة وارتكاب أخف الضررين من أجل دفع أعظمها ومنع المفاسد العظيمة، ولكنه في الوقت

نفسه يرى وجوب الإنكار على الملوك والأمراء والسلاطين والصدع بالحق مهما كان. ومن أجل تلك الرؤية والفكرة تعرض الإمام سفيان الثوري للكثير من المحن والفتن، حيث طلبه خلفاء الدولة العباسية الواحد تلو الآخر وعرضوا عليه منصب القضاء ولكنه رفض بشدة وفر منهم فقضى شطر حياته الأخير طريدًا شريدًا لا يأويه بلد ولا صديق إلا ينتقل منه لآخر وهكذا.

محنته مع الخليفة أبي جعفر المنصور:

مر بنا أثناء الحديث عن محنة الإمام أبي حنيفة كيف قام الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور بالضغط عليه من أجل تولي منصب القضاء، فضربه وحبسه وتهدده والإمام يرفض بكل شدة حتى مات قتيلاً في سجون المنصور، وبعد وفاة الإمام أبي حنيفة سأل المنصور عمن يلي الأمر، فوصفوا له سفيان الثوري وأخبروه بأنه أعلم أهل الأرض، فأرسل في طلبه مرة بعد مرة، وسفيان يرفض القدوم عليه.

اشتد أبو جعفر المنصور في طلب سفيان الثوري، والثوري مصر على عدم تولي القضاء، حتى اضطر سفيان للخروج من الكوفة إلى مكة، فأرسل المنصور في الأقاليم بمنادٍ يقول: من جاء بسفيان الثوري فله عشرة آلاف، فاضطر الثوري للخروج من مكة إلى البصرة، وهناك عمل في حراسة أحد البساتين، ولنا أن نتخيل حجم المعاناة النفسية التي تعرض لها إمام العصر وهو يستخفي من الناس، ويفر من مكان لآخر.

لم يلبث الثوري في البصرة كثيرًا حتى عرفه الناس وهموا به، فخرج منها إلى بلاد اليمن، وهناك تعرض الإمام لمحنة أشد وأنكى، إذ اتهموه بالسرقة، وكان غير معروف في تلك البلاد البعيدة، ورفعوه إلى الوالي وهو الأمير معن بن زائدة وكان مشهورًا بالدهاء والمروءة وكرم الأخلاق، فلما تكلم معه قال له: ما اسمك؟ قال سفيان :عبد الله بن عبد الرحمن، فقال معن:

نشدتك الله لما انتسبت؟ قال الثوري: أنا سفيان بن سعيد بن مسروق، قال الأمير معن: الثوري؟ قال: الثوري. قال معن: أنت بغية أمير المؤمنين؟ قال: نعم، فأطرق ساعة، ثم قال: ما شئت فأقم، ومتى شئت فارحل، فوالله لو كنت تحت قدمي ما رفعتها.

طالت غربة الثوري وتشريده في البلاد أيام الخليفة المنصور، وهو يتنقل من مكان لآخر تارة بالعراق، وأخرى بالحجاز، وثالثة باليمن، ثم قرر الثوري في النهاية أن يذهب إلى مكة حاجًا وعائذًا، وكان المنصور قد عزم على الحج في نفس السنة ١٥٨هـ، وقد وصلت إليه الأخبار بأن الثوري بمكة، فأرسل إلى واليها يطلب منه القبض على الثوري وصلبه، وبالفعل نصبوا الخشب وأخذوا في البحث عن الثوري لصلبه، فلما علم الثوري، قام وتعلق بأستار الكعبة وأقسم على الله عز وجل ألا يدخل المنصور مكة، وبالغ في الدعاء والقسم، وبالفعل وقعت كرامة باهرة للثوري، إذ يمرض المنصور بقدرة الله عز وجل ويموت قبل أن يدخل مكة، فعد ذلك من كرامات وبركات الثوري، وهي كرامة ثابتة لا حجة لمن ردها بسبب عدم فهم ألفاظها.

وكان السر وراء رفض الثوري للمنصب وإيثاره للفرار والتشرد في البلاد، أنه كان لا يصبر على أي منكر يراه، وكان يقول عن نفسه: إذا رأيت منكرًا ولم أتكلم تبولت دمًا من شدة الكمد. وهو يعلم أنه سيرى كثيرًا من المنكرات ولا يستطيع أن يتكلم، لذلك فضل الفرار والخوف والتشرد على أن يسكت على المنكر والباطل.

محنته مع الخليفة المهدي:

ظن الإمام الثوري أن محنته قد انتهت بوفاة الخليفة المنصور فعاد إلى بلده الكوفة وبرز للناس وأخذ في التحديث والتدريس كما هي العادة، ولكنه فوجئ بالخليفة الجديد وهو محمد المهدي بن الخليفة المنصور يستدعيه على وجه السرعة، فلما دخل عليه دار هذا الحوار العجيب:

قال الخليفة المهدي: يا أبا عبد الله هذا خاتمي، فاعمل في هذه الأمة بالكتاب والسنة.

قال الإمام الثوري: تأذن لي في الكلام يا أمير المؤمنين، على أني آمن.

قال المهدي: نعم.

قال الثوري: لا تبعث إليَّ حتى آتيك، ولا تعطني حتى أسألك. فغضب المهدي وهم أن يقع به.

فقال له كاتبه: أليس قد آمنته؟

قال المهدي: نعم. ولكن اكتب إليه العهد بالقضاء، فكتبه وأعطاه للثوري رغمًا عنه.

خرج الثوري من عند الخليفة المهدي ومعه عهد القضاء مختومًا بخاتم الخليفة نفسه، فلما مر على نهر دجلة رمى العهد في النهر، وكان معه أصحابه فنهوه ونصحوه بقبول القضاء والعمل بالكتاب والسنة، فسفه قولهم واستصغر عقولهم، ثم خرج هاربًا إلى البصرة، واستخفى عند المحدث يحيى بن سعيد القطان، فلما عرف المحدثون أخذوا في التوافد إلى بيت يحيى القطان حتى انكشف أمره، فخرج من البصرة إلى الكوفة واختبأ في دار عبد الرحمن بن مهدي.

اشتد الخليفة المهدي في طلب الإمام الثوري ووضع على رأسه جائزة مالية قدرها مائة ألف درهم، خاصة بعد أن عرف أن الثوري قد ألقى كتاب عهده في النهر، وظل الثوري يفر من بلد لآخر وجنود الخليفة من ورائه لا يقدرون على الإمساك به، وقضى الإمام العامين الأخيرين من حياته شريدًا طريدًا خائفًا، ومع ذلك لم يفكر للحظة واحدة أن يقبل المنصب، وسبحان الله الإمام العلامة الذي هو أجدر الناس بالمنصب يفر منه ويتحمل كل هذه المحن والابتلاءات، وآخرون لا يزن الواحد منهم عند الله عز وجل وعند الناس جناح بعوضة من علم يلهثون وراء أدنى المناصب بكل سبيل.

قال أبو أحمد الزبيري : كنت في مسجد الخيف مع سفيان والمنادي ينادي: من جاء بسفيان فله عشرة آلاف. وقيل: إنه من أجل الطلب والملاحقة هرب إلى اليمن، فاتهموه - وهم لا يعرفونه في اليمن - بأنه سرق شيئاً؛ فأتوا به والي اليمن معن بن زائدة، وكان عنده خبر من الخليفة بشأن طلب سفيان، فقيل للأمير: هذا قد سرق منا، فقال: لم سرقت متاعهم؟ قال سفيان: ما سرقت شيئاً. فقال لهم الأمير: تنحوا حتى نسائله (حتى أحقق معه) ثم أقبل على سفيان فقال: ما اسمك؟ فقال: عبد الله بن عبد الرحمن، وأراد ألا يكذب ولا يذكر اسمه لأنه مطلوب عند الخليفة، فقال الأمير: نشدتك بالله لما انتسبت سأله بالله، فكان لا بد أن يجيب، قال: فقلت: أنا سفيان بن سعيد بن مسروق، قال: الثوري؟ فقلت: الثوري ، قال: أنت بغية أمير المؤمنين؟ قلت: أجل! فأطرق ساعة يفكر ثم قال: ما شئت أقم ومتى شئت فارحل، فوالله لو كنت تحت قدمي ما رفعتها. أي: أحميك وأدافع عنك، وكان معن بن زائدة فيه خير كثير. وهرب إلى البصرة أيضاً، قال ابن مهدي: قدم سفيان البصرة والسلطان يطلبه، فصار إلى بستان، فأجر نفسه لحفظ الثمار، صار ناقوراً حارساً يحفظ الثمار، فمر به بعض العشارين الذين يأخذون أجزاء الثمار للوالي، فقال: من أنت يا شيخ؟ قال: من أهل الكوفة . فقال: أرطب البصرة أحلى من رطب الكوفة؟ قال: لم أذق رطب البصرة . قال: ما أكذبك! البر والفاجر والكلاب يأكلون الرطب الساعة. فرجع العامل إلى الوالي فأخبره ليعجبه بهذا الخبر العجيب، فقال الوالي: ثكلتك أمك! أدركه فإن كنت صادقاً فإنه سفيان الثوري ، فخذه لنتقرب به إلى أمير المؤمنين. فرجع في طلبه فما قدر عليه. ولاحقه أبو جعفر ملاحقة شديدة وجدَّ في طلبه، فاختفى الثوري بمكة عند بعض المحدثين.. قال عبد الرزاق : بعث أبو جعفر الخشابين حين خرج إلى مكة وقال: إن رأيتم الثوري فاصلبوه. فجاء النجارون ونصبوا الخشب ونودي عليه ورأسه في حجر الفضيل مختفٍ بالبيت، ورجلاه في حجر ابن عيينة، فقيل له: يا أبا عبد الله ! اتق الله لا تشمت بنا الأعداء.. كان مختفياً في الحرم ورأسه في حجر

الفضيل ورجلاه في حجر ابن عيينة، فتقدم إلى الأستار ثم أخذه وقال: برئت منه إن دخلها أبو جعفر، قال: فمات أبو جعفر قبل أن يدخل مكة، فأخبر سفيان فما قال شيئاً، قال الذهبي رحمه الله: هذه كرامة ثابتة.

ظل الثوري في محنته تلك حتى جاءه الفرج من عند رب السماء، وأنهى الله عز وجل محنته وآلامه وأحزانه وأكرمه أعظم كرامة بأن توفاه إلى حضرته العلية قبل أن ينال منه من شردوه وآذوه، والعجيب أن الثوري قد كتب إلى الخليفة المهدي يقول: طردتني وشرَّدتني وخوفتني، والله بيني وبينك، وأرجو أن يخير الله لي قبل مرجوع الكتاب، فرجع الكتاب وقد مات الإمام وانتهت محنته.

قال أحمد بن حنبل رحمه الله: قال لي ابن عيينة: لن ترى بعينك مثل سفيان الثوري حتى تموت. وقال الأوزاعي: لو قيل لي اختر لهذه الأمة رجلاً يقوم فيها بكتاب الله وسنة نبيه لاخترت لهم سفيان الثوري .

وقال ابن المبارك : كتبت عن ألف ومائة شيخ ما كتبت عن أفضل من سفيان .

وقال ابن أبي ذئب : ما رأيت أشبه بالتابعين من سفيان الثوري .

وقال ابن المبارك : ما نُعت إلي أحد فرأيته إلا كان دون نعته -دون الوصف- إلا سفيان الثوري، رحمه الله رحمة واسعة.

واستمر هذا الرجل على العطاء، وكان قد دفن كتبه فلما أمن استخرجها مع صاحب له، فقال صاحبه: في الركاز الخمس يا أبا عبد الله ! فقال: انتق منها ما شئت، فانتقيت منها أجزاء فحدثني بها. استمر -رحمه الله- عابداً لربه مستمراً على العهد الذي بينه وبين الله علماً وتعليماً وعبادة حتى جاءه الأجل ووافاه قدر الله سبحانه وتعالى بالموت في البصرة ، في شعبان سنة إحدى وستين ومائة للهجرة، وقد غسله عبد الله بن إسحاق الكناني . قال يزيد بن

إبراهيم: رأيت ليلة مات سفيان قيل لي في المنام: مات أمير المؤمنين -أي: في الحديث. ولم يتمكن إخوانه وأصحابه من الاجتماع للصلاة عليه، فجعلوا يغدون إلى قبره يوم وفاته، ودفن وقت العشاء، وعن بعض أصحاب سفيان قال: مات سفيان بالبصرة ودفن ليلاً ولم نشهد الصلاة عليه، وغدونا على قبره ومعنا جرير بن حازم وسلام بن مسكين من أئمة العلم، فتقدم جرير وصلى على قبره ثم بكى وقال:

إذا بكيت على ميت لمكرمة فابك غداة على الثوري سفيان

وسكت، فقال عبد الله بن الصرباح :

أبكي عليه وقد ولى وسؤدده وفضله ناظر كالغسل ريان

المصادر:

-سير أعلام النبلاء للذهبي

-طبقات الحفاظ لابن خلكان

-حلية الأولياء لأبي نعيم الأصفهاني

-موقع علماء المسلمين – موقع ملتقى أهل العلم – موقع ملتقى أهل الحديث

❁❁❁

الإمام / ابن خزيمة

يعتبر الحسد هو السبب الرئيسي لمعظم المحن والابتلاءات التي تعرض لها علماء الأمة، وعادة ما يكون الحسد بسبب مكانة العالم ومنزلته بين الناس ومحبة العالمين له، أو بسبب جراءته في الحق والصدع بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهي صفات غالبًا ما تكون في العلماء الربانيين، ولكن أن يحسد العالم بسبب نجابة تلاميذه والتفوق العلمي لهم، فهذا هو العجب حقًا، ومما يؤرخ له في مقامنا هذا.

التعريف به:

هو الإمام الحافظ الحجة الفقيه، شيخ الإسلام، إمام الأئمة، أحد أركان السنة، أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة السلمي النيسابوري الشافعي، صاحب التصانيف الهامة، وُلد سنة ٢٢٣هـ، وأخذ في طلب العلم في حداثته، فاعتنى بسماع الحديث والفقه وتضلع فيهما، حتى صار يضرب به المثل في سعة العلم والإتقان، وقد شرب ماء زمزم في حجه بنية العلم النافع، فكان الله عز وجل قد فتح على قلبه وفهمه ينابيع العلم والحكمة، فكان من أفراد العالم ذكاءً وفهمًا، مع زهد وعزوف عن الدنيا وزينتها، لا يدخر شيئًا، كل ما يملكه ينفقه على أهل العلم، حتى أنه لم يكن يميز بين العشرة والعشرين، ربما دفع العشرة على أنها خمسة .

محنته:

كان لابن خزيمة عظمة في النفوس وجلالة في القلوب لعلمه ودينه واتباعه للسنة، وبلغ الإمام رتبة الاجتهاد وتفرد على أهل زمانه وتقدمهم في السن والعلم، وكان له أصحاب وتلاميذ صاروا في حياته نجوم عصرهم وأئمة كبارًا يشد إلى حلقهم الرحال، ولعل ذلك سبب تسمية ابن خزيمة بإمام الأئمة، ومن هؤلاء الأصحاب الأئمة: أبو علي الثقفي وهو

أول من حمل علوم الشافعي ودقائق ابن سريج إلى خراسان، وأبو بكر الصبغي خليفة ابن خزيمة في الفتوى وأحسن الجماعة تصنيفًا وأحسنهم سياسة في مجالس السلاطين، وأبو بكر بن أبي عثمان وهو أكثرهم جمعًا للعلوم ورحلة له وهو شيخ المجاهدين، وأبو محمد يحيى بن منصور وكان من أصلح الناس للقضاء.

وتبدأ فصول محنة ابن خزيمة عندما ورد إلى نيسابور رجل معتزلي فاسد العقيدة والطوية أيضًا اسمه منصور الطوسي، وأخذ هذا الرجل في حضور مجالس ابن خزيمة لسماع آرائه وأقواله في العقيدة، فلما عاين ما عاين من الأربعة الذين سميناهم داخله الحسد وأكل قلبه الغل، وأخذ يخطط من أجل إيقاع الفرقة بين الإمام وأصحابه، واجتمع مع رجل على شاكلته هو أبو عبد الرحمن الواعظ القدري المعتزلي، واتفقا على تفاصيل المؤامرة وعلى بث الوشايات الكاذبة عند الإمام ابن خزيمة بحق أصحابه، واتهامهم بالخوض في باب العقائد، وأنهم على مذهب الكلابية (منسوب لابن سعيد بن كلاب)، وبالفعل أخذ الرجلان في الكلام بحق هؤلاء الأئمة عند أستاذهم ابن خزيمة.

وحدث ذات مرة أن تكلم أبو علي الثقفي عن مسألة كلام الله بعد أن ثار خلاف بشأنها في إحدى حلق العلم، وكان ابن خزيمة ينهي أصحابه عن هذه المسألة تحديدًا وعن الخوض في الكلام عمومًا، فانتهز منصور الطوسي الفرصة وأسرع إلى الشيخ ابن خزيمة وقال له: ألم أقل للشيخ: إن هؤلاء يعتقدون مذهب الكلابية؟ فجمع ابن خزيمة أصحابه وقال لهم: ألم أنهكم غير مرة عن الخوض في الكلام؟ ولم يزدهم على هذا ذلك اليوم. لم يزل الطوسي يروح ويجول بفريته على مسامع الشيخ ابن خزيمة حتى جرَّأه على أصحابه واستحكمت الوحشة بين الشيخ وتلاميذه، وزادت الأمور سوءًا بتدخل بعض الأطراف الخارجية حتى وصل الحال بابن خزيمة (وكان قد جاوز الثمانين من العمر وضجر وضاق صدره) بأن أعلن في محضر من طلاب العلم بأن أصحابه الأربعة كذبة، وأنه محرم على كل

طالب علم أن يقبل منهم شيئًا يروونه عن ابن خزيمة، وما هم بكذبة بل أئمة أثبات، ولكنه فعل الطوسي المنحرف الذي سعى بالنميمة والكذب، حتى انحرف الشيخ عن أقرب وأخص أصحابه.

اغتنم الطوسي وأبو عبد الرحمن القدري الفتنة في نشر مذهبهما في الاعتزال ووجدا من بعض الحسدة مثل البردعي وأبي بكر بن علي من يساعدهما على تأجيج الفتنة، فانتصب الحافظ أبو عمرو الحيري للصلح بين الجماعة، وشرح لابن خزيمة غرض المعتزلة في فساد الحال حتى استطاع أن يجمع بين الشيخ وأصحابه في مجلس وأصلح بينهم، وكتب الأصحاب عقيدتهم في محضر ووقع ابن خزيمة عليه بالصحة والسلامة، وأودع المحضر عند الحافظ الحيري حتى لا يبقى لمتقول كلام.

لم يكد ينقضي يوم واحد على الصلح وكتابة المحضر حتى أسرع الطوسي ومن على شاكلته من المعتزلة إلى الشيخ ابن خزيمة، وقالوا له: إنهم قد غدروا بك وغيروا من كلام المحضر ليوافق عقيدتهم عقيدة ابن كلاب، فغضب ابن خزيمة بشدة، وكما قلنا إنه كان شيخًا كبيرًا جاوز الثمانين، فأرسل إلى أبي عمرو الحيري يطلب المحضر للتأكد من صحة الخبر، فرفض الحيري، فقوي ظن ابن خزيمة بأنهم قد غدروا به وغيروا كلامه في المحضر، فظل ساخطًا مقاطعًا لأصحابه وتلاميذه الأئمة حتى مات بعد ذلك بقليل. وهكذا نرى كيف أن أصحاب العقائد الباطلة والمذاهب الفاسدة كانوا وما زالوا يلعبون دورًا خطيرًا في فساد ذات البين وفي محن العلماء الربانيين، وأي محنة أشد على العالم من أن يقاطع تلاميذه ويعادي أخص أصحابه الذين كانوا مصدر فخره وأحد أسباب شهرته والله أعلم بالعاقبة.

الإمام/ الكوراني

العلاقة بين أئمة الدنيا وأئمة الدين دائمًا ما تكون علاقة حساسة، يشوبها الكثير من المخاطر، ذلك إن إمام الدنيا عادة ما يطلب من إمام الدين الغطاء الشرعي لأفعاله وأقواله وقراراته، بغض النظر عن مدى قربها أو بعدها من أحكام الشريعة، وإمام الدين عادة ما يطلب من إمام الدنيا أن يستمع لنصحه وإرشاده، ويعمل بتوجيهاته، وعندما تصطدم الرغبتان ويختلف الإمامان، تقع المحن، وتنزل البلايا، وتبرز المخاطر والتي عادة يكون لإمام الدين الجانب الأكبر والحظ الأوفر من تلك المحن، وهذه محنة واحد من هؤلاء الأئمة الأعلام الذين كانوا بمثابة الحكام، ثم قام بهم سوق المحن، فتشردوا في البلاد، ولكن ظلوا على الثبات حتى الممات.

التعريف به:

هو الشيخ العلامة، مفتي الدولة العثمانية، مربي الملوك والسلاطين، الإمام شهاب الدين أحمد بن إسماعيل بن عثمان الشهرزوري الهمدانيّ التبريزي الكوراني ثم القاهري، عالم بلاد الروم [الدولة العثمانية].

ولد سنة٨١٣ هـ بكوران من أعمال تبريز [الآن في إيران] وبها تلقى علومه الأولى، وتضلع كما هي عادة أهل تلك البلاد في علم أصول الفقه والمنطق والكلام واللغة وعلومها وتوسع في العقليات، وبرع في المناظرات، وشارك في الفقه، حتى ضاقت بلدته الصغيرة على محصوله العلمي الغزير، فقرر الخروج إلى رحلة علمية كما هي عادة طلاب العلم فرحل إلى دمشق، وهو دون العشرين، فاشتغل على علمائها، حتى نال مراده وقطع مأربه منها، ثم توجه إلى القاهرة، وهي وقتها حاضرة العالم الإسلامي، وعاصمة دولة المماليك، وبها أساطين العلماء وكبار الأئمة، وعلى رأسهم الحافظ ابن حجر العسقلاني.

وفي القاهرة أكب الكوراني على تحصيل العلم، وانقطع على الاشتغال والإشغال ولازم حضور مجالس العلماء، وما زال صيته يعلو ويعلو، حتى طارت شهرته للسلطان المملوكي الظاهر جقمق، فاصطفاه لمجلسه، وقرَّبه من بساطه، فصار من خواصه، وكان الكوراني ظريفًا مطبوعًا، طلق اللسان، بارعًا في البيان، عنده حدة وشدة في المناظرة، لا ينافق سلطانًا ولا أميرًا، وهي خصال أحبها السلطان جقمق المملوكي، وإن كانت بعد ذلك ستورثه سلسلة المحن المتعاقبة في حياته.

ولم يكن للكوراني مؤلفات كثيرة، بل كانت جلّ أعماله العظيمة في مجال الدعوة والإرشاد والقضاء، وله شرح لصحيح البخاري، وتفسير للقرآن الكريم أكثر فيه من التعقب على جلال الدين المحلي في تفسيره الشهير "الجلالين"، وله قصيدة في علم العروض نحو ستمائة بيت، وقد أنشأ في إستنبول جامعًا كبيرًا ومدرسة سماها دار الحديث.

محنته في القاهرة:

ارتفع شأن الكوراني في القاهرة، وصار من جلساء السلطان نفسه، وذلك في فترة وجيزة من الزمان، مما أوغر صدور بعض المشايخ، وممن ينتسب إلى العلم، وممن كان يحظى بعلمه عند السلطان، وقد وجدوا من الكوراني منافسًا لهم في مجالس السلطان، ويشاركهم في اهتمامات السلطان، فتحركت الأحقاد والحسد والغيرة المذمومة في صدورهم، وبدأوا في التحريض على الكوراني، والخوض في حقه، مستغلين حدته المشهورة.

وجد خصوم الكوراني وحساده فرصة سانحة لا تفوت في الحادثة التي وقعت للكوراني مع أحد شيوخ الحنفية، وهو حميد الدين النعماني، وكان ذلك الرجل يدعي انتسابه للإمام أبي حنيفة النعمان، وقد تباحثا في مسألة فقهية، وطالت بينهما المناظرة، وعلت حجة الكوراني على حجة النعماني، فما كان رد فعل النعماني إلا أن شتم الكوراني وسب آبائه، فرد

عليه الكوراني السباب والشتم، فذهب خصوم الكوراني وحساده إلى قاضي القضاة والسلطان المملوكي، واشتكوا أن الكوراني قد سب الإمام أبا حنيفة، وحرضوا على محاكمته وتأديبه، فعقد قاضي القضاة له مجلس تأديب، وحكموا عليه بالجلد ثمانين جلدة، وذلك بمحضر من السلطان نفسه، ثم أمر بنفيه خارج البلاد، على الرغم من أن الكوراني مظلوم لا ذنب له، وإنما رد على من شتمه، كما أن نسب الشيخ حميد الدين مشكوك فيه، ولم يقصد الكوراني أبدًا أن يسب أبا حنيفة، فالكوراني من أتباع المذهب الحنفي، فكيف يشتم إمامه وشيخه.

المنح بعد المحن:

خرج الكوراني من بلاد مصر مثقلاً بالهموم والأحزان جراء المحنة التي تعرض لها، فلقد شتم وأهين وضرب ومزقوا كرامته وعرضه، ثم نفوه خارج البلاد مثل المجرمين، فقرر التوجه إلى الدولة العثمانية؛ لأنه سمع عن عدل سلطانها المجاهد مراد الثاني، والذي كان له اهتمام أيضًا بالعلم والعلماء والأدباء والشعراء، وكان كما وصفه يوسف آصاف صاحب كتاب «تاريخ سلاطين آل عثمان»: (تقيًا صالحًا، وبطلاً صنديدًا، محبًا للخير، ميالاً للرأفة والإحسان).

استقر الشيخ الكوراني في أدرنة عاصمة الدولة العثمانية وذلك عام ٨٤٠ هـ، وأخذ في الاشتغال بالتعليم والتدريس ونشر علوم اللغة العربية، فأخذ صيته ينتشر بين أهل أدرنة شيئًا فشيئًا، فتهافتوا على حضور دروسه ومجالسه، وتسابق الأغنياء على طلبه لتأديب وتربية أبنائهم، وقد لقبوه بالمولى الكوراني بسبب مهارته في تربية الأولاد، وقدرته الفائقة على تعديل سلوكياتهم، ورفع مستوياتهم العقلية والإيمانية.

وصلت أخبار شهرة الكوراني إلى السلطان العثماني «مراد الثاني «فطلبه لتربية ولده

وولي عهده من بعده «محمد خان» الملقب بالفاتح، وكان صبيًا في العاشرة أو الثانية عشرة من العمر، وكان السلطان مراد الثاني يهيئ ولده محمدًا لمعالي الأمور وعظائمها، فعينه أميرًا على ولايته «مغنيسيا» وانتدب له العديد من المعلمين والمربين لإعداده وتعليمه، ولكن الأمير محمد كان صبيًا مثل باقي الصبيان، مشغول باللعب واللهو كعادة من هو في سنه، فلم يمتثل لأوامرهم، وهم بدورهم لم يضغطوا ويشتدوا عليه خوفًا من هيبة أبيه، فلما رأى السلطان «مراد الثاني» ولده الذي جعله ولي عهده وخليفته من بعده لم يتعلم شيئًا، ولم يقرأ أو يحفظ شيئًا، اشتد غضبه وسأل عن أفضل معلمي دولته، فقيل له رجل غريب من أهل تبريز اسمه «المولى الكوراني» فأحضره مراد الثاني ووضح له صورة الأمر، وطلب منه أن يشتد في تربية ولده محمد، وذلك سنة ٨٤٤ هـ.

وصل الكوراني إلى مغنيسيا، ودخل على الأمير محمد، فوجده واقفًا أمام المرآة يرجل شعره، فقال له الكوراني وكان في يده عصا غليظة: (أرسلني والدك للتعليم، والضرب إذا خالفت أمري) فضحك الأمير محمد وسخر منه، واستمر في ترجيل شعره، فما كان من الكوراني إلا ضربه ضربًا شديدًا، حتى خاف منه الأمير محمد بشدة وأخذ في مذاكرة دروسه وختم القرآن في مدة يسيرة، ولقد تأثر الأمير محمد بشيخه الكوراني بشدة، وأثر بالأخص في توجهاته وأفكاره، ولقد أثمرت ترك التربية القوية على محمد خان، فصار بعد ذلك محمد فاتح القسطنطينية، أعظم سلاطين الدولة العثمانية.

ظل خبر الكوراني في علو وارتفاع حتى تولى السلطان محمد الثاني قيادة الدولة العثمانية، فاختاره مع جلة من العلماء لتولي أهم مناصب الدولة، إذ عين الكوراني في منصب قاضي العسكر، وهو أعلى المناصب الدينية وأهمها في الدولة العثمانية وقد اشترك مع السلطان محمد الثاني في فتح القسطنطينية سنة ٨٥٧هـ، وكان الكوراني شديدًا في الحق، لا يهاب فيه أحدًا من الناس، مهما كانت درجته أو منصبه، حتى أنه كان يخاطب السلطان العثماني «محمد

الثاني» باسمه مجردًا، ويصافحه ولا يقبل يده، بل بعزة العالم وأستاذية المربي والمعلم، يقبل السلطان هو يده، ولعل تلك المكانة العظيمة التي وصل إليها الكوراني، قد جلبت عليه نفس المحن التي تعرض لها مع السلطان المملوكي جقمق.

محنة الكوراني مع الفاتح:

كان للكوراني منزلة عظيمة عند السلطان محمد الفاتح، وقد تبوء الإمام أكبر المناصب الدينية في الدولة العثمانية، قضاء العسكر، ثم منصب الإفتاء، ومن شدة حب الفاتح للإمام الكوراني عرض عليه منصب الوزارة أو الصدر الأعظم، وفوَّض إليه شئون دولته كلها، ولكن الكوراني رفض واقتصر على منصب الإفتاء والمرجعية الدينية لشئون الدولة، بالإضافة لمنصب قضاء العسكر.

كان الكوراني شديدًا، جريئًا، باذلاً للنصيحة، غير مستتر بها، وكانت معظم شدته على السلطان، وذلك بسطوة المعلم على تلميذه، والوالد على ولده، فكان الفاتح إذ أصدر مرسومًا فيه مخالفة للشرع، كان الكوراني يمزقه ويشتد على الفاتح ويقول له: مطعمك حرام وملبسك حرام، فعليك بالاحتياط، وكانت تلك الشدة تعمل في نفس الفاتح فعل السحر، ولكن مع تكرارها وتصاعد وتيرتها، بدأ الفاتح يستثقل تلك الشدة والنصيحة، حتى حدث ذات يوم أن بعث الفاتح بمرسوم للكوراني كيما يصدق عليه، فوجد فيه الكوراني مخالفة للشرع، فمزقه وضرب الخادم الذي جاء به، فشق ذلك على السلطان محمد الفاتح، وغضب بشدة من فعل الكوراني وأمر بعزله من منصب قضاء العسكر.

وقعت الجفوة والنفور بين الكوراني والفاتح، وهجر الكوراني مجالس الفاتح ولم يحضر عنده، وقابل الفاتح ذلك بالإعراض والتجاهل التام، وكما قيل كثر الإملاس تفقد الإحساس، ولم يحتمل الكوراني تلك المحنة، بعد أن صار مهجورًا خامل الذكر فقرر الرحيل

إلى القاهرة، حيث سلطانها المملوكي «قايتباي» وكان محبًا للإمام الكوراني فاستقبله خير استقبال، وأكرمه غاية الإكرام، وكان بين محمد الثاني وقايتباي نوع من المنافسة والحسد، باعتبار كلاهما من أكبر زعماء العالم الإسلامي وقتها، فقابل «قايتباي» الكوراني تلك المقابلة العظيمة للنكاية من طرف خفي في السلطان محمد الفاتح، واستعمله في أكبر المناصب وجعله من خاصة رجاله وأقرب مستشاريه.

الاختيار الصعب:

ظل الشيخ الكوراني مقيمًا في كنف السلطان المملوكي الأشرف قايتباي، على أفضل حال وأكرم منزلة، ولكنه في نفس الوقت كان حزينًا لفراق الدولة العثمانية ومجافاة السلطان الفاتح له، وكانت للكوراني منزلة عظيمة جدًا عنده، فلما وقعت المحنة واضطر الكوراني للرحيل كان ذلك شديد الوقع على قلبه ونفسه، لذلك فعلى الرغم من الإكرام الزائد والإحسان الكبير الذي وجده الكوراني عند قايتباي، إلا إن ذلك لم يعوضه عما كان عليه عند الفاتح.

مضت الشهور على الشيخ الكوراني وهو في صحبة قايتباي وبلاطه، وهدأت نفسيته وخفت أحزانه من جراء محنته، ومضى في دروسه ومجالسه العلمية واشتغل عليه الطلبة، ولم يكن يعلم أن تلك الفترة الماضية لم تكن شديدة عليه وحده، بل كانت أشد أثرًا وإيلامًا على قلب السلطان الفاتح نفسه، حيث ندم على فعلته مع الشيخ الكوراني، وشعر بفقدان المربي والموجه والناصح الأمين الذي كان بمثابة الوالد، لذلك قرر الفاتح أن يصحح غلطته ويكفر عن فعلته مع الكوراني فأرسل إليه بخطاب يفيض بالاعتذار والأسف ويطلب منه على وجه الاستعطاف لا الاستعلاء أن يرجع إلى الدولة العثمانية.

وصل الخطاب للشيخ الكوراني فقرأه وتدبر معانيه، ثم عرضه على السلطان المملوكي

قايتباي ليأخذ رأيه ويعرف مراده، وذلك من باب رعاية حق الإحسان الذي قام به قايتباي معه، إذ لا يصح أن يقطع الكوراني في ذلك الأمر وحده ويتجاهل من آواه وأكرمه وأحسن إليه، فليس هذا من مروءة المسلمين فما بالك بالعلماء العاملين، وعندما عرض الكوراني الأمر على قايتباي انزعج وخاف أن يفارقه الكوراني، وكان حريصًا على بقائه والانتفاع بعلمه وعمله فقال له: (لا تذهب إليه فإني أكرمك فوق ما يكرمك هو).

عندها أصبح الشيخ الكوراني بين خيارين صعبين، وماذا يفعل؟ فهواه ورغبته في العودة إلى الدولة العثمانية التي كانت وقتها من أقوى وأفضل الدول الإسلامية، وفي نفس الوقت سلطان الدولة المملوكية حريصًا على بقائه، مؤثرًا لصحبته، وقد ذكّره بالإكرام الذي لاقاه بعد المحنة والعلاقات سيئة بين الفاتح وقايتباي، ومثل هذه القصة ستزيدها سوءًا، لذلك كان الاختيار صعبًا والقرار مرًا.

وبذكاء العلماء وفطنة المربين والمعلمين الأذكياء، قال الكوراني لقايتباي عندما قال له: أنا أكرمك فوق ما يفعل هو، قال له: (نعم هو كذلك) ليستل ثورة الغضب من قلب قايتباي، ويشعره بقيمة إكرامه وإحسانه، فترضى نفسه ويهدأ قلبه، ثم قال له شارحًا أسباب اختياره الرحيل إلى الدولة العثمانية: (إن بيني وبين الفاتح محبة عظيمة كما بين الوالد والولد، وهذا الذي جرى بيننا شيء آخر، وهو يعرف ذلك مني، ويعرف أني أميل إليه بالطبع فإذا لم أذهب إليه ظن وفهم أن المنع من جانبك فتزداد العداوة بينكما وتستحكم .(فاستحسن السلطان قايتباي هذا الكلام وأذن له في الرحيل، وأعطاه مالاً جزيلاً يستعين به على رحلته الطويلة.

عاد الكوراني إلى الدولة العثمانية فاستقبله الفاتح بنفسه وأظهر من مظاهر تعظيمه واحترامه ما لم يقع مثله مع الملوك والعظماء، وأعاده إلى مناصبه كلها ـ قضاء العسكر والإفتاء ـ فشغلهما قليلاً ثم نزل عنهما رغبة منه في التفرغ للعلم، وفي تلك الفترة ألف الكوراني العديد من الشروح، فشرح جمع الجوامع، وعمل تفسيرًا للقرآن كثر تعقبه فيه لجلال الدين المحلي المفسر

[صاحب تفسير الجلالين]، وشرح صحيح البخاري وعمل قصيدة في عروض اللغة نحو ستمائة بيت، وأنشأ باستانبول جامعًا كبيرًا ومدرسة علمية سماها دار الحديث، وأقبلت عليه الطلبة وانتشر علمه وطريقته في التعليم والتربية بين الناس وتقلدوها، وظل في سعادة وأتم حال حتى مات على مكانته وجلالته سنة ٨٩٣هـ وصلى عليه السلطان بايزيد الثاني بنفسه ومعه رجال الدولة وكبار الناس وعامتهم وترحموا عليه وعلى علمه.

المصادر:

-موقع علماء المسلمين -موقع طريق السلف -موقع مفكرة الإسلام.



شيخ الإسلام/ القاضي عياض

الثبات حتى المات، هو شعار علماء الأمة الربانيين، الذين لا يتنازلون عن الحق ولا يحيدون عنه قيد أنملة، مهما تقلبت بهم الأحوال، وعظمت عليهم الخطوب، فهم حماة الدين وحراس الشريعة وجند الحق، يعلمون أن أعظم المهام المنوطة بهم هي الحفاظ على معالم الدين، والتصدي للمبتدعين، ومواجهة كل دخيل ومدعي يريد أن يحرّف مفاهيم القرآن والسنة، فكم من عالم رباني قضى نحبه تحت سياط الباطل وفي سجون الطغاة، من أجل ثباته على الدين ومحافظته على الحق، وكم من عالم طورد وشرد هو وأهله من أجل أنه لا يداهن ولا يجاري، وكم من عالم طمس تاريخه وشوهت سيرته بين الناس؛ لأنه آثر مرضاة الله عز وجل على مرضاة المضللين والمحرفين، وهؤلاء العلماء كلهم شعارهم في الحياة قوله عز وجل: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾ [الأحزاب: ٢٣]، وصاحبنا هذه المرة واحد من علماء الأمة الربانيين الذين كانت حياتهم وخاتمتهم مثلاً حيًا وواضحًا وترجمة حقيقية لمعنى هذه الآية الكريمة.

التعريف به:

هو الإمام العلامة الحافظ الأوحد، شيخ الأندلس والمغرب، وفريد عصره، شيخ الإسلام، القاضي عياض بن موسى بن عياض بن عمرو اليحصبي الأندلسي ثم السبتي المالكي، وُلد سنة ٤٧٦هـ بمدينة سبتة المغربية [وهي ما زالت واقعة حتى الآن تحت الاحتلال الإسباني] وكان جده عمرو قد هاجر من الأندلس إلى المغرب أيام ملوك الطوائف وسكن مدينة سبتة وبها وُلد القاضي عياض.

لم يطلب القاضي عياض العلم في الحداثة كعادة كبار العلماء، بل طلبه بعد أن جاوز العشرين، وكان أول سماعه وطلبه للعلم إجازة مجردة من الحافظ أبي عليّ الغسّاني، ثم رحل

إلى الأندلس سنة ٥٠٣هـ وسمع من شيوخها وعلمائها، وانقطع لطلب العلم، فاستبحر من شتى العلوم؛ الحديث والفقه، وعلوم اللغة، وتمهر فيها حتى فاق معاصريه وشيوخه، وبذ الأقران، وجمع وألف، وناظر وأفتى، وسارت بتصانيفه الركبان واشتهر اسمه في الآفاق، وتولى منصب القضاء في بلده سبتة مدة طويلة حُمدت فيها سيرته، ثم نقل عنها إلى قضاء غرناطة، ومن شدة أهليته للمنصب ارتبط واقترن اسمه بلقب القاضي على الرغم من صغر سنه، فلقد تولى القضاء وله خمس وثلاثون سنة فقط.

وُلد القاضي عياض كما ذكرنا سنة ٤٧٦ بسبتة التي كانت وقتها تحت حكم دولة المرابطين العظيمة، وهذه الدولة كانت من أعظم الدوَل الإسلامية التي ظهرت في بلاد المغرب عبر عصورها جميعًا، فلقد كانت دولة مجاهدة من الطراز الأول، حققت في هذا المضمار الكثير من الفتوحات والإنجازات الخالدة، وكان لها الفضل في نشر الإسلام في غرب ووسط القارة الإفريقية، حتى أن راياتها الميمونة قد وصلت إلى منتهى نهر النيجر وبلاد الكاميرون وقلب نيجيريا، كما أنها كانت دولة بدوية ساذجة غير متلوثة بأسباب الترف المهلك، والأهم من هذا كله أنها كانت دولة سلفية المنهج والعقيدة، لا تعرف الطرق الكلامية والمذاهب البدعية إلى أهلها سبيلاً، وكان قادة وسلاطين وأمراء تلك الدولة يعظمون العلماء والفقهاء ويجلونهم، وما سقطت تلك الدولة العظيمة إلا عندما تسلل الترف والفساد إلى جنباتها.

في ظل تلك الدولة المجاهدة السلفية، وُلد ونشأ وترعرع القاضي عياض، وفي ظلها أيضًا تعلم وتمهر وتقدم في شتى العلوم، وفي ظلها أيضًا صار القاضي عياض من أعلام العلماء وكبار القضاة، ولأن تلك الدولة لم تعمّر طويلاً فإن القاضي عياض قد شاهد تلك الدولة وهي في عنفوان شبابها، وأوج قوتها، وأقصى اتساعها، ثم رآها وهي تنحدر شيئًا فشيئًا، وتظهر فيها علامات السقوط مثل الفساد والترف، ورآها أيضًا وهي تنهزم المرة بعد

الأخرى أمام جيوش أتباع مدعي المهدية ابن تومرت والملقبين بالموحدين، مما كان يؤذن بأفول شمس تلك الدولة وخروجها من ساحة الأحداث إلى ثبت الذكريات.

تولى القاضي عياض منصب القضاء سنة ٥١٠هـ في مدينة سبتة، وكان في الخامسة والثلاثين، وكانت أولى علامات الفساد بدأت في الظهور في جنبات الدولة المرابطية، وكانت تلك العلامة هي الوساطة والشفاعة لبعض الناس والمحسوبية لهم على حساب الآخرين فتصدى القاضي عياض لتلك الآفة، وسار في ولايته بمنتهى النزاهة والأمانة، وأبدى حزمًا في تطبيق الحدود والأحكام، واشتهر بين الناس بغزير علمه وحفظه، وصدق طريقته، ودقة فتياه، وحياديته الكاملة، حتى طارت شهرته في كل مكان.

تلك الشهرة بكل خير جعلت أمير المسلمين ـ وهو لقب سلطان المرابطين «علي بن يوسف بن تاشفين» ـ يوليه قضاء غرناطة بالأندلس، ليصلح من شأنها، نظرًا لانتشار المفاسد بين أهلها، وكثرة القلاقل والاضطرابات بها، فتولى القاضي عياض قضاء غرناطة في سنة ٥٣١هـ، فقام به خير قيام، وأعرض عن الشفاعات والمؤثرات، وردع أرباب الولايات وأتباع السلطان عن الباطل، وعزل كل من ثبتت عدم أهليته وكفايته من منصبه، فشرد كثيرًا من حاشية أمير الأندلس «تاشفين بن عليّ» عن أعمالهم ومناصبهم، فاستاء منه الأمير «تاشفين بن عليّ» وضاق به ذرعًا، خاصة والقاضي عياض يرفض رفضًا تامًا أي تدخل في عمله وأي محسوبية أو وساطة، حتى لو كانت من الأمير نفسه، فالقاضي عياض عالم رباني يؤثر الحق ومرضاة الخالق على ما سواهما، كائنًا ما كان، فسعى الأمير «تاشفين بن علي» عند أبيه أمير المسلمين «علي بن يوسف» حتى يصرف القاضي عياض عن منصبه، وبالفعل تم له مراده وعُزل القاضي عياض عن منصبه في رمضان سنة ٥٣٢هـ.

لم يفت هذا العزل في عضد القاضي عياض ولم ينل من مكانته ولا قدره، فعاد إلى مدينته سبتة وعكف فيها على التدريس والفتيا ونشر العلم، ثم طلب أمير المرابطين «تاشفين

ابن علي» سنة ٥٣٩هـ أن يلي منصب القضاء في سبتة، وكانت أحوال دولة المرابطين قد تدهورت بشدة، واكتسحت جيوش الموحدين معظم ولاياتها في المغرب فأراد «تاشفين بن علي» رجالاً صالحين وأشداء في تلك المناصب الحساسة لوقف تدهور الدولة المرابطية أكثر من ذلك، وسبحان الله، كم لله عز وجل في خلقه شئون؛ فتاشفين بن علي هو الذي اجتهد أول مرة لعزل القاضي عياض عن منصبه، وهو نفسه الذي اجتهدِ لإعادته لنفس المنصب، وذلك عندما احتاج لعلمه وزهده ونزاهته.

بلغ الكتاب أجله، وسقطت الدولة المرابطية العظيمة المجاهدة، لما تخلت عن أسباب قوتها وبقائها، وأخلدت إلى الأرض والترف والشهوات، وحلت محلها دولة الموحدين، وتلك الدولة كانت على النقيض من دولة المرابطين، فمؤسسها دجال ادعى المهدية اسمه «محمد بن تومرت»، وقد ابتدع لهم عقيدة خاصة بأتباعه أسماها «المرشدة» هي عبارة عن خليط من آراء المعتزلة والأشاعرة والجهمية، وقرر لهم الكثير من البدع والخرافات، وقد سلك ذلك الرجل الدجال وأتباعه مسلك القسوة المفرطة والوحشية القصوى في التعامل مع المرابطين، وسفكوا دماء مئات الآلاف من المرابطين واستحيوا نساءهم، وأبادوا مدنًا بأكملها من على وجه الأرض، حتى أن الموحدين قد قتلوا قرابة المليون مسلم من أجل إقامة دولتهم. عندما رأى القاضي عياض تلك القسوة والوحشية الدموية المفرطة في تعامل الموحدين مع خصومهم، خاف على أهل سبتة من أن يصيبهم مثل ما أصاب أهل مدينة «سلا» المغربية الذين ذبحهم الموحدون عن بكرة أبيهم عندما حاولوا مقاومتهم، ورأى أن من المصلحة أن يدخل هو وأهل سبتة في طاعة الموحدين، حتى تستقر الأمور ويرى بهدوء وروية ما يمكن عمله بعد ذلك، وبالفعل دخل القاضي عياض وأهل سبتة في طاعة الموحدين في سنة ٥٤٠هـ، وأقره الموحدون على منصب القضاء.

أخذ القاضي عياض في تسيير شئون «سبتة» حسب مقتضيات الشرع والعدل، وهو في

نفس الأمر يفكر في كيفية التصرف مع هؤلاء الخوارج المبتدعين الضالين أتباع الدجال «ابن تومرت»، ثم وقعت مذبحة «مراكش» المهولة التي لم تعرف بلاد المغرب والإسلام قبلها من نظير، وذلك عندما قام الموحدون باقتحام مدينة «مراكش» عاصمة المرابطين وآخر حصونهم وذبحوا أهلها جميعًا وكانوا بمئات الألوف، واسترقوا النساء والأطفال، ثم قاموا بعد ذلك بهدم المدينة بالكلية بدعوى أنها مدينة نجسة وأهلها مشركون [كان الموحدون يصفون المرابطين بالمجسمة والمشبهة كما هي عادة أهل الزيغ والضلال في العقيدة مع أهل السنة والجماعة أتباع عقيدة السلف الصالح.

فهدموا كل شيء حتى الجوامع والزوايا والمدارس، وجعلوا المدينة قاعًا صفصفًا، فأثرت هذه المذبحة البشعة في نفسية القاضي عياض بشدة، وأيقن أنه لا سبيل للتعامل مع هؤلاء الضلال المبتدعة، وأن مصير «سبتة» سيكون كمصير «مراكش «و«سلا» و«وهران» وغيرها من البلاد والمدن التي رفضت عقيدة ابن تومرت الضالة.

قرر القاضي عياض الاتصال بزعيم المرابطين «يحيى بن غانية» وكان الوحيد الذي بقي من كبار قادة المرابطين، وقد استطاع أن يسيطر على جزر الأندلس الشرقية «ميورقة وأخواتها»، فاتصل به القاضي عياض ونسق معه من أجل القدوم إلى مدينة» سبتة» وتسليمها إليه، على أن يعمل يحيى بن غانية على مجاهدة الموحدين وتحرير مدن المغرب من نيرهم وضلالهم، وبالفعل وافق «يحيى بن غانية» على ذلك فأعلن أهل سبتة خلع طاعة الموحدين وذلك سنة ٥٤٣هـ.

سارت الأمور على غير مراد القاضي عياض، إذ تخاذل يحيى بن غانية عن القدوم إلى سبتة في حين أسرع الموحدون إلى حصار المدينة بجيوش كثيفة، فخاف القاضي عياض على أهل المدينة من القتل والسبي، فخرج إلى الموحدين بنفسه، وقرر لهم أنه المسئول عما جرى، فحملوه إلى أمير الموحدين عبد المؤمن بن علي وكان وقتها في مراكش، فعفا عنه عبد المؤمن

وصفح عما جرى، ولكنه طلب منه أن يقر بعصمة ابن تومرت ومهديته، ويكتب بذلك كتابًا للآفاق كلها، فعلم القاضي عياض أن الموحدين قد طلبوا منه ذلك الكتاب ليكون حجة لهم ودليلاً على باطلهم، وصك شرعية من أكبر علماء المغرب والأندلس وقتها، وعلم القاضي عياض أن حياته على المحك، وأنه إذا رفض سيقتل ولابد، وعلم أيضًا أنه لو أذعن وأعطاهم ما يطلبون لضلَّ كثير من الناس، واتبعوا الموحدين في ضلالهم وعقيدتهم المبتدعة، بل وأهدر بكتابه ذلك دماء مئات الألوف من الأبرياء الذين قتلوا ظلمًا وعدوانًا بسيوف الموحدين. تراءت كل هذه المعطيات والنتائج في عقل القاضي عياض، فقرر التضحية بنفسه وإيثار مرضاة الله عز وجل وحده، وإيثار الحق والعلم الذي قضى عمره كله يدعو إليه ويقضي به وينشره بين الناس، وأعلنها مدوية أمام الموحدين المبتدعين؛ أنه لا عصمة لابن تومرت، ولا مهدية له، وأنه دجال ضال في باب العقائد والأقوال والأفعال، وأن دماء الأبرياء في رقبته ومسئول عنها يوم القيامة، وذلك يوم ٩ جمادى الآخرة سنة ٥٤٤هـ، فقام الموحدون بقتله بالرماح حتى قطعوه إربًا ثم قاموا بجمع أشلائه ودفنوها في مكان مجهول بمراكش بلا صلاة ولا غسل كأنه واحد من غير المسلمين، بل وقاموا بعد ذلك بما هو أنكى من ذلك، فأقطعوا تلك المنطقة للنصارى فبنوا بجوار قبره كنيسة وبعض الدور.

ولأن الله عز وجل ينصر رسله والذين آمنوا في الحياة والآخرة، فقد عثر على قبر القاضي عياض سنة ٧١٢هـ في عهد الدولة المرينية السنية والتي أسقطت دولة الموحدين الخبيثة، وفرح الناس والعلماء بذلك الأمر بشدة، وأمر القاضي أبو إسحاق بن الصباغ بتسوية ما حول القبر وإشهاره وإظهاره، واجتمع الناس عنده وصلوا عليه مرات كثيرة، وختموا القرآن عنده مرات كثيرة [وهذا الأمر بخلاف السنة].

والخلاصة أن القاضي عياض أعظم حفاظ المغرب والأندلس وعلمائها في عصره، وسر عظمته ليس فقط علمه الغزير وفضائله الجمة، ولكن ثباته على الحق ورغبته في إصلاح الأمة،

والتصدي أمام الباطل والطغيان، حتى ولو كان ثمن ذلك الثبات هو روحه. فرحمه الله عز وجل رحمة واسعة وأجزل له المثوبة يوم الدين.

المصادر:

-الموسوعة الشاملة للعلماء.

-موقع علماء المسلمين.

- موقع مفكرة الإسلام.



الإمام/ وكيع بن الجراح

هو الإمام المحدث، بحر العلم، وإمام الحفظ والسرد، العالم الجوَّال، والعابد المجتهد، راهب العراق، وزاهد المصرين [البصرة ـ الكوفة]، وكيع بن الجراح الرؤاسي الكوفي، محدث العراق وأحد أئمة الأثر المشهورين، وأستاذ الأئمة الشافعي وأحمد بن حنبل وغيرهم، وُلد سنة ١٢٩هـ في بيت علم ورياسة واحتشام، وأبوه كان من أعيان الكوفة وزعمائها، وكان ممن يتعانى حديث النبي صلى الله عليه وسلم، فوجه ولده وكيعًا لطلب العلم وسماع الحديث منذ صباه، فسمع من الأعمش وهشام بن عروة والأوزاعي وابن جريج وغيرهم، ثم انقطع إلى إمام الوقت وبركة الزمان سفيان الثوري، فحمل عنه علمه وسمع منه كل مروياته، حتى لقب براوية الثوري، وطاف البلاد وسمع من الأكابر، فاجتمع عنده من أسانيد الأحاديث ورواياته المختلفة ما لم يكن لأحد من معاصريه، حتى أن أستاذه الثوري كان يدعوه وهو غلام حدث فيقول: يا رؤاسيُّ، تعال، أي شيء سمعت؟ فيقول: حدثني فلان بكذا، وسفيان يبتسم، ويتعجب من حفظه، ويقول: لا يموت هذا الرؤاسيُّ حتى يكون له شأن، حتى أن سفيان نفسه على جلالة قدره وعظم مكانته في الأمة قد روى عنه الحديث، وصدقت فراسة سفيان رحمه الله، ذلك أنه لما مات سفيان الثوري سنة ١٦٦هـ جلس وكيع بن الجراح مكانه في مجلس تحديثه.

وكان وكيع بن الجراح آية من آيات الله عز وجل في الحفظ والإتقان، فلقد كان مطبوع الحفظ لا يسمع شيئًا إلا حفظه، ولا يحفظ شيئًا قط فينساه، أبهر الناس بقوة حفظه، وكان يستعين على ذلك بترك المعاصي، سأله أحد تلاميذه يومًا وهو على خشرم عن دواء يأخذه حتى يقوي حفظه، فقال: إن علمتك الدواء استعملته؟ قال: إي والله، قال: ترك المعاصي ما جربت مثله للحفظ.

وعلى الرغم من شهرة وكيع بن الجراح وإقبال الطلبة عليه وتصدره لمجلس تحديث الثوري، إلا إنه كان عابدًا، زاهدًا، يديم الصوم في السفر والحضر، لا يتركه أبدًا، يختم القرآن في الأسبوع الواحد عدة مرات، مدمنًا لقيام الليل، مشتغلاً بالأوراد والأذكار، لا يضيع لحظة من وقته هدرًا، يقسم يومه على نفع نفسه والناس، فلقد كان يجلس لأصحاب الحديث بكرة إلى ارتفاع النهار، ثم ينصرف، فيقيل، ثم يصلي الظهر، ويقصد الطريق إلى المشرعة حيث يتجمع الناس لسقيا دوابهم، فيعلمهم القرآن والفرائض وسائر ما يحتاجونه من أمور دينهم إلى حدود العصر، ثم يرجع إلى مسجده، فيصلي العصر، ثم يجلس يدرس القرآن ويذكر الله إلى آخر النهار ثم يدخل منزله، فيتناول إفطاره، وبعد صلاة العشاء يصف قدميه لقيام الليل، ثم ينام ويقوم، وهكذا حتى وقت السحر.

ولقد عرض الرشيد منصب القضاء على وكيع عدة مرات فرفض بشدة، وكان منقبضًا عن السلطان ومجالسه مثل أستاذه الثوري، بل كان مجافيًا حتى لمن يتلبس بشيء من أمور السلطان، فلقد هجر أقرب أصدقائه ـ وهو حفص بن غياث ـ لما تولى منصب القضاء، وهكذا شأن العلماء الربانيين في كل زمان ومكان

محنته:

المحنة التي تعرض لها وكيع بن الجراح، محنة غريبة، تورط فيها، بمخالفته من حيث لا يدري ألا وهو مخاطبة الناس على قدر عقولهم وفهومهم، وإن كان لم يرد إلا الخير، وأصل هذه المحنة يرجع إلى السنة التي حج فيها وكيع بن الجراح، فلما علم الناس في مكة بمجيئه وهو حافظ العراق اجتمعوا عليه وعقدوا له مجلسًا في الحديث، فأخذ وكيع في تحديثهم، فلما وصل إلى الحديث الذي رواه عن إسماعيل بن أبي خالد عن عبد الله البهي عن أبي بكر الصديق أنه جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم بعد وفاته، فأكب عليه، فقبله، وقال: «بأبي

أنت وأمي، ما أطيب حياتك وميتتك» ثم قال لعبد الله البهي: وكان ترك يومًا وليلة حتى ربا بطنه، وانثنت خنصراه. وهذا الحديث قد حكم عليه بأنه منقطع ومنكر، وعلته عبد الله البهي وهو مصعب بن الزبير وهو لم يدرك أبا بكر الصديق رضي الله عنه.

فلما سمعت قريش هذا الحديث، هاجت وماجت، وظن أهلها أن الحديث ينتقص من قدر النبي صلى الله عليه وسلم، واجتمع رجالات قريش عند واليها ـ وهو العثماني ـ وقرروا صلب وكيع بن الجراح وقتله، وقد حبسوه استعدادًا لذلك، وقيل: إن الخليفة هارون الرشيد كان حاجًا هذا العام، فلما علم بالخبر استفتى العلماء في شأنه، فأفتى ابن أبي روَّاد بقتله، واتهم وكيعًا بالنفاق والغش للنبي صلى الله عليه وسلم، ولكن الإمام سفيان بن عيينة قال: لا قتل عليه، رجل سمع حديثًا فرواه، فتركوا وكيعًا وخلوا سبيله

خرج وكيع من مكة متجهًا إلى المدينة، وندم العثماني والي مكة على تركه بشدة، وقرر أن يقتل وكيعًا بأي سبيل، فأرسل أهل مكة إلى أهل المدينة بالذي كان من وكيع وقالوا: إذا قدم عليكم، فلا تتكلوا على الوالي، وارجموه حتى تقتلوه، فلما عرف بعض علماء المدينة مثل سعيد بن منصور هذا الخبر، وعزم المدينة على قتل وكيع، أرسل إليه بريدًا عاجلاً أن لا يأتي المدينة، ويغير مساره إلى طريق الربذة، فلما وصل البريد إلى وكيع، وكان على مشارف المدينة عاد إلى الكوفة.

بعد هذه الحادثة لم يستطع وكيع بن الجراح أن يذهب إلى الحج مرة أخرى، وحيل بينه وبين مكة والمدينة، وخاض بعض الجهال في حقه، واتهموه بالتشيع والرفض، لكنه تجاسر سنة ١٩٧هـ وحج بيت الله الحرام فقدر الله عز وجل وفاته بعد رجوعه من الحج مباشرة، فمات ودفن بفيد على طريق الحج بين مكة والكوفة. فرحم الله الإمام وأسكنه فسيح جناته.

الإمام/ ابن حبّان

خلال دراستي التاريخية لأحداث وفعاليات المحن والابتلاءات التي تعرض لها علماء الأمة وجدت أن غالبية هذه المحن كانت بسبب الحسد والتعصب المذهبي، أو بسبب فتوى أو قول أو رأي قال به العالم المبتلى، أو بسبب الثبات على الحق والجهر به والتصدي للظلم والظلمة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهكذا، ولكن أن يبتلى العالم ويمتحن امتحانًا شديدًا ويكفر ويهدر دمه بسبب كلمة قالها لم يرد بها إلا الخير والحق!!! فهذه حقًا تعتبر من أعجب المحن، وهو عين ما جرى للإمام ابن حبان البستي.

التعريف به:

هو الإمام العلم العلامة، الحافظ المجود، شيخ خراسان، أحد أوعية العلم الكبار، ورجل من كبار رجالات الحديث، أبو حاتم محمد بن حبان البستي، صاحب الكتب الشهيرة والمصنفات الفائقة، ولد في مدينة بُست من أعمال سجستان في خراسان [مدينة في إيران الآن] سنة ٢٧٣هـ، فأخذ في طلب الحديث منذ بواكيره، وخرج على عادة طلاب الحديث لرحلة علمية كبيرة وواسعة لسماع الحديث من شيوخه وأعلامه في شتى أرجاء الدولة الإسلامية، فطاف أولاً أقاليم خراسان كلها ثم العراق ودخل مصر والشام والسواحل والحجاز واليمن، حتى إنه قد حمل العلم والحديث عن أكثر من ألفي شيخ، فيا لها من همة عالية رفعت لمصاف علماء الأمة الكبار وحفاظها المعروفين.

لابن حبان مكانة كبيرة ومنزلة عالية في سماء علم الحديث؛ بحيث إنه كان ممن يشد إليه الرحال لسماع كتبه وأسانيده، وقد اعترف له معاصروه ومن جاء بعده بالعلم والفضل والتقدم؛ فهذا تلميذه أبو عبد الله الحاكم وهو من كبار علماء الحديث وصاحب كتاب

المستدرك يقول عنه: (كان ابن حبان من أوعية العلم في الفقه واللغة والحديث والوعظ ومن عقلاء الرجال، وقد أقام عندنا في نيسابور وبنى الخانقاه (مثل المدرسة) وقرئ عليه جملة من مصنفاته ثم خرج إلى وطنه سجستان عام ٣٤٠هـ وكانت الرحلة إليه لسماع كتبه).

وقال عنه الحافظ أبو سعد الإدريسي: (كان ابن حبان من فقهاء الدين وحفاظ الآثار، عالمًا بالطب وبالنجوم [يقصد الفلك] وفنون العلم، وقد صنف المسند الصحيح، وقد تولى قضاء سمرقند زمانًا فنشر الفقه والعلم هناك بين الناس).

وقال عنه الخطيب البغدادي: كان ابن حبان ثقة نبيلاً فهمًا.

ولولا أن ابن حبان قد أقدم على توثيق المجاهيل في مسنده لارتفع شأن هذا المسند إلى مصاف الكتب الستة، وأيضًا لزادت مكانته ودرجته في مصاف العلم والعلماء.

محنته:

تعتبر المحنة التي تعرض لها الإمام ابن حبان وكادت تودي بحياته وتقضي على تراثه وعلمه من أعجب المحن والفتن التي يتعرض لها أحد من أهل العلم، وتدل على مدى خطورة الجهل بمعاني الألفاظ ومدلولاتها، وأيضًا تدل على مدى خطورة تحميل الألفاظ والأقوال من أوجه الكلام ما لا تحتمله ولا يتفق مع دين وعقيدة ومكانة قائلها، ويحضرنا عند الحديث عن محنة ابن حبان العجيبة مقولة الإمام مالك الشهيرة: [إذا قال الرجل قولاً يحتمل الكفر من تسعة وتسعين وجهًا والإيمان من وجه واحد حملناها على الإيمان] لأنها تكاد تنطبق على هذه المحنة الغريبة.

ومفاد الحادثة أن الإمام ابن حبان أثناء إلقائه لأحد الدروس في نيسابور سئل عن النبوة فقال: النبوة «العلم والعمل»، وكان يحضر مجلسه بعض الوعاظ فقام إليه واتهمه بالزندقة والقول بأن النبوة مكتسبة، وارتفعت الأصوات في المجلس وهاج الناس بين مؤيد للتهمة

ونافٍ لها، وخاضوا في هذا الخبر على كل وجه، حتى كتب خصوم ابن حبان محضرًا بالواقعة وحكموا عليه فيه بالزندقة ومنعوا الناس من الجلوس إليه، وهُجر الرجل بشدة، وبالغوا في أذية ابن حبان وتمادوا في ذلك حتى كتبوا في أمر قتله وهدر دمه إلى الخليفة العباسي وقتها، فكتب بالتحري عن الأمر وقتله إن ثبتت عليه التهمة، وبعد أخذ ورد اتضحت براءة ابن حبان ولكنهم أجبروه على الخروج من نيسابور إلى سجستان. وهناك وجد أن الشائعات تطارده والتهمة ما زالت تلاحقه. وتصدى له أحد الوعاظ هناك واسه يحيى بن عمار وظل يؤلب عليه حتى خرج من سجستان وعاد إلى بلده «بست»، وظل بها حتى مات رحمه الله مهمومًا محزونًا من الأباطيل وتهم الزندقة والإلحاد.

ولكن هل مجرد كلمة واحدة تجلب على هذا العلم الفذ كل هذه المتاعب؟ ونحن نقول إن هذه الكلمة وأمثالها قد تفعل مثل ذلك وزيادة إذا ألقيت على أسماع من لا يفهم معاني اللغة ومدلولاتها، وأيضًا إذا ألقيت على أسماع الحاسدين والموتورين الذين يتربصون بأمثال هذا العالم العلامة الدوائر، وينتظرون أي مناسبة وفرصة ولو بشطر كلمة للنيل منه.

فإن كلمة: النبوة العلم والعمل، يقولها المسلم ويقولها الزنديق، يقولها المسلم ويقصد بها مهم النبوة، إذ من أكمل صفات النبي العلم والعمل، فما من نبي قط إلا وهو على أكمل حال من العلم والعمل، وليس كل من برز فيهما نبيًا؛ لأن النبوة محض اصطفاء من الله عز وجل، لا حيلة للعبد في نيلها ولا اكتسابها، وابن حبان لم يرد حصر المبتدأ في الخبر، وذلك نظير قوله صلى الله عليه وسلم: «الحج عرفة» ومعلوم أن عرفة هو ركن الحج الأعظم، ولكن لا يكفي وحده حتى يصير العبد حاجًا، بل هناك أركان وفروض أخرى لشعيرة الحج، ولكن عرفة هو مهم الحج، كما أن العلم والعمل مهم النبوة وهذا ما قصده وأراده ابن حبان، وهذا ما يجب أن يحمل كلامه عليه وهذا اللائق بمكانته وعلمه، وأيضًا اللائق بخلق المسلم الصادق الذي يحسن الظن بإخوانه المسلمين.

وأيضًا هذه الكلمة يقولها الفيلسوف الزنديق وهو يقصد بها أن النبوة مكتسبة ينتجها العلم والعمل وكثرة الرياضات والمجاهدات، وهذا كفر مخالف للقرآن والسنة وإجماع المسلمين، وهذا ما لا يريده ابن حبان ولا يقصده أبدًا وحاشاه، فهو من كبار علماء الأمة وأئمتها، ولكن الجهل والحقد والحسد أعمى قلوب معارضيه حتى خاضوا فيه وأجبروه على الرحيل من مكان لآخر حتى استقر في بلده وبها مات، وما أشبه هذه الحادثة بما جرى للإمام البخاري.

فرحم الله الرجلين وأجزل لهما المثوبة وجعل من أبناء الأمة من يذبون عن أعراضهم ويدفعون عنهم الأباطيل والأكاذيب ويكشفون بطلان تهم خصومهم، ويعرفون أبناء المسلمين حقيقة علماء هذا الدين.

المصادر:

-وفيات الأعيان لابن خلكان.

-سير أعلام النبلاء للذهبي.

-معجم الأدباء لياقوت الحموي.

-الموسوعة الحرة ويكيبيديا.

❁❁❁

علماء ابتلوا بالمشقة في طلب العلم

نشطت حركة الفتح الإسلامي بعد وفاة النبي ﷺ، واتسعت رقعة الدولة الإسلامية اتساعًا عظيمًا، تحقيقًا لوعد الله بالتمكين لعباده المؤمنين، وتبع ذلك التوسع تجدد الحوادث والقضايا التي تعرض للناس، وتحتاج إلى بيان حكم الله ورسوله فيها، فانتشر الصحابة رضي الله عنهم في الآفاق ينشرون دين الله، ويبلغون أحاديث رسول الله ﷺ، ولم يكن هناك من سبيل لمعرفة حديث الصحابة، إلا بالرحلة إليهم والأخذ عنهم، فنشطت الرحلة، وتنقل العلماء من قُطر إلى قُطر، ومن بلد إلى بلد، طلبًا لحديث رسول الله ﷺ، محتملين في سبيل ذلك ما يلقونه من تعب ومشقة.

وكان لهذه الرحلات أعظم الأثر في حفظ السنة وتمحيصها وجمعها وانتشارها، فالراوي يرى من يروي عنه، ويطلع على سيرته وأحواله عن كثب، ويسأل عنه أهل بلده، فيعرف قوته من ضعفه، فضلًا عن الفوائد الأخرى للرحلة، من معرفة الطرق المتعددة للحديث الواحد، وسماع الراوي من علماء البلد الذي رحل إليه زيادات لم يسمعها من علماء بلده، ومعرفة أسباب ورود الحديث حين يلقى من سمعه مِن النبي ﷺ أو أفتاه أو قضى له به، وتحصيل علو الإسناد بالوصول إلى أخصر طريق لهذا الحديث، ووقوع المناظرات والمذاكرات بين العلماء والمحدثين حول طرق الأحاديث ورواياتها، لمعرفة القوي من الضعيف، إلى غير ذلك من الفوائد الجليلة للرحلة.

ونظرة سريعة في تراجم الرواة تدلنا على مدى المشاق والصعوبات التي لقيها هؤلاء الأئمة واستعذبوها في سبيل حفظ السنة وسماع أحاديث رسول الله ﷺ من منابعها الصحيحة ومصادرها الأصلية، مما ترتب عليه شيوع رواية الحديث بين العلماء في الأقطار المختلفة، فبعد أن كان المصري مثلًا يتحمل الحديث ويرويه عن عبد الله بن عمرو بن العاص

وغيره ممن نزل مصر أصبح يروي الحديث عن معاذ بن جبل وأبي الدرداء وابن عباس وجابر وغيرهم من الصحابة، وبعد أن كان الحديث يقع للراوي من طريق واحد أصبح يرويه من طرق عديدة، وبعد أن كانت بعض البلدان أكثر حظًا بالحديث وحَمَلته كالمدينة مثلًا، أصبحت البلدان الأخرى تتمتع برواية الحديث والعمل به في أحكامها وقضاياها وعباداتها ومعاملاتها، كل ذلك نتيجة ارتحال العلماء من بلد إلى بلد في طلب حديث رسول الله ﷺ، حتى رأينا الصحابي يرحل من المدينة التي هي بلد رسول الله وملاذ الحديث إلى مصر في طلب حديث سمعه آخرُ من النبي ﷺ.

وأخبار العلماء ورحلاتهم في ذلك كثيرة يضيق المقام بذكرها، ولا ينقضي العجب منها، وحسبنا أن نشير إلى شيء منها لنعرف عظم الجهود التي بذلها أسلافنا في جمع الحديث النبوي وحفظه وصيانته، فهذا أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه يرحل من المدينة إلى مصر ليسأل عقبة بن عامر عن حديث سمعه من النبي ﷺ، فلما قدم قال له: حدِّثنا ما سمعته من رسول الله ﷺ في ستر المسلم، لم يبقَ أحد سمعه غيري وغيرك، فلما حدَّثه ركب أبو أيوب راحلته وانصرف عائدًا إلى المدينة، وما حلَّ رحله.

وهذا جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنه بلغه حديثٌ عن صحابي بالشام سمعه من رسول الله ﷺ، فاستعظم أن يفوته شيء من حديث رسول الله ﷺ، فاشترى بعيرًا وشد عليه رحله، وسافر مسيرة شهر حتى قدم الشام، فإذا هو عبد الله بن أنيس فقال له: «حديثٌ بلغني عنك أنك سمعته من رسول الله ﷺ في القصاص، فخشيت أن تموت أو أموت قبل أن أسمعه، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:[يُحشر الناس يوم القيامة [أو قال العباد] عراة غرلًا بُهمًا .....] وذكر الحديث.

ومن بعد الصحابة سار التابعون على هذا المنوال، فكان أحدهم يخرج من بلده لا يُخرجه إلا حديث عن صحابي، يريد أن يسمعه منه مباشرة بدون واسطة، يقول أبو

العالية: «كنا نسمع الرواية بالبصرة عن أصحاب رسول الله ﷺ فلا نرضى حتى نركب إلى المدينة فنسمعها من أفواههم».

ويقول سعيد بن المسيب رحمه الله: «إن كنت لأسافر مسيرة الأيام والليالي في الحديث الواحد».

وحدَّث الشعبي رجلًا بحديث، فلما انتهى من رواية الحديث قال له: «خذها بغير شيء، قد كان الرجل يرحل فيما دونها إلى المدينة»

واستمر شأن العلماء على ذلك فيما بعد، حتى أصبحت الرحلة من ضرورات التحصيل، ومن أهم ما يتميز به المبرِّز في هذا العلم عن غيره، ولذلك لما سئل الإمام أحمد عن طالب العلم: هل يلزم رجلًا عنده علم فيكتب عنه أو يرحل إلى المواضع التي فيها العلم فيسمع منهم؟ أجاب بقوله: يرحل ويكتب عن الكوفيين والبصريين وأهل المدينة ومكة، ويشام الناس ويسمع منهم، [ويشام بمعنى يختبر].

وقال يحيى بن معين: «أربعة لا تؤنس منهم رشدًا، وذكر منهم رجلًا يكتب في بلده ولا يرحل في طلب الحديث».

فهذه الأمثلة وغيرها تبين لنا شيئًا يسيرًا مما بذله الأئمة من جهد دؤوب وعمل متواصل في أسفارهم ورحلاتهم تتبعًا للأحاديث وجمعها وتمحيصها، وهو يدل على الحرص الشديد والعناية البالغة بحديث رسول الله ﷺ، وهو أيضًا من التسخير الإلهي الذي حفظ الله به دينه وشرعه، حيث جعل من هؤلاء الأئمة أوعية لحمل سنة نبيه ﷺ، ورزقهم من الصفات التي مكَّنتهم من حفظها وصيانتها، فلم يصلنا الحديث النبوي إلا بعد أن خدمه الصحابة والتابعون والعلماء، وأوقفوا عليه حياتهم، فجزاهم الله عن أمة الإسلام خير الجزاء.

وهذه سير بعض العلماء في المشقة البالغة في طلب العلم:

قال الشافعي: لا يطلب أحد هذا العلم بالملك وعز النفس فيفلح، ولكن من طلبه بذل النفس وضيق العيش وقدمه العلماء أفلح.

وقال: لا يدرك العلم إلا بالصبر على الذل.

وقال مالك بن أنس: لا يبلغ أحد من هذا العلم ما يريد حتى يضر به الفقر ويؤثره على كل شيء.

وقال أبو حنيفه: يستعان على الفقه بجمع الهمم ويستعان على حذف العلائق بأخذ اليسير عند الحاجة ولا تزد.

وقال إبراهيم الآجري: من طلب العلم بالفاقة ورث الفهم.

وقال داود بن محراق: سمعت النضر بن شميل يقول: لا يجد الرجل لذة العلم حتى يجوع وينسى جوعه.

قال الشافعي: «طلب الراحة في الدنيا لا يصلح لأهل المروءات، فإن أحدهم لم يزل تعبان في كل زمان».

قال يحيى بن أبي كثير: «لا يستطاع العلم براحة الجسم».

سئل أحد الزهاد عن سبيل المسلم ليكون من صفوة الله، قال: «إذا خلع الراحة، وأعطى المجهود في الطاعة».

قيل للإمام أحمد: متى يجد العبد طعم الراحة؟ قال: «عند أول قدم يضعها في الجنة».

الإمام/ أبو بكر محمد بن داود

الإمام الحافظ: أبو بكر محمد ابن داود بن سليمان النيسابوري الزاهد.

قال الذهبي: هو الإمام الحافظ الرباني العابد شيخ الصوفية، كان صدوقًا حسن المعرفة، من أوعية العلم، وكان في التأله صنفًا آخر.

سئل الدارقطني عنه فقال: فاضل ثقة.

وقال الخطيب: كان ثقة فهمًا.

قال عبد الرحمن بن أبي إسحاق المزكي: سمعت أبا بكر ابن داود الزاهد يقول: كنت بالبصرة أيام القحط، فلم آكل في أربعين يومًا إلا رغيفًا واحدًا، كنت إذا جُعت قرأت «يس» على نية الشبع، فكفاني الله الجوع.



الشيخ الإمام/ أبو الحسن الكرخي

قال الذهبي: الشيخ الإمام الزاهد مفتي العراق، شيخ الحنفية، أبو الحسن عبيد الله بن الحسين بن دلال، البغدادي الكرخي الفقيه.

انتهت إليه رئاسة المذهب، وانتشرت تلامذته في البلاد، واشتهر اسمه، وبَعُد صيته، وكان من العلماء العباد ذا تهجد وأوراد وتأله، وصبر على الفقر والحاجة، وزهد تام، ووقع في النفوس، ومن كبار تلامذته أبو بكر الرازي، وعاش ثمانين سنة.

حدثني أبو القاسم ابن علان الواسطي قال: لما أصاب أبا الحسن الكرخي الفالجُ في آخر عمره، وحضر أصحابه، فقالوا: هذا مرض يحتاج إلى نفقه وعلاج، والشيخ مُقل ولا ينبغي أن نبذله للناس، فكتبوا إلى سيف الدولة ابن حمدان، فأحس الشيخ بما هم فيه، فبكى وقال: اللهم لا تجعل رزقي إلا من حيث عودتني، فمات قبل أن يُحمل إليه بشيء، ثم جاء من سيف الدولة عشرة آلاف درهم، فتُصِدّق بها عنه.



الإمام الحافظ/ الحسن بن سفيان

قال الذهبي: هو ابن عامر بن النعمان بن عطاء، الإمام الحافظ الثبت أبو العباس الشيباني الخراساني النسوي، صاحب «المسند».

حدثنا أبو الحسن الصفار الفقيه قال: كنا عند الحسن بن سفيان، وقد اجتمع إليه طائفة من أهل الفضل، ارتحلوا إليه، فخرج يومًا فقال: اسمعوا ما أقول لكم قبل الإملاء، قد علمنا أنكم من أبناء النعم، هجرتم الوطن، فلا يخطرن ببالكم أنكم رضيتم بهذا التجسم للعلم حقا، فإني أحدثكم ببعض ما تحملته في طلب العلم:

ارتحلت من وطني، فاتفق حصولي بمصر في تسعة من أصحابي طلبة العلم، وكنا نختلف إلى شيخ أروع أهل عصره في العلم منزلة، فكان يملي علينا كل يوم قليلًا، حتى خَفَّت النفقة، وبعنا أثاثنا، فطوينا ثلاثًا، وأصبحنا لا حراك بنا، فأحوجت الضرورة إلى كشف قناع الحشمة وبذل الوجه، فلم تسمح أنفسنا، فوقع الاختيار على قرعة، فوقعت عليَّ، فتحيرت وعدلت، فصليت ركعتين، ودعوت، فلم أفرغ حتى دخل المسجد شاب معه خادم، فقال: من منكم الحسن بن سفيان؟ قلت: أنا، قال: إن الأمير طولون يقرئكم السلام ويعتذر من الغفلة عن تفقد أحوالكم، وقد بعث بهذا، وهو زائركم غدًا، ووضع بين يدي كل واحد مئة دينار، فتعجبنا وقلنا: ما القصة؟

قال الشاب: دخلت عليه بكرة فقال: أحب أن أخلو اليوم. فانصرفنا، فبعد ساعة طلبني، فأتيته، فإذا به يده على خاصرته لوجع ممض اعتراه، فقال لي: تعرف الحسن بن سفيان وأصحابه؟ قلت: لا. قال: اقصد المسجد الفلاني، واحمل هذه الصُّرَر إليهم، فإنهم منذ ثلاثة أيام جياع، ومهِّد عذري لديهم. فسألته، فقال: انفردت فنمت، فرأيت فارسًا في الهواء، في يده رمح، فنزل إلى باب هذا البيت، ووضع سافلة رمحه على خاصرتي وقال: قم فأدرك الحسن بن

سفيان وأصحابه، قم فأدركهم، فإنهم منذ ثلاث جياع في المسجد الفلاني، فقلت له: من أنت؟ قال: أنا رضوان صاحب الجنة. فمنذ أصاب رمحه خاصرتي أصابني وجع شديد، فعجل إيصال هذا المال إليهم ليزول هذا الوجع عني.

قال الحسن: فتعجبنا وشكرنا الله، وخرجنا تلك الليلة من مصر لئلا نشتهر، وأصبح كل واحد منا واحد عصره، وقريع دهره في العلم والفضل.

قال: فلما أصبح الأمير طولون فأحس بخروجنا، أمر بابتياع تلك المحلة، ووقفها على المسجد، وعلى من ينزل به من الغرباء وأهل الفضل، نفقةً لهم، لئلا تختل أمورهم، وذلك كله من قوة الدين وصفاء العقيدة.



عبد الرحمن بن أبي حاتم

وعن علي بن أحمد الخوارزمي قال: سمعت عبد الرحمن بن أبي حاتم يقول: كنا بمصر سبعة أشهر لم نأكل فيها مرقة، كل نهارنا مقسم لمجالس الشيوخ وبالليل النسخ والمقابلة، قال: فأتينا يومًا أنا ورفيق لي شيخًا فقالوا: هو عليل، فرأينا في طريقنا سمكة أعجبتنا فاشتريناها، فلما صرنا إلى البيت حضر وقت مجلس، فلم يمكنا إصلاحه ومضينا إلى المجلس، فلم نزل حتى أتى عليها ثلاثة أيام وكان أن تغيرت فأكلناها نيئة، لم يكن لنا فراغ أن نعطيها من يشويها، ثم قال: لا يستطاع العلم براحة الجسد.



يعقوب بن سفيان

وعن محمد بن القاسم بن بشير: سمعت محمد بن يزيد النسوي العطار سمعت يعقوب بن سفيان يقول: كنت في رحلتي في طلب الحديث فدخلت إلى بعض المدن فصادفت بها شيخًا احتجت إلى الإقامة عليه للاستكثار عنه، وقلّت نفقتي وَبُعدتُ عن بلدي، فكنت أدمن الكتابة ليلًا وأقرأ عليه نهارًا، فلما كان ذات ليلة كنت جالسًا أنسخ وقد تصرَّم الليل، فنزل الماء في عيني فلم أبصر السراج ولا البيت فبكيت على انقطاعي وعلى ما يفوتني من العلم، فاشتد بكائي حتى اتكأت على جنبي، فنمت فرأيت النبي ﷺ في النوم فناداني:

يا يعقوب بن سفيان! لِمَ أنت بكيت؟ فقلت: يا رسول الله! ذهب بصري، فتحسرت على ما فاتني من كتب سننك، وعلى الانقطاع عن بلدي. فقال: ادنُ مني فدنوت منه، فأمرّ يده على عيني كأنه يقرأ عليهما، قال: ثم استيقظت فأبصرت، وأخذت نسخي، وقعدت في السراج أكتب.

❁❁❁

الإمام/ إبراهيم الحربي

قال الخطيب البغدادي: قال إبراهيم الحربي: أفنيت من عمري ثلاثين سنة برغيفين، إن جاءتني بهما أمي وأختي أكلت، وإلا بقيت جائعًا عطشان إلى الليلة الثانية، وأفنيت ثلاثين سنة من عمري برغيف في اليوم والليلة إن جاءتني امرأتي أو إحدى بناتي به أكلته، وإلا بقيت جائعًا عطشان إلى الليلة الأخرى. والآن آكل نصف رغيف وأربع عشرة تمرة إن كان بُرنيًا، أو نيف وعشرين إن كان دقلًا، ومرضت ابنتي فمضت امرأتي فأقامت عندها شهرًا فقام إفطاري في هذا الشهر بدرهم ودانقين ونصف! ودخلت الحمام واشتريت لهم صابونًا بدانقين، فقامت نفقة شهر رمضان كله بدرهم وأربعة دوانق ونصف.

قال أبو علي الخياط المعروف بالميت: كنت يومًا جالسًا مع إبراهيم الحربي على باب داره، فلما أن أصبحنا قال لي: يا أبا علي! قم إلى شغلك، فإن عندي فجلة قد أكلت البارحة خضرها، أقوم أتغدى بجزرتها.

ثم ساق الخطيب البغدادي بسنده إلى أبي القاسم بن الجبلي قال: اعتل إبراهيم الحربي علة حتى أشرف على الموت، فدخلت إليه يومًا فقال لي: يا أبا القاسم! أنا في أمر عظيم مع ابنتي، ثم قال لها: قومي اخرجي إلى عمك، فخرجت وألقت على وجهها خمارها، فقال لها إبراهيم: هذا عمك كلِّميه فقالت لي: يا عم! نحن في أمر عظيم! لا في الدنيا ولا في الآخرة! الشهر والدهر ما لنا طعام إلا كسر يابسة وملح، وربما عدمنا الملح! وبالأمس قد وجه إليه المعتضد مع بدر ألف دينار فلم يأخذها! ووجه إليه فلان وفلان فلم يأخذ منهما شيئًا ! وهو عليل!

فالتفت إبراهيم إليها وتبسم فقال لها: يا بنية! إنما خفت الفقر؟ قالت: نعم، فقال لها: انظري إلى تلك الزاوية، فنظرت فإذا كُتب، فقال: هناك اثنا عشر ألف جزء لغة وغريب، كتبتها بخطي، إذا مت فوجِّهي كل يوم بجزء تبيعينه بدرهم، فمن كان عنده اثنا عشر ألف درهم فليس هو بفقير.

عبد الله بن فروخ

جاء في ترجمة عبد الله بن فروخ الفارسي القيرواني قال: لما أتيت الكوفة وأكثر أملي السماع من سليمان بن مهران الأعمش، فسألت عنه، فقيل لي: غضب على أصحاب الحديث فحلف أن لا يسمعهم مُدة، فكنت أختلف إلى باب داره لعلي أصل إليه؟ فلم أقدر على ذلك، فجلست يومًا على بابه وأنا متفكر في غربتي وما حُرمته من السماع منه! إذ فتحت جارية بابه يومًا، وخرجت منه، فقالت لي: ما بالك على بابنا؟ فقلت: أنا رجل غريب وأعلمتها بخبري، قالت: وأين بلدكم؟ قلت: إفريقية، فانشرحت إليَّ، وقالت: تعرف القيروان؟ قلت: أنا من أهلها، قالت: تعرف دار ابن فروخ؟ قلت: أنا هو، فتأملتني، ثم قالت: عبد الله؟ قلت: نعم، وإذا هي جارية كانت لنا بعناها صغيرة، فسارعت إلى الأعمش وقالت له: إن مولاي الذي كنت أخبرك بخبره بالباب، فأمرها بإدخالي فدخلتُ، وأسكنني بيتًا قبالة بيته، فسمعت منه وحدثني وقد حُرم سائر الناس، إلى أن قضيت أربي منه.

وذكر المالي عنه أنه رحل قديمًا فلقي الشيوخ والفقهاء، وسمع من أبي حَنيفة مسائل كثيرة غير مدونة، يقال: إنها عشر آلاف مسألة، وذكر أنه قال سقطت أجرة من أعلى دار أبي حنيفة وأنا عنده على رأسي فأدمي؟ [أي سال الدم]، فقال أبي حنيفة: اختر الأرش [أي الدية] أو ثلاث مئة حديث؟ قلت: الحديث، فحدثني.

❁❁❁

أبو الحسن القطان



- قال ياقوت الحموي في ترجمة أبي الحسن القطان القزويني: عاش ٩١ سنة، وارتحل في هذا الشأن، وكتب كثيرًا عن خلائق من الشيوخ في البلدان، وهو الذي روى عن ابن ماجه «سننه»، وروى عنه من العلماء من لا يحصون كثرة.

❁ ❁ ❁

أبو الحسن بن إبراهيم

وقال أبو يعلى الخليلي: أبو الحسن بن إبراهيم عالم بجميع العلوم والتفسير والنحو واللغة والفقه، لم يكن له نظير دينًا وديانة وعبادة، سمع أبا حاتم الرازي، ارتحل إليه ثلاث سنين، وسمع خلقًا كثيرًا من القزوينيين والرازيين والبغداديين وأهل الكوفة ومكة وصنعاء اليمن وهمذان وحلوان ونهاوند، وعمّر حتى أدركه الأحداث.

سمعت جماعة من شيوخ قزوين يقولون: لم ير أبو الحسن مثل نفسه في الفضل والزهد، أدام الصيام ثلاثين سنة، وكان يفطر على الخبز والملح.

جابر بن عبد الله

وهذا جابر بن عبد الله رحل مسيرة شهر إلى عبد الله بن أنيس في حديث واحد، روى البخاري في «الأدب المفرد» أن جابر بن عبد الله قال: بلغني حديث عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فابتعت بعيرًا، فشددت إليه رحلي شهرًا، حتى قدمت الشام، فإذا عبد الله بن أنيس، فبعثت إليه أنَّ جابرًا بالباب فرجع الرسول فقال: جابر بن عبد الله !! فقلت: نعم . فخرج فاعتنقني، قلت: حديث بلغني لم أسمعه خشيت أن أموت أو تموت .... فذكر الحديث.

❁❁❁

الحافظ الجوال/ ابن منده

بدأ الرحلة في طلب العلم وهو ابن عشرين سنة، ورجع وهو ابن خمس وستين سنة، ولما عاد إلى وطنه تزوج - وهو ابن ٦٥ سنة !! -، ورزق الأولاد، وحدَّث بالكثير. وقد قال رَحِمَهُ اللَّهُ: طفت الشرق والغرب مرتين.

وقال زكريا بن منده: كنت مع عمي عبد الله في طريق نيسابور، فلما بلغنا بئر مجة، حكى لي عمي قال: كنت قافلًا من خراسان مع أبي، فلما وصلنا إلى هنا، إذ نحن بأربعين وقرًا من الأحمال، فظننا أن ذلك ثياب، فإذا خيمة صغيرة فيها شيخ، وإذا هو والدك! فسأله بعضنا: ما هذه الأحمال؟

فقال: هذا متاع قلَّ من يرغب فيه في هذا الزمان، هذا حديث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم ذكر لي عمي بعد ذلك فقال: كنت قافلًا من خراسان ومعي عشرون وقرًا من الكتب، فنزلت فيها عند البئر، اقتداء بالوالد.



الحافظ الجوال/ ابن طاهر المقدسي

قال أبو مسعود عبد الرحيم الحاجي: سمعت ابن طاهر المقدسي يقول: بلت الدم في طلب الحديث مرتين: مرة ببغداد ومرة بمكة المكرمة، كنت أمشي حافيًا في الحر فلحقني ذلك، وما ركبت دابة قط في طلب الحديث إلا مرة واحدة، وكنت أحمل كتبي على ظهري إلى أن استوطنت البلاد، وما سألت في حال الطلب أحدًا، كنت أعيش على ما يأتي من غير سؤال.

ورحلت من طوس إلى أصبهان لأجل حديث أبي زرعة الرازي، الذي أخرجه مسلم في الصحيح، ذاكرني به بعض المحدثين الرحالة بالليل، فلما أصبحت شددت عليَّ رحلي وخرجت إلى أصبهان، ولم أحلل عنه حتى دخلت على الشيخ أبي عمرو، فقرأته عليه عن أبيه عن أبي بكر القطان عن أبي زرعة، ودفع إليَّ أبو عمرو ثلاثة أرغفة وكمثراتين، وما كان وقع إليَّ تلك الليلة قوتي، ولم يكن لي قوت غيره، ثم لزمته إلى أن حصل ما كنت أريد، ثم خرجت إلى بغداد، فلما عُدت إلى أصبهان كان قد توفي.

وكنت يومًا أقرأ علَى أبي إسحاق الحبال بمصر [جزءًا]، فجاءني رجل من أهل بلدي من بيت المقدس، وأسرَّ إليَّ كلامًا قال فيه: إن أخًا لك قد وصل من الشام، وذلك بعد دخول الأتراك بيت المقدس وقتل الناس بها، فأخذت في القراءة فاختلطت ولم يُمكني أن أقرأ! فقال لي أبو إسحاق: مالك؟ قلت: خير، قال: لابد أن تخبرني ما قال لك هذا الرجل، فأخبرته، فقال لي: وكم لك لم تر أخاك؟ قلت: سنين، قال: ولم لا تذهب إليه؟ قلت: حتى أُتم [الجزء]، فقال: ما أعظم حرصكم يا أصحاب الحديث؟ قد تم المجلس وصلى الله على محمد، وانصرف.

وأقمت بتنيس مدة على أبي محمد ابن الحداد ونظرائه، فضاق بي الحال، ولم يتبقَ معي غير درهم! وكنت في ذلك اليوم أحتاج إلى خبز وإلى ورق للكتابة، فكنت أتردد إن صرفته في

الخبز لم يكن في ورقة للكتابة، وإن صرفته في الورق لم يكن لي خبز، ومضى على هذا ثلاثة أيام ولياليهن لم أطعم فيها!

فلما كان بكرة اليوم الرابع قلت في نفسي: لو كان لي ورق لم يمكنني أن أكتب فيه شيئًا لما بي من الجوع، فجعلت الدرهم في فمي، ورجعت لأشتري الخبز، فبلعت الدرهم، ووقع عليَّ الضحك! فلقيني أبو طاهر ابن خطاب الصائغ المواقيتي بتنيس وأنا أضحك! فقال: ما أضحكك؟ قلت: خير، فألحَّ عليَّ وأبيت أن أخبره، فحلف بالطلاق: لتصدقني لِمَ تضحك؟ فأخبرته، فأخذ بيدي وأدخلني منزله، وتكلف لي في ذلك اليوم ما أَطْعَمُه.

فلما كان وقت الظهر خرجت أنا وهو إلى الصلاة، فاجتمع به بعض وكلاء عامل كان بتنيس يُعرف بابن قادوس، فسأله عني فقال: هو هذا، فقال: إن صاحبي [أي أمير تنيس] أمرني أن أوصل إليه كل يوم عشرة دراهم قيمتها ربع دينار، وسهوت عنه، فأخذ منه ثلاث مئة درهم وجاءني وقال: قد سهل الله رزقًا لم يكن في الحساب، وأخبرني بالقصة، فقلت: يكون عندك ونكون على ما نحن عليه من الاجتماع إلى وقت خروجي، فإنني وحدي، وليس لي من يقوم بأمري ففعل، وكان بعد ذلك يصلني ذلك القدر إلى أن خرجت إلى الشام.

قال السمعاني: سمعت بعض المشايخ يقول: كان محمد بن طاهر يمشي في ليلة واحدة قريبًا من سبعة عشر فرسخًا [أكثر من خمسة كيلو مترات]، وكان يمشي على الدوام بالليل والنهار عشرين فرسخًا، وكان داودي المذهب [أي: ظاهري المذهب]، وهو أحد الرحالين في طلب الحديث.

يقول الحافظ: كتبت «صحيح البخاري، ومسلم، وأبي داود» سبع مرات بالوراقة [أي بالأجرة]، وكتبت «سنن ابن ماجه» عشر مرات بالوراقة سوى التفاريق بالري.

الإمام/ السيوطي

كان السيوطي ممن سافر في رحلات علمية ليلتقي بكبار العلماء، فسافر إلى عدد من الأقاليم في مصر كالفيوم ودمياط والمحلة وغيرها، وسافر إلى بلاد الشام واليمن والهند والمغرب والتكرور [تشاد حاليًا]، ورحل إلى الحجاز وجاور بها سنة كاملة، وشرب من ماء زمزم، ليصل في الفقه إلى رتبة سراج الدين البلقيني، وفي الحديث إلى رتبة الحافظ ابن حجر العسقلاني. ولما اكتملت أدوات السيوطي جلس للإفتاء سنة [٨٧١ هـ،١٤٦٦م]، وأملى الحديث في العام التالي، وكان واسع العلم غزير المعرفة، يقول عن نفسه: «رُزقت التبحر في سبعة علوم: التفسير والحديث والفقه والنحو والمعاني والبيان والبديع»، بالإضافة إلى أصول الفقه والجدل، والقراءات التي تعلمها بنفسه، والطب، غير أنه لم يقترب من علمي الحساب والمنطق. ويقول: «وقد كملت عندي الآن آلات الاجتهاد بحمد الله، أقول ذلك تحدثًا بنعمة الله، لا فخرًا، وأي شيء في الدنيا حتى يطلب تحصيلها في الفخر؟!». وكانت الحلقات العلمية التي يعقدها السيوطي يُقْبِل عليها الطلاب، فقد عُيّن في أول الأمر مدرسًا للفقه بالشيخونية، وهي المدرسة التي كان يلقي فيها أبوه دروسه من قبلُ، ثم جلس لإملاء الحديث والإفتاء بجامع ابن طولون، ثم تولى مشيخة الخانقاه البيبرسية التي كانت تمتلئ برجال الصوفية. وقد نشب خلاف بين السيوطي وهؤلاء المتصوفة، وكاد هؤلاء المتصوفة أن يقتلوا الرجل، حينئذ قرر أن يترك الخانقاه البيبرسية، ويعتزل الناس ومجتمعاتهم، ويتفرغ للتأليف والعبادة.

❁ ❁ ❁

الحافظ/ محمد بن إسحاق

قال الحافظ العراقي في «شرح ألفيته» (٢/ ٢٣٣) روينا عنه قال: كتبت عن ستة آلاف شيخ.

وقال الذهبي: عد شيوخه الذين سمع منهم وأخذ عنهم ألف وسبع مئة شيخ، وكتب بيده عدة أحمال. ولما رجع من الرحلة الطويلة، كانت كتبه عدة أحمال، حتى قيل: إنها كانت أربعين حملًا، وما بلغنا أن أحدًا من هذه الأمة سمع ما سمع، ولا جمع ما جمع، وكان ختام الرحالين وفرد المكثرين، مع الحفظ والمعرفة والصدق وكثرة التصانيف. قال جعفر المستغفري: سألته كم تكون سماعات الشيخ؟ قال: تكون خمسة آلاف صن، قلت[القائل الذهبي]: والصن يجيء عشرة أجزاء كبار.

وأول ارتحاله كان قبل سنة ٣٣٠هـ إلى نيسابور، قال الحاكم: التقينا ببخاري سنة ٣٦١هـ وقد زاد زيادة ظاهرة، ثم جاءنا إلى نيسابور سنة خمسة وسبعين ذاهبًا إلى وطنه، فرحل وعمره عشرون سنة، ورجع وعمره خمس وستون سنة، وكانت رحلته خمس وأربعين سنة، ثم عاد إلى وطنه شيخًا، فتزوج وهو ابن خمس وستين سنة ورُزق الأولاد وحَدَّث بالكثير .



ابن الخشاب

قال ابن النجار: اشترى ابن الخشاب يومًا كتبًا بخمسمائة دينار، ولم يكن عنده شيء، فاستمهلهم ثلاثة أيام، ثم مضى ونادى على داره، فبلغت خمسمائة دينار، فنقد صاحبها وباعه بخمسمائة دينار، ووفَّى ثمن الكتب، وبقيت له الدار، ولما مرض أشهد عليه بوقف كتبه، فتفرقت وبِيعَ أكثرها ولم يبقَ إلا عشرها، فتركت في رباط المأمونية وقفًا.

قال الحافظ عبد القادر الرهاوي: وكان الحسن بن أحمد أبو العلاء العطار إمامًا في النحو واللغة. سمعت أن من جملة ما حفظ في اللغة كتاب «الجمهرة»، وخرج له تلامذة في العربية أئمة يقرأون بهمدان، وبعض أصحابه رأيته.

الإمام/ طلحة بن مظفر

قال الإمام طلحة بن مظفر العلثي: بيعت كتب ابن الجواليقي في بغداد، فحضرها الحافظ أبو العلاء الهمداني، فنادوا على قطعة منها: ستين دينارًا، فاشتراها الحافظ أبو العلاء بستين دينارًا، والإنظار من يوم الخميس إلى يوم الخميس، فخرج الحافظ، واستقبل طريق همدان، فوصل فنادى على دار له، فبلغت ستين دينارًا، فقال: بيعوا قالوا: تبلغ أكثر من ذلك. قال: بيعوا، فباعوا الدار بستين فقبضها، ثم رجع إلى بغداد، فدخلها يوم الخميس، فوفى ثمن الكتب، ولم يشعر أحد بحاله إلا بعد مدة.



يحيى بن معين

شيخ البخاري ومسلم وسواهما من أئمة الحديث، ولد في خلافة المنصور أبي جعفر، وكان أبوه معين كاتبًا لعبد الله بن مالك، ثم صار على خراج الري فمات، فخلَّف لابنه يحيى ألف ألف درهم وخمسين ألف درهم أنفقها كلها يحيى على الحديث حتى لم يبقَ له نعل يلبسه.

محمد بن رافع النيسابوري

بعث إليه الأمير طاهر بن عبد الله الخزاعي بخمسة آلاف درهم على يد رسول له، فدخل عليه بعد صلاة العصر وهو يأكل الخبز مع الفجل، فوضع الكيس بين يديه، وقال: بعث الأمير طاهر بهذا المال لتنفقه على أهلك، فقال له: خذ خذ، لا أحتاج إليه، فإن الشمس قد بلغت الحيطان، إنما تغرب بعد ساعة، قد جاوزت الثمانين، إلى متى أعيش؟ فرد المال ولم يقبله، فأخذ الرسول المال وذهب، فدخل عليه ابنه، وقال له: يا أبه ليس لنا خبز الليلة! وكان محمد يخرج إلينا في الشتاء الشاتي وقد لبس لحافه الذي يلبس بالليل.

الحجاج ابن الشاعر

يقول: جمعت لي أمي مئة رغيف، فجعلتها في جراب، وانحدرت إلى شبابة بالمدائن، فأقمت مئة يوم ببابه أجيء بالرغيف فأغمسه في دجلة وآكله، فلما نفدت خرجت.

❁ ❁ ❁



أبو حاتم إدريس الرازي

يقول عند ذكر رحلته في طلب العلم: أول ما خرجت في طلب الحديث أقمت سبع سنين أحصيت ما مشيت على قدمي زيادة على ألف فرسخ [الفرسخ بمشي القدم نحو ساعة ونصف أو نحو خمسة كيلومترات] لم أزل أحصي حتى لما زاد على ألف فرسخ تركته.

وأما ما كنت سرت أنا من الكوفة إلى بغداد فما لا أحصي كم مرة، ومن مكة إلى المدينة مرات عديدة، وخرجت من البحر من قرب مدينة سلا [وذلك في المغرب الأقصى] إلى مصر ماشيًا، ومن مصر إلى الرملة ماشيًا، ومن الرملة إلى بيت المقدس، ومن الرملة إلى عسقلان، ومن الرملة إلى طبرية، ومن طبرية إلى دمشق، ومن دمشق إلى حمص، ومن حمص إلى إنطاكية، ومن إنطاكية إلى طرسوس، ثم رجعت من طرسوس إلى حمص، وكان بقي عليَّ شيء من حديث أبي اليمان فسمعته، ثم خرجت من حمص إلى بيسان، ومن بيسان إلى الرقة، ومن الرقة ركبت الفرات إلى بغداد، وخرجت قبل خروجي إلى الشام من واسط إلى النيل، ومن النيل إلى الكوفة كل ذلك ماشيًا، هذا في سفري الأول وأنا ابن عشرين سنة أجول سبع سنين.

وبقيت بالبصرة في سنة أربع عشرة ومائتين ثمانية أشهر، وكان في نفسي أن أقيم سنة، فانقطعت نفقتي، فجعلت أبيع ثياب بدني شيئًا بعد شيء، حتى بقيت بلا نفقة، ومضيت أطوف مع صديق لي إلى المشيخة وأسمع منهم إلى المساء، فانصرف رفيقي ورجعت إلى بيت خالٍ فجعلت أشرب الماء من الجوع.

وخرجت المرة الثانية سنة اثنتين وأربعين، ورجعت سنة خمس وأربعين، أقمت ثلاث سنين وكانت سني في هذه الرحلة سبع وأربعين سنة.

محمد بن المسيب الأرغياني

حكى أبو علي الحافظ النيسابوري قال: كان محمد بن المسيب يمشي بمصر وفي كمه مئة ألف حديث، فقيل لأبي علي: كيف كان يمكن هذا؟ قال: كانت أجزاؤه صغارًا بخط دقيق، في كل جزء ألف حديث معدودة، وكان يحمل معه مئة جزء، فصار هذا كالمشهور من شأنه، وكان إذا قرأ الحديث وقال: قال رسول الله ﷺ بكى حتى نرحمه! وعمي من كثر البكاء.

محمد بن نصر المروزي

قال: أقمت بمصر كذا وكذا سنة، فكان قوتي وثيابي وكاغدي [أي ورقي] وحبري وجميع ما أنفقته في السنة عشرين درهمًا.

أبو جعفر الترمذي

قال إبراهيم بن السري إنه كان يجري على أبي جعفر في الشهر أربعة دراهم يتقوت بها، وكان لا يسأل أحدًا شيئًا.

وقال محمد بن موسى البربري: أخبرني أنه تقوت في سبعة وعشرين يومًا بخمس حبات، قلت له: كيف عملت؟ فقال: لم يكن عندي غيرها فاشتريت بها لفتًا، وكنت آكل كل يوم واحدة.



أبو جعفر أحمد بن عبد الرحمن القصري

يقول عنه أبو بكر المالكي: وصل إلى مدينة سوسة برسم زيادة يحيى بن عمر، فوجده ألف كتابًا، فلم يجد ما يشتري به ورقًا يكتبه فيه، فباع قميصه الذي كان عليه واشترى بثمنه رقوقًا، وكتب الكتاب وقابله، وأتى به معه إلى القيروان.

أبو سعيد السيرافي

كان زاهدًا لا يأكل إلا من كسب يده، ولا يخرج من بيته إلى مجلس الحكم، ولا إلى مجلس التدريس في كل يوم، إلا بعد أن ينسخ عشر ورقات، يأخذ أجرها عشرة دراهم تكون قدر مؤونته، وكان حسن الخط ثم يخرج إلى مجلسه، وكان نزيهًا عفيفًا جميل الطريقة حسن الأخلاق.

❁❁❁

أبو بكر ابن أحمد البغدادي [ابن الخاضبة]

يقول: وقعت داري على قماشي وكتبي ولم يكن في شيء، وكانت عندي عائلة: الوالدة والزوجة والبنات، فكنت أنسخ وأنفق عليهن، فأعرف أني كتبت «صحيح مسلم» في تلك السنة سبع مرات، فلما كانت ليلة من الليالي رأيت في النوم كأن القيامة قامت ومنادٍ ينادي: أين ابن الخاضبة؟ فأُحضرت، فقيل لي: ادخل الجنة، فلما دخلت الباب وصرت من الداخل استلقيت على قفاي، ووضعت إحدى رجلي على الأخرى، وقلت: استرحت والله من النسخ.

كان ابن الخاضبة يحترف نسخ الكتب ويتعيش به، فقد كان لنسخ الكتب في كل بلد علمي أُناس متفرغون له متمرسون به، وكانت النساخة حرفة وعملًا بمنزلة المطابع في عصرنا، فكان الناسخون يرتزقون بالنسخ ويسهلون على العلماء اقتناء الكتب وتعدُّد نسخها.



ظفر الصقلي المكي الحموي

ولد في صقلية، ونشأ بمكة المكرمة، وتنقل في البلاد، فدخل المغرب، وجال في إفريقية والأندلس، وأقام بالمهدية مدة، وشاهد بها حروبًا مع الفرنج، وأخذت من المسلمين وهو هناك، ثم انتقل إلى صقلية، ثم إلى مصر، ثم إلى حلب، وأقام بمدرسة ابن أبي عصرون، وصنف فيها تفسيرًا كبيرًا، ثم جرت فتنة بين الشيعة والسنة، فنُهبت كتبه فيما نُهِبَ، فقصد مدينة حماه واستوطنها.

كان عالما صالحًا ورعًا زاهدًا، مشتغلًا بما يعنيه، صابرًا على ما هو فيه، وصنف التصانيف الجميلة في أنواع الأدب، وفسر القرآن الكريم تفسيرًا جميلًا في مصنف سماه «الينبوع» وترك من التآليف نحو ثلاثين كتابًا فيها الفريد والعجيب.

وزوَّج ابنته من الحاجة والضررة بغير كفء، فرحل بها الزوج عن حماه وباعها في بعض البلاد!! ولقي هو قبولًا في حماه فاستقر بها، وأفاد الطلبة، وأُجرى له راتب وكان دون الكفاف، فلم يزل يكابد الفقر إلى أن مات.

❁ ❁ ❁

كمال الدين أبو البركات الأنباري

قال عند تلميذه الموفق ابن عبد اللطيف البغدادي: لم أر في العباد المنقطعين أقوى منه في طريقه، ولا أصدق منه في أسلوبه، جد محض لا يعتريه تصنع ولا يعرف الشرور، ولا أحوال العالم، كان له من أبيه دار يسكنها وحانوت مقدار أجرتها نصف دينار في الشهر، يقنع به، ويشتري منه ورقًا، وسيَّر له الخليفة المستضيء خمس مئة دينار فردها، فقالوا له: اجعلها لولدك، فقال: إن كنت خلقته فأنا أرزقه، وكان لا يوقد عليه ضوءًا، وتحته حصير قصب، وعليه ثوب وعمامة من قطن يلبسها يوم الجمعة، وكان لا يخرج إلا للجمعة، ويلبس في بيته ثوبًا خَلَقًا، وله مئة وثلاثون مصنفًا، ومنها كتابه المشهور «نزهة الألباء في طبقات الأدباء».





الإمام/ أبو موسى عيسى بن عبد العزيز الجزولي

كان إمامًا في علم النحو، كثير الاطلاع على دقائقه وغريبه وشاذه، حج ولازم عبد الله بن بري بمصر، وأتقن العربية واللغة، وسمع «صحيح البخاري» من أبي محمد ابن عبد الله، ثم رجع إلى بلاد المغرب، أقام بمدية بجاية مدة، وتصدر بالمرية وغيرها، وتخرج به أئمة وخلق كثير، وكان إمامًا لا يُجارى، وعلَّامة لا يشق غباره في النحو، مع جودة التفهيم وحسن العبارة.

قال الذهبي: وقرأت بخط محمد بن عبد الجليل الموقاني أن الجزولي قاسى بمدة مقامه بمصر كثيرًا من الفقر، ولم يدخل مدرسة، وكان يخرج إلى الضِّيَاع يوْم القوم، فيحصل ما ينفقه في غاية الصبر.

ورجع إلى المغرب فقيرًا مدقعًا، فلما وصل إلى المرية أو نحوها، رهن كتاب ابن السراج الذي قرأه على ابن بري وعليه خطه! فأنهى المرتهن أمره إلى الشيخ أبي العباس المغربي أحد الزهاد بالمغرب، وكان يصاحب بني عبد المؤمن، فأنهى أبو العباس ذلك إلى السلطان، فأمر بإحضاره وقدمه وأحسن إليه.



الإمام/ ابن المقرئ محمد بن إبراهيم الأصبهاني

يقول: كنت أنا والطبراني وأبو الشيخ - ابن حبان - بالمدينة فضاق بنا الوقت، يعني فراغ أيديهم من النفقة، فواصلنا ذلك اليوم [أي: صاموا ذلك اليوم إلى صيام اليوم الذي قبله]، فلما كان وقت العشاء، حضرت القبر وقلت: يا رسول الله الجوع! فقال لي الطبراني: اجلس! فإما أن يكون الرزق أو الموت! فقمت أنا وأبو الشيخ [أي: قاما يصليان لله تعالى] فحضر الباب علوي ففتحنا له، فإذا معه غلامان بقفتين فيهما شيء كثير، وقال: شكوتموني إلى النبي ﷺ، رأيته في النوم، فأمرني بحمل شيء إليكم.



الشيخ/ عبد القادر الجيلاني

يقول الشيخ: كنت أقتات بخزنوب الشوك، وقمامة البقل وورق الخس من جانب النهر والشط، وبلغت الضائقة في غلاء نزل ببغداد إلى أن بقيت أيامًا لم آكل فيها طعامًا، بل كنت أتتبع المنبوذات أطعمها، فخرجت يومًا من شدة الجوع إلى الشط لعلي أجد ورق الخس أو البقل، أو غير ذلك فأتقوت به! فما ذهبت إلى موضع إلا وغيري قد سبقني إليه! وإن وجدت أجد الفقراء يتزاحمون عليه فأتركه حُبًا.

فرجعت أمشي وسط البلد، فما أُدرك منبوذًا إلا وقد سُبقت إليه، حتى وصلت إلى مسجد ياسين بسوق الرياحين ببغداد، وقد أجهدني الضعف، وعجزت عن التماسك، فدخلت إليه وقعدت في جانب منه، وقد كدت أصافح الموت! إذ دخل شاب أعجمي ومعه خبز صافي وشواء وجلس يأكل، فكنت أكاد كلما رفع يده باللقمة أفتح فمي من شدة الجوع، حتى أنكرت ذلك على نفسي، فقلت: ما هذا؟ وقلت: ما هاهنا إلا الله أو ما قضاه من الموت!

إذ التفت إليَّ العجمي فرآني فقال: بسم الله يا أخي، فأبيت فأقسم عليَّ فبادرت نفسي فخالفتها، فأقسم أيضًا فأجبته فأكلت متقاصرًا، فأخذ يسألني: ما شغلك؟ ومن أين أنت؟ وبمن تعرف؟ فقلت: أنا متفقه من جيلان، فقال: وأنا من جيلان، فهل تعرف شابًا جيلانيًا يسمى عبد القادر، يُعرف بسبط أبي عبد الله الصومعي الزاهد؟ فقلت: أنا هو! فاضطرب وتغير وجهه، وقال: والله! لقد وصلت إلى بغداد ومعي بقية نفقة لي، فسألت عنك فلم يرشدني أحد، ونفدت نفقتي ولي ثلاثة أيام لا أجد ثمن قوتي إلا ما كان لك معي، وقد حلت لي الميتة، وأخذت من وديعتك هذا الخبز والشواء، فكُلْ طيبًا، فإنما هو لك وأنا ضيفك الآن بعد أن كنت ضيفي، فقلت له: وما ذاك؟ فقال: أمك وجهت لك معي ثمانية دنانير، فاشتريت منها للاضطرار، فأنا معتذر إليك، فسكنته وطيبت نفسه، ودفعت إليه باقي الطعام وشيئًا من الذهب برسم النفقة فقبله وانصرف.

الإمام/ زيد بن الحباب الخراساني

يقول عنه الذهبي: جال في طلب العلم من مرو الشاهجان [من أقصى المشرق] وإلى مصر حتى قيل: إنه دخل إلى الأندلس.

وقال عنه أحمد بن حنبل: صاحب حديث، كيس، قد رحل إلى مصر وخراسان في الحديث، ما كان أصبره على الفقر.

وقال علي بن حرب: أتينا زيد بن الحباب فلم يكن له ثوب يخرج فيه إلينا، فجعل الباب بيننا وبينه حاجز وحدثنا من ورائه رَحِمَهُ اللَّهُ.



الإمام/ أسد بن الفرات

جاء في «طبقات المالكية» في ترجمته: رحل به والـده وعمـره عامـان مـع الجنـد بقيـادة ابن الأشعث ودخل معه القيروان سنة ١٤٦ هـ، ثـم دخـل تـونس وانقطـع لقـراءة القـرآن وعلومه، وروى «الموطأ» عن ابن زياد، وفي الثامنة عشر مـن عمـره رحـل للمـشرق، وأقـام بالمدينة مدة، وأعاد رواية «الموطأ» على مالك.

ثم رحل للعراق ولقي أعلامًا من أصـحاب أبي حنيفـة، مـنهم الإمامـان أبـو يوسـف ومحمد بن الحسن، وأخذ عنهما علمًا غزيرًا، وتفقه عليهم، وكان أكثـر اختلافـه إلى محمـد بـن الحسن الشيباني.

ولما حضر عنده قال له: إني غريب قليل النفقة، والسماع منك نزر، والطلبة عندك كثير، فما حيلتي؟ فقال له محمد بن الحسن: اسمع مع العراقيين بالنهار، وقد جعلت لـك الليـل وحـدك، فتبيت عندي وأُسمعك، قال أسد: وكنت أبيت عنده وينزل إليَّ ويجعل بين يديه قدحًا فيـه المـاء، ثم يأخذ في القراءة، فإذا طال الليل ونعست، ملأ يده ونضح وجهي بالماء فأنتبه، فكان ذلك دأبه ودأبي، حتى أتيت على ما أريد من السماع عليه.

وكان محمد بن الحسن يتعهده بالنفقة حين علم أن نفقتـه نفـدت، وأعطـاه مـرة ثمانـين دينارًا حين رآه يشرب من ماء السبيل، وأمده بالنفقة حين أراد الانصراف من العراق.

ثم رحل لمصر ولقي جماعة من أعيان العلماء، منهم الإمـام عبـد الـرحمن بـن القاسـم، فلزمه مدة، وهناك ألَّف الأسدية. ثم قفل راجعًا إلى القيروان، وبها انتشر ذكره، وظهر علمه، وارتفع قدره، وفي سنة ٢١٢هـ جمع الأمير زيادة الله الأغلبي جيوشه وأسطوله لغزو صقلية، وكان أمير الجيش وقاضيه أسد بن الفرات، فخرج في حفل عظيم وجمع غفير من أهل العلـم ووجوه الناس لمشايعته.

ولما رأى أسد الناس خاصتهم وعامتهم بين يديه وخلفه، قال لهم بعد حمد الله: لا إله إلا الله لا شريك له، يا معشر الناس، والله ما ولي أب ولا جد ولاية قط، ولا أحد من سلفي رأى هذا قط، وما رأيت ما ترون إلا بالأقلام (يعني بتعلم العلم وتحصيله وكتابته وخدمته)، فأجهدوا أنفسكم، وأتعبوا أبدانكم في طلب العلم وتدوينه، واصبروا على شدته، فإنكم تنالون به خيري الدنيا والآخرة.

وهذا الاحتفال انتهى بمرسى سوسة، ومنها أقلع الأسطول قاصدًا صقلية، ودخلها بعد مكابدة المشاق، وحصل له فتح عظيم بها، ومات إثر جراحات في حصار سرقوسة، ودُفن بذلك الموضع رحمه الله تعالى.



الحافظ/ أبو بكر عبد الله بن أبي داود السجستاني

قال: دخلت الكوفة وكان معي درهم واحد فاشتريت به ثلاثين مُدًّا باقلاء، فكنت آكل منه، وأكتب عند الأشج [عبد الله بن سعيد الكندي محدث الكوفة]، فلما فرغ الباقلاء حتى كتبت عنه ثلاثين ألف حديث ما بين مقطوع ومرسل [واقدر المدة لكتابتها نحو شهرين على الأقل].

الإمام الحافظ/ أبو بكر أحمد بن محمد البرقاني

قال: دخلت إسفرايين [بلدة بخراسان من نواحي نيسابور]، ومعي ثلاثة دنانير ودرهم واحد، فضاعت الدنانير وبقي الدرهم، فدفعته إلى خباز، فكنت آخذ منه كل يوم رغيفين، وآخذ من بشر بن أحمد جزءًا من حديثه، وأدخل مسجد الجامع فأكتبه وأفرغه بالعشي، فكتبت في مدة شهرين ثلاثين جزءًا ونفد ما كان لي عند الخباز فسافرت عن البلد.

❁ ❁ ❁

الإمام الفقيه/ أبو العباس أحمد بن محمد الأبيوردي

كان يصوم الدهر وكان غالب إفطاره على الخبز والملح، وكان فقيرًا يُظهر المروءة، ومكث شتوة كاملة لا يملك جبة يلبسها، وكان يقول لأصحابه: بي عِلّية تمنعني عن لبس المحشو! فكانوا يظنونه يعني المرض، وإنما كان يعني بذلك الفقر ولا يظهره.

بقي أن نعرف أنه أحد الفقهاء الشافعيين، وولي قضاء بغداد وعلى الجانب الشرقي بأسره ومدينة المنصور، وكان يُدرس في قطيعة الربيع وله حلقة للفتوى في جامع المنصور.

الإمام الحافظ/ أبو علي الحسن بن علي البلخي الوخشي

يقول: سمعت ورحلت وقاسيت المشاق والذل، ورجعت إلى وخش [قرية من أعمال بلخ] وما عرف أحد قدري، ولا فهم ما حصلته، فقلت: أموت ولا ينتشر ذكري، ولا يترحم أحد عليَّ فسهل الله ووفق نظام الملك حتى بنى هذه المدرسة [في وخش]، وأجلسني فيها حتى أحدث.

لقد كنت بعسقلان أسمع من ابن مصحح وغيره، فضاقت عليَّ النفقة وبقيت أيامًا بلا أكل، فأخذت لأكتب فعجزت، فذهبت إلى دكان خباز وقعدت بقربه لأشم رائحة الخبز وأتقوى بها، ثم فتح الله عليَّ.

❁ ❁ ❁

الإمام/ أبو إسحاق الشيرازي

كان إمام الشافعية في عصره، قال أبو العباس الجرجاني: كان أبو إسحاق لا يملك شيئًا من الدنيا فبلغ به الفقر مبلغه، حتى كان لا يجد قوتًا ولا ملبسًا، ولقد كنا نأتيه وهو ساكن في القطيعة [حي من أحياء بغداد]، فيقوم لنا نصف قومة ليس يعتدل قائمًا من العري كيما لا يظهر منه شيء.

وكان إذا بقي مدة لا يأكل شيئًا جاء صديق له باقلاني [أي: فوال]، فكان يثرد له رغيفًا [أي: يفته]، ويثريه [أي: يبله ويلينه] بماء الباقلاء، فربما أتاه وكان قد فرغ من بيع الباقلاء، فيقف أبو إسحاق ويقول: تلك إذًا كرة خاسرة، ويرجع.

الإمام/ أبو الحسن على بن أحمد اليزدي

قال السمعاني: وكان له عمامة وقميص بينه وبين أخيه، إذا خرج هذا قعد ذاك في البيت، وإذا خرج ذاك قعد هذا في البيت! سمعته يقول: وقد دخلت عليه داره مع علي بن الحسن الغزنوي الواعظ مسلمًا عليه، فوجدناه عريانًا مؤتزرًا بمئزر، فاعتذر من العري، وقال: نحن إذا غسلنا ثيابنا نكون كما قال القاضي أبو الطيب الطبري:

قَوْمٌ إِذا غَسَلُوا ثِيابَ جَمَالِهِمْ   لَبِسُوا الْبُيُوتَ إِلى فَرَاغِ الغَاسل



الإمام/ أبو حاتم محمد بن إدريس الرازي

يقول ابنه: سمعت أبي يقول: بقيت بالبصرة في سنة أربع وعشرة ومئتين ثمانية أشهر، وكان في نفسي أن أقيم سنة، فانقطعت نفقتي، فجعلت أبيع ثياب بدني شيئًا بعد شيء، حتى بقيت بلا نفقة! ومضيت أطوف مع صديق لي إلى المشيخة، وأسمع منهم إلى المساء، فانصرف رفيقي ورجعت إلى بيت خالٍ، فجعلت أشرب الماء من الجوع. ثم أصبحت من الغد وغدا عليَّ رفيقي، فجعلت أطوف معه في سماع الحديث على جوع شديد، فانصرف عني وانصرفت جائعًا، فلما كان من الغد غدا عليَّ فقال: مر بنا إلى المشايخ، فقلت: أنا ضعيف لا يمكنني، قال: ما ضعفك؟ قلت: لا أكتمك أمري، قد مضى يومان ما طعمت فيهما شيئًا، فقال لي: قد بقي معي دينار، فأنا أواسيك بنصفه، ونجعل النصف الآخر في الكراء، فخرجنا من البصرة، وقبضت منه النصف دينار.

ثم قال ابن أبي حاتم: سمعت أبي يقول: لما خرجنا من المدينة من عند داود الجعفري صرنا إلى الجار[موضع بينه وبين المدينة الشريفة يوم وليلة] وركبنا البحر، وكنا ثلاثة أنفس أبو زهير المروروذي شيخ، وآخر نيسابوري.

ولما كنا في البحر احتلمت فأصبحت وأخبرت أصحابي بذلك، فقالوا لي: اغمس نفسك في البحر، قلت: إني لا أحسن أن أسبح، فقالوا: إنا نشد فيك حبلًا ونَدليك في الماء، فشدوا فيَّ حبلًا وأرسلوني في الماء، أريد إسباغ الوضوء فلما توضأت قلت لهم، أرسلوني فغمست نفسي في الماء فقلت: ارفعوني فرفعوني.

وركبنا البحر ثم مشينا، فكانت الريح في وجوهنا، فبقينا في البحر ثلاثة أشهر، وضاقت بنا صدورنا، وفني ما كان معنا من الزاد، فخرجنا إلى البر، فجعلنا نمشي أيامًا على البر، حتى فني ما كان معنا من الزاد والماء، فمشينا يومًا وليلة لم يأكل أحد منا شيئًا ولا شربنا، واليوم

الثاني كمثل، واليوم الثالث كل يوم نمشي إلى الليل، فإذا جاء المساء صلينا وألقينا بأنفسنا حيث كنا، وقد ضعفت أبداننا من الجوع والعطش والإعياء، فلما أصبحنا اليوم الثالث جعلنا نمشي على قدر طاقتنا، فسقط الشيخ المروروذي مغشيًا عليه، فجئنا نحركه وهو لا يعقل، فتركناه. ومشينا أنا وصاحبي النيسابوري قدر فرسخ أو فرسخين فضعفت وسقطت مغشيًا عليَّ ومضى صاحبي وتركني، فلم يزل يمشي إذ بصر من بعيد قومًا قد قربوا سفينتهم من البر، ونزلوا على بئر موسى ﷺ، فلما عاينهم لوَّح بثوبه إليهم، فجاؤوه معهم الماء في إداوة، فسقوه وأخذوا بيده، فقال لهم: الحقوا رفيقين لي، قد ألقوا بأنفسهم مغشيًا عليهم، فما شعرت إلا برجل يصب الماء على وجهي، ففتحت عيني فقلت: اسقني، فصب من الماء في ركوة أو مشربة شيئًا يسيرًا فشربت ورجعت إلي نفسي، ولم يَرْوِنِي ذلك القدر، فقلت: اسقني فسقاني شيئًا يسيرًا، وأخذ بيدي.

فقلت: ورائي شيخ ملقىً! قال: قد ذهب إلى ذاك جماعة، فأخذ بيدي وأنا أمشي أجرُّ رِجْلي ويسقيني شيئًا بعد شيء، حتى إذا بلغت إلى سفينتهم، وأتوا برفيقي الثالث الشيخ، وأحسن إلينا أهل السفينة، فبقينا أيامًا حتى رجعت إلينا أنفسنا.

ثم كتبوا كتابًا إلى مدينة يقال لها راية [قرية من قرى مصر الجنوبية] إلى واليهم، وزودونا من الكعك والسويق والماء، فلم نَزَلْ نمشي حتى نفد ما كان معنا من الماء والسويق والكعك، فجعلنا نمشي جياعًا عطاشًا على شط البحر، حتى وقعنا إلى سلحفاة قد رمى بها البحر، مثل الترس، فعمدنا إلى حجر كبير، فضربنا على ظهرها فانفلق ظهرها، وإذا فيها مثل صفرة البيض، فأخذنا من بعض الأصداف الملقاة على شط البحر، فجعلنا نغترف من ذلك الأصفر فنتحساه، حتى سكن عنا الجوع والعطش.

ثم مررنا وتحملنا حتى دخلنا مدينة الراية، وأوصلنا الكتاب إلى عاملها، فأنزلنا في داره، وأحسن إلينا، وكان يقدِّم إلينا كل يوم القرع، ويقول لخادمه: هاتي لهم اليقطين المبارك، فقدم إلينا من ذلك اليقطين مع الخبز أيامًا، فقال واحد منا بالفارسية: ألا تدعو لنا باللحم المشئوم؟ وجعل يُسْمِع الرجل صاحب الدار، فقال: أنا أُحسن الفارسية، فإن جدتي كانت هروية، فأتانا بعد ذلك باللحم، ثم خرجنا من هناك وزوَّدنا إلى أن بلغنا مصر.



عبد الرحمن بن قاسم العُتقي

قال القاضي عياض في «ترتيب المدارك»: قال ابن القاسم: كنت آتي مالكًا (مالك بن أنس) غلسًا، فأسأله عن مسألتين ثلاثة، أربعة، وكنت أجد منه في ذلك الوقت انشراحَ صدرٍ، فكنت آتي كل سحر، فتوسدت مرة عتبته، فغلبتني عيني فنمت، وخرج مالك إلى المسجد ولم أشعر به، فركضتني جارية سوداء له برجلها، وقالت لي: قلما صلى الصبح إلا بوضوء العتمة (ظنت السوداء أنه مولاه من كثره اختلافه إليه).

قال ابن القَاسم: وأنخت بباب مالك سبع عشرة سنة، ما بعت فيها ولا اشتريت شيئًا، فبينما أنا عنده، إذ أقبل حاج مصر، فإذا شاب متلثم دخل علينا، فسلم على مالك، فقال: أفيكم ابن القاسم، فأشير إليَّ، فأقبل يُقبل عيني، ووجدت منه ريحًا طيبة، فإذا هي رائحة الولد، وإذا هو ابني.

وكان ابن القاسم ترك زوجته حاملًا به، وكانت ابنة عمه، وقد خيرها عند سفره لطول إقامته، فاختارت البقاء. (أي: أن تبقى زوجة له، وتنتظره مهما طالت سنوات طلبه للعلم والتحصيل!!).



النحوي/ أبي محمد سعيد بن المبارك

ترك بغداد وانتقل إلى الموصل قاصدًا جناب الوزير جمال الدين الأصبهاني المعروف بالجواد، فتلقاه بالإقبال وأحسن إليه، وأقام في كنفه مدة، وكانت كتبه قد تخلفت ببغداد، فاستولى الغرق تلك السنة على البلد، فسيَّر من يحضرها إليه إن كانت سالمة، فوجدها قد غرقت، وكانت خلف داره مدبغة فغرقت أيضًا وفاض الماء منها إلى داره فتلفت الكتب بهذا السبب زيادة على إتلاف الغرق، وكان قد أفنى في تحصيلها عمره، فلما حُملت إليه على تلك الصورة أشاروا عليه أن يطيبها بالبخور، ويصلح منها ما يمكن فبخَّرها باللاذن [دواء بالفارسية]، ولازم ذلك إلى أن بخرها بأكثر من ثلاثين رطلًا لاذن، فطلع ذلك إلى رأسه وعينه، فأحدث له العمى وكفَّ بصره.



أبو النضر محمد بن محمد الطوسي

جاء في «تذكرة الحفاظ» للذهبي في ترجمته: هو الإمام الحافظ شيخ الإسلام، أبو النضر محمد بن محمد الطوسي، شيخ الشافعية وأحد الأعلام المتوفَّى سنة ٣٤٤هـ ما يلي:

قال الحاكم - تلميذ الشيخ -: سمعت أحمد بن منصور يقول: أبو النضر يُفتي الناس من سبعين سنة أو نحوها، ما أُخذ عليه في فتوى قط.

قال الحاكم: رحلت إليه مرتين، وسألته: متى يفرغ للتصنيف مع هذه الفتاوى؟ فقال: جزأت الليل، فثلثه أصنف، وثلثه أقرأ القرآن، وثلثه للنوم.

قال الحاكم: وكان إمامًا عابدًا بارع الأدب، وما رأيت في مشايخنا أحسن صلاة منه، وكان يصوم الدهر، ويقوم الليل، ويتصدق بما فضل من قوته، ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر.

عمر بن عبد العزيز

أبطأ عمر بن عبد العزيز يومًا عن الجمعة قليلًا، فعُوتب في ذلك، فقال: إنما انتظرت قميصي غسلته أن يجف.

ودخل مسلمة بن عبد الملك على عمر بن عبد العزيز في مرضه وعليه قميص وسخ، فقال لفاطمة زوجة عمر، وهي أخت مسلمة بن عبد الملك: ألا تغسلون قميصه؟

قالت: والله ما له غيره، وإن غسلناه يبقى لا قميص له.!!!



عبد الله بن حمود الزبيدي الأندلسي

كان عبد الله هذا قد صحب أبا علي القالي بالأندلس، وأخذ عنه، ثم رحل إلى المشرق، فصحب أبا سعيد السيرافي إلى أن مات، وصحب أبا علي الفارسي، في مقامه وسفره إلى فارس وغيرها، وأخذ عنه وأكثر وبرع.

قال أبو حيان الأندلسي: إن عبد الله رحل إلى الأندلس، وحين بقي بينه وبين بلده مسافة يوم أو يومين غرقت المركب، وهلك كل من فيها، ومن جملتهم عبد الله، وذهب معه علمٌ كثير كان قد جلبه من العراق.



الإمام القاضي/ أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم

قال الخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد»: قال أبو يوسف: كنت أطلب الحديث والفقه، وأنا مُقل رث الحال، فجاء أبي يومًا وأنا عند أبي حنيفة فانصرفت معه، فقال: يا بني! لا تمدن رجلك مع أبي حنيفة، فإن أبا حنيفة خبزه مشوي، وأنت تحتاج إلى المعاش، فقصرت عن كثير من الطلب، وآثرت طاعة أبي، فتفقدني أبو حنيفة وسأل عني، فجعلت أتعاهد مجلسه، فلما كان أول يوم أتيته بعد تأخري عنه قال لي: ما شغلك عنا؟ قلت: الشغل بالمعاش وطاعة والدي، فجلست، فلما انصرف الناس دفع إلي صرة وقال: استمتع بهذه، فنظرت فإذا فيها مئة درهم، فقال لي: الزم الحلقة، وإذا نفدت هذه فأعلمني.

فلزمت الحلقة فلما مضت مدة يسيرة دفع إليَّ مئة أخرى، ثم كان يتعاهدني، وما أعلمته بخَلَّةٍ قط، ولا أخبرته بنفاد شيء ما، وكان كأنه يُخْبَر بنفادها حتى استغنيت وتمولت، فلزمت مجلسه تسع وعشرين سنة حتى بلغت حاجتي، وفتح الله لي ببركته وحُسْن نيته ما فتح من العلم والمال، فأحسن الله عن مكافأته وغفر له.

يقول إبراهيم بن الجراح في «مناقب أبي حنيفة»: مرض أبو يوسف فأتيته أعوده، فوجدته مغمى عليه، فلما أفاق قال لي: ما تقول في مسألة؟ قلت: في مثل هذه الحالة؟ قال: لا بأس بذلك ندرس لعله ينجو به ناجٍ.

ثم قال: يا إبراهيم! أيما أفضل في رمي الجمار (أي: في مناسك الحج) أن يرميها الرجل ماشيًا أو راكبًا؟ قلت: راكبًا، قال: أخطأت، قلت: ماشيًا، قال: أخطأت، قلت: قُلْ فيها يرضى الله عنك.

قال: أما ما كان يوقف عنده للدعاء فالأفضل أن يرميه ماشيًا، وأما ما كان لا يوقف عنده فالأفضل أن يرميه راكبًا، ثم قمت من عنده، فما بلغت باب داره حتى سمعت الصراخ عليه! وإذا هو قد مات رحمة الله عليه. اهـ.

قال الشيخ عبد الفتاح أبو غدة: هكذا كانوا! الموت جاثم على رأس أحدهم بكربه وغصصه، والحشرجة تشتد في نفسه وصدره، والإغماء والغشيان محيط به، فإذا صحا أو أفاق من غشيته لحظات، تساءل عن بعض مسائل العلم الفرعية أو المندوبة، ليتعلمها أو ليعلِّمها وهو في تلك الحال التي أخذ فيها الموت منه بالأنفاس والتلابيب!

يالله؟! ما أغلى العلم على قلوبهم، وما أشغل خواطرهم وعقولهم به؟ حتى في ساعة النزع والموت! لم يتذكروا فيها زوجة أو ولدًا أو قريبًا عزيزًا، وإنما تذكروا العلم، فرحمات الله عليهم، وبهذا صاروا أئمة في العلم والدين.



وقفة مع رحلات العلماء في طلب العلم

تقدم في هذا الجانب كثير من أخبار الراحلين والرحَّالين في طلب العلم، ويحسن أن تعلم أن الرحلة كانت في نفوس العلماء السابقين مقصدًا أساسيًا للازدياد من العلم وتفتيحه وتلوينه وتنويعه وتعميقه، فلا يتخلف عنها إلا من أقعده ضعف الجسم، أو كثرة العيال، أو فقد الدريهمات، أو رعاية حق الوالدة أو الوالد.

ذلك لأنهم جعلوا الرحلة مناط الثقة بالعالم، فقالوا كلمتهم المشهورة: (من لم يرحل فلا ثقة بعلمه). وقديمًا قال الإمام يحيى بن معين: أربعة لا تؤنس منهم رشدًا -أي: لا تبصر منهم خيرًا ولا نفعًا- وذكر الثلاثة، ثم قال: (ورجل يكتب في بلده ولا يرحل في طلب الحديث).

ومن هذا قال الحافظ ابن الصلاح: وإذا فرغ الطالب من سماع العوالي والمهمات التي ببلده، فليرحل إلى غيره.

نعم «فليرحل» بصيغة الأمر، وذلك لما لمسوه من فوائد الرحلة وآثارها النافعة في تكوين المواهب الشخصية وتنمية المدارك العلمية وتوسعة الآفاق الفكرية، والتطاعم بين العقول والمعارف وأهلها، فلذا أقاموها مقام الحاجة الضرورية لمن سلك طريق العلم والتحصيل، واعتبروها شرطًا لتوثيق العالم والثقة بعلمه.

فنشأ من ذلك هذه الرحلات الواسعة، والأسفار الشاسعة، والسنوات الطوال تُقْضَى من أعمار هؤلاء الراحلين، بعيدين عن الأهل والولد والزوجة والبلد، متفرغين لتلقي العلم ولقاء العلماء، ومشافهتهم ومشامتهم وتعرُّف ما عندهم، والانتساب إليهم، والاغتراف من معينهم..

وقد صارت هذه الرحلات لدى العلماء السابقين جزءًا أصيلًا من حياتهم العلمية، ورحل من أهل كل علم، فرحل المفسر والمحدث، والفقية، والأصولي، والأديب، والنحوي،

والمؤرخ، والزاهد، والعابد، والشاب، والشيخ، والكبير، والصغير، والوليد! رحلوا ورحلوا معهم الوليد الذي دون أربع سنين أو ما فوقها، كما تراه في تراجم كثير من العلماء الكبار، ومنهم الإمام أبو سعد السمعاني المتقدم خبره.

وقد لقي الرحالون في أسفارهم متاعب ومصاعب، ولاقوا شدائد لا تحصى، دُوِّن عنهم بعضها، وذهب بعضها دون تدوين، فهذا الذي تراه في كتب التراجم من أخبارهم في الرحلة بعض ما كان وليس كل ما كان.

وكانت الرحلة تأخذ من عمر صاحبها السنتين والأربع، والخمس والعشر، وكثير منهم من أخذت الرحلة من عمره العشرين سنة، أو الثلاثين سنة، أو الأربعين سنة، وبعضهم أخذت رحلته خمسًا وأربعين سنة من عمره، كالإمام أبي عبد الله ابن منده، المتقدم خبره.

فإذا نظر المتبصر في هذه الرحلات التي كانوا يقومون بها، وهم من الفقر وشظف العيش وصعوبة وسائل السفر والارتحال.... أدرك علو هممهم في الصبر والتحمل، وعلم غلاء العلم لديهم وعلى قلوبهم، إذ ركبوا في تحصيله الصعب والذلول، وقطعوا البراري والقفار، وامتطوا من أجله المخاطر والبحار، ولقوا ما لقوا من الشدائد والأهوال ما الله به عليم، وحسبك من ذلك قصة الإمام أبي حاتم الرازي.

ولقد كانت هذه الرحلات في ذاتها دروسًا لهم داخل دروس، عركتهم في ذواتهم عركًا، وصقلتهم في أنفسهم صقلًا، وعرَّفتهم بغلاء العلم وعِزّته، وأشعرتهم بحلاوة التحصيل ولذته، فانغمروا في تحصيل العلم انغمارًا، واشتغلوا به ليلًا ونهارًا، وقطعوا علاقاتهم بسواه، من الأهل والزوجة والولد والبلد، فخرجوا أئمة أحيارًا، وسادة أبرارًا، يُقدسهم الناس عن جدارة وحب، ويلتفون حولهم لقداستهم وصلاحهم وغزير علمهم وفضلهم، ولبصارة عقولهم، وعظيم نفعهم.

فالرحلة التي أخذت من عمر صاحبها عشر سنين أو عشرين سنة أو ثلاثين سنة أو أكثر من ذلك أو أقل، وقد كانت كلها في تحصيل العلم ولقاء العلماء، وحضور مجالسهم واستماع دروسهم، والاستفادات من تقريراتهم، والاستنارات من مناقشتهم ومحاكماتهم، وسبقها تحصيل الراحل في بلده مدة لا تقل عن عشر سنوات غالبًا هي التي أخرجت الأئمة الفحول في كل علم من علوم الشريعة والعربية والطب والفلك وسائر العلوم الإسلامية.

أخي طالب العلم:

وازنْ بين الدراسة التي أثمرتها هذه الرحلات التي عركت الطلاب الراحلين عركًا طويلًا، وبين دراسة طلاب جامعاتنا اليوم! يدرسون فيها أربع سنوات، وأغلبهم يدرسون دراسة صحفية فردية لا حضور ولا سماع ولا مناقشة ولا اقتناع، ولا تطاعم في الأخلاق ولا تأسي، ولا تصحيح لأخطائهم، ولا تصويب ولا تهذيب لمسالكهم، ويتسقطون الأبحاث المظنونة السؤال من مقرراتهم (المختصرة)، ثم يسعون إلى تلخيص تلك المقررات، ثم يسعون إلى إسقاط المباحث غير الهامة من المقروءات بتلطفهم وتملقهمْ لبعض الأساتذة، فيجدون لدى بعضهم ما يسرهم، وإن كان يضرهم وبذلك يفرحون!!

وبعد ذلك يتعالون بضخامة الألقاب مع فراغ الوطاب، ويوسِّعون الدعاوى العريضة، ويُجهِّلون العلماء الأُصلاء بآرائهم الهشة البتراء، وينصرون الأقوال الشاذة لتجانسها مع علمهم وفهمهم، ويناهضون القواعد المستقرة، والأصول الراسخة المتوارثة، ولم يقعدوا مقاعد العلم والعلماء، ولم يتذوقوا بصارة التحصيل عند القدماء، ولكنهم عند أنفسهم أعلم من السابقين!!!

ويشهد المراقب للحال اليوم كثرة متزايدة في الجامعيين والجامعات، وفقرًا متزايدًا في العلم وأهله، وضحالة في الفهم والمعرفة، ونقصًا كبيرًا مشهودًا في العمل بالعلم!! وهذه

مصيبة من أدهى المصائب! والله المرجو أن يلهم المنوط بهم أمور التعليم في بلادنا الإسلامية أن يتبصروا بالأمر، ويتداركوا هذا الخطر قبل تأصُّله وإزمانه، واستفحال آثاره.

ولا أتحدث طويلًا عن المبتعثين والراحلين اليوم من شبابنا إلى بلاد الغرب والشرق من بلاد الكفار والأعداء للإسلام وأهله، فإن الناجي من براثن مكايدهم الخفية والظاهرة في العقيدة والخُلق والتفكير والسلوك قليل، وكم من أبنائنا وشبابنا من وقع في حبائلهم، وذهب في سبيلهم، ورضيهم قادة وسادة، ونُزع بالتالي من ديار الإسلام إليهم! وتوطَّن بلادهم مسكنًا ودارًا، واختارهم على أهله أهلًا وجارًا، وهو يظن بنفسه أنه يحسن صنعًا! نعوذ بالله من الحَوَر بعد الكَوَر، ومن الكفر بعد الإيمان.

وهناك غير واحد من أبنائنا وشبابنا المتعلم من تأثر بهم تأثرًا كليًا أو جزئيًا، ورجع إلى بلده وهو يريدهم أن يكونوا في أفكارهم وعاداتهم سادة عليه، وقادة له ولولده ولبلده، وأما تحصيل العلم منهم على وجهه الأمثل فما أقله في كثير من المبتعثين! وما أكيد الغربيين والشرقيين للدارسين المسلمين، يعطونهم مبتور العلم مع كبير الألقاب، فيعودون لديارهم بمعلومات ضحلة! فالأمر لله من قبل ومن بعد، والله ولي المؤمنين.

❁ ❁ ❁

الأوجه التي تُعِينُ المؤمن على الرضا بالبلية كما يرضى بالنعمة

١-التفويض: إذ المفوض راضٍ بكل ما اختاره له مَنْ فوض إليه لاسيما إذا علم كمال علمه وحكمته ورحمته ولطفه وبره وحسن اختياره له. في حين أنه نفسه جاهل بعواقب الأمور، فلا يعرف أين مصلحته.

٢- الاعتقاد الجازم بأنه لا تبديل لكلمات الله القدرية والشرعية، ولا راد لحكمه، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، فالنعمة والبلية بقضاء سابق وقدر حتم قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ولا فائدة في إيمانِ مَنْ لم يؤمن بهذا الركن [وهو الإيمان بالقدر]، وقد جاء في الحديث: «وَلَوْ كَانَ لَكَ جَبَلُ أُحُدٍ أَوْ مِثْلُ جَبَلِ أُحُدٍ ذَهَبًا أَنْفَقْتَهُ فِي سَبِيلِ الله مَا قَبِلَهُ الله مِنْكَ حَتَّى تُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ، وَتَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ وَأَنَّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ»، [رواه أحمد، صحيح في صحيح الجامع برقم (٥٢٤٢)].

٣- أن يذكر المؤمن أنه عبد محض، وسيده مشفق به بار مُحسن ناصح ورحيم ونعم الوكيل، وبالتالي لن يسخط أحكامه التي أجراها عليه، [إلا إذا أساء الظن بسيده، وتشكك في علمه ونصحه].

٤- أن يذكر أنه مسلم، والمسلم من قد سلّم نفسه لله، واستسلم له، لا لغيره، وبالتالي كيف يعترض على أحكامه وجريانها عليه، وكيف يسخط على ما قدّره له، فإن اعترض وسخط فقد غفل عن معنى كونه مسلمًا.

٥- المحب الصادق هو الذي يرضى بما يعامله به حبيبه، والمؤمن لا يكون إلا محبًا صادقًا لله، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة:١٦٥].

فالرضا نتيجة طبيعية للمحبة، كما هو نتيجة طبيعية للتفويض:

٦- المؤمن عارف بربه حَسَن الظن به، لا يتهمه فيما يُجْريه عليه من الأقدار، فتستوي عنده النعمة والبلية، ويرضى باختيار ربه له. كما يعلم المؤمن أنه ما من شيء إلا وهو أثر من آثار أسماء الله تعالى وصفاته، ومن ذلك ما يُجْري علينا من البلاء بالمكروه، فإنْ لم نرضَ به، يكون معنى هذا أننا لم نرضَ بأسمائه تعالى وصفاته، وبالتالي لم ترضَ به ربًّا عياذًا بالله أن تكون كذلك، وفي الحديث: «**ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِالله رَبًّا وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا**».

[رواه مسلم]

كما نكون جائرين ظالمين؛ لأن البلاء بالمكروه عدل من الله عَزَّ وَجَلَّ، كما في حديث ابن مسعود: «**مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ**» [رواه أحمد].

فمن لم يَرْضَ بالعدل فهو من أهل الجحود والظلم:

٧- إن كل قدر يكرهه العبد ولا يلائمه لا يخلو: إما أن يكون عقوبة على ذنوب، لو تُركت لأحدثت ذنوبًا أخرى أشد من الأولى، وهذه الثانية تكون سببًا في ذنوب ثالثة أشد وأشد، وهكذا تترامى به إلى الهلاك في النهاية، والعياذ بالله، فبرحمة الله جاء المكروه، فأزال الذنوب الأولى وقطع تسلسلها الخطير، [كما يحدث عند كثير من أهل العافية وهم لا يشعرون]، كالمرض إذا لم يتداركه الطبيب بالدواء، فيترامى بالمريض إلى الهلاك، وإما أن يكون هذا المكروه سببًا لنعمة لا تُنال إلا بذلك المكروه. فالمكروه ينقطع ويتلاشى، وما يترتب عليه من النعمة دائم لا ينقطع.

٨- الإنسان أصله ظلوم جهول، لا يعرف من وجوه مصلحته إلا القليل، ولو عرفها فإنه لا يريدها إلا القليل العاجل على طريقة [أحيني اليوم وأمتني غدًا]، ولكن ربه سبحانه -وهو الأعلم والأحكم والأرحم به من نفسه- يريد للمؤمن مصلحته في النهاية من الزحزحة

عن النار ودخول الجنة، علاوة على مصالحه الدنيوية بحكمة الله، فيسوق إليه أسبابها، والتي من أعظمها ما يكره العبد، فإن مصلحته فيما يكره أضعاف مصلحته فيما يحب. قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة:٢١٦] الآية، وقال: ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء:١٩].

مثال ذلك: لو كرهنا الحبس سنة، فقد تكون هذه السنة سببًا في نجاتنا من الحبس في جهنم آلاف السنين، وقد تكون سببًا في إبعادنا عن التعرُّض لحادثة فيها حتفنا أو الوقوع في قضايا أخرى فيها عشرات السنين من الحبس أو الافتتان بظروف أخرى لا نعرفها، وقد تكون سببًا في حفظنا للقرآن، وفي ظهور دعوة أهملها الناس، وغير ذلك كثير.

٩- الله سبحانه تفرد بخلقنا ولم نكن شيئًا، فقدَّر الطويل والقصير، والأبيض والأسود والأحمر، والنبيه والخامل، والغني والفقير، والعز والذل، والأسرة والبلد والبيئة وكل شيء، فالله سبحانه كما تفرد بذلك فقد تفرد بالاختيار والتدبير: لمن يكون البلاء، وكيف يكون، ومتى يحدث .. الخ، وليس للعبد شيء من ذلك، فإن الأمر كله لله، وقد قال تعالى لنبيه: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ [آل عمران:١٢٨]، بل الله هو الأول قبل كل شيء، والآخر بعد كل شيء، وهو المظهر لكل شيء، والمالك لكل شيء، فما الذي تبقى للعبد إلا أن يسلِّم ويرضى.

❁❁❁

الخاتمة

أما بعد، فهذه نبذة يسيرة عن سِيَر وحياة بعض علمائنا السابقين، ندرك منها:

- كيف كان عيش الكثيرين منهم، يتدثرون الفقر، ويلتحفون الطوى، ويأكلون الخشن والقليل عُدمًا وفاقة، مع إظهار التجمل والغنى، ويمتطون المصاعب والشدائد والمحن والابتلاءات، ويصبرون حتى يكاد الصبر يتململ من مصابرتهم له، كل ذلك في سبيل العلم وتحصيلة والثبات على الحق والصدع به.

- كانوا يجمعون إلى ذلك في قرارة نفوسهم الرضا عن الله تعالى، والحمد والشكر له سبحانه، حتى كانوا القدوة الصالحة لمن بعدهم من طلبة العلم وأهله، فرضي الله عنهم وجزاهم عن العلم والدين والإسلام خير الجزاء.

-استعرضنا في الصفحات الماضية أخبارًا عن صبر العلماء على الشدائد والمصائب التي حلت في حياتهم وما لاقوه في سبيل العلم والتحصيل، وليست هذه الصفحات على كثرتها إلا نزرًا يسيرًا من تاريخهم في هذا الجانب، وعلى قلة ما قرأنا من أخبارهم، ندرك مدى ما بذله علماء الإسلام في سبيل المعرفة والعلم ومدى ما تحملوه من شدائد ومحن وتضحيات، فهذه باقة من مكارم الآباء تُهْدَى إلى كرام الأبناء.

- شهدنا في هذه الصفحات أنَّ مرحلة تحصيل العلم مرحلة صعبة شاقة جدًا، تنقطع دون بلوغها حيازتهم الصبر، وتنحسر أمامها عزمات الرجال، ولا يصبر على اجتيازها إلا الأفذاذ الأبطال، ممن كان مغرمًا بالعلم، ذائقًا لذته، عازمًا على تحصيله ولو لقي في سبيل ذلك الآلاقي!

- شهدنا في هذه الصفحات رجال العلم وطلابه يواجهون الفقر والإملاق تارة، والعري والجوع والعطش تارة أخرى، والعقبات والنوائب حينًا آخر، حتى أن بعض أئمة

العلم والدين يطالع العلم في الليل على ضوء سراج الحارس، لفقده المال لشراء زيت السراج! وفيهم من يقنع بورق الكرنب يعيش عليه في سبيل العلم، ولديه من العقل والذكاء ما لو صرفه لتحصيل المال والغنى، لغُمر بالمال غمرًا، ولكان من أغنى الناس يدًا، ولكنه آثر الفقر على الغنى من أجل تحصيل العلم، وشهدنا فيهم من يقنع برائحة الخبز يشمها يتغدى بها! ومن يتناول الأيام الطوال حشيش الأرض ومنبوذ القمامات يقتات به!

- شهدنا في هذه الصفحات كيف عُذب كبار العلماء والمحدثين لمجرد صدعه بكلمة الحق ورفضه الخضوع والخنوع في وجه الظلم والبطش، بل الكثير منهم مات تحت التعذيب ولم يتراجع عن رأيه الصواب قيد أنمله، ومنهم من فقد بعض أعضائه بسبب التعذيب، ومع ذلك ظلت سيرتهم العطرة في جنبات التاريخ تتحدث عنهم وعن مآثرهم وعلمهم وفضلهم على الأمة الإسلامية إلى يوم القيامة.

- شهدنا كل هذا وأمثاله ينتاب أولئك الرجال خدمة للشريعة والدين، فما وهنت هممهم، ولا استكانت عزائمهم، ولا اختلت موازين الحق والعلم والدين بين أيديهم، بل كانوا أحرص الناس على دينهم، وأرعى الناس لأماناتهم، فما تأثروا بتلك الشدائد والأزمات التي تأخذ بالأنفاس والتلابيب، في آرائهم واستنباطاتهم وأحكامهم على غيرهم من الناس، أغنياء كانوا أو فقراء، أصدقاء كانوا أو أعداءً.

- شهدنا في هذه الصفحات أن علوم الإسلام العظيم لم تُدوَّن على ضفاف الأنهار، وتحت ظلال الأشجار والأثمار، وإنما دُوِّنت باللحم والدم وظمأ الهواجر، وسهر الليالي على السراج الذي لا يكاد يضيء نفسه، وفي ظل العري والجوع وبيع الثياب وانقطاع النفقة في بلد الاغتراب، والرحلات المتواصلة المتلاحقة، والمشاقّ الناصبة المتعانقة، والصبر على أهوال الأسفار، وملاقاة الخطوب والأخطار، والتيه في البِيَدِ، والغرق في البحار، وفَقْد الكتب العزيزة الغالية والأسفار، وحلول الأمراض والأسقام، مع البعد عن الأهل والدار! فما أثَّر

كل ذلك في أمانة علم أهلها، وما نقص من متانة دينهم، وما وهن من قوة شكيمتهم، وما أخلَّتْ خشونة العيش القاسية فيهم، بإحقاق الحق والعدل بين أيديهم، مع التفاني في سبيله.

فمن طمحت نفسه إلى مراقي هؤلاء الأئمة، فواجب عليه أن يسير على المحجة التي سلكوها، ويخوض الغمرات التي خاضوها، وهي في ابتدائها لا تنفك عن شروب المشقة والكراهية والتأذي، ولكن متى أكرهت النفس عليها، وسِيقْت طائعة أو مكرهة إليها؛ صبرت على لأوائها وشدتها، واستلانت ما استوعره غير أبناء بجدتها، وأَفْضَتْ من رحلتها هذه إلى رياضٍ مؤنقة، ومقاعد صدق رفيعة متألقة، ومقام كريم، ونعيم مقيم، تجد كل لذة كانت بلغتها قبل لذة هذا المقام، مثل لذة لعب الصبي بالعصفور، بالنسبة إلى لذات الملوك وأرباب القصور، كما قال القائل:

وكنتُ أرَى أنْ قَدْ تنَاهَى بِيَ الهَوَى ... إلى غَايةٍ مَا بَعْدَها لِي مَذهبُ

فلمَّا تَلاقَيْنَا وعَايَنْتُ حُسْنَهَا ... تَيَقَّنْتُ أنِّي إنّما كُنْتُ أَلْعَبُ

- رأينا في هذه الصفحات مَنْ بدأ حياته فقيرًا معوزًا، لا يملك من الدنيا شيئًا! فما اخضرَّ عِذاره، وطَرَّ شارِبُهُ إلا وهو الإمام المقدَّم في الأمة، والمرجع الموثَّق عند الناس في دينهم وشريعتهم، وقد فُتحت عليه أبواب الخير والرزق من كل جانب.

وهذه سنة مطردة في الحياة، أنَّ من كانت بدايته محرقة، كانت نهايته مشرقة، وأن من جوَّد وأحكم ما يزاوله في أمر الدين أو أمر الدنيا نجح وأفلح، فكيف بطالب العلم الذي تضع له الملائكة أجنحتها رضاءً بما يصنع، فإنَّ عون الله لا يتخلف عنه، بل ما أسرعه منه.

- شهدنا في هذه الصفحات دروسًا في الصبر على الشدائد والمكاره والفقر والعدم والعري والضيق، فينبغي أن نتعلم منها البعد عن النفاق والتملق إذا أملقنا، فإن الله هو الرزاق ذو القوة المتين، ونتعلم منها أن الصبر على الحق والتضحية في سبيله، هي مفتاح العون الإلهي والإمداد السماوي للعالم الصالح.

- شهدنا في هذه الصفحات أن العفة عن المال من يد الحكام سبب لاستنارة البصائر، وانبساط اللسان بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ووضع القبول في الأرض، فالحلال الطيب القليل أرضى لله، وأبرك على صاحبه، وأصلح في سلوكه من الكثير المدخول.

- شهدنا من هذه الصفحات أن الذي يتعفف عن الحرام أو المشبوه مع شدة الحاجة والفقر، يُعوضه الله الطيب الطاهر الحلال، فيأكل طيبًا، ويقول طيبًا، ويجعل الله في كلامه النفع والقبول، والخير المثمر للناس، ويكون كلامه شفاء للقلوب وبلسمًا للأرواح.

- شهدنا في هذه الصفحات المفارقة الكبيرة بين حالنا اليوم وحال طلاب العلم في القديم، فقد كانوا يضربون آباط الإبل، ويقطعون الفيافي والقفار في الليالي والهواجر مشيًا على الأقدام، ويقعون في المتاعب والمهالك؛ حتى يلقوا عالمًا، أو يسمعوا محدثًا، أو يأخذوا عن فقيه، أو يتلقوا من أديب.

كل ذلك يكون منهم وهم صامتون، فلا تشهد منهم غرور المغرورين، وانتفاخ المدعين، كالذي تُبلى به من بعض الناس اليوم، وقد أوتوا من دقة العلم وكثرته وإتقانه ما يبهر الأنظار، ويخضع لعظمته ومتانته وتحقيقه واستيعابه المجدون المنصفون ذوو الألباب، فدوَّنوا كل ذلك بصمت العابد، وتواضع العالم، وأمانة الفطن الصالح الدقيق البصير، الذي لا يفرط في قير ولا قطمير.

- رأينا في هذه الصفحات كيف بلغ أولئك الأئمة الأعلام الذروة في العلم دون تشجيع يُصنع إليهم، أو مكافأة مادية تُدَرُّ عليهم، أو منزلة حكومية يرتقبونها، أو وظيفة دنيوية يتشبثون بها، إنما كان همهم وقصارى مرادهم مما ركبوا فيه الصعب والذلول؛ خدمة دينهم، وإرضاء ربهم، ونصر كتابهم، ونشر سنة نبيهم، وعلوم إسلامهم، فنالوا ما أملوه في الدنيا، ولهم عند الله تعالى من الأجر والمقام المحمود؛ ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

- شهدنا من خلال هذه الصفحات ألوان الصبر العجيب والجهود الجبارة، والعزائم الخارقة، والعقول الكبيرة المبدعة، التي شيَّدت هذه المكتبة الإسلامية التي ملأت الخافقين، مع ما ذهب منها وسوَّد ماء دجلة أيامًا طوالًا، ومع ما أحرقته محاكم التفتيش والأسبان أشهرًا كثيرة، ومع ما أتلفته أيدي المغول والتتر في عيثهم في بلاد الإسلام فسادًا.

- شهدنا من خلال هذه الصفحات، سر عظمة هذه المكتبة الإسلامية وسر سعتها، وأنها ما كانت تكون بهذه الكثرة التي لا تنقطع، لولا تلك العزائم الإيمانية، والقلوب الطاهرة، والنفوس الزكية، التي وهبت وجودها للإسلام وعلومه.

فرضوان الله تعالى على تلك الأجساد التي بنت لنا هذه الأمجاد، وأشادت بدمها ونور عيونها وشعلة عقولها، ما خضع لفضله وتفوقه كل عدو وصديق،

بارك الله في شبابنا المتعلم، وجعل فيه مَنْ يَخْلُف أولئك العلماء علمًا وعملًا وسيرة، ونشرًا للعلم وتأليفًا فيه، وذوبانًا في تحصيله، ومكن لهم نصر كلمة الحق في الأرض، لتقر بهم العيون، وتستنير بهم العقول، وتستروح بهم القلوب والأرواح، وبذلك فليفرح المؤمنون.



وبعدُ يا طلاب العلم،،

لا تنسَ أن تبحث في البلاء عن الأجر، ولا سبيل إليه إلاَّ بالصبر، ولا سبيل إلى الصبر إلاَّ بعزيمةٍ إيمانيةٍ وإرادةٍ قوية.

ولا تنسَ ذكر الله تعالى شكرًا على العطاء، وصبرًا على البلاء، وليكن ذلك إخلاصًا وخفية بينك وبين ربك.

ولا تنسَ أنَّ الله تعالى يراك، ويعلم ما بك، وأنَّه أرحم بك من نفسك ومن الناس أجمعين، فلا تشكونَّ إلاَّ إليه !. واعلم بأنَّك:

إِذَا شَكَوْتَ إِلى ابنِ آدمَ فكأنَّما ... تَشْكُو الرَّحيمَ إِلى الَّذي لا يَرْحَمُ

ولا تنسَ إذا أُصبت بأمرٍ عارضٍ، أن تحمد الله أنَّك لم تُصَب بعرضٍ أشدَّ منه، وأنَّه وإن ابتلاك فقد عافاك، وإن أخذ منك فقد أعطاك.

ولا تنسَ أنَّ ما أصابك لم يكن ليخطئك، وأنَّ ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وأنَّ عِظم الجزاء من عظم البلاء، وأنَّ لله ما أخذ وله ما أعطى، وكل شيء عنده بأجل مسمًّى، فاصبر واحتسب، ودَعْ الجزع فإنَّه لن يفيدكَ شيئًا، وإنما سيضاعف مصيبتك، ويفوِّت عليك الأجر، ويعرضك للإثم.

ولا تنسَ أنَّه مهما بلغ مصابك، فلن يبلغ مصاب الأمة جمعاء بفقد حبيبها عليه الصلاة والسلام، فتعزَّ بذلك، فقد قال ﷺ: «**إذا أصاب أحدَكم مصيبةٌ فليذكر مصيبته بي، فإنَّها من أعظم المصائب**» [رواه البيهقي، وصححه الألباني].

ولا تنسَ إذا أصابتك أيُّ مصيبةٍ أن تقول: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، اللهم آجِرْني في مصيبتي، واخلف لي خيرًا منها. فإنَّك إن قلت ذلك؛ أجارك الله في مصيبتك، وخلفها عليك بخير.

ولا تنسَ أن لا يأس من روح الله مهما بلغ بك البلاء، فإنَّ الله سبحانه يقول: ﴿ فَإِنَّ مَعَ

ﭐلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرٗا ﴾ [الشرح:٥-٦]. ولن يغلب عسرٌ يسرين، كما قال عمر الفاروق ﷺ. ثم حذارِ أن تنسى فضل الله عليك إذا عادت إليك العافية، فتكون ممن قال الله عنه: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيۡهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعۡمَةٗ مِّنۡهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدۡعُوٓاْ إِلَيۡهِ مِن قَبۡلُ ﴾ [الزمر:٨]. ثم لا تنسَ أن البلاء يذكرك بساعةٍ آتيةٍ لا مفر منها، وأجلٍ قريبٍ لا ريب فيه، وأنَّ الحياة الدنيا ليست دار مقرٍ. فاعمل لآخرتك؛ لتجد الحياة التي لا منغِّص لها.

وقبل الوداع أذكِّرك وأُبشرك بما بدأت به، وهو قول الحق جلَّ وعلا:

﴿ وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ۝١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ﴾ [البقرة:١٥٥-١٥٧].

يقول فضيلة الشيخ عائض القرني في كتابه المقامات «مقامة الفرج بعد الشدة»:

عَسَى فَرَجٌ يَكُونُ عَسَى ... نُعلِّل نفسَنَا بعسَى

فَلا تجزَعْ إذا حَمَلْتَ ... همًّا يَقْطَعُ النَّفَسَا

فَأقْربُ مَا يَكُونُ المَرْءُ ... مِنْ فَرَجٍ إذا يَئِسَا

إذا ضاق الأمر اتسع، وإذا اشتد الحبل انقطع، وإذا اشتد الظلام بدا الفجر وسطع، سنةٌ ماضية، وحكمة قاضية، فلتكن نفسك راضية، بعد الظمأ ماء وظل، وبعد القحط غيثٌ وطل، يا من بكى من ألمه، ومرضه وكده، يا من بالغت الشدائد في رده وصده، عسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده:

دَعِ المقَاديرَ تَجْري في أعِنّتِها ... ولا تَبيتَنَّ إلا خَالِي البَالِ

مَا بَيْنَ غَمْضَةِ عَيْنٍ وانْتِبَاهَتِها ... يغيِّرُ اللهُ مِنْ حالٍ إلى حَالِ

ما عرفنا لكثرة حزنك عذرَك، سهِّل أمرك، وأرِحْ فكرك، أما قرأت ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾؟، ألا تفرح، وفي عالم الأمل تسرح، وفي دنيا اليسر تمرح، وأنت تسمع ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾، يا من شكا الخطوب، وعاش وهو منكوب، ودمعه من الحزن مسكوب، في قميص يوسف دواء عيني يعقوب، وفي المغتسل البارد شفاء لمرض أيوب.

الغمَراتُ ثُمَّ يَنْجَلِينَا ثُمَّةَ يَذْهبنَا وَلا يَجِينَا

للمرض شفاء، وللعلة دواء، وللظمأ ماء، وللشدة رخاء، وبعد الضراء سراء، وبعد الظلام ضياء، نار الخليل تصبح باليسر كالظل الظليل، والبحر أمام موسى يفتح السبيل، ويونس بن متَّى يخرج من الظلمات بلطف الجليل.

المختار في الغار أحاط به الكفار، فقال الصديق: هم على مسافة أشبار، ونخشى من الدمار، فقال الواثق بالقهار: إن الله معنا، وهو يسمعنا ويحمينا كما جمعنا.

هِيَ الأيَّامُ والغيَرُ وأَمْرُ اللهِ يَنْتظرُ

أَتَيْأَسُ أنْ تَرَى فرجًا فَأَيْنَ اللهُ والقَدَرُ

قل لمن في حضيض اليأس سقطوا، وعلى الشؤم هبطوا، وفي مسألة القدر غلطوا، اعلموا أنها ينزل الغيث من بعد ما قنطوا، كان بلال يُسْحَب على الرمضاء، ثم رُفع على الكعبة لرفع النداء، وإسماع الأرض صوت السماء، كان يوسف مسجونًا في الدهليز، ثم مَلك مصر بعد العزيز، كان عمر يرعى الغنم في مكة، ثم نشر بالعدل مُلكه، وطبعت باسمه السَّكة، وهو الذي قطَّع حبل الجور وفكَّه، وسحق صرح الطغيان ودكَّه.

يا من داهمته الأحزان، وبات وهو سهران، وأصبح وهو حيران، ألم تعلم أنه في كل يوم له شأن، يا من هَدَّهُ الهم وأضناه، وأقلقه الكرب وأشقاه، وزلزله الخطب وأبكاهن، أنسيت مَنْ يجيب المضطر إذا دعاه.

إذا اشْـتَملتْ علَــى اليــأسِ القلــوبُ وضــاقَ بمَــا بــهِ الــصَّدرُ الرَّحيــبُ
وأَوْطَنَــتِ المَكــارهُ واطْمأنَّــتْ وأَرْسَــتْ في أماكِنِهَــا الخُطُــوبُ
ولم تَــرَ لانكــشَافِ الــضُّرِّ نفعًــا ومَــا أَجْــدَى بحيلتِــهِ الأريــبُ
أتــاك علَــى قُنُــوطٍ مِنْــك غَــوثٌ يَمُــنُّ بــهِ اللَّطيــفُ المُــسْتجيبُ
وكــلُّ الحَادِثَــاتِ وإنْ تَنَاهَــتْ فموصُــولٌ بهَــا فَــرَجٌ قَرِيــبُ

سيجعل الله بعد عسر يسرًا، ولا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمرًا، سينكسر قيد المحبوسين في زنزانات المتجبرين، وسيسقط سوط الجلادين، الذي قطعوا به جلود المعذَّبين، وسيمسح دمع اليتامى، وتهدأ أنات الأيامى، وتسكن صرخات الثكالى.

هل رأيت فقيرًا في الفقر أبدًا، هل أبصرت محبوسًا في القيد سرمدًا، لن يدوم الضر؛ لأن هناك أحدًا فردًا صمدًا.

أيُّهَــا البَــائِس مُــتْ قبــلَ المَمَــاتِ أوْ إذا شِــئْتَ حَيَــاةً فالرَّجَــا
لَا يَــضُقْ ذَرْعُــك عِنْــدَ الأزمــاتِ إنْ هِــيَ اشْــتدَّتْ فأمِّــل فُرَجَــا

مَنْ أكثر مِنْ الاستغفار جعل الله له من كل ضيق مخرجًا، ومن كل همٍّ فرجًا، فبـ «لا حول ولا قوة إلا بالله» تُحمَل الأثقال، وتسهل الأهوال، وتصلح الأحوال، ويشرح البال، ويرضى ذو الجلال.

بَشِّر الليل بصُبْح صادق يطارده على رءوس الجبال، وبَشِّر القحط بماء زلال، يلاحقه في أعماق الرمال، وبشِّر الفقير بمال يزيل عنه الإملاق والإمحال.

لا تَيْــأسْ عنــد النُّــوَبِ مِــنْ فُرْجَــةٍ تَجْلُــو الكُــرَبِ
واصْــبِرْ إذا مَــا نَــابَ خَطْــبٌ فالزَّمَــانُ أبُــو العَجَــبِ

واعلم أنَّ لكل شدة مدة، وأنه على قدر المؤونة تنزل المعونة، وأن الله يستخرج البلاء، بصادق الدعاء، وخالص الرجاء، واعلم أن في الشدائد إذابة الكِبر، واستدرار الذكر، وجلب الشكر، وتنبيه الفكر.

فارحل بقلبك إذا الهم برك، واشرح صدرك عند ضيق المعترك، ولا تأسف على ما مضى ومن هلك، فليس بالهموم عليًا درك، واعلم أنه لا يدوم شيء مع دوران الفلك، وعسى أن تكون الشدة أرفق بك، والمصيبة خير لك، فإذا ضاقت بك السبل، وانقطعت بك الحيل، فالجأ إلى الله عَزَّ وَجَلَّ.

واعلم أن الشدائد ليست مستديمة، ولا تبقى برحابك مقيمة، ولعل الله ينظر إليك نظرة رحيمة، والدنيا أحوال، وألوان وأشكال، ولن تدوم عليك الأهوال، فسوف تفتح الأقفال، وتوضع الأغلال، واصبر وانتظر من الله الفرج، فكأنك بليل الشدة قد انبلج:

لا تَعْجلَنَّ فرُبَّمَا عَجِلَ الفَتَى فيمَا يَضُرُّهْ
فَالعَيْشُ أحْلاهُ يَعُودُ عَلَى حَلاوتِهِ بِمُرَّهْ
وَلَرُبَّمَا كَرِهَ الفَتَى أَمْرًا عَوَاقِبُه تَسُرُّهْ

واعلم أن الشدائد تفتح الأسماع والأبصار، وتشحذ الأفكار، وتجلب الاعتبار، وتعلم التحمل والاصطبار، وتذيب الخطايا، وتعظم بها العطايا، وهي للأجر مطايا، فاطلب من الله الرعاية، واسأله العناية، فلكل مصيبةٍ غاية، ولكل بليةٍ نهاية، كم من مرةٍ خفْنا، فدعونا ربنا وهتفنا، فأنقذنا وأسعفنا، وكم مرة جُعنا ثم أطعمنا ربنا وأشبعنا، وكم مرة زارنا الهمُّ، وبرح بنا الغم، ثم عاد سرورنا وتمَّ، كم مرة وقعنا في الشباك، وأوشكنا على الهلاك، ثم كان من الله الانطلاق والانفكاك، أنت تتعامل مع لطيف بعباده، معروف بإمداده، جواد في إسعاده، غالب على مراده، فَلُذْ به ونَادِهِ، إذا داهمتك الشدائد السود، وحلت بك الهموم، وأظلم

أمامك الوجود، فعليك بالسجود، ونادِ: يا معبود، يا ذا الجود، أنت الرحيم الودود، لترى الفرج والنصر والسعود:

لَطَائِفُ اللهِ وإنْ طَالَ المَدَى كَلَمْحَةِ الطَّرْفِ إذا الطَّرْفُ سَجَى
كَمْ فَرَجٍ بَعْدَ إياسٍ قَدْ أَتَى وكَمْ سُرُورٍ قَدْ أَتَى بَعْدَ الأَسَى

أيها الإنسان! في آخر النفق مصباح، ولِباب الهموم مفتاح، وبعد الليل صباح، وكم هبت للقانط من الفرج رياح، أيها الظمآن! وراء هذا الجبل ماء، أيها المريض! في هذه القارورة دواء، أيها المسجون! انظر إلى السماء، أيها المتشائم! أمسك حبل الرجاء.

كنْ كالنملة في صعود وهبوط، وعلو وسقوط، ولا تعرف اليأس ولا القنوط، ولا تعترف بالإحباط في كل شوط، كُنْ كالنحلة في طلب رزقها قائمة، وفي حسن ظنها دائمة، وعلى الزهور حائمة، وفوق الروض عائمة، وليست مع اليأس نائمة، كُنْ كالهدهد، مع كل صباح ينشد، ومع الربيع يتجدد، وعلى بلقيس يتردد، وسليمان له تفقد، فأسلم لربه ووحَّد، وأنكر على مَنْ كفر وألحد، فنال المجد المخلَّد والذِّكْر المؤبد.

أيُّهَا المُشْتَكِي ومَا بِكَ داءٌ كَيْفَ تَغْدُو إذا غَدَوتَ عليلاَ
أتَرَى الشَّوْك في الوُرودِ وتَعْمَى أنْ تَرَى فَوْقَه النَّدَى إِكْليلاَ
والَّذِي نَفْسه بغيرِ جَمَالٍ لا يَرَى في الوُجودِ شَيْئًا جَمِيلاَ

على رؤوس الجبال شمس الفرح شارقة، وعلى مشارف التلال هالة من النور بارقة، وعلى كل باب للحزن من السرور طارقة.

افتح عينيك، ارفع يديك، لا تساعد الهم عليك، ولا تدعو اليأس إليك.

السمك والقرش، والطيور والطرش، كلها ترجو رب العرش، فاتجه أنت إليه، واشكُ

الحال عليه، فإن فرجه أسرع من البرق الخاطف، وله في كل لحظة لطائف.

اللهم اصرف عنا المصائب، ورُدَّ عنا النوائب، وكُفَّ عنا كَفَّ المعائب، اللهم سهِّل الحَزُون، وهوِّن المنون، وأشبع البطون، وافتح للمضطهدين أبواب السجون، واجعل الخائفين من أمنك في حصون، اللهم احلل الحبال المعقدة، وسهِّل الأمور المشددة، واستكف السحب الملبدة، وأجب سهام الليل المسددة، اللهم اجعل لليل همومنا صباح من الفرج يشرق، ولظمأ أكبادنا نهر من الأمل يتدفق، ولجراح مآسينا يد بالشفاء ترفق، اللهم أغننا عن الناس، وارزقنا مما في أيديهم اليأس، ورد عنا البأس، واجعل التقوى لنا أجمل لباس، وأقوى أساس.

لك الحمد حتى يُملأ طباق الغبراء، وأجواء السماء، ولك الثناء حتى تشدو به الأطيار، وتميل به الأزهار، ويحمله الليل والنهار، ولك المجد يا ذا الجود، ما قام الوجود، وسال الماء في العود، ونصب للحياة عمود.

هل يرجى سواك، هل يعبد إلا إياك، هنيئًا لمن دعاك، وطوبى لمن ناجاك، والصلاة والسلام على عبدك ومصطفاك وحامل هداك.

وأخيرًا، أسأل الله أن يجعلنا جميعًا من الصابرين على البلاء، الشاكرين في النعماء، وأن يجعل من عملنا هذا خالصًا لوجهه الكريم.

وصلى الله على نبيه محمد وعلى آله وصحبه وسلم

وكتبه

نبيل بن محمد محمود

المصادر والمراجع

- الفوائد لابن القيم الجوزية.
- زاد المعاد لابن القيم الجوزية.
- فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني.
- في ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب.
- سير أعلام النبلاء للإمام شمس الدين الذهبي.
- الإسلام بين العلماء والحكام لعبد العظيم بدوي.
- تاريخ بغداد لأبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي.
- تهذيب الأسماء واللغات لأبي زكريا محيي الدين بن شرف النووي.
- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبي نعيم الأصفهاني.
- صفة الصفوة لابن الجوزي.
- الفرج بعد الشدة للقاضي التنوخي.
- المعارف لابن قتيبة الدينوري.
- علماء في وجه الطغيان للدكتور محمد رجب البيومي.

إمام المفسرين والمحدثين والمؤرخين الطبري لمؤلفه علي الشبل.

- التاريخ الكبير للحافظ ابن عساكر.
- الطبقات الكبرى لابن سعد.
- صور من حياة التابعين لعبد الرحمن رأفت الباشا.
- روائع من التاريخ العثماني لأورخان محمد علي.
- الدولة العثمانية للدكتور محمد علي الصلابي.
- حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر للشيخ عبد الرازق البيطار.
- النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين للدكتور محمد رجب البيومي.

- تاريخ انتشار الإسلام في غرب إفريقيا عبد الرحمن زكى.
- تاريخ الإسلام في غرب إفريقيا إبراهيم طرخان.
- مقالات بجريدة المسلمون للأستاذ أبو الحسن الندوي.
- مواقف العلماء أمام الحكام والولاة للدكتور عبد الرحمن عميرة.
- الدعاة والدعوة الإسلامية المعاصرة للدكتور محمد حسن الحمصي.
- ابن باديس الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائرية لمؤلفه محمود قاسم.
- شيوخ الأزهر لسعيد عبد الرحمن.
- سيرة الإمام العلامة سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم لمؤلفه صالح آل الشيخ.
- ترجمة حياة الشيخ محمد بن إبراهيم لفضيلة الشيخ محمد بن قاسم.
- مجلة المنار العدد ٧٩، صفر ١٤٢٥هـ.
- الشيخ عز الدين القسام قائد حركة وشهيد قضية، حسني جرّار.
- موسوعة السياسة د. عبد الوهاب الكيالي وآخرون.
- عمر المختار ضحية الاستعمار الوحشي لمحمود شلبي.
- كتاب الثورة الجزائرية لأحمد الخطيب.
- سيد قطب من القرية للمشنقة لعادل حمودة.
- الشيخ أحمد ياسين، برنامج شاهد على العصر.
- الشيخ المجاهد أحمد ياسين، المركز الفلسطيني للإعلام.
- الألباني وآثاره وثناء العلماء عليه، للشيخ محمد بن إبراهيم الشيباني.
- قصة أيامي، مذكرات الشيخ عبد الحميد كشك.
- مقدمة كتاب مجموع فتاوى الشيخ عبد العزيز بن باز.
- صفحات من صبر العلماء لعبد الفتاح غدة.
- الكفاية في علم الرواية. للخطيب البغدادي.

- البداية والنهاية للحافظ ابن كثير.
- المحدث الفاصل بين الراوي والواعي.
- سنن الدارمي.
- تاريخ الإسلام للذهبي.
- ترتيب المدارك للقاضي عياض.
- مناقب الإمام أحمد. لابن الجوزي.
- طبقات الحنابلة. للقاضي ابن أبي يعلى.
- معجم الأدباء. لياقوت الحوي.
- الأدب المفرد للبخاري.
- مقدمة الجرح والتعديل. لابن أبي حاتم الرازي.
- عالم الإيمان في معرفة أهل القيروان. لابن الدباغ أبو القاسم التنوخي.
- تذكرة الحفاظ للذهبي.
- ذيل طبقات الحنابلة. للحافظ ابن رجب.
- صيد الخاطر لابن الجوزي.
- تهذيب التهذيب. لابن حجر العسقلاني.
- طبقات الشافعية للإمام السبكي.
- المقامات للشيخ عائض القرني.
- مختار الصحاح. للرازي.
- لسان العرب. لابن منظور.
- الإمام الشافعي لأبي زهرة.
- أبو حنيفة لأبي زهرة.
- المناقب. للموفق بن أحمد المكي الخوارزمي.

- أئمة الفقه التسعة. لعبد الرحمن الشرقاوي.
- وفيات الأعيان لابن خلكان.
- تاج العروس. للزبيدي.
- اتق دعوة المظلوم لسعد الحجري.
- مشايخ ضد السلطة والسلطان للدكتور إسماعيل إبراهيم.
- جعفر الصادق لسعد القاضي.
- التفسير والمفسرون لمحمد حسين الذهبي.
- النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين - محمد رجب البيومي.
- الآلوسي لعباس العزاوي.
- الآلوسيون موسوعة الحضارة الإسلامية – محمد بهجة الأثري .
- شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي.
- مناهج العلماء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لفاروق السامرائي.
- حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة جلال الدين السيوطي.
- جلال الدين السيوطي لمصطفى الشكعة.
- الحافظ جلال الدين السيوطي لعبد الحفيظ فرغلي القرني.
- مؤرخو مصر الإسلامية لمحمد عبد الله عنان.
- العقد الفريد لابن عبد ربه.
- مواعظ ومواقف للعلماء والصالحين أمام الحكام والسلاطين.
- وفيات الأعيان لابن خلكان.
- أبو بكر الطرطوشي لجمال الدين الشيال .
- من مواقف العلماء لأحمد رضوان الخير.
- تراجم شرقية وأندلسية لمحمد عبد الله عنان .

- موسوعة هذا الرجل من مصر للمعي المطيعي.
- رجال من التاريخ لعلي الطنطاوي.
- إنباه الرواه عن أنباء النحاه للإمام القفطي.
- الضوء اللامع للسخاوي.
- الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام لعبد الحي الندوي.
- حماة الإسلام لمصطفى نجيب بك.
- لا تحزن للشيخ الدكتور عائض القرني.
- المقامات. للشيخ عائض القرني.

مواقع الإنترنت المنوعة:

- موقع الإسلام أون لاين.
- موقع الإسلام اليوم.
- موقع صيد الفوائد.
- موقع مفكرة الإسلام.
- موقع طريق الإيمان.
- موقع الشبكة الإسلامية.
- موقع علماء الإسلام.
- موقع أخوات أون لاين.
- موقع الشيخ الألباني.
- موقع طريق الإسلام.
- موقع قراء القرآن.
- موقع طريق السلف.

- شبكة سحاب السلفية.
- موقع علماء المسلمين.
- موقع علماء السلف.
- موقع المجلة العربية.
- موقع السلفيين.
- موقع الشيخ ابن عثيمين.
- موقع مكتوب، صوت القرآن الحكيم.
- شبكة الفلق الثقافية.
- منتدى الساحة السعودي.
- موقع الدين النصيحة.
- موقع علماء الأمة.
- منتدى دهر.

❁ ❁ ❁

فهرس

تم بحمد الله